كارلوس زافون
لعبة الملاك
ترجمة
معاوية عبد المجيد
منشورات الجمل
رواية
نسخة منقحة
Telegram Network

https://linktr.ee/books4ar

كارلوس زافون: **لعبة الملاك**، رواية

كارلوس زافون

لعبة الملاك

رواية

ترجمة: معاوية عبد المجيد

منشورات الجمل

كارلوس زافون: **لعبة الملاك**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: معاوية عبد المجيد
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد 2017
تلفون وفاكس: 00961 1 353304
ص.ب: 5438/113 – بيروت – لبنان

EL JUEGO DEL ÁNGEL :Carlos Ruiz Zafón
Dragonworks S.L. 2008©

2017 *Al-Kamel Verlag* ©
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. – Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى ماريكارمن

«أمّةٌ في شخصين»

مقبرة الكتب المنسية

يشكّل هذا الكتاب جزءًا من سلسلةٍ روائيّةٍ، ترتكز على «مقبرة الكتب المنسية» كثيمةٍ أدبيّة أساسيّة. ترتبط هذه الروايات بعضها ببعض عبْر الشخصيّات والمواضيع المتعددة؛ إلاّ أنّ كلّ رواية منها مستقلّة عن الأخرى ومكتفية بذاتها.

لذا ننوّه بإمكانيّة قراءة روايات السلسلة بغضّ النظر عن تسلسلها، ما يسمح للقارئ باكتشاف هذه المتاهة وولوج ألغازها من أبواب ومسالك مختلفة تقوده عمومًا إلى قلب الحكاية.

الفصل الأول
مدينة الملاعين

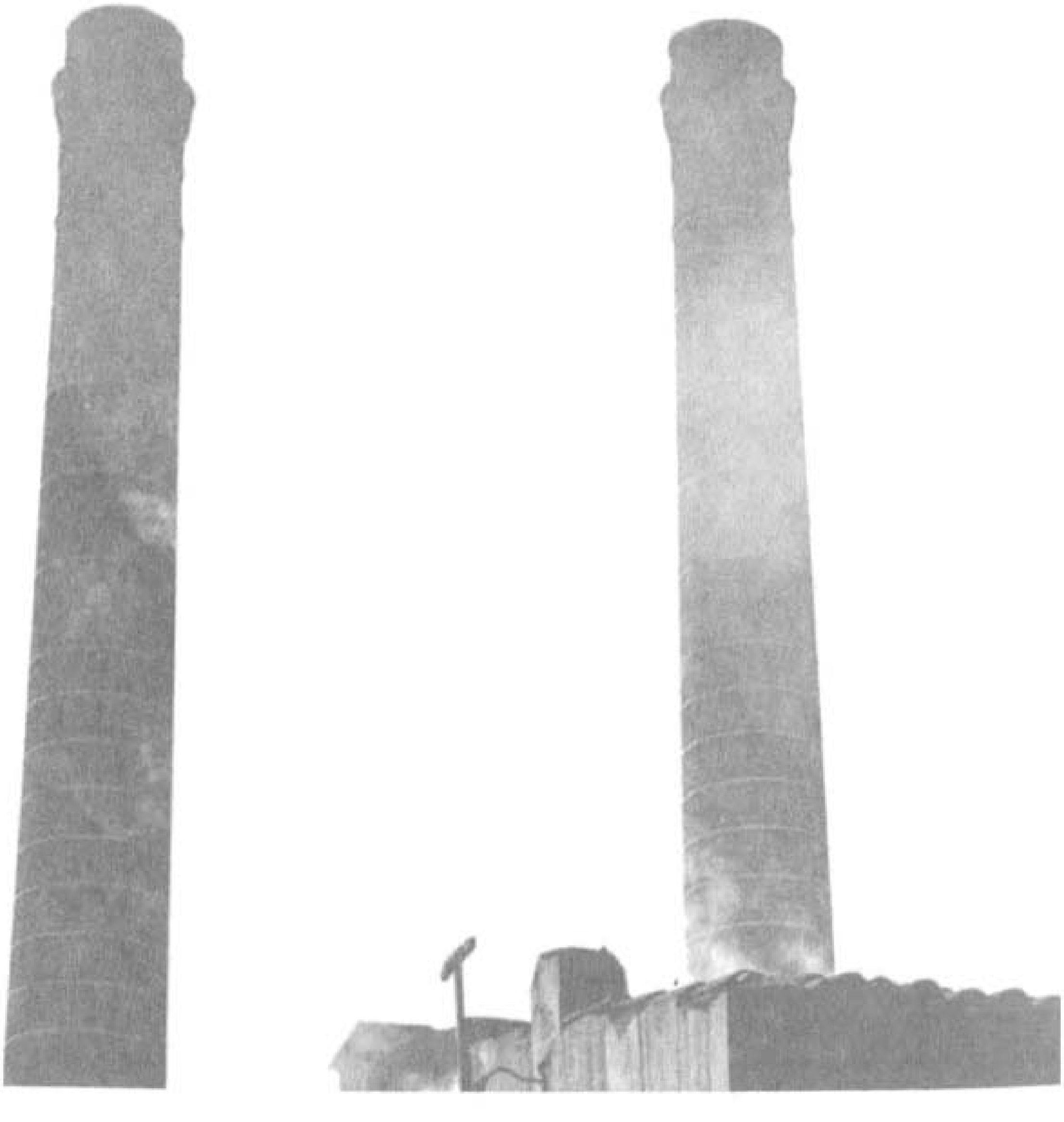

1

الكاتبُ لا ينسى أوّل مرّةٍ يحصل فيها على نقودٍ أو ثناءٍ مقابل قصّةٍ ألّفها. لا ينسى أبدًا أوّل مرّةٍ يشعر فيها بسمّ الغرور العذب يسري في دمائه؛ فيحسَب أنّه قادرٌ على إخفاء انعدام موهبته عن الجميع، وأنّ حلمَه الأدبيّ سيؤمّن له سقفًا فوق رأسه، وطبقًا ساخنًا في آخر النهار، وأشدّ ما يرغب فيه على الإطلاق: أن يرى اسمه مطبوعًا على غلافٍ ورقيٍّ بائس، سيعمّر أكثر منه بلا شكّ. الكاتب محكومٌ بعدم نسيان تلك اللحظة، لأنها تتلاشى في أوانها ويصبح لروحه ثمنٌ ما.

بالنسبة إليّ، كانت «المرّة الأولى» في يومٍ بعيد من شهر ديسمبر عام 1917. كان عمري سبعة عشر عامًا وأعمل في «صوت الصناعة»، وهي جريدةٌ متهالكة يقع مقرّها في مبنىً مليء بالسراديب إذ كان من قبل مصنعًا للأسيد الكبريتيّ؛ وما زال ذلك البخار يفوح من جدرانه حتى أفسد الأثاث والثياب والأرواح، بل وحتى أسفل الأحذية. كان مقرّ الجريدة ينهض خلف مقبرة بوبيلو نويفو، التي تبدو كغابةٍ من الملائكة والصلبان؛ حتّى إنّ واجهة المقرّ، إذا نظرتَ إليها من مسافة بعيدة، اختلطت عليك بشواهد القبور العائليّة المنثورة على امتداد أفقٍ تتغلغل فيه مئات المداخن والأبنية التي تتكاثف في منظرٍ لغروبٍ أبديٍّ، أسود وقرمزيّ، فوق برشلونة.

في المساء الذي تغيّرت فيه حياتي، استدعاني مدير التحرير، الدون ڤاسيليو موراغاس، قُبيل الإغلاق، إلى مكتبه الشبيه بقبرٍ مظلم، الواقع في آخر المبنى، حيث يدخّن لفائف السيجار بشراهة. كان للدون ڤاسيليو مظهرٌ جارح وشاربٌ يانع؛ يفعل ما يطيب له، ويتبنّى نظريةً تفترض أنّ الاستخدام المفرط للظروف والصفات أمرٌ يناسب المنحرفين جنسيًّا أو مَن يشكو نقصًا في الفيتامينات. إن صادف محرّرًا ميّالاً إلى النثر المزوّق، كلّفه بإعداد زاوية الوفيّات لثلاثة أسابيع. وإن عادت إليه هذه الظاهرة، بعد عملية التطهير، أرسله الدون ڤاسيليو إلى صفحات الأعمال المنزليّة ليبقى فيها إلى الأبد. كان جميع الموظّفين يهابون جانبه وهو على علمٍ بذلك.

- هل استدعيتني يا دون ڤاسيليو؟ - أطللتُ برأسي على استحياء.

نظر إليّ بعينين مواربتين. دخلتُ إلى مكتبه الذي تنبعث منه رائحة العَرَق قبل التبغ. تجاهل الدون ڤاسيليو حضوري وتابع مراجعة إحدى المقالات التي كانت على منضدته، وبيده قلم رصاص أحمر. وفي غضون دقيقتين، ملأ النصّ بإشارات الحذف والتصحيح، وهو يهمهم بألفاظ نابية كأنّي لست موجودًا أمامه. وحين احترتُ بما ينبغي فعله، لاحظتُ وجود كرسيّ مسنود إلى الحائط فجلست عليه.

- من سمح لك بالجلوس؟ - غمغم الدون ڤاسيليو دون أن تحيد أنظاره عن النصّ.

فانتفضتُ واقفًا وحبستُ أنفاسي. تنهّد مدير التحرير، وسقط القلم الأحمر من يده، وعدّل جلسته على المقعد كي يفحصني كما لو كنتُ أداةً لا فائدة تُرجى من ورائها.

- قالوا لي إنّك تكتب يا مارتين.

مضغتُ ريقًا، وحين فتحتُ فمي خرج صوتي هشًّا ومضحكًا.

- بعض الشيء، حسنًا، لا أعرف، أقصد أنّي، أجل، أنا أكتب...

- إنّي واثقٌ من أنّك - تكتب أفضل ممّا تتكلّم. وماذا تكتب، إن سمحتَ لي بالسؤال؟

- قصص بوليسيّة. أعني...

- وصلت الفكرة.

رمقني الدون ڤاسيليو بنظرةٍ فتّاكة. ولو قلت له إنّي أصنّع تماثيل صغيرة من الروث الطريّ، تجسّد ولادة المسيح، لاستطعتُ أن أولّد فيه ضعف ذلك الحماس. تنهّد مجددًا وعبّر عن عدم اهتمامه.

- ڤيذال يقول إنك شابّ واعدٌ ولا بأس بموهبتك. بالطبع، لا ينبغي أن تبذل جهدًا كبيرًا في ظلّ المنافسة المتدنيّة في هذه الأنحاء. لكنّ رأي ڤيذال محلّ ثقة.

كان پيدرو ڤيذال أبرز قلم في «صوت الصناعة»؛ وكانت زاويته الأسبوعيّة، التي تعلّق على الحوادث، هي الوحيدة التي تستحقّ عناء القراءة في الصحيفة كلّها. مؤلّفٌ لعدد من روايات المغامرة التي حصدت شعبيةً متواضعة، وترتكز على حياة المجرمين من حيّ الراڤال - الضاحية الخامسة - وقد نسجوا مكائد غرامية لسيّداتٍ من الطبقة العليا. كان رجلاً في غاية الأناقة، لا يرتدي إلا البزّات الرسميّة الحريريّة وأحذية الموكاسيني الإيطاليّة الفاخرة. له مظهرٌ وتصرّفاتٌ توحي بأنه ممثّلٌ استعراضيّ، وشعره الأشقر دائم التصفيف واللمعان، وشاربه ناعمٌ فوق ابتسامته السخيّة التي تدلّ على أنّه ميسور الحال، يعيش الحياة كما ينبغي. تنحدر سلالته من الهنود الحُمر، الذين حالفهم الحظّ في الأمريكيّتين بتجارة السكّر؛ وإبّان عودتهم، انقضّوا بأسنانهم على الكعكة الشهيّة: مشروع توصيل الكهرباء إلى المدينة. كان والده عرّاب الأسرة، وأحد أبرز أصحاب الأسهم في الجريدة، ولهذا اعتاد الدون پيدرو استخدام مقرّها كصالة ألعابٍ يقضي فيها على الملل الناجم عن عدم اضطراره للعمل ولو ليومٍ واحدٍ في حياته كلّها. لم يكن يهتمّ بأمر الجريدة التي تخسر يوميًا بقدْر كميّة الوقود الذي ينفقه على سياراته الحديثة التي تجول في برشلونة. إذ كان آل ڤيذال، وقد تضخّمت ألقابهم النبيلة حينها، يسعون إلى بسط نفوذهم على المصارف والأراضي الواسعة في منطقة إينسانش، ليصبحوا أشبه بأسياد إمارة صغيرة.

وكان پيدرو أوّل من قرأ مسوّداتي التي كتبتها في طفولتي حين كنت أعمل في حمل القهوة والسجائر إلى المحررين في الجريدة. ولطالما وجد وقتًا يفرّغه لي ولقراءة نصوصي ومنحي بعض النصائح المفيدة. وشيئًا فشيئًا، عيّنني مساعِدًا لديه وسمح لي بتنضيد نصوصه على الآلة الكاتبة. وهو الذي أبدى استعداده لإرشاد خطواتي الأولى،

إن أردتُ أن أجرّب حظّي في عالم الأدب؛ فوفى بوعده وها قد رماني بين مخالب الدون ڤاسيليو، العقل المدبّر في الصحيفة.

- ڤيذال عاطفيٌّ ما يزال يؤمن بخرافات مناقضة كليًّا لثقافتنا الإسبانية، كإحالة الأمور لأهل الاختصاص أو منح الفرص لمن يستحقّها وليس لمن يأتي دوره في المحسوبيّات. يحقّ له أن يتصرّف كشاعر يهيم في أرجاء الأرض طالما أنّه مُترَفٌ حتّى البذخ. لو كان عندي واحد بالمائة مما يتبقّى لديه من نقود، لانكببتُ على كتابة الأشعار، ولجعلتُ العصافيرَ تأكل من يدي، وهي مسحورة من طيبتي وفتنتي.

- السيد ڤيذال رجلٌ عظيم - احتججتُ.

- بل أكثر من ذلك. إنّه قدّيس لأنّه، ورغم وجهك الذي يعبّر عن أقسى مظاهر المجاعة، ما لبث يصدّع رأسي منذ أسابيع وهو يكرّر على مسامعي: يا لطفل الجريدة المدلل كم هو نشيط وموهوب. إنّه يعلم أنّي أتناسى أحيانًا، لكنّه وعدني بهديّة فاخرة إذا ما سمحتُ لك بالفرصة، علبة من سيجار الكوييبا. وإنّ كلام ڤيذال منزّلٌ بالنسبة إليّ، كما لو هبط موسى من أعلى الجبل، حاملاً اللوح الحجري بين يديه، والحقيقة الساطعة تلوح فوق رأسه. لذا، ختامًا، ولأنّنا في موسم أعياد الميلاد، وكي يكفّ صديقك عن الإلحاح، سأمنحك فرصة البداية كالأبطال: في وجه الريح والأمواج العاتية.

- شكرًا جزيلاً يا دون ڤاسيليو. أعدك بأنّك لن تندم على...

- لا تندفعْ يا فتى. دعني أمتحنك. ما رأيك بالاستخدام المفرط، وغير المدروس، للصفات والظروف؟

- إنه عارٌ لابدّ أن يعاقِب عليه القانونُ الجزائيّ - أجبتُ بقناعة المناضل التائب.

هزّ الدون ڤاسيليو رأسه مستحسنًا إجابتي.

- حسنًا يا مارتين، الأولويات عندك في محلّها. في مهنة الصحافة، يصمد مَن لديه أولويّات وليس مبادئ. سأطلعك على الخطة. اجلس واصغ جيدًا لأنّي لن أعيد كلامي مرّتين.

كانت الخطة على الشكل التالي: نظرًا إلى أسباب لا يرى الدون ڤاسيليو ضرورة للتعمق فيها، فإنّ الصفحة الخلفيّة لعدد يوم الأحد كانت عرضةً للفراغ في اللحظة الأخيرة. وقد جرت العادة أن تُختم الصحيفة بقصّةٍ أو تقرير عن رحلة ما. وكان من المفترض أن ينشروا قصة محشوّة بالقيم الوطنيّة والطابع الغنائيّ المبتذل، تتحدّث عن مساعي المغاوير الاسبان لإنقاذ الديانة المسيحيّة، بين شيء وآخر، وكلّ ما هو جديرٌ بالبقاء تحت السماء، بدءًا من الأرض المقدسة وانتهاءً بدلتا يوبريغات. ومع الأسف، لم يصل النصّ في موعده؛ أو ربّما لم يشأ الدون ڤاسيليو نشره، بحسب تكهّناتي. ولم يعثروا على بدائل، قبل ستّ ساعات من الإغلاق، تحلّ مكان القصّة، سوى إعلانٍ على صفحة كاملة لزيّ الكورسيه الذي يضمن للنساء أردافًا مثاليّة ويخفي بدانتهنّ. ولمواجهة هذا المأزق، ارتأت الإدارة أنّه لا بدّ من التماس المميّزين واستنفار المواهب الأدبية المخبّأة في الصحيفة، بهدف ملء الفراغ ونشر مقالٍ، من

أربعة أعمدة، ذي طابع إنسانيّ يؤمّن التسلية لجمهورنا الودود والمحدود. وكانت لائحة المواهب المختارة مكوّنة من عشرة أسماء، ولم يكن اسمي من بينها طبعًا.

- مارتين يا صديقي. تآمرت علينا الظروف ولم نجد أيًّا من فرسان الجريدة على مسافة قريبة منّا بوسعه أن ينجز شيئًا خلال هذا الهامش الضيّق من الوقت. وأمام هذه المصيبة الوشيكة، قررتُ أن أمنحك الشرف.

- ثق بي يا سيّدي.

- أنا أثق بخمس صفحات مكوّنة من فراغات مزدوجة خلال ستّ ساعات يا سيد إدغار آلان بو. أريد قصة وليس خطابًا. لو أردتُ عظة ما، لذهبتُ إلى خطبة منتصف الليل في الكنيسة. آتني بقصةٍ لم أقرأها من قبل، وإن كنتُ قد قرأتُ مثلها، فأريدها مكتوبة ومسرودة بشكلٍ لا يجعلني أفطن إلى ذلك.

كنت على وشك الخروج فإذا به ينهض ويستدير من خلف منضدته ليحطّ يده، الضخمة كالسندان، على كتفي. وحينها فقط، اكتشفتُ أنّ عينيه تبتسمان، إذ رأيتهما عن قرب.

- إذا كانت القصة موفّقة دفعتُ لك مقابلها عشرة بيسيتا. وإذا كانت أكثر من موفّقة وأعجبت القرّاء، نشرتُ لك قصصًا أخرى.

- هل من توصية معيّنة يا دون ڤاسيليو؟ - سألت.

- أجل، لا تخيّبْ آمالي.

قضّيتُ الستّ ساعات اللاحقة في حالة نشوة صوفيّة. هيّأتُ نفسي على المنضدة في قلب القاعة المركزية، المنضدة المخصّصة لڤيذال عندما يطيب له المجيء إلى المكتب لقضاء الوقت. كانت القاعة مقفرة وغارقة في ظلام منسوج من دخان عشرات آلاف السجائر. أغمضتُ عينيّ لحظةً واستحضرتُ صورة ما: سحبٌ سوداءٌ متلبّدة، تهبط على المدينة كالأمطار، ورجلٌ يسير باحثًا عن ظلالٍ خفيّة ويداه ملطّختان بالدماء، وثمّة سرٌّ ما يلوح في نظراته. لم أكن أعرف من يكون ومن أين يأتي هاربًا، لكنّه بات صديقي المفضّل خلال الستّ الساعات اللاحقة. أدخلتُ ورقة في الاسطوانة، وشرعتُ أعصر أساريري دون أن أسمح لنفسي ولو بهدنة قصيرة. صارعتُ الكلمات والجُمل والاستعارات والتعابير، حرفًا حرفًا، كأنّها آخر ما أنشد كتابته. كتبتُ وكتبتُ سطورًا كما لو كانت تمضي من عمري، ثم كتبتها مجددًا. كان صاحبي الوحيد صدى الآلة الكاتبة التي تطقطق دون كللٍ أو ملل في القاعة المظلمة، إضافةً إلى دقّات ساعة الحائط الضخمة التي تبتلع الدقائق المتبقيّة حتى بزوغ الفجر.

قبل السادسة صباحًا بقليل، سحبتُ الورقة الأخيرة من الاسطوانة والتقطتُ أنفاسي المنهكة، وشعرتُ بأنّ رأسي بات عشًّا للدبابير. سمعتُ خطى الدون ڤاسيليو المتثاقلة تتقدم ببطء، بعد أن اصطادته اليقظة من نومه القرير والمنتظم، وكان يقترب بحذر. أخذتُ الأوراق وأعطيتها له دون أن أجرأ على النظر إلى عينيه. جلس الدون ڤاسيليو إلى المنضدة المجاورة وأشعل القنديل. وانزلقت عيناه على طول النصّ وعرضه دون أن تدليا بأيّ انطباع. ثم وضع السيجارة لحظة على حافة المنضدة، ونظر إليّ وهو يقرأ السطر الأول بصوتٍ جهير.

- «يهبط الليل على المدينة، وتفوح رائحةُ البارود في الشوارع، كأنّها أنفاس لعنةٍ ما.»

نظر إليّ بعينين مواربتين فاختبأتُ خلف ابتسامةٍ لا تظهر أيّ سنّ من أسناني. ودون أن يضيف شيئًا، نهض وانطلق، وقصّتي أسيرةٌ بين يديه. رأيته يبتعد نحو مكتبه ويغلق الباب وراءه. بقيتُ متسمّرًا، ومترددًا في ما ينبغي فعله: هل ألوذ بالفرار أم أنتظر الحكم بالإعدام. بعد عشر دقائق بدت لي عشرة أعوام طويلة، فُتح باب المكتب ودوّى صوته في مقرّ الصحيفة كلّه.

- هلاّ أتيت يا مارتين؟

جرجرتُ نفسي ببطء عسير، مقلّصًا الخطوة سنتمترًا قياسًا بسابقتها، حتى لم يعد أمامي خيار سوى الوقوف على عتبة مكتبه ورفع أبصاري. كان الدون ڤاسيليو ينظر إليّ بفتور، وهو يمسك قلمه الأحمر المخيف. حاولتُ أن أمضغ ريقًا رغم جفاف فمي. جمع الدون ڤاسيليو الأوراق وأعادها إليّ. فأخذتها واستدرتُ نحو الباب بأقصى سرعة ممكنة، وأنا أواسي نفسي قائلاً إنّ هنالك فرصة دومًا للعمل كملمّع أحذية مبتدئ في بهو فندق كولون.

- خذ الحكاية إلى المطبعة وضعْها في الآلة الطابعة فورًا - قال صوته خلف ظهري.

فاستدرتُ وأنا أشعر بأنّي موضع مزاحٍ ثقيل. فتح الدون ڤاسيليو الدُرج، وعدّ عشرة بيسيتا ووضعها فوق المنضدة.

- هذه النقود لك. أقترح عليك بأن تشتري بزّة أخرى، لأنّي أراك منذ أربعة أعوام بالبزّة نفسها وهي أكبر بستّ مرّاتٍ من مقاسك. إن أردت، اذهب إلى ورشة الخيّاط بنطليوني وقل له إنّك جئت من طرفي. سيكرمك.

- شكرًا جزيلاً يا دون ڤاسيليو. سأفعل كما أشرتَ.

- وحضّرْ لي قصّة أخرى من المستوى ذاته. هذه المرّة سأمنحك أسبوعًا كاملاً. شرط ألا تتقاعس. وحبّذا أن يكون في القصّة القادمة أقلّ عدد من الموتى، فالقرّاء في هذه الأيام يحبّون النهاية السعيدة حيث تنتصر عظمة النفس الإنسانية وإلى آخره من هذه الترّهات.

- حاضر يا سيّدي.

أومأ مدير التحرير برأسه ثم مدّ يده فصافحتُه.

- بالتوفيق يا مارتين. الاثنين القادم، أريد أن أراك على منضدة خونثيدا، بإمكانك أن تعتبرها لك منذ الآن. سأعيّنك في صفحة الحوادث.

- لن أخيّب آمالك يا دون ڤاسيليو.

- لن تخيّب آمالي، لكنّك ستتركني عاجلاً أم آجلاً. وستحسن صنعًا، لأنّك لست صحفيًّا ولن تصبح صحفيًّا أبدًا. إلا أنّك لست مؤلّفًا بارعًا للقصص البوليسية بعد، حتى لو كنت تحسَب نفسك كذلك. ابق عندنا قليلاً من

الوقت كي نعلّمك بعض الأمور التي لا تفسد صلاحيّتها أبدًا.

في تلك اللحظة، أخفضتُ بصري، واجتاحني شعورٌ كبيرٌ بالامتنان حتى رغبتُ أن أعانق ذلك الوغد. استعاد الدون ڤاسيليو قناعه الصارم ورماني بنظرة فولاذية مشيرًا إلى الباب.

- لا أريد مَشاهدَ عاطفية هنا من فضلك. اغلق الباب ما إن تخرج. أعياد ميلاد سعيدة!

- أعياد ميلاد سعيدة!

يوم الاثنين اللاحق، حين وصلتُ إلى المقرّ، وأنا أستعدّ للجلوس خلف منضدتي الشخصيّة للمرّة الأولى، وجدتُ ظرفًا ورقيًّا معقودًا بالشرائط، واسمي منقوشٌ عليه بحروف الآلة الكاتبة التي ضربتُ عليها سنينًا. فتحتُ الظرف. ووجدتُ الصفحة الخلفيّة من عدد يوم الأحد تزهو بقصّتي، ورسالة تقول: «هذه ليست إلا البداية. بعد عشر سنوات سأكون أنا التلميذ وأنت المعلّم. صديقك وزميلك پيدرو ڤيدال.»

2

اجتازت انطلاقتي الأدبية الاختبارَ الأول، ووفى الدون ڤاسيليو بوعده إذ سمح لي بنشر قصتّين من الأجواء ذاتها تقريبًا. وسرعان ما قرّرت الإدارة أن تخصّص لمسيرتي المباغتة موعدًا أسبوعيًا، شرط أن أستمرّ بمتابعة التزاماتي في الصحيفة بدقّة وبالأجر نفسه. وهكذا كنت أقضي الأيام، وقد أجهز عليّ سمُّ الغرور والمثابرة، بمراجعة نصوص زملائي وبتحريرٍ سريع لصفحة الجرائم التي لا مثيل لفظاعتها، كي أسهر الليالي وحيدًا في قاعة التحرير وأكتب قصّة مسلسلة منمّقة بأسلوبٍ ميلودراميّ كانت تداعب مخيّلتي منذ زمن. كنت أستوحي لقصّتي تلك، التي عنونتها بـ«ألغاز برشلونة»، من أسلوب دوما وبرام ستوكر، هكذا بلا حياء، مرورًا بسوي وفيبال. لم أكن أنام أكثر من ثلاث ساعات، حتى باتت ملامحي لرجلٍ يقضي أيامه في نعشٍ ما. وكان ڤيدال يرى أنّي أتلف دماغي وأسعى لإقامة جنازتي قبل العشرين عامًا، وهو لم يكن يعرف ذلك النوع من الجوع، الذي لا صلة له بالمعدة، كيف ينهش صاحبه من الداخل. أمّا الدون ڤاسيليو، فلم يكن مستاءً من عملي الدؤوب، بل كانت له مآخذ أخرى. كان ينشر مقالاتي على مضض، منزعجًا مما يسمّيه إسرافًا في الحالة المَرَضيّة ونذير شؤم على موهبتي التي كرّستُها في خدمة المواضيع والأحداث الخالية من أيّ نكهة أدبيّة.

وسرعان ما بشّرت «ألغاز برشلونة» ببزوغ نجمٍ صغيرٍ في عالم الروايات المسلسلة: بطلة القصة التي كنت أتخيّلها كما يتخيل أيُّ شاب، في السابعة عشر من عمره، «المرأة الفتّانة». كلويه بيرمانير، سيّدة الظلام في مملكة الأرواح الشريرة. حادّة الذكاء والطباع وغريبة الأطوار، ترتدي دومًا ثيابًا نسائيّة أنيقة تناسب صيحة الأزياء المعاصرة، وتقوم بواجباتها كعشيقة بالتاسار موريل وذراعه الأيمن، وهو البطل الغامض والعقل المدبّر للعالم السفليّ، يعيش في قبوٍ مليء بالرجال الآليين ورفات مَن قضوا بأبشع وسائل الموت، وكان مدخله السريّ نفقًا بين الدهاليز المحفورة تحت مدافن الحيّ القوطيّ. كانت كلويه تفضّل وسيلة لقتل ضحاياها، تكمن في إغوائهم برقصةٍ منوّمة، تنزع ثيابها ثم تقبّلهم بشفتيها المطليّتين بالسّم الأحمر الذي يشلّ كلّ أعضاء الجسد، وتتركهم يموتون بصمت، خنقًا، بينما تنظر إلى عيونهم بعد أن شربت الخلاصة المضادّة للتسمّم، المحلولة في شمبانيا الدوم بيرينون الملكيّة. وكان لكليهما غاية مشرّفة: السعي إلى قتل الحثالة فقط، وتطهير العالم من المتغطرسين والأنذال والمنافقين والمترمّتين والأغبياء العقائديّين وجميع الحمقى الذين يزيدون من بؤس الآخرين، ويخفون جشعهم وخسّتهم خلف الحفاظ على الشعارات والأديان واللغات والأعراق والأباطيل الأخرى. كنت أراهما بطلين خارجين عن المألوف، ككلّ الأبطال الحقيقيين. أمّا الدون ڤاسيليو، الذي توقّفت أذواقه الأدبية عند العصر الذهبيّ للشعر الإسبانيّ، كان يراهما في غاية السخف. لكنّه تغاضى عن غرابة أطواري رغمًا عنه، نظرًا إلى المودّة التي خصّني بها، وإلى إعجاب الجمهور بحكاياتي. وكان ينسب غرابتي إلى عنفوان الشباب المتّقد.

- أنت تعتني بالحرفة أكثر من الذوق يا مارتين. إنّ أعراض المرض الذي يكاد يقتلك لها اسم وهو «غراند غوينيول»[1]، وهو في السرد يشبه العار الذي يسبّبه داء الزُّهري. لعلّك بارعٌ في نسج الحبكة، لكنّها سرعان ما تتهاوى وتتبعثر. عليك أن تقرأ الأدباء الكبار، الدون بينيتو بيريز غالدوس على الأقلّ، كي ترفع من مستوى تطلّعاتك الأدبية.

- لكنّ قصصي تعجب القرّاء - كنت أجادله.

- هذا ليس بفضل جدارتك، بل لأنّ منافسيك عاجزون وجهلة لدرجة أن يصاب الحمار بانفصام الشخصية إذا قرأ فقرة واحدة من نصوصهم. سنرى إن كنت ستنضج يومًا ما، لتسقط كالفاكهة المحرّمة من على الشجرة.

كنت أهزّ رأسي متظاهرًا بتأنيب الضمير، لكنّي أتأمّل في سرّي تلك الكلمات المحظورة، «غراند غوينيول»، وأقول لنفسي إنّ أيّ قضيّة، مهما كانت باطلة، تبحث دومًا عن بطلٍ يدافع عن شرفها.

بدأتُ أشعر أنّي أكثر البشر حظًا حين اكتشفتُ أنّ الغيظ أصاب بعض زملائي؛ فربيب الجريدة المدلل، وجالب الحظ رسميًّا، استهلّ خطواته الأولى في عالم الأدب، بينما تحتضر طموحاتهم الأدبيّة منذ سنوات في حَيرةٍ رماديّة بائسة. ازداد الأمر سوءًا حين تهافت قرّاء الصحيفة على قصصي المتواضعة وأعجبوا بها أكثر من أيّ نصّ منشور في الأعوام العشرين الأخيرة. وفي غضون أسابيع قليلة، رأيتُ أنّ كرامتهم الجريحة تحوّلهم إلى قضاة ظالمين، وتدفعهم إلى عدم مبادلتي التحيّة والكلام، وتحرّضهم على اغتيابي وازدرائي تعويضًا عن انعدام مواهبهم، وهم الذين لطالما اعتبرتُهم عائلتي الوحيدة. عزوا حظوظي المبهمة إلى توصيات بيدرو ڤيدال، وإلى جهل قرّائنا الأغبياء، وإلى المقولة الشائعة على المستوى الوطني، تلك التي تؤكد بأنّ النجاح في أيّ مجال مهنيّ برهانٌ لا ريب فيه عن العجز وعدم الجدارة.

وإزاء هذه التداعيات المؤسفة وغير المتوقعة، كان ڤيدال يحاول أن يشدّ من أزري، لكنّي بدأت أشكّ بأنّي سأواصل العمل في الجريدة.

- إنّ الحسد دين الفاشلين. يواسيهم إثر الحيرة التي تجتاحهم. يُفسِد سرائرهم، ويسمح لهم بتبرير خسّتهم حتى يحسَبوها مزيّة. يظنّون أنّ أبواب السماء لا تُفتح سوى أمام الأدنياء أمثالهم، أولئك الذين يعيشون الحياة دون أن يتركوا أثرًا إلا لقذارة محاولاتهم في تثبيط همم الآخرين وتنحية - أو محو - مَن كان وجوده سببًا في كشف أرواحهم المريضة وعقولهم الفارغة وقلوبهم المتحجّرة. طوبى لمن نبح الحمقى خلف ظهره وما انساق إلى فظاظتهم!

- آمين - يردّ عليه الدون ڤاسيليو - لو لم تولد وفي فمك ملعقة من ذهب لكان من الأجدر بك أن تعمل راهبًا. أو قائد ثورة. بخطبة كهذه، يمكنك الإطاحة بأسقف دفعة واحدة.

- اسخرا منّي - أتدخّل محتجًّا - إنّهم لا يتمنّون رؤية وجهي حتى لو كان مرسومًا.

إضافة إلى العداوات التي منيتُ بها بسبب مثابرتي، كانت هنالك الحقيقة المرّة: فرغم أنّي أوشكت أن أصبح أديبًا شعبيًا، كان راتبي لا يكاد يكفيني للبقاء على قيد الحياة، وشراء كتبٍ أكثر من تلك التي يسمح لي الوقت

بقراءتها، وإيجار غرفة صغيرة في نزل مدفون في زقاق قريب من شارع برنسيسا تديره امرأة غاليزية مؤمنة تدعى بالسيدة كارمن. كانت السيدة كارمن تدعّي العفّة، وتغيّر الأغطية مرّة في الشهر؛ ولهذا السبب كان على النزلاء أن يُقلّلوا محاولات الاستمناء والاستلقاء على السرير بثياب متّسخة. ما من ضرورة لمنع النساء من دخول الغرف، إذ لم تكن أيّ امرأة - في برشلونة كلّها - لترغم نفسها على دخول ذلك النزل القميء حتى لو هُدّدتْ بالقتل. تعلّمتُ هناك أنّ كلّ شيء في الحياة يتعرّض للنسيان، بدءًا من الروائح، وأنّ أقصى تطلّعاتي أن لا أموت في مكانٍ كذلك. في اللحظات التعيسة، التي كان لها النصيب الأوفر، أقول لنفسي إنّ الأدب وحده قادرٌ على الخروج بي من هناك، قبل أن تفعلها هجمة مباغتة لداء السل. وإن شعر أحدهم بحكّة أخلاقيّة في روحه فبوسعه الاستنجاد بقطعة قرميد.

في أيام الأحد، وقت الصلاة، حين تذهب السيدة كارمن إلى موعدها الأسبوعي مع الربّ، ينتهز النزلاء الفرصة للاجتماع في غرفة أكبرنا، وهو رجل تعيس يدعى هيليودورو، كان يطمح في شبابه أن يصبح مصارع ثيران، لكنّه اكتفى بمتابعة الجولات، بعد أن غدا المسؤول عن مراحيض الرجال المفتوحة تحت الشمس في ساحة تمثال الثور.

- لقد اندثر فنّ مصارعة الثيران - كان يهتف - وبات حكرًا على المربّين الجِشاع والمصارعين الذين لا يمتلكون حسًّا مرهفًا. فالجمهور الجاهل لا يميّز بين الاستعراض والفنّ الذي لا يقدّره إلا العالمين به.

- لو أعطوك الفرصة يا دون هيليودورو لاختلف الأمر كليًّا.

- في هذا البلد لا ينجح إلا الحمقى.

- لا تذكّرني بهذا أرجوك...

وبعد خطبة الدون هيليودورو الأسبوعية، يحين وقت الاحتفالات. يتكدس النزلاء مثل النقانق عند نافذة الغرفة، ليشاهدوا ويسمعوا، عبر المنور، آهات جارتنا التي تسكن شقة قريبة؛ تدعى ماروخيتا وتلقّب بالفليفة لحدّة نبرتها وتقاسيم جسدها الشهيّة كالفليفلة الحمراء. كانت ماروخيتا تحصل على قوت يومها بتنظيف محلات مشبوهة، ثم تهب يوم الأحد والعطل الأخرى لخطيبها الطالب في مدرسة دينية، الذي كان يأتي بالقطار من مانريسا، لينغمس بحماس في علم الخطيئة، ومن يدري لماذا. رنّ جرس النزل حين كان النزلاء يهرعون إلى النافذة لينعموا بمشاهدة ردفَي ماروخيتا العملاقين المحمرّين، كعجين حلويات عيد الفصح، من شدّة الشبق. ونظرًا إلى عدم وجود متطوعين لفتح الباب، خوفًا من أن يخسروا مكانًا يسمح لهم بمتابعةٍ موفّقة، انسحبتُ من الجوقة ومشيتُ نحو الباب. وحين فتحته، اصطدمتُ برؤيةٍ استثنائيّة، لا تخطر على بال، في إطار بائس للغاية. الدون پيدرو ڤيدال، بكامل أوجه وأناقته وبزّته الكاملة من الحرير الإيطاليّ، يبتسم عند البهو.

- أشرقتِ الأنوار - قال وهو يدخل دون أن ينتظر دعوتي.

توقّف ليرى صالة الطعام التي كانت بمثابة السوق الشعبي في ذلك النزل الرديء، وتنهّد مشمئزًّا.

- ربّما من الأفضل أن نذهب إلى غرفتي - اقترحتُ عليه.

أفسحتُ له الطريق. وكان الهتاف، على شرف ماروخيتا وبهلوانيّاتها الجنسية، يخترق الجدران.

- يا له من مكان بهيج - علّق ڤيذال.

- تفضّل معي إلى الجناح الرئاسيّ يا دون پيدرو - دعوتُه.

دخلنا وأغلقتُ الباب. بعد أن ألقى نظرة سريعة على غرفتي، جلس على الكرسي الوحيد ونظر إليّ بفتور. لم أبذل جهدًا في تخيّل الانطباع الذي تركه النزل المتواضع في عينَي الدون پيدرو.

- كيف يبدو لك؟

- ساحر. أفكّر في الانتقال إلى هنا أنا أيضًا.

كان الدون پيدرو يسكن في ڤيلا هيليوس، وهي عبارة عن مبنىً فخم ذي طابع حداثيّ مكوّن من ثلاثة طوابق يعلوها برجٌ ضخم، على ثنايا الهضاب التي ترتفع صوب پيدرالبيس، عند التقاطع بين شارع أولزيت وشارع بنما. أهداه والده الڤيلا منذ عشرة أعوام آملاً أن يبلغ الرشد ويبني عائلة، وهو مشروع تأخّر عنه ڤيذال بضعة عقود. فالحياة منّت عليه بمواهب كثيرة، من بينها موهبة تخييب آمال والده وإزعاجه بأيّ خطوة يُقدم عليها، كأن يتخّذ من البؤساء أمثالي إخوة. أذكر ذات مرّة زرتُ فيها مُرشدي لأحمل إليه بعض الوثائق من الصحيفة، فإذا بي أصطدم بكبير آل ڤيذال في إحدى صالات ڤيلا هيليوس. عندما رآني، أمرني بأن آتيه بكأس من المياه الغازيّة ومنديلٍ نظيفٍ ليزيل إحدى البقع عن سترته.

- أظن أنّك أخطأت يا سيّدي. أنا لست خادمًا...

طعنني بابتسامةٍ من شأنها أن تنظّم أمور الكون، دون الحاجة إلى الكلام.

- أنت من يخطأ أيها الفتى. أنت خادم، سواء عرفت ذلك أم لا. ما اسمك؟

- داڤيد مارتين، يا سيّدي.

تذوّق الكبير اسمي.

- اتبع نصيحتي يا داڤيد مارتين. اخرج من هذا البيت وعد إلى المكان الذي تنتمي إليه. ستوفّر على نفسك مشاكل كثيرة، وتوفّرها عليّ أيضًا.

لم أطلع الدون پيدرو على هذا اللقاء، بل هرعتُ إلى المطبخ لآتيه بالمنديل والمياه الغازيّة، وبقيتُ ربع ساعة أنظّف سترة ذلك الرجل. كان ظلّ الأسرة طويلاً للغاية، ورغم أنّ الدون پيدرو مولعٌ بتقديم نفسه كفنّان بوهيمي، فإنّه لم يستطع أن يشذّ عن شبكة العائلة. إذ كانت ڤيلا هيليوس مريحة في موقعها المجاور من ڤيلا والده الكبيرة التي تهيمن على الجزء الأعلى من شارع بيارسون، كمزيج كاتدرائيّ من بناء متعدد الأعمدة، وسلالم وأسطح تشرف على كافّة برشلونة في الأفق، كطفل يتأمّل ألعابه المرميّة بعيدًا. وكان البيت الكبير - أو بيتُ الأب، كما يسمّيه عموم آل ڤيذال - يوفد كلّ صباح بعثةً مكوّنة من أمهر الطبّاخات والخادمات إلى ڤيلا هيليوس لتنظفن وتلمّعن وتكوين وتطبخن وترقّعن حياة مُرشدي الثريّ الذي يغطّ في سريرٍ من راحةٍ وغفلةٍ دائمة عن منغّصات الحياة اليوميّة. كان

يجوب المدينة بسيارته العجيبة، هيسبانو سويسا، يقودها سائق العائلة، مانويل سانغيير؛ ولعلّه لم يركب أيّ ترام في حياته كلها. ولأنّه ابن القصر والأسرة النبيلة، كان يجهل الحزن والشقاء اللذين يميّزان فنادق برشلونة الاقتصاديّة آنئذٍ.

- لا تتردّدْ في هذه الفكرة يا دون پيدرو.

- هذا المكان يبدو زنزانة - صرّح في النهاية - لا أعرف كيف تستطيع العيش فيه.

- براتبي، وبشقّ الأنفس طبعًا.

- إن لزم الأمر، أعطيتك ما ينقصك للعيش في مكانٍ لا تنبعث منه رائحة البول والكبريت.

- لن أدعك تحلم في هذا.

تنهّد ڤيذال.

- وهكذا لقي مصرعه مخنوقًا من النتانة وعزّة النفس. هذه شهادة وفاتك، مجانًا.

أخذ ڤيذال يمشي في الغرفة للحظاتٍ دون أن يفتح فمه، يتوقّف ليفحص خزانتي الصغيرة، وينظر من النافذة بوجه مشمئزّ، يتلمس العفن الأخضر الذي يغطّي الجدران كلوحة، وينقر بسبّابته القنديل العاري المعلّق في السقف، كأنّما أراد التحقق من جودة تلك الأغراض.

- ما الذي جاء بك إلى هذه المنطقة يا دون پيدرو؟ هل أتعبك الهواء النقيّ في پيدرالبيس؟

- لم آت من البيت. بل من الجريدة.

- وبعد؟

- دفعني الفضول لأعرف أين تسكن. ثم إنّي أتيتك بشيء ما.

أخرج من معطفه ظرفًا من الرقّ الأبيض وأعطاني إيّاه.

- وصلت هذه الرسالة اليوم إلى الجريدة، باسمك.

أخذتُ الظرف وتفحّصته. كان مختومًا بالشمع الذي طُبع فوقه وجهٌ لكائن مجنّح. ملاك. كما كان اسمي مكتوبًا بخطٍّ أنيق ولون أحمر.

- من أرسلها؟ - سألتُ مذهولاً.

شدّ ڤيذال كتفيه.

- أحد المعجبين. أو إحدى المعجبات. لا أعلم. افتحه.

فتحتُ الظرف بعناية وأخرجتُ منه صفحة مطويّة، مكتوبٌ عليها بالخطّ ذاته:

صديقي العزيز

اسمح لي أن أعبّر لك عن إعجابي وتقديري بالنجاح الذي حقّقته «ألغاز برشلونة» مؤخراً على صفحات «صوت الصناعة». كقارئ ومولع بالأدب الرفيع، يشرّفني جدًا أن ألتقي بقلمٍ شابّ وموهوب وله مستقبل واعد. واسمح لي، كتعبيرٍ عن امتناني لتلك الساعات الهنيئة التي أهدتني إيّاها قصصك، أن أقدّم لك مفاجأة صغيرة ستناسب ذوقك حتمًا، عند منتصف الليل في إنسوينيو دل رافال. سيكونون بانتظارك.

بكلّ ودّ

أ.ك.

قوّس ڤيذال حاجبيه مستغربًا، إذ كان يقرأ خلف ظهري.

- مثير للاهتمام - غمغم.

- ماذا تقصد؟ أيّ نوع من الأماكن هو، هذا الإنسوينيو؟

أخرج سيجارة من حمّالة السجائر البلاتينيّة.

- السيّدة كارمن لا تسمح بالتدخين في النزل - حذّرته.

- لماذا؟ هل دخان السيجارة يضرّ برائحة الصرف الكريهة؟

أشعل ڤيذال السيجارة وتذوّقها بمتعة مزدوجة، كأنه يتلذّذ بكلّ ما هو محظور.

- هل تعرّفت إلى امرأة يومًا يا داڤيد؟

- حسنًا، بالتأكيد. الكثيرات.

- أقصد بالمعنى المقدّس.

- في الصلاة؟

- لا، بل على السرير.

- آه.

- ماذا إذن؟

في الواقع، لم يكن في جعبتي ما قد يثير اهتمام رجلٍ مثله. إذ كانت مغامراتي وقصص الحبّ في مراهقتي تتّسم، حتى تلك اللحظة، بالتواضع ونقص ملحوظ في الأصالة. لا شيء في قاموسي الوجيز، من وكزاتٍ ولمسات وقُبلاتٍ مسروقة خلف البوّابات وداخل صالات السينما، كان ليحظى بثناء الأستاذ المعتكف على الفنون وعلوم ألعاب المضجع في المدينة الكونتيّة.

- ما شأن هذا؟ - اعترضتُ.

استعار ڤيذال أسلوب بروفسورٍ ما واستهلّ إحدى خطبه الرفيعة.

- في أيام شبابي، كان يجدر بالفتْية، أمثالي على الأقلّ، أن يبدؤوا تلك المعارك على أيدي نساء محترفات. حين كنت في عمرك، كان أبي، ورغم اعتياده حتى هذه اللحظة على المحلات الراقية في المدينة، يصطحبني إلى مكان يدعى إنسوينيو، على بعد أمتار قليلة من ذاك البناء الكئيب الذي شيّده المعماريُّ غاودي في لاس رامبلاس، بأمرٍ من غويل، الكونت الغالي على قلوبنا. لا تقل لي إنّك لم تسمع به من قبل.

- بالكونت أم ببيت الدعارة؟

- ملعوبة... إينسوينيو كان محلاً راقيًا لزبائن منتخبين بعناية. والحقّ يقال إنّي خلتُه مغلقًا منذ سنوات، لكنّي قد أخطئ. خلافًا للأدب، بعض الأعمال لا تغلق أبوابها أبدًا.

- فهمتُ. هل هذه فكرتك؟ هل هي مجرّد مزحة؟

أنكر پيدرو.

- فكرة أحد الحمقى من زملائي في الجريدة إذن؟

- ألمس شيئًا من الضغينة في كلماتك، لكنّي أشكّ بأن أحدًا ما، يكرّس نفسه لمهنة الصحافة النبيلة كجنديّ غرّ، يسمح لنفسه بمكان مشرّف كالإنسوينيو، إن بقي كما أذكره.

تأففتُ.

- لا يهمّ، فأنا لا أفكّر في الذهاب.

قوّس پيدرو حاجبيه.

- لا تقل لي الآن إنّك لست كافرًا مثلي، وإنّك تريد الوصول إلى عشّ الزوجيّة طاهر القلب والأعضاء السفليّة، أو إنّ روحك العفيفة ترغب في انتظار اللحظة السحريّة التي يأتيك فيها الحبّ الحقيقي باللذة الجسدية والروحيّة، عبْر تناغمٍ يباركه الروح القدس، كي تملأ العالم بأبناء يرثون اسمك وعيون أمّهم، المرأة القدّيسة الشريفة صاحبة الفضيلة والنزاهة، فتشبكان يدًا بيد لتعبرا أبواب السماء تحت نظرةٍ تملؤها شفقة يسوع الطفل.

- لم أكن أريد قول هذا.

- هذا يسعدني. فمن الممكن، أكرّر: من الممكن، أن لا تأتي هذه اللحظة أبدًا. وربّما يفوتك العشق، والرغبة أو القدرة على أن تهب حياتك لامرأة ما. وقد تبلغ، مثلي، الخامسة والأربعين عامًا لتفطن أنّك لم تعد شابًا وأنّ ملاك الحبّ لم يرمك بسهامه، ولم يمنحك سريرًا من الأزهار البيضاء على المذبح، وأنّ السبيل الوحيد للانتقام هو أن تسرق من الحياة متعة ذلك اللحم المتعرّق والدافئ الذي يتبخّر أسرع من النوايا الحسنة، إنّه أشبه إلى السماء من أيّ شيء تصادفه على هذه الأرض القذرة، حيث كل شيء معرّضٌ للفناء، بدءًا من الجمال وانتهاءً بالذاكرة.

تركتُ لحظة من الصمت المهيب تمضي كأنها إشارة على الرضا. كان ڤيذال مولعًا بالأوبرا حتى تقمّص إيقاع الحواريّات الأوبراليّة الخالدة. لم يكن يتغيّب عن موعده مع بوتشيني في شرفة العائلة في مسرح المعهد. وكان واحدًا من القلائل الذين يذهبون إلى هناك، بغضّ النظر عن البؤساء الذين يتكدسون في برج الحَمام، ليصغي إلى الموسيقى التي يحبّها جدًا حتّى أثّرتْ في خطابه عن الذات الإلهية وتلك البشرية، كذاك الخطاب الذي كان يجود به على مسامعي يومها.

- ما بك؟ - سأل متحدّيًا.

- ذاك المقطع الأخير يذّكرني بشيء ما.

فوجئ ڤيذال، ثم تنهّد وأومأ برأسه.

- إنّه من «جريمة في حرم المسرح» - اعترف - المشهد الأخير حيث ميراندا لافلور تطلق النار على الماركيز الظالم، الذي حطّم فؤادها بخيانته لها، ذات ليلة شبق في الجناح الزواجيّ من فندق كولون، مع زفيتلانا إيفانوفا جاسوسة القيصر.

- بدا لي ذلك. لم تكن لتختار مقطعًا أفضل من هذا. إنها رائعتك الأدبيّة يا دون پيدرو.

ابتسم ڤيذال على الإطراء وفكّر إن كان بوسعه إشعال سيجارة أخرى.

- وهذا لا ينفي وجود الحقيقة في ما أقول - ختم كلامه.

جلس على حافة النافذة، بعد أن وضع منديلاً كي لا يتّسخ بنطاله الفاخر. رأيتُ سيّارته، هيسبانو سويسا، مركونة في الأسفل، عند زاوية شارع برنسيسا. كان السائق مانويل يلمّع معدنها الكروميّ بقطعة قماش كأنّه يتعامل مع منحوتة لرودين. كم يذكّرني مانويل بوالدي، رجلين من الجيل نفسه الذي عاش حقبة الشقاء المدقع، حتى نُقشت ذاكرتهم على وجوههم. سمعتُ من أحد الخدم في ڤيلا هيليوس أنّ مانويل سانغيير قضى وقتًا طويلاً في السجن، وأنّه منذ خروجه كابد سنواتٍ عجافًا، إذ لم يمنحه أحدٌ فرصة العمل سوى في تفريغ الحمولات والصناديق عند المرفأ، وهي مهنة لم تعد تناسب عمره أو صحّته. إلى أن خاطر بحياته لينقذ ڤيذال من الموت تحت الترام. واعترافًا بهذا الفضل، قرّر ڤيذال، بعد أن عرف بحال الرجل المسكين، أن يمنحه عملاً وإذنًا في الانتقال مع زوجته وابنته إلى الشقّة الصغيرة فوق موقف السيارات في ڤيلا هيليوس. وطمأنه بأنّ الصغيرة كريستينا ستدرس على يد أفضل المعلّمين الذين يأتون كلّ يوم إلى قصر والده في شارع بيارسون كي يعلّموا أولاد العائلة النبيلة، وأنّه بوسع زوجته أن تزاول مهنة الخياطة للعائلة. وكان حينذاك يفكّر في شراء أوّل سيّارة تباع في برشلونة، فهو بحاجة إلى سائقٍ ما دام السادة الشبّان لا ينوون توسيخ أياديهم في المحرّكات وآلات الدفع الغازيّ. وافق مانويل بالطبع، وسرعان ما تعلّم فن قيادة العربات المتحركة تاركًا خلف ظهره عربة الحصان. وبعد هذا الانتشال من الشقاء، أكّدت الرواية الرسمية أنّ مانويل سانغيير وعائلته يؤمنون إيمانًا أعمى بڤيذال، مخلّص البؤساء. وكنت مترددًا بين

تصديق هذه الرواية أو نسبها إلى سلسلة الخرافات الكثيرة التي نُسجَت حول شخصيّة ڤيذال، الأرستقراطيّ الطيب، إذ لم يكن ينقصه سوى التجلّي أمام إحدى الراعيات اليتيمات محاطًا بهالةٍ من نور.

- بات وجهك وجه وغدٍ منذ أن شردتَ في أفكار خبيثة - صرّح ڤيذال - ما الذي يدور في خلدك؟

- لا شيء. كنت أفكّر بطيبة قلبك يا دون پيدرو.

- في عمرك ووضعك، الشكّ لا يفتح أيّ باب.

- هذا يفسّر كل شيء.

- هيا، ألق التحية على الرجل الشهم مانويل. إنّه يسأل عنك دومًا.

أشرفتُ من النافذة. عندما رآني السائق، الذي كان يعاملني دومًا كسيّد يافع وليس كحثالة كما كنتُ عليه في الحقيقة، ألقى عليّ التحية، فبادلته بمثلها. كانت ابنته كريستينا، ذات البشرة الناصعة والشفتين الحمراوين، تجلس داخل السيارة. تكبرني بعامين، وأذكر كيف حبستُ أنفاسي حين رأيتها للمرّة الأولى التي دعاني فيها ڤيذال إلى ڤيلا هيليوس.

- لا تنظرْ إليها كثيرًا وإلا حطّمتَها - غمغم ڤيذال خلف ظهري.

استدرتُ ووجدتُ نفسي أمام تعبيرٍ مكيافيليٍّ غالبًا ما كان ڤيذال يخصّه لشؤون القلب والأعضاء النبيلة الأخرى.

- لا أفهم عمّا تتحدث.

- يا لك من صادق - ردّ ڤيذال - ماذا قرّرت بشأن هذه الليلة إذن؟

قرأتُ الرسالة ثانية واحترتُ.

- هل تتردد إلى محلات من هذا النوع يا دون پيدرو؟

- لا أنفق المال لأختلي بامرأة منذ أن كان عمري خمسة عشر عامًا، وحتى في تلك الآونة كانت على نفقة والدي - أجاب ڤيذال بلا تكبّر - ولكن إن أهداني أحدهم حصانًا...

- لا أعلم يا دون پيدرو...

- بل أنت تعلم.

ربّت ڤيذال على كتفي ثم اتجه نحو الباب.

- لديك سبع ساعات حتى منتصف الليل. أقول ذلك في حال أردت أن تنعم بقيلولة سريعة كي تجمّع قواك.

أشرفتُ من النافذة ورأيته يتجه نحو السيارة. فتح له مانويل الباب ليركب بصعوبة على المقعد الخلفي. سمعتُ صوت محرك الهيسبانو سويسا يستهلّ سيمفونيته بهدير المكابس الحراريّة. في تلك اللحظة، رفعت كريستينا، ابنة السائق، عينيها ونظرت نحو نافذتي. فابتسمتُ لها، لكنّي أحسستُ أنها لا تذكرني. أحادت أبصارها بعد هنيهة وابتعدت سيارة ڤيذال العجيبة لتعود به إلى كوكبه.

3

في تلك الأيام كان شارع كوندي دل آسالتو ينفتح كممرّ من أعمدة الإنارة والإعلانات الضوئيّة بين ظلمات الراڤال. وكانت الملاهي والمراقص، والمحلات التي يصعب تصنيفها، تجثم على جانبَي الطريق؛ فضلاً عن بيوت تعنى بالأمراض الجنسية والواقيات الذكرية والمغاسل التي تفتح أبوابها حتى الفجر، بينما تمتزج الناس من كلّ طبقة، من السادة الصغار أبناء الطبقة العليا حتى طاقم بحّارة السفن الراسية في الميناء، بشخصيّات خارجة عن المألوف تظهر بعد مغيب الشمس. وعلى كلا الجانبين، هنالك أزقّة ضيّقة ومدفونة في الضباب، يرتدّ إليها صدى الابتهالات في بيوت الدعارة ذات المظهر الرديء.

وكان الإينسوينيو يحتلّ الجزء الأعلى من بنايةٍ مزوّدة بصالة موسيقى في الطابق الأرضيّ، وثمّة ملصقات ضخمة على جدرانها تعلن عن عرضٍ لراقصةٍ يلتفّ شالٌ شفافٌ على خصرها يُبرز مفاتنها، وتمسك بين ذراعيها أفعىً سوداء يبدو لسانها المفطور كأنه يقبّل ثغر الراقصة.

«إيفا مونتينيغرو ترقص تانغو الموت» يقول الإعلان بحروفه الصارخة. «ملكة الليل في ستّ أمسيات استثنائية لا تفوّت. بمشاركة استثنائية من ميسميرو، قارئ الأذهان الذي سيكشف أسراركم الخفيّة».

على جانب مدخل المحلّ، ثمّة بابٌ صغيرٌ يفضي إلى سلالم طويلةٍ وضيّقة، جدرانها مطليّة باللون الأحمر. صعدتُ السلالم وتوقّفتُ أمام باب كبير من خشب شجرة بلّوط، وعليه مطرقةٌ لها شكل حوريّة منحوتة من البرونز، تغطّي فرجها بورقة عنب متواضعة. طرقتُ مرّتين وانتظرتُ متجنّبًا انعكاسي على مرآة كبيرة مظللة تقع على جانب كبير من الحائط. وحين كنت أفكر بالفرار بأقصى سرعة، انفتح الباب على ابتسامة صافية لسيّدة متقدمة في العمر، شعرها معقودٌ وكامل الشيب.

- لابدّ أنّ حضرتك السيد داڤيد مارتين.

لم يكن أحدٌ قد وصفني بالسيد قبلها؛ فوجئتُ بهذا الاستقبال الجليل.

- شخصيًّا.

- هلا دخلتَ ولحقتَ بي يا سيّدي...

مشيتُ خلفها في ممرٍّ قصير يؤدّي إلى صالون دائريّ واسعٍ، جدرانه ملبّسة بالمخمل الأحمر، وأضواء القناديل خافتة. كان السقف على شكل قبّة زجاجيّة مزوّقة بالخزف، تتدلّى منها نجفة من كريستال، وتحتها طاولة من خشب الأكاجيو الممتاز، يعتليها مذياع عملاقٌ يبثّ أنغام أوبرا معينّة.

- هل تفضّل مشروبًا ما؟

- سأكون ممتنًا لك لو أتيتني بكأس ماء.

ابتسمت السيدة ذات الشعر الأبيض دون أن يرفّ لها رمش، كان أسلوبها شديدَ الاحترام ويبعث على الارتياح.

- لعلّك يا سيّدي تفضّل كأسًا من الشمبانيا أو مشروبًا كحوليًا آخر. أو ربّما نبيذٌ أبيض خالصٌ من كروم خيريس.

لم يكن فمي قد جرّب أكثر من كروم ماء الصنبور، لذا عبّرتُ عن لا مبالاة.

- كما تشائين.

أومأت السيدة دون أن تغيب ابتسامتها وأشارت إلى إحدى أرائك الصالون الفاخرة.

- تفضّل بالجلوس يا سيدي، ستأتي كلويه حالاً.

انقطعتْ أنفاسي.

- كلويه؟

لم تعر السيدة ذات الشعر الأبيض اهتمامًا لذهولي، واختفت في بابٍ يتراءى خلف ستار من اللآلئ السوداء، وتركتني وحيدًا بأعصابٍ متوترة ورغبةٍ لا أقوى على الاعتراف بها. طفتُ في الصالون كي أزيل عني الرجفة التي اعترتني. لو استثنينا الموسيقى الخافتة وضربات القلب عند الصدغين، لكان ذلك المكان أشبهَ بالمدفن. ستّة ممرّات تنطلق من الصالون، وعلى جانبَي كلٍّ منها فتحاتٌ مغطاة بالستائر الزرقاء، تفضي إلى ستة أبواب بيضاء بمصراعين، وكلّها مغلقة. ارتخيتُ على إحدى الأرائك المصنوعة لراحة مؤخرات الأمراء الحكّام والجنرالات المهابين الطامحين لقيادة انقلاب عسكري. بعد قليل، عادت السيدة البيضاء بكأس من الشمبانيا على طبق فضيّ. أخذتُ الكأس ورأيتها تختفي مجددًا في الباب ذاته. شربتُ الشمبانيا برشفة واحدة وفتحتُ ياقة قميصي. بدأت أشكّ أنه مقلبٌ نسجه ڤيذال. في تلك اللحظة، انتبهت لكائنٍ يقترب نحوي من إحدى الممرّات. يبدو طفلة، وكان كذلك حقًا. تمشي مطأطئة الرأس، فلا أستطيع أن أرى عينيها. نهضتُ واقفًا.

ركعت الطفلة احترامًا وأشارت إليّ بأن أتبعها. وحينها فقط لاحظتُ أنّ إحدى يديها كانت خشبيّة، كأيدي الدمى خلف واجهة المحلاّت. اقتادتني الطفلة إلى آخر الممرّ، وفتحت الباب، بمفتاح معلّق على صدرها، ثم تنحّت جانبًا. كان الظلام يهيمن على الغرفة تقريبًا. دخلتُ خطوتين، محاولاً أن أوسّع بصري. شعرتُ أنّ الباب يُغلق خلف ظهري، وحين استدرتُ لم أجد الطفلة. سمعتُ صوت القفل وفهمتُ أنّي محبوس هناك. بقيتُ واقفًا لدقيقة بلا حراك، حتى اعتادت عيناي على الظلام تدريجيًا وتكشّفت أغراض الغرفة من حولي. كانت الجدران مكسّوة بقماشٍ أسود من الأرضيّة حتّى السقف. وعلى أحد الجوانب، رأيتُ سلسلة من الأغراض الغريبة التي لم أرها من قبل ولم أكن أعرف ما إن بدت لي مشؤومة أم مغرية. ثمّة سريرٌ واسعٌ مستديرٌ عند مسندٍ شبيهٍ بشبكة عنكبوتٍ ضخمةٍ عليها شمعدانان يحملان شمعتين سوداوين مشتعلين ينبعث منهما عطرٌ كذاك الذي يعشّش في القبب وغرف

المتعة. وبجوار السرير، ثمّة نافذة ذات قضبان حديدية معوجّة. ارتعشتُ. فذلك المكان كان مطابقًا لغرفة نوم الجنيّة كلويه، تلك التي رسمتُها مخيّلتي في «ألغاز برشلونة». ثمّة رائحة موادّ محروقة. تأهّبتُ للبحث عن الباب فإذا بي أكتشف أنّي لست وحيدًا. توقفتُ مصعوقًا حين تراءى لي وجهٌ مرسومٌ خلف النافذة. عينان تلمعان وتراقباني. رأيتُ أصابع بيضاء، أظفارها المدبّبة طويلةٌ ومطليةٌ بالأسود، تظهر من بين قضبان النافذة. مضغتُ ريقًا.

- كلويه؟ - غمغمتُ.

إنّها هي. كلويه التي ابتدعتُها بنفسي. المرأة الفتّانة التي لا تضاهى، تخرج من حكاياتي بلحمها وأزيائها. لم أر بشرة أشدّ نصاعةً من بشرتها؛ شعرها أسودٌ وبرّاق ومقصوص على زاوية حادّة يحيط بوجهها. وكأنّ شفتيها مرسومتان من دمٍ طازج. عيناها الخضراوان مكللتان بهالتين من الظلّ الأسود. كانت حركاتها كالقطط، كما لو أنّ جسدها - تحت درعها المشعّ كالحراشف - يبدو مائيًّا في انسيابه ولا يعير أيّ اهتمامٍ للجاذبيّة. عنقها الممشوق والطويل مطوّقٌ بشريط جلديّ أحمر فاقع، يحمل صليبًا مقلوبًا. رأيتها تقترب ببطء، وأنا لا أجرؤ على التنفّس، وعيناي لا تحيدان عن ساقيها المرسومتين بريشةٍ عجيبةٍ والمغلّفتين بجوارب حريريةٍ يضاهي سعرُها ما أتقاضاه لسنة كاملة، وحذاؤها مدبّب الرأس مشدودٌ على كاحلها بأربطة حريريّة. لم أر شيئًا في حياتي كهذا الجمال، رائعًا ومروّعًا في آن.

تركتُ ذلك المخلوق يقودني حتى السرير حيث وقعتُ على مؤخّرتي حرفيًا. كان ضوء الشموع يداعب جسدها، وشفتاي على مستوى بطنها العارية. ودون أن أنتبه لتصرّفاتي، قبّلتُ تحت سرّتها ومسحتُ جلدها بوجنتيّ. وحينها نسيتُ من أكون وأين كنت. جثمتْ على ركبتها أمامي وأخذت يدي اليمنى. لعقت أصابعي مثل قطة أليفة إصبعًا إصبعًا، ثم نظرت إليّ وراحت تنزع ثيابي. أردتُ مساعدتها، لكنها ابتسمت وأبعدت يديّ.

- ششششش!

ثم اقتربت من وجهي ومصّت شفتيّ.

- والآن، انزع ثيابي. برفق. ببطء.

عرفتُ حينها أنّ تلك اللحظات بمثابة مكافأة عن طفولتي المريضة والحزينة. نزعتُ ثيابها ببطء، كلّها ما عدا الشريط الجلديّ حول عنقها وتلك الجوارب السوداء على فخذيها، كذكرىً يقتات عليها الكثيرُ من البؤساء أمثالي لمائة عام.

- داعبْني - همست في أذني - لاعبْني.

داعبتُ وقبّلتُ كل شبر من جسمها كما لو أردتُ الاحتفاظ به مدى الحياة. لم تكن كلويه في عجالة من أمرها، بل كانت تستجيب للمسات يديّ وشفتيّ بأنّاتٍ خفيفة تقود شهوتي. ثم ألقتني على السرير وغمرتني بجسمها حتى شعرتُ بالحريق يشبّ في كلّ مسامة من جلدي. وضعتُ يديّ على ظهرها ومضيتُ أستكشف ذلك الخط

العجيب الذي يرسم عمودها الفقري. كانت نظراتها الحسّاسة تراقب وجهي على بُعد بضعة سنتمترات. فشعرتُ أنّه لا بدّ أن أقول شيئًا ما.

- اسمي...

- ششششش!

قبل أن أنطق بكلمة غبيّة أخرى، أطبقت كلويه شفتيها على شفتيّ وغيّبتني عن هذا العالم لساعةٍ كاملة. كانت على علم بضعف خبرتي، لكنّها أشعرتني بأنّها لا تعير انتباهًا. إذ كانت تستبق أيّ حركة أنوي القيام بها، وتقود يديّ على جسدها دون خجلٍ أو وجل. لم تعبّر عيناها عن أيّ انزعاج أو توتّر. كانت تدعني ألمسها وأتذوّقها بصبرٍ جميل، وبنعومةٍ أنستني كيف بلغتُ ذلك المكان. تلك الليلة، في غضون ساعة قصيرة، تعرّفتُ إلى ثنايا جسمها، كما يتعلم الآخرون الصلوات أو اللعنات. وبعد ذلك، حين لم يتبّق لديّ من أنفاس، أسندتْ كلويه رأسي على نهديها وداعبت شعري خلال صمت طويل، حتى غفوتُ بين ذراعيها ويديّ بين فخذيها.

وعندما استيقظت، وجدتُ ظلام الغرفة يتستّر على غيابها. لم يعد جسدها بين يديّ، بل حلّت محلّه بطاقةٌ مصنوعة من ذات الرقّ الأبيض للظرف الذي حمل الدعوة، وعليه - تحت شعار الملاك - قرأتُ:

أندرياس كوريلّي

ناشر

منشورات النور[2]

69، شارع سان جرمان. باريس

وفي الخلف ثمّة ملاحظة مكتوبة بخط اليد:

عزيزي داڤيد

الحياة مكوّنة من آمال عظيمة. حين تشعر بأنك مستعدٌّ لتحويل آمالك إلى حقيقة، تواصلْ معي. سأكون في انتظارك. صديقك وقارئك

أ.ك.

لململتُ ثيابي عن الأرض ولبستها. لم يكن باب الغرفة مقفولاً. مشيتُ في الممرّ حتى الصالون، حيث وجدتُ المذياع مطفأ. لم يكن هنالك أثر للطفلة ولا للسيدة ذات الشعر الأبيض التي استقبلتني. كان الصمت يطبق على المكان. وبينما كنت أتّجه نحو المَخرج تولّد لديّ انطباع بأنّ الأضواء خلف ظهري تُطفأ والظلام يبتلع الممرّات والغرف تدريجيًا. خرجتُ إلى البهو ونزلتُ السلالم لأعود إلى العالم على مضض. وحين بتّ في الطريق مشيتُ باتجاه لاس رامبلاس، تاركًا ورائي صخب المحلات الليلية وزحمتها. كان الضباب الخفيف والحارّ يصعد من الميناء، ووميض نوافذ

فندق الشرق الضخمة يصبغ الضباب بلون أصفر، متّسخٍ وغباريٍّ، يمحو أثر المارّة ليحيلهم إلى زخارف من بخار. واصلتُ المشي بينما يتلاشى عطر كلويه من ذهني، وتساءلتُ إن كان لشفتَي كريستينا سانغيير، ابنة سائق ڤيذال، المذاق نفسه.

4

لا يعرف المرء معنى الظمأ قبل أن ينهل الماء للمرّة الأولى. بعد ثلاثة أيّام من زيارتي للإنسوينيو، ظلّت ذكرى جسد كلويه تحرق أفكاري. ودون أن أقول شيئًا لأحد - ولا لفيذال نفسه - قررت أن أجمع بعض المدّخرات القليلة التي بقيت عندي لأعود في المساء إلى هناك، آملاً أن أشتري لحظةً أخرى بين ذراعيها. حلّ منتصف الليل حين بلغتُ تلك السلالم ذات الجدران الحمراء، تاركًا خلف ظهري قلعة المراقص والحانات الصاخبة، وصالة الموسيقى والمحلات صعبة التصنيف، تلك التي شيّدتْ في شارع كوندي دل آسالتو خلال سنوات الحرب العظمى في أوروبا. كان الضوء المرتجف خلف البوّابة يرسم العتبات على مساري. حين وصلتُ إلى البهو، توقّفتُ وبحثتُ عن المطرقة. لامست أصابعي المقبض المعدنيّ الثقيل. وحين رفعته، انفتح الباب بضعة سنتمترات ففهمتُ أنه لم يكن مغلقًا. دفعته برفق فداهم الصمت المطبق وجهي. كان أمامي ظلٌّ لازورديّ يتّمدد شيئًا فشيًا. مشيتُ خطوتين مترددًا. كان انعكاس أضواء الشارع ينبض في المكان، ليكشف عن رؤىً هاربةٍ من الجدران العارية والأرضية الخشبيّة المفككة. وصلتُ إلى الصالون الذي أذكره مصممًا من الجلود والأثاث الفاخر. وجدتُه فارغًا. بل كان الغبار الذي يكسو الأرضيّة يلمع مثل الرمل على بريق الإعلانات الضوئيّة في الشارع. تقدّمتُ وأنا أترك خطًّا من البصمات على الغبار. لم يكن هنالك أثر للمذياع ولا الأرائك ولا اللوحات. بل رأيتُ السقف مهشمًا بما يتيح رؤية الدعامات الخشبية المسودّة. طلاء الجدران كالخرق القاتمة شبيهٌ بجلود الأفاعي. اتجهتُ نحو الممرّ الذي يفضي إلى الغرفة حيث التقيتُ كلويه. عبرتُ ذلك النفق المظلم حتّى وصلتُ إلى الباب بمصراعين، الذي لم يعد أبيض اللون. لم يكن عليه سوى فتحة في الخشب، كما لو أنّ المقبض خُلع بعنف. فتحتُ ودخلتُ.

كانت غرفة كلويه مثل زنزانة مظلمة. الجدران متفحمة وجزء كبير من السقف مهدّمٌ. كان بوسعي رؤية الغيوم السوداء، التي تجتاز السماء، والقمر الذي يعرض هالة فضية على هيكل سريرها المعدنيّ. وحينذاك، سمعتُ طقطقة على الأرض خلف ظهري فاستدرتُ جزعًا لأفهم أنّي لم أكن بمفردي. هنالك ملامح رجل غامضة وحادّة تظهر عند المدخل. لم يكن بوسعي تمييز وجهه، لكنّي كنت على يقين من أنّه يراقبني. ظلّ هناك، متسمّرًا مثل عنكبوت، حتى تجرّأتُ وتقدّمتُ خطوة باتجاهه. فاختفى الوجه في الظلّ، كأنّه لم يكن. وحين عدتُ إلى الصالون لم أجد أحدًا. كانت خيوط الضوء تتسلل من إعلان ضوئيّ على الجانب الآخر من الشارع وتتموّج في المكان قليلاً لتكشف عن كومة فتات صغيرة بجانب الحائط. ثمّة شيءٌ ما يظهر من الكومة. أصابع. نفضتُ الرماد، الذي كان يغطّيها، حتى ظهرت باقي أجزاء اليد. أخرجتها، فرأيت أنّها كانت مبتورة من المعصم. تذكّرتها حالاً وفهمتُ أنّها يد تلك الطفلة التي ظننتُ أنّها خشبيّة، لكنّها كانت من خزف. تركتها تسقط من يدي وابتعدتُ.

تساءلتُ إن كنتُ قد تخيّلتُ وجود ذلك الرجل، إذ لم أجد آثارًا لقدميه على الغبار. نزلتُ إلى الشارع وبقيتُ على الرصيف أتأمّل نوافذ الطابق الأوّل. كنت فريسة للارتباك بينما يمرّ الناس ضاحكين، لا يعيرون وجودي

اهتمامًا. حاولتُ أن أبحث عن وجه ذلك الرجل بين الزحام. كنت أعلم أنّه هناك، لعلّه يراقبني على بُعد أمتار قليلة منّي. ثم قطعتُ الشارع ودخلتُ إلى مقهىً صغير مكتظٍّ بالزبائن. استطعتُ أن آخذ لنفسي فسحة على الكونتوار وأشرتُ إلى النادل.

- تفضّل.

كان فمي جافًا كأنّي ابتلعتُ من رمل الشواطئ.

- بيرة - ارتجلتُ.

وبينما كان النادل يسكب البيرة، انحنيتُ نحوه.

- عذرًا، هل تعلم إن كان المحلّ قبالتنا، الإنسوينيو، قد أغلق أبوابه؟

ترك النادل الكأس على الكونتوار ونظر إليّ كما لو كنت أبله.

- إنّه مغلق منذ خمسة عشر عامًا - قال.

- هل أنت واثق من هذا؟

- بالتأكيد. لم يفتح أبدًا بعد الحريق. هل ترغب في شيء آخر؟

أومأتُ نافيًا.

- أربعة قروش.

دفعتُ المبلغ وانصرفتُ دون أن أمسّ الكأس.

في اليوم التالي، أتيتُ قبل الدوام إلى مقرّ الصحيفة واتجهتُ مباشرة إلى قسم الأرشيف في الطابق السفليّ. ورحتُ أنقّب بين الصفحات الأولى لـ«صوت الصناعة»، الصادرة منذ خمسة عشر عامًا، وفقًا لما قاله النادل، بمساعدة ماتياس، المسؤول عن الأرشيف. استغرق الأمر حوالي الأربعين دقيقة حتى وجدتُ الحدث، في زاوية بالكاد تُرى. اندلع الحريق في فجر عيد «القربان المقدّس» عام 1903. لقي ستة أشخاص مصرعهم بين ألسنة اللهب: زبون، أربع فتيات ناشطات وطفلة صغيرة تعمل هناك. أرجأت الشرطة ورجال الإطفاء سبب الكارثة إلى عطلٍ أصاب أحد المصابيح، لكنّ خوريّ الكنيسة المجاورة ذكر العدالة الإلهية وتدخُّل الروح القدس كعاملين أساسيّين.

عدت إلى النزل، واستلقيتُ على السرير وحاولت عبثًا أن أعانق النعاس. أخرجتُ من جيبي بطاقة فاعل الخير الغريب التي وجدتها بين يديّ حين استيقظتُ على سرير كلويه وقرأتُ خلفيّتها مجدّدًا تحت الظلام. «آمالٌ عظيمة».

5

في عالمي، نادرًا ما تحقّقت الآمال، سواء أكانت عظيمة أم ضعيفة. قبل بضعة أشهر كان أملي الوحيد، كلّ مساء، حين أخلد إلى النوم، هو التحلّي بما يكفي من الشجاعة لأتحدّث ولو بكلمة إلى كريستينا، ابنة سائق مُرشدي؛ وأن تمضي الساعات التي تفصلني عن الفجر بسرعة كي أعود إلى «صوت الصناعة». أمّا الآن، حتى ذلك الملاذ كان يفلت من يدي. ربّما كنت سأحظى مجددًا بمودّة زملائي إن فشلتْ محاولاتي فشلاً ذريعًا، كنت أقول لنفسي. ربما غُفرتْ كلّ ذنوب شبابي لو كتبتُ قصة ركيكة ومبتذلة يشمئزّ القرّاء من مطلعها. ربّما كان الثمن أرخص مما أتوقّع لأشعر بأنّي في بيتي من جديد. ربّما.

كنت قد وصلتُ إلى «صوت الصناعة» منذ أعوام بعيدة بصحبة والدي، ذلك الرجل اليائس، عاثر الحظ، الذي عاد من حرب الفلبين ليجد مدينة لا تعترف به، وزوجة نست وجوده وقرّرت أن تهجره قبل عودته بعامين. تركتْ له قلبًا محطمًا وابنًا لم يكن يرغب فيه ولا يعرف ماذا يفعل به. أبي لم يكن يعرف فعل شيء، وكان بالكاد قادرًا على قراءة اسمه وكتابته. جلّ ما تعلّمه من الحرب هو أن يقتل رجالاً آخرين، مثله، قبل أن يقتلوه، باسم قضيّة عظيمة وفارغةٍ تصبح أكثر سخفًا وبُطلانًا كلما حان موعد المعركة.

عقب عودته من الحرب، هرم والدي ليبدو أكبر بعشرين عامًا ممّا كان عليه حين التحق بالجيش. حاول أن يبحث عن عمل في مصانع متعدّدة في البويبلو نويفو وحيّ سان مارتي. كان يستمرّ في العمل بضعة أيام فقط؛ وكنت أراه، عاجلاً أم آجلاً، يعود إلى المنزل بنظرةٍ يملؤها الوهن والإحباط. مع الوقت، ولانعدام البدائل، وافق أن يعمل كحارسٍ ليليّ في جريدة «صوت الصناعة». كان الأجر زهيدًا، لكنّ الأشهر تمرّ بسرعة، ويبدو أنّه لم يعد يعاني الويلات منذ أن عاد من الحرب. إلاّ أنّ فصل السلام كان قصيرًا، وسرعان ما ظهر بعض رفاق السلاح القدامى، الذين عادوا كجثث حيّة، معطوبةٌ أجسادُهم وأرواحُهم، ليكابدوا ازدراء مَن أرسلهم إلى الموت باسم الله والوطن. أدخلوا والدي في أعمال قذرة وخطيرة لم يفهمها أبدًا.

وغالبًا ما كان يختفي يومين ليعود ورائحة البارود تنبعث من ثيابه ويديه، والمال في جيبه. يدخل إلى غرفته ظنًّا منه أنّي لا أنتبه إليه، فيحقن ذراعه بالقليل أو الكثير الذي استطاع تأمينه. في البدء لم يكن يغلق الباب أبدًا، إلى أن فاجئني ذات يوم وأنا أتلصّص عليه، فصفعني بشدّة حتى مزّق شفتيّ. ثم عانقني إلى أن زالت قوى ذراعيه وبقي مستلقيًا على الأرض، والإبرة ما تزال تثقب جلده. فسحبته وغطّيته بوشاحٍ ما. وبعد ذلك الحادث أخذ يغلق الباب على نفسه.

كنا نعيش في عليّة صغيرة فوق مجمع المسرح الجديد في مبنى الموسيقى الكاتالونيّ. كان مكانًا باردًا وضيّقًا تعبث الريح والرطوبة بجدرانه. وكنت أجلس على الشرفة الصغيرة، وتتأرجح ساقاي، لأشاهد المارّة وأتأمل تلك الصخرة المنحوتة والأعمدة العجيبة التي تكثر على الطرف الآخر من الشارع، وغالبًا ما كانت تبدو لي قريبةً أستطيع لمسها بأصابعي، بينما تبدو الأخريات، أكثرها، بعيدة كالقمر. كنت طفلاً ضعيفًا سقيمًا، غالبًا ما أصاب بالحمّى والالتهابات التي تجرّني إلى حدود القبر ثم تندم دومًا في اللحظة الأخيرة وتطلق سراحي لتنطلق مجددًا بحثًا عن فريسة أكثر أهميّة منّي. وحين كنت أمرض، كان صبر والدي ينفد. وبعد الليلة الثانية من السهر بجانبي، يتركني لجارتنا كي تعتني بي، ويختفي من البيت عدّة أيام. ومع الوقت بدأتُ أظنّ أنّه يأمل العودة ليجدني ميتًا كي يخفّف عن كاهله عبء ابنه الضعيف الذي لا تُرجى منه فائدة.

وكم تمنيّتُ أن يحدث هذا، لكنّ والدي لطالما عاد ليجدني حيًا، بل وأطول قامةً من المرة السابقة. فأمّنا الطبيعة التي لم تكن تستثنيني من قانونها الجزائيّ المليء بالبكتريا والمعاناة، لم تجد الطريقة المثلى لتطبّق عليّ قانون الجاذبيّة. وخلافًا لأيّ منطق، كنت أبقى على قيد الحياة في أعوامي الأولى على شفا حفرة من طفولةٍ قضيتُها على البنسلين. في تلك الفترة، لم يكن الموت متخفّيًا، بل كنّا نستطيع أن نراه ونشمّ رائحته، في كلّ مكان، وهو يلتهم أرواحًا لم يتسنّ لها الوقت لاقتراف الآثام.

وهكذا، لم أعهد وجود أصدقاء في حياتي سوى الورق والحبر. في المدرسة، تعلّمتُ القراءة والكتابة قبل أطفال الحيّ الآخرين بكثير. وحيثما كان أصدقائي يرون آثارَ حبرٍ مبهمةً على الأوراق، كنت أرى فيها أضواءً وشوارع وشخوصًا. وكانت الكلمات، ولغز علمها الغامض، يذهلني ويبدو لي كنافذةٍ على عالم فسيح، يعوّضني عن ذلك البيت وتلك الشوارع والأيّام الصعبة التي كان من الواضح، لي أيضًا، أنّها ستجلب سوء الطالع ليس إلا. لم يكن يروق لوالدي وجود الكتب في البيت. كان يرى فيها ما يهينه، ناهيك عن الحروف التي لم يكن يستطيع فكّ طلاسمها. كان يقول لي إنّه سيأخذني معه إلى العمل ما إن أتمّ العشر سنوات، لذا من الأفضل أن أنزع من رأسي تلك الأحلام وإلا أصبحتُ بائسًا وميّتًا من الجوع. كنتُ أخفي الكتب تحت الفراش، وأنتظر خروجه، أو خلوده إلى النوم، كي أهبّ إلى القراءة. ذات مرّة فوجئتُ به في الليل يزجر غاضبًا. انتزع الكتاب من بين يديّ ورماه من النافذة.

- ستندم إن وجدتك مرّة ثانية تهدر الضوء في قراءة هذه السخافات.

لم يكن والدي بخيلاً، رغم الضيق الذي كنا نعاني منه الأمرّين. إذ كان يترك لي، كلّما استطاع، بعض القروش كي أشتري الحلوى، مثل أطفال الحيّ. كان يعتقد أنّي أنفقها على شراء أعواد العرقسوس والفستق والسكاكر، لكنّي كنتُ أحتفظ بها في وعاء قهوة تحت السرير، وحين أصل بها إلى أربعة ريالات أو خمسة، كنت أسرع لشراء كتابٍ ما على غفلةٍ منه.

كان مكاني المفضّل في المدينة كلّها هو مكتبة «سيمبيري وأبناؤه» في زقاق سانتا آنا. ذلك المكان، الفوّاح برائحة الورق القديم والغبار الزكيّ، كان بمثابة معبدي وملاذي. إذ يسمح لي بائع الكتب بالجلوس على كرسيّ في الزاوية لقراءة ما طاب لي من أيّ كتاب. ولم يحدث أبدًا أن أخذ سيمبيري مني ثمن الكتب التي وضعها بين يديّ، لكنّي

كنت أترك بعض القروش التي وفّرتها على المصطبة، خلسةً، قبل أن أنصرف. كانت قروشًا قليلة، لا تكفي لشراء كتيّبٍ يحتوي على لفافات السجائر. وعند موعد الانصراف، كنت أرحل على مضض، وأنا أجرّ قدميّ وروحي. فلو عاد الأمر لي لعشتُ هناك.

ذات مرّة، خلال أعياد الميلاد، قدّم إليّ سيمبيري أغلى هديّة حصلتُ عليها في حياتي. كان مجلدًا قديمًا، قرأه الكثيرون قبلي وعاشوا في صفحاته حتى العمق.

- «آمال عظيمة» لكارلوس ديكنز... - قرأتُ على الغلاف.

بدا لي، من هذه الصيغة الإسبانية لاسمه الأول، أنّه أحد أصدقاء سيمبيري، فهو يعرف بعض الأدباء الذين يترددون إلى محلّه؛ كما كان يخصّ ذلك الكتاب فائق المودّة.

- هل هو صديقك؟

- صديق عمري. ومن الآن فصاعدًا، سيكون صديقك أيضًا.

وفي المساء، خبّأتُ صديقي الجديد تحت ثيابي، كي لا يراه والدي، وحملته إلى البيت. قرأتُ «آمال عظيمة»، خلال ذلك الخريف الماطر، ذي الأيّام الرماديّة، تسع مرات متتالية. إذ لم يكن لديّ ما أقرؤه، ومن جهة أخرى لم أكن أتوقّع وجود كتابٍ أفضل منه؛ حتى شككتُ بأنّ الدون كارلوس كتبه لأجلي فقط. وسرعان ما تأكّدتُ من أنّي لا أرغب في الحياة سوى العمل كهذا السيّد ديكنز.

ذات ليلة، استيقظتُ بغتة على حراك والدي وقد عاد من العمل قبل الأوان. كانت عيناه تقدحان دمًا ورائحة الخمر تعربد في فمه. نظرتُ إليه مذعورًا، وهو يتحسّس المصباح العاري، المعلّق بالحبل.

- إنّه ساخن.

ركّز أنظاره إليّ وضرب الجدار بالمصباح بعنفٍ. فانفجر إلى ألف شظيّة زجاجيّة انهالت على وجهي، ولم أجرؤ أن أزيلها عني.

- أين هو؟ - سأل أبي بصوت فاتر وهادئ.

هززتُ رأسي وأنا أرتجف.

- أين الكتاب القميء؟

هززتُ رأسي مجددًا. تلقيّتُ لكمةً لم أنتبه إليها بسبب الظلام. شعرتُ أنّ الضباب يكدّر رؤيتي وأنّي أسقط عن السرير، وفمي ينزف دمًا، بينما تحترق شفتيّ بألمٍ حادٍّ كالنار البيضاء. وحين أدرتُ رأسي رأيتُ ما بدا لي سنّين مكسورين على الأرض. أمسك والدي رقبتي ورفعني.

- أين هو؟

- أرجوك يا أبي...

وبكلّ ما أوتي من عزم، رمى وجهي إلى الجدار، فأفقدتني الضربة توازني لأتهاوى ككيس من العظام. جررتُ نفسي إلى زاوية ما، وبقيتُ هناك أرتجف وأنظر إليه يفتح الخزانة ويعبث بأغراضي القليلة ويرميها أرضًا. أخذ يفتّش في الأدراج والصناديق دون أن يعثر على الكتاب حتّى عاد لينشغل بي مستاءً. أغمضتُ عينيّ واستندتُ إلى الجدار بانتظار لكمات أخرى لم تصل أبدًا. فتحتُ عينيّ لأراه جالسًا على السرير، يبكي ويكاد يختنق ندمًا. وحين رآني أنظر إليه، هرع إلى السلالم. سمعتُ صدى خطواته يبتعد في سكون الفجر، وحين تأكّدتُ من أنّه بات بعيدًا جررتُ نفسي إلى السرير وأخرجتُ الكتاب من مخبئه تحت الفراش. ارتديتُ ثيابي وخرجتُ متأبطًا الرواية.

كان زقاق سانتا آنا مستلقيًا تحت ضبابٍ خفيف حين وصلتُ إلى مدخل المكتبة. بائع الكتب وابنه يسكنان في الطابق الأول من البناية نفسها. كنت أعرفُ أنّ طرْق أبواب الناس في السادسة صباحًا ليس لائقًا، لكنّ هاجسي الوحيد في تلك اللحظة تمثّل في إنقاذ الكتاب. كنت متأكدًا من أنّ والدي سيمزّقه، بكلّ الغضب الذي يسري في عروقه، لو عاد إلى المنزل ووجده. قرعتُ الجرس وانتظرتُ. قرعتُ مرتّين وثلاث بإلحاحٍ حتى رأيتُ نافذة الشرفة تُفتح ليظهر منها سيبميري العجوز بلباس النوم، ينظر إليّ مشدوهًا. بعد دقيقة نزل ليفتح لي، وما إن رأى وجهي تلاشت كلّ مآخذه. وقف أمامي وأسندني بذراعيه.

- يا إلهي. هل أنت بخير؟ من فعل بك هذا؟

- لا أحد. لقد وقعتُ.

أعطيته الكتاب.

- لقد أتيتُ لإعادته، لا أريد أن يحصل له مكروه...

نظر إليّ سيمبيري دون أن يتكلم. أمسك ذراعي وحملني إلى بيته. كان ابنه الشابّ، في الثانية عشرة من عمره، خجولاً ولا أذكر أنّي سمعت صوته من قبل. استيقظ حين سمع والده يخرج، وكان ينتظر عند المستراح. حين رأى الدماء على وجهي، نظر إلى أبيه مذعورًا.

- اتصلْ بالطبيب كامبوس!

استجاب الفتى وهرع إلى الهاتف. سمعته يتكلّم ففهمتُ أنّه لم يكن أخرس. ساعداني في الاستلقاء على الأريكة، في صالة الطعام، وعقّما جراحي ريثما يصل الطبيب.

- هلاّ قلت لي مَن فعل بك هذا؟

لم أفتح فمي. لم يكن سيمبيري يعرف أين أسكن، ولم أرغب أن تخطر في باله أفكار معيّنة.

- هل والدك من أذاك؟

أزحتُ أنظاري.

- لا. لقد وقعتُ.

وصل الطبيب كامبوس خلال خمس دقائق، إذ كان يسكن على بعد أربع أو خمس بنايات من هناك. فحصني من رأسي إلى أخمص قدميّ، وهو يتلمّس الجروح ويعتني بها. كان من الواضح أنّ عينيه تشتعلان امتعاضًا، لكنّه لم يقل شيئًا.

- لا توجد كسور، لكنّ بعض الكدمات ستوجعك لمدّة أيام. لا بدّ أن نقتلع هذين السنّين. لقد تحطّما وقد يسبّبان الالتهاب.

حين انصرف الطبيب، حضّر لي سيمبيري كأسًا من الحليب الفاتر بالكاكاو ورمقني مبتسمًا وأنا أشرب.

- كلّ هذا لإنقاذ «آمال عظيمة»، أليس كذلك؟

عبّرتُ عن عدم اكتراثي. تبادل الأب والابن ابتسامة ماكرة.

- في المرّة القادمة، إذا كُتب عليك حقًّا إنقاذُ كتابٍ ما، لا تجازفْ بحياتك. عدني بذلك لآخذك إلى مكان سرّيّ حيث لا تموت الكتب ولا يستطيع أحدٌ تمزيقها.

نظرتُ إليهما مستغربًا.

- وأيّ مكانٍ هو؟

غمز سيمبيري بعينه وأحاطني بابتسامته الغامضة التي بدت مسروقة من إحدى روايات ألكسندر دوما المسلسلة، وكان يشاع أنّها من إحدى سمات العائلة.

- لكلّ أمرٍ أوانه يا صديقي. لكلّ أمرٍ أوانه.

قضّى والدي طوال ذلك الأسبوع مطأطئ الرأس، ينهشه الندم. اشترى مصباحًا جديدًا وفوجئتُ به يسمح لي بإضاءته، ولكن ليس لوقت طويل فالكهرباء كانت مكلفة. طاوعته لأنّي كنت أفضّل عدم اللعب بالنار. وفي يوم السبت، أراد أن يشتري لي كتابًا؛ فذهب إلى مكتبة ما، أوّل وآخر مكتبة دخل إليها، في شارع دي لا بالا، قبالة الأسوار الرومانيّة القديمة. لكنّه لم يستطع قراءة العناوين على أضلاع مئات الكتب المعروضة هناك، فخرج بيدين فارغتين. ثمّ أعطاني نقودًا، أكثر من المعتاد، وقال لي أن أشتري ما أريد. بدت لي اللحظة مناسِبة لأناقشه في موضوعٍ كنت أنتظر أوانه منذ زمن.

- شدّدت عليّ السيّدة ماريانا، المعلّمة، أن أطلب منك المجيء إلى المدرسة كي تتكلّم معها إن استطعت - ارتجلتُ.

- عمّ نتكلم؟ ما الذي فعلتَه؟

- لا شيء يا أبي... أرادت أن تتكلّم معك بشأن مستقبلي الدراسيّ. إنّها تقول إنّي أحظى بمؤهّلاتٍ جيّدة وقد تساعدني بنفسها في الحصول على منحة دراسية كي أدخل إلى الإسكولابي...

- ومن تظن هذه المرأة نفسها كي تملأ رأسك بالهراء، وتقول إنّها ستدخلك إلى مدرسة داخليّة مخصّصة لأبناء الأكابر؟ هل تعلم أنت رداءة هذا النوع من البشر؟ هل تعلم كيف سينظرون إليك، وكيف سيعاملونك، حين يعرفون أصلك؟

أخفضتُ أنظاري.

- السيّدة ماريانا تريد أن تساعدني وحسب يا أبي. هذا كلّ ما في الأمر. لا تقلق. سأقول لها إنّ هذا مستحيل وكفى.

نظر إليّ والدي متجّهمًا، لكنّه ضبط أعصابه وتنهّد عميقًا بعينين مغمضتين قبل أن يقول:

- سنفعلها. أتفهمني؟ أنا وأنت. بهامةٍ مرفوعة. ودون استجداء صَدَقةٍ من أولاد العاهرات.

- أجل يا أبي.

ربّت على كتفي ونظر إليّ فخورًا بي لحظة وجيزة لم تتكرّر أبدًا. كان فخورًا بي رغم أننا مختلفان تمامًا، فأنا أحبّ الكتب بينما يعجز هو عن القراءة. في تلك اللحظة، شعرتُ أنّ والدي أطيب رجل في العالم، ولو ابتسمت الحياة في وجهه، وحالفه الحظّ مرّة واحدة، لبدا كذلك في رأي الآخرين أيضًا.

- الشرور التي يرتكبها المرء لا تتلاشى يا داڤيد. بل تعود عليه. وأنا ارتكبتُ الكثير من الشرور. الكثير. لكنّي دفعتُ الثمن. ومصيرنا سيتغيّر. سترى. سترى.

ورغم إلحاح السيّدة ماريانا، التي كانت أشدّ مكرًا من الجوع ما جعلها تفهم كيف آلت الأمور، لم أعد أتحدّث مع والدي عن مستقبلي الدراسيّ. وحين فهمت المعلّمة أنّه ما من آمال يعوّل عليها، قالت لي إنها ستكرّس لي ساعة إضافية، كلّ يوم بعد انتهاء الدوام، لتحدّثني عن الكتب والتاريخ، وكلّ تلك الأمور التي تبثّ الرعب في قلب والدي.

- سيكون سرًّا بيننا - قالت المعلّمة.

كنت أعلم، رغم صغر سنّي، أنّ والدي يخجل من أن يراه الناس جاهلاً، مجرّد جنديّ عائد من الحرب التي تشبه كلّ الحروب الأخرى، تندلع باسم الله والوطن لتنتهي بتكريس سطوة من حرّضها ليس إلاّ. في تلك الآونة، كنت أصطحب والدي إلى عمله في بعض الليالي. كنا نستقلّ الترام في شارع ترافالغار ليتركنا عند أبواب المقبرة. وكنت أبقى في مكان الحراسة، أقرأ أعدادًا قديمة من الجريدة، وفي بعض الأحيان أحاول التكلّم إليه. وهذا ما كان أمرًا بالغ الصعوبة، فوالدي لم يعد يتحدّث عن الحرب، ولا عن المستعمرات، ولا عن المرأة التي هجرته. ذات مّرة، سألتُه لماذا هجرتْنا أمّي. كنت أظنّ أنّي السبب، لأنّي ارتكبتُ خطأ ما، أو ربّما لأنّي ولدتُ فقط.

- أمّك تخلّت عنّي قبل أن يرسلوني إلى الجبهة. لقد كنت غبيًا، ولم أنتبه إلى الأمر إلا حين عدت. الحياة هكذا يا داڤيد. عاجلا أم آجلا سيتخلّى عنك الجميع، وستخسر كلّ شيء.

- أنا لن أتخلّى عنك أبدًا يا أبي.

بدا لي أنّه يوشك على البكاء فعانقته كي لا أنظر إلى وجهه.

في اليوم التالي، دون طلبٍ مني، أخذني إلى محلات النسيج «إل إنديو» في شارع كارمن. لم ندخل، لكنّه أشار إلى امرأة شابّة وباسمةٍ تخدم الزبائن وتعرض عليهم المنسوجات والأقمشة الثمينة، من خلف الواجهة.

- تلك هي أمّك يا داڤيد - قال لي - يومًا ما، أخاله قريبًا، سأعود إلى هنا لأقتلها.

- لا تقل هكذا يا والدي.

نظر إليّ بعينين محمرّتين وفهمتُ أنّه كان ما يزال يحبّها. شعرتُ بأنّي لن أغفر لها أبدًا. أذكر أنّي نظرتُ إليها خلسة، دون أن تنتبه لوجودنا، وعرفتها بفضل الصورة التي كان والدي يحتفظ بها في أحد الصناديق في المنزل، بجانب مسدّس الجيش. كان يُخرج المسدّس كلّ ليلة، ظنًّا منه أنّي نائم، ويتأمله كأنّه يبوح بكلّ الأجوبة، تلك الأجوبة التي كان في حاجة إليها، على الأقلّ.

وكم عدتُ طوال الأعوام اللاحقة إلى أبواب ذلك المحلّ كي أختلس النظر إليها. لم تكن لديّ الشجاعة الكافية للدخول، أو التكلّم معها حين تخرج وتبتعد باتجاه الرامبلا نحو حياةٍ لا أعرفها، مع عائلة تجعلها سعيدة، وابن يستحقّ حنانها ولمساتها أكثر مني. لم يعرف أبي أبدًا أنّي كنت أذهب لرؤيتها أحيانًا، أو أنّي كنت أتبعها - في أحيانٍ أخرى - وأمشي بجانبها حتى أكاد أمسك يدها قبل أن تغيّر طريقها في اللحظة الأخيرة. في عالمي، كانت الآمال العظيمة لا تعيش سوى في صفحات الكتب.

لم يتغيّر مصيرنا، كما تطلّع والدي كثيرًا. بل إنّ الخدمة الوحيدة التي قدّمتها له الحياة هي أنّها لم تجعله ينتظر طويلاً. ذات ليلة، بينما كنا نصل إلى أبواب الجريدة للعمل، ظهر ثلاثة مسلحون بالمسدّسات من الظلام وأطلقوا عليه النار أمام عينيّ. ما زلت أذكر وميض الدخان ورائحة البارود تنبعث من سترته المثقوبة بالرصاص. كان أحد المسلّحين يحضّر نفسه لإطلاق رصاصة الرحمة حين ارتميتُ على والدي، فأوقفه المجرم الآخر. أذكر عينَي المسلّح كيف كانتا تركّزان النظر في عينيّ، بينما يتساءل إن كان واجبًا عليه أن يقتلني أيضًا. ثم ابتعدوا فجأة بخطوات رشيقة، واختفوا في الأزقّة الضيقة بين بنايات البوبيلو نويفو.

في تلك الليلة، ترك القتلة والدي ينزف بين ذراعيّ، وتركوني وحيدًا في هذا العالم. نمتُ قرابة الأسبوعين في مطبعة الصحيفة، مختبئًا بين آلات اللينوتيب التي تبدو عناكب فولاذية عملاقة، محاولاً أن أكبت ذلك الهمس اليائس الذي يخترق أذنيّ عند الغروب. وحين وجدوني، كانت يداي وثيابي ما تزال ملطخة بالدماء المتخثّرة. وفي البدء لم يعرف أحد من أكون، لأنّي لم أتكلّم طوال أسبوع. وحين فعلتُها صرختُ باسم والدي حتى بحّ صوتي. وعندما سألوني عن أمي، قلتُ إنّها كانت ميّتة ولم يكن لديّ أحد في الدنيا. وصلت قصّتي إلى مسامع پيدرو ڤيذال، نجم الصحيفة وصديق الناشر الصدوق؛ وبناءً على طلبه، منحوني عملاً في خدمات صغيرة، وسمحوا لي بالعيش، حتى أجلٍ غير مسمّى، في غرفة الحراسة المتواضعة في الطابق الأرضيّ.

غدا العنف، في تلك الأعوام، خبزًا يوميًّا في برشلونة. أيّامٌ غزت فيها المناشيرُ والقنابلُ أحياءها، لتترك أشلاء الجثث المرتجفة والساخنة في شوارع الرافال. أيامٌ تسكّعت عصاباتُ الوجوه السوداء في لياليها لتزهق الأرواح وتسفك الدماء. أيّامٌ نُفّذت فيها الإعداماتُ، وشهدتْ ظهورَ قدّيسين وجنرالاتٍ تضوع منهم رائحة الغدر والموت. أيّام الخطابات المتأجّجة التي كذب فيها الجميع، وكان جميعهم على حقّ. أيّامٌ كانت تنذر بالحقد والهمجيّة، لتحرّض المرء على القتل إشفاءً للغليل، تحت شعارات زائفة وراياتٍ بالية تلوّث الهواء الذي نستنشقه. وكان الدخان المتصاعد من المصانع يغطّي المدينة، ويخفي شوارعها الممهّدة والمخطّطة بسكك الترام والقطارات. كان الليل يسهر على قناديل الزيت، بينما يمزّق ضياءُ الأعيرة الناريّة ظلال الأزقّة ويملأ سكونها بالوميض الأزرق ورائحة البارود المحروق. كنّا نكبر على عجل. وكانت الطفولة تتفتّت في قبضة تلك الأعوام، لتبدو نظراتُ الكثير من الأطفال شبيهةً بنظرات كهولٍ في أرذل العمر.

أضحت الجريدة ملاذي، إذ ليس لديّ عائلة أخرى سوى سراب برشلونة. وأمست عالمي الصغير حتّى الراتب الأول الذي سمح لي باستئجار تلك الغرفة في نزل السيّدة كارمن. وبعد انتقالي إلى هناك بأسبوعين، جاءت السيّدة إلى غرفتي وأعلمتني بمجيء رجلٍ يسأل عني. وعند البهو، وجدتُ رجلاً يرتدي ثيابًا رماديّة، نظرته رماديّة وحتّى صوته رماديّ. سألني إن كنت داڤيد مارتين، ثمّ أعطاني طردًا صغيرًا مغلفًا بالرقّ، واختفى تاركًا غيابه الرماديّ يلوّث عالمي البائس. حملتُ الطرد إلى غرفتي وأغلقتُ الباب. لم يكن أحد يعرف أنّي أعيش هناك، باستثناء اثنين أو ثلاثة أشخاص يعملون في الصحيفة. أزلتُ الغلاف مستغربًا إذ كان أوّل طردٍ أستلمه في حياتي. وجدتُ فيه علبة خشبية معتّقة، مظهرها مألوف نوعًا ما. وضعتُها على السرير وفتحتُها. كانت تحتوي على مسدّس والدي القديم، السلاح الذي حصل عليه من الجيش، وعاد به من الفلبين كي يلقى مصرعه المؤسف مبكّرًا. بجانب السلاح، كانت هنالك علبة كرتونيّة صغيرة تحتوي على بعض الطلقات. أخذتُ المسدس وقدّرتُ وزنه. كان مفعمًا برائحة الزيت والبارود. تساءلتُ كم رجلاً قتل والدي بذلك السلاح، وكم مرّةً تمنّى أن ينتحر به حتمًا قبل أن يقتلوه. أرجعتُ المسدّس إلى العلبة وأغلقتُها. خطر في بالي حينها أن أرميه في القمامة، لكنّي فطنتُ أنّ المسدّس هو كلّ ما بقي لديّ من ذكرى والدي. تخيّلتُ أنّ أحد المرابين، الذي صادر ما نملكه في شقّة والدي، قرّر أن يكافئني بإرساله إليّ تلك الذكرى المميتة، كي أعمّد بها سنّ الرشد. خبّأتُ العلبة فوق الخزانة، إلى الجدار الذي تراكمت عليه قذارة الدنيا، وحيث لا تصل السيدة كارمن ولو قفزتْ بالزانة، ولم أمسّها لأعوام.

وفي ذلك المساء نفسه، عدت إلى مكتبة سيمبيري وأبناؤه. وبما أنّي بتُّ رجلاً يحصل على قوت يومه، أظهرتُ لبائع الكتب رغبتي في الحصول على تلك النسخة القديمة من «آمال عظيمة»، تلك التي اضطررتُ إلى إرجاعها منذ أعوام خلت.

- خذ منّي السعر الذي تريد - قلت له - خذ منّي سعر كلّ الكتب التي لم أدفع ثمنها خلال العشرة أعوام الأخيرة.

أذكر أنّ سيمبيري ابتسم بمرارة وحطّ يده على كتفي.

- لقد بعتُه هذا الصباح - اعترف محبطًا.

6

بعد ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا من تأليف أوّل قصّة نُشرت في «صوت الصناعة»، وصلتُ كالعادة إلى مقرّ الصحيفة ووجدتها مقفرة من الموظفين. ثمّة مجموعة من المحرّرين الذين منحوني تشجيعهم بألقابٍ وديّة قبل أشهر، وما إن رأوني أدخل يومها حتى تجاهلوا تحيّتي وانعزلوا يتهامسون ما بينهم. وفي أقلّ من دقيقة، ارتدوا ستراتهم واختفوا كأنّهم يخشون أن تصيبهم منّي عدوى بداء عضال. بقيتُ جالسًا بمفردي في تلك القاعة القاتمة، أتأمّل المشهد الغريب لعشرات من المناضد الفارغة، حتى سمعتُ خطوات بطيئة ومتردّدة خلف ظهري تعلن وصول الدون ڤاسيليو.

- مساء الخير يا دون ڤاسيليو. ما الذي يحدث اليوم وقد غادر الجميع؟

نظر إليّ بحزن وجلس إلى المنضدة القريبة.

- ثمّة حفل عشاء بمناسبة أعياد الميلاد لكلّ أعضاء الصحيفة. في سيت بورتيس - قال بصوت هادئ - أتخيّل أنهم لم يقولوا لك شيئًا.

افتعلتُ ابتسامة تعبّر عن عدم المبالاة، وأومأتُ نافيًا.

- وحضرتك، لن تذهب؟ - سألته.

هزّ رأسه.

- لم تعد لديّ رغبة في هذا.

تبادلنا نظرة صامتة.

- وإن دعوتك أنا؟ - اقترحت - أينما تشاء. إلى كان سولي إن أردت. أنا وحضرتك فقط، كي نحتفل بنجاح «ألغاز برشلونة».

ابتسم الدون ڤاسيليو وهو يومئ ببطء.

- يا مارتين - قال في النهاية - لا أعرف كيف أخبرك بالأمر.

- أيّ أمر؟

غلظ صوته وقال:

- لم يعد بوسعي أن أنشر لك مزيدًا من حلقات «ألغاز برشلونة».

نظرتُ إليه مستغربًا. فأزاح نظراته عني.

- هل تريد أن أكتب شيئا مختلفًا؟ شيئًا واقعيًّا على طريقة غالدوس؟

- مارتين، أنت تعرف طباع الناس هنا. لقد صدرتْ بعض الشكاوى، وحاولتُ أن أحلّ المشكلة لكنّ رئيس التحرير رجلٌ ضعيفٌ يتجنّب النزاعات التي لا ضرورة لها.

- لا أفهمك يا دون ڤاسيليو.

- مارتين، طلبوا منّي أن أخبرك بالأمر.

نظر إليّ أخيرًا وشدّ كتفيه.

- أنا مطرود - غمغمتُ.

هزّ الدون ڤاسيليو رأسه. وشعرتُ أنّ الدموع تملأ عينيّ رغمًا عنّي.

- سيبدو لك الأمر كنهاية العالم الآن، ولكن صدّقني أنّه أفضل ما قد تتعرّض له. فهذا المكان لا يناسبك.

- وما هو المكان الذي يناسبني؟ - سألتُ.

- أنا آسف يا مارتين. صدّقني، أنا آسف.

نهض وربّت على كتفي بمودّة.

- أعياد ميلاد سعيدة يا مارتين.

في ذلك المساء نفسه، فرّغتُ منضدتي وتركتُ ما كنت أعتبره بيتي إلى الأبد، لأهيم في شوارع المدينة المظلمة والموحشة. في الطريق إلى النزل، مررتُ بجانب مطعم سيت بورتيس تحت أقواس بيت خيفريه. نظرتُ إلى زملائي، من خلف الزجاج، وهم يضحكون ويشربون النخب. وتمنيّتُ أن يسعدهم غيابي أو أن ينسيهم تعاستهم على الأقلّ.

قضّيتُ بقية الأسبوع هكذا، ألوذ كلّ يوم في مكتبة الجامعة مقتنعًا بأنّي، في العودة إلى النزل، سأجد رسالة من رئيس التحرير يتوسّل فيها أن أعود إلى عملي. وفي إحدى صالات القراءة، كنت أخرج البطاقة التي وجدتُها بين يديّ، إبّان صحوتي في الإنسوينيو؛ وأشرع بكتابة رسالةٍ إلى فاعل الخير المجهول، أندرياس كوريلّي، فينتهي بي الأمر دومًا إلى تمزيقها وكتابة أخرى في اليوم التالي. في اليوم السابع، بعد أن مللتُ من الشفقة على نفسي، قرّرت أنّه لا بدّ لي من الحجّ إلى بيت خالقي.

ركبتُ قطار المترو المتجه إلى ساريا، من شارع بيلاي. كانت السكة ما تزال حينها فوق سطح الأرض، فجلستُ في المقصورة الأولى لأتأمّل الشوارع كيف تصبح أكثر اتساعًا وأبهة كلّما ابتعدنا عن مركز المدينة. نزلتُ في محطة ساريا وأخذتُ الترام المتّجه إلى مدخل دير پيدرالبيس. كان يومًا حارًّا على غير المتوقّع في ذلك الفصل، حتى إنّي شممتُ عبق الصنوبر وأزهار الردم التي تنمو على سفح الجبل. دخلتُ شارع بيارسون، الذي كان في طور التشييد،

وسرعان ما رأيتُ واجهة ڤيلا هيليوس الفريدة من نوعها. وبينما كنت أصعد وأقترب، استطعتُ أن أرى ڤيذال يتذوّق سيجارة عند نافذة البرج بقميصٍ منزليّ. كنت أسمع الموسيقى تحوم في الأجواء وتذكّرتُ أنّ ڤيذال كان من بين المحظوظين القلائل الذين لديهم جهاز راديو. لا بدّ أنّ الحياة تبدو جميلة من هناك في الأعلى، ولا بدّ أنّي أبدو رجلاً بلا قيمة بالمقابل.

رفعتُ يدي لتحيّته فبادلني التحيّة. وصلتُ إلى الڤيلا فقابلتُ السائق مانويل الذي كان ذاهبًا إلى موقف السيارات وهو يحمل قطعة قماش وسطل ماء ساخن.

- يسعدني أن أراك هنا يا مارتين - قال - عسى أن تكون بخير. هل ما تزال في أوج نشاطك؟

- قدر المستطاع - أجبته.

- لا تكن متواضعًا. حتّى ابنتي تقرأ المغامرات التي تنشرها في الصحيفة.

ابتلعتُ ريقًا وفوجئتُ بأنّ ابنة السائق تعلم بوجودي بل وتتابع تلك القصص السخيفة التي كنت أكتبها أيضًا.

- كريستينا؟

- ليس لديّ غيرها - أجاب الدون مانويل - السيّد في مكتبه، إن أردت أن تصعد.

شكرته وأنا أهزّ برأسي ودخلتُ إلى البيت. صعدتُ حتّى الطابق الثالث من البرج الذي ينهض فوق السطح المائل بالقرميد متعدّد الألوان. كان ڤيذال في المكتب الذي يشرف على المدينة والبحر في الأفق. أطفأ الراديو، أداة بحجم نيزكٍ صغير، اشتراه قبل عدة أشهر حين بُثّت أوّل البرامج من راديو برشلونة المكوّن من استديوهات مخبّأة تحت قبّة فندق كولون.

- كلّفني ثمنه أربعمائة بيسيتا لأكتشف أنّه لا ينطق إلا بالهراء.

جلسنا وجهًا لوجه، والنوافذ كلّها مفتوحة أمام النسمات التي خلتها آتيةً من عالمٍ آخر، أنا المقيم في المدينة القديمة والمعتاد على أجوائها الضبابيّة. كنتُ أسمع طنين الحشرات في الحديقة وحفيف الأشجار التي تلهو مع الريح.

- كأنّنا في منتصف الصيف - ارتجلتُ.

- لا تتهرّبْ بالحديث عن الطقس. لقد أخبروني بما حدث - قال ڤيذال.

عبّرتُ عن عدم مبالاتي وألقيتُ نظرة إلى منضدته. كنتُ أعرف أنّ مُرشدي، منذ أشهر، إن لم نقل سنوات، يحاول أن يكتب ما يسمّيه بروايةٍ «جدّيّة»، بعيدة عن المواضيع الخفيفة لتلك القصص البوليسيّة، ليسجّل اسمه في أكثر اللوائح إهمالاً داخل المكتبات. لم يكن ثمّة الكثير من الأوراق.

- ما أخبار الرائعة الأدبية؟

رمى ڤيذال عقب السيجارة من النافذة ونظر بعيدًا.

- لم يعد في حوزتي ما أقول يا داڤيد.

- كلامٌ فارغ.

- كلّ شيء فارغ في هذه الحياة. إنّها مسألة وجهات نظر، ببساطة.

- بإمكانك أن تضع هذا في الكتاب. «العدميّ فوق الهضبة». سيحقق نجاحًا مؤكدًا.

- بل أنت الذي يحتاج إلى النجاح سريعًا، إذ بدأتَ تفقد مواردك إن لم أخطئ.

- أقبل صدقاتك دومًا يا دون پيدرو.

- لكلّ شيء بداية صعبة. قد يبدو لك الآن نهاية العالم ولكن...

- ولكن سرعان ما سأكتشف أنّه أفضل شيء تعرّضت له - أتممتُ - لا تقل لي إنّك تستعين بالدون ڤاسيليو لتأليف الخطب.

ضحك ڤيذال.

- ما الذي تنوي القيام به؟

- ألستَ في حاجة إلى سكرتير؟

- لديّ أفضل سكرتيرة قد أحصل عليها أبدًا. إنّها أذكى منّي، ونشاطها في العمل ليس له حدود، وحين تبتسم أتفاءل خيرًا بهذا العالم المقزّز.

- ومن هي هذه الأعجوبة؟

- ابنة مانويل.

- كريستينا؟

- وأخيرًا أسمعك تلفظ اسمها.

- لقد اخترتَ أسوأ أسبوعٍ لتسخر منّي يا دون پيدرو.

- لا تنظر إليّ كالحمل المذبوح. هل تظنّ أنّ پيدرو ڤيذال كان سيسمح لذلك القطيع من المنافقين، الحسّاد والبخلاء، أن يرموا بك على قارعة الطريق، ويقف مكتوف اليدين؟

- كان بوسعك أن تحلّ المشكلة بكلمة واحدة مع رئيس التحرير.

- أعرف. كنت أنا من أقترح عليه أن يسرّحك من العمل - قال ڤيذال.

شعرتُ كمن تلقّى صفعة مباغتة.

- شكرًا على المساعدة - ارتجلتُ.

- قلت له أن يسرّحك لأنّي عندي لك ما هو أفضل من هذا بكثير.

- التسوّل؟

- يا لك من جاحد! في الأمس، تحدّثتُ عنك مع شريكين افتتحا للتوّ دار نشر ويبحثان عن دماء شابّة يستثمرونها.

- يبدو رائعًا.

- يعرفان «ألغاز برشلونة»، وسيقدّمان لك عرضًا يجعل منك رجلاً محترمًا.

- هل أنت جادٌّ بما تقول؟

- بالتأكيد. يريدان أن تكتب لهما سلسلة من الروايات تتسّم بطابع الـ«غراند غوينيول»، بأقصى ما تحمله من تعقيد ودماء وهذيان، وتحطّم أسطورة «ألغاز برشلونة». أرى أنّها الفرصة التي كنت تنتظرها. أخبرتُهما بأنّك ستزورهما وأنّك مستعدّ لتباشر العمل.

تنفستُ الصعداء. غمز ڤيذال بعينه ثمّ عانقني.

7

وهكذا تلقيّتُ عرضًا بكتابة الروايات، مقابل أجرٍ معيّن على الصفحة الواحدة، تحت اسم مستعار «إغناثيوس ب. سامسون»؛ ووافقتُ عليه قبل أن أتمّ عامي العشرين ببضعة أشهر. وكان العقد يُلزِمني بتسليم مائتي صفحة، منسوخة على الآلة الكاتبة، شهريًّا؛ شرط أن تفيض تلك الصفحات بالدسائس وجرائم القتل في الطبقة الاجتماعية العليا والفظائع التي لا حدود لها في الطبقة المسحوقة، ناهيك عن قصص الحبّ المحظور بين رجال قساة، ذوي فكّ سفليّ شديد البروز، ووصيفاتٍ استفحلتْ بهنّ نيرانُ الشهوة، فضلاً عن شتّى أنواع الملاحم العائليّة المعقدّة بخفايا أشدّ قذارةً وكدرًا من مياه المرفأ. قررتُ أن أعنون السلسلة بـ«مدينة الملاعين»، والتي ستُنشر في إصدارٍ شهريّ بطبعة مجلّدة وغلاف ملوّن. وكنت سأكسب أجرًا يفوق تصوّري بمردود أيّ مهنة محترمة أخرى. لن أخضع لمقصّ الرقابة، سوى رقابة القرّاء واهتمامهم الذي كان من أبرز تحدّياتي. ولئن كان العقد يرغمني على الكتابة باسم مستعار غريبٍ جدًّا، فإنّ هذا بدا لي حينذاك ثمنًا زهيدًا أضحّي به مقابل تحقيق حلمي المنشود: وهو أن أعيش من أجور المهنة التي أحِبّ. فكنت سأتنازل عن لذّة الغرور برؤية اسمي مطبوعًا على غلاف عملٍ من تأليفي، ولكن ليس عن الغرور بنفسي ولا بما كنتُ عليه.

أمّا دار النشر يرأسها ثنائيٌّ كاريكاتوريّ: السّيدان باريدو وإسكوبياس. كان باريدو قصير القامة، مكتنز البنية، ومسلّحًا بابتسامة نفاقٍ وغموض على الدوام؛ وهو العقل المدبّر للعمليّات. كان آتيًا من التجارة باللحوم المقدّدة؛ ومع أنّه لم يقرأ في حياته أكثر من ثلاثة كتب، بما فيها تعاليم الكنيسة والدليل الهاتفيّ، كان يمتاز بجسارة لا مثيل لها في تزوير كشوف الحساب للمستثمرين، مستخدمًا مخيّلةً خصبةً يحسده عليها المؤلّفون الذين تستغلّهم دار النشر خاصّته، كما نوّه ڤيذال، وتحتال عليهم ثمّ ترميهم في عرض البحر حين تأتي الرياح باتجاه معاكس؛ الأمر الذي كان يحدث دومًا، عاجلاً أم آجلاً.

أمّا إسكوبياس، كان يؤدّي دورًا تكميليًّا. طويل القامة، هزيل البنية وذو ملامح عدائيّة ومريبة. اكتسب خبرته في مجال المآتم ودفن الموتى؛ فكان عطر الكولونيا الخانق - الذي يستر به عيوبه - لا يخفي رائحة الفورمول[3] النتنة والمرعبة. وظيفته تشبه مَهمّة الحارس الغليظ إلى حدّ كبير، لا ينقصه سوى أن يمسك السوط بيده، مستعدًّا لتأدية المهام القذرة التي لا تليق برجلٍ مثل باريدو صاحب المظهر اللطيف والبنية غير الرياضية على الإطلاق. وكي يكتمل المثلّث، ها هي السكرتيرة هيرمينيا، التي تتبعهما ككلب وفيّ، وكان الجميع يلقّبها «ڤينينو»/«السمّ» لأنّها، ورغم هيئتها الشبيهة بقطّة ميّتة، كانت أشدّ غدرًا من أفعى الأجراس في ذروة القيظ.

وبصرف النظر عن الرسميّات، حاولتُ تجنّب الاحتكاك بهم قدر الإمكان. إذ كانت علاقتنا تقتصر على طابعها العمليّ، ولم يشأ أيٌّ من الطرفين أن يكسر حواجز اللباقة. فما كنت لأغتنم تلك الفرصة، وأعمل بكدٍّ

وجهد، إلاّ لأثبت لڤيذال، ولنفسي أيضًا، أنّي أستحقّ مساعدته وثقته. وما إن دخلتْ جيبي بعض النقود حتّى قررتُ الخروج من نزل السيّدة كارمن، بحثًا عن مسكنٍ مريح. كنتُ منذ مدّة قد وضعتُ نُصب عينيّ بيتًا كبيرًا، له مظهرٌ أثريّ ويقع في 30 شارع فلاساديرس، على مرمى حجرٍ من حيّ بورن. وكنت دائمًا ما أمرّ قبالته في طريقي، ذهابًا إيابًا، من الجريدة إلى النزل. كان العقار مغلقًا منذ سنوات، وهو برجٌ ضخمٌ، تنهض على أحد جوانبه واجهةٌ منقوشةٌ بالمجسّمات والحيوانات الأسطوريّة والمنحوتات النافرة، وبوّابته مقفلة بسلاسل ومتاريس نخرها الصدأ. كانت فكرة الانتقال للسكن فيه تُلهِب رغبتي في النوايا السيّئة، رغم شكله المشؤوم وعديم التناسق، أو ربّما لهذا السبب تحديدًا. ولو كنتُ في وضع مختلف لسلّمتُ بأنّ مكانًا كهذا يضاهي إمكانيّاتي المتواضعة؛ إلاّ أنّ السنوات العجاف التي عشتها، والتي أذاقتني مرارة الهجران والنسيان، جعلتني أعقد الأمل في أن يوافق المالك على عرضي، إن لم يكن هناك مَن ينافسني على البيت.

وبعد استفسارٍ في الحيّ، علمتُ أنّ البيت كان مهجورًا منذ سنوات طويلة، حتّى تولّى شؤون ملكيّته وكيل أعمال، يدعى بيثينس كلافيه، يقع مكتبه في شارع كوميرثو قبالة السوق. كان كلافيه من الأشراف الذين ولّى زمانهم، يطيب له ارتداء أزياءٍ تليق بتماثيل النقباء وآباء الوطن الموجودة في منتزه القلعة، والتحليق في أعالي البلاغة - التي لا توفّر أحدًا - عند أصغر مناسبة.

- هكذا إذن. حضرتك كاتب. بوسعي أن أقصّ عليك حكاياتٍ تؤلّف منها كتبًا قيّمة.

- إنّي متأكد من ذلك. لمَ لا نبدأ بحكاية ذلك البيت، 30 شارع فلاساديرس؟

اتخذ تعبير وجهه شكل قناعٍ إغريقيّ.

- بيت البرج؟

- تمامًا.

- اسمعني جيدًا يا فتى. لا تنتقلْ للسكن هناك!

- لمَ لا؟

أخفض صوته ولفظ جملة بنبرة جنائزيّة، مغمغمًا كأنّه يخشى من الجدران أن تسمعنا.

- ذلك البيت مشؤوم. لقد دخلتُ إليه حين ذهبتُ مع محرّر العقود لترتيب السجّلات. لعَمْري إنّ الجانب القديم من مقبرة مونتويك يثير البهجة أكثر من ذلك البيت. لم يسكنه أحدٌ منذ ذلك الحين. يحتوي على ذكريات بشعة. لا أحد يرغب فيه.

- لا يمكن أن تكون ذكرياته أبشع من ذكرياتي. وعلى كلّ حال قد يساعد هذا في تخفيض السعر المطلوب.

- ثمّة سعرٌ لا يمكن دفعه بالمال، أحيانًا.

- هل يمكنني إلقاء نظرة على البيت؟

زرتُ بيت البرج للمرّة الأولى ذات صباح من شهر مارس، رفقة الوكيل ومساعده وموظّف في المصرف الذي يحتكر سندات المِلكيّة. ويبدو أنّ البيت قد دخل في متاهة معقّدة من الدعاوى القضائيّة قبل أن يعود إلى المصرف الذي تضمّنه كآخر المالكين. ولم تطأه قدم أحدٍ منذ عشرين عامًا على الأقلّ، إن لم يكذب كلافيه.

8

تذكّرتُ زيارتي الأولى لبيت البرج في شارع فلاساديرس بعد عدّة أعوام، حين قرأتُ تقرير بعض المستكشفين البريطانيين الذين دخلوا في ظلمات مدفنٍ فرعونيّ ضاربٍ في القدم، بكلّ المتاهات واللعنات التي يمكن تصوّرها. كان مساعد الوكيل يحمل مصباحًا زيتيًا، إذ لم يتمّ توصيل الكهرباء إلى البيت أبدًا. وكان لدى موظّف المصرف مجموعة مؤلّفة من خمسة عشر مفتاحًا، يقهر بها أقفال السلاسل العنيدة. وما إن فتحنا البوّابة، حتّى أصدر البيت رائحة فاسدة، لها طعم الرطوبة والقبور. فأصيب الموظّف بنوبة سعال، بينما وضع الوكيل منديله على فمه وقد تقنّع بأفضل تعبير لديه عن الشكّ والترقّب.

- تفضّلْ أنت أولاً - قال.

كان المدخل عبارة عن فناء داخليّ، مصمّمًا وفق الأذواق القديمة في أبنية تلك المنطقة، بقِطع بلاطٍ كبيرة وسلّم حجريّ يفضي إلى باب البيت الرئيس. هناك في الأعلى، يرتعش الضوء المتسرّب من المنور الزجاجيّ المغطّى كليًّا بذرق الحمَام وطيور النورس.

- لا وجود للفئران - صرّحتُ وأنا أدخل المبنى.

- لا بدّ أنّ أحدهم كان يتحلّى بذوقٍ رفيع وفطرة سليمة عمومًا - قال الوكيل خلف ظهري.

صعدنا السلالم حتّى المستراح، حيث احتاج الموظّف عشر دقائق ليجد المفتاح المناسب. وعندما باشر الفتح، تولّد صريرٌ لا يبشّر بحسن استقبال، إذ كشف الباب عن ممرّ ليس له نهاية، مكتظٍّ بشباك العناكب التي تتراقص في الظلمات.

- يا أمّ الربّ! - تضرّع الوكيل.

لم يجرؤ أحدٌ منهم على الخطوة الأولى، ما دفعني مرّة ثانية على قيادة البعثة الاستكشافيّة. كان المساعد يحمل المصباح عاليًا، ويراقب كلّ شيء بنظرة تصطنع التألّم.

تبادل الوكيل والموظّف نظرةً يصعب تفسيرها. وحين انتبها أنّي أراقبهما، ارتسمت ابتسامةٌ وديعة على وجه الموظّف.

- إذا أزلنا الغبار، ورمّمنا قليلاً، يصبح هذا المكان قصرًا - قال.

- قصر القاتل ذي «اللحية الزرقاء» - علّق الوكيل.

- فلنكن إيجابيين - صحّح له موظّف المصرف - البيت مهجور منذ زمن معيّن وهذا يسبّب مشاكل محدودة عادةً.

كنت بالكاد أعيرهما انتباهًا. لقد حلمتُ أكثر من مرّة بذلك المكان وأنا أمرّ قبالته، حتّى إنّي لم أكترث لطبيعته الكئيبة والغامضة. تقدّمتُ على طول الممرّ الرئيس، مستكشفًا الغرف التي يرقد فيها الأثاث القديم مهمَلاً تحت عباءة ثخينة من الغبار. ما تزال إحدى الطاولات مغطّاة بمفرشٍ مهترئ، وعليها بعض الأطباق ووعاء تتكدّس فيه الفواكه والأزهار المتحجّرة. ما تزال هناك الكؤوس وأدوات الطعام أيضًا، كما لو أنّ سكّان البيت رحلوا قبل أن يكملوا عشاءهم.

وكانت الخزانات مليئة بالأحذية القديمة والثياب البالية والبدلات كالحة اللون. صناديقٌ بأسرها تغصّ بالصور الفوتوغرافيّة والنظّارات والأقلام والساعات. كانت الوجوه في الصور المتشحة بالغبار تراقبنا من على الأدراج. والأسرّة مرتّبة ومغطّاة بكساء أبيض يلمع في الظلام. ثمّة فونوغراف أثريّ يعتلي طاولة مصنوعة من الخشب الصلب. وفي تلك الآلة قرصٌ، وقد أنهت الإبرةُ آخر دوراتها عليه. نفختُ عنه قشرة الغبار فنفر عنوانُ القرص منقوشًا: «لاكريموزا» لموزارت.

- الأوركسترا السيمفونيّة في البيت - قال الموظّف - ماذا تريد أكثر من ذلك؟ ستعيش هنا مثل الباشوات.

رماه الوكيل بنظرة إجراميّة، وهو يهزّ رأسه خلسةً. اجتزنا الممرّ وصولاً إلى الصالة، حيث ما يزال فنجان القهوة راقدًا على الطاولة الصغيرة، ويوجد كتابٌ مفتوح ما لبث ينتظر أحدًا يتصفّح أوراقه جالسًا على الأريكة.

- يبدو وكأنّهم رحلوا بغتة، على غفلة من أمرهم، ولم يتسنّ لهم حمل أيّ شيء - قلت.

سعل الموظّف.

- هل تريد حضرتك إلقاء نظرة على المكتب؟

كان المكتب يقع في قمّة البرج الضيّق، له تصميم خاصّ يقتضي وجود سلالم حلزونيّة تنطلق من الممرّ الرئيس، وعلى واجهته الخارجية تزهو كلّ آثار الأجيال التي تذكرها المدينة. يُشرف البرج على إطلالة جميلة من أسطح حيّ ريبيرا، وقبّته المعدنيّة ضيّقة ومشبوكة بزجاج ملّون كان يؤدّي مهمّة المنارة، ويحمل بوصلة «زهرة الريح» على شكل تنّين.

صعدنا السلالم ودخلنا الغرفة حيث سارع الموظّف إلى فتح النوافذ لإتاحة النور والهواء. الغرفة مستقيمة الأضلاع وسقفها شاهق وأرضيّتها من خشبٍ داكن اللون. أمّا النوافذ الأربع الكبيرة المقوّسة، فكلّ منها على جهة: بإمكاني تأمّل كنيسة سانتا ماريّا دل مار جنوبًا، سوق بورن الكبيرة شمالاً، محطّة فرنسا القديمة شرقًا، أمّا في أفق الغرب ثمّة متاهة لا حدود لها من الشوارع والطرقات المكدّسة فوق بعضها حتّى تلّ تيبيدابو.

- ما رأيك؟ إنّه أعجوبة! - ادّعى الموظّف متحمّسًا.

كان الوكيل يتفحّص كلّ شيء بارتباك واستياء. وما لبث الموظف يحمل المصباح عاليًا، رغم عدم الحاجة إليه حينها. اقتربتُ من إحدى النوافذ وأطللتُ برأسي لأرنو السماء منتشيًا.

كلّ برشلونة تنبسط تحت قدميّ؛ اعتقدتُ أنّي ما إن أفتح نوافذي الجديدة حتّى تهمس شوارعُ المدينة الحكاياتِ والأسرارَ في أذنيّ، عند الغروب، فأسجّلها مباشرة على الورق وأرويها على من أراد قراءتها. إذ كان لدى ڤيذال أيضًا برجه العاجيّ المرتفع والفاخر، في أعلى أنحاء پيدرالبيس وأكثرها رقيًّا، تحيطه التلال والأشجار والسماوات، من كلّ جانب، كأنّه يعيش حلمًا. سيكون لي برجي الخاص أنا أيضًا، مهما كان مظهره تعيسًا. برجٌ كبير يرتقي فوق أكثر شوارع المدينة قِدمًا وضبابيّة، ومطوّقٌ بعفونة تلك المقبرة وسرابها؛ المقبرة التي اتّفق الشعراء والمجرمون على تسميتها بـ«زهرة النار»[4].

لكنّي لم أتشجّع على حسم القرار إلاّ حين رأيتُ المنضدة التي تهيمن على وسط المكتب. ثمّة آلة كاتبة عجيبة، من طراز أندروود، كأنّها منحوتة أثريّة من معدنٍ ونور، والتي كان مجرّد وجودها بالنسبة إليّ يستحقّ ثمن الإيجار كلّه. جلستُ على الديوان المُعدّ للجنرالات الكبار، خلف المنضدة، ورحت أتلمّس لوحة المفاتيح وأنا أبتسم.

- سأستأجر البيت - قلت.

تنفّس الموظّف الصعداء، بينما حملق الوكيل بعينيه وصلّى بإشارة الصليب. ووقّعتُ عقد الإيجار، لمدّة عشر سنوات، عصر اليوم نفسه. وحينما كان عمّال شركة الكهرباء يمدّون البيت بالأنوار، تفرّغتُ لتنظيفه وترتيبه بمساعدة ثلاثة من الخدم أرسلهم إليّ ڤيذال، مستبِقًا طلبي النجدة منه. وسرعان ما اكتشفتُ أنّ «العمليّة الاستقصائيّة» التي أجرتها بعثة الخبراء كانت تركّز في البداية على إحداث الثقوب يمنة وشمالاً ثمّ على الاستقصاء. فبعد رسوّهم بثلاثة أيّام، لم ينعم البيت بنور مصباح واحدٍ، وكان أيّ شخص قادرًا على التكهّن بأنّ القوارض تعيث فسادًا في ذلك البيت وتنهش الجصّ والمعادن النبيلة.

- هل هذا يعني أنّه ما من طريقة لحلّ المشكلة؟ - كنتُ أسأل قائد الكتيبة التي تصلّح كلّ شيء بضرب المطارق.

أوتيليو، اسم الرجل الموهوب، كان يُطلعني على الخرائط المصغّرة التي سلمّني إيّاها الوكيل مع المفاتيح، وكان يفترض أنّ الخلل يكمن في رداءة بناء البيت أصلاً.

- انظر هنا - كان يقول - لا يسعنا فعل شيء حين تكون الأساسات مبنيّة كيفما اتّفق. هنا مثلاً؛ يقول إنّ الخزّان موجود على الشرفة. وهذا غير صحيح، الخزّان في الفناء الخلفيّ.

- وما شأن هذا يا أوتيليو؟ الخزّان لا ينافسك. ركّزْ على مشكلة الكهرباء. على الضوء. وليس على الصنابير وشبكة الأنابيب. على الضوء. إنّي في حاجة إلى الضوء.

- الأشياء موصولة بعضها ببعض يا سيّدي. ما رأيك في الصالة؟

- ليس فيها ضوء.

- بحسب الخريطة، لا بدّ أن يكون هناك جدار أساسيّ. حسنًا، ما رأيك أنّ زميلي ريميجو سدّد ضربة خفيفة فانهار نصف الجدار؟ لن أخبرك عن بقيّة الغرف. تشير الخريطة، مرّة أخرى، إلى أنّ مساحة الصالة، التي في آخر الممرّ، حوالي أربعين مترًا مربّعًا. وهذا ليس صحيحًا البتّة. إن تعدّتْ مساحتُها عشرين مترًا، قطعتُ يدي. ثمّة جدارٌ حيث لا ينبغي أن يكون. وبالنسبة إلى أنابيب الصرف، حسنًا، أفضّل عدم التطرّق إلى هذا الموضوع. لا يوجد أيّ أنبوب في محلّه الصحيح.

- هل أنت متأكد من قدرتك على قراءة الخرائط المصغّرة؟

- اسمع يا سيّدي، أنا خبيرٌ ومحترف. ثق بكلامي، هذا البيت متاهةٌ عويصة. أراهن أنّ مَن شيّده لا يفقه شيئًا.

- حسنًا، عليك أن تتدبّر أمورك بالموجود. اصنع معجزة أو ما تشاء. أريد الجدران مُليّسة ومطليّة، والأضواء تعمل، يوم الجمعة القادم كحدٍّ أقصى.

- لا تستعجلني أرجوك، فهذا العمل يتطلّب دقّة فائقة. لا بدّ لنا من التحرّك وفق استراتيجيّة معيّنة.

- بم تفكّرون إذن؟

- في هذه اللحظة، نفكّر في تناول الطعام.

- لكنّكم وصلتم منذ نصف ساعة فقط.

- يا سيّد مارتين، سلوكك هذا لن يؤدّي بنا إلى أيّ نتيجة.

استمرّت أعمال الصيانة أسبوعًا إضافة إلى المتوقّع، وكأنّ العمال يمشون على درب الصليب والآلام. ولكن بفضل سلام أوتيليو وفريق المعجزات العظيم الذي يرافقه، الذين كانوا يُحدثون ثقوبًا أينما شاؤوا ويتناولون فطورًا يمتدّ لساعتين ونصف الساعة، فإنّ أوهامي بالسكن أخيرًا في البيت الذي حلمتُ به لوقت طويل كانت تعِدني بالعيش فيه أعوامًا على نور الشموع والمصابيح الزيتيّة، إن لزم الأمر. ولحسن الحظّ، كان حيّ ريبيرا ذخرًا روحيًا وماديًا من الحرفيّين من كلّ نوع، وعلى بعد خطوتين من مسكني الجديد وجدتُ مَن بوسعه تركيب أقفالٍ لا تبدو مسروقة من سجن الباستيل، إضافة إلى مصابيح وشبكة صنابير صالحة للاستخدام في القرن العشرين. لم أكن شغوفًا بتوصيل سلكٍ هاتفيٍّ، ووفقًا لما استطعتُ سماعه من راديو ڤيذال، فإنّ ما كانت الصحافة المعاصرة تسمّيه بوسائل التواصل الحديثة لم تأخذني بعين الاعتبار في لحظة البحث عن جمهور. قرّرتُ أن يقوم وجودي على الكتب والهدوء. ولم أحمل معي من النزل سوى بعض الثياب والعلبة الخشبية التي تحتوي على مسدّس والدي، فهذه ذكراه الوحيدة عندي. ووزعتُ بقيّة ملابسي وأغراضي الشخصيّة على النزلاء الجدد. ولو كنتُ أستطيع أن أترك جِلدي وذاكرتي خلف ظهري، لفعلتُها.

قضيتُ الليلة الأولى في بيت البرج، رسميًّا وبوجود الكهرباء، عشيّة اليوم التي صدرت فيه الحلقة الافتتاحية من «مدينة الملاعين». كان موضوع الرواية مرتكزًا على حريق الإنسوينيو عام 1903 وعلى شخصيّة شبحيّة تمارس

الشعوذة في شوارع الرافال منذ تلك الأوقات. وقبل أن يجفّ حبر الطبعة الأولى، بدأتُ العمل على الرواية الثانية من السلسلة. وبناءً على حساباتي، كان على إغناثيوس ب. سامسون أن ينتج بمعدّل 6،66 صفحات من أوراق الآلة الكاتبة يوميًّا، بالعمل ثلاثين يومًا بالشهر دون انقطاع، كي لا ينكث بشروط العقد. وهذا يُعدّ جنونًا، لكنّ ميزته الوحيدة أنّه لم يمنحني الوقت الكافي كي ألاحظ ما ارتكبتُه بحقّ نفسي.

ومع مرور الأيّام، لم ألحظ أنّي كنت أستهلك القهوة والسجائر أكثر من الأكسجين. وكلّما تسمّم دماغي، تولّد لديّ انطباعٌ بأنه يتحوّل إلى آلة بخارية لا تبرد أبدًا. فإغناثيوس ب. سامسون شابٌّ وبوسعه أن يقاوم. وكان يعمل طوال الليل، وينهار خائر القوى عند الفجر، فريسةً لأحلام غرائبيّة تنفصل فيها الأحرف عن الأوراق على اسطوانة الآلة الكاتبة، لتزحف على يديه ووجهه كعناكب من حبر، وتخترق بشرته لتعشّش في شرايينه حتى تملأ قلبه بالسواد وحدقة عينيه بالضباب، فيغرق في مستنقعات الظلام. كنت أقضي أسابيع بأكملها دون الخروج من البيت، وأنسى في أيّ يومٍ من الأسبوع كنت أعيش، أو في أيّ شهرٍ من السنة.

ولم أكن أعير اهتمامًا لآلام الصداع المتزايدة، والتي تهاجمني على حين غرّة، كما لو أنّ مثقبًا معدنيًّا ينخر جمجمتي، فيحترق بصري باندلاع نورٍ أبيض. تأقلمتُ مع الأزيز الهادر في أذنيّ، الذي لا يختفي إلاّ مع نسنسة الرياح أو هطل المطر. وأحيانًا، عندما يسيل العرق البارد على وجهي، أو ترتعش يديّ على مفاتيح الآلة الكاتبة، أقول لنفسي إنّي سأذهب إلى الطبيب في اليوم التالي. لكنّ اليوم التالي يحمل معه مشاهد جديدة وقصّة أخرى عليّ أن أرويها.

قررتُ أن أحتفل بمرور عامٍ على ولادة إغناثيوس ب. سامسون، وذلك باستراحةٍ ليوم كامل أتنزّه فيه تحت الشمس وأتمتّع بالنسيم العذب يداعب شوارع المدينة التي انقطعتُ عن السير فيها لأكتفي بتخيّلها. حلقتُ لحيتي واغتسلتُ، وارتديتُ أزهى ثيابي وأرقاها. تركتُ نوافذ المكتب مفتوحة كي أغيّر جوّ البيت، لعلّ ذلك الضباب الكثيف - الذي بات عطر المنزل وهويّته - ينقشع باتّجاهات الريح الأربعة. وحين نزلتُ إلى الطريق، وجدتُ ظرفًا كبيرًا في فوّهة صندوق البريد. كان يحتوي على رسالة من الرقّ، بدمغة الملاك بالشمع الأحمر، ومكتوبة بالخطّ المنمّق نفسه:

عزيزي دافيد

أردتُ أن أكون أوّل مهنّئيك على هذه المحطّة الجديدة من مسيرتك الأدبيّة. لقد أعجبتني الحلقات الأولى من «مدينة الملاعين» بشدّة. وأتمنّى أن تنال تقديرك هذه الهديّةُ المتواضعة.

أكرّر إعجابي بك، آملاً أن تتلاقى أقدارنا يومًا ما. كلّي إيمانٌ بحدوث هذا. تفضّلْ بقبول أطيب التحيّات من صديقك وقارئك

أندرياس كوريلي

كانت الهديّة نسخة من «آمال عظيمة»، النسخة نفسها التي أهداها لي السيد سيمبيري عندما كنت صغيرًا؛ نفسها التي أعدتُها إليه كي لا تقع بين يديّ والدي؛ نفسها التي أردتُ استرجاعها بعد عدّة أعوام، مهما كلّفني الثمن،

وقد اشتراها مجهولٌ ما في اليوم السابق. تمعّنتُ في كميّة تلك الأوراق التي بدت لي، ذات يوم ليس بعيدًا للغاية، أنّها تحتوي على كلّ السحر والنور في هذه الدنيا. كان الغلاف ما يزال يحتفظ ببصمات أناملي الناعمة الملطّخة بالدماء.

- شكرًا - غمغمتُ.

9

استعان السيّد سيمبيري بالنظّارات الدقيقة ليفحص الكتاب، على قطعة قماش مبسوطة فوق المنضدة في المستودع الخلفيّ. أخفض المصباح ليركّز جلّ الضوء على الكتاب. استمرّت المعاينة عدّة دقائق، بقيتُ خلالها واقفًا في خشوع مهيب. كنت أراقبه وهو يتصفّح الكتاب، ويشمّه ويلمس الغلاف الأماميّ والخلفيّ، ويقدّر وزنه بيدٍ ليغلقه بالأخرى، ثم يركّز بالعدسة على بصمات الدم الجافّ التي تركتها أصابعي منذ اثني عشر عامًا أو ثلاثة عشر.

- غير معقول - همس ونزع النظارات - إنّها النسخة نفسها. كيف حصلتَ عليها؟

- أنا أيضًا، لا أدري. سيّد سيمبيري، ما الذي تعرفه عن ناشرٍ فرنسيّ يدعى أندرياس كوريلي؟

- انطباعي الأوّل أنّه إيطاليّ أكثر من كونه فرنسيًا، مع أنّ «أندرياس» يبدو يونانيًا...

- دار النشر في باريس. منشورات النور.

ظلّ سيمبيري يفكّر لحظاتٍ محتارًا.

- لا أعتقد أنّ الاسم مألوفًا بالنسبة إليّ. سأسأل برسلوه فهو يعرف كلّ شيء، وسنرى ماذا يقول.

كان غوستابو برسلوه من أعرق باعة الكتب القديمة في برشلونة، وثقافته الموسوعيّة أسطوريّة بقدر مزاجه النزق وشخصيّته المتحذلقة عمومًا. إزاء أيّ شكّ يراود المرء في هذه المهنة، كان يُنصح بالتوجّه إلى برسلوه. في تلك اللحظة، أطلّ ابن سيمبيري برأسه وأشار إلى أبيه. كم كان هذا الشابّ خجولاً، بل يبدو شفّافًا، مع أنّه أكبر مني بعامين أو ثلاثة.

- لقد جاء بعض الزبائن لاستلام طلبيّة يا أبي. أعتقد أنك أنت مَن سجّلها.

أومأ بائع الكتب موافقًا ومدّ إليّ مجلّدًا غليظًا خاض الكثير من المعارك.

- هذا أحدث دليلٍ للناشرين الأوروبيّين. ألقِ عليه نظرة إن أردت، لعلّك تجد شيئًا ما، ريثما أخدم الزبون - اقترح.

عاد سيمبيري إلى المصطبة، وبقيتُ بمفردي في المستودع الخلفيّ، أبحث عبثًا عن «منشورات النور». وبينما كنت أتصفّح الدليل، سمعتُه يتحادث مع صوتٍ نسائيّ بدا مألوفًا على مسامعي. وسمعتُ أنّهما يذكران اسم پيدرو ڤيدال، فأطللتُ برأسي بفضولٍ وحسٍّ تآمريّ.

كانت كريستينا سانغيير، سكرتيرة مُرشدي وابنة سائقه، تعاين مجموعة من الكتب المكدّسة التي يدوّنها سيبمبيري في سجلّ المبيعات. ابتسمتْ بوقارٍ عندما رأتني، لكنّي كنتُ متأكدًا من أنّها لم تعرفني. رفع سيمبيري

أنظاره، وقام بتصويرٍ شعاعيٍّ للحالة، بسرعة فائقة، حين انتبه إلى نظرتي التي تشبه نظرة البومة السوداء.

- تعرفان بعضكما مسبقًا، أليس كذلك؟ - قال.

رفعت كريستينا حاجبيها مذهولة، ونظرت صوبي مجددًا، عاجزة عن تحديد هويّتي.

- داڤيد مارتين، صديق الدون پيدرو - بادرتُ لنجدتها.

- آه، بالتأكيد - قالت - صباح الخير.

- كيف حال والدك؟ - ارتجلتُ.

- بخير، بخير. إنّه ينتظرني في السيارة عند المنعطف.

تدخّل سيمبيري، وهو الذي كان لمّاحًا لبيبًا.

- الآنسة سانغيير جاءت لتأخذ كتبًا طلبها ڤيذال. لكنّ الكتب ثقيلة، فهلاّ ساعدتها في حمل الكتب إلى السيارة، من فضلك...

- لا مشكلة يا سيّدي... - اعترضت كريستينا.

- على الرحب والسعة - اندفعتُ بخفّة أرفع الكتب المكدّسة التي كاد وزنها يساوي الطبعة الفاخرة للموسوعة البريطانيّة، مشمولة الفهارس.

شعرتُ بطقطقة في ظهري فنظرت إليّ كريستينا متوجّسة.

- هل أنت بخير؟

- لا تقلقي يا آنسة. صديقي مارتين هذا جبّارٌ كالثور، رغم أنّه أديب - تدخّل سيمبيري - أليس كذلك يا مارتين؟

لم تكن كريستينا مقتنعة جدًا بكلام صديقي. فاصطنعتُ ابتسامة ذكَرٍ فحل.

- كلّي عضلات - قلت - وهذا مجرّد إحماء.

أوشك سيمبيري الابن على تقديم يد العون، بحمل النصف الآخر من الكتب، لكنّ أباه صدّه بذراعه، بنزقٍ دبلوماسيّ. فتحت لي كريستينا الباب، فانطلقتُ في مسيرة الخمسة عشر مترًا أو يزيد، تلك التي تفصلني عن الهسبانو سويسا المركونة عند منعطف بورتال دل آنخل. وصلتُ بشقّ الأنفس، وذراعيّ تشتعلان. ساعدني السائق مانويل في تفريغ الكتب وغمرني بتحيّة حارّة.

- يا للصدفة أن نلتقي بك هنا يا سيّد مارتين.

- العالم صغير.

أهدتني كريستينا ابتسامة لطيفة تعبّر عن امتنانها، وركبت السيارة.

- يؤسفني أنّي أتعبتك بحمل الكتب.

- لا عليك. القليل من التمارين يرفع المعنويات - قلت متجاهلاً احديداب ظهري - أبلغا الدون پيدرو تحيّاتي.

رأيتهما ينطلقان نحو ساحة كاتالونيا، وحين استدرتُ أبصرتُ سيمبيري واقفًا على عتبة مكتبته، ينظر إليّ بابتسامة هرٍّ، ويشير إليّ كي أمسح لعابي. اقتربتُ منه، ولم أتمالك الضحك على نفسي.

- الآن عرفتُ سرّك يا مارتين. ظننتك أكثر خبرة في معارك من هذا النوع.

- الصدأ يطال كلّ شيء.

- لمن تقول هذا... اسمع، هل لي أن أحتفظ بالكتاب بضعة أيام؟

- أحسنْ معاملته - قلت موافقًا.

10

التقيتُ بها مرّة أخرى بعد عدّة أشهر، رفقة پيدرو ڤيذال، على الطاولة التي تبقى محجوزة باسمه في مطعم ميزون دوريه. دعاني ڤيذال للانضمام إليهما، لكنّي اكتفيتُ بنظرة واحدة منها لأفهم أنّه ينبغي عليّ الاعتذار عن الدعوة.

- كيف حال الرواية يا دون پيدرو؟

- على قدم وساق.

- هذا يسعدني. شهيّة طيّبة.

كانت لقاءاتنا عرَضيّة. أصادفها أحيانًا في مكتبة سيمبيري وأبناؤه، حيث تتجه غالبًا لتستلم كتبًا للدون پيدرو. وكان سيمبيري يتركنا بمفردنا، قدر المستطاع، لكنّ كريستينا سرعان ما أدركت الحيلة وراحت توفد أحد العاملين في ڤيلا هيليوس لاستلام الطلبيّات.

- أعلم أنّ هذا ليس من شأني - يقول سيمبيري - ولكن يجدر بك أن تُخرجها من رأسك.

- لا أعلم عمّا تتحدث يا سيد سيمبيري.

- مارتين، نحن نعرف بعضنا منذ زمن بعيد...

كانت الأشهر تمرّ بسرعة الضوء على غفلة مني. وكنت أعيش خلال الليل، وأكتب من الغروب حتى الفجر، وأنام أثناء النهار. وما انفكّ باريدو وإسكوبياس يهنّئاني على نجاح «مدينة الملاعين»، وكلّما أحسّا بأنّي على حافّة الانهيار جدّدا وعدهما على السماح لي بإجازة طويلة، بعد إنجاز حلقتين أخريين، إجازة لمدّة عام أنعم فيها بالنقاهة، أو أكرّسها لتأليف عملٍ شخصيّ سينشرانه بكلّ سرور، يحمل اسمي الحقيقي بأحرفٍ مضخّمة على الغلاف. وهكذا اقتضى عليّ دومًا أن أنجز روايتين أخريين. في حين تراودني نوبات المرارة والإعياء وآلام الرأس أكثر فأكثر وتصبح أشدّ وطأة، لكنّي كنت أنسبها إلى الإرهاق وأزيلها بجرعة أخرى من الكافيين والسجائر وحبوب مخدّر الكودين؛ والله يعلم ماذا كان يبيعني في الخفاء ذاك الصيدلانيُّ في شارع الأرجنتين، أدوية بنكهة البارود. ما جعل الدون ڤاسيليو يحثّني باستمرار على الذهاب إلى الطبيب. كنّا عادةً ما نتناول الغداء معًا بعض أيّام الخميس في أحد مطاعم ضاحية برشلونيتا. وكنت أجيبه دومًا: أجل، لديّ موعد مع الطبيب هذا الأسبوع...

باستثناء مديري السابق وسيمبيري وابنه، لم يكن لديّ وقت للقاء أشخاص آخرين سوى ڤيذال، وبمبادرة منه أيضًا. لم يكن يستهوي بيت البرج، فتراه يصرّ دومًا على التنزّه حتّى مقهى ألميرال في شارع خواكيم كوستا، حيث كان لديه حساب مفتوح ومنتدى أدبيّ يُعقد مساء الجمعة. لم يكن يدعوني إلى المنتدى بالطبع، لأنه يعرف أنّ كل

المشاركين من أشباه الشعراء، المحبطين ولاعقي المؤخّرات الذين يمتدحونه في سبيل صدقة أو واسطة عند أحد الناشرين أو كلمة ثناء تداوي جراح غرورهم، يكرهونني بيقينٍ وعزمٍ ينقص مشاريعهم الفنيّة التي يصرّ الجمهور الغدّار على تجاهلها. هناك، على وقع مشروب الأفسنتين والسيجار الكاريبي، كان ڤيدال يحدّثني عن روايته التي لا تنتهي أبدًا، وعن مشروع اعتزاله عن حياته المنعزلة أساسًا وعن قصصه الغراميّة وسباياه اللواتي كنّ شابّاتٍ وعنّسًا بقدر ما كان هو يتقدّم في السنّ.

- لا تسألني عن كريستينا - كان يقول بخبث أحيانًا.

- وعمّ تريد أن أسألك؟

- عمّا إن كانت تسألني عنك.

- هل تسألك عني يا دون پيدرو؟

- كلا.

- بالضبط.

- والحقّ يقال إنّها ذكرت اسمك أمس الأوّل.

ركّزتُ نظري في عينيه لأرى إن كان يمازحني أم لا.

- وماذا قالت؟

- لن يعجبك ما قالته؟

- قل...

- لم تستخدم هذه الكلمات حرفيًّا، لكنّي فهمتُ منها أنّها لا تستوعب لماذا تبيع نفسك كالعاهرات لذينك اللصّين في كتابة رواية مسلسلة هابطة، ولماذا تقذف بموهبتك وشبابك في عرض البحر.

شعرتُ كما لو أنّه سدّد طعنة حادّة إلى بطني.

- هل ترى هي الأمر هكذا؟

عبّر عن عدم مبالاة.

- فلتذهب إلى الجحيم إذن!

كنت أعمل كلّ يوم عدا الأحد، إذ أقضي العطلة متسكعًا في الشوارع، وغالبًا ما أنهي جولتي في إحدى خمّارات الباراليلو، حيث من السهل العثور على أنسٍ ودفء عابرَين بين ذراعَي روحٍ وحيدة تشغل وقتها بالانتظار مثلي. وحتى صباح اليوم اللاحق، حين أستيقظ بجانبها وأكتشف أنّها امرأة غريبة، لم أكن أفطن أنّ جميعهنّ يشبهنها، في لون شعرها وطريقة سيرها، وفي إحدى حركاتها أو نظراتها. كانت تلك النسوة، نسوة الليلة الواحدة،

يسألنني عاجلاً أم آجلاً، كيف أجني قوت يومي، لا لشيء سوى لكسر جليد الوداع الكئيب. وعندما يخونني الغرور وأقول لهنّ إنّي كاتب، يحسَبنني كذّابًا إذ لم يسمع أحدٌ بكاتب يدعى داڤيد مارتين، حتى لو عرفتْ بعضُهنّ إغناثيوس ب. سامسون، أو سمعن بالصدفة عن نجاحات «مدينة الملاعين». وهكذا بتّ أقدّم نفسي كعامل في مديريّة الجمارك البحريّة، في أتارازاناس، أو كمتمرّن في مكتب محاماة سايراكس - مونتانر - كريولس.

أذكر أنّي ذات مساء كنت في مقهى الأوبرا، رفقة معلّمة موسيقى تدعى أليثيا، وكنت أظنّ أنّي أساعدها على نسيان أحدٍ ما، يصعب نسيانه. كنت على وشك أن أقبّلها حين رأيتُ وجه كريستينا من خلف الزجاج. وعندما خرجتُ إلى الشارع، كانت قد غابت في زحام لاس رامبلاس. وبعد أسبوعين، ألحّ ڤيذال على دعوتي إلى أوّل عرضٍ لأوبرا «مدام بترفلاي» لبوتشيني. كانت عائلة ڤيذال تملك شرفة خاصة في الطابق الأوّل من مسرح المعهد، فيطيب لمُرشدي الذهاب إلى هناك أسبوعيًا طوال الفصل. التقيتُ به في البهو الأكبر، ورأيت أنّه اصطحب معه كريستينا أيضًا. سلّمتْ عليّ بابتسامة جامدة ولم تتجّه إليّ بالكلام أو النظرات إلى أن قرّر ڤيذال، عند نهاية الفصل الثاني، أن ينزل إلى البهو ليسلّم على أحد أقاربه. تركنا بمفردنا على الشرفة، كلٌّ منّا يرنو إلى جهة، دون أيّ وسيلة دفاع سوى بوتشيني ومئات الوجوه الغارقة في عتمة المسرح. قاومتُ عشر دقائق قبل أن ألتفت إليها وأنظر إلى عينيها.

- هل فعلتُ شيئًا ضايقكِ، آنستي؟ - سألتها.

- لا.

- هل بإمكاننا التظاهر أنّنا أصدقاء، في مناسباتٍ كهذه على الأقلّ؟

- أنا لا أودّ أن أكون صديقتك يا سيّد مارتين.

- ولمَ لا؟

- لأنّك أنت أيضًا لا تودّ أن تكون صديقي.

كانت محقّة، لم أكن أودّ أن أكون صديقها.

- هل صحيح أنّك ترينني أبيع نفسي؟

- ما أفكّر فيه ليس ذا أهميّة. المهمّ ما تفكّر فيه أنت.

بقيتُ هناك خمس دقائق أخرى، ثم نهضتُ وانصرفتُ دون أن أقول شيئًا. وقبل أن أصل إلى السلّم الكبير، عاهدتُ نفسي على أن لا أكرّس لها أيّ فكرة أو نظرة أو كلمة لطيفة.

في اليوم التالي، التقيتُ بها قبالة الكاتدرائيّة. حاولتُ أن أتجنّبها فإذا هي تلقي عليّ التحية بيدها، وتبتسم في وجهي. تسمّرتُ في مكاني وأنا أراها تقترب مني.

- ألا تدعوني لشرب شيء ما، سيّد مارتين؟

- إنّي مستعجل، وليس لديّ وقت قبل ساعتين.

- دعني أدعوك أنا إذن. كم تتقاضى على مرافقة سيّدة لساعة من الزمن؟

تبعتُها على مضض حتى وصلنا إلى محلٍّ يقدّم الشوكولاطة في زقاق بيتريخول. طلبنا فنجانين من الشوكولاطة الساخنة وجلسنا وجهًا لوجه، بانتظار أن يفتح أحدٌ منا فمه أوّلاً. ولمرّة واحدة، فزت أنا.

- لم أشأ إهانتك البارحة. لا أعلم بما أخبرك الدون بيدرو، لكنّي لم أتفوّه بتلك الأقاويل أبدًا.

- ربّما تفكرين فيها وحسب، ولهذا نقلها الدون بيدرو إليّ.

- ليس لديك فكرة عمّا يجول في رأسي - ردّت بحدّة - ولا حتى الدون بيدرو.

أبديتُ تجاهلي.

- حسنًا.

- لقد قلتُ شيئًا مختلفًا كليًّا. قلت إنّك لا تعمل بما ترغب.

هززتُ رأسي متبسّمًا. ففي تلك اللحظة، لم أكن أرغب في شيء سوى أن ألثم ثغرها. قاومت كريستينا نظرتي بنظرة متحدّية. ولم تبعد وجهها حين مددتُ يدي ولامستُ شفتيها، لتنزلق أصابعي على ذقنها ورقبتها.

- ليس هكذا.

وحين جاء النادل بالفنجانين الساخنين، كانت كريستينا قد غادرت. ومرّت أشهرٌ دون أن أسمع اسمها مرّة ثانية.

ذات يوم من أواخر سبتمبر، حين أنهيت حلقة جديدة من «مدينة الملاعين» للتوّ، قرّرتُ أن أستريح من العمل في المساء. كنت أشعر بدنوّ إحدى نوبات الغثيان المؤلمة، توغل طعناتها في دماغي. ابتلعتُ حفنة من الحبوب المهدّئة، واستلقيتُ على السرير تحت الظلام، بانتظار خمود زوبعة العَرق البارد وارتعاش اليدين. وكنت أوشك على النوم حين سمعتُ طرقًا على الباب. جرجرتُ نفسي إلى المدخل وفتحتُ. ڤيذال، مرتديًا أحد أزيائه الحريريّة الإيطاليّة الفاخرة، يشعل سيجارة تحت بقعةٍ من الضوء بدت وكأنّ يوهانس فيرمير قد رسمها بنفسه.

- هل أنت حيٌّ أم أنّي أخاطب شبحًا ما؟ - سأل.

- لا تقل لي إنّك جئت من ڤيلا هيليوس حتى هنا لتخبرني بهذا.

- لا. لقد جئت لأنّي مقطوعٌ عن أخبارك منذ أشهر. قلقتُ عليك. لماذا لا توصل شبكة الهاتف إلى هذا المدفن، كما يفعل الأناس الطبيعيون؟

- لا تعجبني الهواتف. يعجبني أن أرى وجوه الناس حين يتكلمون معي، وأن يروا وجهي أيضًا.

- في حالتك هذه، لستُ واثقًا من جودة الفكرة. هل نظرتَ إلى نفسك في المرآة مؤخّرًا؟

- هذا من اختصاصك يا دون بيدرو.

- إنّ وجوه الموتى أكثر إشراقًا من وجهك. هيّا، ارتدِ ثيابك.

- لماذا؟

- لأنّي آمرك بهذا. فلنتنزّه قليلاً.

لم يرضَ ڤيذال بحجّة أو عذر. جرّني إلى السيارة التي كانت تنتظر في سوق بورن، وأشار إلى مانويل بالانطلاق.

- أين نذهب؟ - سألته.

- مفاجأة.

قطعنا كلّ برشلونة حتى شارع پيدرالبيس، ورحنا نصعد سفح التلّ. وبعد دقائق، تبدّت لنا ڤيلا هيليوس، وكانت الأنوار تلوح من كلّ نوافذها لتغدو ككرة ذهبيّة ملتهبة عند الغروب. لم يفصح ڤيذال عن أيّ شيء، وظلّ يرميني بابتسامات مبهمة. حين وصلنا إلى البيت، أشار إليّ باللحاق به واقتادني إلى الصالة الكبرى. ثمّة جمعٌ من الأشخاص ينتظرون، وما إن رأوني حتى عمّ التصفيق. رأيتُ الدون ڤاسيليو، وكريستينا، وسيمبيري الأب والابن، ومعلّمتي السابقة السيّدة ماريانا، وبعض الأدباء الذين عرفتُهم لأنهم ينشرون في دار باريدو وإسكوبياس؛ كما انضمّ مانويل، إضافة إلى إحدى محظيّات ڤيذال. أعطاني الدون پيدرو كأسًا من الشمبانيا وابتسم.

- عيد ميلاد سعيد يا داڤيد! ها قد أتممتَ ثمانية وعشرين عامًا!

لم أكن قد تذكّرت هذا إطلاقًا.

في نهاية العشاء، استأذنتُ الخروج إلى الحديقة لألتقط بعض الأنفاس. كانت السماء مزدانة بالنجوم لتكسو الأشجار بوشاح فضيّ اللون. لم تمضِ دقيقة واحدة حتّى سمعتُ خطواتٍ تقترب مني، فاستدرتُ لأجد قبالتي آخر شخصٍ أتوقّع رؤيته في تلك اللحظة، كريستينا سانغيير. ابتسمت لي، كأنّها تعتذر عن اقتحامها عزلتي.

- پيدرو لا يعرف أنّي خرجت لأتكلم معك - قالت.

لاحظتُ أنها لم تعد تستعمل صيغة «الدون»، لكنّي لم أكترث.

- يسعدني أن أتكلم معك يا داڤيد - قالت - ولكن ليس الآن، ليس هنا.

لم يساعدني ظلام الحديقة على إخفاء ارتباكي.

- هل بوسعنا أن نلتقي غدًا في مكان ما؟ - سألتني - أعدك بأنّي لن آخذ من وقتك كثيرًا.

- بشرط - قلت - أن لا تخاطبيني بصيغة الاحترام هذه. فعيد الميلاد يزيد من عمر المرء بما فيه الكفاية.

ابتسمت كريستينا.

- موافقة. شرط أن تخاطبني بدون كلفةٍ أنت أيضًا.

- هذا من أحد اختصاصاتي. أين تريدين أن نلتقي؟

- في بيتك، مثلاً؟ لا أريد أن يرانا أحدٌ، ولا أن يعرف پيدرو بأنّي تكلمتُ معك.

- كما تشائين...

ابتسمت كريستينا بسرور.

- شكرًا. نلتقي عصر الغد إذن؟

- متى أردتِ. هل تعرفين عنواني؟

- والدي يعرفه.

انحنت بخفّة وقبّلت وجنتي.

- عيد ميلاد سعيد يا داڤيد.

واختفت في ظلام الحديقة، قبل أن أفتح فمي لأقول شيئًا ما. وحين عدت إلى الصالة، لم أجدها. رماني ڤيذال بنظرة فاترة من آخر الصالة، ولم يبتسم إلا عندما انتبه بأنّي أنظر إليه.

وبعد ساعة، أصرّ مانويل، بموافقة ڤيذال، أن يصحبني إلى البيت بسيارة الهسبانو سويسا. جلستُ بجانبه، كعادتي حين كنت أركب معه بمفردي فينتهز الفرصة ليشرح لي عن بعض أساليب القيادة، ويتركني أتولّى الدفّة أحيانًا خلسةً عن ڤيذال. لكنّه في تلك الليلة كان صموتًا أكثر من المعتاد، لم يفتح فمه حتى وصلنا إلى وسط المدينة. وكان أشدّ ضعفًا منذ أن رأيته آخر مرّة، كأنّ العمر بدأ يطالبه بدفع الحساب.

- هل حدث شيءٌ ما، يا مانويل؟ - سألته.

شدّ كتفيه غيرَ مكترثٍ.

- لا شيء يستدعي الاهتمام يا سيّد مارتين.

- إن أزعجك شيءٌ ما...

- ترّهات العافية. في سنّي، تزداد المؤرّقات كما تعلم. ولكن لم يعد لها أهميّة تُذكر. المهمّ هي ابنتي.

تردّدتُ في الإجابة، فاكتفيتُ بهزّ رأسي.

- أعرف أنّك مولعٌ بابنتي كريستينا يا سيّد مارتين. فالآباء يرون هذه الأمور بسهولة.

هززتُ رأسي مرّة أخرى، ملتزمًا الصمت. ولم نتجاذب أطراف الكلام حتى أوقف مانويل السيّارة في شارع فلاساديرس، وصافح يدي مهنّئًا بعيد ميلادي مرّة أخرى.

- إن حصل لي مكروه - قال حينذاك - ستعتني بابنتي، أليس كذلك يا سيّد مارتين؟ هلاّ فعلتَ هذا من أجلي؟

- بالتأكيد يا مانويل. ولكن لماذا قد يحصل لك مكروه؟

ابتسم السائق وودّعني. رأيته يركب السيارة ويبتعد ببطء. لست متأكدًا بالمطلق، لكنّي كدت أجزم أنّه ظلّ يتكلّم مع نفسه على طريق العودة، بعد أن قطع كلّ تلك المسافة دون أن يفتح فمه تقريبًا.

11

قضّيتُ الصباح كلّه وأنا أطوف في البيت، أرتّب الأغراض وأغيّر الأجواء وأنظّف الأثاث والزوايا التي لم أكن أعلم بوجودها. هرعتُ إلى إحدى بائعات الأزهار، وحين عدت محمّلاً بالباقات، لم أعد أذكر أين وضعتُ الأواني لأملأها وردًا. ارتديتُ ثيابًا أنيقة كما لو أنّي أخرج للبحث عن عمل. وجرّبتُ بعض الكلمات والتحيّات حتّى بدوتُ مضحكًا. نظرتُ إلى نفسي في المرآة فاقتنعتُ بكلام ڤيذال، كنت أبدو كالوطواط حقًّا. وفي النهاية، جلستُ أنتظر على أريكة الصالة، وبين يديّ كتابٌ ما. ولم أذهب أبعد من الصفحة الأولى، خلال ساعتين كاملتين. وأخيرًا، في تمام الرابعة، سمعتُ خطوات كريستينا على السلالم فنهضتُ واثبًا. ووقفتُ مدّة طويلة عند الباب، أتلهّف طرقها.

- مرحبًا يا داڤيد. هل أتيتُ في وقت غير مناسب؟

- لا، لا. على العكس. تفضّلي، ادخلي!

ابتسمت كريستينا بلطف ودخلت إلى الممرّ. اقتدتها حتى زاوية القراءة في الصالة ودعوتها للجلوس. كانت نظراتها تتفحّص كلّ شيء باهتمام.

- يا له من مكان مميّز - قالت - سبق وأخبرني پيدرو بأنّك تسكن في بيتٍ عريق.

- إنّه يفضّل صفة «كئيب»، لكنّي أفترض أنّها مسألة فوارق.

- هل لي بسؤال: لماذا اخترت هذا المكان مسكنًا؟ إنّه كبير على شخص يعيش وحيدًا.

شخصٌ يعيش وحيدًا، فكّرتُ. ينتهي بنا المطاف لنغدو كما ترانا عيونُ مَن نهواهم.

- الحقيقة؟ لقد اخترت هذا البيت لأنّي كنت أراه كلّ يوم، على مدى أعوام، في الطريق إلى الجريدة ذهابًا إيابًا. كان البيت مغلقًا على الدوام، ففكّرتُ أنّه ينتظرني أنا تحديدًا. ورحت أحلم حقًّا بأنّي سأنتقل للسكن فيه يومًا ما. وكان ذلك.

- هل كلّ أحلامك تتحوّل إلى حقيقة يا داڤيد؟

ذكّرتني هذه النبرة الساخرة بڤيذال.

- لا - أجبتها - هذا هو الحلم الوحيد الذي تحوّل إلى حقيقة. كنتِ تريدين أن تكلّميني بشيء ما، وأنا أسهبتُ في أمور لا تهمّك بالتأكيد.

كان لنبرتي رنينٌ عدائيّ أقوى ممّا كنت أرغب فيه. الرغبات عندي كما الأزهار: إن تملّكتْني، ما عدتُ أعرف أين أتركها.

- كنت أريد أن أكلّمك عن پيدرو - بادرت كريستينا.

- آه.

- أنت أفضل صديق لديه. تعرفه جيدًا. وهو يتحدّث عنك كما لو كنت ابنه. يكنّ لك مودّةً لا يكنّها لأحد. وأنت تعلم ذلك.

- الدون پيدرو لطالما عاملني كابنٍ له - قلت - لولا وجوده ووجود السيّد سيمبيري، لانتقمتْ منّي الحياة شرّ انتقام.

- أردت التكلّم معك لأنّي قلقة بشأنه جدًا.

- لماذا؟

- كما تعلم، بدأتُ بالعمل سكرتيرة عنده منذ بضعة سنوات. في الحقيقة، إنّ پيدرو رجلٌ سخيٌّ، وقد أصبحت صداقتنا متينة. لقد أحسن معاملتي ومعاملة والدي. يؤسفني جدًا أن أجده على هذه الحال.

- ماذا تقصدين؟

- ذلك الكتاب اللعين. الرواية التي يريد أن يكتبها.

- إنه يعمل عليها منذ أعوام.

- بل تقضي عليه منذ أعوام. إنّي أصحح كلّ صفحاته وأنضّدها على الآلة الكاتبة. لقد مزّق منها ما لا يقلّ عن ألفي صفحة. يقول إنّه ليس موهوبًا؛ وإنّ أسلوبه يثير السخرية. يسفّ في الشرب. وأحيانًا أجده في مكتبه، هناك في الأعلى، يبكي مثل الأطفال...

مضغتُ ريقًا.

- يقول إنّه يحسدك، وإنّه يتمنى أن يصبح مثلك، وإنّ الآخرين يكذبون عليه ولا يمدحونه إلا ليأخذوا منه شيئًا ما، مالاً أو وساطة، فهو متيقّن من سخافة ما يكتب. حين يلتقي بهم، يجاهد في الحفاظ على مظهره وألقه وما تبقّى، لكنّي أراه كلّ يوم يذبل أكثر فأكثر. أخشى أن يرتكب حماقة ما. إنّه على هذه الحال منذ زمن. لكنّي لم أبح بشيء لأنّي لم أكن أعرف مَن أصارح في هذا الأمر. أعلم أنّه سيغضب إذا عرف بمجيئي إليك. يقول لي دومًا: «إيّاكِ أن تقحمي دافيد في شؤوني، فهو ما يزال شابًا في مقتبل العمر، وأنا لم أعد أيّ شيء». غالبًا ما يتفوّه بعباراتٍ كهذه. اعذرني إن شغلتُك بكلّ هذه الأشياء، لكنّك الوحيد الذي يمكنني اللجوء إليه في موضوع كهذا...

غرقنا في صمتٍ عميق. واكتسحتني موجةٌ من البرد. كيف سمحتُ لنفسي بالانعزال في عالمي، متجاهلاً الرجل الذي أدين له بحياتي، وهو يمرّ بأسوأ مراحل الإحباط.

- ربّما أخطأتُ في المجيء إلى هنا.

- لا - قلت - بل خيرًا فعلتِ.

نظرت إليّ كريستينا بابتسامة دافئة، وأحسستُ للمرّة الأولى بأنها لا تراني غريبًا عنها.

- ماذا عسى أن نفعل؟ - سألتْ.

- سنساعده - قلت.

- وفي حال لم يوافق؟

- سنساعده دون أن يشعر بذلك.

12

لست متأكدًا من أنّي أقدمتُ على مساعدة ڤيذال في سبيل مساعدته فقط - كما حرصتُ على إقناع نفسي مرارًا - أم كذريعةٍ لقضاء أكبر وقت ممكن مع كريستينا. كنا نلتقي عصر كلّ يوم تقريبًا، في بيت البرج. وكانت كريستينا تأتي بالصفحات التي كتبها ڤيذال بخطّ يده في اليوم السابق، ملأى بإشارات الحذف على فقرات بأكملها، وملاحظات عند كلّ سطر، وألف محاولة ومحاولة لإنقاذ ما لا يمكن إنقاذه. كنّا نصعد إلى المكتب ونجلس على الأرض. فتقرأ كريستينا بعض الصفحات جهرًا ثم نتناقش حولها مطولاً. كان مُرشدي يحاول عمليًا أن يكتب ما يشبه الملاحم العظمى، وذلك بالتطرّق إلى ثلاثة أجيال لإحدى السلالات البرشلونيّة التي لا تختلف كثيرًا عن آل ڤيذال. تنطلق الرواية قبل عدّة سنوات من الثورة الصناعيّة، بوصول شقيقين يتيمين إلى المدينة؛ ثمّ تتطور الأحداث في ما يشبه الحكمة التوراتيّة، كقصة قابيل وهابيل. يغدو أحد الشقيقين من أبرز شخصيات تلك الحقبة ثراءً ونفوذًا، بينما يكرّس الآخر حياته للكنيسة والأعمال الخيريّة، ليلقى نهاية مأساويّة في حدثٍ مؤلم مستوحى من آلام الراهب الشاعر الدون خاثينت فرداغوير. وكان الأخوان يتصارعان مدى الحياة، في محيط أعدادٍ لا تُحصى من الشخصيّات التي تنجرف في عقدٍ دراميّةٍ مريعة، وفضائح وجرائم وقصص حبّ محرّمٍ ومآسٍ وظروف أخرى من هذا النوع؛ فيما خلفيّة تلك الأحداث مجسّدة بولادة المدينة الحديثة والعالم الصناعيّ ومجال الاستثمارات. الأنا الراوي في الرواية هو حفيد أحد الأخوين، يعيد بناء القصة بينما يتأمّل المدينة المحروقة من أحد أبنية پيدرالبيس في أيّام «الأسبوع المأساويّ»[5] عام 1909.

فوجئتُ بثلاثة أمور، أوّلها أنّ تلك الحبكة كنت أنا من وضعتُ مسوّدتها بنفسي لڤيذال منذ عامين، كاقتراحٍ ليبدأ روايته الجديّة المزعومة، تلك التي لطالما قال إنّه ينوي تأليفها يومًا ما. الأمر الثاني أنّ ڤيذال لم يخبرني البتّة بقراره تبنّي الحبكة والعمل عليها منذ عامين؛ ولم تكن المناسبات تنقصنا ليطلعني على ذلك. أمّا الأمر الثالث فإنّ الرواية، على حالها هذه، كانت فشلاً ذريعًا وتاريخيًا، لا يُصلَح فيها شيء، بدءًا من الشخصيّات والبنيان، مرورًا بالأجواء والحوارات، وانتهاءً بلغةٍ وأسلوبٍ يوحيان بمتاعب كاتبٍ مبتدئ لديه تطلّعات كثيرة ووقت فارغ أكثر.

- ما رأيك بها؟ - سألتني كريستينا - هل تعتقد أنّه من الممكن إصلاحها؟

فضلّتُ أن لا أخبرها بأنّ ڤيذال استعار ركائز الرواية منّي، فابتسمتُ وأومأتُ متحمّسًا كي لا أزيد من مخاوفها.

- علينا أن نعمل عليها بجِدّ. هذا كلّ ما في الأمر.

كانت كريستينا تجلس إلى الآلة الكاتبة، وتسجّل الملاحظات، لنشرع في إعادة تأليف رواية ڤيذال معًا، حرفًا حرفًا، سطرًا سطرًا، مشهدًا مشهدًا.

كانت الحبكة التي أعدّها ڤيدال تتّسم بالركاكة، ما جعلها تبدو باهتة حتّى اضطررتُ لاستبدالها بتلك التي ارتجلتُها على مسامعه حين اقترحتُ عليه الفكرة. بدأنا نضخّ الحياة في الشخصيّات شيئًا فشيئًا، ونعيد تكوينهم من الداخل ونرسمهم مجددًا من الرأس حتى أخمص القدمين. ولم يفلت أيّ مشهد أو فقرة أو جملة أو كلمة من تصحيحنا، وكلّما تقدّمنا شعرتُ بأنّي أنصِف تلك الرواية التي تكمن في وجدان ڤيدال، تلك التي عقد العزم على تأليفها لكنّه لم يعرف كيف يكتبها.

ثمّ علمتُ من كريستينا أنّ ڤيدال كان غالبًا ما يعيد قراءة مشهدٍ ما، بعد أسابيع من كتابته كما يظنّ، مقتنعًا بأنّه من بنات أفكاره، بنسخته النهائيّة المفرّغة على الآلة الكاتبة، فتصيبه الدهشة من أسلوبه الرفيع وموهبته المتألقة التي كان قد كفّ عن الوثوق بها. ما سبّب خشية كريستينا من أن يكتشف فعلتنا، لذا كانت توصيني بأن نكون أكثر حرصًا وأمانةً على النسخة الأصليّة.

- إيّاك أن تستخفّي بكبرياء أيّ كاتب، لاسيّما إذا كان فاشلاً - كنت أردّ.

- لا يعجبني أن أسمعك تتحدّث هكذا عن پيدرو.

- ولا أنا. المعذرة.

- ربّما يجدر بك أن تخفّف من الوتيرة قليلاً. وجهك شاحبٌ. لم يعد يقلقني پيدرو الآن كما تقلقني صحّتك.

- لا بدّ أن نجني ثمارًا طيّبة من كلّ هذا التعب.

ومع مرور الوقت اعتدتُ على العيش في سبيل تذوّق اللحظات التي أتقاسمها معها. ولم تتأخر عواقب ذلك على عملي. ورغم هذا، كنت أجد الوقت دومًا لكتابة حلقات «مدينة الملاعين»، أنام بلا انتظام ثلاث ساعات في اليوم وأبذل قصارى جهدي كي أحترم مهلة العقد. وكان الناشران ينتهجان قاعدة تنصّ على عدم قراءة أيّ كتاب، سواءً أكانت تلك التي يصدرانها أم التي تنشرها الدور المنافِسة، لكنّ ڤينينو تقرأ طبعًا، فشكّكْتُ حالاً بأنّي أعيش حدثًا استثنائيًا.

- هذا ليس أسلوبك - كانت تقول أحيانًا.

- طبعًا ليس أسلوبي، يا هيرمينيا العزيزة. إنّه أسلوب إغناثيوس ب. سامسون.

كنت على دراية بالخطر الذي أقدِم عليه، لكنّي لا أعبأ بذلك. لم يكن يهمّني الاستيقاظ كلّ يوم غارقًا في عرقي، وأكاد أختنق من ألم خفقان القلب كأنّه يحاول تمزيق صدري. كنت سأدفع هذا الثمن وأكثر، كي لا أتخلّى عن ذلك العقد البطيء والسريّ الذي يحوّلنا إلى متواطئَين دون قصد. وكنت واثقًا من أنّ كريستينا ترى مرادي في عينيّ كلّما جاءت إليّ، وواثقًا من أنّها لن تستجيب لتلميحاتي. لم يكن ثمّة مستقبلٌ في ذلك الاندفاع نحو المجهول، ولا آمالٌ عظيمة، وكان كلٌّ منّا على دراية بهذا.

في بعض الأحيان، عندما يغلبنا الإنهاك من محاولات إنقاذ تلك السفينة التي تتسرّب إليها المياه من كلّ جانب، كنّا نترك مخطوط ڤيدال ونجازف في الحديث عن موضوع آخر بعيدًا عن التقارب الذي بات يُضرِم النيران

في ضميرينا رغم حرصنا على إخفائها. وفي بعض الأحيان، أتسلّح بالشجاعة وأمسك يدها. كانت تتركني على راحتي، لكنّي أعرف أنّي أحرجها. فهي تشعر أنّ ما نقوم به ليس صحيحًا، وأنّ دَين الامتنان نحو ڤيذال يجمعنا ويفرّقنا في آنٍ واحد. ذات مساء، قبل أن تنصرف بقليل، أحطتُ بوجهها وحاولتُ أن أقبّلها. تجمّدتْ في مكانها وحين نظرتُ إلى نفسي في مرآة عينيها، لم أجرؤ على قول شيء. نهضتْ وانصرفت دون أن تفتح فمها. ولم تأتِ إلا بعد مرور أسبوعين، إذ طلبت منّي أن أعدها بعدم تكرار ما فعلتُ.

- أريدك أن تفهم يا داڤيد بأننا لن نلتقي كما الآن بمجرّد إنجازنا كتاب پيدرو.

- ولماذا؟

- تعلم السبب.

لم تكن ترى جسارتي بعين الارتياح، وليس هذا فحسب. إذ بتُّ أشكّ بأنّ ڤيذال كان صادقًا عندما نقل إليّ استخفافها بالروايات التي كنت أؤلّفها لباريدو وإسكوبياس، حتى لو لم تصرّح بنفسها بذلك. وكم تصوّرتُها تفكّر في أنّي أعمل كالمرتزِقة، بلا روح، وأنّي أبيع وجداني مقابل حفنة من المال لإثراء ذلك الثنائيّ من فئران المجاري، وأنّي لا أمتلك الشجاعة لأكتب بقلبي واسمي ومشاعري الحقيقيّة. لكنّ أكثر ما أرّقني، أنّها كانت محقّة في النهاية. كنت أتخيّل أنّي أفسخ العقد، وأؤلّف كتابًا لها وحدها، لا أجني منه سوى احترامها وتقديرها. إن كانت تراني عديم الجدارة في الشيء الوحيد الذي أحسن القيام به، فمن الأفضل أن أعود إلى الأيّام البائسة والرماديّة في الصحيفة إذن. كان بوسعي دومًا أن أعيش على صَدَقة ڤيذال ومعروفه.

كنت قد خرجتُ للتنزّه، بعد ليلة طويلة من العمل، لم يغلبني في نهايتها النعاسُ. تسكّعتُ بلا وجهة محددة، حتى وصلتْ بي الخطى إلى كنيسة ساغرادا فاميليا، التي ما تزال قيد التشييد. حين كنت صغيرًا، كان والدي يصطحبني إلى هناك أحيانًا، لنتأمّل تلك المتاهات البابليّة من المنحوتات والأقواس التي لا يتمّ إنجازها أبدًا، كما لو أنّها ملعونة. كان يطيب لي أن أعود إليها لأتحقّق من أنّها على حالها: فالمدينة لا تكفّ عن التوسع حولها، بينما تبقى كنيسة ساغرادا فاميليا حطامًا منذ يومها الأوّل.

حين وصلتُ، كان الفجر يبزغ بأنوار سماويّة وحمراء، تُظهر أبراج واجهة الميلاد. هبّت رياحٌ من الشرق حاملةً معها غبار الدروب الوعرة وأدخنة المصانع الملوّثة المتاخمة لحيّ سانت مارتي. كنت أقطع شارع مايوركا حين رأيتُ أضواء الترام الذي يتقدّم في ضباب الفجر. سمعتُ صرير العجلات على السكّة وقرع الجرس الذي أعلن به السائق عن مروره بين الظلال. حاولتُ أن أركض لكنّي لم أتمكن. بقيتُ متسمّرًا هناك، بلا حراك بين السكّتين أنظر إلى أضواء الترام التي تومض تجاهي. سمعتُ صرخات السائق ورأيتُ ألسنة اللهب تقدح من العجلات بعد أن لجمتْها المكابح. ورغم كلّ هذا، لم أتمكّن من تحريك عضلة واحدة، والموت على مسافة أمتار قليلة. شممتُ رائحة الكهرباء التي ترافق الضوء الأبيض المسلّط عليّ حتى غطّت أضواء الترام. انبطحتُ أرضًا كدمية، محافظًا بالكاد على حواسّي ما يسمح لي برؤية العجلات، التي تنفث دخانًا، تتوقف على بعد أقلّ من عشرين سنتمترًا عن وجهي. ثم ابتلع الظلام كلّ شيء.

13

فتحتُ عينيّ. رأيتُ أعمدة حجريّة غليظة وباسقة كالأشجار نحو قبّة عارية. ثمّة إبرٌ من ضوءٍ غباريّ تخز الظلام بخطوط مائلة لتكشف عن صفوفٍ لا تحصى من الأسرّة. قطرات الماء تتساقط من الأعلى كأنّها دموع سوداء، تُحدِث دوّيًا كلّما لامست الأرض. والظلام برائحة الرطوبة والعفن.

- أهلاً بك في المطهر.

نهضتُ، التفتُّ فوجدتُ رجلاً يرتدي ثيابًا رثّة ويقرأ جريدة تحت نور المصباح، ويُطلق سراح ابتسامةٍ تكشف عن غياب معظم أسنانه. كانت الصفحة الأولى في جريدته تُنبأ عن استيلاء الجنرال بريمو دي ريفيرا على كافّة الصلاحيات ليفتتح عهدًا من الدكتاتوريّة المتسامحة لتجنيب البلاد مغبّة المذبحة المرتقبة. تاريخ تلك الجريدة يعود لستّة أعوام على الأقلّ.

- أين أنا؟

رمقني الرجل من فوق الجريدة، بنظرة متآمرة.

- في فندق ريتز. ألا تشعر بالأجواء؟

- وكيف وصلتُ إلى هنا؟

- كخرقة بالية. جاؤوا بك هذا الصباح على النقّالة، ومنذ ذلك الحين تحاول التخلّص من تأثير الكحول.

تلمّستُ سترتي واكتشفتُ فقدان كلّ النقود التي كانت بحوزتي.

- كيف حال العالم؟ - هتف الرجل وهو يقرأ أخبار الجريدة - من المعلوم أنّه، في المراحل المتقدّمة من «الغبويّة»، يتمّ علاج نقص الأفكار بالإسراف في تناول الإيديولوجيّات.

- كيف الخروج من هنا؟

- إن كنت مستعجلاً... ثمّة طريقتان، الأولى أبديّة والأخرى آنيّة. الأبديّة من السطح: قفزة موفّقة وتتخلص من هذا القرف إلى الأبد. أمّا المَخرج الآنيّ، هناك في آخر الصالة، حيث يوجد ذلك المتصابي ذو البنطال الساقط، رافعًا قبضته، ومؤدّيًا التحيّة الثوريّة على أيّ أحد يمرّ بجانبه. ولكنّك إن خرجت من هناك، ستعود إلى هنا عاجلاً أم آجلاً.

- هل أنت من سرق نقودي؟

- الشكّ إهانة. لقد سرقوك قبل أن يأتوا بك إلى هنا. ثم إنّي لا أقبل إلا أسهمًا مُعتبَرة في البورصة.

تركتُ ذلك المزاجيّ، وجريدته المتخلفة وخطبه المتقدمة، على سريره. وما انفكّ رأسي يكابد الدوار، حتّى استطعت بالكاد السير بخطوات مستقيمة. لكنّي وصلتُ إلى بابٍ على أحد جوانب القبّة الكبيرة، يؤدّي إلى سلّم ما. تراءى لي بصيص نور يتسرّب من قمّة السلّم. صعدتُ أربعة طوابق، أو خمسة، حتى نفحتني نسمات منعشة تنفذ من فتحة كبيرة في الأعلى. خرجتُ منها وفهمتُ أخيرًا أين انتهى بي المطاف.

قبالتي، ثمّة بحيرة واسعة معلّقة فوق أشجار منتزه القلعة. كانت الشمس تميل إلى المغيب على المدينة، والمياه المغطّاة بالحشائش تتموّج كالنبيذ المسكوب. كان خزّان المياه يبدو كقلعة محصّنة أو سجن كبير. إذ كان الغرض من بنائه ضخّ المياه في أجنحة المعرض الدولي لعام 1888، ثمّ غدا جوفه - المشابه لكاتدرائية مدنيّة - ملاذًا مع مرور الوقت، يلجأ إليه المحتضرين والمعدمين المسحوقين إذا استبدّ بهم برد الليالي. فتحوّل الحوض الصناعيّ الكبير، على السطح، إلى بحيرة طينيّة كدرة تنزف ببطء عبْر شقوق المبنى.

لاحظتُ وجهًا متربّصًا بإحدى زوايا السطح البعيدة. التفتَ منتفضًا وحدّق إليّ، كما لو أنّ نظرتي وحدها حقنتْه ارتيابًا. كنت ما أزال أشعر بالوهن وانحسار البصر، لكنّي أدركتُ أنّ الوجه يقترب مني. يقترب مني بسرعة كأنّ قدميه لا تخطوان على الأرض، بل يسير متحرّكًا بوثبات خفيفة ورشيقة لا ترصدها العين. لم أتمكّن من تمييز الوجه بسبب انعكاس الضوء، لكنّي تأكدتُ من أنّي أرى سيّدًا ذا عينين سوداوين وبرّاقتين وواسعتين جدًا بالنسبة إلى قياس وجهه. وكلما دنا شعرتُ أنّ ملامحه تستطيل، وقامته ترتفع أيضًا. أصابتني القشعريرة وتراجعتُ خطوتين، منبهرًا من تقدّمه المستعجِل، ولم أنتبه أنّي أكاد ألامس حافّة البحيرة. شعرتُ باختلال التوازن وكنت على وشك السقوط إلى الوراء في تلك المياه المكدرة، فإذا بالرجل المجهول يمسك بذراعي. سحبني برفق واقتادني نحو أرضيّة آمنة. جلستُ على أحد المقاعد التي تحيط بالخزّان والتقطتُ نفسًا عميقًا. رفعتُ نظري فرأيته بوضوحٍ للمرّة الأولى. بدت عيناه بأبعاد طبيعيّة، وقامته بطول قامتي، خطواته وحركاته لرجلٍ مثل الآخرين. بل إنّ تعبير وجهه لبقٌ ومريح.

- شكرًا - قلت له.

- هل أنت بخير يا سيّدي؟

- أجل. مجرّد دوار في الرأس.

جلس المجهول بجانبي. كان يرتدي بزّة غامقة، مصمّمة من ثلاث قطع أنيقة، ومزدانة بوسامٍ فضيّ صغير على عروة سترته، لملاكٍ مفتوح الجناحين بدا لي مألوفًا. استغربتُ وخطر في ذهني أنّ وجود رجلٍ نبيل، أنيق الهندام، على ذلك السطح، لم يكن أمرًا اعتياديًا. وكما لو أنّه قرأ أفكاري، ابتسم المجهول في وجهي.

- أخشى أنّي أفزعتك يا سيّدي - قال - أتخيّل أنّك لم تتوقّع وجود أحدٍ هنا في الأعلى.

نظرتُ إليه مرتبكًا. رأيتُ انعكاس وجهي في بؤبؤ عينيه السوداوين، اللتين تتسعان كبقعة حبر على الورق.

- هل لي أن أسألك ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- السبب ذاته الذي جاء بك إلى هنا: آمال عظيمة.

- حضرتك السيّد أندرياس كوريلي - غمغمتُ.

أشرق وجهه.

- لا تتخيّل مدى سعادتي باللقاء بك شخصيًّا يا صديقي.

كان يتكلّم بلكنة خفيفة لم أتمكّن من تحديد أصلها. أمرني حدسي بالنهوض والانصراف على عجل قبل أن يلفظ المجهول كلمة أخرى، لكنّ شيئًا ما في صوته ونظراته، التي تبثّ صفاءً وطمأنينة، جعلني أعدل عن قراري. ولم أجرؤ على التساؤل: كيف استطاع أن يجدني هناك في حين أنا نفسي لا أعرف أين كنت. تدفّقت السكينة من كلماته ونور عينيه. مدّ يده إليّ فصافحته. كانت ابتسامته تعِد بفردوسٍ مفقود.

- لا بدّ أن أشكرك على جميل لطفك بحقّي، على مدى السنوات، يا سيّد كوريلي. أخشى أن أكون مدينًا لك بشيء ما.

- لا، إطلاقًا. بل أنا المدين لك يا صديقي. وأتمنّى أن تعذرني على لقائي بك بهذه الطريقة، وفي مكان وزمان غير مناسبين. لكنّي أعترف برغبتي في التكلّم معك منذ زمن، ولم أجد الفرصة السانحة.

- تفضّل إذن يا سيّدي. قل لي، ما الذي بوسعي فعله لأجلك؟ - سألتُه.

- أريدك أن تعمل لصالحي.

- عفوًا؟!

- أريدك أن تكتب لي.

- بالتأكيد. نسيت أنّ حضرتك ناشر.

ضحك الرجل. كانت ضحكته ناعمة، كطفلٍ لم يكسر أيّ طبق بعد.

- الأفضل. إنّي الناشر الذي لطالما انتظرته أنت. الناشر الذي سيخلّد اسمك.

أعطاني إحدى بطاقاته الخاصة، مطابقة لتلك التي كنت ما أزال أحتفظ بها، والتي وجدتها بين يديّ حين استيقظتُ من حلمي مع كلويه.

أندرياس كوريلّي

ناشر

منشورات النور

69، شارع سان جرمان. باريس

- شكرًا على الإطراء. لكنّي أخشى عدم استطاعتي قبول مقترحك. لديّ عقد مع...

- مع باريدو وإسكوبياس، أعلم ذلك. يا لهما من حقيرَين. المعذرة؛ ولكن لا ينبغي بشخص مثلك أن يدخل بأيّ علاقة معهما.

- يشاطرك هذا الرأي الكثير من الأشخاص، يا سيّد كوريلي.

- هل تقصد الآنسة سانغيير؟

- هل تعرفها؟

- بالاسم فقط. تبدو من النساء الجديرات بفائق الاحترام والتقدير، أليس كذلك؟ ألا تدفعك هذه الآنسة إلى التخلّي عن هذين الطفيليّين لتكون أكثر وفاءً وإخلاصًا لنفسك؟

- ليس بهذه البساطة. العقد يقتضي الاحتكار لستّ أعوام مقبلة.

- أعرف، ولكن لا تشغلْ بالك بهذا التفصيل. لديّ فرقة من المحامين، وهم يدرسون المسألة الآن، وأؤكد لك أنّ لا حصر للطرق التي تساعدك على التنصّل من أيّ التزام قانونيّ، في حال وافقتَ على اقتراحي.

- وما هو اقتراحك؟

ابتسم كوريلي بما يعبّر عن البهجة واللؤم في آن، كيافعٍ يلهو بإفشاء سرٍّ ما.

- أن تفرّغ نفسك لي حصرًا، لمدّة عام، كي تؤلّف كتابًا، بِناءً على طلبٍ خاصّ، سنناقش موضوعه معًا حين نوقّع العقد، وسأدفع لك بموجبه، سلفًا، مبلغ مائة ألف فرنك.

نظرتُ إليه مشدوهًا.

- إن كنت تعتبر المبلغ متدنيًّا، فأنا على استعداد لتقدير المبلغ الذي يناسبك. سأكون صريحًا معك يا سيّد مارتين: لن نختلف بسبب المال. وللأمانة، أعتقد أنّك لن تُقدم على الخلاف، لأنّي متأكد من أنّ الثمن عديم الأهميّة مقارنةً بنوع الكتاب الذي أرغب في أن تكتبه لي.

تنهّدتُ وضحكتُ في سرّي.

- أرى أنّك لا تصدّقني.

- سيّد كوريلي، إنّي مؤلّف روايات المغامرة، لا أوقّع حتّى باسمي الأصليّ. ويبدو أنّك تعرف الناشرَين، إنّهما محتالان لعينان لا يساوي وزنهما برازًا، وقرّائي لا يعرفون حتّى إن كان لي وجود. أجني قوت يومي منذ أعوام بهذه المهنة ولم أكتب حتى الآن صفحة واحدة تُشعرني بالرضا. والمرأة التي أحبّها تظن أنّي أهدر حياتي هباءً وهي محقّة في ذلك. تعتقد أنه لا يحقّ لي أن أرغب بها، وأنّنا روحان لا معنى لوجودهما سوى لنكون أوفياء لرجلٍ انتزع كلينا من الشقاء، وربما تكون محقّة في هذا أيضًا. لا يهمّ. من جهة أخرى، سأتمّ الثلاثين عامًا، على غير المتوقّع. ألاحظ أنّي، في

كلّ يومٍ يمضي، لم أتمكّن من بلوغ ما حلمتُ بأن أصبح عليه حين كنت في سنّ الخمسة عشر عامًا. هذا إن أتممتُ الثلاثين؛ فصحّتي في الآونة الأخيرة تتدهور مثل عملي. واليومَ أعتبر نفسي راضيًا إن استطعتُ توليف جملتين مفيدتين بالساعة. هذا ما أنا عليه كإنسان وكمؤلّف. لست من أولئك الذين يتلقّون زيارات من ناشرين باريسيّين، يمنحونهم شيكًا على بياض، لتأليف كتابٍ يغيّر حياتهم ويحقّق كلّ آمالهم.

نظر إليّ كوريلي متوجسًا، وهو يتمعّن بكلماتي.

- أعتقد أنّك قاضٍ جائرٌ بحقّ نفسك، وهذه خصوصيّة تميّز النوابغ. لا أخفيك أنّي خلال مسيرتي الطويلة تعاملتُ مع ما لا يحصى من الأشخاص الذين لا يساوون بصقة منك لكنّهم كانوا يتمتّعون بثقة عالية بأنفسهم. ربّما لا تصدّقني إن قلت لك إنّي أعرف تمامًا أيّ نوعٍ من البشر والمؤلّفين أنت. إنّي أتابعك منذ أعوام، كما تعلم. قرأتك قصّتك الأولى التي كتبتها على صفحات «صوت الصناعة» في سلسلة «ألغاز برشلونة». والآن أتابع كلّ حلقات إغناثيوس ب. سامسون. أكاد أجزم أنّي أعرف عنك أكثر ممّا تعرفه عن نفسك. لذا، ختامًا، أنا متيقّنٌ من أنّك ستقبل عرضي.

- وما الذي تعرفه أيضًا؟

- أعرف أنّ لدينا الكثير من الأمور المشتركة. أعرف أنك فقدتَ أباك؛ وأنا أيضًا. أعرف ما يعني فقدان الوالد عند أمسّ الحاجة إليه. لقد حرموك حضن أبيك في ظروف مأساويّة. أمّا أبي، لأسباب لا أجد ضرورة للإسهاب فيها الآن، أذلّني وطردني من البيت. ورأى أنّ هذا أشدّ وطأة وإيلامًا. أعرف أنّك تشعر بالوحدة، وصدّقني إن قلت لك إنّي أعرف هذا الشعور بعمق. أعرف أنّ في قلبك آمالاً عظيمة، لكنّ أيًا منها لم يتحقّق حتّى الساعة. وأعرف أنّ الأمر يقضي عليك، شيئًا فشيئًا، وأنت في غفلة من هذا.

ساد صمتٌ طويل بعد كلامه.

- إنّك تعرف الكثير من الأشياء يا سيّد كوريلي.

- ما يكفي لأتمنّى التعرّف إليك أكثر كي نصبح صديقين. أعتقد أنّه ليس لديك الكثير من الأصدقاء. وأنا مثلك. لا أثق بمن يدّعي كثرة الأصدقاء. إنّها دلالة على الجهل بالآخرين.

- لكنّك لا تبحث عن صديق، بل عن تابع.

- أبحث عن شريك مؤقّت. أبحث عنك.

- إنّك واثق من نفسك كثيرًا - جازفتُ بالقول.

- إنّها علّة خلقيّة - ردّ كوريلي وهو ينهض - أمّا الحدس فهو شيء آخر. لهذا أتفهّم أنّك لا تتعجّل التعاون، وأنّك لا تكتفي بسماع الحقيقة منّي. أنت بحاجة لرؤيتها بعينيك. بحاجة لتشعر بها في باطنك. ستشعر بها، صدّقني.

بسط يده نحوي ولم يثنها حتى صافحتُه.

- هلاّ طمأنتني على الأقلّ بأنّك ستفكّر في الموضوع كي نتناقش بشأنه؟ - سأل

- لا أعلم ما أقول يا سيّد كوريلي.

- لا تقل شيئًا الآن. أعدك بأنّك سترى بوضوح أكثر حين نلتقي في المرّة القادمة.

ثمّ ابتسم بلباقة وابتعد نحو السلالم.

- هل ستكون هناك مرّةٌ قادمة؟ - سألتُه. فتوقّف كوريلي والتفت.

- ثمّة دومًا مرّةٌ قادمة.

- أين؟

كانت عيناه تلمعان كجمرتين في مغيب آخر أضواء النهار عن المدينة.

رأيتُه يختفي عند باب السلّم. وحينذاك تذكّرتُ أنّي، طوال المحادثة، لم أره يرفّ رمشًا، ولو لمرّة واحدة.

14

كانت عيادة الطبيب في طابقٍ علويّ، يُشرف على البحر البرّاق في الأفق، وعلى نزلة حيّ مونتانير الذي تخترقه خطوط الترام الهابط حتى إينسانش، بين قصور كبيرة ومبانٍ سياديّة. كانت عبارة عن مستوصف يضوع برائحة النظافة؛ قاعاته مصمّمة بذوقٍ رفيع، واللوحات على الجدران تضخّ الطمأنينة، بما يملؤها من مناظر الأمل والسلام، والرفوف مليئة بالكتب الجبّارة التي تفيض بالأحكام. والممرّضات يتحرّكن كراقصات، ويبتسمن كلّما مرَرْن، لأنّ المستوصف أشبه بمطهرٍ لأصحاب لجيوب الميسورة.

- الطبيب بانتظارك يا سيّد مارتين.

كان الطبيب ترياس رجلاً ذا طباع أرستقراطيّة ومظهر جذّاب، ينشر البهاء والثقة في أيّ حركة يفعلها. عيناه رماديّتان وثاقبتان، ونظاراته لا إطار لها. ابتسامته لبقة وودودة، لا يشوبها نزقٌ. وكان طبيبًا معتادًا على مقارعة الموت، فكلّما ابتسم ازداد هيبة ومهابة. تولّد لديّ انطباع، من الطريقة التي أدخلني بها ودعاني للجلوس، أنّه غير مطمئنّ، مع أنّه كلّمني منذ بضعة أيّام، حين خضعتُ للتحاليل، عن تطوّرات علميّة وطبيّة حديثة تبشّر بالقضاء على الأعراض التي وصفتُها على مسامعه.

- كيف حالك؟ - سألني، وهو ينظر إليّ تارة وإلى الملفّ على المنضدة تارة أخرى.

- العلم عندك أيّها الطبيب.

صوّب إليّ ابتسامة خفيفة، كلاعبٍ مخضرم.

- قالت لي الممرضة إنّ حضرتك كاتب، مع إنّي رأيتُ أنّك كتبتَ في استمارة التسجيل أنّك مرتزِق.

- في حالتي، لا يوجد فرق بين المهنتين.

- أعتقد أنّ أحد المرضى عندي من قرّائك.

- أتمنّى أن لا تستفحل عنده الأضرار العصبيّة.

ابتسم الطبيب كما لو أنّه استلطف تعليقي، ثمّ سرعان ما اتّخذ أسلوبًا مباشِرًا يوحي بأنّنا تجاوزنا المقدّمات الرسمية والتافهة في محادثتنا.

- سيّد مارتين، أرى أنّك أتيتَ بمفردك. أليس لديك أقارب من الدرجة الأولى؟ زوجة؟ إخوة؟ أبوان على قيد الحياة؟

- الجملة الأخيرة تبدو جنائزيّة بعض الشيء - قلت.

- لا أخفي عليك يا سيّد مارتين. نتائج التحاليل الأوليّة ليست مشجّعة كما كنّا نتوقّع.

نظرتُ إليه بصمت. لم أكن مضطربًا أو خائفًا. لم أكن أشعر بشيء.

- النتائج تؤكّد خطورة الأعراض التي وصفتها لي؛ ما يجعلنا نشكّ بزائدةٍ ورمية في الفصّ الأيسر من الدماغ. ويبدو أنّ كلّ المؤشرات تُنبأ بوجود سرطان.

عجزتُ عن لفظ أيّ حرف لبضع ثوانٍ. لم أتمكّن حتّى من تصنّع المفاجأة.

- منذ متى لديّ هذا المرض؟

- من المستحيل تحديد ذلك، مع أنّي قد أفترض بأنّ الورم يتطوّر منذ وقت طويل، ما يفسّر الأعراض التي وصفتَها والعوائق التي واجهتَها مؤخرًا في العمل.

سحبتُ نفسًا عميقًا، وأنا أهزّ برأسي. كان الطبيب يراقبني بحذر وتعاطفٍ، ويفسح لي الوقت. حاولتُ أن أبادر بعباراتٍ مختلفة لم تصل إلى شفتيّ مطلقًا. وفي النهاية، تلاقت نظراتنا.

- أنا بين يديك أيّها الطبيب. اقترحْ عليّ أيّ علاجٍ يناسب وضعي.

رأيتُ أنّ عينيه تتموجّان اضطرابًا؛ كأنّه أدرك حينئذٍ أنّي لم أستوعب ما قاله. هززتُ رأسي مجددًا، وأنا أصارع الغثيان الذي تصاعد حتّى فمي. سكب لي الطبيب كأس ماء من الإبريق وأعطاني إيّاها. فازدردتها برشفة واحدة.

- لا يوجد علاج - قلت.

- بلى. بوسعنا فعل أشياء كثيرة لتقليص الآلام وضمان أقصى درجات الراحة والسكينة...

- لكنّي سأموت.

- أجل.

- باكرًا.

- من المحتمل.

ابتسمتُ في سرّي. حتّى الأنباء السيئة ترفع المعنويات، حين تثبت لنا ما نعرفه مسبقًا ولا نتقبّله بطبيعة الحال.

- عمري ثمانية وعشرون عامًا - قلت هذه الجملة دون أن أجد لها أيّ مغزى.

- إنّي متأسّف يا سيّد مارتين. كان بودّي أن أبثّ عليك أنباءً من نوع آخر.

أحسستُ به كما لو أنه اعترف بكذبة أو غلطة طفيفة، وتخلّص من عبء الندم.

- كم يتبقّى لي من الوقت؟

- من الصعب تحديد ذلك بدقّة. ربّما سنة واحدة، سنة ونصف كحدّ أقصى.

كانت نبرته توحي بأنّ توقعّاته أكثر من متفائلة.

- وخلال هذه المدّة، أيًّا تكن، إلى متى سأظلّ محافظًا على إمكانيّاتي في العمل والعناية بنفسي، بحسب اعتقادك؟

- حضرتك كاتب وعملك مرتكزٌ على الدماغ. ولكن للأسف، المشكلة هناك تحديدًا، ما يُجبرنا على التزام بعض القيود.

- القيود ليست مصطلحًا طبيًا أيّها الطبيب.

- كلما تطوّر المرض، في العادة، ظهرت الأعراض القديمة بشكل مكثفٍ وتردّدٍ أكبر. اعتبارًا من لحظة معيّنة، لا بدّ أن تُنقل إلى المستشفى كي يتسنّى لنا العناية بك.

- لن أتمكّن من الكتابة.

- لن تتمكّن حتّى من التفكير بالكتابة.

- وكم من الوقت سأبقى؟

- لا أدري. تسعة أشهر أو عشرة. ربّما أكثر، ربّما أقلّ. إنّي متأسّفٌ جدًا يا سيّد مارتين.

أومأتُ موافقًا ونهضتُ. كانت يداي ترتعشان وأنفاسي تختنق.

- سيّد مارتين، أتفهّم حاجتك للوقت للتفكير بكلّ ما أخبرتك به، ولكن من المستحسن أن تتّخذ بعض الإجراءات بأسرع وقت ممكن...

- لن أموت أيّها الطبيب. ليس الآن. عليّ إيفاء الكثير من الالتزامات. لديّ حياة بأكملها أمامي كي أموت لاحقًا.

15

في تلك الليلة نفسها، صعدتُ إلى مكتب البرج، وجلستُ إلى الآلة الكاتبة رغم يقيني من تلاشي الإلهام. كانت النوافذ مُشرّعة، لكنّ برشلونة لم تشأ أن تروي لي أيّ حكاية، ولم أكن قادرًا على إتمام صفحة واحدة. استحضرتُ بعض الأفكار بصعوبة بالغة، وبدت لي رغم هذا تافهةً وفارغةً؛ ويكفي أن أعيد قراءتها لأدرك أنّها لا تساوي الحبر التي كُتبت فيه. لم أعد قادرًا على تلقّف الموسيقى التي تنبثق من مقطعٍ نثريّ جيّد. وعادت كلمات أندرياس كوريلي تقطر ثانية في أفكاري، شيئًا فشيئًا، كسمٍّ حلو المذاق بطيء المفعول.

كان لازمًا عليّ إكمالُ مائة صفحة على الأقلّ، كي أنجز حلقة جديدة من تلك الخزعبلات المغامراتيّة، التي نفخت جيوب باريدو وإسكوبياس؛ وفي الوقت نفسه تيقّنتُ من عدم قدرتي على إنجازها. ظلّ إغناثيوس ب. سامسون مستلقيًا على السكّة قبالة ذلك الترام، منهك القوى، وروحه تنزف بصفحاتٍ كثيرة لم يكن لها أن ترى النور أبدًا. لكنّه قبل أن يرحل، ترك لي وصيّته الأخيرة: عليّ أن أدفنه بصمت، ثمّ أقدِم بشجاعةٍ على استخدام صوتي، ولو مرّة واحدة في هذه الحياة. أورثني مخزنًا عظيمًا من الدخان والمرايا؛ وطلب مني إطلاق سراحه، لأنّه لم يولد إلا ليكون نسيًا منسيًّا.

حملتُ صفحات روايته الأخيرة وأضرمتُ فيها النار، وكلّما سلّمتُ صفحة لألسنة اللهب، راودني شعورٌ بأنّي أزيح شيئًا ما - أثقل من شاهدة القبر - عن صدري. هبّت نسائمٌ حارّةٌ ورطبةٌ ذلك المساء على الأسطح؛ فإذا بها تدخل من النوافذ لتحمل معها رماد إغناثيوس ب. سامسون وتبعثره في أزقّة المدينة القديمة التي لن يفارقها أبدًا، طالما أنّ اسمه سقط من ذاكرة قرّائه المخلصين، وكلماتِه باتت هباءً منثورًا.

في اليوم التالي، ذهبتُ إلى مقرّ باريدو وإسكوبياس. كانت موظّفة الاستقبال حديثة عهد، بل وكأنّها فتاة صغيرة. لم تعرفني.

- ما اسم حضرتك؟

- ڤيكتور هوغو.

ابتسمت الفتاة وضغطت على الهاتف الداخليّ لتُعلِم هيرمينيا بقدومي.

- سيّدة هيرمينيا. لقد وصل الدون ڤيكتور هوغو، ويودّ الدخول إلى السيد باريدو.

رأيتُها تومئ برأسها وتقفل الخطّ.

- قالت إنّها ستأتي حالاً.

- هل تعملين هنا منذ وقت طويل؟

- منذ أسبوع - أجابت الفتاة بحماس.

إن لم تخطئ حساباتي، كانت تلك ثامن موظّفة يعيّنها باريدو وإسكوبياس منذ بداية العام. إذ لا يستمرّ الموظفون، الخاضعون مباشرةً لسلطة هيرمينيا الماكرة، طويلاً، لأنّها - وهي الملقّبة ڤينينو السامّة - كانت حين تكتشف أنّ أحدهم أذكى منها بقليل، وتخشى أن ينافسها - الأمر الذي يحدث تسع مرّات من أصل عشرة - تسارع إلى اتّهامه بالسرقة أو الاختلاس أو ارتكاب خطأ فادح، وتكيد له حتّى يرميه إسكوبياس في الشارع ويهدّده بالموت على يد قاتلٍ مأجورٍ إذا أفشى أسرار الدار ولو عن طريق الصدفة.

- كم أنا سعيدة برؤيتك يا داڤيد - قالت ڤينينو - أراك أكثر وسامة. وجهك منير.

- هذا لأنّي كدت أموت تحت الترام. هل باريدو هنا؟

- تمزح؟ قد يلغي كلّ مواعيده للقائك. سيكون في غاية السعادة حين يعرف بزيارتك.

- ليس لديكِ أدنى فكرة.

اقتادتني ڤينينو إلى مكتب باريدو، المؤثث على شاكلة مكاتب الوزراء في المسرحيّات، حيث السجّادُ الوفير وتماثيلُ نصفيّة لبعض الأباطرة ولوحاتٌ تجسّد الطبيعة الميتة ومجلّداتٌ فاخرة الأغلفة وثقيلة الوزن، رغم أنّي كنتُ أتخيّل جميع صفحاتها فارغة وبيضاء. تقدّم باريدو نحوي، متسلّحًا بأكثر ابتساماته رياءً، ومدّ يده.

- ننتظر الحلقة الجديدة بفارغ الصبر. هل تعلم أنّنا نعيد طباعة آخر حلقتين، وأنّ الجمهور متلّهف حتى إنّهم ينتزعونها من بين أيدينا؟ خمسة آلاف نسخة إضافيّة. ما رأيك؟

رأيي كان أنّ النسخ لا تقلّ عن خمسين ألفًا، لكنّي اكتفيتُ بهزّ رأسي بفتور. لقد طوّر باريدو وإسكوبياس ما كان معروفًا بين الناشرين في برشلونة بالطبعة المزدوجة، حتّى وصلا بها إلى مستوىً لا يُعلى عليه. إذ كانت الدار تنشر طبعةً رسميّة من كلّ عنوان، وتصرّح عن بعض آلاف النسخ، يحصل المؤلّف منها على نسبة زهيدة. ثمّ إذا لاقى الكتاب رواجًا، تعيد الدار إصداره بطبعة أصليّة، وأخرى مزوّرة بعشرات آلاف النسخ التي لا يصرّح الناشر عنها ولا يحصل المؤلّف منها على قرشٍ واحد. ولم يكن من الصعب تمييز النسخة المزوّرة عن غيرها، لأنّ باريدو يطبعها خلسة في مصنعٍ قديمٍ للحوم المجفّفة، في سانتا بربيتوا دي موغودا؛ فإذا تصفّحها القارئ انبعثت منها رائحةٌ قوية تتفرّد بها لحوم السلامي المعتقة.

- أخشى أنّي أتيتك بأخبار سيئة.

تبادل باريدو وڤينينو النظر دون أن تختفي ابتسامتهما. وفي تلك اللحظة، ظهر إسكوبياس عند العتبة، وجرحني بنظرة حادّة ومقيتة، كأنّه يأخذ مقاسي ليصنع لي تابوتًا.

- انظر من أتى لزيارتنا. يا لها من مفاجأة عظيمة، أليس كذلك؟ - سأل باريدو شريكه الذي اكتفى بهزّ رأسه.

- ما هي الأخبار السيئة؟ - سألني إسكوبياس.

- هل ثمّة تأخيرٌ يا صديقي مارتين؟ - أضاف باريدو بنبرة ودّيّة - إنّي متأكّد من أنّنا سنجد حلاً ما...

- لا. لا وجود لأيّ تأخير. ببساطة، لن يصدر الكتاب.

تقدّم إسكوبياس خطوة إلى الأمام وقطّب حاجبيه. فافتعل باريدو ضحكة قصيرة.

- ماذا تقصد بـ«لن يصدر الكتاب»؟ - سألني إسكوبياس.

- لقد أضرمتُ فيه النار، البارحة. ولم تنجُ أيّ ورقة من المخطوط.

حلّ صمتٌ رهيب. التجأ باريدو إلى التهدئة، وأشار إلى ما كان يُعرف بعرش الزوّار، أريكة كالحة اللون، صُمّمت خصوصًا للمؤلّفين والموزعين كي يجلسوا على مستوى نظر باريدو.

- مارتين، اجلس يا صديقي، وأخبرني. من الواضح أنّ ثمّة ما يُقلقك. بوسعك أن تبوح لنا، فنحن عائلتك.

أومأ إسكوبياس وڤينينو باقتناع، ليُظهرا ما تيسّر لهما من وفاءٍ مبالغ فيه. فضلّتُ البقاء واقفًا، فبقوا واقفين، يمعنون فيّ النظر كما لو كنت تمثالاً من الملح قد ينطق بين لحظةٍ وأخرى. وكاد باريدو يعاني من ألمٍ في الفكّ السفليّ، لشدّة تصنّعه الابتسامة.

- ما الذي حدث؟

- لقد انتحر إغناثيوس ب. سامسون. ترك قصة لم تنشر بعد، مكوّنة من عشرين صفحة، يموت في نهايتها بجانب كلويه بيرمانير، متعانقين، بعد أن تجرّعا سمًّا.

- الكاتب يموت في إحدى رواياته؟ - سألت هيرمينيا مشوّشة الذهن.

- إنّها طريقته الحداثيّة في توديع عالم الروايات المسلسلة. كنت متأكدًا من أنّ هذا التفصيل سينال إعجابكم.

- ألا يوجد ترياقٌ ما أو...؟ - سألتْ ڤينينو السامّة.

- مارتين، ما من داعٍ أن أذكّرك بأنّك أنت من وقّع العقد معنا، وليس إغناثيوس الراحل فرضًا... - قال إسكوبياس.

رفع باريدو يده ليُسكِت زميله.

- لعلّي فهمتُ ما الذي حدث لك يا عزيزي مارتين. إنّك متعب. منذ أعوام وأنت تعمل بكدٍّ وبلا هوادة. وإنّ هذه الدار تقدّر تفانيك وتعرب عن امتنانها لجهودك. أنت بحاجة إلى قسطٍ من الراحة. ندرك الحالة جيدًا. أليس كذلك؟

نظر باريدو إلى إسكوبياس وڤينينو اللذين سارعا إلى التأكيد بتعبيرٍ يصلح للمناسبات.

- أنت فنّانٌ مبدعٌ وتسعى إلى خلق الجمال والأدب الراقي. وقلبك يضخّ طموحًا لتسطّر اسمك، بحروف من ذهب، على أبواب تاريخ العالم.

- بهذا الوصف، يبدو مهزلة - قلت.

- لأنّه كذلك فعلاً - قال إسكوبياس.

- لا. ليس كذلك - احتجّ باريدو - إنّه إنسان. ونحن بشر... أنا وشريكي وهيرمينيا، مرهفة الحسّ لكونها امرأة وأكثرنا شعورًا بالإنسانيّة، أليس كذلك يا هرمينيا؟

- إنّي أفيض إنسانيّةً - هتفت ڤينينو السامّة.

- وبما أنّنا إنسانيّون، فنحن نستوعبك ونريد أن نساعدك. لأنّنا فخورون بك ومقتنعون بأنّ نجاحنا متعلّقٌ بنجاحك، ولأنّ هذه الدار تمنح الأولوية للبشر قبل كلّ شيء وليس للأرقام.

في نهاية الخطبة، سكت باريدو سكتة مسرحية. ربّما كان يأمل أن أصفّق له، لكنّه حين رآني ثابتًا على الدوام، تابع خطبته دون تردّد.

- لذا، أقترح التالي: أن تأخذ إجازة لستّة أشهر، أو تسعة إن احتجت، وبعدها فلتكن الولادة. اعتكف في مكتبك، لتأليف أعظم رواية في حياتك. وحين تنجزها، آتنا بها كي ننشرها باسمك. سنضع اللحم كلّه على النار؛ سنقامر بكلّ شيء. لأنّنا نقف إلى جانبك.

نظرتُ إلى باريدو ثم إلى شريكه. كادت ڤينينو السامّة أن تنفجر باكية من شدّة التأثّر.

- لن ندفع لك سلفًا، بالطبع - نوّه إسكوبياس.

لوّح باريدو يديه في الهواء مبالغًا.

- ما قولك بهذا؟

بدأتُ العمل في اليوم نفسه. كانت خطّتي بسيطة ومجنونة في آن واحد. في النهار سأعمل على كتاب ڤيذال؛ وفي الليل أعمل على كتابي. سألجأ إلى كلّ الأساليب التي علّمني إياها إغناثيوس ب. سامسون لأضعها تحت تصرّف ما بقي - إن بقي - من كرامةٍ وجودة في قلبي. سأكتب بامتنان، بقنوط، بطيش. سأكتب من أجل كريستينا، على وجه الخصوص: لأثبت لها أنّي قادرٌ أنا أيضًا على إيفاء دَيني لڤيذال؛ وأنّ داڤيد مارتين - ولئن كان على حافّة الموت - قد انتزع حقّه في النظر إلى عينيها دون أن يشعر بالعار من نفسه ومن آماله السخيفة.

لم أعد إلى مستوصف الطبيب ترياس. لم أجد ضرورة لذلك. سأكون أوّل العارفين بما سيحصل، في اليوم الذي لن أستطيع فيه كتابة كلمة واحدة، أو حتّى أن أتخيّلها. كان جاري الصيدلانيّ الموثوق، عديم الريبة، يبيعني ما أريد من حبوب الكودين المهدّئة، دون أن يطرح سؤالاً واحدًا. وأحيانًا كنت أشتري بعض المسرّات الأخرى التي تشعل النار في العروق وتقضي على الألم والوعي بضربة واحدة. ولم أعلِم أحدًا بزيارتي الطبيّة ولا بنتائج التحاليل.

كما كانت احتياجاتي الأساسيّة تأتيني أسبوعيًّا إلى باب بيتي، من خان جسبرت؛ وهو محلّ رائعٌ يبيع السلع الآتية من المستعمرات، في زقاق ميراليرس خلف كاتدرائيّة سانتا ماريا دل مار. الطلبيّة نفسها دومًا. وعادةً ما تأتيني بها ابنة صاحب المحلّ، فتاةٌ صغيرةٌ تحدّق إليّ مثل صغير الغراب المذعور كلّما دعوتُها للانتظار عند المدخل ريثما أصعد لآتيها بالنقود.

- هذه لأبيكِ... وهذه لكِ.

كنت أعطيها إكراميّة من عشرة قروش دومًا، وكانت تقبلها صامتةً. كلّ أسبوع كانت تطرق بابي، حاملةً الطلبيّة؛ وكنتُ كلّ أسبوع أدفع لها وأكرمها بعشرة قروش. كانت تلك الفتاة، التي كنت أجهل اسمها، وأنسى وجهها كلّ أسبوع حتّى أراها ثانية عند عتبة البيت، هي الشخص الوحيد الذي رأيته على مدار تسعة أشهر ويوم واحد، الزمن الذي كرّسته لكتابة الرواية الوحيدة التي ستحمل توقيعي.

انقطعت كريستينا عن المجيء دون سابق إنذار إلى مواعيدنا المسائيّة. بتُّ أخشى أنّ ڤيذال اكتشف سرّنا حين فتحتُ الباب ذات عصر، إذ كنت متشوّقًا لرؤيتها بعد غيابٍ قرابة الأسبوع، فإذا بي أجد بيب، واحد من الخدم في ڤيلا هيليوس. كان يحمل إليّ طردًا صغيرًا من طرف كريستينا، مختومًا ببالغ السرّيّة، يحتوي على مخطوط ڤيذال بأكمله. أخبرني بيب بأنّ والد كريستينا أصيب بجلطة دماغيّة، سبّبت له الشلل الكليّ، وأنّ كريستينا أسعفته إلى مستوصفٍ عند جبال البرانس، في پيغثيردا حيث يعمل طبيبٌ شابّ مختصّ بعلاج تلك الأمراض، على ما يبدو.

- السيّد ڤيذال تكفّل بكلّ شيء - أضاف بيب - دون أن يكترث للنفقات.

ڤيذال لا ينسى أيًّا من خدمه، فكّرتُ بمرارة معيّنة.

- طلبتْ مني أن أسلّمك هذا الطرد شخصيًا. وأن لا أقول شيئًا لأحد.

سلمّني الخادم الطردَ، منتشيًا بأنه تخلّص من ذلك الغرض الغامض.

- هل تركتْ لك أيّ عنوانٍ، إذا أردتُ اللقاء بها، في حال الضرورة القصوى؟

- لا يا سيّد مارتين. كلّ ما أعلمه أنّ والد الآنسة كريستينا نُقل إلى ما يسمّى ڤيلا سان أنطونيو.

بعد أيام، قام ڤيذال بإحدى زياراته المفاجئة وقضّى عندي الظهيرة كلّها، يحتسي اليانسون خاصّتي ويدخّن سجائري ويتحدّث عن المصيبة التي ألمّت بسائقه.

- أكاد لا أصدّق. رجلٌ صلبٌ مثل شجرة البلّوط، ينهار على الأرض فجأة وينسى اسمه.

- كيف حال كريستينا؟

- لك أن تتخيّل حالها. أمّها توفيت منذ أعوام مضت، ومانويل قريبها الوحيد الذي بقي لها. حملتْ معها ألبوم صورٍ تُطلعها كلّ يوم على مرأى ذلك المسكين لعلّه يتذكّرشيئًا ما.

بينما كان ڤيذال يتكلّم، كانت روايته - التي عليّ أن أسمّها روايتي - على مسافة نصف مترٍ من متناول يديه، في رزمة من الأوراق المقلوبة فوق طاولة الصالة. روى لي أنّه كلّف بيب بإتقان قيادة السيارة، ليسدّ فراغ مانويل. ولئن كان الشابّ فارسًا مغوارًا، فإنّه حتى تلك اللحظة قدّم أداءً كارثيًّا.

- الأمر يتطلّب بعض الوقت. فالسيارة ليست كالحصان. السرّ في الممارسة.

- بالمناسبة، ألم يعلّمك مانويل على القيادة؟

- قليلاً - اعترفتُ - وليست بالأمر الهيّن كما تبدو.

- إن لم تنجح هذه الرواية، التي تعمل عليها الآن، بإمكانك أن تصبح سائقي.

- لن ندفن مانويل المسكين قبل الأوان يا دون پيدرو.

- يا له من تعليق خبيث - اعترف ڤيذال - يؤسفني ذلك.

- وماذا عن روايتك، يا دون پيدرو؟

- على الطريق القويمة. كريستينا حملت معها المخطوط النهائيّ إلى پيغثيردا كي تدقّقه وتبيّضه، بينما تشرف على رعاية أبيها.

- إنّي مسرور لرؤيتك سعيدًا بهذا.

ارتسمت ابتسامة الظافرين على وجه ڤيذال.

- أعتقد أنّها ستكون رواية عظيمة - قال - بعد مضيّ أشهر ظننتُها ضاعتْ هباءً، قرأتُ أوّل خمسين صفحة بتنضيد كريستينا الرائع، وفوجئتُ بنفسي حقًا. وأعتقد أنّها ستفاجئك أنت أيضًا. وهكذا سأبقى أنا المعلّم الذي يجود عليك بالإرشادات.

- لم أشكّ في ذلك يومًا يا دون پيدرو.

أسرف ڤيذال في الشرب، تلك العصريّة، أكثر من المعتاد. علّمتني السنوات أن أقرأ تدرّجات اضطرابه وشكوكه، فتخيلتُ أنّ زيارته هذه لم تكن مجرّد زيارةٍ عاديّة. حين أنهى مخزوني من اليانسون، سكبتُ له كأسًا كريمةً من البراندي وانتظرتُ.

- داڤيد، ثمّة أمور لم نتطرّق إليها، أنا وأنت، أبدًا...

- كرة القدم مثلاً.

- أتكلّم جديًّا.

- تفضّلْ إذن يا دون پيدرو.

نظر إليّ طويلاً، مرتبكًا.

- أنت تعلم أنّي لطالما حاولتُ أن أكون خير صديق لك يا داڤيد، أليس كذلك؟

- لقد كنتَ أكثر من هذا يا دون پيدرو. كلانا يعلم هذا.

- أتساءل أحيانًا إن كنتُ صريحًا معك إلى أبعد حدّ.

- بأيّ خصوص؟

أغرق ڤيذال نظراته في كأس البراندي.

- ثمّة أشياء لم أطلعك عليها أبدًا يا داڤيد. وربّما كان عليّ أن أكلّمك بشأنها منذ أعوام...

تركتُ لحظةً من الصمت تمرّ حتّى أصبحت طويلة جدًا. لم يكن كلّ البراندي في العالم قادرًا على انتزاع اعترافات ڤيذال، مهما كان حجمها.

- لا عليك يا دون پيدرو. إن كانت هذه الأشياء قد انتظرت أعوامًا، فبوسعها الانتظار إلى الغد بكلّ تأكيد.

- لعلّ الشجاعة ستنقصني في الغد.

أدركتُ أنّها أوّل مرّة أراه فيها متوجّسًا إلى تلك الدرجة. كأنّ شيئًا في قلبه قد انكسر، حتّى إنّه وضعني في موقف محرجٍ بمجرّد رؤيته بهذه الحالة.

- فليكن كذلك يا دون پيدرو. حين يصدر كتابك وكتابي، نلتقي لنشرب النخب، وتطلعني على هذه الأشياء المبيّتة. تدعوني على نفقتك إلى أحد تلك الأماكن الباهظة والراقية، التي لا يسمحون لي بدخولها إن لم أكن برفقتك. وتبوح لي بما تشاء. هل يرضيك هذا؟

عند الغروب، رافقته حتى شارع بورن حيث كان بيب ينتظره متّكئًا على الهسبانو سويسا، ومرتديًا بزّة مانويل التي كانت أكبر خمس مرّات من مقاسه، مثل السيّارة تمامًا. إذ كان معدن العربة مليئًا بالخدوش الحديثة والمؤسفة حقًّا..

- على رسلك يا بيب - نصحتُه - لا تثبْ كالحصان. سر بثقةٍ وبطء كأنّك على ظهر حمار.

- حاضر يا سيد مارتين. بثقة وبطء.

ودّعني ڤيذال معانقًا بشدّة. وحين ركب السيّارة بدا لي أنه يحمل عبء الكون على كاهله.

16

بعد بضعة أيّام من وضع اللمسات الأخيرة على الروايتين، روايتي ورواية ڤيذال، قدم بيب إلى بيتي دون سابق إنذار. كان يلتحف البزّة الفضفاضة التي ورثها عن مانويل، لتعطيه ملامح طفلٍ متنكّرٍ بزيّ جنرال. ظننتُ للوهلة الأولى أنّه جاءني برسالة من ڤيذال، أو ربّما من كريستينا، لكنّ وجهه الأسمر كشف عن اضطرابٍ بدّد ذلك الاحتمال عند أوّل نظرة تبادلناها.

- أنباء سيئة يا سيّد مارتين؟

- ما الذي حدث؟

- السيّد مانويل.

تشرّخ صوته أثناء كلامه عمّا حصل، وعندما سألتُه إن كان يريد كأس ماء انفجر باكيًا. كان مانويل سانغيير قد توفّي قبل ثلاثة أيام في مستوصف پيغثيردا بعد احتضار طويل. وبقرارٍ من ابنته، دفنوه في اليوم السابق في مقبرةٍ صغيرة على تخوم جبال البرانس.

- يا إلهي! - غمغمتُ.

وبدل أن أعطيه الماء، أسعفته بكأسٍ تفيض بالبراندي، وأجلسته على إحدى أرائك الصالة. وبعد أن هدأ، أخبرني بأنّ ڤيذال أمره باصطحاب كريستينا، عند عودتها بقطار الساعة الخامسة عصرًا.

- تخيّل يا سيّدي وضع الآنسة كريستينا... - غمغم، متخوّفًا من استقبالها ومواساتها على الطريق نحو شقّتها الصغيرة، فوق موقف السيارات في ڤيلا هيليوس، حيث عاشت مع والدها منذ طفولتها.

- لا أفضّل أن تذهب لتصطحب الآنسة سانغيير.

- هذه أوامر الدون پيدرو.

- قل للدون پيدرو إنّي أتحمّل المسؤولية.

وبفضل تأثير الكحول والبلاغة، أقنعته بأن ينصرف ويترك الأمر لي. سأذهب بنفسي لاصطحابها، وسأرافقها إلى ڤيلا هيليوس بسيّارة أجرة.

- أشكرك جزيل الشكر يا سيّد مارتين. أنت أديب وستواسي المسكينة أفضل منّي بالتأكيد.

في الخامسة إلا ربعًا، انطلقتُ نحو محطة فرنسا، التي افتتحت للتوّ. لقد شُيّدت العديد من الأعاجيب في أرجاء المدينة، احتفاءً بالمعرض الدولي لذلك العام، لكنّ أجملها كانت تلك الواجهة الزاخرة بالفولاذ والزجاج، حتّى يحسَبها الناظر كاتدرائيّة ما؛ ولعلّي كنت أفضّلها عن غيرها لقربها من بيتي، ولقدرتي على رؤيتها بوضوحٍ من مكتب البرج. كانت السماء حينها مطرّزة بسحبٍ سوداء تتدافع من جهة البحر وتتلبّد فوق المدينة. وكان ارتداد البرق في الأفق، وهبوب الهواء الحارّ بنكهة الغبار والكهرباء، يُنبئ بإعصار صيفيّ جارف. حين وصلتُ إلى المحطة، انهالت أولى قطرات المطر اللامعة والثقيلة، تسقط كالدنانير من السماء. وبينما كنت أتقدّم على الرصيف منتظرًا وصول القطار، هطلت الأمطار بغزارة على واجهة المحطة، وداهم ظلامُ الليل المدينةَ، يتخلّله وميض البرق المبهر، متناوبًا مع هزيم الرعد الغاضب.

تأخّر القطار حوالي الساعة، ووصل كثعبانٍ ينفث البخار ويزحف تحت العاصفة. انتظرتُ عند قاطرة المحرّك، كي تتسنّى لي رؤية كريستينا وهي تظهر من بين المسافرين الذين كانوا ينزلون من القطار. بعد عشر دقائق، فرغ القطار ولم أجد لها أثرًا. كنت أفكّر بالعودة إلى البيت، إذ ظننتُ أنّها تأخّرت عن الرحلة لسبب ما، لكنّي قرّرتُ أن ألقي نظرة أخيرة ومتأنيّة على نوافذ القطار، بالسير حتّى نهاية الرصيف. فوجدتُها جالسة في العربة قبل الأخيرة، ورأسها محنيٌّ إلى الزجاج، هائمة النظرات. صعدتُ وتوقّفتُ على عتبة العربة. وحين سمعتْ خطاي التفتتْ ونظرتْ إليّ بلا ذهول، لترتسم ابتسامة واهنة على وجهها. نهضتْ وعانقتني بصمت.

- مرحبًا بعودتكِ - قلت.

حملتُ عنها حقيبتها الصغيرة، ونزلنا إلى الرصيف المقفر. مشينا حتى مدخل المحطة دون أن يفتح أحدٌ منا فمه. توقّفنا عند المدخل. كانت تمطر كشلاّلاتٍ من المياه، وقد اختفت سيّارات الأجرة التي كانت مصطفّة هناك عند وصولي.

- لا أريد العودة إلى ڤيلا هيليوس هذه الليلة يا داڤيد. ليس الآن.

- بإمكانك النزول عندي إن أردت، أو قد نجد لك غرفة في فندق ما.

- لا أريد البقاء وحيدة.

- فلنذهب إلى البيت. لديّ فائضٌ في عدد الغرف.

رأيتُ أحد الحمّالين الذي أطلّ برأسه ليشاهد الإعصار، وكان يحمل مظلّة كبيرة. دنوتُ منه وعرضتُ عليه أن يبيعني إيّاها بسعر يفوق ثمنها الحقيقيّ خمس مرّات. فأعطاني المظلّة زاهيًا بابتسامة مبجّلة.

ثم تحدّينا الطوفان، تحت رحمة تلك المظلة، ومشينا نحو بيت البرج. وصلنا بعد عشر دقائق، مبللين حتّى عظامنا بسبب الرياح وما خلّفته من فيضان. أعمى الإعصارُ أعمدةَ الإنارة، فغرقت الشوارع في ظلامٍ حالك، بالكاد تتخلّله أنوار مصابيح الزيت أو الشموع الموقدة عند النوافذ والبوّابات. لم يكن لديّ شكّ بأنّ مشروع توصيل

الكهرباء العظيم إلى بيتي كان أوّل الضحايا. أرغمنا على صعود السلالم في العتمة، وحين فتحنا الباب، وجدنا أنّ ضربات البرق أضفت على البيت أبشع معالم الشؤم والريبة.

- إن كنتِ قد غيّرتِ رأيكِ وتفضّلين البحث عن فندق...

- لا عليك، كلّ شيء على ما يرام.

تركتُ حقيبة كريستينا عند البهو وهرعتُ إلى المطبخ بحثًا عن علبة شموعٍ كنت أحتفظ بها في الخِوان. وأخذتُ أشعلها جميعًا، واحدة تلو الأخرى، وأثبّتها على الأطباق الصغيرة، وفي الكؤوس. كانت كريستينا تنظر إليّ من العتبة.

- مسألة دقيقة واحدة - أكّدتُ - بتُّ خبيرًا بهذا.

شرعتُ أوزّع الشموع على الممرّ والغرف وكلّ الزوايا حتّى تزيّن الظلام بزخرفة أنوارٍ واهنةٍ ومذهّبة.

- هكذا يبدو البيت كاتدرائيّة - قالت كريستينا.

اقتدتها إلى إحدى غرف النوم التي لم أكن أستخدمها أبدًا، لكنّي ما لبثتُ أواظب على تنظيفها منذ أن قرّر ڤيذال البيات عندي ذات مرّة، إذ كان ثملاً بما لا يسمح له العودة إلى قصره.

- سآتيكِ بالمناشف النظيفة حالاً. وإن لم يكن معكِ ملابس أخرى، عرضتُ عليك أزياءً مختلفة، ومجنونة من صيحات «الزمن الجميل»، التي تركها أصحاب البيت القدماء في الخزانات.

نجحت محاولاتي المغفّلة بالكاد في اصطناع الدعابة لرسم ابتسامة على وجهها، إذ أومأتْ موافِقة. تركتها جالسة على السرير بينما ركضتُ أبحث عن المناشف. وحين عدت وجدتُها في مكانها، بلا حراك. وضعتُ المناشف على السرير، بجوارها، وقرّبتُ إليها شمعتين كنتُ قد وضعتهما عند المدخل لبثّ النور.

- شكرًا - غمغمتْ.

- سأحضّر حساءً ساخنًا، ريثما تبدّلين ثيابكِ.

- ليس لديّ شهيّة.

- إنّه مفيدٌ للصحّة على كلّ حال. إن احتجتِ أيّ شيء، ناديني!

تركتها بمفردها وذهبتُ إلى غرفتي كي أنزع حذاءي المبلل. سخّنتُ الماء وجلستُ في الصالة، أنتظر. ما انفكّت الأمطار تنهمر بغزارة، كطلقات الرصاص السافر على النوافذ، لتشكّل سيولاً في أنابيب الصرف، تقرقر كالخطى المضطّربة على السطح. وبعد قليل، غاص حيّ ريبيرا في ظلامٍ مدقع.

ثم سمعتُ باب غرفة كريستينا ينفتح، وخطواتها تتقدّم. كانت قد لبست ثوبًا أبيض واتّشحت بشالٍ صوفيّ لا يليق بها.

- استعرتُه من إحدى الخزانات - قالت - آمل ألاّ يزعجك هذا.

- بل بإمكانك الاحتفاظ به، إن أردتِ.

جلستْ على إحدى الأرائك وراحت تقلّب أنظارها في أرجاء الصالة، لتحطّ على رزمة الأوراق فوق الطاولة. نظرت إليّ، فهززتُ رأسي.

- لقد أتممتها منذ عدّة أيام - قلت.

- وروايتك؟

في الحقيقة، كنت أعتبر أنّ الروايتين لي؛ لكنّي اكتفيتُ بهزّ رأسي ثانية.

- هلاّ سمحتَ لي؟ - سألتْ وهي تمسك بصفحةٍ وتقرّبها إلى الشمعة.

- طبعًا.

رأيتها تقرأ في سرّها، تراودها ابتسامة فاترة على شفتيها.

- لن يصدّق بيدرو أنّه كتب هذا - قالت.

- ثقي بي - أجبتُ.

أرجعت كريستينا الصفحة إلى الرزمة ونظرت إليّ طويلاً.

- اشتقتُ إليك - قالت - لم يكن بودّي، لكنّ هذا ما حصل.

- وأنا أيضًا.

- على مدار أيّام، كنت أمرّ بالمحطة، قبل التوجّه إلى المستوصف، وأجلس على مقعدٍ لأنتظر القطار الآتي من برشلونة، آملةً أنّك قد تأتي لزيارتي.

مضغتُ ريقًا.

- كنت أظنّ أنك لا تودّين رؤيتي - قلت.

- وأنا أيضًا ظننتُ ذلك. هل تعلم أنّ أبي كان يسألني عنك دائمًا؟ طلب مني أن أعتني بك.

- والدك كان رجلاً طيّبًا - قلت - إنّه صديق وفيّ فعلاً.

هزّت كريستينا رأسها وابتسمت، لكنّي رأيتُ عينيها تغرورقان بالدموع.

- لم يعد يذكر شيئًا في آخر أيامه. كان يحسَبني أمّي أحيانًا، ويطلب مني أن أسامحه على كلّ تلك الأعوام التي قضّاها في السجن. وفي أحيان أخرى، لم يعد يشعر بوجودي بقربه. العزلة تندّس في فؤاد المرء مع مرور الوقت، ولا تفارقه أبدًا.

- يؤسفني ماحدث يا كريستينا.

- ظننتُ أنّه يستعيد عافيته في أيّامه الأخيرة. عاد يتذكّر بعض الأشياء. وكنتُ قد حملتُ معي ألبوم صورٍ من البيت، فأظهرتُ الصور عليه، مع الإشارة إلى أسماء أشخاصها. ثمّة صورة التقطتْ منذ أعوام بعيدة، في ڤيلا هيليوس، تظهر فيها أنت وأبي في السيّارة. أنت على المقود وأبي يعلّمك القيادة. وكنتما مسرورين، تضحكان. هل تودّ رؤيتها؟

ترددتُ قليلاً، لكنّي لم أجرؤ على تدمير تلك اللحظة.

- بالتأكيد.

ذهبت كريستينا لتحضر الألبوم من الحقيبة، وعادت بكرّاس جلديّ صغير. جلست بجواري وأخذت تتصفّح الألبوم المليء بالوجوه القديمة والقصاصات والبطاقات. كان مانويل، مثل والدي، يعرف القراءة والكتابة بالكاد، فتشكّلتْ ذكرياتُه من صور.

- انظر، ها أنتما!

تفحّصتُ الصورة وتذكّرتُ ذلك اليوم الصيفيّ بالتحديد، حين أصعدني مانويل على متن أوّل سيّارة اشتراها ڤيذال، كي يعلّمني أصول القيادة. ثم اتجهنا بالسيّارة حتى شارع بنما، بسرعة خمسة كيلومترات بالساعة، بدت لي حينها سرعة خارقة، وذهبنا إلى شارع بيارسون، وفي العودة أجلسني خلف الدفّة.

«لقد أصبحتَ سائقًا محترفًا» قال لي مانويل «إن ساءت أمورك مع الحكايات يومًا ما، ففكّر بمستقبل سباق السيّارات».

ابتسمتُ وأنا أتذكّر تلك اللحظة التي ظننتُ أنّها ضاعت. أعطتني كريستينا الألبوم.

- احتفظ به. كان سيطيب لوالدي أن تحتفظ به.

- لكنّه لك يا كريستينا. لا يمكنني أن أقبل هذه الهديّة.

- أنا أيضًا أفضّل أن تحتفظ به أنت.

- سيبقى مصانًا إلى أن تطلبيه مرة أخرى.

تصفحّتُ الألبوم، وعدتُ لرؤية وجوهٍ أذكرها، وأخرى لم ألتق بها أبدًا. ثمّة صورة لزفاف مانويل سانغيير بزوجته مارتا، التي تشبهها كريستينا كثيرًا. ثمّة صورٌ لأقاربها وأجدادها، لمظاهرةٍ تجتاح شارعًا في حيّ الراڤال، لحمّامات سان سيباستيان على شاطئ برشلونيتا. كان مانويل قد جمع البطاقات القديمة وقصاصات الجرائد، وصورة لڤيذال في ريعان شبابه عند مدخل فندق فلوريدا على قمّة تيبيدابو، وأخرى متوسّدًا ذراع إحدى الحسناوات في ملهى آراباسادا.

- كان والدكِ يعبد الدون پيدرو.

- لطالما قال لي إنّنا مدينون له بكلّ شيء - أجابت كريستينا.

تابعتُ الإبحار في ذاكرة البائس مانويل حتى اصطدمتُ بصورةٍ لم تكن متجانسة مع البقيّة: طفلةٌ، ذات ثمانية أعوام، أو تسعة، تمشي على رصيفٍ خشبيّ صغير، يشقّ سطح البحر البرّاق. كانت تمسك بيد رجل بالغ، يرتدي بذلة بيضاء، لا تظهر سوى ذراعه في إطار الصورة. في الخلفيّة، ثمّة قارب شراعيّ صغير، وأفق مفتوح تغيب فيه الشمس. والطفلة، التي تولي ظهرها للعدسة، هي كريستينا.

- هذه الصورة المفضّلة لديّ - غمغمت كريستينا.

- أين التقطت؟

- لا أعرف. لا أذكر المكان ولا حتّى الزمان. ولستُ متيقّنة من أنّ ذلك الرجل والدي. كما لو أنّ تلك اللحظة ليس لها وجود. عثرتُ عليها منذ أعوام في ألبوم أبي، ولم أفهم ما معناها أبدًا. كأنّها تلمّح إلى شيء ما.

تصفحّتُ الألبوم. كانت كريستينا تشرح لي عن أولئك الأشخاص.

- انظر، هذه أنا في سنّ الأربعة عشر عامًا.

- أعرف.

نظرتْ إليّ بحزن.

- لم أكن أعير اهتمامًا، أليس كذلك؟ - سألتْ.

أبديتُ عدم اكتراثي.

- لن تسامحني أبدًا.

فضّلتُ تصفّح الألبوم على التركيز في عينيها.

- ليس عندي ما أسامحكِ عليه.

- انظر إليّ يا داڤيد.

أغلقتُ الألبوم وفعلتُ ما طلبته مني.

- ليس صحيحًا - قالت - كنت أعير اهتمامًا. في كلّ يوم. لكنّي كنت أخال الأمر ممنوعًا.

- لماذا؟

- لأنّ حياتنا ليست مِلكًا لنا. لا حياتي، ولا حياة والدي ولا حياتك...

- كلّ شيء مِلك ڤيدال - قلت بمرارة.

أمسكتْ بيدي برفق وحملتها إلى شفتيها.

- عدا هذا اليوم - غمغمتْ.

كنت أعرف أنّي سأحظى بها قبل أن تنقضي تلك الليلة، لأخمد آلام الوحشة التي استبدّت بقلبها. كنت أعرف أنّها محقّة، ليس لصحّة ما قالته، بل لأنّنا في النهاية كنا نرى الأمر كذلك، وأنّه سيبقى كذلك. اختبأنا مثل لصّين في إحدى الغرف دون أن نجرؤ على إشعال شمعةٍ واحدة، دون الجرأة حتّى على الكلام. نزعتُ ثيابها ببطء، وأبحرتْ شفتاي على بشرتها، كأنّي واثقٌ من عدم تكرار هذه اللحظة. سلّمتني كريستينا مفاتيحها بسلاسة متأجّجة، وحين غلبتنا الرعشة توسّدتْ ذراعيّ دون أن تقول شيئًا. قاومتُ النعاس، لأتذوّق دفء جسمها، وأفكر أنّي سأموت قرير العين مطمئنّ النفْس إذا ما جاءني الموت في الصباح. داعبتُها تحت غمرة الظلام، فيما يودّع الإعصارُ المدينةَ، خلف الجدران. كنت أعرف أنّي سأفقدها؛ لكنّها كانت مِلكي خلال تلك السويعات، وأنا مِلكُ لا أحدٍ سواها.

عندما بزغت أولى خيوط الفجر على النوافذ، فتحتُ عينيّ ووجدت السرير خاليًا. خرجتُ إلى الممرّ واتجهتُ نحو الصالة. كانت كريستينا قد تركت الألبوم وحملتْ معها رواية ڤيذال. تجوّلتُ في البيت الذي اعتمد غيابَها عطرًا؛ وأطفأتُ الشموع، كما أشعلتُها ليلة أمس، شمعةً تلو أخرى.

17

بعد تسعة أسابيع، وجدتُ نفسي قبالة مكتبة كاتالونيا، التي افتتحتْ قبل عامين في 17 ساحة كاتالونيا؛ أنظر مشدوهًا إلى الواجهة الفسيحة، تغصّ بنسخٍ من روايةٍ بعنوان «بيت الرماد» لپيدرو ڤيذال. ابتسمتُ في سرّي. استخدم مُرشدي العنوان الذي اقترحته عليه منذ أمد بعيد، عندما شرحتُ له مقدّمات الحكاية. قرّرتُ أن أدخل وأطلب نسخة. فتحتُ الكتاب لا على التعيين، ورحت أعيد قراءة فقراتٍ حفظتها عن ظهر قلب وأنهيتُ تحريرها منذ أقلّ من شهرين. لم أجد في كلّ الكتاب كلمة لم أكتبها بنفسي، ما عدا الإهداء: «إلى كريستينا سانغيير، التي لولاها...»

حين أعدتُ الكتاب إلى البائع، نصحني بألاّ أتردّد في شرائه.

- لقد وصلت الرواية منذ يومين وقرأتها في جلسة واحدة - أضاف - رواية عظيمة. ثق بي واشترها. أعلم أنّ كلّ الصحف تنافق لكاتبها، وأنّ هذا علامة سيّئة بالمجمل، لكنّ الاستثناء هذه المرّة يؤكد القاعدة. إن لم تعجبك، أعدها إليّ لأوفيك مالك.

- شكرًا - أجبته على النصيحة، وعلى المديح من جهة أخرى - لكنّي قرأته أنا أيضًا.

- هل حضرتك مهتمّ بكتاب آخر إذن؟

- هل لديك نسخة من رواية «خطوات السماء»؟

تمعّن البائع لحظة.

- لمارتين، أليس كذلك؟ مؤلف رواية «مدينة...»

أومأتُ بالإيجاب.

- لقد طلبتُه، لكنّ دار النشر لم ترسله بعد. دعني أتحقّق.

تبعتُه نحو المصطبة، حيث استفسر من زميله الذي هزّ رأسه نافيًا.

- كان لا بدّ أن تصل البارحة، لكنّ الناشر قال إنّ النسخ نفدت. متأسّف. سأحجز لك نسخة حالما تصل، إن أردت...

- لا عليك. سأمرّ لاحقًا. وشكرًا جزيلاً.

- يؤسفني يا سيّدي. لا أعلم ما الذي حدث، من المفروض أن نستلم الرواية في الأمس، كما قلت لك...

بخروجي من المكتبة، اقتربتُ من كشكٍ على مدخل لاس رامبلاس. اشتريتُ كلّ الصحف اليوميّة، من «الطليعة» إلى «صوت الصناعة». وجلستُ في مقهى كاناليتيس وأخذتُ أقلّها. كانت الجرائد تعجّ بالقراءات حول رواية ڤيذال، تشمل صفحاتٍ بأكملها، بعناوين عريضة وصورة شخصيّة للدون پيدرو، يظهر فيها متأمّلاً وغامض النظرات، يرتدي بزّة أنيقة، ويتذوّق غليونًا بشرودٍ مدروس. رحتُ أقرأ العناوين ومطلع المقالات وختامها.

المقال الأوّل يستهلّ هكذا: ««بيت الرماد» عملٌ أدبيّ ناضج، رفيع المستوى وغنيّ بالتفاصيل، يضعنا مجددًا عند أفضل ما قد يقدّمه الأدب المعاصر». صحيفةٌ صباحيّة أخرى كانت توضّح للقارئ أنّ «في إسبانيا كلّها لا يوجد مَن يتفوّق بالكتابة على پيدرو ڤيذال، أديبنا القدير والشهير». والمقال الثالث كان يؤكّد أنّنا بصدد قراءة «رواية جوهريّة، مُتقنة البنيان، عظيمة البيان، عالية الجودة». أمّا الجريدة الرابعة كانت تبشّر بنجاحٍ عالميّ لڤيذال وروائعته الأدبيّة: «أوروبا تركع أمام المعلّم» (علمًا بأنّ الكتاب صدر في إسبانيا منذ يومين فقط، والترجمات المحتملة لم تكن لتُنشر قبل أقلّ من عام). كان المقال يستطرد مُسهبًا حول الاعتراف العالميّ واسع النطاق، وحول التقدير الثمين لاسم ڤيذال بين «أبرز المحترفين المعتَبرين في العالم»، مع أنّه لم يسبق لرواياته أن تُرجمت إلى أيّ لغة أجنبية، على حدّ علمي، عدا واحدة كان قد موّل ترجمتها الفرنسية على نفقته الخاصّة، وباع منها ما لا يتجاوز 126 نسخة. بصرف النظر عن المعجزات، كانت الصحافة تُجمِع على ما أسموه «ولادة كلاسيكيّ جديد»، وأنّ الرواية تشير إلى «عودة أحد الكبار، أبرز قلمٍ في عصرنا على الإطلاق: ڤيذال، المعلّم بلا منازع».

على الصفحة الموازية لإحدى تلك الجرائد، بظهورٍ متواضع يشغل عمودًا أو اثنين، وجدتُ قراءة وجيزة لرواية شخص يدعى داڤيد مارتين. أشدّ القراءات تأييدًا تبدأ هكذا: «روايةٌ أولى، من النوع العاديّ، «خطوات السماء»، للمبتدئ داڤيد مارتين، بدءًا من مطلعها تنكشف قلّة حيلة مؤلّفها وضحالة موهبته». أمّا الثانية: «الغرّ مارتين يبذل قصارى جهده ليقلّد معلّمه پيدرو ڤيذال، ويخفق». المقالة الأخيرة التي استطعت قراءتها، صادرة عن «صوت الصناعة»، تستهلّ بموجزٍ جانبيّ بأسلوبٍ جنائزيّ: «داڤيد مارتين، المغمور بالمطلق ومحرّرٌ للإعلانات مدفوعة الأجر، يفاجئنا بما قد يُصنّف كأسوأ بداية أدبيّة لهذا العام».

تركتُ الصحف على الطاولة والقهوة التي طلبتها ونزلتُ نحو لاس رامبلاس، باتجاه مقرّ باريدو وإسكوبياس. مررتُ في طريقي على أربع مكتبات أو خمس، تزدان كلّها بعددٍ لا يحصى من رواية ڤيذال. لم أجد، في أيٍّ منها، نسخة واحدة من روايتي. وكان المشهد ذاته، في مكتبة كاتالونيا، يتكرّر دومًا.

- لا أعلم ما الذي حدث، كان من المفروض أن تصل أول أمس، لكنّ الناشر أخبرنا بنفاد جميع النسخ، ولا يعلم متى يعيد طباعتها. بإمكانك أن تترك اسمك ورقم هاتفك، كي أعلِمك حالما تصل... هل سألتَ في مكتبة كاتالونيا؟ إن لم تكن متوفّرة هناك...

استقبلني الشريكان بملامح جلفة ومكتئبة. كان باريدو، من خلف مكتبه، يتسلّى بقلم حبر؛ بينما يقف إسكوبياس خلف ظهره، ليجلدني بسياط نظراته. أمّا ڤينينو متلهّفة للنطق بالحكم، تجلس على الكرسيّ بجانبي.

- لا تتصوّر مدى أسفي لما جرى يا عزيزي مارتين - بادر باريدو - المشكلة كالتالي: باعة الكتب يُرسلون طلبيّاتهم استنادًا إلى مقالات الصحف، لا تسألني لماذا. إن دخلتَ إلى المستودع المجاور، وجدتَ ثلاثة آلاف نسخة من روايتك، في حالة إهمالٍ محزن.

- ناهيك عن التكاليف والخسائر الناجمة عنها - أكمل إسكوبياس بنبرة تصعيديّة.

- مررتُ بالمستودع قبل أن آتي إلى هنا، وتحقّقتُ من وجود ثلاثمائة نسخة فقط. قال لي المسؤول إنّكم لم تطبعوا نسخًا أخرى.

- هذا افتراء - هتف إسكوبياس.

قاطعه باريدو بنبرة مسالمة.

- اعذر شريكي يا مارتين. أتمنّى أن تدرك مدى استيائنا، مثلك وأكثر، من النقد اللاذع التي وجّهته الصحافة المحليّة لكتابٍ أحببناه جميعًا في هذه الدار. كما أرجوك أن تستوعب كيف حشرتنا هذه المقالات الخبيثة في الزاوية، رغم إيماننا بموهبتك وتشجيعنا لك. ولكن إيّاك أن تيأس، روما لم تُبنَ في يومٍ واحد. نحن نصارع بكلّ ما نملك كي تلقى روايتك أصداءً تناسب مستواك الأدبيّ الرفيع...

- بطبعةٍ من ثلاثمائة نسخة.

تنهّد باريدو، متألمًا من انعدام الثقة عندي.

- الطبعة خمسمائة نسخة - أشار إسكوبياس - جاء برسلوه وسيمبيري واستلما مائتي نسخة شخصيًّا. أمّا البقيّة ستُوزّع في الدفعة القادمة، إذ فاتها الطلب بسبب تراكم الإصدارات الجديدة. حاولْ أن تتفهّم مشاكلنا ولا تكن أنانيًا، كي تدرك الأمر بكلّ جوانبه.

نظرتُ إلى الثلاثة، عاجزًا عن تصديقهم.

- لا تقل لي إنّكم لن تتّخذوا إجراءات أخرى.

حملق بي باريدو متأسفًا.

- أيّ إجراءات تريدنا أن نتخذ يا صديقي؟ نحن نفعل أقصى ما نستطيع. ساعدْنا أنت أيضًا.

- لو أنّك على الأقلّ ألّفت كتابًا ككتاب صديقك ڤيدال - قال إسكوبياس.

- تلك روايةٌ عظيمة فعلاً - أكّد باريدو - حتى «صوت الصناعة» تشيد بها.

- كنت أعرف أنّ الأمور ستسير على هذا النحو - تابع إسكوبياس - أنت ناكرٌ للجميل.

كانت ڤينينو تنظر إليّ متألمة. بدا لي أنّها كادت تمسك بيدي لتواسيني، وسرعان ما صدمتُها. وجّه إليّ باريدو ابتسامته المنافقة.

- ربّ ضارّة نافعة يا مارتين. لعلّ هذه رسالةٌ من الربّ الذي بحكمته الواسعة شاء أن يهديك طريق العودة إلى العمل الذي أسعد قرّاء «مدينة الملاعين».

انفجرتُ ضاحكًا. انضمّ باريدو إلى ضحكتي، وبإشارة منه، تبعنا إسكوبياس وڤينينو. تأمّلتُ قطيع الضباع هذا، وتساءلتُ كم سيبدو لي المشهد مضحكًا لو وقع في ظرفٍ آخر.

- هكذا تعجبني. أن تأخذ الأمر بروحٍ رياضيّة - هتف باريدو - قل لي؛ متى تصلنا الحلقة القادمة من إغناثيوس ب. سامسون؟

نظر إليّ الثلاثة متلهّفين. أوضحتُ صوتي لأنطق الكلمات بدقّة، وابتسمتُ.

- فلتغرقوا جميعًا في الخراء!

18

خرجتُ أتسكّع في شوارع برشلونة لساعات، دون وجهة محدّدة. كنتُ أبذل جهدًا كبيرًا في التنفّس وشعرتُ بشيءٍ ما يضيّق خناقه على صدري. غطّى العرق البارد جبيني ويديّ. وقبل أن يحلّ المساء بقليل، ضاقت بي السبل، فاتّجهتُ عائدًا إلى البيت. وحين مررتُ قبالة مكتبة سيمبيري وأبناؤه، لاحظتُ أنّ بائع الكتب قد ملأ واجهة محله بنسخٍ من روايتي. كان الوقت متأخرًا والمحل مغلقًا، ولكن ثمّة ضوءٌ في الداخل. آثرتُ المضيّ في طريقي، فإذا سيمبيري ينتبه لوجودي ويبتسم بمرارةٍ لم أرها على وجهه منذ أن عرفته. دنا من الباب وفتحه.

- ادخل لبعض الوقت يا مارتين.

- مرّة أخرى يا سيّد سيمبيري.

- افعلْ ذلك من أجلي.

أمسك بذراعي وجرّني إلى داخل المكتبة. فتبعته نحو المستودع الخلفيّ حيث أتاني بكرسيّ. سكب كأسين من مشروبٍ ما، بدا لي أثقل من القطران، وأشار إليّ بأن أشربه برشفة واحدة. وازدرد المشروب بدوره.

- تصفحّتُ كتاب ڤيذال - قال.

- قنبلة الموسم - ارتجلتُ.

- هل يعلم بأنك أنت مَن ألّفه؟

عبّرتُ عن لا مبالاة.

- وما يهمّ؟

صوّب إليّ سيمبيري النظرة ذاتها، تلك التي استقبل بها الطفلَ ذا الثماني سنوات في يومٍ بعيد جاءه فيه إلى بيته، متوجّعًا وفاقدًا بعض أسنانه.

- هل أنت بخير يا مارتين؟

- بكلّ خير.

هزّ رأسه خلسة، ونهض ليحضر شيئًا ما من على الرفّ. رأيتُ أنّ الأمر يتعلّق بإحدى نسخ روايتي. أعطاني إيّاها مع قلمٍ وابتسم.

- هلاّ كتبتَ لي إهداءً، من فضلك؟

وبعد أن كتبتُ الإهداء، أخذ سيمبيري الكتاب من بين يديّ ونصّبه في واجهة الشرف خلف المصطبة، حيث كان يحتفظ بأوائل النسخ التي لم تكن للبيع. كان تلك قِبلته الخاصّة.

- لا داعٍ لهذا التبجيل يا سيّد سيمبيري - غمغمتُ.

- أفعل ذلك لأنّه يروق لي، ولأنّ المناسبة تستحقّ. هذا الكتاب قطعة من قلبك يا مارتين. وجزء من قلبي أيضًا. سأضعه بين «الأب غوريو» و«التربية العاطفية».

- هذا يُعدّ تطاولاً على المقدّسات.

- هراء. إنّه أحد أفضل الكتب التي بعتها في العقد الأخير، وبعتُ منها الكثير - قال سيّمبيري العجوز.

استطاعت كلماته الطيّبة بالكاد أن تضخّ تلك الطمأنينة الدافئة والمنيعة التي أخذت تجتاحني. عدتُ إلى البيت متنزّهًا، بلا عجلة. وحين وصلتُ، سكبتُ لنفسي كأسًا من الماء. وبينما كنت أشربها في المطبخ، تحت الظلام، انفجرتُ ضاحكًا.

في صباح اليوم التالي، تلقّيتُ زيارتين. الأولى من بيب، سائق ڤيذال الجديد. كان يحمل رسالة، يدعوني فيها سيّده للغداء في ميزون دوريه، من أجل الاحتفال الذي وعدني به منذ وقت مضى، بلا شكّ. بدا بيب متوترًا ومضطربًا وعلى عجلة من أمره. لم يعد يبادلني نظرات التواطؤ التي خصّني بها في السابق. لم يشأ الدخول وفضّل الانتظار عند المستراح. سلّمني رسالة ڤيذال دون أن ينظر إلى عينيّ، وما إن قلتُ له إنّي سآتي إلى الموعد حتّى انسحب دون إلقاء التحيّة.

أمّا الزيارة الثانية، بعد الأولى بنصف ساعة، فوجئتُ بأنّها من ناشريّ، يرافقهما رجلٌ ذا ملامح صارمة ونظرة ثاقبة، قدّم نفسه على أنّه المحامي. كان هذا الثلاثيّ الماسيّ يعزف ألحانًا تمزج بين الجنائزيّة وقرع طبول الحرب، لا تترك منفذًا للشكّ حول طبيعة الأسباب التي دفعتهم للمجيء إلى بيتي. دعوتهم للجلوس في الصالة، حيث تكدّسوا على الأريكة، بنسقٍ طوليٍّ متدرّج من اليسار إلى اليمين.

- هل تودّون مشروبًا ما؟ كأسٌ صغيرة من سمّ السيانيد مثلاً؟

انتظرتُ منهم ابتسامةً ولم أحصل عليها. بعد مقدّمة قصيرة من باريدو حول الخسائر الفادحة التي سبّبتها فضيحة «خطوات السماء» على دار النشر، استعرض المحامي بيانًا حسابيًّا ليخبرني بشفافيّة عن ضرورة تقمُّص إغناثيوس ب. سامسون بأسرع وقت، وتسليم مخطوطٍ جديدٍ من «مدينة الملاعين» في غضون شهر كحدٍّ أقصى، وإلاّ رفعوا دعوى قضائيّة ضدّي، بسبب إخلالي بشروط العقد، ما ألحق بهم أضرارًا كبيرة، إضافةً إلى ستّ تهم أخرى لا أذكرها، لأنّي لم أعد أعيره انتباهًا. لم تكن كلّ الأنباء سيّئة. فرغم المرارات التي سبّبتُها، أبدى باريدو وإسكوبياس سخاءً يمحو الآلام ويعقد تحالفًا جديدًا قائمًا على الصداقة والمنفعة.

- بإمكانك سحب النسخ الكاسدة من «خطوات السماء»، بحسم سبعين بالمائة، طالما أنّ الرواية ليست مطلوبة ولن نستطيع شملها في التوزيع القادم - شرح إسكوبياس.

- لماذا لا تعيدون إليّ حقوقي؟ فأنتم لم تدفعوا لي قرشًا واحدًا، ولا تنوون بيع أيّ نسخة.

- لا نستطيع يا عزيزي - حدّد باريدو - فالطبعة كلّفت الدارَ تمويلاً هائلاً، مع أنّنا لم ندفع لك سلفًا، والعقد الذي وقّعتَ عليه يدوم عشرين عامًا، قابلة للتجديد تلقائيًا بنفس الشروط في حال قرّرت الدار استخدام حقوقها المشروعة. حاولْ أن تفهم أنّه من حقّنا نحن أيضًا أن نكسب شيئًا ما؛ والأرباح لا تعود كلّها للكاتب فقط.

حين أنهى كلامه، دعوتُ السادة الثلاثة إلى التفضّل في الخروج طواعية أو ركلاً على مؤخّراتهم، لهم الخيار. وقبل أن أصفق الباب في وجوههم، رماني إسكوبياس بإحدى نظراته المشؤومة.

- نُمهِلك أسبوعًا كي تردّ، وإلا قُضي عليك.

- بل ستكون أنت وشريكك الغبيّ في عداد الموتى، قبل أن ينقضي الأسبوع - أجبتُ بنبرة هادئة، دون أن أفهم ما الذي دعاني لنطق هذه الجملة.

قضّيتُ بقية الصباح أتمعّن الجدران، حتى ذكّرتني نواقيس سانتا ماريا باقتراب موعدي مع الدون پيدرو ڤيذال.

كان ينتظرني على أفضل طاولة في الصالة، يتسلّى بكأس من النبيذ الأبيض بين يديه ويصغي إلى عازف البيانو الذي ينوّع على إحدى مقطوعات إنريك غرانادوس بأنامله الناعمة. نهض حين رآني ومدّ يده.

- تهانينا - قلت.

ابتسم ڤيذال برباطة جأش وانتظر أن أجلس كي يجلس. تركْنا دقيقة صمتٍ تمرّ ونحن نستمع إلى الأنغام، ونظرات الناس التي تحيّي ڤيذال من بُعد، أو يقترب أحدهم من الطاولة ليهنّئه على النجاح الباهر الذي أضحى حديث المدينة.

- داڤيد، لا تتخيّل كم يؤسفني ما حدث - بادر بالكلام.

- لا ينبغي أن تأسف. بل استمتع!

- هل تظنّ أنّ هذا الترحيب يعني لي شيئًا؟ نفاق بعض الحمقى؟ كان أملي الأكبر أن أراك تتمتّع بالنجاح.

- يؤسفني أنّي خيّبت أملك مرّة أخرى يا دون پيدرو.

تنهّد ڤيذال.

- داڤيد، لا تلمْني إن كانوا ناقمين عليك. بل هذا ذنبك. كأنّك كنت تستجديهم النقمة والكراهية. أنت راشدٌ بما فيه الكفاية لتعرف كيف تسير هذه الأمور.

- قل لي حضرتك كيف تسير الأمور.

تلمّظ ڤيذال، كما لو أنّ سذاجتي تجرحه.

- هل كنت تتوقّع عكس ما حصل؟ أنت لست واحدًا منهم. ولن تكون كذلك يومًا. لم تشأ الانضمام إليهم، وتحسَب أنّهم سيغفرون لك ذلك. تعتكف في قصرك، مقتنعًا بأنّك ستتمكّن من البقاء دون أن تنضمّ إلى منتدياتهم السخيفة وارتداء أزيائهم المضحكة. أنت مخطئ يا داڤيد. ولطالما كنتَ مخطئًا. إن أردتَ اللعب بمفردك، وضّبْ حقائبك وارحل إلى مكان آخر يضمن لك أن تكون صاحب مصيرك، إن كان لمصيرك وجودٌ أساسًا. أمّا إن بقيت هنا فمن الأجدر بك أن تلتحق إلى أيّ منتدى. هذا بكلّ بساطة.

- وهل هذا ما تفعله أنت يا دون پيدرو؟ تلتحق بأيّ منتدى؟

- أنا لست بحاجة لهذا يا داڤيد. أنا أنفق عليهم، وأطعمهم. لم تفهم بعد.

- ستذهَل إن عرفتَ كم أسعى للتأقلم بسرعة. ولكن لا تقلق. فتلك المقالات، التي تطرّقت لروايتي وروايتك على حدّ سواء، ليس لها أهميّة. لن يذكرها أحدٌ قريبًا، سواء أكانت إيجابيّة أم سلبيّة.

- ما المشكلة إذن؟

- لا عليك.

- هل للأمر صلةٌ بأبناء القحبة؟ باريدو وشريكه سارق الجثث؟

- انس الأمر يا دون پيدرو. الذنب ذنبي، كما قلت أنت. ولا ألوم أحدًا آخر.

اقترب منا كبير النُدُل بنظرة متحرّية. لم أكن قد ألقيتُ نظرة على لائحة الطعام ولم أكن أرغب في ذلك أيضًا.

- الوجبة المعتادة، لكلينا - قال الدون پيدرو.

انحنى النادل احترامًا وابتعد. كان ڤيذال يرمقني كأنّي حيوانٌ مفترس محبوسٌ في قفص.

- كريستينا لم تستطع المجيء - قال - أتيتُ بهذا، لعلّك تكتب لها إهداءً.

وضع «خطوات السماء» على الطاولة، مغلّفةً بورقٍ أرجوانيّ اللون، وبدمغة مكتبة سيمبيري وأبناؤه، ودفعها نحوي. لم ألتفت إلى الكتاب. كان ڤيذال شاحب الوجه. خمد لهيب النقاش والنبرة المتصاعدة. حان وقت المباغتة، فكّرتُ.

- قل لي يا دون پيدرو ما كنت تريد أن تطلعني عليه. لن أعضّك.

أنهى ڤيذال الكأس برشفة واحدة.

- أردتُ أن أطلعك على أمرين. لن ينال أيٌّ منهما إعجابك.

- سأتكيّف.

- الأوّل متعلّق بأبيك.

شعرتُ أنّ تلك الابتسامة المسمومة تجفّ على شفتيّ.

- كان عليّ أن أخبرك بالأمر منذ أعوام، لكني فكّرتُ أنّه سيُحزنك. ستظنّ أنّي أخفيتُه عليك لأنّي جبان. لكنّي أقسم لك، أقسم لك بما تريد أنّي...

- ما الأمر؟ - قاطعته.

تنهّد ڤيذال.

- في المساء الذي مات فيه والدك...

- ...الذي قتلوه فيه - صحّحتُ له بنبرة جامدة.

- عن طريق الخطأ. لقد مات والدك عن طريق الخطأ.

نظرتُ إليه ولم أفهم.

- أولئك الرجال لم يأتوا لقتله. لقد أخطؤوا.

تذكّرت نظرات القتلة الثلاثة في الضباب، ورائحة البارود، ودماء والدي القانية تنزف بين يديّ.

- كانوا يريدون قتلي أنا - قال ڤيذال بصوتٍ واهن - إذ اكتشف أحد شركاء والدي أنّي، أنا وزوجته...

أغمضتُ عينيّ وأحسست بقهقهة غامضة تصعد من أعماقي. ثقبوا جسد والدي بالرصاص لمسألة غراميّة تخصّ پيدرو ڤيذال المحترم.

- قل شيئًا، أرجوك - توسّل ڤيذال.

فتحتُ عينيّ.

- وما الأمر الثاني؟

لم أره فزعًا كما كان حينئذ. كان الفزع يليق به.

- طلبتُ الزواج من كريستينا.

ساد صمتٌ طويل.

- ووافقتْ.

أخفض ڤيذال نظراته. اقترب أحد النُدُل يحمل المقبّلات. وزّعها على الطاولة متمنّيًا «شهيّة طيّبة»، بالفرنسيّة. لم يجرؤ ڤيذال على النظر إلى عينيّ مجدّدًا. بهتتِ المقبّلاتُ في الأطباق. بعد ذلك، أخذتُ «خطوات السماء» وانسحبتُ.

في العصر، بعد أن خرجتُ من ميزون دوريه، فوجئتُ بنفسي أسير نزولاً إلى لاس رامبلاس، متأبطًا تلك النسخة من «خطوات السماء». وكلّما اقتربتُ من التقاطع مع شارع كارمن ازدادت يداي ارتعاشًا. توقّفتُ قبالة

واجهة محل باغويس لبيع المجوهرات، متظاهرًا بالاهتمام بقلادات ذهبيّة على شكل جنيّة، وأزهار فضيّةٍ مرصّعة بالياقوت. كانت الواجهة الباروكيّة والمتألّقة لمحلّ إل إنديو على بعد أمتار قليلة، تلفت الأنظار كأنّها بازارٌ سحريٌّ كبير يعرض محاسن وعجائب فتّانةً، أكثر من كونه محلّ أنسجة وأقمشة. اقتربتُ ببطء وتقدّمتُ في الرواق الذي يفضي إلى الباب. كنت واثقًا من أنّها لن تعرفني، وربّما لم أكن لأعرفها أنا أيضًا؛ بقيتُ هناك قرابة خمس دقائق قبل أن أجازف بالدخول. وحين فعلتُها، خفق قلبي بشدّة وتعرّقت يداي.

كانت الجدران ملأى بالرفوف الوفيرة بالنسيج من كلّ حجم ونوع؛ والباعة - المسلّحون بشريط القياس والمقصّات الخاصّة المعلّقة على خصورهم - يعرضون الأقمشة الفاخرة، كأحجارٍ كريمة، على السيّدات الراقيات، اللواتي أتين برفقة خادماتهنّ وخيّاطاتٍ محترفات.

- هل بوسعي مساعدتك يا سيّدي؟

كان الرجل مكتنزًا، ناعق الصوت، يرتدي بدلة من قماش الفلانيل، ويبدو على وشك الانفجار بين لحظة وأخرى ليملأ المحلّ بشظايا القماش المبعثرة. كان يرمقني بنظرة متسامحة وابتسامة مُرغمة ورقيقة.

- لا - غمغمتُ.

رأيتُها حينذاك. كانت أمّي تنزل من أحد السلالم، محمّلة بكمّية من الأقمشة بيديها. كانت ترتدي كنزة بيضاء، وقد عرفتُها في الآن. ربّما سمنت قليلاً، ونضح وجهها المتعب بآثار الروتين والإرهاق. تجهّم وجه البائع، وما لبث يتكلّم إليّ لكنّي لم أعد أسمع صوته. كنت لا أرى أحدًا سواها وهي تقترب وتمرّ أمامي. نظرتْ إليّ بعين خاطفة، وحين رأتني أحدّق إليها ابتسمت بوداعة، كما يفعل أيّ بائعٍ في وجه زبون أو ربّ عمل، ثمّ تابعت عملها. انعقد لساني بما لا يوصف، وحاولتُ أن أُخرِس البائع. اتجهتُ نحو المَخرج ببطء، وعيناي تمتلئان دمعًا. قطعتُ الشارع، ودخلتُ أحد المقاهي. جلستُ إلى طاولة قرب نافذةٍ تشرف على باب المحلّ، وانتظرتُ.

مرّت حوالي الساعة والنصف حين رأيتُ البائع، الذي استقبلني، يُخفض الواجهة المعدنيّة. ثمّ تتالى إطفاء الضوء، وخرج بعض العاملين. نهضتُ وأطللتُ إلى الشارع. وجدتُ فتىً لم يتجاوز عامه العاشر بعد، يحدّق إليّ، جالسًا على عتبة البوّابة المجاورة. أشرتُ إليه بأن يقترب، وأغريتُه بعملة حديديّة. فأشرق وجهه بابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه المكسورة.

- هل ترى هذا المغلّف؟ عليك أن تسلّمه لسيّدة ستخرج من هناك بعد قليل. قل لها إنّ أحدهم أوصاك أن تسّلمه لها. إيّاك أن تشير إليّ. هل فهمت؟

أومأ الفتى موافقًا. أعطيته الكتاب والنقود.

- فلننتظرها الآن!

لم ننتظر كثيرًا. رأيتُها تخرج، بعد ثلاث دقائق. كانت تتجه نحو لاس رامبلاس.

- ها هي السيدة. هل تراها؟

توقّفت أمي لحظاتٍ أمام عتبات كنيسة بيت لحم، فأمرتُ الصبيّ بالركض صوبها. أشرفتُ على المشهد من بُعد، دون أن أسمع شيئًا. أعطاها الصبيّ المغلّف فنظرتْ إليه باستغراب، وتردّدتْ في قبوله. ألحّ الصبيّ حتّى أخذت منه المغلّف، فهمّ بالركض. كانت محتارة، تتلفّت يمنة وشمالاً، وترصد بعينيها. قدّرتْ وزن المغلّف، وعاينت ورقه الأرجوانيّ. غلبها الفضول ففتحته.

رأيتها تُخرج الكتاب. تمسكه بين يديها، تنظر إلى الغلاف، ثم تقلبه لترى غلافه الخلفيّ. وأنا أشهق أنفاسي متلهّفًا. وددتُ لو اقتربتُ لأقول لها شيئًا ما، لكنّي لم أستطع. بقيت هناك، على بعد أمتار عن أمي، أراقبها دون أن تنتبه لوجودي. إلى أن عاودت السير، والكتاب في يدها، باتجاه كولون. وعندما مرّت بجوار قصر فيرينا، اقتربتْ من سلّة قمامة، وقذفت الكتاب فيها. رأيتُها تنزل نحو لاس رامبلاس حتّى اختفت في الزحام، كما لو لم يكن لها وجود.

19

كان سيمبيري الأب بمفرده في المكتبة، يضع الصمغ على هوامش نسخة من «فورتوناتا وخاثينتا»، بعد أن وقعت وتهشّمت. رفع عينيه ورآني من الجانب الآخر للباب. شخّص حالتي المريعة بأقلّ من ثانيتين. أشار إليّ بالدخول. وما إن دخلتُ حتى قرّب إليّ كرسيًا.

- وجهك شاحب للغاية يا مارتين. يجدر بك الذهاب إلى الطبيب. أرافقك إن كان لديك هواجس. فأنا أيضًا أرتعد من رؤية الأطبّاء، بمئآزرهم البيضاء وتلك الأدوات الحادّة في أيديهم. لكنّنا مضطرّون للانصياع لهم أحيانًا.

- مجرّد صداع يا سيّد سيمبيري. وأشعر بأنّه يزول.

صبّ لي كأسًا من مياه الڤيشي.

- اشرب. هذا الماء يداوي كلّ علّة، ما عدا الغباء، وهو داءٌ يتفشّى أكثر فاكثر.

ابتسمتُ للنكتة. شربتُ كأس الماء وتنهّدتُ. كنت أشعر بالغثيان يصعد إلى شفتيّ، يرافقه ضغطٌ كثيف ينبض خلف عيني اليسرى. ظننتُ أنّي معرّضٌ للإغماء بين لحظة وأخرى، فأغمضتُ عينيّ. تنفستُ بعمق، آملاً أن لا أموت هناك. ليس جديرًا بالقدر أن يكون ساخرًا، لدرجة الخبث، كي يقتادني حتى مكتبة سيمبيري ويتركني جثّة هامدة بين يديه، تكريمًا وامتنانًا لكلّ ما فعل من أجلي. شعرتُ بيدٍ تتحسّس جبيني برفق. يد سيمبيري. فتحتُ عينيّ فوجدتُ بائع الكتب وابنه، الذي كان قد أطلّ برأسه من الداخل، يرمقاني بنظراتٍ تصلح لوداعٍ مهيب للموتى.

- هل أخطِر الطبيب؟ - سأل سيمبيري الابن.

- إنّي أتحسّن. شكرًا. إنّي بخير.

- أسلوبك في التحسّن مخيف جدًا. لون وجهك رماديّ.

- هل لي بكأس أخرى من الماء؟

سارع سيمبيري الابن إلى ملء الكأس.

- المعذرة على هذا المشهد - قلت - أؤكد لكما أنّه مرتجل ولم أحضّره من قبل.

- لا تتفوه بالترّهات.

- ربّما إذا تناول قطعة حلوى سيتحسّن فعلاً. قد يكون انخفاض في السكّر... - أشار الابن.

- اذهب إلى المخبز عند الزاوية واحضر قطعة حلوى - أمره والده.

حدّق سيمبيري إليّ، حين بقينا بمفردنا.

- أقسم لك بأنّي سأذهب إلى الطبيب - وعدتُه.

عاد ابن البائع بعد دقيقتين بكيسٍ ورقيّ، فيه أشهى ما قد ينتجه مخبز الحيّ. أعطاني إياه واخترت إحدى المعجّنات التي كانت، في ظروفٍ أخرى، ستغويني كمؤخّرة راقصة الحانات.

- عضّها! - أمرني سيمبيري.

تناولتُ الحلوى على مهل. وشعرتُ بأنّي أتحسّن شيئًا فشيئًا.

- يبدو أنّه يستعيد صحته - لاحظ الابن.

- وما المرض الذي لا تشفيه حلويات المخبز في حيّنا...

في تلك اللحظة، سمعنا قرع الجرس على الباب. دخل أحد الزبائن إلى المكتبة، فذهب الابن ليهتمّ بالزبون، بإيماءة من والده. ظلّ بائع الكتب بقربي، وحاول أن يجسّ نبض معصمي بسبّابته.

- سيّد سيمبيري، هل تذكر عندما قلت لي، منذ أعوام بعيدة، أنْ آتي إليك إذا ما أردتُ أن أنقذ كتابًا ما بالفعل؟

ألقى سيمبيري نظرة إلى الكتاب، الذي أرجعته من القمامة حيث رمته أمي، وكنت أحمله بين يديّ.

- أعطني خمس دقائق.

كان الليل يهبط حين نزلنا إلى لاس رامبلاس بين حشدٍ من المارّة، الخارجين للتنزّه في أمسيةٍ ألهبتها الحرارة والرطوبة. وكانت النوافذ مُشرّعة كي تحتفي بالنسمات النادرة، يطلّ منها بعضهم كي ينظر إلى سير الناس تحت سماءٍ تفيض بلون الكهرمان. سرّع سيمبيري خطاه، إلى أن تراءى لنا رواقٌ غارقٌ في الظلّ، يفضي إلى مدخل أرك دل تياتري. وقبل أن ندخل الرواق، رمقني سيمبيري بنظرة سامية وقال:

- إيّاك أن تخبر أحدًا بما ستراه الآن يا مارتين. حتّى لو كان ڤيذال.

أذعنتُ مرتابًا من اتخاذه ملامح جادّة وغامضة. تبعتُه في الزقاق الضيّق بين بنايات مغبرّة ومتداعية، تنحني كشجر الصفصاف لتحجب أسطحُها أفق السماء. بعد قليل، وصلنا عند بوّابة خشبية عملاقة، كأنّها تُخفي وراءها كنيسة عتيقة ظلّت في قعر مستنقعٍ لقرون. صعد سيمبيري عتباتها، وأمسك بالمقبض البرونزيّ على شكل شيطان صغيرٍ متبسّمٍ. طرق ثلاث مرّات ونزل ثانية لينتظر بقربي.

- إيّاك أن تخبر أحدًا...

- لن أخبر أحدًا بما سأراه الآن. حتّى لو كان ڤيذال.

أومأ سيمبيري حازمًا. انتظرنا دقيقتين حتى سمعنا أصوات مئاتٍ من المتاريس تنفكّ عن بعضها في اللحظة نفسها. فُتحتِ البوّابةُ قليلاً، بصريرٍ عميق، وأطلّ وجهُ رجلٍ في منتصف عمره، خفيف الشعر، ذي ملامح حادّة ونظرة ثاقبة كالطير الجارح.

- كنّا نشعر بالضجر وها قد جاء سيمبيري، كي يرطّب الأجواء - قال الرجل - بمن أتيتني اليوم؟ مصّاص حبر جديد، ممّن لا يسعون إلى الارتباط خوفًا من الابتعاد عن أمّهاتهم؟

لم يكترث سيمبيري لهذا الاستقبال المشين.

- هذا إسحاق مونفورت يا مارتين. حارس المكان، ومن أطرف الطرفاء. اسمع جيدًا ما يمليه عليك. هذا داڤيد مارتين يا إسحاق. صديقٌ عزيز، كاتبٌ ومحلّ ثقة.

تفحّصني إسحاق من الأعلى إلى الأسفل، بحماس فاتر، ثم نظر إلى بائع الكتب.

- الكاتب ليس محلّ ثقة أبدًا. فلنرَ! هل شرح لك سيمبيري القواعد؟

- عليّ أن أكتم سرّ ما أراه هنا، فقط.

- هذه القاعدة الأولى وفائقة الأهميّة. إن أخللتَ بها سآتي لأجزّ عنقك شخصيًّا. هل تتحلّى بمبادئ الذوق العامّ؟

- مائة بالمائة.

- هيّا إذن - قال إسحاق مشيرًا إليّ بالدخول.

- أستودعك يا مارتين. عليّ أن أغادر. سيكون في مأمن هنا.

كان سيمبيري يقصد الكتاب بالمأمن، وليس يقصدني. عانقني بشدّة ثم اختفى في الليل. اجتزتُ العتبة، فأنزل إسحاق المتراس على البوّابة من الخلف. فأقفلتْ بألف قطعة ميكانيك معقودة ببعضها في شبكة هائلة من السكك والبكرات. رفع المصباح من الأرض إلى مستوى وجهي.

- وجهك شاحب - صرّح.

- عسر هضم.

- هضم ماذا؟

- الحقيقة.

- اتبعني - قال مختصِرًا.

تقدّمنا على طول ممرٍّ، يزدان جانباه بالرسومات والأدراج الرخاميّة، تحت السراب. دخلنا المبنى ليتبدّى أمامنا ما يشبه ردهة قاعةٍ كبيرة.

- بم أتيت؟ - سأل إسحاقُ.

- «خطوات السماء». رواية.

- يا له من عنوان سخيف. هل أنت المؤلّف؟

- أجل، مع الأسف.

تنهّد إسحاق محرّكًا رأسه خلسة.

- هل ألّفت كتبًا أخرى؟

- «مدينة الملاعين»، رواية مسلسلة، من الحلقة الأولى إلى السابعة والعشرين.

التفت، وابتسم مستحسنًا.

- إغناثيوس ب. سامسون؟

- فليتغمّده الربّ برحمته. أجل، بالخدمة يا سيّدي.

توقّف الحارس الملغز وأسند المصباح على ما بدا أنه سياجٌ معلقٌ قبالة قوس كبير. رفعتُ عينيّ فانقطعتْ أنفاسي. متاهةٌ مهيبةٌ، مكوّنة من جسور وممرّات ورفوف تغصّ بمئات آلاف الكتب، تشكّل مكتبة عملاقة ذات أبعاد لا يتقبّلها العقل. ثمّة عقدةٌ من الأروقة التي تنهض في فضاء المبنى الرحب، بشكلٍ لولبيّ، نحو قبّة زجاجية كبيرة شاهقة، تتسرّب منها خيوط النور والظلمات. تمكّنتُ من التقاط مشاهد منعزلة، تتوالى في بعضها الممرّات والسلالم، وأخرى تدقق على دهاليز تلك الكاتدرائيّة المكوّنة من الكتب والكلمات. لم أصدّق ما رأته عيناي، فرميتُ إسحاق مونفورت بنظرة ذهول. كان يبتسم، كثعلبٍ عجوز يختال بحيلته المفضّلة.

- أهلاً بك في مقبرة الكتب المنسية يا إغناثيوس ب. سامسون!

20

تبعتُ الحارس حتّى قاعدة المبنى الذي يحتضن المتاهة. كانت الأرضيّة التي ندوس عليها مرقّعة بشواهد وأغطية قبور، ناهيك عن الصلبان والزخارف الجنائزيّة والوجوه المنحوتة في الصخر. توقّف الحارس ووجّه مصباح الزيت كي تتّضح لي رؤية بعض لافتات تلك المتاهة المرعبة.

- هذه بقايا مدفن قديم - شرح إسحاق - ولكن أتمنّى أن لا تفقد عقلك وتقرّر الموت هنا.

تابعنا السير حتى وصلنا عند محور المبنى، الذي يشبه العتبة. ألقى إسحاق القواعد والواجبات على مسامعي، ملتفتًا إليّ من حين لآخر، بنظرةٍ حاولتُ تخفيف حدّتها بإيماءة مسالمة.

- قاعدة رقم واحد: في الزيارة الأولى، يحقّ لك أن تختار كتابًا، أيّما تشاء، من بين كلّ هذه الكتب الموجودة هنا. قاعدة رقم اثنان: حين تتبنّى الكتاب، تتعهّد بالحفاظ عليه وبذل المستطاع كي لا يضيع منك أبدًا. مدى الحياة. هل من شكوك حتى الساعة؟

رفعتُ عينيّ نحو المتاهة الشاسعة.

- وكيف نختار كتابًا واحدًا من بين ملايين؟

شدّ إسحاق كتفيه.

- ثمّة من يفضّل الاعتقاد بأنّ الكتاب هو الذي يختار قارئه... القدر، بمعنى آخر. ما تراه أمامك هو حصيلة قرونٍ من الكتب المفقودة والمنسيّة؛ كتبٌ حُكم عليها بالفناء، وأودِعتْ طيّ الكتمان؛ كتبٌ تحفظ ذاكرة الأزمان وهويّتها، تقصّ معجزاتٍ لم يعد يذكرها أحد. لا أحد منا، بما فيهم الكهول، يعرف متى أنشئ هذا المكان بالضبط، ومن شيّده. من الوارد أنّه قديمٌ من عمر المدينة نفسها، وقد كبر معها، جنبًا إلى جنب. ما نعرفه أنّ البناء أسِّس على أنقاض عدّة مبانٍ وكنائس وسجون ومستشفيات من المحتمل أنّها كانت عامرة في هذه المنطقة، منذ زمن مضى. يعود أصل الهيكل الأساسيّ إلى بدايات القرن الثامن عشر، وما لبث يتطوّر منذ ذلك الحين. في البدء، كانت «مقبرة الكتب المنسيّة» مخفيّة تحت أروقة المدينة في القرون الوسطى. ثمة من يدّعي أنّ قلّة من المثقّفين والمتنوّرين، إبّان محاكم التفتيش، كانوا يخبّئون الكتب المحرّمة في المدافن الحجريّة والمعاظم المبعثرة في كلّ أرجاء المدينة، آملين أن تستخرجها الأجيال اللاحقة. نحو منتصف القرن السابق، تمّ العثور على سردابٍ طويلٍ، يربط قلب المتاهة بأساسات مكتبة قديمة، موصدة ومدفونة تحت أنقاض كنيس عتيق في حيّ كال. حين سقطت آخر أسوار المدينة، حدث انزلاقٌ أرضيّ، وغرق السرداب بتسرّب مياه القناة، المبنيّة منذ عصورٍ تحت لاس رامبلاس المعاصرة. يُفترض أنّ ذلك السرداب كان أحد الدروب الرئيسة المؤدّية إلى هذا المكان لزمنٍ طويل، حتّى لو كان هذا اليوم مستحيلاً. إذ

إنّ الجزء الأعظم من هذا المبنى ظهر خلال القرن التاسع عشر. ولا يعرف بشأنه أكثر من مائة شخصٍ في المدينة كلّها؛ وآمل أنّ سيمبيري لم يرتكب خطأ فادحًا في ضمّك إليهم...

نفيتُ بشدّة لكنّ إسحاق كان ينظر إليّ مشككًا.

- قاعدة رقم ثلاثة: بإمكانك دفن كتابك حيثما تريد.

- وإن تهت؟

- نصيحة إضافيّة، حصلتُ عليها من عرق جبيني: حاول أن لا تتوه!

- هل تاه أحدٌ ما من قبل؟

تأفّف إسحاق.

- حين باشرتُ العمل هنا، منذ سنوات، كانوا يقصّون حكاية داريو ألبرتي دي ثيمرمان. أراهن أنّ سيمبيري لم يقصّها عليك طبعًا...

- ثيمرمان؟ المؤرّخ؟

- لا، مروّض الصراصير. كم داريو ألبرتي دي ثيمرمان تعرف يا هذا؟ حدث في شتاء العام 1889 أنْ دخل ثيمرمان إلى المتاهة واختفى لأسبوع كامل. وجدوه مختبئًا في أحد الأنفاق، شبه ميّت من الهلع، خلف العديد من الكتب المقدّسة كي لا يراه.

- من قد يراه؟

ركّز إسحاق نظراته فيّ طويلاً.

- الرجل ذو الزيّ الأسود. هل أنت متأكّد من أنّ سيمبيري لم يحدّثك عنه؟

- متأكّد.

أخفض إسحاق صوته واتّسم بنبرة واثقة.

- على مرّ الأعوام، شاهد بعضُ الأعضاء الرجلَ ذي الزيّ الأسود، يتجوّل في دهاليز المتاهة أحيانًا. كلّ امرئٍ وصفه على طريقته. ثمّة مَن يؤكّد بأنّه تحدّث إليه أيضًا. وذلك خلال فترةٍ انتشرت فيها إشاعةٌ أنّ الرجل ذيّ الأسود ما هو إلا روح كاتبٍ ملعون، خانه أحد الأعضاء الذي أخذ كتابًا من تأليفه ولم يصن العهد. ضاع الكتاب إلى الأبد، وما انفكّ شبح الكاتب يجول في الممرّات متشوّقًا للانتقام. كما تعلم، هذا النوع من القصص، على طريقة هنري جيمس، يُلهِب حماس الناس كثيرًا.

- لا تقل لي إنك تصدّق هذا.

- لا طبعًا. أنا أتبنّى نظريّة أخرى. نظريّة ثيمرمان.

- وعلامَ تعتمد نظريّته؟

- على أنّ الرجلَ ذا الزيّ الأسود هو صاحبُ هذا المكان. إنّه أب كلّ العلوم السريّة والمحظورة، أب المعرفة والذاكرة، «حامل النور» إلى الروائيّين والأدباء منذ الأزل... إنّه الملاك الذي يحرسنا، ملاك الليل والبهتان.

- أنت تسخر مني.

- لكلّ متاهة مينوتورٌ خاصٌّ بها - علّق الحارس.

ثمّ ابتسم ابتسامة ملغزة وأشار إلى مدخل المتاهة.

- كلّها لك.

دخلتُ في ممرٍ يفضي إلى أحد المسالك، متقدّمًا ببطء في رواقٍ طويل من الكتب تنعطف صعودًا. عند رأس المنعطف، تشعّب الدهليز إلى أربع أذرع ليشكّل دائرة صغيرة تؤدّي إلى سلّم حلزونيّ لا تُبصر العينُ علياءه. صعدتُ درجاته حتى وصلتُ إلى طابقٍ تتشعّب منه ثلاثة ممرّات أخرى. اخترتُ أحدها، ذلك الذي ظننتُ أنّه سيأخذ بي إلى قلب المبنى، وغامرتُ. أثناء سيري، كنت ألامس أضلاع مئات الكتب بأصابعي. لفحني العبق والنور الذي استطاع التسلل من بين الفتحات، ومن الفوانيس الزجاجيّة المرصّعة على الأخشاب، والتي تبثّ الضوء في المرايا الغارقة في السراب. مشيتُ بلا غاية حوالي ثلاثين دقيقة، حتى وصلتُ إلى ما يشبه الغرفة المغلقة حيث ثمّة طاولة وكرسيّ. كانت الجدران مكوّنة من الكتب، تولّد انطباعًا بأنّها متينة، باستثناء كوّة ما، خُيّل إليّ أنّ أحدًا قد استلّ منها كتابًا. قرّرتُ أن تكون تلك الكوّة بمثابة البيت الجديد لـ«خطوات السماء». نظرتُ إلى الغلاف للمرّة الأخيرة، وقرأتُ المقطع الأول، وأنا أتخيّل اللحظة التي سيرشد فيها الحظّ أحدَ القرّاء - بعد سنواتٍ سأكون فيها ميّتًا ومنسيًّا - ليسلك ذلك الدرب ويصل إلى تلك الغرفة، ويختار كتابي المجهول الذي أودعتُه جلّ قدراتي. تركتُ الكتاب هناك، كأنّي أتخلّى عن جزءٍ منّي على ذلك الرفّ. كان حينئذٍ أنّي شعرتُ بوجود أحدٍ خلف ظهري، فالتفتُّ لأصطدم بالرجل ذي الزيّ الأسود، يركّز أبصاره في عينيّ.

21

في البدء، لم أدرك أنّه انعكاس نظراتي في المرآة، واحدة من بين آلاف المرايا التي تشكّل سلسلة من الأضواء الخافتة في دروب المتاهة. كان الوجه والبشرة في المرآة لي، لكنّ العينين لشخصٍ غريب، مكدّرتين وقاتمتين وتنضحان بالخبث. أزحتُ أنظاري وشعرتُ بالغثيان يجتاحني مجددًا. جلستُ على الكرسيّ بجانب الطاولة والتقطتُ نفسًا عميقًا. تخيّلتُ أنّ فكرة موتي هناك ستنال إعجاب الطبيب ترياس أيضًا، إذا ما قرر المستأجرُ الجديد في دماغي، الورم السرطانيّ كما يسمّيه، أن يطلق عليّ رصاصة الرحمة، في ذلك المكان تمامًا، ليشرّفني بأن أكون المواطن الأبديّ الأول في مقبرة الكتب المنسيّة. «دُفن بجوار روايته الأخيرة المؤرّقة، تلك التي حملها معه إلى مثواه الأخير». كان أحدهم سيجدني مرميًّا هناك، بعد عشرة أشهر أو اثنتي عشرة سنة، أو ربّما لن يجدني أحدٌ إطلاقًا. يا لها من خاتمة عظيمة، تناسب «مدينة الملاعين».

أعتقد أنّ تلك الدعابة المريرة أنقذتني، وبدّدت شتات ذهني، وأعادتني إلى الواقع لأتساءل أين كنت وماذا أفعل هناك. كنت أنهض عن الكرسيّ حين رأيتُه. كان مجلدًا ثخينًا، غلافه داكن اللون، ولا عنوان ظاهرًا على ضلعه؛ يعتلي أربعة كتب أخرى على الجانب الآخر من الطاولة. أمسكته بين يديّ. بدا على ملامسي مغلّفًا بجلدٍ متين، أو بأحد أنواع الجلود المدبوغة والمسوّدة. من الصعب تمييز كلمات العنوان، المنقوشة على الغلاف، بالكيّ بالنار كما تصوّرتُ. لكنّي قرأتُ العنوان على الصفحة الخامسة بوضوح.

النورُ الأبديّ[6]

د. م.

افترضتُ أنّ الأحرف الأولى، التي توافق حروف اسمي، كانت تدلّ على اسم الكاتب، إلاّ أنّ ما من إثباتٍ على هذا في كلّ ثنايا الكتاب. قلّبتُ بعض الصفحات على عجل، وتعرّفتُ على أكثر من خمس لغات مختلفة، تتناوب في ظهورها على طول النصّ. القشتاليّة، الألمانيّة، اللاتينيّة، الفرنسيّة، والعبرية. قرأتُ مقطعًا لا على التعيين، أحالني إلى صلاة ابتهالٍ في أحد الطقوس الدينيّة التقليديّة، وتساءلتُ عمّا إن كان الكتاب مجرّد مجموعة من الخطب والأدعية. كان النص محدّدًا بأرقام وفقرات، ببدايات بارزة كأنّها تشير إلى أحداث معينة أو فروع بحسب الموضوعات. وكلما تفحّصتُه ازددتُ يقينًا بأنّه يذكّرني بالأناجيل والكتيّبات الدينيّة أيامَ المدرسة.

كان بودّي الخروج من هناك، بعد اختيار كتاب آخر من بين مئات الألوف، وترك ذلك المكان من غير رجعة. خلتُ أنّي فعلتُها حين أدركتُ أنّي أسير ثانية في نفس الأروقة والممرّات، والكتاب بيدي، كأنّه طفيليٌّ يتشبّث بجلدي. لمع في رأسي لوهلة أنّ الكتاب كان يرغب في الخروج من ذلك المكان أكثر مني وأنّه يرشد خطاي بشكل أو بآخر. بعد أن درتُ مرارًا، ومررتُ أمام المجلّد الرابع من الأعمال الكاملة لجوزيف لوفانو مرّتين، وجدتُ نفسي فجأة أمام سلّم ينزل

بشكل لولبيّ، فاستطعتُ دخول الممرّ الذي يفضي إلى الردهة. ظننتُ أنّ إسحاقًا كان ينتظرني عند العتبة، فلم أجد له أثرًا، مع أني كنت متيقّنًا من أنّ أحدًا يراقبني في الظلام. كانت القبّة الكبيرة لمقبرة الكتب المنسيّة غارقة في صمتٍ جليل.

- إسحاق؟ - ناديتُ.

تلاشى صدى صوتي في حلكة الظلام. انتظرتُ عبثًا بضع ثوانٍ واتجهتُ نحو المخرج. كان السراب اللازورديّ يتغلغل من القبّة شيئًا فشيئًا حتى يتبدّد في ذلك الظلّ المطبق. تقدّمتُ خطوة فرأيتُ نورًا يومض من آخر الرواق، ففهمتُ أنّ الحارس قد ترك المصباح قرب البوابة. التفتّ للمرّة الأخيرة، أستقصي الظلام خلفي. رفعتُ المتراس المكوّن من قطع الميكانيك المعقودة بالسكك والبكرات. فتحرّكت مسننات المتراس، واحدة تلو الأخرى وانفتح الباب قليلاً. دفعتُه بما يسمح لي بالمرور وخرجتُ إلى الشارع. وما هي إلا ثوانٍ حتى انغلقت البوّابة بمفردها مجددًا، وأوصِدت بأعمق الأصداء.

22

كان سحر ذلك المكان يُطلق سراحي، كلّما ابتعدتُ عنه، ليسلّمني أسيرًا لدى الغثيان والآلام. وقعتُ على وجهي مرّتين، الأولى في لاس رامبلاس والثانية بينما أحاول عبور شارع لايتانا، حيث أنهضني أحد الأطفال وأنقذني من ترام مسرع كاد يدهسني. وصلتُ إلى باب بيتي بشقّ الأنفس. كان البيت مغلقًا طوال النهار، ما جعل الرطوبة الخانقة - التي كانت تفتك بالمدينة يومًا بعد يوم - يتموّج داخل البيت كأنّه نورٌ غباريّ. صعدتُ إلى مكتب البرج وشرّعتُ النوافذ. فنفحتني النسائم العليلة، تحت سماءٍ دفنتْها السحب السوداء التي تحوم ببطء في مدار برشلونة. تركتُ الكتاب على المنضدة، متيمنًّا توفّر بعض الوقت لفحصه بعناية. أو ربّما لا. ربّما لم يعد لديّ مزيدٌ من الوقت. لكنّ هذا الأمر الخطير بات عديم الأهميّة بالنسبة إليّ.

في تلك اللحظات، كنت بالكاد أحافظ على توازني. كنت بحاجة للاستلقاء تحت الظلام. أخذتُ بعض حبوب الكودين المهدّئة من الدُرج، وابتلعتُ منها ثلاث حبوب أو أربع، دفعة واحدة. وضعتُ ظرف الدواء في جيبي ونزلتُ السلالم، غير متيّقنٍ من أنّي سأصل إلى غرفة النوم سالمًا. وفي الممرّ، خُيّلت إليّ رفرفة نورٍ تحت حافّة باب البيت. كما لو أنّ أحدًا ما موجودٌ في الجانب الآخر. دنوتُ بحذرٍ من المدخل، مستندًا إلى الجدران.

- مَن هناك؟ - سألتُ.

لا جواب. لا صوت. تردّدتُ برهةً، ثم فتحتُ الباب وأطللتُ برأسي عند المستراح. تقدّمتُ قليلاً لأنظر إلى أسفل السلالم. كانت العتبات، الهابطة لولبيًّا، تتلاشى في الظلام. لم يكن هنالك أحد. استدرتُ نحو الباب فلاحظتُ أنّ المصباح الصغير، الذي ينير المستراح، كان يومض. دخلتُ إلى البيت مجددًا وقفلتُ الباب، الأمر الذي غالبًا ما أنسى فعله. وحينها، رأيتُ ظرفًا، فاتح اللون ومختوم الأطراف. لا بدّ أنّ أحدهم دسّه من تحت الباب. انحنيتُ لأحمله. كان وزنه معتبرًا، كثير المسام. لمحتُ اسمي، ودمغة الشمع الأحمر على شكل ملاكٍ باسط الجناحين.

فتحتُه.

حضرة السيّد مارتين

سأقضي بعض الوقت في المدينة ويسعدني جدًا أن أحظى بصحبتك لنعاود النقاش حول اقتراحي. سأكون ممتنًا لو قبلتَ دعوة إلى العشاء، إن لم يكن لديك التزامات أخرى، يوم الجمعة القادم 13 من هذا الشهر عند الساعة 22.00 في منزلي، وهو ڤيلا صغيرة استأجرتُها لإقامتي في برشلونة. الڤيلا تقع عند التقاطع بين شارع أولوت وشارع سان خوسيه دي لا مونتانيا، بجوار مدخل منتزه غويل. أعوّل على مجيئك، وآمل ذلك أيضًا.

صديقك

أندرياس كوريلي

تركتُ البطاقة تهوي أرضًا وجرجرتُ نفسي إلى الصالة. واستلقيتُ هناك على الأريكة، تحت الظلام. سبعة أيّام تفصلني عن الموعد. ابتسمتُ في سرّي. لم أكن أتوقّع أنّي سأعيش سبعة أيامٍ أخرى. أغمضتُ عينيّ وحاولتُ أن أعانق النعاس. أبى ذلك الهمس المزمن في أذنيّ إلا أن يصعّد من أزيزه. ووميض النور الأبيض يبرق في ذهني على إيقاع قلبي الخافق.

لن تتمكّن حتّى من التفكير بالكتابة...

فتحتُ عينيّ فوجدتُ الصالة تتشحّ بسرابٍ لازورديّ. كان ألبوم الصور الذي تركته كريستينا ما يزال بقربي، على الطاولة. خذلتني الشجاعة لقذفه بعيدًا. مددتُ يدي وفتحته. قلّبتُه حتى وصلتُ إلى الصورة التي أبحث عنها. انتزعتُها كي أعاينها. كريستينا، في صغرها، كانت تمشي يدًا بيدِ مجهولٍ على الرصيف الذي يشقّ البحر. ضممتُ الصورة على صدري واستسلمتُ للإرهاق. فانطفأت اللوعة والنقمة التي جثمت على صدر ذلك اليوم، على صدر تلك السنوات، شيئًا فشيئًا، وأحدق بي ظلامٌ دافئ مليء بأيدٍ وأصوات كانت بانتظاري. كم تمنيّتُ أن أسلّم نفسي إليها؛ لكنّ شيئًا ما سدد إليّ دفعة قوية، واختطفني من ذلك الحلم الهيء الذي كان يعِد بالاستمرار أبد الدهر، صفعةً من ألمٍ ونور.

ليس بعد - همس الصوت - ليس بعد.

كنت أعرف أنّ الأيّام تمضي، إذ أستيقظ فجأة لأرى نور الشمس يتغلغل من مصاريع النوافذ. وأحيانًا يتهيّأ لي طرقٌ على الباب وأصواتٌ تلفظ اسمي وسرعان ما تختفي. بعد ساعات أو أيّام، نهضتُ ووضعتُ يديّ على وجهي لأكتشف أنّ شفتيّ تنزف الدماء. لست متأكدًا من أنّي نزلتُ إلى الشارع حقًا، أم أنّي كنت أحلم بذلك؛ لكنّي وجدتُ نفسي أدخل شارع بورن، دون أن أعرف كيف، وأمشي نحو كاتدرائيّة سانتا ماريا دل مار. كانت الشوارع مقفرة تحت نجمة عطارد. رفعتُ أبصاري فتراءى لي طيف زوبعة كبيرة سوداء تبسط جناحيها على المدينة. هبّ نورٌ أبيضُ مزّق السماء، وانهالت قطرات المطر كنصل الخناجر اللامعة. وقبل أن تلمس الأمطارُ الأرضَ بقليل، توقّف الزمن وظلّت مئات الآلاف من دموع النور معلقة في الهواء كغبار القشّ الناعم. عرفتُ أنّ أحدًا أو شيئًا يمشي خلف ظهري، أحسستُ بزفيره يلفح رقبتي، زفيرٍ باردٍ ومبلّلٍ بالنار ونتانة اللحم الفاسد. شعرتُ أنّ أصابعه، الطويلة والناعمة، تتشبّث بجلدي. وفي تلك اللحظة، خلف الأمطار المعلّقة، ظهرتْ تلك الطفلة التي لم يكن لها وجود سوى في الصورة التي ضممتُها إلى صدري. أمسكتْ بيدي وقادتني إلى بيت البرج من جديد، لتترك ذلك الكائن المتجمّد يزحف خلف ظهري. وحين استعدتُ الوعي، كانت سبعة أيام قد مرّت.

وحلّ فجر الثالث عشر من يوليو، الجمعة.

23

تزوّج پيدرو ڤيذال وكريستينا في ذلك اليوم نفسه. بدأ الحفل عند الخامسة عصرًا، في كنيسة دير پيدرالبيس، ولم يحضره سوى مجموعة صغيرة من آل ڤيذال، بينما تألّق معظم أعيان العائلة بغيابهم المشين، بمن فيهم والد العريس. ولو كان هنالك بعض الألسنة الحاقدة، لأكّدتْ أنّ خبر زواج ابن السلالة النبيلة بابنة السائق الفقيرة وقع كسطلٍ من الماء البارد على رؤوس أسرته. إلا أنّ الألسنة الحاقدة سجّلتْ غيابها أيضًا. فالصحفيّون، المهتمّون بأخبار الطبقة العليا، قبضوا ثمن سكوتهم، وانشغلوا بشؤون أخرى في ذلك اليوم، ولم يصدر أيّ مقال يتناول الزواج. لم يكن هناك أحدٌ ليقصّ كيف انضمّت جوقةٌ من عشيقات الدون پيدرو السابقات، يبكين بحرقة على أبواب الكنيسة، كأنهنّ منتسباتٍ لجمعيّة دينيّة من الأرامل الذابلات، اللواتي لم يبق لديهنّ سوى الأمل الأخير. لم يكن هناك أحدٌ ليقصّ كيف كانت كريستينا تحمل باقة من الورود البيضاء بيدها، وكيف يندمج لون فستانها العاجيّ بلون بشرتها، حتى يحسَب الناظر أنّ العروس وصلت عارية إلى المذبح، بلا زينة أخرى سوى الخمار الأبيض الذي أخفى معالم وجهها، كما فعلت السحب المتلبّدة، فوق برج الكنيسة الهرميّ، بالسماء ذات الغروب الشجيّ.

لم يكن هناك أحدٌ ليذكر كيف نزلتْ من السيارة وكيف توقّفت لوهلة كي تلقي نظرة خاطفة على ساحة الكنيسة، حتى التقت نظراتها بنظرات ذلك المحتضر، مرتعش اليدين، يغمغم في سرّه كلماتٍ قد تواسيه في نعشه.

«اللعنة عليكما. اللعنة عليكما».

بعد ساعتين، وأنا جالس على الأريكة في المكتب، فتحتُ العلبة الخشبيّة التي وصلتني منذ سنوات، تلك التي تحتوي على ما تبقّى من ذكرى والدي. أخرجتُ المسدّس المغلّف بالمنديل وفتحتُ البكرة. عبّأتها بستّ خراطيش وأغلقتها. أسندتُ القصبة إلى صدغي، هيّأتُ القادح وأغمضتُ عينيّ. وحينها، سمعتُ دويّ تلك الرياح، تزمجر في البرج على حين غرّة، وتفتح نوافذ المكتب على مصاريعها لتصفق الجدران بشدّة. داعبتِ النسماتُ الباردة جلدي، حاملة معها النفحة المفقودة من الآمال العظيمة.

24

كانت سيّارة الأجرة تصعد ببطء حتى حدود حيّ غراثيا، بالتوازي مع سياج منتزه غويل المنعزل والكئيب. كان التلّ مطرزًا بقصورٍ، ولّى عصرها الذهبيّ، لترقد حينذاك بين أشجار الغابة، وأغصانها التي تراقص الرياح كالمياه الكالحة. تراءى لي باب السياج الكبير، في أعلى المرتفع. قبل ثلاثة أعوام، حين توفّي غاودي، باع ورثة الكونت غويل تلك المنطقة الخاوية، التي لم يكن يسكنها سوى مهندسها المعماريّ، للبلديّة بسعر بخس. فأُهمِلت الحديقة وطواها النسيان؛ حتّى باتت بأعمدتها وبأبراجها تشبه جنّة عدنٍ ملعونة. أشرتُ للسائق بأن يتوقّف عند بوابة المدخل وأعطيته أجره.

- هل حضرتك متأكدٌ من أنّك ستنزل هنا؟ - سألني السائق متوجّسًا - بوسعي انتظارك بضع دقائق إن أردت...

- ما من ضرورة.

تلاشت غمغمات سيّارة الأجرة أسفل التلّ وبقيتُ وحيدًا مع أصداء الريح بين الأشجار. كانت الأوراق اليابسة تحوم عند بوابة الحديقة وتشكّل دوّاماتٍ عند قدميّ. اقتربتُ من البوابّة المغلقة بسلاسل أفناها الصدأ، واسترقتُ النظر إلى الداخل. كان نور القمر يضيء وجه التنّين الذي يعتلي العتبات. وثمّة كائنٌ غامض يهبط ببطء شديد، يراقبني بعينيه اللتين تلمعان كاللؤلؤ تحت الماء. كلبٌ أسود. توقّف الحيوان أسفل السلالم، وحينها أدركتُ أنّه ليس بمفرده. ثمّة حيوانان آخران يتربصّان بي. اقترب أحدهما بحذرٍ متخفيًّا بظلّ حجرة الحراسة، على جانب المدخل. تسلّق الثاني قمّة السور، وكان أضخمهم، وراح يراقبني من الحافّة، على بعد مترين فقط. كان بخار أنفاسه ينبعث من بين أنيابه البارزة. تراجعتُ إلى الخلف متأنيًّا، وممعنًا النظر بعينيه، ودون أن أولي له ظهري. خطوة إثر خطوة، وصلتُ إلى الرصيف المقابل للمدخل. صعد كلبٌ آخر إلى السور وظلّ يتابعني بعينيه. دسْتُ الأرض من حولي، بحثًا عن عصى أو حجرة أستخدمها كسلاح دفاعيّ إن قرّروا الانقضاض عليّ، فما وجدتُ سوى الأوراق اليابسة. كنت أعلم أنّي، بمجرّد أن أزيح نظري عنهم لأهمّ بالركض، سأغدو طريدة مسليّة، تقع فريسة لمخالبهم بعد أقلّ من عشرين مترًا. تقدّم أضخمهم على قمّة السور فتأكّدتُ أنه سيقفز نحوي. بدأ الكلب، الذي رأيته في البداية، والذي كان بمثابة طعم، بدأ يتسلّق الجزء المنخفض من السور كي ينضمّ إلى رفيقيه. ها قد بدأت المعركة، قلت لنفسي.

في تلك اللحظة، لمع بريقٌ فأنار أفكاك تلك الحيوانات الثلاثة، الراغبة بالافتراس، لتتسمّر في مكانها فجأة. نظرتُ إلى الأعلى، فرأيتُ الهضبة التي ترتفع حوالي الخمسين مترًا عن بوّابة الحديقة. أنيرت أضواء الڤيلا، الأضواء الوحيدة على التلّ كله. أصدر أحد الكلاب نباحًا مكتومًا وأدبر إلى داخل الحديقة. فتبعه الآخران مباشرة.

ودون أن أفكّر كثيرًا، تقدّمتُ نحو الڤيلا. وكما قد أشار كوريلي في دعوته، كان مسكنه يقع عند تقاطع شارع أولوت بشارع سان خوسيه دي لا مونتانيا. كان المبنى شاهقًا وحادّ الزوايا، مكوّنًا من ثلاثة طوابق، على شكل برجٍ

مكلّل بالتيجان، يراقب المدينة، وحديقة الأشباح أسفله، كما لو كان يحرسها.

كانت الڤيلا في قمّة المرتفع الوعر، وثمّة عتبات حجريّة تفضي إلى بابها. وهالات النور الملوّن تتأرجح على نوافذها الكبيرة. وبينما كنت أصعد السلّم الحجريّ، بدا لي أنّي ميّزتُ وجهًا مجتزءًا يطلّ من سياج الطابق الثاني، ثابتًا مثل عنكوبٍ وسط شبكته. وصلتُ العتبة الأخيرة وتوقّفتُ لألتقط أنفاسي. كان باب المنزل مواربًا، وحدّ الضوء يمتدّ حتى قدميّ. اقتربتُ ببطء وتوقّفتُ عند الباب. فاشتممتُ رائحة أزهار ميّتة تنبعث من الداخل. طرقتُ بجمع يدي على الباب فانفتح قليلاً على مدخلٍ وممرٍّ طويل. خطرني رنينٌ خشنٌ ومكرّر، يشبه صفق الريح لشبّاكٍ خشبيّ، يصدر من أحد أركان المنزل، ويوحي بنبضات القلب. تقدّمتُ خطواتٍ قليلةً في المدخل فوجدتُ السلالم، التي تصعد نحو البرج، في الجهة اليسرى. خُيّل إليّ أنّي أسمع خطواتٍ ناعمة، كخطوات الطفل، تنزل من أعلى الدرجات.

- مساء الخير... - هتفتُ.

وقبل أن يهيم صدى صوتي في عمق الممرّ، توقّف ذلك الرنين النابض المضبوط. وأحدق بي الصمت الرهيب، وتيّار هواءٍ بارد يلامس وجهي.

- سيّد كوريلي! إنّي مارتين، داڤيد مارتين...

لم أتلقّ أيّ ردّ، فغامرتُ متقدّمًا على طول الممرّ المؤدّي إلى قلب المنزل. كانت الجدران محمّلة بصور فوتوغرافيّة، بأطرٍ متعددة القياس. استنتجتُ، من وضعيّات المتصوّرين وأزيائهم، أنّ الجزء الأعظم من الصور يعود إلى عشرين أو ثلاثين عامًا خلت، على الأقلّ. ثمّة لافتة صغيرة تحت كلّ إطار، تشير إلى اسم الشخص وعام التقاط الصورة. حملقتُ في تلك الوجوه التي كانت تراقبني من زمان آخر. كهولٌ وأطفال، رجالٌ ونساء. لا يجمع بينهم سوى نجواهم الصامتة وطيفُ التعاسة في نظراتهم. يرنون إلى العدسة، بشهوة عارمة تجمّد الدماء.

- هل أنت مهتمٌّ بالصور يا صديقي مارتين؟ - قال الصوت على جانبي.

التفتُّ جزعًا. كان أندرياس كوريلي ينظر إلى الصور بجانبي، وابتسامته تشعّ حنينًا. لم أره ولم أسمعه يدنو مني، وحين وجّه إليّ ابتسامته، اقشعرّ بدني.

- حسَبتُ أنّك لن تأتي.

- وأنا أيضًا.

- فاسمح لي بدعوتك لشرب كأسٍ من النبيذ احتفاءً بأخطائنا.

تبعتُه حتّى وصلنا صالة كبيرة، تشرف نوافذها الكبيرة والواسعة على المدينة. أشار إليّ كوريلي بالجلوس على إحدى الأرائك، وسكب كأسين من قارورةٍ، مصنوعة من الكريستال، كانت على الطاولة. أعطاني الكأس وجلس على أريكةٍ قبالتي.

تذوقتُ النبيذ. كان فاخرًا. ازدردتُه برشفة واحدة وسرعان ما شعرتُ بالحرارة تتغلغل في أحشائي وتهدّئ أعصابي. كان كوريلي يشمّ كأسه ويراقبني بابتسامة صافية ووديّة.

- كنتَ محقًّا يا سيّدي - قلتُ.

- لطالما كنتُ محقًّا - ردّ كوريلي - نادرًا ما أشعرتني هذه العادة بالرضا. أتمنّى في بعض الأحيان أن ينال إعجابي شيءٌ ما أكثر من يقيني بأنّي لم أخطئ.

- لهذه المشكلة حلّ بسيط. اسألني أنا. إنّي أخطئ دائمًا.

- لا، أنت لا تخطئ. يبدو لي أنّك ترى الأشياء بوضوح، مثلي، وأنّك أنت أيضًا لا تحصل على أيّ شعور بالرضا.

بينما كنت أصغي إلى حديثه، خطر في ذهني أنّ لا شيء سيغمرني بالرضا، في تلك اللحظة، سوى أن أحرق العالم بأسره، وأحترق فيه أنا أيضًا. ابتسم كوريلي، كأنّه قرأ أفكاري، فبانت أسنانه، وأومأ موافقًا.

- إنّي قادر على مساعدتك يا صديقي.

فوجئتُ، وأنا أتهرّب من نظرته، لأركّز عينيّ على الوسام الصغير للملاك الفضيّ مشرّئبًا على عروة سترته.

- ما أجمل هذا الوسام - قلت مشيرًا إليه.

- إنّه ذكرى من العائلة - أوضح كوريلي.

شعرتُ بأنّنا تبادلنا من الرسميّات والتفاهات ما يكفي السهرة بأكملها.

- سيّد كوريلي، هلاّ أخبرتني ما الذي جاء بي إلى هنا؟

اشتعلت عيناه بريقًا يشبه لون النبيذ المتراقص بخفّة في كأسه.

- الأمر بسيط. إنّك هنا لأنّك فهمت أخيرًا أنّ هذا هو مكانك. إنّك هنا لأنّي قدّمتُ إليك عرضًا منذ عام مضى. لم تكن مستعدًّا لقبوله في تلك الآونة، لكنّه لم يغب عن بالك. وأنا هنا لأنّي ما زلت أراك الشخص الذي أبحث عنه. لذا فضّلتُ أن أنتظر اثني عشر شهرًا على أن أرجئ المشروع برمّته.

- لكنّك لم تطلعني على تفاصيل ذلك العرض أبدًا - ذكّرته.

- في الحقيقة، أنا لم أطلعك إلا على التفاصيل.

- مائة ألف فرنك مقابل العمل مدّة عام كامل على تأليف كتاب.

- تمامًا. أراهن أنّ أحدًا غيرك سيظنّ بأنّ هذه هي النقطة الجوهريّة.

- وقلت لي إنّي سأتلهّف لإنجاز الكتاب دون التفكير بالأجر، ما إن تشرح لي ماهيّة الكتاب الذي تريدني أن أؤلّفه لك.

أومأ كوريلي.

- لديك ذاكرة قوية.

- لديّ ذاكرة ممتازة، حتى إنّي لا أذكر أنّي رأيتُ، أو قرأتُ أو سمعتُ، عن أيّ كتاب من إصدارات دارك يا سيّد كوريلي.

- هل تشكّ في قدرتي على دفع مستحقّاتك؟

نفيتُ محاولاً أن أقمع فورة الطمع. وكلّما أظهرتُ مزيدًا من عدم اهتمامي، أغرتني وعود الناشر أكثر فأكثر.

- بل أشعر أنّ دوافعك تستفحل بي.

- هذا صحيح.

- بأيّ حال، أذكّر عنايتك بأنّ لديّ عقدًا يحتكرني بموجبه باريدو وإسكوبيلاس لخمسة أعوام أخرى. أمس الأول، تلقيّتُ زيارة في غاية الشفافيّة من جانبهما، بصحبة محامٍ خبيرٍ وواثق بنفسه. لكنّي أفترض أنّه لا مشكلة، فالعقد القائم على خمس سنوات طويلٌ جدًا؛ وإن كنتُ متأكدًا من شيء واحد فهو أنْ لا شيء ينقصني حقًّا كالوقت.

- لا تقلق بشأن المحامين. فالمحامون عندي لديهم خبرة تفوق خبرة محامي ذلك الزوج من الدمّل. لا يخسرون أيّ قضية أبدًا. دع عنك هذه المنازعات والتفاصيل القانونيّة.

حين رأيتُ ابتسامته، التي رافقت تلك الكلمات الأخيرة، فكّرتُ أنّه من الأفضل أن لا ألتقي بأولئك المستشارين القضائيّين لمنشورات النور.

- أصدّقك يا سيّدي. بناءً عليه، تبقى مسألة التفاصيل الأخرى مفتوحة، تلك الجوهريّة.

- لا أجد وسيلة سهلة للإفصاح عنها، لذا من الأفضل أن أكلّمك بهذا الشأن بدون مناورة.

- تفضّل، أرجوك.

انحنى كوريلي إلى الأمام وحدّق إليّ.

- مارتين، أريد منك أن تصنع لي ديانة.

خلتُ أنّي لم أفهم ما قاله للوهلة الأولى.

- ماذا قلت؟

ما برح يركّز فيّ بتلك النظرة التي لا قرار لها.

- قلتُ إنّي أريد منك أن تصنع لي ديانة.

نظرتُ إليه لحظة طويلة، ساكتًا.

- أنت تسخر مني.

نفى كوريلي، وهو يستطعم النبيذ.

- أريد منك أن تستجمع كلّ موهبتك وأن تتفرّغ للأمر جسدًا وروحًا طيلة عام كامل، لتعمل على أعظم حكايةٍ ألّفتَها في حياتك: ديانة.

لم أتمالك نفسي من الضحك مقهقهًا.

- أنت مجنون كليًّا. هل هذا هو عرضك حقًّا؟ هل هذا هو الكتاب الذي تريدني أن أؤلّفه؟

أومأ كوريلي بصفاء نفس.

- لقد أخطأتَ في اختيار الكاتب. أنا لا أعرف شيئًا عن الدين.

- لا تقلق بهذا الشأن، فأنا أعرف الكثير. إنّي لا أبحث عن عالِم كهنوت. بل أبحث عن روائيّ. هل تعلم ما هو الدين يا عزيزي مارتين؟

- بالكاد أذكر أبانا الذي في السماوات.

- هذه صلاة جميلة ومبنيّة بأسلوب متين. بصرف النظر عن الشعر، إنّ الدين عبارةٌ عن قيمٍ أخلاقيّةٍ تتجلّى عبْر الأساطير والخرافات، أو أيّ مادّة يجود بها الخيال الأدبيّ، بهدف تأسيس منظومة من المعتقدات والقواعد والأحكام، تضبط شؤون ثقافةٍ أو مجتمع ما.

- آمين! - أجبتُ.

- وكما في الأدب، أو أيّ عمليّةٍ أخرى مبنيّة على التواصل، فإنّ الشكل هو الذي يمنح الدينَ الجدوى، وليس المضمون - تابع كوريلي.

- تقصد أنّ العقيدة هي مجرّد حكاية عمليًّا.

- كلّ شيء هو حكاية يا مارتين. كلّ معتقداتنا وعلومنا وذكرياتنا، بل وحتّى أحلامنا. كلّ شيء هو حكاية، وسرد، وتسلسل أحداث وشخصياتٍ تعبّر عن وجدانها العاطفيّ. إنّ الإيمان ناجمٌ عن التسليم، عن التسليم بحكايةٍ تُروى علينا. نحن لا نسلّم بحقيقة أيّ شيء إلا إذا كان قابلاً للسرد. لا تقل لي إنّ الفكرة لا تغويك.

- لا.

- ألا يغويك ابتكارُ حكايةٍ تُرغم الناس على الحياة والموت، على القتل والهلاك، على التضحية والتفاني والفداء، في سبيلها؟ هل في مهنتك اختبارٌ أقسى من تأليف حكاية جبّارةٍ تتجاوز التخييل لتصبح حقيقة ساطعة؟

تبادلنا نظرة صامتة بضع ثوانٍ.

- أعتقد أنّك تعرف إجابتي مسبقًا - قلت في النهاية.

- أجل - ابتسم كوريلي - أعتقد أنّك أنت الذي ما زلت تجهل إجابتك.

- شكرًا على المؤانسة، سيد كوريلي. شكرًا على النبيذ والنقاش أيضًا. إنّه حديث مهمّ وشيّق. ولكن، كنْ حذرًا في طرح هذه النقاشات على الآخرين. أتمنّى أن تجد الرجل المناسب وأن يُكلّل هذا المشروع العظيم بالنجاح.

نهضتُ وهممتُ بالانصراف.

- هل ثمّة أحدٌ ما بانتظارك يا مارتين؟

لم أردّ، لكنّي توقّفتُ.

- ألا يُغضبك أن تعلم كم هنالك من الأشياء التي تستحقّ الحياة، بحالٍ ميسورةٍ وصحّةٍ سليمة، بلا قيود أو معوّقات؟ - قال كوريلي خلف ظهري - ألا يُغضبك أن ينزعوا تلك الأشياء من بين يديك؟

استدرتُ ببطء.

- ما الضير في العمل لمدّة عام مقابل أن يتحقّق كلّ ما ترغب فيه؟ ما الضير في عامٍ من العمل مقارنةً بضمان عمرٍ مديد وحافل بالفرح؟

لا ضير، قلتُ في سرّي مرغمًا. لا ضير.

- هل هذا وعدك؟

- حدّد السعر بنفسك. هل تريد أن تحرق العالم وتحترق فيه أنت أيضًا؟ فلنفعل ذلك معًا. قرّر السعر بنفسك. إنّي مستعدّ لمنحك كلّ رغباتك.

- لا أعرف ما هي رغباتي.

- بل تعرفها جيدًا.

ابتسم الناشر وغمز بعينه. نهض واقترب إلى طاولة حائط، فوقها مصباح. فتح الدُرج الأول وأخرج منه ظرفًا من الرقّ. أعطاني إياه لكنّي رفضته. تركه على الطاولة وجلس ثانية، دون أن يقول شيئًا. كان الظرف مفتوحًا، ما يسمح برؤية رزمة من فئة المائة فرنك. كنزٌ وفير.

- هل تحتفظ بكلّ هذه الأموال في الدُرج دون أن تغلق باب المنزل؟ - سألته.

- بإمكانك أن تحصيه. إن بدا لك متدنيًّا، فحدّد الرقم. قلت لك مسبقًا إنّي لن أتجادل معك بشأن المال.

نظرتُ إلى حفنة الحظّ تلك للحظةٍ طويلة وهززتُ رأسي أخيرًا. حظيتُ بشرف رؤية هذا المبلغ على الأقلّ. كان كلّ شيء حقيقيًا. العرض والجشع، اللذان أغرياني في تلك اللحظات من البؤس واليأس، كانا حقيقيّين.

- لا يمكنني أن أقبل - قلت.

- هل تحسَبه مالاً قذرًا؟

- كلّ الأموال قذرة. لو كانت نظيفًة، لما اشتهاها أحد. ولكن، ليست هذه هي المشكلة.

- فما المشكلة إذن؟

- لا يمكنني قبول المال لأنّي لا أستطيع قبول عرضك برمّته. حتى لو أردتُ.

قيّم كوريلي كلامي.

- هل لي أن أعرف السبب؟

- لأنّي أحتضر يا سيّد كوريلي. لم يبق في رصيدي سوى أسابيع قصيرة من الحياة، وربّما أيّام. لم يبق في حوزتي ما أعرضه.

أخفض كوريلي أنظاره وغاص في صمت عميق. شعرتُ بالريح تخدش النوافذ وتزحف فوق المنزل.

- لا تقل إنّك لم تكن تعلم بهذا - أضفتُ.

- كنت قد تكهّنتُ به.

ظلّ جالسًا، دون أن ينظر إليّ.

- يوجد الكثير من الكتّاب القادرين على تأليف هذا الكتاب لك، يا سيّد كوريلي. إنّي ممتنّ على عرضك، أكثر ممّا تتخيل. ليلة سعيدة.

اتّجهتُ نحو المَخرج.

- فلنقل إنّي قادرٌ على مساعدتك في هزيمة المرض - قال.

توقّفتُ في منتصف الممرّ واستدرتُ. كان كوريلي على بعد ذراعين مني، ويحدّق إليّ. بدا لي أنّه أطول ممّا كان عليه حين رأيتُه في الممرّ منذ قليل؛ بدت عيناه أكبر حجمًا وأغمق لونًا. رأيتُ انعكاس وجهي يتقزّم في بؤبؤ عينيه اللتين تتسعان شيئًا فشيئًا.

- هل تقلقك ملامحي يا صديقي مارتين؟

مضغتُ ريقًا.

- أجل - اعترفتُ.

- عد إلى الصالة واجلس، أرجوك. اعطِني فرصة لأوضّح لك الأمور. ما الذي ستخسره؟

- لا شيء، على ما أعتقد.

وضع يده على ذراعي برفق. كانت أصابعه طويلة وناصعة البياض.

- أتمنّى أن لا تخشى منّي يا مارتين. فأنا صديقك.

كانت لمساته مريحة. تركته يعيدني إلى الصالة، وجلستُ بعناية، كأيّ طفل ينتظر الكلام من راشد. ارتاح كوريلي على الأريكة بجانبي، ونصب نظراته في نظراتي. أمسك يدي، وصافحني بشدّة.

- هل تريد أن تعيش؟

أردت أن أجيبه لكنّي لم أجد كلامًا مناسبًا. أحسستُ بعقدةٍ في لساني ودموعٍ تغرورق في عينيّ. لم أكن قد رغبتُ في مواصلة التنفّس، والاستيقاظ صباحًا، والخروج لركل الحصى والنظر إلى السماء، ولاسيّما القدرة على استخدام الذاكرة، مثلما كنت أرغب في تلك اللحظة.

أومأتُ موافقًا.

- سأساعدك يا صديقي مارتين. لا أطلب منك سوى أن تثق بي. اقبل عرضي. ودعني أساعدك. دعني أمنحك ما ترغب فيه. هذا ما أعدك به.

أومأتُ مجددًا.

- موافق.

ابتسم كوريلي وانحنى ليقبّل خدّي. كانت شفتاه باردتين كالجليد.

- أنا وأنت، يا صديقي، سنفعل أشياء عظيمة معًا. سترى - تمتم.

أعطاني منديلاً لأمسح دموعي. ففعلتُها دون أن أشعر بالخزي من البكاء أمام رجلٍ غريب، الأمر الذي لم أفعله منذ أن مات والدي.

- أنت منهك للغاية يا مارتين. ابق هنا هذه الليلة. في هذه الڤيلا، يوجد الكثير من الغرف. أؤكد لك بأنّك ستشعر بحال أفضل غدًا، وسترى الأشياء بوضوح أكثر.

أبديتُ عدم مبالاة، مع أنّي شعرتُ بأنّه كان محقًّا. كنت بالكاد أستطيع الوقوف على قدميّ، ولا أرغب سوى بنومٍ قرير. لم أعد أستطيع النهوض عن تلك الأريكة، أكثر الأرائك راحة ورحابةً في تاريخ الكون.

- أفضّل البقاء هنا، إن كان هذا لا يؤسفك.

- بالتأكيد. سأدَعَك تستريح. ستشعر بالتحسّن باكرًا. وعدُ شرفٍ منّي.

اقترب إلى الطاولة وأطفأ مصباح الزيت. فغرقت الصالةُ بسرابٍ لازورديّ. كنت أشعر بالنعاس، وما يشبه الثمالة تفيض في رأسي. ومع هذا، استطعتُ أن أرى كوريلي يعبر الغرفة ويختفي في الظلّ. أغمضتُ عينيّ وتناهى إلى مسامعي همسُ الريح خلف الزجاج.

25

حلمتُ أنّ الڤيلا تغرق رويدًا رويدًا. في البدء، رشحتْ دموعٌ من ماءٍ قاتمٍ من بين شقوق القرميد، من الجدران، من تلافيف السقف، من كرات المصابيح، من ثقوب الأقفال. تقدّم ذلك السائل البارد بتراكمٍ بطيء وثقيل، مثل قطرات الزئبق؛ وشكّل كساءً يغمر الأرضية ويزحف على الجدران شيئًا فشيئًا. شعرتُ بأنّ المياه تطمي قدميّ وتسرع من صعودها. بقيتُ على الأريكة أراقب كيف يصل مستوى الماء حتّى عنقي، وسرعان ما شارف السقف. كان لديّ انطباعٌ بأنّي أعوم، وأرى أنوارًا ساطعة تتموج خلف النوافذ الكبيرة. أجسامٌ بشريّة معلّقة بدورها في قلب تلك الظلمات المائيّة، يسحبها التيّار بانسياب، ويمدّون أياديهم نحوي، لكنّي أعجز عن مساعدتهم فيما تجرفهم المياه بلا هوادة. المائة ألف فرنك، التي تركها كوريلي، كانت تطفو حولي، كأسماك من ورق. عبرتُ الصالة ودنوتُ من بابٍ موصدٍ في آخر الغرفة. تراءى لي نورٌ شحيحٌ من ثقب القفل. فتحتُ الباب فوجدتُ عتباتٍ حجريّة تفضي إلى أعماق المنزل. فنزلتُ.

وصلتُ إلى قاعة بيضويّة، رأيتُ في وسطها نفرٌ من الأشخاص مجتمعين في نسقٍ دائريّ. التفتوا حين انتبهوا لوجودي، كانوا يرتدون بزّات بيضاء، ويضعون أقنعة على وجوههم، وقفازاتٍ في أيديهم. هنالك أضواءٌ ساطعة مركّزة على ما بدا لي سريرًا في غرفة عمليّات. كان أحدهم، ذو وجه بلا عينين أو ملامح محدّدة، يرتّب الأدوات الجراحيّة على الطبق. مدّ أحدٌ آخر يده نحوي، كدعوة للاقتراب منه. فدنوتُ، وأحسستُ بأنّهم يمسكون برأسي وجسدي وينقلوني على السرير. أعشت الأضواءُ بصري، لكنّي تمكّنتُ من رؤية أنّ كلّ الوجوه متطابقة، نُسخًا عن وجه الطبيب ترياس. ضحكتُ في سرّي. كان أحد الأطبّاء يحمل حقنة في يده، فدسّها في عنقي. لم أشعر بالوخزة، بل بدوارٍ لطيف بينما يحتضن الدفءُ جسدي. ثبّت اثنان من الأطبّاء رأسي على أداة رهيبة وركّبوا تاج الأشواك المسنود إلى صفيحة معدنية ثخينة للغاية. شعرتُ بأنّهم يربطون يديّ وقدميّ بالأحزمة. لم أقم بأيّ شكلٍ من أشكال المقاومة. بعدئذٍ، أعطى أحدُ الأطبّاء شبيهَه مبضعًا فانحنى الأخير نحوي. ثمّة مَن يحنو على يدي. يدُ طفلٍ ينظر إليّ برقّة، ويتّسم بنفس التعبير الذي لاح على وجهي يومَ قتلوا والدي.

رأيتُ المبضع يهبط، في قلب ذلك السراب السائل، حتّى أحسستُ بالشفرة تشقّ جبيني. لم أشعر بالألم؛ بل بشيءٍ ما ينبثق من الجرح. ورأيتُ سحابة سوداء تنزف الدماء لتتمدّد في المياه. صعدت الدماءُ تدريجيًّا نحو النور، وتقلّبت بألف شكلٍ ملتوٍ كالدخان. نظرتُ إلى الطفل الذي كان يبتسم في وجهي، ويشدّ على يدي. كان حينئذٍ أنّي لاحظتُ ذلك الشيء يتحرّك في داخلي؛ بعد أن كان يُحكِم قبضته على دماغي منذ قليل، كالكمّاشة. ثمّ أحسستُ بالجلاء، كما لو أنّ إبرةً انسلّت في نخاعي وأخرجوها بالملقط. تملّكني الفزع وحاولتُ النهوض لكنّي كنت مكبّلاً. ظلّ الطفل يرمقني بغمار أنظاره ويومئ برأسه مطمْئنًا. خلتني عالقًا بين الإغماء واليقظة حين رأيتُ، في انعكاس الأضواء فوق السرير، خطّين غامقين يبرزان من الشرخ وينسابان على بشرتي. كان ذلك عنكبوتًا أسود كبيرًا كقبضة اليد.

راح يركض على وجهي، حتى اصطاده أحد الجرّاحين بالمبضع، قبل أن يقفز هاربًا نحو الأسفل. رفعه إلى مستوى الضوء كي أتمكّن من رؤيته. كان العنكبوت يؤرجح سيقانه باضطراب، ويُظلّل النورَ بنزيف دمائه. قوقعته محجوبة ببقعةٍ ناصعة البياض، لها جناحان مفتوحان. جناحا ملاك. ثمّ خمد هيجانه، وانفصل جسمه عن المبضع. وظلّ يتمايل حتّى رفع الطفل يده ليلمسه، فاستحال غبارًا. فكّ الأطباء قيودي وأخفضوا الآلة التي كانت تقبض على جمجمتي. نهضتُ عن السرير، بمساعدتهم، وتلمّستُ جبيني. كان الجرح يندمل تلقائيًّا. وحين نظرتُ حولي من جديد، أدركتُ أنّي كنت بمفردي.

أطفِأتْ أضواء غرفة العمليّات وساد الظلام. عدتُ صوب العتبات الحجريّة، وصعدتُها إلى أن وصلتُ إلى الصالة. كان نور الفجر يتغلغل في المياه، مُحدِثًا آلاف الجزيئات المعلّقة. كنت منهكًا للغاية. لم أشهد إرهاقًا في حياتي كذاك الذي عايشتُه آنئذٍ. جرجرتُ نفسي إلى الأريكة وهويتُ عليها ببطء. وحين اضطجعتُ، رأيتُ أسرابًا من الفقاعات الصغيرة تهرول نحو السقف تباعًا. رأيتُ حجرة صغيرة من الهواء تتشكّل هناك في الأعلى، ففهمتُ أنّ مستوى الماء يضمحلّ. كانت المياه، مكثّفة وبرّاقة كمادّة الجلاتين، تخرج على دفعات من شقوق النوافذ كما لو أنّ المنزل غوّاصةٌ متحرّكة. تقلّبتُ على الأريكة، مسلّمًا أمري لمشاعر الخفّة والسلام كما لم أفعل من قبل. أغمضتُ عينيّ وسمعتُ همهمة المياه من حولي. فتحتُهما مجدّدًا فتراءى لي وابلٌ من القطرات يتساقط ببطء شديد، كأنّها دموعٌ يمكنها التعلّق في الفراغ. كنت متعبًا، متعبًا جدًا ولا أشتهي سوى النوم القرير.

فتحتُ عينيّ على سطوع شمس منتصف النهار الحارّة، وكان النور يتسلل من النوافذ كالغبار. أوّل ما وقعتْ عليه عيناي هو المائة ألف فرنك؛ كانت ما تزال على الطاولة. نهضتُ ودنوتُ من النافذة. أزحتُ الستائر فاجتاح الضياءُ الغرفةَ بما يعشي الأبصار. كانت برشلونة ما تزال في مكانها، يتقاذفها سرابُ القيظ. في تلك اللحظة، أدركتُ أنّ الأزيز في أذنيّ، الذي عادة ما يتخفّى تحت ضوضاء النهار، كان قد زال كليًّا. شعرتُ بصمت كثيف، ونقيّ مثل المياه الصافية، لا أذكر أنّي شعرت بمثله من قبل. أحسستُ بالضحكة في باطني. وضعتُ يديّ على رأسي وتلمّستُ بشرتي. لم يكن هناك أيّ أثرٍ للضغط. صار بصري حادًّا، وراودني انطباعٌ بأنّ حواسّي الخمس جميعها قد استيقظت للتوّ. أنفي يتمكّن من شمّ حتى رائحة الخشب القديم الذي يزيّن السقف. بحثتُ عن مرآة، فلم أجد أيًّا منها في الصالة. خرجتُ بحثًا عن الحمّام أو غرفة أخرى فيها مرآة، لعلّي أتيقّن من أنّي لم أستيقظ بجسم رجلٍ آخر، وأنّ تلك البشرة والعظام، التي أشعر بوجودها، لي حقًّا. فوجدتُ كلّ أبواب المنزل مغلقة. تجولّت بين أرجاء الطابق كلّه، ولم أستطع فتح أيّ باب. عدتُ إلى الصالة وتبيّن لي بأنّ ما حلمتُ به بابًا يفضي إلى القبو، لم يكن سوى لوحةً لملاكٍ منكفئٍ على نفسه فوق صخرةٍ ناتئةٍ من بحيرة لا حدود لها. اتّجهتُ نحو سلالم الطوابق العليا، وما إن وطأت قدمي أوّل عتبة حتى توقّفتُ. إذ بدا لي ذلك الظلام، المتمترس عند نهاية نور الشمس، حالكًا وعصيّ الولوج.

- سيّد كوريلي؟ - ناديتُ.

امّحى صوتي كما لو أنّه اصطدم بكتلة متماسكة، دون أن يرجع بارتدادٍ أو صدى. عدتُ إلى الصالة ونظرتُ إلى النقود على الطاولة. مائة ألف فرنك. حملتُها وقدّرتُ وزنها. كانت الأوراق النقديّة تبعث على الملامسة. وضعتُها في

جيبي ومشيتُ مجدّدًا نحو الممرّ الذي يؤدي إلى الخارج. وما لبثتْ عشراتُ الوجوه المصوّرة ترمقني بحدّةٍ وعدٍ ما. فضلّتُ عدم تحدّي تلك النظرات وأكملتُ طريقي. ولكن، قبل بلوغ المخرج، لاحظتُ عدم وجود إحدى الصور الفوتوغرافيّة، كانت قد اختفت بإطارها ولافتتها الصغيرة. شممتُ عبقًا شذيًّا يفوح من بين أصابعي. عطر المال. فتحتُ باب المنزل وخرجتُ إلى وضح النهار. فانغلق الباب بشدّة خلف ظهري. استدرتُ لأنظر إلى تلك الڤيلا، الغامضة والصامتة؛ كم كانت شاذّة عن ضياء ذلك النهار المشرق، ذي السماوات الزرقاء والشمس المشعّة. نظرتُ إلى ساعة يدي، فرأيتُ أنّها تعدّت الواحدة ظهرًا. لقد نمت أكثر من اثنتي عشرة ساعة متواصلة إذن، على أريكة عتيقة، ورغم هذا شعرتُ بأنّي في أفضل حال كما لم أكن كذلك في حياتي كلّها. نزلتُ سفح التلّ للعودة إلى المدينة، ترافقني ابتسامةٌ منقوشة على فمي، ويقينٌ بأنّ الدنيا - للمرّة الأولى منذ عقود، أو ربّما للمرة الأولى في حياتي - تبتسم في وجهي.

الفصل الثاني
النور الأبديّ

1

احتفلتُ بعودتي إلى عالم الأحياء، بالابتهال في أكثر معابد المدينة تأثيرًا: المقرّ الرئيس لمصرف هيسبانو كولونيال في شارع فونتانيلا. حين أظهرتُ المائة ألف فرنك على مرأى مدير المصرف، ومرؤوسيه وذلك الحشد من الموظفين والمحاسبين، أصيب جميعهم بنشوةٍ لا توصف؛ وشرّفوني بالتربّع على المقام المحجوز للزبائن المقدّسين، أصحاب السعادة والفخامة. وبعد أن أنهيتُ مَهمّة المصرف، قرّرتُ التفرّغ لحصانٍ آخر من أحصنة الرؤيا، واتّجهتُ إلى أحد أكشاك ساحة أركيناونا. فتحتُ صحيفة «صوت الصناعة» من نصفها تقريبًا، وبحثتُ عن زاوية الأخبار التي كنت أشغلها ذات يوم. كانت لمسات الدون ڤاسيليو وخبرته ما تزال واضحة على العناوين. تعرّفتُ إلى كلّ الأقلام، كأنّ الزمن لم يمرّ. لقد طغى الترقّب والهدوء الحذر على المدينة، بفضل ستّة أعوام من الدكتاتوريّة المتسامحة التي انتهجها الجنرال بريمو دي ريفيرا، ما سبّب تراجعًا وتهافتًا لصفحات الجرائم. وكانت الجرائد تتحدّث للتوّ عن أنباء انفجارات واشتباكات ناريّة. برشلونة، «زهرة النار» البهيّة، أضحت تشبه قِدْر الضغط أكثر من أيّ شيء آخر. كنت أعيد الجريدة وأسحب الزيادة حين وقعتْ عيني على الخبر. كان لا يعلو عن كونه تعقيبًا موجزًا في زاوية، محشوّة بأربعة أنباء عريضة، في آخر صفحة من أخبار الجرائم.

حريق في الر اڤال عند منتصف الليل

يُسفر عن قتيلٍ وإصابة اثنين بجروح بالغة الخطورة

خوان مارك أوغويت/وكالة. برشلونة

> شبّ حريقٌ كبير، ليلة الجمعة، في 6 ساحة الملائكة، مقرّ دار النشر باريدو وإسكوبياس. لقي مدير الدار، السيّد خوسيه باريدو، مصرعه كما تعرّض شريكه، السيّد خوسيه لويس لوبيز إسكوبياس، لجروحٍ خطيرة، إضافةً إلى الموظّف السيّد رامون غوزمان الذي نال نصيبه من اللهب حين كان يحاول إنقاذ حياة المديرين. يرجّح رجال الإطفاء سبب الحريق إلى اشتعال مادّة كيميائيّة كانت تُستخدم في ترميم المكاتب. لكنّ المحقّقين لا يستبعدون أن يكون متعمّدًا،إذ يؤكّد شهودٌ عيان أنّهم رأوا أحد الرجال يخرج من الدار قبل لحظات من اندلاع الحريق. تمّ إسعاف الضحايا إلى مستشفى كلينك، حيث توفيّ أوّلهم، وما يزال الآخران يعانيان أوضاعًا حرجة.

وصلتُ بأقصى سرعة ممكنة. كانت رائحة الحريق تمتدّ حتى لاس رامبلاس. احتشد الجيران والفضوليّون في فناء المبنى المقابل. وما زالت أعمدة الدخان الأبيض تتصاعد من الركام بجوار المدخل. عرفتُ الكثير من الموظفين في دار النشر، كانوا يحاولون إنقاذ ما تبقّى من بين الأنقاض. طالت النيرانُ العلبَ الضخمة التي تحتوي الكتب، وهشّمت الأثاثَ الذي نُقِل إلى الطريق. اسودّت الواجهةُ وُكسِرت النوافذ. قطعتُ جمع المتلصّصين النظرَ ودخلتُ.

فاجتاحت الرائحة المكثّفة فمي؛ في حين كان بعض الموظفين قد شمّروا عن سواعدهم لانتشال أغراضهم، وسلّموا عليّ برؤوس مطأطأة.

- سيّد مارتين... يا لهول الكارثة! - كانوا يغمغمون.

قطعتُ ما كان مخصّصًا للاستقبال، متّجهًا نحو مكتب باريدو. كان اللهب قد ابتلع السجّاد وحوّل الأثاث إلى هياكل عظمية مفحّمة. هبطت إحدى زوايا السقف المزركش، لتفسح مجالاً لرؤية الضوء المتأتي من الفناء الخلفيّ. وكان الغبار السميك يتموّج في أنحاء المكتب. لم ينجُ من النار بمعجزة إلا كرسيٌّ واحدٌ ظلّ في وسط المكان، تجلس عليه ڤينينو السامّة، وهي تبكي بنظرات متألمة. انحنيتُ قبالتها. عرفتني وابتسمتْ بين دموعها.

- هل أنتِ بخير؟ - سألتُها.

هزّت رأسها بنعم.

- أ تعلم؟ لقد قال لي أنْ أذهب إلى البيت. قال لي إنّ الوقت متأخّر وعليّ أن أستريح لأنّ اليوم سيكون نهار عملٍ طويل. كانوا يُغلقون حسابات الشهر... ولو بقيتُ معهم دقيقة أخرى...

- ما الذي حدث يا هيرمينيا؟

- بقينا نعمل حتى ساعة متأخّرة. وعند منتصف الليل تقريبًا قال لي السيّد باريدو بأنْ أنصرف إلى البيت. وظلّ الناشران بانتظار أحدٍ ما...

- في منتصف الليل؟ من يكون؟

- رجل أجنبيٌّ، حسبما أعتقد. كان يريد مناقشة عرضٍ ما، لا أدري. كنت سأظلّ معهما بكلّ سرور، لو لم يتأخّر الوقت إذ قال لي السيّد باريدو أن...

- هل تذكرين اسم ذلك الرجل يا هيرمينيا؟

نظرتْ إليّ مشدوهة.

- رويتُ كلّ ما أذكره على المحقّق الذي جاء صباح اليوم. سألني عنك.

- المحقق؟ سألك عني؟

- إنّهم يستجوبون الجميع.

- مفهوم.

كانت ڤينينو ترمقني غير واثقة، كما لو كانت تحاول قراءة أفكاري.

- ليسوا متأكّدين من نجاته - أضافت مشيرة إلى إسكوبياس - لقد خسرنا كلّ شيء، الأرشيف والعقود... كلّ شيء. هذه نهاية دار النشر.

- كم يؤسفني ذلك يا هيرمينيا.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة لئيمة ومعوّجة.

- يؤسفك؟ أليس هذا ما كنت تطمح إليه؟

- كيف لك أن تتخيلي شيئًا من هذا النوع؟

رمقتني بنظرةٍ ملؤها الشكّ.

- أنت الآن حرٌّ طليق.

أردت أن أشدّ على ساعدها فإذا بها تنهض وتتراجع للخلف كأنّ حضوري يرعبها.

- هيرمينيا...

- اغرب عن وجهي - قالت.

تركتُها بين الحطام المحروق. وحين خرجتُ، اصطدمتُ بمجموعة من الفتية يلهون بالتنقيب بين الركام. أخرج أحدهم كتابًا من بين الرماد، وعاينه بمزيج من الفضول والتقزّز. كان غلافه محروقًا وحوافّ صفحاته مسوّدًا، لكنّ باقي الكتاب كان سليمًا. ولاحظتُ من الطباعة على ظهره أنّه إحدى حلقات «مدينة الملاعين».

- سيّد مارتين؟

استدرتُ فوجدتُني قبالة ثلاثة رجال، يرتدون ثيابًا رخيصة لا تتوافق مع حرارة الطقس والرطوبة اللزجة. تقدّم أحدهم خطوةً نحوي، ما يشير على كونه أرفعَهم رتبةً، ووجّه إليّ ابتسامة محترمة كأنّه بائعٌ خبير. واكتفى الآخران بالتحديق إليّ بنظرة قاسية، لا حدود لفظاظتها، تنسجم مع بنيتهما وطباعهما المشابهة لمكبسٍ هيدروليكيّ.

- سيّد مارتين، أنا المحقق ڤيكتور غراندس. وهذان زميلاي، العميلان ماركوس وكاستيلو. هلاّ سمحتَ لنا ببضع دقائق من وقتك يا سيّدي؟

- بالطبع - أجبتُ.

كنت أذكر اسم ڤيكتور غراندس منذ تلك الأعوام التي قضيتها في تحرير أخبار الجرائم. وقد كرّس له ڤيدال عدّة مقالات، خطر أحدها في ذهني حيث يلقبّه بجوهرة الشرطة، ويصفه بأنّه ذخرٌ ثمين، وبرهانٌ على إنتاج أجهزة الأمن لجيلٍ جديد من أرقى المحترفين، يتفوّقون على أسلافهم بإرادة صلبة كالفولاذ وعزيمةٍ يستحيل إفسادها. التفخيم والتعظيم لڤيدال، وليس من بنات أفكاري. تخيّلتُ أنّ المحقّق غراندس لم يفعل شيئًا منذئذٍ سوى الترقّي في هرميّات القيادة، وأنّ وجوده هناك يعكس الجدّية التي أوكلها سلكُ الشرطة لحريق دار النشر.

- بإمكاننا الذهاب إلى أحد المقاهي، كي ندردش دون مقاطعةٍ من أحد، إن لم يزعجك ذلك - قال غراندس دون أن تسهو ابتسامته العريضة.

- كما تشاء يا سيّدي.

اقتادني غراندس إلى مقهى صغير عند تقاطع شارع دكتور دو بشارع بينتور فورتوني. كان ماركوس وكاستيلو يمشيان خلفنا دون أن تحيد أنظارهما عني. عرض عليّ غراندس سيجارة، فرفضتُها. أعاد العلبة إلى جيبه، ولم يفتح فمه حتّى وصلنا إلى المقهى، وأجلسني الثلاثة إلى طاولة صغيرة في العمق وأحاطوا بي. ولو استجوبوني في غياهب زنزانة قميئة، لبدا اللقاء أكثر ودّيّة.

- سيّد مارتين، أعتقد أنّك على علمٍ بما حصل ليلة أمس.

- أعرف ما قرأتُه على صفحات الجريدة. وما روته لي ڤينينو السامّة.

- السامّة؟

- المعذرة. أقصد الآنسة هيرمينيا دواسو، سكرتيرة المدير.

تبادل ماركوس وكاستيلو نظرة خارقة. وابتسم غراندس.

- يا له من لقبٍ مثير للاهتمام. قل لي يا سيّد مارتين، أين كنت البارحة ليلاً؟

ما أروع السذاجة!... فوجئتُ بالسؤال.

- إنه سؤال روتينيّ - أوضح غراندس - نحاول معرفة تحرّكات كلّ مَن تربطه صلةٌ بالضحايا في الآونة الأخيرة. موظّفون، موزّعون، أقارب، معارف...

- كنتُ مع أحد الأصدقاء.

وما إن فتحتُ فمي حتّى ندمتُ على ذلك الخيار. لاحظ غراندس الأمر.

- أحد الأصدقاء؟

- ليس صديقًا بالمعنى العامّ، إنّه شخصٌ تربطني به علاقة عمل. ناشر. كان لديّ موعد معه مساء البارحة.

- هلاّ أخبرتني إلى أيّ ساعة بقيتَ مع هذا الشخص؟

- إلى وقت متأخر، حتّى إنّي نمتُ عنده الليلة، في منزله.

- أفهم الأمر. وما اسم الشخص الذي قلتَ إنّ علاقة عملٍ تجمعك به؟

- كوريلي. أندرياس كوريلي. ناشر فرنسيّ.

سجّل غراندس الاسم على دفتر ملاحظات.

- تبدو الكنية إيطاليّة - علّق.

- في الحقيقة، لا أعرف جنسيّته بدقّة.

- مفهوم. وهل بإمكان السيّد كوريلي، أيًّا تكن جنسيّته، أن يؤكّد وجودك عنده ليلة أمس؟

شددتُ كتفيّ.

- أفترض ذلك.

- تفترض؟

- بل أنا واثق. لمَ لا يمكنه تأكيد ذلك؟

- لا أعرف يا سيّد مارتين. هل تجد سببًا قد يمنعه؟

- لا.

- نغلق الملفّ إذن.

كان ماركوس وكاستيلو ينظران إليّ كما لو أنّ كلامي لا يقنعهما إطلاقًا.

- ختامًا، هل يمكنك أن توضّح لي طبيعة لقاء الأمس مع هذا الناشر غامض الجنسيّة؟

- السيّد كوريلي حدّد لي موعدًا كي يقترح عليّ عرضًا ما.

- وما نوع هذا العرض؟

- مِهنيّ.

- أفهم. تأليف كتاب، مثلاً؟

- تمامًا.

- قل لي يا سيّدي، هل أنت معتادٌ على النوم في منزل مَن تلتقي بهم بعد اجتماع عمل؟

- لا.

- ولكنّك قلت لي إنّك نمت في مسكن هذا الناشر.

- كنت أشعر بالإعياء، واستصعبتُ العودة إلى البيت.

- ربّما أثقلتَ بالعشاء؟

- لديّ مشاكل صحيّة مؤخّرًا.

أومأ غراندس بفتور.

- غثيان وصداع... - أكملتُ.

- ولكن بإمكاننا الافتراض أنّك بصحة جيّدة الآن، كما يبدو.

- أجل. أفضل بكثير.

- يسعدني هذا. لا شكّ أنّه يُحسَد على محيّاه، أليس كذلك؟

هزّ كاستيلو وماركوس رأسيهما ببطء.

- من يراك يخمّن بأنّك قد أزحتَ عن كاهلك عبئًا كبيرًا للتوّ - لاحظ المحقق.

- لم أفهم.

- أقصد ما يخصّ نوبات الغثيان والأوجاع.

كان غراندس يقود تلك المسرحيّة، مهيمنًا على توتّر إيقاعها.

- اعذرني على جهلي بتفاصيل أجوائك المهنيّة يا سيّد مارتين؛ ولكن أ لم توقّع عقدًا مع الناشرَين يمتدّ لستّ سنوات أخرى؟

- خمسة.

- ألا يوجب هذا العقد على احتكارك، كما يقال، لصالح دار نشر باريدو وإسكوبياس؟

- هذه كانت الشروط.

- وإذا كان العقد يحظر عليك قبول أيّ عرضٍ من دورٍ منافِسة، فما الذي يدفعك لمناقشته؟

- كانت محادثة بسيطة. ليس أكثر.

- ورغم هذا تحولت إلى سهرةٍ متأخّرة في مسكن هذا السيّد.

- العقد لا يحظر عليّ الحديث مع ناشرين آخرين. ولا أن أقضي الليل خارج البيت. أنا حرٌّ في النوم أينما أشاء، وفي التكلم مع مَن أشاء، عن أيّ موضوعٍ أشاء.

- بلا شكّ. لم أقصد التلميح إلى عكس ذلك. وأشكرك على توضيح هذه النقطة.

- هل ثمّة شيء آخر يحتاج لتوضيح؟

- تفصيلٌ صغير فقط. إذا سلّمنا بوفاة المرحوم السيّد باريدو، وافترضنا أنّ حالة السيد إسكوبياس أودت به إلى الموت أيضًا، لا قدّر الله، فقد تُغلق دارُ النشر ويُلغى عقدك معها. أليس كذلك؟

- لست متأكدًا. لم أطلّع على القانون الداخليّ للدار.

- أليس من الوارد أن تسير الأمور هكذا، برأيك؟

- احتمال. ينبغي أن توجّه هذا السؤال إلى محامي الناشرَين.

- بالفعل، لقد سألتُه عن هذا. وقد أكّد لي أنّه إذا وقع ما لا يرغب أحدٌ في وقوعه، وانتقل السيد إسكوبياس إلى جنان الخلد، فإنّ الأمور ستسير هكذا.

- لقد حصلتَ على الإجابة إذن.

- كما حصلتَ أنت على حريّتك المطلقة في التعاقد مع السيّد...

- كوريلي.

- قل لي، هل وافقتَ على عرضه؟

- هلاّ أخبرتني حضرتك، ما شأن هذا بأسباب الحريق؟ - رفعتُ نبرتي.

- لا شيء. محض فضول.

- هل أنهيتَ ما عندك؟ - سألتُ.

نظر غراندس إلى زميليه ثم إليّ.

- من جانبي، أجل.

هممتُ بالنهوض. وظلّ رجال الشرطة في أماكنهم، لا يتزحزحون.

- سيّد مارتين، قبل أن أنسى - قال غراندس - هل تؤكّد لي، إن كنتَ تذكر، زيارة السيّد باريدو والسيّد إسكوبياس، منذ أسبوع، إلى بيتك، في 30 شارع فلاساديرس، بصحبة المحامي آنف الذكر؟

- أجل.

- هل كانت الزيارة شخصيّة أم تتعلق بالأعمال؟

- لقد جاء الناشران للتعبير عن رغبتهما في أن أعود إلى العمل على سلسلةٍ من الكتب، كنّا قد وضعناها جانبًا عدّة أشهر، ريثما أنجز عملاً آخر.

- هل تصف المحادثة التي جرت بينكم بأنّها هادئة ووديّة؟

- لا أذكر أنّ أحدًا رفع صوته.

- ولا تذكر أنّك أجبتهم، أقتبس حرفيًا: «ستكون أنت وشريكك الغبيّ في عداد الموتى، قبل أن ينقضي الأسبوع»؟ دون أن ترفع صوتك طبعًا.

تنهّدتُ.

- أجل - اعترفتُ.

- وماذا كنت تقصد؟

- كنت غاضبًا، ولفظتُ أوّل جملة خطرت في بالي يا سيادة المحقّق. هذا لا يعني أنّي كنت أتكلّم جدّيًا. أحيانًا نقول أشياء لا نفكّر فيها.

- شكرًا على صراحتك يا سيّد مارتين. لقد قدّمتَ لنا خدمة جليلة. طاب يومك.

انصرفتُ، ونظراتهم الحادّة كالخناجر تطعن ظهري. ورغم صدقي في الإجابة على كلّ أسئلة المحقق، لم أكن أشعر بأنّي في قفص الاتهام، مثلما شعرتُ حينها.

2

سبّب لي اللقاء بفيكتور غراندس، وزوج البسلسيق[7] اللذين يجرّهما وراءه كحماية شخصية، مذاقًا كريهًا في فمي، لم يدم أطول من دقائق. فقد أبهرني جسدي خلال السير حقًا: كنت أشعر بالقوّة والعنفوان؛ لا أوجاع تراودني، لا غثيان يحاصرني؛ لا أزيز يوسوس في أذنيّ، لا عذاب ينخر دماغي؛ لا إرهاق يثبّط همّتي، ولا أتصبّب عرقًا باردًا. لم تعد تستبدّ بي أيّ ذكرى عن موتٍ محتوم، كادت تخنقني قبل أقلّ من أربع وعشرين ساعة. كانت نفسي تحدّثني بأنّ لا بدّ للمأساة التي وقعت تلك الليلة، بما فيها وفاة باريدو ورحيل إسكوبياس المحتمَل، أن تملأ قلبي لوعة وحسرة؛ لكنّي لم أشعر بأيّ شيء يؤنّب ضميري، الذي كان يختال فرحًا بحيادٍ لذيذ. كانت ساحات لاس رامبلاس، في ذلك الصباح من شهر يوليو، تبتهج باحتفال، وكنت أنا الأمير السعيد.

خلال نزهتي، وجدتُ نفسي قريبًا من أنحاء سانتا آنا، أفكّر بزيارة مفاجئة للسيّد سيمبيري. حين دخلتُ إلى المكتبة، كان سيمبيري الأب خلف المصطبة، يراجع الحسابات؛ بينما كان ابنه يتسلّق أحد السلالم ليرتّب الرفوف. وحين رآني بائع الكتب، وجّه إليّ ابتسامة موقّرة فأدركتُ أنه لم يعرفني للوهلة الأولى. وسرعان ما غابت الابتسامة عن وجهه، وفتح فمه مصعوقًا وهو يلتفّ حول المصطبة ليعانقني.

- مارتين؟ أهذا أنت؟ يا سيّدتنا العذراء... لم أعرفك! كنتُ قلقًا بشأنك. لقد ذهبنا إلى بيتك أكثر من مرّة، لكنّك لم تفتح الباب. سألتُ عنك في المستشفيات ومخافر الشرطة.

ظلّ ابنه ينظر إليّ مشدوهًا من أعلى السلّم. تذكّرتُ أنّهما رآني قبل أسبوع في حالة لا أحسَد عليها، كأنّي من سكّان حجرة الموتى في الإقليم الخامس.

- يؤسفني أنّي سبّبتُ لكما قلقًا. لقد تغيّبتُ عدّة أيّام لأسباب مهنيّة.

- وبعد؟ سمعتَ نصيحتي وذهبتَ إلى طبيب، أليس كذلك؟

أومأتُ برأسي.

- كان أمرًا تافهًا. مشاكل في الضغط. تناولتُ منشّطًا لعدّة أيّام وعدتُ كأنّي جديد.

- قل لي ما اسم هذا المنشط، لعلّي أستحمّ به... كم أنا سعيدٌ ومسرورٌ لرؤيتك معافى!

تبدّدت الغبطة سرعان ما حلّت علينا خبريّة اليوم.

- هل سمعت بما جرى لباريدو وإسكوبياس؟ - سألني بائع الكتب.

- إنّي آتٍ من هناك. لا أجرؤ على تصديق ما حصل.

- من كان يتوقّع ذلك؟! لم أكن أستلطفهما بصراحة، لكنّي لم أكن لأتمنّى لهما هذه النهاية... أخبرْني، ما تداعيات الحادث عليك، من الناحية القانونية؟ اعذرني على فجاجة السؤال.

- لا أعرف، في الحقيقة. أعتقد أنّ الشريكين هما أصحاب المؤسسة. أتصوّر أنّ لديهما وَرَثَة، ولكن قد تُحلّ المؤسسة إذا توفّي كلاهما. وهذا ما قد يلغي العقد بيننا أيضًا. أظنّ ذلك على الأقلّ.

- ما يعني أنّك حرٌّ، إن مات إسكوبياس أيضًا، لا قدّر الله.

أومأتُ مؤكدًا.

- يا لها من ورطة... - غمغم البائع.

- فلينفّذ الربّ مشيئته - ارتجلتُ.

هزّ رأسه، لكنّي لاحظتُ أنّ الحادثة تؤرّق أعصابه، وكان يفضّل تغيير الموضوع.

- على أيّ حال. من حسن حظّي أنّك أتيت إلى هنا، إذ كنت أودّ أن أطلب منك معروفًا.

- اعتبرْه محققًا!

- أنوّه لك بأنّه قد لا يعجبك.

- إن أعجبني لم يعد معروفًا، بل واجبًا يسعدني. وإن كان الأمر يخصّك فهو كذلك فعلاً.

- في الواقع، لا يخصّني. سأحدّثك بشأنه، وتقرّر بنفسك. بلا إحراج، موافق؟

استند سيمبيري إلى المصطبة، واتخذ تعبيرًا يليق بقصّ الأحجيات الممتعة، يذكّرني بالكثير من ذكريات الطفولة المتعلقة بذلك المحلّ.

- إنّه يخصّ فتاة صغيرة، تدعى إيزابيلا. عمرها سبعة عشر عامًا، على ما أعتقد. خارقة الذكاء، مثل الجوع. تأتي إلى هنا دومًا. أعيرها الكتب. وتقول إنّها تودّ أن تصبح كاتبة.

- هذه القصّة تذكّرني بشخص ما - ألمحتُ.

- الحال إنّها تركتْ لديّ إحدى أقاصيصها منذ أسبوع. لا تتجاوز العشرين صفحة، أو ثلاثين. وطلبتْ رأيي.

- وما كان رأيك؟

أخفض سيمبيري نبرته كما لو أنه يودّ البوح بأسرار دعوى قضائية.

- إنّها عظيمة. أفضل من تسعة وتسعين بالمائة من تلك التفاهات المنشورة خلال العشرين عامًا الأخيرة.

- أتمنّى أنّ تكون قد شملتني بالواحد بالمائة، وإلا شعر غروري بإهانةٍ وطعنة غادرة.

- هذا ما كنت أقصده تمامًا. إيزابيلا تعبدك.

- تعبدني؟ أنا؟

- أجل. أنت بالنسبة إليها مثل عذراء مونتسيرات ويسوع الطفل في الآن ذاته. لقد قرأتْ «مدينة الملاعين» عشر مرّات، وحين أعطيتها «خطوات السماء» قالت إنّها لو حالفها الحظّ في تأليف كتابٍ كهذا، بوسعها أن تموت مطمئنّة البال.

- هذا يشعرني بفخٍّ ما.

- كنت أعلم أنّك ستفلت منه.

- لن أفلت منه. لم تقل لي ما هو المعروف.

- لك أن تتخيّل.

تنهّدتُ. تلمّظ سيمبيري لسانه.

- قلت لك إنّه قد لا يعجبك.

- اطلبْ مني أيّ شيء آخر!

- ما عليك سوى التكلّم إليها. وتحفيزها ومدّها بالنصائح... أن تصغي إليها، أو تقرأ شيئًا من تأليفها وترشدها. لن يكلّفك الكثير. فعقل هذه الفتاة أسرع من طلقة نارية. ستعجبك حدّ الجنون. ستصبحان صديقين. وبإمكانها أن تعمل عندك كمساعِدة.

- لستُ بحاجة لمساعِدة. فما بالك إن كانت غريبة.

- هراء. ثمّ إنّها ليست غريبة، أنت تعرفها مسبقًا. أو هكذا تؤكّد هي، على الأقلّ. تدّعي أنّها تعرفك منذ سنوات، لكنّك قد لا تذكرها. ويبدو أنّ والديها الساذجيَن مقتنعان بأنّ ولعها بالأدب سيودي بها إلى الجحيم، أو إلى عنوسة علمانيّة. وكانا يخطّطان لإرسالها إلى ديرٍ ما، أو تزويجها من أحد الحمقى، الذي سيجعلها تنجب ثمانية أولاد ويدفنها بين القِدر والمقلاة. وإن لم تفعل أنت شيئًا لإنقاذها، كأنّك ارتكبتَ جريمة.

- لا تهوّل الأمور يا سيّد سيمبيري.

- اسمع؛ لم أكن لأطلب منك ذلك، لأنّي أعرف أنّ نزعتك الغيرية تساوي رشاقتك في رقصة الساردانا. لكنّي، كلّما رأيتُ الفتاة تدخل إلى هنا، وتنظر إليّ بعينين تلمعان ذكاءً واندفاعًا، فكّرتُ بمصيرها الذي ينتظرها، وانفطر قلبي حسرةً عليها. لم يبق عندي ما أعلّمه لها. إنّها تتعلم بسرعة خارقة يا مارتين. ولا تذكّرني إلاّ بك حين كنتَ يافعًا.

تنهّدتُ.

- ما اسمها؟

- جسبرت. إيزابيلا جسبرت.

- لا أعرفها. لم أسمع باسمها من قبل. لقد كذبتُ عليك.

هزّ بائع الكتب رأسه.

- إيزابيلا أكّدت أنّك ستجيب هكذا تمامًا.

- يا لها من موهوبة، وبارعة في التكهّن أيضًا. وماذا قالت لك غير ذلك؟

- إنّها تظنّ أنّ مارتين الكاتب أفضل بكثير من مارتين الإنسان.

- ما أغلاها، إيزابيلا الصغيرة!

- هل تسمح لي بأن أدعوها لزيارتك؟ بدون إحراج.

أومأتُ مستسلمًا. فابتسم سيمبيري ابتسامة الظافرين وأراد أن يثبّت العقد بعناقٍ دافئ، لكنّي لذت بالفرار قبل أن يكمل العجوز مَهمّته ويقنعني بشهامتي.

- لن تندم يا مارتين - سمعتُه يقول وأنا أخرج.

3

فوجئتُ بوجود المحقق ڤيكتور غراندس جالسًا عند عتبات بوّابة بيتي، يتذوّق سيجارة بكلّ هدوء. وما إن رآني حتّى سارع إلى تلك الابتسامة اللطيفة، كممثّل استعراضي، كما لو أنّه صديق قديم جاء بزيارة وديّة. جلستُ بجانبه فقدّم إليّ علبة السجائر مفتوحةً. سجائر جيتان. سحبتُ إحداها.

- وأين هانسل وغرتل[8]؟

- لم يستطع ماركوس وكاستيلو المجيء. خلال الاستراحة، توجّب عليهما اصطحاب أحد معارفنا القدماء إلى بويبلو سيكو. لعلّه بحاجة إلى القليل من الإيهام كي ينعش ذاكرته.

- يا له من شيطان مسكين!

- لو قلتُ لهما إنّي قادمٌ إليك لأتيا راكضيَن. إنّهما يعتبرانك شخصًا لطيفًا.

- صعقة حبّ لا ريب فيها. لاحظتُ ذلك. بم أخدمك أيها المحقّق؟ هل تفضّل فنجان قهوة في الأعلى؟

- لا أجرؤ على اقتحام خلوتك يا سيّد مارتين. في الواقع، ما جئتُ إلا لأبثّ عليك الخبر شخصيًا، كي تكون أوّل العارفين به؟

- أيّ خبر؟

- إسكوبياس توفيّ، أوّل هذا المساء، في المستشفى.

- يا إلهي! لم أكن أعرف - قلت.

أبدى المحقّق حياديّته وظلّ يدخّن بصمت.

- كان ذلك متوقّعًا. ماذا بوسعنا أن نفعل؟

- هل استطعت أن تكتشف شيئًا عن أسباب الحريق يا سيادة المحقّق؟ - سألته.

نظر إليّ طويلاً ثم أومأ برأسه.

- كلّ التحريّات تشير إلى أنّ أحدًا ما رشّ الوقود على السيد باريدو وأضرم به النار. توالدت ألسنة اللهب حين انتابه الهلع وحاول الهروب من مكتبه. هرع شريكه والموظف الآخر لإنقاذه، فالتهمتهما النيران في طريقها.

مضغتُ ريقًا. ابتسم غراندس مهدّئًا.

- أخبرني محاميهما، قبل قليل، بخصوص التزامك كما ينصّ العقد الموقّع معهما. سيُلغى العقد كليًّا بوفاتهما، حتّى لو بقيت حقوقُ أعمالك المنشورة بيد الوَرَثَة. أفترض أنّه سيبعث لك رسالة ليُعلِمك بهذا، لكنّي فكرتُ بأنّك قد تكون متلهّفًا لمعرفة الأمر بأقصى سرعة، في حال أردتَ اتخاذ قرارٍ حول عرض ذلك الناشر الذي حدّثتني عنه.

- شكرًا.

- بالخدمة!

أنهى غراندس سيجارته ورمى العقب أرضًا. ابتسم بألفةٍ، ونهض. ربّت على كتفي وابتعد باتجاه شارع برنسيسا.

- سيّدي المحقق؟ - ناديتُه.

توقّف غراندس واستدار.

- لن تفكّر حضرتك بأنّي...

رماني المحقق بابتسامةٍ كئيبة ومتعَبة.

- انتبهْ لنفسك يا مارتين.

ذهبتُ للنوم باكرًا واستيقظتُ على حين غرّة. خلتُ أنّنا أصبحنا في اليوم التالي، لأكتشف أنّ الساعة لم تتجاوز منتصف الليل إلا قليلاً.

كنت قد رأيتُ باريدو وإسكوبياس في المنام، محبوسيَن في مكتبهما. وألسنة اللهب تصعد على بذلتيهما لتغطّي كلّ شبرٍ من جسمهما. كان جِلدهما يتساقط من تحت الثياب، قطعة قطعة، في حين تنفجر عيناهما المرتعدة بسبب النار. كانا يرتعشان، متشنّجيَن من الرعب والعذاب، إلى أن وقعا بين الحطام، ولحمُ جسمهما ينقشع عن العظام، كشمعٍ أسود سائلٍ، يستحيل بركةً قاتمة يتصاعد منها الدخان عند قدميّ، وانعكاس وجهي المتبسّم يطفو على سطحها، لينطفئ بنفخة عود ثقاب أحمله بين أصابعي.

نهضتُ لأشرب كأسًا من الماء. وحين بتُّ على قناعةٍ بأنّ قطار النعاس قد فاتني، صعدتُ إلى المكتب وأخرجتُ، من دُرج المنضدة، الكتابَ الذي أنقذته من مقبرة الكتب المنسيّة. أضأتُ المصباح، وعدّلتُ ذراعه ليركّز النور على الكتاب تمامًا. فتحتُ أوّل صفحة وشرعتُ بالقراءة.

النور الأبديّ

د. م.

تشكّل انطباعي الأوّل عن الكتاب بأنّه يحتوي مجموعة من النصوص والأدعية التي ليس لها أيّ معنى. كان الكتاب مجرّد حفنة من صفحات المسوّدة الأصليّة، وجلد غلافها سيئ الجودة. تابعتُ القراءة حتى تبيّن لي منهجًا معينًا في تسلسل الأحداث والأناشيد والتأمّلات التي تحشو النصّ. كان للغة وقعٌ خاص. وشيئًا فشيئًا، تكشّف ما

كان في البدء انعدامٌ كاملٌ للأسلوب والبنيان على نشيدٍ منوّمٍ يلج القارئَ، ليغرقه في حالةٍ بين التخدير والهذيان. الأمر ذاته ينطبق على المضمون، الذي لا يتجلّى محورهُ الرئيس جيّدًا إلا حين يتقدّم القارئ في الفصل الأول - أو النشيد - ليكتشف أنّ العمل برمّته مبنيٌّ على طريقة الأشعار القديمة، تلك التي كُتبتْ في حقبةٍ يسري فيها مفهومُ الزمان والمكان بحريّة مطلقة. وهكذا أدركتُ أنّ «النور الأبديّ» عبارةٌ عن كتاب الأموات، إن صحّ التعبير.

وبعد مرور أوّل ثلاثين أو أربعين صفحة من الكتاب، المليئة بمناورات حول كلمات وألغاز لا طائل من ورائها، تبدأ ما يشبه الأحجية الغريبة والمدروسة، بمجموعة من الصلوات والأدعية التي تزداد ريبةً وتوتّرًا. يوصف فيها الموت، بأبياتٍ متفاوتة الوزن، كملاك أبيض أحيانًا، له عينان كعيون الزواحف، ثمّ كطفل مستنير أحيانًا أخرى؛ إلاّ أنّه يتمثّل دومًا كإله أوحد ومهيمن، يتجسّد في الطبيعة والشهوات وفناء الوجود.

وأيًا يكن هذا المؤلف العجائبيّ د. م.، فإنّ الموت في أشعاره ينبسط كدوّامة عاتية وأبديّة. ويتشكّل على الأرضيّة نفسها مزيجٌ بيزنطيٌّ من الإحالات إلى أساطير محدّدة عن الجنان وبوّابات الجحيم. كان د. م. يرى أنّ ثمّة بداية واحدة ونهاية واحدة، وخالقًا واحدًا وجبّارًا يتجلّى بأسماء متعددة كي يشتّت أذهان البشر ويضع نقاط ضعفهم على المحكّ، إلهًا أوحد، ووجهه الحقيقيّ مقسومٌ إلى جزأين: الأوّل عطوف ورحيم، والثاني منتقمٌ وشيطانيّ.

هذا ما استطعتُ استنتاجه، لأنّ الكاتب، بصرف النظر عن تلك المبادئ، يبدو كأنّه أضاع خيط السرد، ومن شبه المستحيل فكّ طلاسم الرموز والصور التي تكتظّ بالنص على شكل رؤىً نبويّة. إذ تنهال أعاصيرٌ من الدماء والنار على المدن والقرى. وتسير جحافلٌ من الجثث المجنّدة على سهولٍ لا حدود لها، لتمحو أيّ أثر للحياة عند مرورها. ويولد الأطفال مشنوقين براياتٍ مهشّمة على مداخل الحصون. وتتعذّب آلافٌ من الأرواح في بحارٍ قاتمة، خالدين في جليد مياهها المسمومة. تتلبّد غيومٌ من رماد، وتتكدّس العظام في المحيطات، وتكتسح أسرابٌ من الحشرات والثعابين الأجسادَ المتعفّنة. تتسلسل الصور الجهنميّة والمثيرة للغثيان إلى ما لانهاية.

وكلّما تصفّحتُ المخطوط شعرتُ بأنّي أتجوّل في ذهنيّةٍ مريضةٍ ومشرّخة. كان الكاتب، دون إرادة مسبقة، يوثّق سقوطه في هاوية الجنون، سطرًا تلو الآخر. أمّا الجزء الثالث والأخير، بدا لي محاولة لإعادة ترتيب الأوراق بالمقلوب، صرخة يائسة من خلف قضبان جنونه، ليخرج من متاهة الدهاليز المحفورة في عقله. ثمّ يموت النصّ عند دعاءٍ غير مكتمل، وبلا ترابطٍ منطقيّ.

وحين وصلتُ إلى ذلك الحدّ، كان جفناي يتلاصقان من النعاس. دخلت من النافذة نسماتٌ عليلة آتية من البحر لتكنس ضباب الأسطح بعيدًا. وقبل أن أغلق الكتاب، انتبهتُ إلى شيءٍ، ما انفكّ يساءلني، متعلق بطباعة الأحرف على المخطوط. عدتُ إلى البداية ورحت أتفحّص النصّ جيّدًا. عثرتُ على أوّل دليل في السطر الخامس. ثم توالت الأدلّة مرّة كلّ سطرين أو ثلاثة. حرف السين كان مميّزًا بميلان طفيف. أخرجتُ ورقة بيضاء من الدُرج وأدخلتُها في اسطوانة الآلة الكاتبة، أندروود، على منضدتي. وكتبتُ جملة لا على التعيين.

ستقرع أجراس سانتا ماريا دل مار.

أخرجتُ الورقة وعاينتها جيدًا تحت نور المصباح: ستُقرع... سانتا ماريّا.

حبستُ أنفاسي. «النور الأبديّ» كُتب على هذه الآلة الكاتبة تحديدًا، كما توقّعتُ، وربّما على هذه المنضدة أيضًا.

4

في صباح اليوم التالي، نزلتُ لتناول الفطور في المقهى المقابل لأبواب سانتا ماريّا دل مار. كان حيّ بورن مكتظًّا بالعربات والناس المتجهين إلى السوق والتجّار والباعة الأحرار يفتحون المحلّات. جلستُ إلى طاولة صغيرة في الخارج وطلبتُ فنجان قهوة بالحليب. بقيتْ نسخةٌ من جريدة «الطليعة» يتيمةً على الطاولة المجاورة، فتبنّيتُها. وبينما كانت نظراتي تنزلق على العناوين والملخّصات، لاحظتُ أنّ أحدًا يصعد العتبات حتّى مدخل الكاتدرائيّة ويجلس على العتبة العليا ويراقبني خلسة. فتاةٌ في السادسة عشر، أو السابعة عشر عامًا من عمرها، تتظاهر بأنّها تدوّن الملاحظات على دفترٍ بينما تسترق النظر إليّ. شربتُ القهوة بالحليب بهدوء. وبعد قليل أشرتُ إلى النادل بأن يقترب.

- أترى تلك الآنسة الجالسة على باب الكنيسة؟ قل لها أن تطلب ما تريد، على نفقتي.

استجاب النادل واتّجه نحوها. وحين رأته يدنو، أوغلت الفتاة رأسها بالدفتر، واتخذت تعبيرًا يوحي بتركيزٍ مفرطٍ سرق منّي ابتسامة. وقف النادل قبالتها وسعل. رفعتْ عينيها عن الدفتر ونظرتْ إليه. وضّح لها الأمر ثم أشار إليّ. توجّست الفتاة ورمتني بنظرة. ألقيتُ عليها التحية رافعًا يدي. احمرّت وجنتاها كجمرتين. نهضتْ واقتربتْ من طاولتي بخطوات متباطئة، وعيناها تحملقان بقدميها.

- أنت إيزابيلا؟ - سألتها.

رفعت الفتاة أنظارها وتنهّدت، حانقة على نفسها.

- كيف عرفتَ ذلك؟ - سألتني.

- حدسٌ خارق - أجبتها.

مدّت يدها فصافحتها بفتور.

- هل يمكنني الجلوس؟ - سألتْ.

وجلست دون أن تنتظر ردّي. وخلال ثلاثين ثانية، غيّرت الفتاة وضعيّتها ستّ مرات على الأقلّ، لتستعيد وضعيّتها الأولى في النهاية. كنت أراقبها بهدوء وإهمالٍ مقصود.

- أنت لا تذكرني يا سيّد مارتين، أليس كذلك؟

- هل عليّ أن أذكرك؟

- لقد جلبتُ لك الأغراض من خان جسبرت، أسبوعيًّا على مدى أعوام.

عادت إلى ذاكرتي صورةُ الطفلة، التي جاءتني بالحاجيّات على مدار ذلك الوقت، وانبسطت الصورة على وجهها اليافع الذي احتدّت زواياه شيئًا فشيئًا، لتصبح إيزابيلا امرأة حلوة القوام، ذات نظرة فولاذيّة.

- أنتِ طفلة البقشيش - قلت مع أنّي لم أذكر الكثير عن تلك الطفلة.

أومأت إيزابيلا.

- لطالما تساءلتُ ما الذي كنت تفعلينه بكلّ تلك الإكراميّات.

- كنت أشتري الكتب من مكتبة سيمبيري وأبناؤه.

- آهٍ لو كنت أعلم...

- إن تسبّبتُ لك بالإزعاج، انصرفتُ.

- لا، مطلقًا. هل تشربين شيئًا؟

رفضت الفتاة.

- السيّد سيمبيري يقول إنّك موهوبة.

شدّت كتفيها، ورمتني بابتسامةٍ ملؤها الشكّ.

- قاعدة عامّة: كلّما كان المرء موهوبًا، شكّ في ذلك - قلت - والعكس صحيح.

- إن كان كذلك، فأنا معجزة - ردّت إيزابيلا.

- مرحبًا بك في النادي إذن. قولي لي، ما الذي بوسعي فعله لأجلك؟

التقطت الفتاة نفسًا عميقًا.

- قال لي السيّد سيمبيري إنّ حضرتك، ربّما، تقرأ ما أكتبه، وتعطيني رأيك وبعض النصائح.

نظرتُ إلى عينيها برهةً لكنّي لم أجبْها. فقاومتْ نظرتي دون أن يرفّ لها رمش.

- أهذا كلّ شيء؟

- لا.

- توقّعتُ ذلك. وما هو البند رقم اثنان؟

تردّدت إيزابيلا قليلاً.

- إن أعجبك ما أكتبه، ورأيتَ أنّي أمتلك المؤهّلات، أودّ أن أطلب منك أن تعيّنني مساعِدتك، لو سمحت.

- وما الذي يجعلك تفترضين أنّي محتاجٌ إلى مساعِدة؟

- أستطيع ترتيب أوراقك، والتنضيد على الآلة الكاتبة، وتصحيح الأخطاء والنواقص...

- أخطاء ونواقص؟

- لم أقصد أنّك ترتكب الأخطاء...

- ما الذي تقصدينه إذن؟

- لا شيء. لكنّ أربع عيون ترى أفضل من اثنتين دومًا. كما بوسعي الاهتمام بالمراسلات، وعنونة الرسائل. وقد أعاونك في البحث عن توثيق. ثمّ إنّي بارعةٌ في الطبخ وبوسعي...

- هل تطلبين منّي فرصة عمل كمساعِدة أم طبّاخة؟

- أطلب منك فرصة.

طأطأت إيزابيلا رأسها. لم أتمكّن من كتمان ابتسامتي. بدا لي ذلك المخلوق الغريب لطيفًا، رغمًا عن أنفي.

- فلنفعل هكذا. آتيني بأفضل عشرين صفحة كتبتِها، تلك التي ترينها أفضل ما وصلتِ إليه. عشرون صفحة فقط، لن أفكر حتّى بقراءة المزيد. أعاينها بتمهّلٍ، ثمّ نقرّر وفقًا للنتيجة.

أشرق وجهها، واختفت فجأة ملامحُ الحدّة والترقّب التي كانت تكدّر تعبيرها.

- لن تندم - قالت.

نهضتْ ونظرت إليّ متوترة.

- هل من مشكلة إذا أتيتك بها إلى البيت؟

- اتركيها في صندوق البريد. هل أنهيتِ ماعندك؟

هزّت رأسها مرارًا وتراجعت بتلك الخطوات المتباطئة والمشحونة التي جاءت بها. وقبل أن تلتفّ لتهرب راكضة، ناديتُها.

- إيزابيلا؟

نظرت إليّ مستعطفةً، بنظرةٍ تتّشح اضطّرابًا مباغتًا.

- لماذا أنا بالذات؟ - سألتُها - إيّاكِ أن تجيبي بأنّي كاتبك المفضل. ولا تميلي إلى التملّق الذي نصحكِ به سيمبيري، وإلا كانت هذه أوّل وآخر محادثة بيننا.

ترددت إيزابيلا لبرهة. وجّهتْ إليّ نظرةً عارية، وأجابت ببراءة، دون تعقّل.

- لأنّك الكاتب الوحيد الذي أعرفه.

ابتسمتْ في وجهي مرتبكةً، وانطلقت بدفترها، بخطواتها الحائرة، بصراحتها. راقبتُها وهي تنعطف نحو شارع ميراليرس لتختفي خلف الكاتدرائيّة.

5

بالعودة إلى البيت، بعد حوالي الساعة، وجدتُها جالسة عند عتبات البوّابة، حاملةً بين يديها ما خُيّل إليّ أنه إحدى كتاباتها. نهضت حالما رأتني، وافتعلت ابتسامة.

- قلتُ لك بأن تتركيه في الصندوق.

هزّت إيزابيلا رأسها وشدّت كتفيها.

- أردتُ أن أعبّر لك عن شكري، فأتيتك بقليلٍ من القهوة من محلّ والدي. قهوة كولومبيّة. لذيذة للغاية. لا يضاهيها مذاق. ولم أتمكّن من إدخال الطرد في الصندوق، ففكّرتُ أنّه من الأفضل أن أنتظر عودتك يا سيّدي.

لا يخطر ذلك العذر إلا في بال روائيّةٍ واعدة. تنهّدتُ وفتحتُ الباب.

- ادخلي.

صعدتُ السلالم وإيزابيلا تتبعني بخطوتين، مثل جروٍ صغير.

- هل يستغرق فطورك وقتًا طويلاً؟ الأمر لا يخصّني، مفهوم، لكنّي قلقتُ بشأنك بما أنّي انتظرتك حوالي ثلاثة أرباع الساعة. خشيتُ أن يعترضك حادثٌ مفاجئ. أعني أنّه ليس من المستبعد أن تباغتك زيتونة طائشة، فيقضي القدرُ على مسيرتي الأدبيّة، بعد أن حالفني الحظّ بالتعرّف إلى كاتبٍ بلحمه وعظمه - جرفتني الفتاة بسيل ثرثرتها.

توقّفتُ عند منتصف السلّم، ورمقتُها بكلّ ما أوتيت من قسوةٍ في التعبير.

- إيزابيلا، إن أردنا أن نبقى على وفاق، علينا أن نلتزم بجملة من القواعد المحدّدة. أوّلها، أنّي أنا من يطرح الأسئلة، وأنتِ تجيبين فقط؛ وإذا أفرغتُ ما عندي من أسئلة، لا تطرحين عليّ بمثلها، ولا تستدرجينني إلى نقاشاتٍ عفويّة. ثانيها، أنّي أكرّس الوقت الذي يروق لي في تناول الفطور أو العصريّة أو تأمّل شباك العنكبوت، وهذا لا يشكّل أيّ موضوعٍ للنقاش.

- لم أشأ الإساءة يا سيّدي. أعلم أنّ الهضم البطيء يساعد الإلهام.

- القاعدة الثالثة أنّي لا أغفر الدعابة قبل منتصف النهار. فهمتِ؟

- أجل يا سيّد مارتين.

- الرابعة أنّك لستِ ملزمة بأن تناديني بالسيّد مارتين، حتّى في يوم جنازتي. قد أبدو لك كائنًا حجريًّا، ولكن يطيب لي التوهّم بأنّي ما زلتُ شابًّا. بل إنّي شابٌّ حقًّا، وكفى.

- وكيف عليّ أن أناديك يا سيّدي؟

- باسمي: داڤيد.

وافقت الفتاة. فتحتُ باب البيت وأشرتُ لها بالدخول. تردّدت إيزابيلا برهةً ثمّ انسلّت بقفزة موفّقة.

- أعتقد أنّك ما تزال تتمتع بمظهرٍ شبابيّ بما فيه الكفاية، بالنسبة إلى سنّك يا داڤيد.

نظرتُ إليها مصعوقًا.

- كم تتوقّعين عمري؟

ركّزت إيزابيلا النظر من رأسي حتى قدميّ، وهي تقيّم.

- في الثلاثينيّات، تقريبًا؟ بل هذا واضح برأيي. أليس كذلك؟

- اسدي إليّ معروفًا وحافظي على سكوتك. واملأي الإبريق بهذه الخلطة التي أتيتِ بها.

- أين المطبخ؟

- ابحثي عنه.

شربنا من تلك القهوة الكولومبيّة اللذيذة في الصالة. كانت إيزابيلا تمسك بالكوب الثقيل وتنظر إليّ خلسة بينما أقرأ العشرين صفحة التي جاءتني بها. وكلّما قلبتُ صفحة ورفعتُ أنظاري، اصطدمتُ بنظراتها المليئة بالتوقّعات.

- إن بقيتِ هناك تنظرين إليّ مثل البوم، سأستغرق وقتًا أطول.

- ماذا تريدني أن أفعل؟

- أما كنتِ تريدين أن تصبحي مساعِدتي؟ ساعديني إذن. ابحثي عن أيّ شيء بحاجة إلى ترتيب، ورتّبيه، مثلاً.

نظرت إيزابيلا حولها.

- كلّ شيء بحاجة إلى ترتيب.

- فانتهزي الفرصة إذن.

أذعنتْ وانطلقتْ نحو الفوضى وعدم النظام الذي يهيمن على بيتي بحزمٍ عسكريّ. سمعتُ خطواتها تبتعد في الممرّ، فتابعتُ القراءة. كانت قصّتها بلا حبكة تقريبًا. مجرّد توصيف، مفرطٍ في الحساسيّة والكلمات السليمة، لمشاعر الغياب التي تمرّ في ذهن مراهِقةٍ تقبع في عليّة باردة من حيّ ريبيرا، حيث تتأمّل المدينة والناس في مجيئهم وذهابهم عبْر الأزقّة الضيّقة والمعتمة. البطلة تقضي الساعات حبيسة عالمها، وأحيانًا تضع نفسها قبالة المرآة وتهمّ في خدش ذراعيها وفخذيها بزجاجة مكسورة، لتخلّف جروحًا كتلك التي تتراءى من تحت كمّي إيزابيلا. كنت أشرف على النهاية حين انتبهتُ أنّها تراقبني من باب الصالة.

- ما بكِ؟

- المعذرة على المقاطعة، ما الذي يوجد في الغرفة في آخِر الممرّ؟

- لا شيء.

- ثمّة رائحة غريبة.

- رطوبة.

- بوسعي تنظيفها إن أردت، و...

- لا. تلك الغرفة لا تُستخدم. فضلاً عن كونك لست خادمتي، وليس عليك أن تنظفي شيئًا.

- أردت أن أساعدك وحسب.

- ساعديني بتحضير كوب آخر من القهوة.

- لماذا؟ هل قصّتي تسبّب النعاس؟

- كم الساعة يا إيزابيلا؟

- العاشرة ربّما.

- وماذا يعني هذا؟

- لا دعابة قبل منتصف النهار - ردّت.

ابتسمتُ منتصرًا وأعطيتها الكوب الفارغ. أخذته وانطلقتْ نحو المطبخ.

وحين عادت بالقهوة الساخنة، كنت قد أنهيت الصفحة الأخيرة. جلست إيزابيلا قبالتي. ابتسمتُ لها وتذوّقتُ القهوة الشهيّة بهدوء. كانت الفتاة تحكّ يديها وتشدّ على أسنانها، وتصوّب نظراتٍ متوجّسةً إلى أوراق قصّتها على الطاولة. قاومتْ دقيقتين كاملتين دون أن تفتح فمها.

- ما رأيك؟ - قالت في النهاية.

- عظيمة.

أشرق وجهها.

- قصّتي؟

- القهوة.

رمتني بنظرةٍ جريحة، ونهضتْ لتجمع أوراقها.

- اتركيها حيث هي - أمرتُها.

- لماذا؟ من الواضح أنّها لم تنل إعجابك، وأنّك لا تراني سوى مغفّلة مسكينة.

- لم أقل هذا.

- لم تقل شيئًا، وهذا أسوأ ما في الأمر.

- إيزابيلا، إن أردتِ أن تكتبي حقًا، أو أن يقرؤكِ الآخرون على الأقلّ، لا بدّ أن تعتادي على أنّهم يتجاهلونكِ أحيانًا، وقد يسيؤون إليك، ويزدرونكِ، ويُبدون عدم اهتمامهم بك طوال الوقت تقريبًا. هذه إحدى مزايا مهنة الكتابة.

أخفضت إيزابيلا أنظارها والتقطت نفسًا عميقًا.

- لا أدري إن كنت موهوبة حقًا. لست متأكّدة إلا من أنّي أحبّ الكتابة، أو أنّي بحاجة للكتابة بالأحرى.

- تكذبين.

رفعتْ عينيها ونظرت إليّ بقسوة.

- جيّد جدًا. لديّ موهبة. ولا يعنيني أبدًا إن رأيتني عكس ذلك.

ابتسمتُ.

- هذا يعجبني أكثر. ولم يعد أمامي سوى أن أوافقكِ الرأي.

نظرت إليّ محتارة.

- توافقني على أنّي موهوبة أم على أنّك تراني عكس ذلك؟

- ما الذي يبدو لك؟

- هل تعتقد أنّ لديّ بعض المؤهّلات؟

- أعتقد أنّكِ تتمتّعين بالموهبة والحماس يا إيزابيلا، أكثر ممّا تظنّين وأقلّ ممّا تتوقّعين. ولكن هناك ما لا يحصى من أصحاب الموهبة والحماس، ومعظمهم لا يحقّق مراده أبدًا. هذه ليست سوى البداية لتفعلي شيئًا ما في حياتكِ. إنّ الموهبة الطبيعيّة تشبه قوة الرياضيّين. قد يولد المرء بقدرات كبرى أو صغرى، ولكن لا يصبح أحدٌ رياضيًّا لأنّه قويٌّ أو سريعٌ أو طويل القامة. ما يصنع الرياضيّ، أو الفنّان، هو العمل والمهنة والتقنيّة. وما الذكاء الفطريّ سوى ذخيرة رصاص؛ وكي نستفيد منها لا بدّ أن نحوّل العقل إلى بندقية قنص.

- ولماذا هذه المقارنة الحربيّة؟

- لأنّ أيّ عملٍ فنيّ عدائيٌّ بطبيعته، يا إيزابيلا. وما حياة الفنّان سوى حرب، سواءً أكانت صغيرة أم كبيرة، بدءًا من تلك التي يخوضها مع نفسه ومحدوديّاته. إذا أردنا بلوغ أيّ هدف، علينا أن نتسلّح بالطموح، ثم الموهبة،

فالمعرفة، والفرصة السانحة أخيرًا.

قيّمت إيزابيلا كلامي.

- هل تستعرض هذا الخطاب أمام الجميع، أم أنّه وليد أفكارك للتوّ؟

- هذا ليس كلامي. لقد استعرضه أمامي، على حدّ وصفك، أحدُهم بعد أن طرحتُ عليه الأسئلة نفسها التي تطرحينها عليّ الآن. حدث هذا منذ أعوام بعيدة، وما مرّ يومٌ إلاّ وأدركتُ كم كان محقًّا.

- هل بإمكاني أن أصبح مساعِدتك إذن؟

- سأفكّر في الأمر.

وافقت إيزابيلا راضية. كانت تجلس إلى إحدى زوايا الطاولة التي تركتْ عليها كريستينا ألبوم صورها. فتحتْه لا على التعيين، على الصفحة الأخيرة، وظلّت تنظر إلى وجه مَن باتت السيّدة ڤيدال مؤخّرًا، وهي تقف عند مدخل ڤيلا هيليوس، قبل عامين أو ثلاثة. أغلقت إيزابيلا الألبوم ومسحت الصالةَ بنظراتها، حتّى هبطتْ عليّ مجدّدًا. كنت أراقبها بنفاد صبر. ابتسمتْ بارتباك كما لو أنّي فاجئتُها تشبع فضولها حيث لا يجدر بها.

- خطيبتك جميلة جدًا - قالت.

رميتُها بنظرةٍ مسحت ابتسامتها على الفور.

- ليست خطيبتي.

- آه.

خيّم صمتٌ طويل.

- أتخيّل أنّ القاعدة الخامسة تنصّ على أن لا أحشر أنفي في أمورٍ لا تخصّني.

لم أردّ. أذعنتْ إيزابيلا في سرّها، ونهضتْ.

- حسنًا، اليومَ، من الأفضل أن أدَعَك في سلام، وألاّ أزعجك أكثر. سأعود غدًا كي نبدأ، إن كان هذا يناسبك.

جمعتْ أوراقها وابتسمتْ لي بحياء. فأشرتُ ملمّحًا لموافقتي.

ودّعتني باحترام واختفت في الممرّ. سمعتُ خطواتها تبتعد، ثم صرير الباب يُغلق. في غيابها، لاحظتُ للمرّة الأولى حجم الصمت الهائل الذي كان يخنق ذلك البيت.

6

ربّما بسبب الإفراط في الكافيين الذي تمادى في عروقي، أو بسبب الوعي الذي كان يحاول النهوض ثانية كالنور من بين الظلمات؛ قضّيتُ طيلة الصباح وأنا أحوم حول فكرةٍ لا تبعث على الارتياح إطلاقًا. إذ كان من غير المنطقيّ تجاهل الرابط ما بين الحريق الذي أهلك باريدو وإسكوبياس من جهة، وبين عرض كوريلي الذي غابت أخباره من جهة أخرى، وبين المخطوط الغريب الذي انتشلتُه من مقبرة الكتب المنسيّة، ما دمتُ أعتقد بأنّه كُتِب بين تلك الجدران الأربعة.

لم أكن أفضّل التوجّه، بلا دعوة، إلى منزل أندرياس كوريلي، لأسأله عن مصادفة لقائنا والحريق، والتزامن بينهما تقريبًا. كان حدسي يقول لي بأنّ ذلك الناشر هو الذي يملك زمام المبادرة، وهو الذي يحدّد المواعيد بيننا، ولا ينبغي بي استعجال لقائه المرتقب أبدًا. فالتحقيق حول الحريق بات بين يدَي المحقّق ڤيكتور غراندس، وكلبيه الضاريين ماركوس وكاستيلو، وهذا ما يرفعني إلى أعلى مراتب الشرف، إن كنتُ من بين المفضّلين في قوائمهم. بل سأحسن صنعًا كلّما تجنّبتُهم. وهكذا، لم يبق أمامي سوى البحث عن علاقة المخطوط ببيت البرج. كم كرّرتُ في السابق أنّ انتقالي للسكن فيه لم يكن اعتباطيًّا، لكنّ الفكرة حينها اتخذت مسلكًا مغايرًا كليًّا.

قرّرتُ الشروع من المكان الذي عزلتُ فيه معظم الأشياء والأغراض الشخصيّة التي تركها سكّان البيت القدماء. حصلتُ على مفتاح الغرفة في آخِر الممرّ من أحد أدراج المطبخ، ولا بدّ أنّ المفتاح بقي فيه أعوامًا طويلة. لم أكن قد دخلتُ تلك الغرفة منذ أن أوصل عمّال المؤسسّة الكهربائيّة الشبكة. حين أدخلتُ المفتاح في القفل، أحسستُ بتيّار هواءٍ باردٍ ينساب على أصابعي، متدفّقًا من الثقب. وتبيّنتُ بأنّ إيزابيلا كانت محقّة، فالغرفة تغصّ برائحة غريبة، توحي بأزهار فاسدة وأرض مهزوزة.

فتحتُ الباب ووضعتُ يدي على وجهي. كانت الرائحة الكريهة مكثّفة. تلمّستُ الجدار بحثًا عن قاطع الإضاءة، لكنّ المصباح العاري المعلّق في السقف لم يعمل. والنور الآتي من الممرّ يكشف عن هوامش كومةٍ من الصناديق والكتب والعلب التي عزلتُها بنفسي هناك منذ سنوات. تمعّنتُ في الأغراض، باشمئزاز. كان الجدار قبالتي محجوبًا بخزانة كبيرة من خشبٍ السنديان. جلستُ القرفصاء عند صندوقٍ يحتوي صورًا قديمة ونظّاراتٍ وساعاتٍ وأغراضًا شخصيّة صغيرة. رحتُ أنبش فيها دون أن أعرف عمّا كنت أبحث. وسرعان ما أقلعتُ عن ذلك والتقطتُ أنفاسي. فإن كنت أتمنّى اكتشاف شيءٍ ما حقًّا، يجدر بي تدبير خطّة مُحكمة. وبينما كنت أخرج من الغرفة، شعرتُ بدفّة الخزانة تنفتح على رسلها خلف ظهري، لتخرج أنفاسها الباردة والرطبة وتلامس رقبتي. استدرتُ ببطء. كانت الدفّة مواربة، تكشف عن ملابس عتيقة معلّقة على المشاجب، وقد عفا عليها الزمن، تتمايل مثل الطحالب تحت المياه. استنتجتُ أنّ تيّار الهواء البارد، الذي يجري برائحة نتنة، كان آتيًا من هناك. نهضتُ واقتربتُ بحذرٍ من

الخزانة. فتحتُها على مصراعيها، ورحت أنبش بيديّ بين الثياب المعلّقة. كان الخشب الخلفيّ مفتتًا، وقد وقعت أجزاءٌ منه. في الخلف، لاحظتُ وجود جدارٍ من الجصّ، فيه ثقبٌ مفتوحٌ بقطر سنتمترين. انحنيتُ لأسترق النظر من خلاله إلى الجانب الآخر، لكنّ الظلام كان دامسًا. وليس بوسع الضياء الواهن، الآتي من الممرّ، والمتغلغل في الثقب، إلاّ أن يعرض سراب نورٍ غباريّ في الجانب الآخر، ليولّد انطباعًا بأنّ الجدار يخفي أجواءً مبهمة. دنوتُ بعيني، محاولاً تلقّف صورة عن الجانب الآخر، فإذا بعنكبوت أسود يباغتني بالخروج من الثقب. جفلتُ متراجعًا، فسارع العنكبوت للتسلّق إلى داخل الخزانة واختفى في الظلّ. أغلقتُ دفّتيها وخرجتُ من الغرفة. واستللتُ المفتاح وخبّأتُه في أوّل دُرج من طاولة الحائط في الممرّ. أحسستُ بأنّ الرائحة النتنة، المنبعثة من تلك الغرفة، تتبعثر في أرجاء الممرّ مثل السمّ. فجدّفتُ باللحظة التي خطر في بالي أن أفتح ذلك الباب، وخرجتُ آملاً أن أتناسى هذا الغموض، الذي ينبض في قلب البيت، ولو لسويعاتٍ قليلة.

الأفكار السيّئة تأتي دفعة واحدة دومًا. احتفالاً باكتشاف ما يشبه الغرفة الملغّزة في بيتي، ذهبتُ إلى مكتبة سيمبيري وأبناؤه، لعلّي أدعو بائع الكتب إلى الغداء في مطعم ميزون دوريه. كان سيمبيري الأب يقرأ «المخطوط المدفون في سرقسطة»، لجان بوتستكي، بطبعة فاخرة، ولم يشأ حتّى النقاش حول الدعوة.

- لستُ مضطّرًا لدفع المال، كي أرى المتعجرفين والغُنَّج، يستمتعون بأجوائهم الخاصّة ويتبادلون التهاني، يا مارتين.

- لا تكن شكّاءً بكّاءً. الوليمة على نفقتي.

هزّ سيمبيري رأسه. كان ابنه يشاهد المحادثة من عتبة المستودع، وينظر إليّ متردّدًا.

- هل من مشكلة إن اصطحبتُ ابنك؟ هل تقطع علاقتك بي؟

- قرّرا بنفسيكما كيف تهدران الوقت والمال. أمّا أنا سأبقى للقراءة، لأنّ الحياة قصيرة.

كان سيمبيري الابن أيقونة عن الحياء والرزانة. ورغم معرفتي به منذ الصغر، لا أذكر أنّي احتككتُ به في أكثر من محادثتين أو ثلاثة بمفردنا، لا تتعدّى أطولها خمس دقائق. لا يبدو لي أنّه كان صاحب نزوات وخطايا صغيرة. وقد عرفتُ من مصدرٍ موثوق بأنّ فتيات الحيّ يعتبرنه الشابّ الوسيم بلا منازع، والأعزب الذهبيّ. وحدث أنّ أكثر من فتاة جاءت إلى المكتبة بذرائع متعدّدة، وتوقّفت عند المصطبة، ولمّحت بتنهيداتها، لكنّه لم يكن يبادر لإغلاق تلك الشفاه المولعة، حتّى لو انتبه إليها. ولو وُضِع أيُّ شابٍ في مكانه، وأعطِي عشرة بالمائة ممّا وُهِب له، لعاش سِيَرًا غراميّة عظيمة. حتّى إنّ بعضهم كانوا ليغامروا في منح سيمبيري الابن صفة القداسة.

- إذا بقي هكذا، سيقتصر دوره على المتفرّج الأحمق في الحفلات - كان سيمبيري يشتكي.

- هل حاولت أن تدسّ له قليلاً من الفليفلة في الحساء، لتحفيز الريّ في أعضائه الحسّاسة؟ - كنت أسأله.

- اضحك واسخر أيها الوغد. فأنا أقارب السبعين عامًا وليس لديّ حفيدٌ لعين.

استقبلنا كبير النُدُل، نفسه الذي أذكره من زيارتي الأخيرة، لكنّه أحجم عن ابتسامته السخيّة ومراسم الترحيب. حين أخبرته بأنّي لم أحجز مسبقًا، عبّر بتكشيرة احتقارٍ وطقطق أصابعه لينبّه النادل. اقتادنا الأخير على مضض إلى ما تصوّرتُها أسوأ طاولة في الصالة، محاذية لباب المطابخ، ومدفونة في زاوية مظلمة وكثيرة الجلبة. ولم يقترب أحدٌ منّا خلال خمسة وعشرين دقيقة، حتّى إنّهم لم يقدّموا لنا لائحة الطعام ولم يسكبوا لنا كأس ماء. كان النُدُل يذهبون ويجيئون، ويصْفقون باب المطبخ، متجاهلين وجودنا، وإشاراتنا للفت الانتباه، كليًّا.

- هل هذا يعني أنّه علينا الانصراف؟ - فتح ابن سيمبيري فمه أخيرًا - لا بأس عندي بفطيرةٍ في أيّ مكان...

وما لبث ينهي جملته حتّى رأيتُهما يظهران. ڤيذال وعقيلته؛ يتوجّهان نحو طاولتهما، ويتقدّمهما كبير النُدُل، ونادلان آخران يغرقانهما بالتهاني والمباركات. بعد دقيقتين، حلّ فصل تقبيل اليد، إذ يقترب الحاضرون من السيّد ڤيذال لتهنئته. كان يستقبلهم بسماحةٍ إلهيّة ويصرفهم بعد حين. وسيمبيري الابن يراقبني عن كثَب، وقد انتبه للحالة.

- هل أنت بخير يا مارتين؟ لماذا لا ننصرف عن هذا المكان؟

أذعنتُ ببطء. نهضنا واتّجهنا نحو المخرج، بالمشي من الطرف الآخر لطاولة ڤيذال. مررنا أمام كبير النُدُل الذي لم يتنازل لنا بتحيّة. وبينما كنّا نصل إلى المَخرج، استرقتُ النظر إلى المرآة فوق إطار الباب، فرأيتُ ڤيذال ينحني ويقبّل شفتَي كريستينا. وحين بتنا في الطريق، وجّه إليّ سيمبيري نظرة مقهورة.

- يؤسفني ما حصل يا مارتين.

- لا عليك. كلّ ما في الأمر أنّ الخيار لم يكن موفّقًا، منذ البداية. هلاّ تكتّمتَ لوالدك...

- اطمئنّ! لن أدلي بأيّ كلمة - أكّد.

- شكرًا.

- لا شكر. ما رأيك بأن أدعوك أنا إلى محلّ أكثر شعبيّة؟ ثمّة حانة خياليّة في حيّ كارمن.

لم يعد لديّ شهيّة، لكنّي استحسنتُ الفكرة بكلّ سرور.

- موافق.

كانت الحانة قرب المكتبة العامّة، وتقدّم لسكّان الحيّ وجباتٍ بأسعار متدنيّة. تذوّقتُ بالكاد بعض ما طلبنا، علمًا بأنّ رائحة الطعام كانت أشهى بألف مرّة من أيّ وجبة شممتُها في ميزون دوريه، منذ افتتاحه. إلاّ أنّي، حين أحضروا الحلويات، كنت قد ازدرتُ بمفردي قنّينة ونصفًا من النبيذ الأحمر، وكان الدوار يسبح في رأسي.

- أوضِحْ لي شيئًا يا سيمبيري. ما مشكلتك مع تحسين النسل؟ كيف لنا أن نفسّر بأنّ مواطنًا شابًّا، يباركه الربّ في عليائه، ويتمتّع بجسدٍ سليمٍ كجسدك، لم يغتنم الفرصة ليستمتع بخيرات الله حتّى الآن؟

ضحك ابن بائع الكتب.

- ما الذي يجعلك تشكّ بأنّي لم أفعلها؟

لمستُ أنفي بسبّابتي، وغمزتُ له بعيني. فأومأ سيمبيري الابن.

- ربّما تحسَبني متزمّتًا، لكنّي أفضّل اعتبار نفسي على مقعد الانتظار.

- ماذا؟ هل ستنتظر حتّى تتعطّل عدّتك؟

- أنت تتحدث مثل والدي.

- الحكماء يتقاسمون الأفكار والكلمات.

- أنا أقصد شيئًا آخر، أليس كذلك؟

- شيءٌ آخر؟

أومأ سيمبيري برأسه.

- وما أدراني؟ - قلت.

- بل أجزم أنّك تعلم.

- أنت تعرف أنّ أباك يستخدمني إذن.

كنت أريد أن أصبّ كأسًا أخرى فصدّني سيمبيري عن ذلك.

- تعقّلْ!

- أترى أنّك متزمّت؟

- كلّ امرئٍ على ما هو عليه حقًّا.

- هذا قابل للعلاج. ما رأيك أن نذهب معًا لنروّح عن أنفسنا قليلاً؟

نظر إليّ سيمبيري بشفقة.

- أرى أنّه من الأفضل أن تذهب إلى البيت لتستريح يا مارتين. غدًا يوم جديد.

- لن تخبر والدك بأنّي ثملتُ، أليس كذلك؟

على طريق البيت، توقّفتُ عند سبع خمّاراتٍ على الأقلّ، كي أتذوّق أفخر مدّخراتها، إلى أن يطردوني خارجًا، بحجّةٍ أو بأخرى؛ ثمّ أتسكّع مائة متر أو مائتين، بحثًا عن ميناء خمْرٍ جديد أرسو فيه. لم أكن ذوّاقة كحول قدير، ولم يشرف الليل إلاّ وأنا ثملٌ حتّى لم أعد أذكر أين أسكن. أنهضني نادلان، كلّ من ذراع، يعملان في نزل أمبوس موندوس، في الساحة الملكيّة، وقذفوني على أحد المقاعد قبالة النافورة، حيث سقطتُ في نعاسٍ كثيفٍ ومظلم.

حلمتُ بأنّي ذاهبٌ إلى جنازة الدون پيدرو. كانت السماء النازفة تشدّ خناقها على متاهة الصلبان والملائكة المحيطة بالمدفن الكبير لآل ڤيذال في مقبرة مونتويك. هنالك قافلةٌ صامتة من الأحجبة السوداء تطوّق المدرج الرخاميّ المغبرّ عند أعتاب المدفن. كلّ فردٍ يحمل شمعة بيضاء، ليضيء مجموعُها أحدَ جوانب ملاكٍ كبير، يتحسّر من الألم والفقدان على قاعدةٍ رخاميّة، تعتلي قبر مُرشدي، الراقد في نعشٍ زجاجيّ. جثمان ڤيذال ملفوف ببذلة بيضاء، وعيناه مفتوحتان، والدموع السوداء تنهمر على خدّيه. وأرملته، كريستينا، بمعزلٍ عن الحشد، جاثية على ركبتيها قرب النعش المبلّل بالبكاء. مرّ أفراد القافلة، واحدًا واحدًا، أمام المتوفّى، ووضعوا ورودًا سوداء على نعشه الزجاجيّ حتّى غطّت الجسد كلّه، ما عدا الوجه. ثمّ أنزل حفّارا القبور - اللذان لا وجه لهما - النعش في القبر؛ وبدا قاع اللحد يتموّج بسائلٍ لزجٍ وداكن اللون. كان النعش يطفو على امتداد تلك الدماء التي تتسرّب من منافذ الإيصاد. غاص النعش رويدًا رويدًا، وغطّت الدماء جثّة ڤيذال. وقبل أن يغرق وجهه، حرّك مُرشدي عينيه ونظر إليّ. فنهض سربٌ من الطيور السوداء محلقًا، وهممتُ بالركض كي أتوه في دروب مدينة الموتى الفسيحة. حتّى استطاع بكاءٌ بعيدٌ أن يقودني نحو المَخرج، فتحاشيتُ الشكاوى والتوسّلات التي صاحت بها مئاتُ الظلال وهي تعترض طريقي، وترجوني أن أخرِجها معي وأخلّصها من ذلك الظلام الأبديّ.

أيقظني اثنانٌ من الحرس، وهما يضربان ساقيّ بالهراوة. كان قد حلّ الليل، وفي البدء لم أفهم إن كانا من الشرطة المدنيّة أم من ملائكة الموت في مَهمّة خاصّة.

- هيّا أيّها الشابّ. اذهب وتقيّأ الكحول في بيتك. هل فهمت؟

- تحت أمرك أيّها الكولونيل.

- بسرعة وإلا أدخلتك الزنزانة، لنرى حينها إن كنت تتمتع بحسّ الدعابة.

لم يكرّر كلامه مرّتين. نهضتُ بشقّ الأنفس، وترنّحتُ نحو البيت آملاً أن أصل قبل أن تقودني خطواتي إلى خمّارة قذرة مجدّدًا. كانت الرحلة، في الظروف العادية، تستغرق منّي عشرة أو خمس عشرة دقيقة؛ لكنّها امتدّت ثلاثة أضعاف حينها. حتّى وصلتُ إلى بوّابة البيت بمعجزة؛ وكما لو أنّ لعنةً حلّت عليّ، وجدتُ إيزابيلا جالسة، في فناء المدخل هذه المرّة، بانتظاري.

- أنت ثمل - قالت.

- لا بدّ أنّي كذلك. وإلاّ كيف لي أن أجدك نائمة في منتصف الليل تحت بيتي؟!

- لم أجد مكانًا آخر ألجأ إليه. تشاجرتُ مع أبي فطردني من المنزل.

أغمضتُ عينيّ والتقطتُ نفسًا. عجز دماغي، المخمور باللوعة والكحول، أن يضع شكلاً معيّنًا لموجة التنديد واللعنات التي وصلتْ إلى شفتيّ.

- لا يمكنكِ البقاء هنا يا إيزابيلا.

- أرجوك. هذه الليلة فقط. سأبحث عن نزلٍ في الغد. أتوسل إليك يا سيّد مارتين.

- لا تنظري إليّ بهاتين العينين كحمل مذبوح - هدّدتُها.

- ثم إنّي على قارعة الطريق بسببك.

- بسببي؟ هذه فكرة جيّدة فعلاً. لستُ واثقًا من موهبتك في الكتابة، لكنّ خيالك خصب جدًّا. وهل لي أن أعرف ما ذنبي أنا إن رماك والدك المبجّل في الشارع، ولأيّ سببٍ ملعون؟

- عندما تكون ثملاً، تتكلم بطريقة غريبة.

- لستُ ثملاً. لم أكن ثملاً أبدًا في حياتي كلّها. أجيبي عن السؤال.

- قلتُ لأبي إنّك عيّنتني عندك كمساعِدة، واعتبارًا من الآن سأتفرّغ للأدب، ولم يعد بوسعي العمل في المحلّ.

- ماذا؟!

- هل بوسعنا الدخول؟ أشعر بالبرد، ومؤخّرتي تجمّدت لطول جلوسي على السلالم.

شعرتُ بدوارٍ في رأسي، وتملّكني الغثيان. رفعتُ عينيّ نحو السراب الخافت المتراقص تحت نور المصباح، عند أعلى السلّم.

- أهذا هو العقاب الذي تنزله عليّ السماء كي أتوب عن حياتي المنحلّة؟

تابعتْ إيزابيلا نظرتي بارتباك.

- مع من تتكلم؟

- لا أتكلم مع أحد. هذا مونولوج. موهبة السكارى. لكنّي سأتكلّم مع أبيك، سأذهب إليه في الصباح الباكر، لنضع حدًّا لهذا العبث.

- لست واثقة من أنّها فكرة سديدة. لقد أقسم أنّه سيقتلك ما إن يلتقي بك. لديه بندقيّة بقصبتين، يخبّئها تحت المصطبة. هذه طباعه. ذات مرّة، قتل حمارًا، خلال الصيف قرب أرختنونا...

- اخرسي! وإيّاك أن تتفوّهي بأيّ كلمة أخرى. سكوت!

أذعنتْ إيزابيلا وظلت تنظر إليّ وتنتظر. رحت أبحث عن المفتاح، ففي تلك اللحظة كنت عاجزًا عن تحدّي ثرثرة تلك النابغة المراهِقة البليغة. كنت بحاجة للغطس في السرير، لعلّي أفقد الوعي، بهذا الترتيب لو أمكن. بحثتُ لمدّة دقيقتين بلا جدوى. وفي النهاية، دنت مني إيزابيلا، دون أن تقول شيئًا، ودسّت يدها في الجيب الذي نبشتُ فيه مائة مرّة، فوجدت المفتاح. وحين أرتني إيّاه، أومأتُ مقهورًا.

فتحت إيزابيلا الباب وساعدتني على التوازن. اقتادتني حتّى غرفة النوم كأنّي معاق وأعانتني على الاستلقاء. رتّبت الوسائد تحت رأسي ونزعت حذائي. نظرتُ إليها مشتّت الذهن.

- اطمئنّ، لن أنزع بنطالك.

فكّت أزرار ياقة القميص، وجلست بقربي ترنو إليّ. ابتسمت بلؤم لا يتوافق مع صغر سنّها.

- لم أرك حزينًا هكذا من قبل يا سيّد مارتين. هل بسبب تلك المرأة؟ تلك التي في الصورة.

أمسكتْ يدي وداعبتْها لتهدّئ من روعي.

- كلّ شيء سيمضي، اسمع مني. كلّ شيء سيمضي.

اغرورقت عيناي بالدموع، رغمًا عني. والتففتُ كي لا ترى وجهي. أطفأت إيزابيلا القنديل على الدُرج، وظلت جالسة بقربي تحت الظلام، تسمع نحيب ذلك الخائب السكران، دون أن تطرح أسئلة أو تُصدر حكمًا، ولم تبادرْ سوى بأنسها وطيبة قلبها، حتّى غفوتُ.

7

أيقظتني أوجاع ما بعد السكرة، بضغطٍ يُثقل على صدغيّ، إضافةً إلى رائحة القهوة الكولومبيّة. وضعت إيزابيلا، قرب السرير، طاولةً صغيرة تحمل إبريق القهوة، التي حضّرتْها للتوّ، وطبقًا من الخبز، والجبن، واللحم المجفّف، وتفاحة. وما إن رأيتُ الطعام حتّى راودني الغثيان، لكنّي مددتُ يدي نحو إبريق القهوة. لم أنتبه إلى أنّ إيزابيلا تراقبني من عند العتبة، حتّى سبقتني وصبّت لي في الكوب، بابتسامة مشرقة.

- اشربها هكذا، لذيذة ومكثّفة، ستشعرك بأحسن حال.

أخذتُ منها الكوب وشربتُ.

- كم الساعة؟

- الواحدة.

تأفّفتُ تلقائيًّا.

- متى استيقظتِ؟

- في السابعة تقريبًا.

- وماذا فعلتِ؟

- نظّفتُ ورتّبتُ. لكنّ البيت يحتاج إلى شهورٍ من التنظيف - ردّت إيزابيلا.

شربتُ رشفة طويلة أخرى من القهوة.

- شكرًا - غمغمتُ - على القهوة. ولأنّك نظّفتِ ورتّبتِ، ولكن ما من سببٍ يدفعك لذلك.

- لا أفعل هذا لأجلك، إن كان هذا ما يقلقك. بل أفعله لأجلي. فإن توجّب عليّ العيش هنا، أفضّل أن لا يطالني الدبق إذا ما اتكأتُ إلى شيء ما بالخطأ...

- تعيشين هنا؟ ظننتُ أنّنا تكلّمنا...

رفعتُ نبرة صوتي، فإذا بشرخة ألمٍ تمزّق كلماتي وأفكاري.

- ششششش - همستْ إيزابيلا.

رضختُ مستسلمًا. في تلك اللحظة لم أستطع، ولم أشأ، النقاش معها. بعد أن تزول أوجاع الثمالة، سيتسنّى لي الوقت لإرجاعها إلى حضن عائلتها. أفرغتُ الكوب بالرشفة الثالثة ونهضتُ على مهل. فانفجرتْ خمسة آلامٍ في

رأسي. تأوّهتُ. وكانت إيزابيلا تسند ذراعي.

- لستُ معاقًا. سأنهض بمفردي.

حاولتْ أن تتركني. تقدّمتُ خطوة نحو الممرّ، وكانت تتبعني كظلّي، كما لو أنّها تخشى أن أقع بين لحظة وأخرى. توقّفتُ عند الحمّام.

- هل بإمكاني التبوّل بمفردي؟ - سألتها.

- سدّدْ رميك جيدًا! - تمتمت الفتاة - سأنقل الفطور إلى الصالة.

- لستُ جائعًا.

- لا بدّ أن تأكل شيئًا ما.

- هل أنت مساعِدتي أم والدتي؟

- أقول هذا لصالحك.

أغلقتُ باب الحمّام ولذتُ فيه. وللوهلة الأولى، لم تتأقلم عينيّ على البصر. كان الحمّام يبدو غريبًا، بنظافته ولمعانه. كلّ غرضٍ في محلّه الصحيح. ثمّة قطعة صابون صغيرة وجديدة عند المغسلة، ومناشف نظيفة لم أكن أعرف حتّى أنّها متوفّرة عندي. ناهيك عن العطور الزكيّة.

- يا إلهي - غمغمتُ.

وضعتُ رأسي تحت الصنبور، وانهمرت عليه المياه الباردة لدقيقتين. خرجتُ إلى الممرّ وعرّجتُ ببطء نحو الصالة. إن كان الحمّام غريبًا، فالصالة تنتمي لعالم آخر. لقد نظّفت إيزابيلا الأرضيّة والزجاج، وأزالت الغبار عن الأثاث والأرائك. ما سمح للنور الصافي بولوج زجاج النوافذ، لينقّي الجوّ من رائحة الغبار. كان الفطور بانتظاري على الطاولة، عند الديوان الذي ألبسته الفتاة بطانًا نظيفًا. بدت الرفوف، المليئة بالكتب، في أبهى ترتيب، كما استعادت أواني الكريستال رونقها الشفّاف. سكبت لي إيزابيلا كوبًا ثانيًا من القهوة.

- أفهم ما تفعلين، لن يجدي هذا نفعًا - قلت.

- أن أصبّ كوبًا من القهوة؟

رتّبت إيزابيلا الكتب المبعثرة على الطاولات وبين الزوايا. فرّغتْ سلّة المجلاّت الطافحة بالأوراق منذ أكثر من عقدٍ كامل. وفي غضون سبع ساعات، أزالت غبار أعوام طويلة من السراب والظلمات، بحضورها وحسمها، ومازال لديها الوقت والرغبة في التبسّم.

- كان المكان يعجبني أكثر، قبل أن تضعي يدك - قلت.

- طبعًا. وكان يعجب مائة ألف من الصراصير، الذين يشاركونك السكن، وقد طردتُهم بالكلور وتغيير الأجواء.

- وما هذه الرائحة الكريهة؟

- هذه رائحة النظافة - اعترضت إيزابيلا - القليل من العرفان لا ينقص من قَدْرك.

- إنّي ممتنّ.

- لا ألاحظ هذا. غدًا، سأصعد إلى المكتب و...

- إيّاك أن تفكّري مجرّد تفكيرٍ في هذا.

أبدت إيزابيلا عدم اكتراثها لكنّ نظرتها ظلّت حازمة، ففهمتُ أنّ مكتب البرج لن يقاوم التبدّلات، التي ستطرأ عليه بعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة.

- عمومًا، هذا الصباح وجدتُ ظرفًا في البهو. أحدهم دسّه من تحت الباب، هذه الليلة.

نظرتُ إليها من فوق الكوب.

- لكنّ البوّابة في الأسفل مقفلة - قلت.

- كنت أحسَب هذا أنا أيضًا. بل والحقّ يقال إنّي استغربتُ الأمر، مع أنّ اسمك كان...

- فتحتِ الظرف.

- أخشى أن يؤسفك هذا. دون قصد.

- النبش في مراسلات الآخرين ليس دليلاً على تربية صالحة يا إيزابيلا. وفي مكانٍ آخر، يُعدّ جريمةً يُعاقب عليها القانون بالسجن.

- لطالما أخبرتُ أمّي بذلك، فهي تفتح كلّ رسائلي. لكنّها ما تزال حرّة طليقة.

- أين الرسالة؟

أخرجت إيزابيلا الظرفَ من جيب مئزرها، الذي كانت قد لبستْه، وأعطته لي متحاشية نظراتي. كانت حوافّه مسنّنة، والورق سميكًا، كثير المسام، ذا لونٍ عاجيّ بدمغة الشمع الأحمر على شكل الملاك؛ واسمي مكتوبٌ بحبرٍ قرمزيّ ومعطّر. فتحتُه وأخرجتُ الرسالة.

داڤيد المحترم

أتمنّى أن تكون بصحةٍ وعافية، وأنّك استطعتَ إيداع المبلغ، المتّفق عليه، بلا عوائق. هل يطيب لك أن نلتقي هذا المساء في بيتي، كي نناقش تفاصيل مشروعنا؟ أدعوك لعشاءٍ خفيف حوالي العاشرة. بانتظارك.

صديقك

طويتُ الورقة وأعدتُها إلى الظرف. كانت إيزابيلا تنظر إلي بترقّب.

- أخبارٌ سارّة؟

- لا شيء يعنيكِ.

- من هو السيد كوريلي؟ خطّه جميلٌ جدًا، ليس كخطّك.

نظرتُ إليها بقسوة.

- أعتقد أنّه لا بدّ أن أطّلع على علاقاتكَ، إن أصبحتُ مساعِدتك. أقصد إن أمرتَني بطرد أحدهم، بطريقة محترمة، فلنفترض!

تنهّدتُ.

- إنّه ناشر.

- لا بدّ أنّه ناشرٌ ممتاز. انظرْ إلى ورق الظرف والرسالة... ما الكتاب الذي تؤلّفه له؟

- لا يعنيك.

- كيف أعمل عندك كمساعِدة ولا تخبرني بما تعمل؟ حسنًا، من الأفضل أن ألتزم الصمت.

والتزمتْ إيزابيلا الصمت لمدّة عشر ثوانٍ، بقدرة قادر.

- ما صفات السيّد كوريلي؟

نظرتُ إليها بفتور.

- مميّز.

- الله يخلقهم... ولن أضيف شيئًا آخر.

رمقتُ تلك الفتاة، ذات الروح النبيلة، ففهمتُ أنّ اللؤم يحاصرني. من الأفضل لكلينا أن أبعدها عنّي، بأسرع وقتٍ ممكن، حتّى لو جرحتُ عواطفها.

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- سأخرج هذا المساء يا إيزابيلا.

- هل أحضّر لك شيئًا على العشاء؟ هل ستعود متأخرًا؟

- سأتناول العشاء في الخارج، ولا أعلم متى أعود. ولكن، أيًا كانت الساعة، لا أريد أن أجدك هنا. ستجمعين أغراضك وترحلين. إلى أين... لا يهمّني. لا مكان لك هنا. مفهوم؟

شحب وجهها واغرورقت عيناها. عضّت شفتيها، وابتسمت والدموع تحفر خدّيها.

- إنّي عبءٌ عليك... مفهوم.

- ولا تنظّفي أيّ شيء بعد!

نهضتُ وتركتُها بمفردها في الصالة. ولجأتُ إلى مكتب البرج. فتحتُ النوافذ. كان عويل إيزابيلا يصل حتّى الطابق الأعلى. تأمّلتُ المدينة مستلقيةً تحت شمس الظهيرة، وصوّبتُ نظرتي نحو المدى الآخر، حيث ظننتُ أنّي أرى قرميد ڤيلا هيليوس اللامع، وأتخيّل كريستينا، السيّدة ڤيدال، عند أعلى نوافذ البرج الكبير، ترنو نحو ريبيرا. كدّر شيءٌ مبهمٌ صفاء قلبي. نسيتُ بكاء إيزابيلا، وتمنّيتُ أن يحين اللقاء بكوريلي سريعًا، كي نتحدّث عن كتابه الملعون.

بقيتُ في مكتب البرج حتّى تغلغل الغروب في المدينة، كالدماء في المياه. كان الطقس حارًّا، أكثر من أيّ يومٍ صيفيّ؛ وبدت أسطح حيّ ريبيرا وكأنّها ترتجف مثل سراب البخار. نزلتُ وغيّرتُ ملابسي. كان البيت هادئًا، ودفّات نوافذ الصالة مواربة، والزجاج معشّقٌ بالضياء القرمزّي الذي يمتدّ إلى الممرّ الرئيس.

- إيزابيلا؟ - ناديتُ.

لم يردْني جواب. أطللتُ برأسي إلى الصالة، وتحقّقت من أنّها رحلت. لكنّها قبل الرحيل، رتّبت مرّة أخرى، ولمّعت مجموعة الأعمال الكاملة لإغناثيوس ب. سامسون، التي تراكم عليها غبار الإهمال لسنواتٍ في خزانةٍ زجاجيّة، كانت تلمع بدورها حينذاك. تركتِ الفتاةُ أحد الكتب مفتوحًا على مسندة القراءة. قرأتُ سطرًا لا على التعيين، وبدا لي أنّي أسافر نحو زمانٍ خليٍّ كان فيه كلّ شيء يتّسم بالبساطة والضرورة في آنٍ واحد.

«الشعرُ يُكتَب بالدموع، والروايةُ بالدماء، والتاريخُ بفقاعات الصابون - قال الكاردينال، وهو يشحذ نصل سكّينه بالسمّ تحت نور الشمعدان.»

أرغمتني السذاجة المدروسة، في تلك الجملة، على الابتسام. وأحيت في صدري هاجسًا، خلتُه قد هجرني: ربّما كان من صالح الجميع، وصالحي تحديدًا، لو لم ينتحر إغناثيوس ب. سامسون ويشغل داڤيد مارتين مكانه.

8

خرجتُ عند هبوط الليل. وكان سكّان الحيّ قد ضاقوا ذرعًا بالرطوبة وارتفاع الحرارة حتّى حملوا الكراسي إلى الشارع، تيّمنًا بالقليل من النسائم المنعشة. تجنّبتُ التجمّعات أمام البوّابات وزوايا الطريق، وعرّجتُ نحو محطة فرنسا، لعلّي أجد سيارة أجرة. فركبتُ أوّل سيارة مركونة في الصفّ الطويل. واستغرق منّا عبور وسط المدينة قرابة العشرين دقيقة، لنصعد منحنى التلّ، حيث غابة الأشباح التي شيّدها غاودي. كانت أضواء ڤيلا كوريلي واضحة من مسافة بعيدة.

- لم أكن أعلم أنّ أحدًا يسكن هذا المكان - علّق السائق.

وما إن دفعتُ له الأجرة، مشمولة الإكراميّة، حتّى لم يدّخر ثانية للهرب بعيدًا، بأقصى سرعة. انتظرتُ عدّة دقائق قبل أن أطرق الباب، أتذوّق ذلك الصمت المريب الذي يهيمن على المكان. لم تتحرّك في الغابة، التي تغطّي التلّ خلفي، سوى ورقة يابسة. السماء مدجّجة بالنجوم وخطوط السحُب التي تمتدّ في كلّ الاتجاهات. حتّى إنّي سمعتُ أنفاسي وحفيف ثيابي، وأنا أمشي بخطواتٍ تدنو بي من الباب. قرعتُ الجرس وانتظرتُ.

انفتح الباب بعد عدّة لحظات. فظهر رجلٌ، مرهَق النظرات ومتعَب الكتفين، وأشار إليّ بالدخول. كانت ثيابه توحي بأنّه كبير الخدم أو راعي شؤون المنزل. لم ينبس ببنت شفة. تبعتُه في الممرّ الذي سكن ذاكرتي باحتضانه صورًا معلّقة على جدرانه. وفسح لي المجال لدخول الصالة الكبرى في نهاية الممرّ، التي تُشرف على المدينة البعيدة. انحنى بإجلالٍ وتركني وحيدًا لينصرف بنفس البطء الذي جاء به. اقتربتُ من النوافذ الكبيرة ونظرتُ من بين الستائر كي أجاري الوقت في انتظار كوريلي. ولم تمض عشر دقائق حين لاحظتُ وجود أحدٍ يراقبني من إحدى زوايا الصالة. كان جالسًا، بلا حراك، على أريكةٍ بين الظلّ ونور قنديلٍ، بالكاد يكشف عن ساقيه وذراعيه الموثقتين إلى مِسند الأريكة. عرفتُه من بريق عينيه اللتين لا ترفّان أبدًا، ومن انعكاس النور على وسام الملاك الذي ما انفكّ يحمله على عروة سترته. وما إن ركّزتُ أنظاري إليه حتّى نهض واقترب بخطوات سريعة، سريعة جدًا، وابتسامة ذئبٍ جمّدت الدماءَ في عروقي.

- مساء الخير يا مارتين.

أومأتُ برأسي، محاولاً الإجابة على ابتسامته.

- هل أفزعتُكَ مرّة أخرى؟ - قال - أنا أعتذر. هل أعرض عليك شيئًا نشربه أم تفضّل تناول العشاء مباشرة؟

- في الحقيقة، ليست لديّ شهيّة.

- هذا مردّه ارتفاع الحرارة، بلا شكّ. إن شئتَ، خرجنا إلى الحديقة كي ندردش هناك.

ظهر كبير الخدم الصامت، وسارع إلى فتح الأبواب التي تسوق إلى الحديقة حيث دربٌ محفوفٌ بالشموع، المثبّتة على أطباقٍ صغيرة، يفضي إلى طاولةٍ معدنيّة بيضاء، وعلى جانبيها كرسيّان متقابلان. كان لهيب الشموع يحترق مستقيمًا، بلا أيّ رفرفة. والقمر يضفي ضياءً خافتًا، مائلاً إلى الزرقة. جلستُ، وفعل كوريلي مثلي، بينما كان كبير الخدم يسكب الكأسين من إبريق، تخيّلتُه مليئًا بالنبيذ، أو مشروبٍ روحيّ آخر، لم أكن أعتزم تذوّقه. ثمّ بدا لي كوريلي يزدهر شبابًا تحت ضوء البدر، وملامح وجهه تزداد تقسيمًا. كان يرمقني بتركيزٍ أقرب إلى الشراهة.

- ثمّة ما يقلقك يا مارتين.

- أتوقّع أنّك سمعت بالحريق.

- نهاية مؤسفة لكنّها عادلة من منظورٍ شعريّ.

- هل يبدو لك من العدل أن يموت الرجلان بتلك الطريقة؟

- هل كنت سترضى بطريقة أقلّ دمويّة؟ العدل مشهدٌ زائف، وليس حقيقةً عامّة. لن أتصنّع خيبةً لا أشعر بها، وأعتقد أنّ الأمر ينطبق عليك أيضًا، مهما حاولتَ إظهارها. ولكن، إن أردتَ، وقفنا دقيقة صمت.

- ما من ضرورة.

- أوافقك. فدقيقة الصمت ضروريّة في حال لم نجد شيئًا نقوله. الصمت يجعل من الحمقى حكماءً، لدقيقة واحدة. هل ثمّة شيء آخر يقلقك يا مارتين؟

- يبدو أنّ الشرطة تشكّ بأنّ لي يدًا في ما حصل. لقد سألوني عنك أيضًا.

عبّر كوريلي عن عدم مبالاة.

- من واجب الشرطة أن تقوم بعملها، كما سنقوم نحن بعملنا. ما رأيك أن نقفل الموضوع؟

أومأتُ موافقًا. ابتسم كوريلي.

- منذ قليل، بينما كنت أنتظرك، تذكّرتُ أنّنا، نحن الاثنين، قد علّقنا محادثة بلاغيّة صغيرة. وكلّما سارعنا إلى إنهائها، بلغْنا مرادَنا باكرًا - قال - يطيب لي أنّ أستهلّ بسؤال: ما هو الإيمان بالنسبة إليك؟

تردّدتُ للوهلة الأولى.

- لم أكن متدنيًّا يومًا. بغضّ النظر عن الإيمان من عدمه؛ أنا لديّ شكوك. الشكّ إيماني.

- عبارةٌ رصينة للغاية، وبرجوازيّة أيضًا. ولكن، إذا سدّد اللاعب هدفًا من رمية تماس، لا يربح المباراة. بمَ تعلّل ولادة العقائد، من شتّى الأنواع، وأفولها على مدار التاريخ؟

- لا أعلم. قد أعزو ذلك إلى عوامل اجتماعيّة أو اقتصاديّة أو سياسيّة. حضرتك تتكلّم مع رجلٍ كفّ عن الذهاب إلى المدرسة منذ أن كان في سنّ العاشرة. لا أفقه شيئًا في التاريخ.

- التاريخ هو مزبلة البيولوجيا، يا مارتين.

- ربّما كنتُ متغيّبًا عن المدرسة، حين شرحوا هذه النقطة.

- هذا الدرس لا يُلقّن في القاعات يا مارتين. إنّما نتعلّمه بالعقل وتأمُّل الواقع. ولكن، لا أحد يريد أن يتعلّم هذا، لذا ينبغي بنا تحليله بشكل أفضل كي ننجز عملنا على أتمّ وجه. كلّ مناسبة للقيام بعملٍ ما ناجمةٌ عن إخفاق الآخرين في حلّ مشكلة بسيطة وضروريّة.

- هل نتحدّث عن الأديان أم عن الاقتصاد؟

- اخترْ أنت المصطلح!

- إن فهمتُ جيدًا، حضرتك تفترض بأنّ الإيمان، أي الإيمان بالأساطير أو الأيديولوجيات أو الخرافات الخياليّة، هو من تداعيات علم الأحياء.

- لا أكثر ولا أقلّ.

- لكنّها رؤية عدميّة، لا تناسب ناشر نصوص دينيّة - لاحظتُ.

- بل إنّها رؤية احترافيّة، ومجرّدة من العواطف - حدّد كوريلي - الكائن البشريّ يؤمن كما يتنفّس؛ يؤمن كي يبقى على قيد الحياة.

- هل هذه نظريّتك؟

- هذه ليست نظريّة، إنّما إحصائيّة.

- يخطر في بالي أنّ ثلاثة أرباع الناس على الأقلّ لا يوافقونك هذا الإثبات - أشرتُ.

- بالطبع. لو كانوا يوافقون لما كانوا مؤمنين. الطبيعة تقتضي أن لا يقتنع أحدٌ بما ليس له حاجة إلى الإيمان به.

- أنت ترى أنّ طبيعتنا تحتّم علينا العيش بالأوهام، إذن؟

- البقاء على قيد الحياة، هذا ما تركّز عليه طبيعتنا. الإيمان إجابتُنا الوحيدة على مسائل وجوديّة يصعب تفسيرها: الفراغ الأخلاقيّ الذي نلمسه في الكون؛ حتميّة الموت؛ ألغاز أصل الأشياء أو مغزى وجودنا وغيابنا. إنّها مسائلٌ بدائيّة وبسيطة للغاية، لكنّ حدودنا نفسها تمنعنا من الإجابة عنها بوضوح؛ ولهذا السبب نسعى إلى الإنجاب والتكاثر، كردّة فعل دفاعيّة، كإجابة عاطفيّة. إنّها محض بيولوجيا.

- هذا يعني أنّك ترى كلّ الديانات والعقائد مجرّد تخييل.

- أيُّ تأويل وتفسير للواقع هو مجرّد تخييل. المشكلة، والحال هذه، تكمن في أنّ الإنسان حيوانٌ أخلاقيّ، منفيٌّ في إحدى زوايا كونٍ لا يعترف بالأخلاق، ومحكومٌ بحياة فانية ولا معنى لها سوى في تخليد الدورة الطبيعيّة للحفاظ

على النوع. لذا من المستحيل البقاء في حالةٍ مستديمة من الواقع، بالنسبة إلى الكائن البشريّ على الأقلّ. نحن نقضي جزءًا كبيرًا من حياتنا في الحلم، لاسيّما حين نكون مستيقظين. محض بيولوجيا، كما أسلفتُ.

التقطتُ نفسًا.

- وبعد كلّ هذا، حضرتك تطلب منّي أن أؤلّف خرافةً يخرّ لها المتهوّرون ساجدين، وتقنعهم بأنّهم رأوا نورَ شيءٍ عليهم اعتناقه، والحياة والموت، والقتل أيضًا، في سبيله.

- تمامًا. لا أطلب منك اختراع شيءٍ لم يتمّ اختراعه، بطريقةٍ أو بأخرى، من قبل. لا أطلب منك سوى أن تساعدني في إرواء ظمأ العطاشى.

- عملٌ سَنِيٌّ ونزيه - سخرتُ.

- بل إنّه مشروعٌ تجاريّ بحت. فالطبيعة سوقٌ حُرّةٌ وكبيرة. وما قانون العرض والطلب سوى مسألة جزيئيّات.

- ربّما يجدر بك البحث عن مفكّرٍ لهذا العمل. بمناسبة الحديث عن المسائل التجاريّة والجزيئيّات، أؤكد لك أنّ معظم هؤلاء المفكّرين لم يروا في حياتهم كلّها مائة ألف فرنك في رزمة واحدة؛ وأراهن أنّهم سيوافقون بسرورٍ على بيع ضمائرهم، إن وُجِدتْ، في سبيل جزءٍ زهيد من ذلك المبلغ.

جعلني البريق المعدنيّ في عينيه أشكّ بأنّه سيهديني خطابًا آخر، بحجم الجيب، من خطبه اللاذعة. استحضرتُ المبلغ في حسابي في مصرف هسبانو كولونيال، وقلت لنفسي إنّ مائة ألف فرنك تستحقّ الإصغاء إلى خطبة كنسيّة أو مجموعة من المواعظ.

- المفكّر، في العادة، لا يتميّز بفضل فكره. - حدّد كوريلي - هو من يمنح نفسه ذلك التعريف كمكافأة عن عجزه الطبيعيّ الذي يتضّح في شحّ قدراته. لا يصلح إلا كمضرب مثلٍ في القول المأثور: «قل لي بما تفتخر، أقل لك ما ينقصك». خبزٌ يوميّ، بالمحصّلة. فلطالما قدّم الفاشل نفسه خبيرًا، والظالم رحيمًا، والآثم تقيًّا، والمرابي محسنًا، والخائن وطنيًّا، والمغرور متواضعًا، والسوقيّ لبقًا، والغبيّ مفكّرًا. أكرّر، كلّ شيء من صنع الطبيعة، بغضّ النظر عن كونها الجنيّة التي تغنّى بها الشعراء، هي الأمّ الظالمة والشرهة، المضطرّة لالتهام ما تنجبه من مخلوقاتٍ كي تبقى على قيد الحياة.

استبدّ بي الغثيان بسبب كوريلي وشاعريّته البيولوجيّة المفترسة. كنتُ منزعجًا من الانفعال والغضب المكبوت في كلمات الناشر المشحونة، وتساءلتُ عن وجود شيءٍ واحد، في هذا الكون الفسيح، لا يندرج في قائمة ما يراه عديم القيمة ومثيرًا للاشمئزاز، بما فيه أنا أيضًا.

- أقترح عليك أن تلقي محاضرة حول التوجيه في المدارس والأبرشيّات خلال أحد الشعانين. ستحظى بنجاحٍ فائق.

ضحك كوريلي بفتور.

- لا تغيّر الموضوع! أنا أبحث عن نقيض المفكّر تمامًا، أبحث عن رجلٍ ذكيّ. وقد وجدتُه.

- شكرًا على المجاملة.

- بل إنّي أدفع لك أجرك. وهذه هي المجاملة الوحيدة في هذا العالم القاتل. لا تقبلْ أبدًا أيّ مجاملةٍ ما لم تكن منقوشةً على شيكٍ أبيض. فالمجاملات الفارغة لا تواسي إلاّ مَن يسلّم بها. وما دمتُ أدفع لك أجرك، فأرجو أن تصغي إليّ وتتّبع تعليماتي. صدّقني، ليس لديّ مصلحة في هدر وقتك. وطالما أنّك تتلقّى أجرك مني، فوقتك هو وقتي بالمحصّلة.

كانت نبرته ملطّفة، لكنّ بريق عينيه الفولاذيّ لا يدع مجالاً للشكّ.

- ليس من الضروريّ أن تذكّرني بهذا كلّ خمس دقائق.

- معذرةً على الإلحاح يا صديقي. إن كنتُ أقلب معدتك بهذه الفذلكات، فهذا لأنّي أودّ التخلّص منها بأسرع وقت. ما أريده منك هو الشكل وليس المضمون. فالمضمون يتكرّر باستمرار، وقد تمّ اختراعه منذ أن خُلق الكائن البشريّ، منقوشًا على قلبه كرقم متسلسل. ما أريده منك هو إيجاد وسيلة ذكيّة ومغرية للإجابة عن الأسئلة التي نطرحها جميعًا، وأن تفعل ذلك ابتداءً من قراءتك الشخصيّة عن الروح البشريّة، وأن تضع فنّك وحرفتك على المحكّ. أريدك أن تأتيني بسردٍ يوقظ الروح.

- لا أقلّ من ذلك...

- ولا أكثر.

- حضرتك تتكلّم عن التلاعب بالمشاعر والعواطف. أليس من الأسهل إقناع الناس ببيانٍ عقلانيّ وبسيط وصريح؟

- كلاّ. من المستحيل إجراء حوارٍ عقلانيّ حول المعتقدات والمفاهيم مع شخصٍ لم يكتسبها عن طريق العقل. وهذا ينطبق عن كلامنا حول الله والعِرق والأمجاد الوطنيّة. لذا، أنا محتاجٌ لما هو أقوى من أيّ بيانٍ بلاغيّ بسيط. أنا محتاج لقوّة الفنّ، والإخراج. نحن ندعّي بأنّنا نفهم الأغاني، لكنّ الموسيقى وحدها ما يجعل من كلماتها مفهومة.

حاولتُ ابتلاع ذلك الخليط كلّه دون أن أختنق.

- لا بأس! لقد أنهينا نقاشنا اليوم - أوجز كوريلي - سنأتي إلى الشقّ العمليّ: سنلتقي أنا وأنت كلّ خمسة عشر يومًا تقريبًا. ستحيطني علمًا بالتطوّرات، وتريني ما أنجزتَ. إن كان لديّ مقترحات لبعض التعديلات، سأطلعك عليها حالاً. وسيستمرّ العمل اثنا عشر شهرًا، أو ما لزم من مدّةٍ زمنيّة لإتمامه. عند انتهاء المهلة، ستسلّمني كلّ ما تبقّى، بما فيها التوثيقات، بدون استثناءات، لتكون الحقوق لمالكٍ واحد وهو أنا. لن يظهر اسمك ككاتب، وستلتزم بألاّ تطالبني بهذا بعد التسليم، وألاّ تطلع أحدًا على المشروع المنجَز أو عن شروط هذا الاتفاق، لا أمام الملأ ولا على انفراد. بالمقابل، تحصل أنت على سلفة بقيمة مائة ألف فرنك، وقد حصلتَ عليها من قبل؛ وفي النهاية، إذا سلّمتَ العمل قبل المهلة المحدّدة، ونال استحساني، ستحصل على مكافأة إضافيّة بقيمة خمسين ألف فرنك.

مضغتُ ريقًا. لا يعي المرء حجم الجشع في قلبه حتّى يسمع رنين الدنانير في جيبه.

- ألا تفضّل صياغة عقدٍ مكتوب؟

- اتفاقنا قائمٌ على كلمة الشرف. كلمتك وكلمتي. وقد تبادلنا العهد مسبقًا. الاتفاق المبنيّ على كلمة الشرف غير قابل للفسخ، لأنّه يفسخ مَن أبرمه - قال كوريلي بنبرةٍ أوحت إليّ بأنّه كان من الأفضل لو أمضينا عمومًا على أيّ قطعة ورق، ولو بالدماء - هل لديك شكوك؟

- أجل. لماذا؟

- لم أفهم يا مارتين.

- لماذا تريد هذه المادّة، أو سمّها كما شئت؟ ما الذي تنوي فعله؟

- هل تعاني من أوجاعٍ في الضمير الآن يا مارتين؟

- لعلّك تحسَبني رجلاً بلا مبادئ، لكنّي أفضّل أن أعرف الغاية من وراء مشروعٍ أشارك فيه، لاسيّما إن كان شبيهًا بما تقترحه عليّ. أظنّ أنّه من حقّي طرح هذا السؤال.

ابتسم كوريلي ووضع يده على يدي. فاقشعرّ بدني من ملمسه البارد والناعم، كالمرمر.

- لأنّك تريد أن تعيش.

- هذا يبدو تهديدًا، نوعًا ما.

- إنّه تذكيرٌ بسيط ووديّ لما تعرفه مسبقًا. ستساعدني لأنّك تريد أن تعيش، ولأنّك لا تهتمّ بالثمن أو التبعات. لأنّك منذ مدّة ليست ببعيدة، كان اقترابك من أبواب الموت محقّقًا، أمّا الآن فها أنت تتمتّع بأبديّة مفتوحةٍ أمامك، وفرصة حياة. ستساعدني لأنّك إنسانيّ. ولأنّك مؤمن، حتّى لو فضّلتَ عدم الإقرار بهذا.

أبعدتُ يدي عن يده الممدودة ونظرتُ إليه ينهض عن كرسيّه ويتّجه نحو عمق الحديقة.

- لا تقلق يا مارتين. ستسير الأمور على ما يرام. ثق بي - قال كوريلي بنبرةٍ عذبة ومخدِّرة، كأنّها نبرة أمٍّ عطوف.

- هل بإمكاني الذهاب؟

- بالتأكيد. لن ألزمك بالبقاء أكثر من المطلوب. أمتعتْني المحادثة بيننا. سأتركك الآن تفكّر بكلّ ما تناقشنا حوله. ستتأكّد بنفسك كيف تأتيك الإجابات الحقيقيّة على رسلها، ما إن يمرّ عسر الهضم. فنحن، قبل أن ندخل درب الحياة، نعلم مسبقًا ما الذي سنصادفه خلالها. نحن لا نتعلّم شيئًا مهمًّا في هذه الحياة؛ إنّما نتذكّر ليس إلاّ.

أشار كوريلي إلى كبير الخدم الذي كان ينتظر عند حدود الحديقة.

- ثمّة سيارة ستوصلك إلى المنزل. سنلتقي بعد أسبوعين.

- هنا؟

- سيخبرك الربّ - غمغم وهو يلحس شفتيه، كأنّه قال دعابة ممتعة.

اقترب كبير الخدم وأشار إليّ بأن أتبعه. أومأ كوريلي وجلس ثانية، وهامت نظراته صوب المدينة مجددًا.

9

كانت السيارة، إن صحّت هذه التسمية، تنتظر عند الباب. لم تكن سيارة اعتياديّة، بل تحفة نادرة. خُيّلتْ إليّ كعربةٍ مسحورة، بل أشبه بكاتدرائيّة متحرّكة، قوامها معدن كرومْ، وانحناءاتها تُبرِز أروعَ ما جادت به علوم الصناعة العظيمة. وكلمسةٍ أخيرة، ثمّة شارة ملاكٍ فضيّ على الغطاء الأماميّ، تشبه ما يزيّن جبين السفينة. باختصار: رولز رويز. فتح كبير الخدم لي بابها، وودّعني بتبجيل. ركبتُ في الحُجرة الخلفيّة، لكأنّها غرفةٌ في فندق فخمٍ وليست حُجرة عربة متحرّكة. وما إن جلستُ على المقعد حتّى تحرّكت السيّارة وانطلقتْ نحو أسفل التلّ.

- هل تعرف العنوان؟ - سألتُ السائق.

أجاب بإيماءة طفيفة من خلف الزجاج الفاصل بيننا. كم كان غامض الملامح! اجتزنا برشلونة في صمتٍ جنائزيّ مهيب، تلتزمه تلك العربةُ المعدنيّة التي تلامس الأرض بالكاد. رأيتُ الطرقات والبنايات تتوالى عبْر النافذة، كما لو كانت صخورًا غارقة. وكان منتصف الليل قد انقضى حين قطعت الرولز رويز السوداءُ شارع كوميرثو ودخلت حيّ بورن. ثم توقّفتْ عند مدخل شارع فلاساديرس، إذ كان ضيقًا بما لا يسمح لها بالمرور. نزل السائق وفتح لي الباب منحنيًا بإجلال. أغلق الباب بعد نزولي؛ عاد إلى المركبة دون أن يقول كلمة واحدة. رأيتُه يبتعد حتّى تلاشت تلك الكينونة السوداء في حجابٍ من الظلال. تساءلتُ عمّا فعلتُه، وإذ فضّلتُ عدم البحث عن جوابٍ، مشيتُ نحو البيت، يتملّكني شعورٌ بأنّ العالم بأسره سجنٌ ولا منافذَ للهرب.

دخلتُ إلى البيت وصعدتُ إلى المكتب مباشرة. فتحتُ النوافذ على اتجاهات الريح الأربعة، وتركتُ النسائم المتلظّية تنساب في الغرفة. تراءت لي بعض الوجوه، على أسطح الحيّ، مستلقيةً على الأسرّة والأغطية، في محاولةٍ لاتّقاء القيظ الخانق ومعانقة النعاس. في الأفق البعيد، كانت مداخن المصانع الثلاث الكبيرة في باراليلو تنهض مثل مَحارِق الجثث، تنفث من ذاك الرماد الأبيض الذي يتمدّد فوق برشلونة مثل غبار الزجاج. وفي القرب، ذكّرني تمثال كنيسة الشفقة، النافر عن القبّة، بملاك الرولز رويز المطابق للوسام الفخريّ الذي يضعه كوريلي دومًا على صدره. كنت أشعر بأنّ المدينة، بعد أن بادرها الصمت شهورًا طويلة، عادت تحدّثني وتفشي لي من قصص أسرارها.

وكان حينئذٍ إذ رأيتُها جاثمة على عتبات أحد الأبواب في ذلك النفق المدقع والقذر بين البنايات القديمة في زقاق موسكيس. إيزابيلا. تساءلتُ كم من الوقت لبثتْ هناك، وفكّرتُ بأنّ هذا ليس من شأني. كنت أغلق النافذة، لأذهب إلى المنضدة، حين لاحظتُ أنّها لم تكن وحيدة. ثمّة رجلان آتيان من آخر الزقاق، ويبالغان في الاقتراب منها ببطء. التقطتُ نفسًا عميقًا آملاً ألاّ يولياها اهتمامًا. لكنّهما لم يفعلا. وقف أحدهما من الجانب الآخر ليمنعها من الخروج إلى الشارع. وجثم الثاني أمامها ومدّ يده نحوها. تحرّكتْ إيزابيلا. وسرعان ما انقضّ عليها الرجلان وسمعتُ صراخها.

استغرق مني الوصول إلى هناك حوالي الدقيقة. كان أحدهما قد ثبّت إيزابيلا بذراعه، والثاني يرفع تنّورتها. أمّا وجه الفتاة يرسم تعبيرًا عن الفزع. إذ كان الرجل، الذي ينبش ما بين فخذيها مقهقهًا، يوجّه سكّينه إلى حلقها؛ وقد رأيتُ ثلاثة خيوطٍ دامية تقطر من النصل. نظرتُ حولي. ثمّة صندوقان من الحطام وكومة من البلاط وموادّ البناء المهملة عند الحائط. أمسكتُ بما اتّضح أنّها عصا معدنيّة، غليظة وثقيلة، يبلغ طولها نصف متر. انتبه الرجل ذو السكّين إلى وجودي قبل زميله. فتقدّمتُ خطوة، رافعًا العصا. قفزتْ نظراته من العصا إلى عينيّ، ورأيتُ ابتسامته تموت على شفتيه. التفت الآخر ورآني أتقدّم نحوه بالعصا المرفوعة. أومأتُ برأسي، مشيرًا بأن يتركاها بسلامٍ ويسارعا إلى الفرار.

- فلنذهب، هيّا! - غمغم أحدهما.

تجاهل الثاني كلمات رفيقه. كان يركّز النظر إليّ بعينين تشعّان لهيبًا، والسكّين بيده.

- ومن دعاك إلى هنا يا بن العاهرة؟

ودون أن أحيد نظراتي عن الرجل المسلّح، أمسكتُ بذراع إيزابيلا ورفعتُها عن الأرض. بحثتُ عن المفتاح في جيبي وأعطيته لها.

- اذهبي إلى البيت - قلت - افعلي ما آمرك به.

تردّدتْ لوهلة ثمّ سمعتُ خطواتها تبتعد في الزقاق نحو شارع فلاساديرس. وحين رآها الرجل ذو السكّين تفرّ بجلدها، ابتسم حانقًا.

- سأمزّقك إربًا أيّها الوغد.

لم أشكّ في قدرته ورغبته في تطبيق وعيده، لكنّ شيئًا ما في نظراته جعلني أفكّر بأنّ خصمي لم يكن مغفّلاً: إن كان ما يزال متردّدًا، فهذا لأنّه يتساءل عن وزن العصا المعدنيّة التي أحملها بيدي، ويتساءل خصوصًا عمّا إن كنت عازمًا وشجاعًا بما فيه الكفاية لاستعمالها في تهشيم جمجمته قبل أن يوغل نصل سكّينه في صدري.

- حاولْ! - تحدّيتُه.

قاوم نظرتي لثوانٍ معدودة ثمّ ضحك، فتنفّس رفيقه الصعداء. أغمد الرجل سكّينه وبصق عند قدميّ. التفّ وابتعد نحو الظلال، التي خرج منها، بينما يهرول رفيقه خلفه ككلب وفيّ.

وجدتُ إيزابيلا متقوقعة في فناء مدخل بيت البرج. كانت ترتعش وتمسك المفتاح بيديها الاثنتين. رأتني أدخل فانتفضتْ واقفة.

- هل تريدين أن أتّصل بالطبيب؟

هزّت رأسها نافية.

- هل أنت واثقة؟

- لم يتمكّنا من إيذائي - غمغمت وهي تكبت دموعها.

- بدا لي عكس ذلك.

- لم يؤذياني، وكفى. هل فهمت؟ - اعترضتْ.

- فهمتُ - قلت.

كنت أريد أن أسند ذراعها بينما نصعد السلالم لكنّها رفضتْ.

وحين دخلنا، رافقتُها إلى الحمّام وأضأتُ النور.

- هل لديك ثيابٌ نظيفة ترتدينها؟

أظهرت لي الحقيبة التي كان تحملها معها وهزّت رأسها.

- هيّا إذن، استحمّي ريثما أحضّر شيئًا نأكله.

- كيف تشعر بالجوع في هذا الوقت؟

- لا أعرف، لكنّي أتضوّر جوعًا.

عضّت إيزابيلا شفتها السفلى.

- وأنا أيضًا، في الحقيقة...

- انتهى النقاش إذن - قلت.

أغلقتُ باب الحمّام وانتظرتُ هناك حتى سمعتُ خرير المياه. عدتُ إلى المطبخ ووضعتُ قِدرًا فوق النار. تبقّى القليل من الرزّ وبعض اللحم المقدّد والخضروات التي جلبتْها إيزابيلا صباح اليوم الماضي. ارتجلتُ وجبةً من تلك البقايا، وانتظرتُ نصف ساعة حتّى تخرج من الحمّام، شربتُ خلالها زهاء قنّينة نبيذ. سمعتُها تبكي غيظًا في الجانب الآخر من الحائط. وحين ظهرتْ عند باب المطبخ، كانت عيناها محمرّتين وتبدو طفلةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

- لا أعلم إن كنت ما أزال جائعة - غمغمتْ.

- اجلسي وكلي.

جلسنا إلى الطاولة الصغيرة وسط المطبخ. عاينتْ إيزابيلا، بغير ارتياح، طبق الرزّ وتلك الأشياء الأخرى، الذي قدّمتُه لها.

- كلي - أمرتُها.

غرفتْ لقمة كبيرة وحملتها إلى فمها.

- لذيذ - قالت.

سكبتُ لها نصف كأس من النبيذ وملأتُ الباقي ماءً.

- أبي لا يسمح لي بشرب النبيذ.

- أنا لست أباك.

تناولنا العشاء بصمت ونحن نتبادل النظرات. أفرغت إيزابيلا صحنها وأكلت قطعة الخبز التي قسمتُها لها. كانت تبتسم بحياء. ولم تكن تدرك أنّ الهلع ما زال رابضًا على وجهها. ثمّ رافقتها إلى باب غرفتها وأشعلتُ النور.

- حاولي أن تستريحي قليلاً - قلت لها - إن احتجتِ أيّ شيء، اضربي على الحائط. فأنا في الغرفة الملاصقة.

وافقت إيزابيلا.

- لقد سمعتُ شخيرك ليلة أمس.

- أنا لا أشخر.

- ربّما كانت قرقرة الأنابيب. أو ربّما لدى جيرانك دبٌّ كبير.

- كلمة أخرى وتعودين إلى الشارع.

ابتسمتْ وهي تومئ برأسها.

- شكرًا - همست - لا تغلق الباب كليًّا، أرجوك. دعه مواربًا.

- ليلة سعيدة - قلت وأنا أطفئ النور وأترك إيزابيلا تحت الظلام.

في ما بعد، بينما كنت أنزع ثيابي في غرفتي، لاحظتُ وجود علامة قاتمة على وجنتي، كأنّها دمعةٌ سوداء. دنوتُ من المرآة ومسحتُها بأصابعي. كان دمًا متخثّرًا. وحينها فقط، أدركتُ كم كنت مرهقًا، وكم من الأوجاع تحاصرني من كلّ جانب.

10

في صباح اليوم التالي، وقبل أن تستيقظ إيزابيلا، ذهبتُ إلى المحلّ الذي تديره العائلة في حيّ ميراليرس. كان الفجر قد بزغ للتوّ، والواجهة المعدنيّة مفتوحةٌ إلى نصفها. تسلّلتُ إلى الداخل ووجدتُ اثنين من الفتْية يرتّبون علب الشاي، وبضاعة أخرى، فوق بعضها، على المصطبة.

- المحلّ مغلق - قال أحدهما.

- لا يبدو ذلك. اذهبْ ونادِ صاحب المحلّ!

وبينما كنت أنتظر، رحت أتفحّص المتجر العائليّ للوريثة إيزابيلا غير المرحّب بها، والتي بسبب براءتها المفرطة زهدتْ عن ملذّات التجارة لتكابد بؤس الأدب. كان المحلّ أشبه ببازارٍ صغير، يحتوي على العجائب الآتية من كلّ أصقاع الأرض. المربّى والحلويات والشاي. القهوة والبهارات والمعلّبات. الفواكه واللحوم المجفّفة. الشوكولاطة واللحوم المدخّنة. كان بمثابة جنّة للأكول والشَرِه، لمن تفيض جيوبه بالمال. بعد قليل، ظهر الدون أودون، والد الفتاة والمسؤول عن المحلّ، يرتدي مئزرًا أزرق اللون؛ كان له شاربٌ بارزٌ كشارب الماريشال، ووجهه يطفح بتعبيرٍ حادّ، يجعل منه ضحيّة جلطةٍ وشيكة. قرّرتُ أن أتجاوز الرسميّات.

- قالت لي ابنتك، أيها السيّد، إنّ لديك بندقيّة بقصبتين، وعدتْها أن تقتلني بها - قلت وفتحتُ ذراعي كأنّي على الصليب - ها أنذا.

- ومن أنت، يا قليل الأدب؟

- أنا قليل الأدب الذي اضطرّ لاستضافة فتاةٍ، أخفق والدها الجبان في لجمها.

تلاشى السخط عن وجهه، لتحلّ مكانه ابتسامة حزينة ووديعة.

- سيّد مارتين؟ لم أعرفك... كيف حال طفلتي؟

تنهّدتُ.

- طفلتك سالمة وغانمة في بيتي، تشخر مثل كلاب الصيد، ولم يدنسّ أحدٌ شرفها وكرامتها.

صلّى البائع بإشارة الصليب مرّتين متتاليتين، وانتشى.

- جزاك الله خيرًا!

- فليمدّ الله بعمرك كي ترى كيف يجازيني، ولكنْ حتّى ذلك الحين أستميحك بأن تأتي وتصطحب ابنتك اليوم وإلا هشّمتُ وجهك، غير آبهٍ ببندقيّتك.

- بندقيّة؟ - غمغم البائع مستغربًا.

كانت زوجته، قصيرة القامة، عصبيّة النظرات، تتجسّس علينا من خلف ستارٍ يحجب المستودع. أفادني الحدس بأنّي لن أشهد إطلاق نار. تأفّف الدون أودون، وارتخت عزيمته.

- لا أرغب إلاّ بهذا، يا سيّد مارتين. لكنّ طفلتي لا تريد البقاء هنا - شرح متأسفًا.

ندمتُ على نبرة كلماتي، حين أدركتُ أنّ البائع لم يكن غولاً كما وصفته إيزابيلا.

- لماذا طردتَها من المنزل، إذن؟

جحظت عينا الدون أودون حتّى صارتا كطبقين، مقهورًا. تقدّمت زوجته وأمسكت بيده.

- احتدم بيننا جدالٌ، منذ فترة. وتبادلنا ما يناسب كلاًّ منّا. لكنّ لطفلتي طباعًا غريبة... هدّدتنا بالرحيل قائلة إنّنا لن نراها بعدئذٍ أبدًا. فكادت أمّها العفيفة أن تصاب بتسرّع القلب. رفعتُ صوتي وقلت إنّي سأجبرها على دخول الدير.

- أسلوبٌ فعّال في إقناع فتاة مراهِقة - حدّدتُ.

- كان هذا أوّل ما خطر في بالي... - فسّر البائع - كيف لي أن أدخلها إلى الدير؟

- حسبما رأيتُ منها، فإنّك ستخفق في هذا، حتّى لو استعنتَ بجهاز الشرطة المدنيّة بأسره.

- لا أعلم ما الذي قصّته عليك الطفلة يا سيّد مارتين، ولكنْ لا تصدّقها. صحيحٌ أنّنا لسنا من أبناء الأكابر، لكنّنا لسنا وحوشًا أيضًا. بتُّ عاجزًا عن حكمها. ولستُ ممّن يضربون بالحزام واللكمات، طلبًا للطاعة. وزوجتي الحاضرة هنا مسكينة، لا ترفع صوتها في وجه قطّة. لا أعلم من أين جاءت طفلتي بهذه الطباع. ربّما لأنّها تُكثر من القراءة. ثمّ ضعْ في الحسبان أنّ الراهبات حذّرننا. وقد قالها والدي، قبل أن يتوفّاه الله: إذا سُمح للنساء بتعلّم القراءة والكتابة، فإنّ هذا العالم سيخرج عن السيطرة.

- يا لوالدك من مفكّر عظيم؛ لكنّ هذا لا يحلّ مشكلتي ولا مشكلتك.

- وما الذي يسعنا فعله؟ إيزابيلا لا تريد البقاء معنا يا سيّد مارتين. تقول إنّنا مغفّلَين، وإنّنا لا نستوعبها، وإنّنا نسعى لدفنها في هذا المحلّ... وهل أودّ إلاّ استيعابها؟ إنّي أعمل هنا منذ أن كان عمري ستّ سنوات، من الفجر حتّى المساء، وقد تعلّمتُ شيئًا واحدًا وهو أنّ الحياة مكان قميء وغير آمن لفتاة يانعةٍ ورأسها سارحٌ فوق الغيوم - فصّل البائع متّكئًا إلى برميل - أخشى أن أرغمها على العودة، فتهرب مجددًا لتنتهي في يدَي أحدهم... لا أريد حتى تخيّل الكارثة.

- صحيح - أضافت زوجته التي كانت تتكلم بنبرة إيطاليّة لاسعة - صدّقْ أنّ هذه الطفلة فطرت فؤادنا، لكنّها ليست المرّة الأولى التي تهرب من هنا. لقد ورثتْ طباع أمّي، ذات الخصال النابوليتانيّة.

- آهٍ من الماما - تذكّر الدون أودون، مذعورًا من استحضار ذكرى حماته.

- حين أخبرتْنا بأنّها ذاهبة للسكن عند حضرتك عدّة أيام، كي تساعدها في العمل، اطمئنّ بالنا كثيرًا - تابعت والدة إيزابيلا - لأنّنا نعلم أنّك رجلٌ شهم، وأنّ ابنتنا عندك ستكون بجوارنا، بالمحصّلة، على بعد شارعين من هنا. ونعلم أنّك ستنجح في إقناعها بالعودة.

تساءلتُ عمّا قد روتْه إيزابيلا لهما عنّي، فاقتنعا بأنّي أسير على الماء.

- ليلة أمس تمامًا، على مرمى حجر من هنا، تعرّض عاملان لضربٍ مبرّحٍ في طريق عودتهما إلى المنزل. تخيّل يا سيّدي! يبدو أنّ أولئك الأشرار استعملوا عصا حديديّة حتّى أحالوهما خرقةً بالية. يقال إنّ أحدهما سيفقد حياته، فيما سيبقى الآخر معطوبًا طوال عمره - قالت الأمّ - في أيّ عالمٍ نعيش؟

نظر إليّ الدون أودون متجهّمًا.

- إن أتيتُ لآخذها، ستهرب مجددًا. وهذه المرّة، لا أعلم إن كانت ستصادف طيّبًا مثلك. نعرف أنّك لا تفضّل البقاء مع فتاة صغيرة في بيتك وأنت أعزب. ولكن، على الأقلّ، يبدو لنا أنّك نزيهٌ وستحسن معاملتها يا سيّدي.

كاد البائع ينفجر باكيًا، ففضّلتُ أن يهرع إلى البندقيّة. ومن الممكن دومًا أن يظهر أحدُ قرابتهم النابوليتانيين في أزقّتنا، ويهاجمني بمطوىً كي ينقذ شرف الفتاة. «يا للمصيبة!»[9].

- هل لي بكلمة شرفٍ منك، بأنّك ستعتني بها ريثما تتعقّل وتعود إلى منزلها؟

تأفّفتُ.

- لك منّي كلمة شرف.

عدت إلى شارع فلاساديرس، محمّلاً بالمأكولات الشهيّة والأطعمة اللذيذة الذي أبى الدون أودون وزوجته إلاّ أن يكافئاني بها. كررتُ بأنّي سأعتني بإيزابيلا بضعة أيّام حتّى يعود رشدها وتدرك أنّ مكانها هو بين أفراد أسرتها. ألحّ البائع وزوجته على دفع مستلزماتها، فرفضتُ. إذ كنت عازمًا على أن تنام إيزابيلا في بيت أهلها بعد أسبوع كحدّ أقصى، حتى لو اضطررتُ لتعيينها عندي كمساعِدة خلال النهار. فكم انهارت بروجٌ أعلى من ذاك بكثير!

وعندما دخلتُ البيت، وجدتُها جالسةً إلى طاولة المطبخ. كانت قد غسلت الأطباق التي استخدمناها مساء أمس، وحضّرت القهوة، وغيّرت ثيابها، ومشّطت شعرها لتغدو كقدّيسة خارجة من أيقونة صغيرة. لم تكن إيزابيلا غبيّة على الإطلاق، وسرعان ما فهمتْ أين كنت، لذا تسلّحتْ بأفضل نظرة عندها، كأنّها كلب منبوذ، وابتسمتْ بإذعان. تركتُ السلاّت التي تحتوي على مأكولات الدون أودون الشهيّة عند المغسلة ونظرتُ إليها.

- لم يطلق والدي عليك النار؟

- أنهى ما بحوزته من طلقات، وقرّر أن يرميني بهذا الوابل من المربّى وجبن المانكي.

زمّت إيزابيلا شفتيها ليصبح وجهها ملائمًا للحالة.

- نستنتج إذن أنّكِ ورثتِ اسم إيزابيلا عن جدّتك؟

- الماما - أكّدتْ - كانوا في حيّها يسمّونها فيزوفا، على اسم البركان.

- لا أستغرب.

- يقولون إنّي أشبهها قليلاً. بالعُند.

لا داعي لكاتبٍ بالعدل كي يوثّق ذلك، قلت لنفسي.

- والداك طيّبا القلب يا إيزابيلا. وما بينكِ وبينهما لا يتعدّى سوء فهم.

لم تجب الفتاة. صبّت لي كوبًا من القهوة وانتظرت النطق بالحكم. كان لديّ احتمالان: إمّا أن أطردها من البيت، لأميت والديها من الفزع، أو أن ألتجأ للرحمة صاغرًا وأتسلّح بالصبر ليومين أو ثلاثة. تخيّلتُ أنّ ثمانية وأربعين ساعة من تقمّص أكثر الأدوار عنفًا وظلمًا، ستكفي لتحطيم إرادتها الصلبة، ما يجبرها على الركوع عند تنوّرة أمها لتطلب منها الغفران والإقامة الدائمة.

- بإمكانك البقاء هنا، حتى هذه الساعة...

- شكرًا!

- لا تتفاءلي كثيرًا. بإمكانك البقاء بشروط. أوّلها أن تمرّي كلّ يوم بمحلّ والديك، لتسلّمي عليهما وتطمئنيهما على حالك. وثانيها أن تطيعيني وتحترمي قواعد هذا البيت.

بدت خطبتي المقتضبة ذكوريّة إلى حدٍّ ما، لكنّها نبيلة إلى حدٍّ بعيد. حافظتُ على تعبير وجهي الصارم وقرّرتُ أن أصعّد من نبرتي قليلاً.

- وما هي قواعد هذا البيت؟ - سألتني إيزابيلا.

- جوهريًّا، كلّ شيء هنا يتعلّق بمزاجي.

- يبدو لي صائبًا.

- أبرمنا المعاهدة إذن.

التفّت إيزابيلا حول الطاولة وعانقتني بامتنان. شعرتُ بحرارة جسمها وتقاسيمه النافرة لفتاةٍ في السابعة عشر عامًا من عمرها. أبعدتُها برفق، وأبقيتُها على مسافة مترٍ عني.

- القاعدة الأولى أنّ هذا ليس منزل «نساء صغيرات». لا نتعانق ولا ننفجر في البكاء فجأة.

- كما تشاء.

- تمامًا، هذا هو الشعار الذي سنبني عليه مساكنتنا: كما أشاء أنا.

ضحكت إيزابيلا وطارت كفراشةٍ نحو الممرّ.

- إلى أين تذهبين؟

- إلى المكتب، كي أنظّفه. لن تشاء حضرتك أن يبقى على حاله، أليس كذلك؟

11

كنت بأمسّ الحاجة إلى ملاذ أستطيع التفكير فيه والفرار من الهمّة المنزليّة، والهوس بالنظافة، التي تهجس بها مساعِدتي الجديدة. فالتجأتُ إلى المكتبة العامّة، التي تقع عند متاهة الأقواس القوطيّة من الخان القديم، المتحدّر من العصور الوسطى، في شارع كارمن. قضيتُ النهار مطوّقًا بمجلداتٍ تفوح منها رائحة المدافن البابويّة، أقرأ عن الأساطير وتاريخ الأديان، حتّى كادت عيناي أن تسقطا على الطاولة وأتدحرج خارج المكتبة. بعد ساعات من القراءة، لا هوادة فيها، قدّرتُ بأنّي لم أجمع سوى واحدًا بالمليون ممّا هو متوفّر تحت أقواس ذلك المعبد من الكتب، ناهيك عن كلّ ما كُتِب حول الموضوع. فقرّرتُ أن أعود في اليوم التالي، واليوم الذي يليه؛ وأنّي سأكرّس أسبوعًا كاملاً على الأقلّ في تغذية سخّان أفكاري، بآلاف الصفحات، عن الآلهة والمعجزات والتنبّؤات والقدّيسين والتجليّات والرؤى والألغاز. أيًّا يكن، عدا التفكير بكريستينا والدون پيدرو وحياتهما الزوجيّة.

وبما أنّي حظيتُ بمساعِدةٍ متأجّجة النشاط، أمرتُها بأن تؤمّن لي نسخًا عن الكتيّبات الدينيّة والنصوص المدرسيّة، المستخدمة لتعليم الدين في المدينة، وأن تقدّم لي تلخيصًا شاملاً عنها. لم تناقش إيزابيلا الأوامر، لكنّها قطّبت حاجبيها حين تلقّتها.

- أريد أن أعرف بالتفصيل المملّ كيف يعلّمون الأولاد كلّ هذا الهرج والمرج، بدءًا من سفينة نوح حتّى معجزة الخبز والسمك - شرحتُ.

- لأيّ غاية؟

- لأنّ هذه هي طباعي، لديّ تشكيلةٌ متنوعةٌ من الاهتمامات.

- هل توثّق لتأليف نسخة جديدة من «يا قلب يسوع الأقدس، دعني أحبّك أكثر»؟

- كلا. أفكّر في تأليف رواية عن مغامرات كاتالينا دي إراوسو، الراهبة المحاربة. افعلي ما أمليه عليك ولا تناقشي، وإلا أعدتُك إلى محلّ ذويك لتبيعي مربّى السفرجل ما حييتِ.

- يا لك من مستبدّ!

- يسعدني أنّك تتعرّفين عليّ أكثر فأكثر.

- هل لهذا الأمر صلة بالكتاب الذي عليك أن تؤلّفه لذلك الناشر، كوريلي؟

- ربّما.

- يبدو لي أنّ هذا الكتاب لن تحالفه الحظوظ بفرصةٍ تجاريّة.

- وما أدراكِ أنتِ؟

- أكثر ممّا تتصوّر. ولا داعي لهذا السلوك؛ فأنا أحاول مساعَدتك ليس إلاّ. أم أنّك قرّرتَ الكفّ عن الكتابة الاحترافيّة لتتحوّل إلى هاوٍ يشرب القهوة ويتناول المعجّنات؟

- في هذه الآونة، أعمل مربّيًا للأطفال.

- لن أراهن على مَن يعمل مربّي أطفال عند مَن، لأنّي سأربح الرهان قبل أن أبدأ.

- وبم ترغب صاحبة السعادة أن تناقش؟

- الفنّ التجاريّ المناقض للترّهات المثقلة بالأخلاق.

- عزيزتي إيزابيلا، يا بركاني الصغير: في الفنّ التجاريّ، أو أيّ فنّ حقيقيّ يصبح تجاريًّا عاجلاً أم آجلاً، غالبًا ما تتّسم نظرة المراقِب بالغباوة.

- هل تصفني بالغبيّة؟

- إنّي أحثّك على تنفيذ الأوامر. افعلي ما أمليه عليك. نقطة، انتهى. سكوت.

أشرتُ إلى الباب فأسدلتْ إيزابيلا عينيها، وهي تغمغم بكلماتٍ نابيةٍ، لم أتمكّن من فهمها، بينما كانت تبتعد على طول الممرّ.

وبينما كانت إيزابيلا تجوب المدارس والمكتبات، بحثًا عن الكتب المدرسيّة والكتيّبات الدينيّة كي تلخّص مضمونها، كنت ألجأ إلى مكتبة كارمن كي أعمّق تربيتي الدينيّة؛ وهي مَهمّةٌ كنت أتفرّغ لها بفضل جرعاتٍ جبّارة من القهوة والمبادئ الرواقيّة. ولم ينتج عن السبعة أيامٍ الأولى من ذلك الإلهام الغريب سوى الشكوك. أحد تلك الإثباتات النادرة، أنّ غالبيّة الأدباء الذين لبّوا نداء الكتابة عن الشؤون الإلهيّة والإنسانيّة والمقدّسات الأخرى، لا بدّ أنّهم كانوا دارسين محنّكين وأتقياء إلى أبعد حدّ، لكنّهم كأدباء كانوا سمجين للغاية. فالقارئ المرغَم على الانزلاق في صفحاتهم، عليه أن يبذل قصارى جهده كي لا تنال منه الغيبوبة، بسبب الضجر عند كلّ فقرة.

وبعد أن خرجتُ ناجيًا من قراءة آلاف الصفحات حول الموضوع، تولّد لديّ انطباع بأنّ مئات الديانات، المكتوب عنها على مرّ تاريخ الطباعة، تتشابه على نحوٍ رهيب. فعزوتُ هذا الانطباع الأوّل إلى جهلي، أو إلى انعدام التوثيق النموذجيّ، لكنّي لم أتمكّن من إزالة الشعور بأنّي كنت كمن تصفّح عشرات القصص البوليسيّة التي يتغيّر فيها المجرم، فيما تظلّ آليّة الحبكة على حالها في العمق. وما لبثت الأساطير والخرافات، سواءً أكانت عن الذات الإلهيّة أم عن التكوين وتاريخ الشعوب والأعراق، أن بدت أجزاءً من لعبة اللوحة المبعثرة، لا يمتاز بعضها عن بعض، وكلّها مكوّنة من الأجزاء نفسها، حتّى لو كان الترتيب مختلفًا.

بعد يومين بتُّ صديق إيلاليا، أمينة سرّ المكتبة. كانت تصطاد لي النصوص والمجلّدات من محيط الكتب التي كانت مسؤولة عنها؛ وتأتي إلى طاولتي، بين الفينة والأخرى، وتسألني إن كنتُ بحاجة لشيء آخر. وربّما كان عمرها

من عمري، والذكاء يقدح من عينيها، كومضاتٍ حادّة وسامّة بشكلٍ ملغّز.

- إنّك تقرأ كثيرًا عن القدّيسين وما شابه... هل قرّرتَ أن تعمل كالأطفال في خدمة المذبح، الآن وأنت على أبواب النضج؟

- إنه مجرّد توثيق.

- آه، هكذا يقول الجميع.

كانت نكات المكتبجيّة وفطنتها بمثابة بلسمٍ شافٍ، يساعدني على البقاء حيًّا أمام تلك النصوص، الثقيلة كالجلمود، وإنجاز مهمّتي الكهنوتيّة. وكانت، حين تتفرّغ قليلاً، ترافقني إلى الطاولة وتساعدني في ترتيب تلك الأكوام. كم كانت تلك الصفحات تغصّ بقصص الآباء والأبناء، والأمّهات العفيفات والقدّيسات، والخيانات والتوبات، والتنبّؤات والأنبياء الشهداء، المرسَلين من الجنّة أو السماء، ورُضّعٍ ولِدوا لينقذوا الكون، ومخلوقاتٍ شريرة ذات مظهر مرعب وأسماءٍ حيوانيّة في العادة، وكائناتٍ سمائيّة وأخرى ذات ملامح عرقيّة مقبولة تقدّم أنفسها كوكلاء الخير وأبطالٍ يخضعون لاختبارات القدَر الشنيعة. وكانت فكرة الوجود على الأرض تتمثّل دومًا على أنّها محطّة عبور، تستدعي التسليم بالقدر والإذعان لأعراف القبيلة، لأنّ الثواب يُمنَح في الآخرة دومًا، هناك حيث يتحقّق الوعد بالجنان المليئة بكلّ ما كان محرّمًا في الحياة الدنيا.

عند منتصف نهار يوم الخميس، كنت ألتقط أنفاسي حين اقتربت مني إيلاليا، وسألتني إن كنت آكل الطعام من حينٍ لآخر، وليس مقبّلات المواعظ الدينيّة فقط. دعوتُها إلى الغداء في كازا ليوبولدا الذي افتتح للتوّ، في الجوار. وبينما كنا نتناول ذيل ثورٍ شهيّ، قصّتْ عليّ بأنّها تعمل في تلك الوظيفة منذ سنتين؛ وأنّها منشغلةٌ بروايةٍ لم تتمكّن من إنجازها منذ أربع سنوات، وكان مسرح الأحداث فيها مكتبة كارمن، وموضوعها سلسلة عجائبيّة من الجرائم داخل المكتبة.

- يسعدني أن أكتب شيئًا ما، يشابه في أسلوبه سلسلةً روائيّةً قرأتُها منذ عدّة أعوام لإغناثيوس ب. سامسون
- قالت - هل يذكّرك الاسم بشيء؟

- نوعًا ما - أجبتُها.

كانت إيلاليا تجد صعوبة في نسج الحبكة، فنصحتُها بإضفاء هالةٍ طفيفة من الغرابة على العمل برمّته، وتركيز الأحداث حول كتابٍ سريّ تسكنه روحٌ معذّبة، وإضافة حبكاتٍ جانبيّةٍ تخرج مضامينها عن المألوف بشكلٍ صريح.

- هذا ما كان سيفعله إغناثيوس ب. سامسون لو كان محلّك - جازفتُ بالقول.

- وماذا ستفعل أنت بكلّ هذه القراءات عن الملائكة والشياطين؟ لا تقل لي إنّك باحثٌ تائبٌ ومتخرّجٌ من معهد القساوسة.

- أسعى للتحقّق من القواسم المشتركة بين أصول الأديان والأساطير الأخرى.

- وإلام توصّلتَ حتى الساعة؟

- لا شيء، تقريبًا. لا أريد أن أسبّب لك الضجر بالتراتيل.

- لن أضجر. حدّثني!

أبديتُ لا مبالاة.

- حسنًا. أهمّ ما توصّلتُ إليه حتى الآن، أنّ معظم تلك المعتقدات وليدةُ حدثٍ ما أو شخصيّةٍ قد تكون تاريخيّة. لكنّها سرعان ما تتحوّل إلى حركاتٍ شعبية، تلاؤم الظروف السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تمرّ بها جماعة المؤمنين. ما تزالين مستيقظة؟

أومأتْ إيلاليا بنعم.

- وجزءٌ كبيرٌ من المؤثّرات الأسطوريّة، التي تنمو حول كلّ تلك العقائد، بما فيها الطقوس والأعراف والمحظورات، ناتجٌ عن السلطة الإداريّة التي تشكّلها العقائد نفسها خلال تطوّرها وليس الحدث الذي أنشأها، الموصوف زورًا بالخارق للطبيعة. وأغلب تلك العقائد ينطلق من حكاياتٍ بسيطة ومثبتة، مزيجٍ من الذوق العامّ والفلكلور؛ بيْد أنّ التأجيج الحربيّ الناجم عنها مردّه التأويل اللاحق لتلك المبادئ، حين لا يميل مدراؤها إلى تشويه طبيعتها. لذا، يبدو أنّ الجانب الإداريّ والهرميّ مفتاح تطوّر الأديان. في البدء، تُكشَف الحقيقة على مرأى البشر أجمعين، وسرعان ما يبرز أفرادٌ يحتكرون الحقّ في اعتلاء السلطة وواجب التأويل واستلام الإدارة، وتحريف تلك الحقيقة باسم الصالح العامّ أحيانًا. ينشئون، في سبيل هذه الغاية، مؤسسةً قويّة ومستبدّة إلى أبعد حدّ. وإنّ هذه الظاهرة، السائدة عند كلّ أقوام الحيوانات الاجتماعيّة، كما تعلّمنا البيولوجيا، لا تتوانى عن تحويل العقيدة برمّتها إلى أداة رقابة تخوض حروبًا سياسيّة. وعاجلاً أم آجلاً، تغدو الكلمة دماءً، تنزف من الأجساد.

شعرتُ بأنّي بتُّ أتكلّم مثل كوريلي، فتنهّدتُ. كانت إيلاليا تبتسم بخفّة وترمقني بتحفّظ.

- أ هذا ما تبحث عنه؟ الدماء؟

- ثمّة حكمة تقول: كي نتعلّم، ينبغي أن نبصق دمًا، وليس العكس.

- لا أعوّل على هذا كثيرًا.

- أفهم أنّكِ انتسبتِ إلى مدرسة راهبات؟

- سيّدات الوشاح الأسود. ثمانية أعوام.

- هل صحيح ما يشاع عن تلميذات تلك المدارس، بأنهنّ يمتلكن رغباتٍ شديدة الغموض، يصعب البوح والاعتراف بها؟

- أراهن أنّه يطيب لك استكشاف هذا الأمر.

- ستربحين الرهان بلا شكّ.

- وماذا تعلّمتَ أيضًا في دراستك السريعة عن لاهوتيّات الأذهان المتّقدة؟

- القليل. استنتاجاتي الأولى تركت في فمي مذاقًا من التفاهة وعدم التجانس. وكان كلّ هذا واضحًا من قبل نوعًا ما بالنسبة إليّ، دون الحاجة لالتهام الموسوعات والرسائل حول جنس الملائكة. ربّما لأنّي لست قادرًا على تجاوز أحكامي المسبقة، أو لأنّ لا شيء في كلّ هذا يستحقّ العناء. لكنّ لبّ المسألة يكمن ببساطة في الإيمان من عدمه دون التوقّف عند السبب. كيف تبدو لك بلاغتي؟ هل ما أزال أدهشك؟

- يقشعرّ بدني بكلامك. ليتني تعرّفتُ عليك حين كنت طالبةً غامضة الرغبات.

- ما أقساك يا إيلاليا.

ضحكت المكتبجيّة بتلذّذ، وركّزتْ في عينيّ طويلاً.

- قل لي، يا إغناثيوس ب. سامسون، مَن الذي سخط عليك وحطّم فؤادك؟

- أرى أنّك تتقنين قراءة الكثير من الأشياء، فضلاً عن الكتب.

لبثنا جالسين دقائق أخرى، نراقب النُدُل بمجيئهم وذهابهم في صالة كازا ليوبولدو.

- هل تعرف أجمل ما في القلوب المحطّمة؟ - سألتْ.

حرّكتُ رأسي نافيًا.

- أنّها تتحطم بالفعل مرّة واحدة فقط. وكلّ ما يحِلّ بها، بعدئذٍ، مجرّد خدوش.

- ضعي هذه العبارة في كتابكِ.

أشرتُ إلى خاتم خطوبتها.

- لا أعلم من يكون هذا اللعين، لكنّي آمل أنّه على علمٍ بكونه أسعد الرجال حظًا في العالم.

ابتسمت إيلاليا بطيف حزنٍ، وأومأت. عدنا إلى المكتبة، واستعاد كلٌّ منا مكانه، هي على المنضدة وأنا في زاويتي. ودّعتُها في اليوم التالي، حين قرّرتُ بأنّي لم أعد قادرًا، ولا راغبًا، بقراءة المزيد من التجليّات والحقائق الأبديّة. وعلى طريق المكتبة، اشتريتُ لها وردة بيضاء من بائع الأزهار في لاس رامبلاس، وتركتُها لها على المنضدة. ثمّ وجدتُها في أحد الممرّات، ترتّب بعض الكتب.

- هل ستتركني، باكرًا هكذا؟ - قالت حين رأتني - من سيتغزّل بي إذن؟

- بل مَن لن يتغزّل بكِ؟

رافقتني إلى المَخرج وصافحتني، أعلى العتبات الحجريّة المؤدّية إلى باحة الخان القديم. نزلتُ؛ وعند منتصف الطريق، توقّفتُ واستدرتُ. كانت ما تزال هناك ترنو إليّ.

- حظًّا سعيدًا يا إغناثيوس ب. سامسون. آمل أن تجد ضالّتك.

12

بينما كنت أتناول العشاء مع إيزابيلا، على مائدة الصالة، لاحظتُ أنّ مساعِدتي الجديدة تسترق إليّ النظر.

- لم تمسّ الحساء. أ لا يعجبك؟... - ارتجلت الفتاة.

نظرتُ إلى الصحن، الذي لم أمسّه وبات فاترًا. غرفتُ ملعقة وتظاهرتُ بأنّي أتذوّق الطبق الشهيّ.

- لذيذ جدًا - صرّحتُ.

- لم تقل أيّ كلمة منذ عودتك من المكتبة - أضافت إيزابيلا.

- هل من اعتراضاتٍ أخرى؟

حادت إيزابيلا نظراتها مستاءة. أكلتُ الحساء البارد بلا شهيّة، تجنّبًا لخوض أيّ جدال معها.

- لماذا أنت حزينٌ هكذا؟ هل بسببٍ من تلك المرأة؟

تركتُ الملعقة في الصحن.

لم أردّ، وبقيتُ أخلط الحساء بالملعقة. ولم تحد إيزابيلا أنظارها عني.

- اسمها كريستينا - قلتُ - ولست حزينًا. أنا سعيدٌ لأنّها تزوّجت أفضل صديقٍ عندي، وهي سعيدة معه جدًا.

- وأنا ملكة سبأ؛ تشرّفنا.

- أنت مجرّد حِشريّة.

- هكذا تعجبني أكثر، حين يكون مزاجك مكدّرًا وتقول الحقيقة.

- سنرى إن يعجبك هذا إذن: تقوقعي في غرفتك ودعيني أنعم بالسلام قليلاً.

حاولتْ أن تبتسم، لكنّها حين رأتني أمدّ يدي نحوها، اغرورقت عيناها بالدموع. فحملت صحني وصحنها وهرعت إلى المطبخ. سمعتُ الأطباق تسقط في المغسلة، وبعد ثانية جفلتُ من صفق الباب بشدّة. التقطتُ نفسًا وشربتُ من كأس النبيذ المتبقي، نبيذٍ خفيف ولذيذ، أتيتُ به من محلّ ذويها. وبعد قليل، اقتربتُ من باب غرفتها وطرقتُ عليه ببراجم يدي. لم تردّ، لكنّي سمعتُ عبراتها وشهقاتها. حاولتُ أن أفتح الباب، لكنّ الفتاة قفلته من الداخل.

صعدتُ إلى المكتب الذي بات يفوح بعبق الأزهار الطازجة، بعد مرور إيزابيلا عليه، وبدا كأنّه كابينة في سفينة راقية. رتّبت إيزابيلا الكتب وأزالت الغبار، وأضفت اللمعان حتى صار المكتب غريبًا عنّي. فالآلة الكاتبة القديمة

أندروود غدت منحوتة أثريّة، وحروف لوحة المفاتيح أصبحت تُقرأ بلا مصاعب. ورزم الأوراق مصنّفة بعناية، على المنضدة، بجانب ملخّصات النصوص المدرسيّة الدينيّة والكتيّبات الكنسيّة، ومراسلات اليوم. وثمّة سيجاران، في صحن صغير، يضخّان عطرًا زكيًّا: ماكانودوس، أشهر الملذّات الكوبية، التي كان يهرّبها أحدُ العمّال في مستودعات التبغ إلى والد إيزابيلا. أخذتُ واحدًا وأشعلته. كان له مذاق مكثّف، توحي أنفاسه الدافئة بأنّه يجمع كلّ النكهات والسموم التي يشتهيها المرء كي يموت بسلام. جلستُ إلى المنضدة وعاينتُ رسائل اليوم. فتجاهلتُ جميعها عدا واحدة، ظرفها من الرقّ الثخين مزوّق الحوافّ، وذلك الخط المنمّق الذي أميّزه في أيّ مكان. رسالةٌ من ناشري الجديد، راعي الفنون والآداب، أندرياس كوريلي، يحدّد موعدًا ظهيرة يوم الأحد، في قمّة برج العربات السلكيّة الجديدة التي تمرّ فوق ميناء برشلونة.

ينهض برج سان سيباستيان بعلوّ مائة متر، بحشدٍ هائل من الكابلات الحديديّة، تولّد - بمجرّد رؤيتها - الرهبة من القمم الشاهقة. لقد افتُتح خطّ النقل الهوائيّ في العام ذاته الذي شهد انطلاقة المعرض الدوليّ، الذي قَلَب المدينة عاليها أسفلها وزيّنها بالأعاجيب. وكان الخطّ يعبر ورشة بناء السفن في الميناء، انطلاقًا من ذلك البرج مرورًا بدعامةٍ محوريّة تصلح كنقطة ارتكاز، وتشبه برج إيفل، تنطلق منها عرباتٌ معلّقة في الفراغ لتكمل الشوط الثاني من الرحلة حتّى مونتويك، حيث كان المعرض. وهكذا قدّمت التكنولوجيا العبقريّة إطلالاتٍ فريدةً على المدينة، كانت حتى آنئذٍ حكرًا على السفن الهوائيّة والطيور الضخمة وحبّات البَرَد. ووفقًا لرأيي، لا يولد البشرُ والنوارسُ لتقاسم المجال الجويّ نفسه. فما إن ركبتُ المصعد لبلوغ قمّة البرج، حتّى انتابني ألمٌ خانقٌ في المعدة يتضخّم حتّى أصبح بحجم كرة بلياردو. إذ بدت لي رحلة الصعود أبديّة، وصرير تلك الكبسولة المصفّحة تمرينًا أصيلاً على الغثيان.

وجدتُ كوريلي يروم بأبصاره، من إحدى النوافذ الكبيرة المشرفة على ورشة الميناء والمدينة بأسرها، وعيناه هائمتان في تلك اللوحات المائية التي ترسمها الأشرعةُ والسواري بانسيابها على سطح المياه. كان يرتدي بذلة من الحرير الأبيض، ويتسلى بقطعة سكّر بين أصابعه، سرعان ما ابتلعها كذئبٍ شَرِه. سعلتُ فاستدار ربُّ عملي، مبتسمًا بارتياح.

- إطلالةٌ عجيبة، ألا تشاطرني الرأي؟ - سأل كوريلي.

أومأتُ موافقًا، شاحب الوجه كورقة بيضاء.

- هل يُرهبك العلوّ؟

- إنّي حيوانٌ يعيش على سطح الأرض - أجبتُ، محافظًا على مسافة احترامٍ من النافذة.

- سمحتُ لنفسي بشراء تذاكر الذهاب والعودة - أخبرني.

- شاكرٌ لطفك.

تبعتُه لاجتياز الجسر الصغير المؤدّي إلى مدخل الكبائن، التي تنطلق من البرج لتبقى معلّقة في الجوّ على ارتفاع قرابة المائة متر، ولمدّة تدوم إلى ما لا نهاية.

- كيف قضّيتَ الأسبوع، يا مارتين؟

- بالقراءة.

نظر إليّ برهةً.

- تعبيرُك الملول يوحي بأنّك لم تكن تقرأ ألكسندر دوما.

- مجموعة من القشور الأكاديميّة بالأحرى، نثرٌ أصلب من الإسمنت.

- آهٍ من المفكّرين. وكنت تريد منّي أن أتعاون مع أحدهم. لماذا يتمنطق المرء بأسلوبٍ متحذلق وجلف، إن لم يكن في حوزته الكثير ممّا يقول؟ - سأل كوريلي - هل ليخدع الآخرين أم ليخدع نفسه؟

- ربّما لخداع كليهما معًا.

أعطاني ربّ العمل التذاكر، وأفسح لي المجال بالمرور قبله. فسلّمتُ التذكرة للمراقِب الذي ترك باب الكابينة مفتوحًا. دخلتُ بلا أدنى حماس. وقرّرتُ الوقوف في الوسط، بعيدًا عن الزجاج قدر الإمكان. كان كوريلي يبتسم مرِحًا مثل الأطفال.

- لعلّ مشكلتك في أساسها تكمن في أنّك قرأتَ النقد وليس المادّة التي تمّ نقدها. وهذا خطأ اعتياديّ، لكنّه فادحٌ إذا أراد المرء أن يتعلّم شيئًا مفيدًا - أفصح كوريلي.

أُغلِقتْ أبوابُ الكابينة، وانطلقنا نحو المدار بهزّة. فتشبّثتُ بالقضبان المعدنيّة والتقطتُ أعمق انفاسي.

- أفهم أنّ الباحثين والمنظّرين ليسوا من بين القدّيسين الذين تؤمن بهم - قلت.

- لا أؤمن بأيّ قدّيس يا صديقي، ولا بأولئك الذين يصبحون قديّسين بمفردهم أو ما بينهم. النظريّة هي تطبيق العاجزين. أنصحك بأن تَدَع الموسوعيّين ومقالاتهم جانبًا، وتتجه مباشرة إلى المصادر. قل لي، هل قرأتَ الكتاب المقدّس؟

ارتبكتُ. أطلّت الكابينة على الفراغ، فنظرتُ إلى الأرض.

- شذرات، من هنا وهناك، على ما أفترض - غمغمتُ.

- تفترض. مثل الجميع تقريبًا. هذا خطأ جسيم. ينبغي على الجميع أن يقرؤوا الكتاب المقدّس. وأن يعيدوا قراءته. بصرف النظر إذا كانوا مؤمنين أم لا. هذا لا يهمّ. أنا أعيد قراءته مرّة في العام على الأقلّ. إنّه كتابي المفضّل.

- وهل أنت مؤمنٌ أم ملحِد؟ - سألته.

- أنا محترف. وأنت كذلك أيضًا. إنجازُ عملنا لا يرتبط البتّة بما نؤمن فيه. الإيمان أو عدم الإيمان هو صنيعة الجبناء. نحن نعرف أو لا نعرف. نقطة، انتهى.

- إذن، أنا أقرّ بأنّي لا أعرف شيئًا.

- تابع على هذه الطريق، وستعثر على خطوات الفيلسوف الأعظم. وخلال المشوار، اقرأ الكتاب المقدّس، من الألف إلى الياء. إنّه أحد أعظم الحكايات التي عرفها الإنسان. لا ترتكب الخطأ المعتاد في الخلط بين كلمة الربّ وصناعة كتب القدّاس التي تقتات عليها.

كلما قضّيتُ وقتًا أكثر بصحبة الناشر، اقتنعتُ بأنّي لم أكن أفهم ما يريد.

- أعتقد أنّي تائه. نحن نتكلم عن الخرافات والأساطير، وحضرتك تقول لي الآن بأن أعتبر الكتاب المقدّس على أنه الكلمة الحرفيّة للربّ؟

أغشت ظلال الغيظ ونفاد الصبر نظراته.

- أتحدّث بالمعنى الشكليّ. الربّ ليس دجّالاً. أمّا الكلمة، عِملةٌ بشريّة.

وحينها، ابتسم لي كما يهتدي المرء لابتسامةٍ في وجه طفلٍ، ليس قادرًا بعد على فهم الأشياء البسيطة، بدلاً من أن يصفعه. فأدركتُ، وأنا أمعن النظر إليه، أنّه من المستحيل التكهّن في ما إذا كان يتكلّم جديًّا أو مزاحًا. من المستحيل فهم أهداف مشروعه الغريب، الذي يعطيني مقابله أجرًا يحسدني عليه الملوك. وعلاوةً على ذلك، كانت الكابينة ترتجّ مع الريح، مثل تفاحةٍ على شجرةٍ عذّبتها الزوبعة. لم أكن قد فكّرت بإسحاق نيوتن في حياتي كلّها مثلما فعلتُ حينذاك.

- أنت جبانٌ رعديد يا مارتين. هذه الآلة آمنة.

- سأصدّقك حين نطأ الأرض.

كنّا نقترب من المحطّة الوسطى، عند برج سان خاييم الذي يعلو الأرصفة المحاذية لمبنى الجمارك الكبير.

- هل لديك مانعٌ إن نزلنا هنا؟ - سألتُ.

أومأ موافقًا على مضض. ولم أستعدْ هدوء أنفاسي إلاّ عندما دخلتُ مصعد البرج وشعرتُ بأنّي سألامس الأرض. وحين خرجنا إلى الأرصفة البحريّة، وجدنا مقعدًا يروم إلى مياه الميناء ومنطقة مونتويك؛ فجلسنا عليه نتأمّل خطّ النقل الهوائيّ فوقنا، وكنت مسرورًا بقدر ما كان كوريلي ممتعضًا.

- حدثّني عن انطباعاتك الأولى، وعن حصيلة هذه الأيّام من الدراسة والقراءة المكثّفة.

لخّصتُ على مسامعه ما خلتُ أنّي تعلّمتُه في تلك الأيّام، وذلك بمحو كلّ ما كنت أعرفه قبلها. كان الناشر يصغي بانتباه ويهزّ رأسه ويومئ بيديه. في نهاية تقريري التقنيّ عن أساطير الكائن البشريّ ومعتقداته، صرّح كوريلي بشكلٍ إيجابيّ.

- أرى أنّك قمت بعمل تحليليّ رائع. لم تجد الإبرة في كومة التبن، كما يقال، لكنّك فهمتَ أنّ أهمّ ما تحتويه كومة التبن هي الإبرة المدفونة، وما تبقّى يحال وجبةً للحمير. بمناسبة الحديث عن الحمير، قل لي، هل تعنيك الحكايات؟

- حين كنت صغيرًا، تمنّيتُ لعدّة أشهر أن أصبح مثل إيسوب.

- كلنّا نخلّف آمالاً عظيمة خلال الحياة.

- ماذا كنت تتمنّى أن تصبح، في صغرك، يا سيّد كوريلي؟

- إله.

مسحت ابتسامته الذئبيّة ابتسامتي على حين غرّة.

- إنّ الأقصوصة الخرافيّة من أهمّ الآليّات الأدبيّة التي ابتكرها الإنسان، على ما أظنّ، يا مارتين. هل تعرف ماذا تُعلّمنا؟

- عِبَرٌ أخلاقيّة؟

- لا. تُعلّمنا أنّ الكائنات البشرية تتعلّم وتتشرّب الأفكار والمفاهيم بوساطة السرد والحكاية، وليس بالدروس التربويّة والخُطَب النظريّة. والشيء ذاته ينطبق على أيّ نصٍّ دينيٍّ عظيم. فهو غزيرٌ بقصصٍ تروي عن شخصياتٍ عليها أن تقارع الحياة وتجتاز العراقيل، ومليءٌ بالأشخاص الذين يبحرون في رحلة إثراءٍ روحيٍّ عبر نوائب الدهر ولذّة الاكتشاف. كلّ الكتب المقدّسة هي في جوهرها قصصٌ عظيمة، تحاكي أحداثُها المظاهرَ الأساسيّة للطبيعة البشرية، وتُرفِقها في سياقٍ أخلاقيٍّ معيّن أو في إطارٍ من العقائد الغيبيّة. لقد قرّرتُ أن أجعلك تقضي أسبوعًا تعيسًا في قراءة البحوث والدراسات والآراء والتعليقات كي تدرك بنفسك أنّنا لا نتعلّم شيئًا من كلّ هذا الهراء. إنّها مجرّد تمارين فاشلة على امتلاك الإرادة الحسنة أو الشرّيرة لمحاولة التعلّم فيما بعد. لقد انتهت محادثتنا الأكاديميّة. اعتبارًا من اليوم، أريدك أن تنكبّ على قراءة أقاصيص الأخوين غريم، ومآسي إسخيلوس، وملحمة الرامايانا الهنديّة أو الأساطير السلتيّة. عليك بقراءة أعمالك نفسها. أريدك أن تحلّل آليّة عمل تلك النصوص، وأن تستنبط جوهرها وكيفيّة إنتاجها لردّة الفعل العاطفيّة عند القارئ. أريدك أن تتعلّم القواعد وليس مغزى الحكاية. وأريدك أن تأتيني بشيٍ من بنات أفكارك، في غضون أسبوعين أو ثلاثة... مطلع قصّة ما، مثلاً. أريدك أن تجعلني أؤمن بها.

- ظننتُ أنّنا محترفين ولا ينبغي بنا اقتراف ذنب الإيمان بشيء ما.

ابتسم كوريلي فبانتْ أسنانه.

- من الممكن قبول توبة مذنبٍ، لكنّ القدّيس لا يُغفَر له ذنبٌ أبدًا.

13

كانت الأيّام تمرّ بين القراءات والعقبات. فبعد أن اعتدتُ لأعوام على العيش بمفردي، بفوضويّة الذكر الأعزب، الممنهجة وغير المستحسنة، بات الوجود الراسخ لامرأة في البيت ينغّص طبائعي بشكلٍ طفيف لكنّه مزمن، وقد يعود هذا لكونها مراهِقة مشاكسة ومتقلّبة الأهواء. إذ كنت أؤمن بالفوضى المنظّمة؛ على عكس إيزابيلا. وأؤمن بأنّ الأشياء تجد مكانها في فوضى البيت؛ على عكس إيزابيلا. أؤمن بالعزلة والهدوء؛ على عكس إيزابيلا. حتّى إنّي اكتشفتُ، في غضون يومين، عجزي في العثور على أيّ شيء في بيتي. وإن توجّب عليّ البحث عن قاطع الأوراق أو كأس ماء أو حذاء، فعليّ أن أسألها أين أخفتْه عنايتُها.

- أنا لا أخفي شيئًا. أنا أضع الأشياء في مكانها. شتّان بين هذا وذاك.

ما مرّ يوم إلاّ وساورتني فكرة خنقها ستّ مرّات على الأقلّ. حين ألوذ بمكتبي طلبًا للسلام والسكينة والتفكير، تظهر إيزابيلا بعد دقائق معدودة، وهي تحمل كوبًا من الشاي أو طبقًا من المعجّنات، دون أن تغفل ابتسامتها. وتشرع في التجوّل في أنحاء المكتب؛ تطلّ برأسها من النافذة؛ ترتّب سطح المنضدة، ثمّ تسألني ما الذي أفعله هناك في الأعلى، بهذا الصمت الفائض بالألغاز. اكتشفتُ أنّ الفتيات، في سنّ السبعة عشر عامًا، يمتلكن قدرةً على الثرثرة تحملهنّ على اختبارها كلّ عشرين ثانية. في اليوم الثالث، رأيتُ أنّي مضطرٌّ للبحث لها عن شابّ يرافقها، حبّذا لو كان أصمّ.

- إيزابيلا، هل من المعقول أنّ فتاة حلوة مثلك ليس لديها مَن يسعى إليها؟

- ومن قال لك إنّي لستُ مرغوبة؟

- أ لا يوجد شابٌّ يعجبك؟

- الشبّان في سنّي مملّون. ليس لديهم ما يقولون، وأكثرهم يبدون حمقى وفارغين.

أردتُ أن أخبرها بأنّ العمر لن يُصلِح من طباعهم هذه، لكنّي لم أشأ إفساد فرحتها.

- فأيّ الرجال يعجبك إذن؟

- المتقدّمون في السنّ. مثل حضرتك.

- هل أبدو لك متقدّمًا في السنّ؟

- حسنًا، فلنقل إنّك لم تعد فتيًّا.

آثرتُ اعتبار كلامها مزاحًا على أن يتلقّى غروري ضربةً قاضية. فتدبّرتُ أمري بشيء من السخرية.

- الخبر السارّ أنّ الفتيات الصغيرات معجبات بالرجال الناضجين؛ والخبر السيئ أنّ الناضجين، لاسيّما الكهول الذين يسيل اللعاب من فمهم، يحبّون الفتيات الصغيرات.

- أعرف. تظنّ أني ما أزال ألعق إصبعي.

رمقتني إيزابيلا، وهي تدبّر إحدى مكائدها، وابتسمتْ بلؤم. ها هي تهاجم، قلت لنفسي.

- وهل أنت أيضًا تهوى الفتيات الصغيرات؟

كان جوابي على رأس لساني قبل أن تطرح عليّ السؤال. اتّخذتُ نبرة تعليميّة ومستعلية، كأنّي برفسور في الجغرافيا.

- كنّ يعجبنني حين كنت في عمرك. بشكلٍ عامّ، أميل إلى الفتيات من عمري.

- لم يعدن فتيات في عمرك. ربّما آنسات، أو سيّدات، إن كنت تفضّل.

- انتهى النقاش. ليس لديك شيء تقومين به في الأسفل؟

- لا.

- اذهبي للكتابة إذن. فأنا لا أستضيفك هنا لغسل الأطباق وإخفاء الأغراض. بل لأنّك قلت إنّك ترغبين تعلّم الكتابة، وإنّي المغفل الوحيد الذي تعرفينه قادرًا على مساعدتك في هذا.

- لا داعي للغضب. لم يهبط عليّ الوحي بعد.

- الوحي يهبط حين تسندين مرفقيك إلى المنضدة، ومؤخّرتك على الكرسيّ، وتبذلين الجهد. اختاري موضوعًا، أو فكرة، وشدّي فكّيك بقوّة، حتّى لو توجّعتِ. هذا هو الوحي.

- فكّرتُ بالموضوع مسبقًا.

- هللويا.

- سأكتب عنك.

ساد صمت طويل على نظراتنا المتبادلة، كأنّنا خصمان، يتبادلان النظرة الحاسمة، على رقعة الشطرنج.

- لماذا؟

- تبدو لي مثيرًا للأهميّة. وغريب الأطوار.

- وكهل.

- وسريع الانفعال. كأنّك فتىً في عمري.

وهكذا اعتدتُّ، رغمًا عني، على صحبة إيزابيلا، على سهامها الثاقبة، على النور الذي حملته إلى البيت. إن جرت الأمور على هذا المنوال، فقد تحقّقتْ مخاوفي الكبرى، وبتنا أصدقاء.

- وحضرتك، هل لديك موضوع جاهز، بكلّ تلك الكتب القميئة التي تراجعها؟

قرّرتُ أنّه من الأفضل أن لا أحدّثها كثيرًا عن عملي ذاك.

- ما زلت في مرحلة التوثيق.

- توثيق؟ وما آليّة التوثيق؟

- بشكلٍ أساسيّ، نقرأ آلاف الصفحات كي نتعلّم الضروريّ منها ونصل إلى جوهر الموضوع، وندرك حقيقته العاطفيّة، ثم نمحو كلّ ما تعلّمناه لنبدأ من الصفر.

تأفّفتْ إيزابيلا.

- وما هي الحقيقة العاطفيّة؟

- إنّها الصراحة التي يحتوي عليها الخيال.

- هل يجدر بنا أن نكون نزيهين وطيّبين لنكتب رواية؟

- لا. علينا أن نحترف المهنة. فالحقيقة العاطفيّة ليست سجيّة أخلاقية، بل إنّها تقنيّة.

- تتكلم كالعلماء - اعترضت إيزابيلا.

- الأدب الرفيع، على الأقلّ، هو علمٌ تسري فيه دماءٌ فنيّة. مثل العمارة أو الموسيقى.

- كنت أظنّه شيئًا ما، ينبثق من صميم الفنّان، هكذا فجأة.

- ما ينبثق فجأة هو الزغب والبثور فقط.

تلقّت إيزابيلا تلك الاكتشافات بحماس فاتر.

- أنت تقول كلّ هذا لتثبّط من عزيمتي وترغمني على العودة إلى المنزل.

- ليتني أحصل على هذه النعمة.

- إنّك أسوأ معلّم في العالم.

- المعلّم يصنعه التلميذ، وليس العكس.

- النقاش معك مستحيل. لأنّك بارعٌ في حيل البلاغة كلّها. هذا ليس عدلاً.

- لا شيء عادلٌ. قد نأمل أن يكون منطقيًّا، كحدٍّ أقصى. أمّا العدل، مرضٌ نادرٌ في عالم سليم كسمكة، بالمحصّلة.

- آمين. أهذا ما يحدث للمرء في سنّ الشيخوخة؟ يكفّ عن الإيمان بالأشياء، مثلك؟

- لا. بل كلّما تقدّم الناس في السنّ، يواظب معظمهم على الإيمان بترّهاتٍ يزداد حجمها أكثر بشكلٍ عام. أنا أسير عكس التيّار لأنّي أميل إلى التكاسل.

- لا داعي للحلفان على ذلك. أمّا أنا سأظلّ أؤمن بالأشياء حين أصبح عجوزًا - هدّدتْ.

- حظًا سعيدًا.

- إضافة إلى ذلك، أنا أؤمن بك.

لم تحد أنظارها عني حين حدّقتُ إليها.

- لأنّك لا تعرفيني.

- هذا ما تظنّه أنت. لستَ لغزًا عصيًّا كما تعتقد.

- لا أدّعي أنّي كذلك.

- أنتَ ثقيل ظلٍّ محبوب. أرأيت؟ أنا أيضًا، فالحةٌ في حيل البلاغة.

- هذه ليست بلاغة. إنّما دعابة. وثمّة فرق.

- هل تريد الفوز بكلّ النقاشات؟

- حين يسهّلون عليّ المسألة، إلى هذه الدرجة، أجل.

- وذلك الرجل، ربّ عملك...

- كوريلي؟

- كوريلي. هل يسهّل عليك المسألة؟

- لا. كوريلي بارعٌ أكثر مني في حيل البلاغة.

- توقّعتُ ذلك. هل تثق به؟

- ولماذا تسألين؟

- لا أدري. هل تثق به؟

- ولماذا لا أثق به؟

أبدت إيزابيلا عدم اكتراثها.

- ماذا طلب منك في الحقيقة؟ هل ترفض أن تطلعني على المشروع؟

- سبق وأخبرتك. يريد مني أن أؤلّف كتابًا لدار النشر التي يديرها.

- رواية؟

- ليس بالتحديد. حكاية، بالأحرى. خرافة.

- كتاب للأطفال؟

- شيء من هذا القبيل.

- وستفعلها؟

- إنّه يدفع أجرًا مرتفعًا.

تعجّبتْ إيزابيلا وقطّبتْ حاجبيها.

- ألهذا تكتب؟ لأنه يدفع لك جيدًا؟

- أحيانًا.

- وهذه المرّة؟

- هذه المرّة أؤلّف هذا الكتاب لأنّه عليّ فعل ذلك.

- هل له دَينٌ عليك؟

- من الممكن تسميته هكذا.

قدّرتْ إيزابيلا المسألة. بدا لي أنّها كادت تقول شيئًا، ثم راجعته ولجمت لسانها. بادرتْ بابتسامة بريئة، وبإحدى نظراتها الملائكيّة التي تحسن بها تغيير الموضوع برفّ رمش.

- أنا أيضًا، أتمنّى أن أكتب مدفوعة الأجر - قالت.

- كلّ الذين يكتبون، يتمنّون ذلك، لكنّ هذا لا يعني أنّهم سيبلغون هذا المراد.

- وكيف يبلغون مرادهم؟

- يبدؤون بالنزول إلى الصالة، يأخذون ورقة...

- يسندون مرافقهم إلى المنضدة، ويشدّون أفكاكهم حتى لو توجّعوا. صحيح.

نظرت إلى عينيّ متردّدة. مرّ أسبوعٌ ونصف وهي عندي، ولم أنوّه عن إرسالها إلى ذويها. تخيّلتُ أنّها تتساءل متى سأفعلها، أو لماذا لم أفعلها حتى الآن. أنا أيضًا، كنت أتساءل ولا أجد جوابًا.

- يسعدني أن أكون مساعِدتك، بصرف النظر عن طبعك - قالت أخيرًا.

كانت الفتاة تنظر إليّ كما لو أنّ حياتها متعلّقة بكلمة طيّبة. لم أقاوم السحر. فالكلمات الطيّبة تعبير فارغٌ عن اللطف، لا تتطلّب أيّ تضحية، وهي مرغوبة أكثر من الكلام العمليّ.

- وأنا أيضًا، يسعدني أن تكوني مساعِدتي يا إيزابيلا بصرف النظر عن طبعك. وسأكون أكثر سعادة حين لا أحتاج إليك كمساعِدة، ولا تحتاجين إليّ كي تتعلّمي.

- هل تعتقد أنّ لديّ بعض المؤهّلات؟

- ليس لديّ أيّ شك. خلال عشرة أعوام، ستكونين أنتِ المعلّمة وأنا التلميذ - قلت مكرِّرًا تلك العبارة التي كانت ما تزال تطنّ في أذنيّ كأنّها أصداء خيانةٍ ما.

- كاذب - قالت وهي تقبّل خدّي بِرقّة، لتهرع بعدها نحو السلالم.

14

في العصر، تركتُ إيزابيلا خلف المنضدة، التي وضعناها لها في الصالة، تستجدي أوراقها البيضاء؛ وذهبتُ إلى مكتبة الدون غوستابو برسلوه الكائنة في شارع فيرّان، بقصد الحصول على نسخة جيّدة وقابلة للقراءة من الكتاب المقدّس. ولئن كنت أمتلك السلسلة الكاملة من العهد القديم والعهد الجديد، فإنّها كانت مطبوعة بأحرف مكروسكوبيّة، على ورقٍ شبه شفّاف، والقراءة فيها تصيب بالشقيقة النصفيّة أكثر من التنوّر بالإلهام الإلهيّ. وكان برسلوه، من بين خصاله الكثيرة، مولعًا باقتناء التحف من النصوص المقدّسة والأسفار المسيحيّة، ولديه منزوىً خاصٌّ في عمق المكتبة، يضمّ تشكيلة رائعة من الأناجيل ومذكّرات القدّيسين والأولياء وشتّى صنوف المتديّنين.

حين رآني أحدُ أجرائه أدخل المكتبة، هرع لينبأه بقدومي، إذ كان في مكتبه في المستودع. ظهر برسلوه مبتهجًا من مكتبه.

- يا لروعة ما أرى. سيمبيري كان قد قال لي إنّك بُعثت من جديد، لكنّي أراك مثاليًّا هكذا. لو قارنتُك برودولفو فالنتينو، لبدا الأخير قادمًا للتوّ من الريف. أين كنت مختفيًا، أيّها اللعين؟

- بين هنا وهناك - قلت.

- كنتَ في كلّ مكان، ما عدا حفل زفاف ڤيدال. كم افتقدناك يا صديقي.

- اسمح لي أن أشكّ في ذلك.

أذعن بائع الكتب متنبّهًا لعدم رغبتي بالتعمّق في الموضوع.

- هل تفضّل كوبًا من الشاي؟

- كوبان، إن شئت. وكتابٌ مقدّس أيضًا. أرغب بنسخة عمليّة، إن أمكن.

- لا مشكلة - قال - دالماو!

لبّى أحد باعته النداء.

- اسمع يا دالماو، صديقي يرغب بنسخةٍ من الكتاب المقدّس، لا يكون الخطّ فيها منمقًا، إنّما صالحًا للقراءة. كنت أفكّر بترجمة الأسقف توريس آمات، 1825. ما رأيك؟

من إحدى خصائص مكتبة برسلوه، أنّك تتكلّم فيها عن الكتب كما لو كانت أصنافًا منوّعة من النبيذ المتشابه للغاية، تمتاز عن بعضها بحسب الباقة والنكهة والكثافة وعام التقطير.

- اختيارٌ موفّقٌ جدًا يا سّيد برسلوه، مع إنّي أميل إلى النسخة المحدّثة والمنقّحة.

- 1860؟

- 1893.

- أصبتَ. رسونا عليها إذن. غلّفْها للصديق مارتين، وضعْها على نفقة البيت.

- لا، إطلاقًا - اعترضتُ.

- إن جنيتُ مالاً من بيع كلمة الربّ لكافرٍ مثلك، فلتمزّقْني الصاعقة الهوجاء، ولها كلّ الحقّ في ذلك.

انطلق دالماو بانسيابٍ، يبحث عن الكتاب المقدّس، في حين تبعتُ برسلوه إلى مكتبه حيث قدّم بائع الكتب كوبين من الشاي، وأخرج سيجارًا من المبرّد وعرضه عليّ. فقبِلتُ به وأشعلتُه بلهيب شمعةٍ مدّها إليّ برسلوه.

- ماكانودو؟

- أرى أنّ شدقك يصبح راقيًا. على الرجل أن يتمتّع بعاداتٍ سيّئة، حبّذا لو كانت راقية، وإلاّ لن يجد شيئًا ينعتق منه إذا بلغ أرذل العمر. وبالفعل، ها أنا أرافقك، أيّها الشيطان!

خيّمتْ علينا غمامةٌ من دخان السيجار الكوبيّ الفاخر، كموجةٍ عاتية.

- كنتُ في باريس، منذ عدّة أشهر، وقد اغتنمتُ الفرصة لأجري تحريّاتٍ عن الموضوع الذي تكلّمتَ بشأنه مع الصديق سيمبيري منذ مدّة - قال برسلوه.

- منشورات النور.

- تمامًا. كنت أودّ اكتشاف المزيد، ولكن للأسف منذ أن أغلقت دار النشر، لا يبدو أنّ أحدًا حصل على لوائحها، فأضحى من الصعب الوصول إلى نتائج مُهمّة.

- هل قلتَ إنّها أغلقت؟ منذ متى؟

- عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر، إن لم تخنّي الذاكرة.

- لا بدّ أنّ هنالك خطأ ما.

- إن كنّا نتحدّث عن منشورات النور، الواقعة في شارع سان جرمان، فما من خطأ.

- هي تلك.

- انظر. لقد دوّنتُ كلّ شيء كي لا أنسى أيّ تفصيل ممّا أخبرك عنه.

نقّب برسلوه في دُرج المنضدة، وأخرج كرّاس مفكّرةٍ صغيرًا.

- ها هي: «منشورات النور، الدار التي تُعنى بنشر النصوص الدينيّة، ولديها مقرّاتٌ في كلٍّ من باريس وروما ولندن وبرلين. مؤسّسها ومديرها، أندرياس كوريلي. سنة افتتاح المقرّ الأول في باريس عام 1881».

- مستحيل - غمغمتُ.

شدّ برسلوه كتفيه.

- حسنًا، ربّما أكون قد أخطأتُ ولكن...

- هل تمكّنتَ من زيارة المقرّ؟

- لقد جرّبتُ، في الواقع. لأنّ فندقي كان قبالة البانثيون، بالقرب من هناك تحديدًا، والمقرّ السابق لدار النشر كان على الجانب الجنوبيّ من الشارع، بين جادّة سان جاك وجادّة سان ميشيل.

- وإلامَ توصّلتَ؟

- كان المبنى خاويًا ومغلقًا بالحواجز، يبدو أنّ حريقًا شبّ فيه أو شيئًا من هذا القبيل. أمّا الغرض الوحيد الذي حافظ على سلامته فهو مطرقة البوابّة، تحفة فنيّة رائعة، على شكل ملاك. من البرونز، حسبما رأيتُ. ولولا وجود رجال الشرطة في الجوار، لنشلتُها وهربتُ بعيدًا. لكنّهم كانوا يتربّصون بي، فلم أتملّك من الشجاعة لإحداث أزمةٍ دبلوماسيّة قد تدفع فرنسا لغزونا مجدّدًا.

- لعلّهم يسدوا لنا هذا المعروف، نظرًا للأوضاع الراهنة.

- ليتك قلتَ لي هذا آنئذٍ... بالعودة إلى موضوعنا؛ حين رأيتُ ما آل إليه المبنى، ذهبتُ لأسأل في المقهى المجاور، فقالوا لي إنّه على حاله هذه منذ أكثر من عشرين عامًا.

- هل استطعت أن تعرف شيئًا عن الناشر؟

- كوريلي؟ يبدو أنّ دار النشر قد صفّت أعمالها حين قرّر الاعتزال، رغم أنّه لم يكن قد بلغ الخمسين عامًا بعد. أعتقد أنّه انتقل للإقامة إلى جنوب فرنسا، في أحد القصور الريفيّة عند جبال لوبيرون، وأنّه مات بعد ذلك بزمنٍ قصير. يقال إنّ ثعبانًا، مصّاصًا للدماء، قد لسعه. إن أردتَ نهاية مشابهة، أنصحك بالانتقال إلى البروفانس.

- هل أنت متأكد من أنّه مات؟

- الأب كولينيه، منافسه السابق، أراني شهادة وفاته التي يحتفظ بها في إطار لوحة، كما لو كانت غنيمة. قال إنّه يلقي عليها نظرة كلّ يوم، ليتذكّر أنّ ذلك الملعون الحقير ميّتٌ ومدفون. أقتبس كلامه، بطبيعة الحال، مع أنّ رنينها بالفرنسيّة كان أكثر جمالاً بكثير.

- هل قال لك كولينيه إن كان لكوريلي ابنٌ ما؟

- تولّد لديّ انطباعٌ بأنّ الحديث عن كوريلي لم يكن موضوعه المفضّل، فقد غيّر النقاش حالما تسنّت له الفرصة. على ما يبدو أنّ فضيحةً مجلجلةً قد وقعت حين انتزع منه كوريلي أحد كتّابه، ويدعى لامبرت.

- ما الذي قد حدث؟

- أطرف ما في القصّة أنّ كولينيه لم يتمكّن من رؤية كوريلي أبدًا. وكلّ الاتصالات بينهما تمّت عبر المراسلات التجارية. لبّ المسألة باعتقادي هي أنّ المسيو لامبرت، في ما يبدو، وقّع عقدًا لتأليف كتاب لمنشورات النور، خلسةً عن كولينيه الذي كان يحتكر الكاتب بموجب القانون. لامبرت من المدمنين على الأفيون، وكان غارقًا بما يكفيه من الديون ليطلي بها شارع ريفولي من أولّه إلى آخره. كولينيه كان يشكّ بأنّ كوريلي قد عرض على الكاتب مبلغًا خياليًّا أرغم المسكين على قبوله، لأنّه كان يموت وعليه أن يطمئنّ على مستقبل أولاده.

- ما نوع الكتاب؟

- كتاب ذو محتوىً دينيّ. ذكر كولينيه عنوانه، هراءً باللاتينيّة، يناسب الصيحات الدارجة، يغيب عن بالي الآن. كما تعرف، كتب القدّاس لها أسلوبٌ خاصّ: «Pax Gloria Mundi»/«جاهُ الدنيا فانٍ» أو شيء من هذا القبيل.

- وما الذي حلّ بلامبرت والكتاب؟

- هنا تتعقّد المسألة. يبدو أنّ لامبرت المسكين، إذ استفحل به الجنون، أراد أن يحرق المخطوط، حتّى صلتْه النارُ مع دار النشر برمّتها. يرجّح كثيرٌ من الناس أنّ الأفيون قد خرّب دماغه، لكنّ كولينيه يزعم بأنّ كوريلي هو الذي دفعه إلى الانتحار.

- ولماذا قد يفعل شيئًا كهذا؟

- ومن يدري! ربّما لم يشأ تسديد المبلغ الموعود. ربّما هلوسات كولينيه، فأنا أعرّفه بالشغوف بنبيذ بوجوليه على مدار السنة. بعيدًا عن هذا كلّه، لقد قال لي إنّ كوريلي حاول قتله ليخلّص لامبرت من عقده، ولم يدعه بسلامٍ إلاّ حين قرّر بنفسه أن يفسخ العقد ويطلق سراح المؤلف.

- أ لم تقل إنّه لم يره أبدًا؟

- تمامًا. أظنّ أنّ كولينيه كان يهذي. فحين ذهبتُ لزيارته في بيته، رأيتُ من الصلبان ومنحوتات العذراء وصور القدّيسين ما يفوق أيّ محلّ يبيع هذه الأغراض. أحسستُ بأنّ دماغه لم يكن على ما يرام. وعندما ودّعني قال لي أنْ أحذر من كوريلي.

- ألم يقل لك إنّه قد مات؟

- هذا ما أقصده.

تدثّرتُ بالصمت. كان برسلوه ينظر إليّ في حيرةٍ من أمره.

- لديّ إحساسٌ بأنّ نتائج أبحاثي لم تفاجئك كثيرًا.

افتعلتُ ابتسامة محايدة، كي أنزع الأهميّة عن المسألة.

- على العكس. بل أشكرك لأنّك فرّغتَ من وقتك لهذه التحريّات.

- لا شكر. فأنا أحبّ الطواف في باريس للتحقّق من صحّة الأقاويل. وأنت تعرفني جيدًا.

انتزع برسلوه الورقة من الكرّاس، تلك التي دوّن عليها ملاحظاته، وأعطاني إيّاها.

- قد تفيدك. هنا يوجد كلّ ما استطعتُ التحقّق منه.

نهضتُ وصافحتُ يده. رافقني حتّى المخرج حيث حضّر لي دالماو الطرد الصغير.

- إن أردتَ صورة صغيرة ليسوع الطفل، وهو يفتح عينيه ويغمضهما بحسب زاوية الرؤية، فلدينا منها أيضًا. وأخرى للعذراء، المحاطة بالملائكة الصغار، التي إذا أدرتَها يتحوّلون إلى ملائكة الشاروبيم البدينة. معجزة تقنيّة الطباعة المجسّمة.

- حتى الآن، تكفيني كلمة الربّ المتجليّة.

- فلتكن مشيئته!

كنت ممتنًّا لجهود بائع الكتب التي أمدّتني بالشجاعة، لكنّي كلّما ابتعدتُ شعرتُ بلدغة اضّطراب، وبأنّ الطرقات - مثل مصيري - عالقة في رمالٍ متحرّكة.

15

على طريق البيت، توقّفتُ عند واجهة محلّ قرطاسية، في شارع أرخنتيريا. ثمّة حافظةٌ خشبيّة، تتألق فوق قطعة قماش مزخرفة، وتحتوي على ريشات قلم حبرٍ، له قبضةٌ مصنوعة من عاج، متناسقة اللون مع محبرةٍ بيضاء، نُقِشت على مدارها جوقةٌ من ساحرات الجنّ أو الحوريّات. كان منظر تلك الأشياء مجتمعةً يأخذ طابعًا ميلودراميًّا، نوعًا ما، كأنّها مسروقة من منضدة أحد الأدباء الروس، أولئك الذين تسيل دماؤهم حبرًا على آلاف الصفحات. ومن جهة أخرى، كنت أحسد إيزابيلا على خطّها المبهر، الواضح والنقيّ، مثل ضميرها؛ ما أشعرني بأنّ مجموعة الريشات تلك تليق باسمها. دخلتُ وطلبتُ من البائع أن يعرضها عليّ. كانت الريشات مطليّة بالذهب، وثمنها مكلف أيضًا، لكنّي لا أبذّر إن بادلتُها كلّ الاحترام والصبر، اللذين تكرّسهما في مساعدتي، بخطوةٍ لطيفة من ذلك النوع. حسمتُ قراري إذن؛ وطلبتُ من البائع أن يغلّفها بورقٍ قرمزيّ لمّاع، وعقدةٍ أضخم من عربة.

وإذ وصلتُ إلى البيت، هيّأتُ نفسي لتذوّق شعورٍ أنانيّ بالرضا يتأتّى من الحضور بهديةٍ أحملها بين يديّ. وحين أوشكتُ على مناداة إيزابيلا، كما لو أنّها كلبٌ وفيّ لا يفعل شيئًا سوى انتظار صاحبه بفارغ الصبر، فوجئتُ بما رأيتُ وأنا أفتح الباب. كان باب الغرفة في آخِر الممرّ مفتوحًا، ويعرض على الأرضيّة خطّ نورٍ مصفّرٍ وومومض.

- إيزابيلا؟ - ناديتُها، وقد جفّ ريقي.

- إنّي هنا.

جاء الصوت من داخل الغرفة. تركتُ الطرد على طاولة البهو الصغيرة وتقدّمتُ. توقّفتُ عند العتبة ونظرتُ نحو الداخل. كانت إيزابيلا جالسة على الأرض، وقد وضعتْ شمعة في كأسٍ طويلة، وكرّستْ نفسها بشغفٍ لهوسها الثاني بعد الأدب: ترتيب بيوت الآخرين.

- كيف دخلتِ؟

نظرتْ إليّ باسمةً وشدّت كتفيها.

- كنتُ في الصالة وسمعتُ صوتًا غريبًا. ظننتُ أنّك قد عدت. وحين خرجتُ إلى الممرّ وجدتُ باب هذه الغرفة مفتوحًا. خلتُ أنّك نوّهتَ في السابق أنّها مغلقة دومًا.

- اخرجي. لا أحبّ أن تدخلي إلى هذه الغرفة. إنّها شديدة الرطوبة.

- يا للسخف! بدل أن تحثّني على ترتيب كلّ هذه الفوضى. هيّا انظر. انظر ماذا وجدتُ.

ارتبكتُ.

- ادخل، هيّا.

دخلتُ الغرفة وجلستُ القرفصاء بقربها. كانت إيزابيلا قد صنّفت الأغراض والصناديق بحسب الأنواع: كتب، ألعاب، صور، ثياب، أحذية، نظّارات. أجلتُ بصري جزءًا إلى كلّ تلك الأشياء؛ في حين تبدو إيزابيلا مسحورة كما لو أنّها اكتشفت كنوز الملك سليمان.

- هل كلّ هذه الأغراض لك؟

هززتُ رأسي نافيًا.

- إنّها لصاحب البيت السابق.

- هل كنت تعرفه؟

- لا. كان كلّ شيء هنا منذ سنوات حين انتقلتُ.

كانت تحمل بين يديها طردًا صغيرًا فيه رسائل. أعطته لي كأنّنا في تجربة تعليميّة.

- أعتقد أنّي اكتشفتُ ما اسمه.

- لا تقوليها.

ابتسمتْ إيزابيلا، مولعة بطموحها للعمل بالتحقيقات، طبعًا.

- مارلاسكا - أفصحتْ - يدعى دييغو مارلاسكا. ألا يبدو لك غريبًا؟

- ماذا؟

- أنّ أوّل حرف من اسمه وكنيته مثلك: د. م.

- إنّها مجرّد صدفة. عشرات آلاف الناس في هذه المدينة، تبدأ أسماؤهم بهذين الحرفين.

غمزتْ إيزلابيلا بعينها. كانت تلهو مثلما لم تفعل من قبل.

- انظر ماذا وجدتُ.

كانت قد أخرجت علبة من الصفيح المليئة بالصور القديمة. صورٌ من زمانٍ آخر؛ وبطاقاتٌ تذكاريّة من برشلونة العتيقة، وأبنيةٍ قد هُدّمتْ في منتزه القلعة من أجل المعرض الدوليّ عام 1888، ومبانٍ كبرى وقبيحة ومتداعية، وشوارعٍ مكتظّة بالمارّة في زيّ احتفالٍ يليق بتلك الحقبة، وعرباتٍ وذكريات تطفح بلون طفولتي. وجوهٌ ونظراتٌ هائمة ترمقني من على بُعد ثلاثين عامًا. بدا لي أنّي قد تعرّفتُ إلى وجه ممثّلة شعبيّة، تظهر في أكثر من صورة، كانت ذائعة الصيت أيّامَ صباي، إلى أن طواها النسيان منذ أمدٍ بعيد. كانت إيزابيلا تنظر إليّ صامتةً.

- هل عرفتها؟ سألتْ.

- اسمها إيرينا سابينو، على ما أظنّ. كانت ممثلة مشهورة على مسارح البارالِيلو. منذ زمنٍ بعيد. قبل أن تولدي أنتِ.

- فانظر إلى هذه إذن!

أعطتني إيزابيلا صورةً، تظهر فيها إيرينا سابينو وهي تتكئ إلى حافّة نافذةٍ، سرعان ما شبّهتُها بإحدى نوافذ مكتبي، في قمّة البرج.

- مثيرة للاهتمام، أليس كذلك؟ - سألت إيزابيلا - هل تعتقد أنّها كانت تعيش هنا؟

عبّرتُ بلا مبالاة.

- ربّما كانت عشيقة ذاك، دييغو مارلاسكا...

- بأيّ حال، لا أعتقد أنّ هذه شؤوننا.

- كم أنت بليد، أحيانًا.

أعادت إيزابيلا الصور إلى العلبة، فإذا بإحداها تسقط من يدها، لتحطّ على قدميّ. حملتُها وتفحّصتُها. إيرينا سابينو، بزيّ أسود مبهر، مع مجموعة من الأشخاص الذين يرتدون لباس السهرة، في ما بدا لي أنّي عرفتُه بصالون نادي إكويستري. صورةٌ من حفلة ليس إلاّ، لم تكن لتستدعي انتباهي، لولا وجود رجلٍ أبيض الشعر في الصفّ الثاني، عند زاويةٍ في الصورة شبهِ متآكلة، يقف أعلى السلالم: أندرياس كوريلي.

- لقد اصفرّ وجهك - قالت إيزابيلا.

انتزعت الصورة من بين يديّ وراحت تتأملّ فيها دون أن تدلي بشيء. نهضتُ وأشرتُ لها بالخروج من الغرفة.

- لا أريد أن تدخلي إلى هنا أبدًا بعد اليوم - قلت منهك القوى.

- لماذا؟

انتظرتُ خروجها وأغلقتُ الباب. كانت تنظر إليّ كما لو أنّي تجرّدتُ من شخصيتي الحقيقيّة.

- غدًا ستُبلغين راهبات الإحسان بأن يأتين لأخذ هذه الأغراض. فليحملن كلّ شيء يرونه مفيدًا، وليرمين ما تبقّى بعيدًا.

- ولكن...

- لا تناقشي.

حرصتُ على عدم مجابهة نظراتها، فاتجهتُ نحو السلالم التي تفضي إلى المكتب. كانت إيزابيلا ترمقني من الممرّ.

- من هو ذلك الرجل، يا سيّد مارتين؟

- لا أحد - غمغمتُ - لا أحد.

16

صعدتُ إلى المكتب. كانت ليلة ظلماء، لا قمر في سمائها ولا نجوم. فتحتُ النوافذ على مصاريعها، وأطللتُ برأسي لأنظر إلى المدينة الغارقة في الظلّ. ثمّة نسمة منعشة بالكاد، وما لبث العَرَق ينهش جلدي. جلستُ على حافّة النافذة، وأشعلتُ السيجار الثاني الذي تركته إيزابيلا على المنضدة قبل أيّام، أنتظر نفحة ريحٍ تمحو الفتور، أو فكرةً يعوَّل عليها أكثر من ذلك القدْر من الأفكار العامّة التي أنجز بها المَهمّة مع ربّ عملي. فإذا بي أسمع صرير دفّة النافذة، في غرفة نوم إيزابيلا، تنفتح في الطابق الأسفل. انبسط مثلثٌ من نورٍ على مدخل البيت، فرأيتُ جانب وجهها يتبدّى في الداخل. اقتربت إيزابيلا من النافذة، وغرقت في الظلّ دون أن تنتبه لوجودي. رأيتُها تخلع ثيابها قطعة قطعة. رأيتُها تقف أمام مرآة الخزانة، لتفحص جسمها وتلمس بطنها بأناملها، وتداري الخدوش التي نالت نصيبًا من عمق فخذيها وذراعيها. تأملّتْ نفسها طويلاً، عارية كليًّا سوى من نظرةٍ مقهورة. ثم أطفأت الضوء.

عدتُ إلى المنضدة وجلستُ خلف أكوام الملاحظات والمدوّنات التي جمعتها لكتاب ربّ عملي. راجعتُ تلك المسوّدات من حكاياتٍ تغصّ بالرؤى الغرائبيّة، والأنبياء الذين كابدوا لحظاتٍ مرعبة، وعادوا بالحقيقة الساطعة. وكم صادفتُ من مسيانيين رُضّعٍ، ألقي بهم عند أبواب عائلات فقيرة وطاهرة، لأنّهم مضّطهدون من قِبل الأباطرة الأشرار والملحدين. كم التقيتُ بجنانٍ موعودة، ذات أبعادٍ خرافيّة، تفتح أبوابها لكلّ مَن كان يتمتّع بروحٍ رياضيّة مُسَلِّمًا بالقَدَر وقواعد اللعبة. وكم مررتُ بآلهة خمولين، لهم صفات البشر وسماتهم، لا يفعلون شيئًا سوى تشديد الرقابة التخاطريّة على ضمائر ملايين المرهفين المتعالين، الذين كاد الوقت يفوتهم قبل أن يتعلّموا ويكتشفوا بأنّهم مجرّد منسيّين يواجهون مصائرهم بمفردهم في زاوية نائية من هذا الكون، مصائرهم التي حملتهم إلى الاعتقاد، بدافع الخيلاء أو اليأس، بأنّ مَن في السماء والجحيم لا همّ له سوى التفكير بآثامهم السخيفة وذنوبهم المنحطّة وخطاياهم العاثرة.

تساءلتُ إن لم يكن ربّ عملي قد اعتبرني مرتزِقًا، مختلّ الذهن، لا يؤنّبه ضميره، ولا يجد حرجًا في تأليف حكايةٍ مخدِّرة قادرة على إرسال الأطفال إلى أسرّتهم، أو إقناع شيطانٍ مسكينٍ خائبٍ في قتل جاره مقابل هبةٍ أبديّةٍ من الإله الذي يشارك القتلةَ أخلاقهم. قبل أيّام، كنتُ قد تلقّيتُ رسالة أخرى من تلك التي يحدّد فيها ربّ عملي موعدًا للنقاش حول مستجدّاتي. ادلهمّت فيّ الهواجسُ، فقلت لنفسي إنّ الموعد بعد أربع وعشرين ساعة فقط، وإنّي قد أخاطر بالمثول أمامه بيدين فارغتين ورأس مليئة بالشكوك والتساؤلات، إذا بقيتُ على هذه السرعة. ونظرًا لانعدام البدائل، فعلتُ ما كنت قد فعلتُه لأعوام طويلة، في مواقف مماثلة. أدخلتُ ورقة في اسطوانة الأندروود، ووضعتُ يديّ على لوحة المفاتيح، كعازف بيانو ينتظر إشارة البدء. ورحت أشدّ فكّيّ، لعلّ هذا يُنتج شيئًا ما.

17

- مثير للاهتمام - قال ربّ العمل حالما انتهى من قراءة الصفحة العاشرة والأخيرة - غريبٌ لكنّه مثير للاهتمام.

كنّا جالسين على أحد المقاعد في منتزه القلعة، تحت فيء عريشة، أنفاسُها من سرابٍ مذهّبٍ. كان النور يتغلغل بين وريقات الشجر، فتحيله إلى غبارٍ ذهبيّ؛ والحديقة البيئيّة تنقش بتدرّجات الضوء غرابةَ ذلك الظلّ المضيء الذي يحيط بنا. أشعلتُ سيجارة ونظرتُ إلى الدخان يتصاعد من بين أصابعي كخيوطٍ زرقاء.

- «غريب» صفةٌ تبعث على القلق، إذا نطقتَ بها حضرتك - أشرتُ.

- أقصد بالـ«غريب» ما يناقض الاعتياديّ - حدّد كوريلي.

- ولكن؟

- لا وجود لـ«لكن» يا صديقي. أرى أنّك سلكتَ دربًا مهمًّا بمؤهّلاتٍ كبيرة.

بالنسبة إلى الروائيّ، إذا قالوا له إنّ إحدى صفحاته مثيرة للاهتمام، وفيها مؤهّلات، فهذه دلالة على وجود مشكلة. بدا كوريلي كأنّه قرأ اضطرابي.

- لقد قمتَ بإلتفافةٍ حول الموضوع. بدلاً من العودة إلى المصادر الميثولوجية، بدأتَ من المصادر الأقرب إلى النثر. هل لي أن أسألك من أين أتتك فكرة المسيح المحارب بدلاً عن المسيح المسالم؟

- حضرتك أشرتَ إلى البيولوجيا.

- كلّ ما نحتاج معرفته مكتوبٌ في كتاب الطبيعة الكبير. علينا التمتّع بالشجاعة وصفاء الذهن وخفّة الروح لنقرأه - أفاد كوريلي.

- أحد الكتب، التي عدتُ إليها، كان يفسّر أنّ الذكر البشري يبلغ النقطة الحرجة من الخصوبة في السابعة عشر عامًا. أمّا المرأة، تبلغه في ما بعد، وتحتفظ به، وتتصرّف على أنّها صاحبةُ قوّةٍ اختياريّةٍ ومُحكِّمةٍ للخلايا الوراثيّة، فتسمح بإعادة إنتاج بعضها وتنبذ بعضها الآخر. أمّا الذكر، ببساطة، يقتصر دروه على الاقتراح، ويستهلك قواه بسرعة أكبر. ويبلغ ذروة نشاطه الإنتاجيّ في السنّ ذاتها التي تبلغ روحه المناضلة تلك النقطة الحرجة. وهكذا، يجدر بالجنديّ المتكامل أن يكون شابًّا. يتمتّع بطاقةٍ هائلة من العدوانيّة، وقدرة شحيحة أو معدومة على تحليلها وتحديد استعمالها. على مرّ التاريخ، وجدتْ كثيرٌ من المجتمعات الوسيلةَ لتوظيف رأس مال العدوانيّة هذا، فجنّدوا المراهقين، وحوّلوهم إلى وقود آلة حربٍ لإخضاع الجيران أو صدّ غزواتهم. فحدّثتني نفسي بأنّ بطل حكايتنا كان مرسلاً من السماء، لكنّه في المرحلة الأولى من شبابه كان يتمرّد بالسلاح، ويكشف الحقيقة على صليل السيوف.

- هل قرّرتَ أن تخلط التاريخ بالبيولوجيا يا مارتين؟

- فهمتُ من كلامك أنّهما الشيء ذاته.

ابتسم كوريلي. لا أعلم إن كان يقصدها، لكنّه بدا بتلك الابتسامة كذئبٍ جائع. مضغتُ ريقًا وتجاهلتُ ذلك التعبير الذي تقشعرّ منه الأبدان.

- فكّرتُ في الأمر، وأدركتُ أنّ معظم الديانات الكبرى رسّختْ أصولها، أو بلغتْ النقطة الحرجة من التمدّد والتأثّر، إبّان اللحظات التاريخية التي تغدو فيها المجتمعاتُ قاعدةً بشريّةً يتناسب فيها تزايد الفقر مع كثرة الشبّان، حيث إنّ سبعين بالمائة من الشعب هم ما دون الثمانية عشر عامًا، ونصفه من الذكور المراهقين الذين تسري العدوانيّة والخصوبة في عروقهم المتأجّجة، ما يجعلهم تربةً صالحةً وملائمةً للتسليم بالإيمان وفورته.

- إنّه تبسيط، لكنّي أفهم أين تريد أن تصل يا مارتين.

- أعرف. ولكن باعتماد هذه الخطوط العامّة، تساءلتُ لماذا لا نذهب مباشرة إلى لبّ المسألة وابتكار أسطورةٍ حول هذا المسيح المحارب، المجبول من الغضب والدماء، يخلّص قومه وخلاياهم الوراثيّة ونساءهم وعجزتهم، الضامنين للعقيدة السياسيّة والعرقيّة، من الأعداء؛ أيْ كلّ أولئك الذين لا يسلّمون بشريعته أو لا يخضعون لها.

- والناضجين؟

- سنصل إلى الناضجين حين نجعله يلبّي نداء خيبته. فكلّما تقدّم المرء بالحياة، وتوجّب عليه التخلّي عن الأوهام والأحلام ورغبات الصبا، تضاعف شعوره بأنّه ضحيّة العالم والآخرين. نحن نجد دومًا مَن نتّهمه بفشلنا أو تردّي أحوالنا، ونجد دومًا مَن نستثنيه. فاعتناق العقيدة يعجل من هذا الكرب إيجابيًّا، وجَلد الذات يمنح الطمأنينة والقوّة. وهكذا يشعر الناضج بنفسه جزءًا من الجماعة، فيسمو برغباته وشهواته الضائعة عبْر الجماعة.

- ربّما - أشاد كوريلي - وماذا عن كلّ أيقونات الموت والرايات والدروع؟ ألا تبدو لك مضرّة؟

- بل تبدو لي جوهريّة. الرداء يصنع الراهبَ، لكنّه يصنع المؤمنَ خصوصًا.

- وماذا تحدّثني عن النساء، عن النصف الآخر؟ المعذرة، إنّي أستصعب تصوّر أن يومن جزءٌ جوهريٌّ من النساء، في مجتمع ما، بالرايات والدروع. سيكولوجيا الكشّافة تخصّ الذكور المرهفين.

- كلّ الأديان المنظّمة، باستثناءاتٍ نادرة، ترتكز في الأساس على إخضاع المرأة واضطهادها وسحق دورها في الجماعة. على المرأة أن ترضى بدور الحضور السماويّ، السلبيّ والأموميّ، وألاّ تفكّر أبدًا بالسلطة أو الاستقلاليّة، وإلا تحمّلتْ عواقب ذلك. قد يكون لها مكانة شرف بين الرموز، ولكن ليس في الهرميّة. فالدين والحرب من شؤون الذكر. وبأيّ حال، قد ينتهي بها المطاف للتواطؤ معه على اضطّهاد نفسها بنفسها.

- والكهول؟

- الشيخوخة هي بلسم الإيمان. حين يطرق الموت أبوابنا، يهرب الشكّ من النافذة. نوبةٌ قلبيّة خانقة ترغمنا على الإيمان حتّى بالكبش الأحمر.

قهقه كوريلي.

- حذار يا مارتين، يبدو لي أنّك تصبح شكّاكًا أكثر مني.

نظرتُ إليه كما لو كنت تلميذًا نجيبًا ومتلهّفًا للحصول على ثناء معلمه المتطلّب وصعب المراس. ربّت كوريلي بيده على ركبتي وهو يومئ مستحسنًا.

- هذا يعجبني. عطر كلّ هذا يعجبني. أريدك أن تفكّر أكثر وتعطي فكرتك شكلاً ما. سأمنحك مزيدًا من الوقت. سنلتقي بعد أسبوعين أو ثلاثة. وسأخبرك قبل بضعة أيّام.

- هل ستغادر المدينة؟

- إنّي منشغلٌ بمسائل دار النشر، وقد أسافر لأيّامٍ طوال. لكنّي سأغادر مسرورًا. لقد أبليتَ بلاءً حسنًا. كنت أعلم أنّي وجدتُ مرشّحي المثاليّ.

نهض ربّ العمل ومدّ يده. جفّفتُ يدي ببنطالي من العرق المتصبب من معصمي، وصافحتُه.

- سنفتقدك - ارتجلتُ.

- لا تتملّقْ يا مارتين، فتفسدَ نجاحك.

رأيتُه يبتعد في سراب العريشة، وأصداء خطواته تتبدّد في الظلّ. بقيتُ هناك مزيدًا من الوقت، متسائلاً إن كان ربّ عملي ابتلع الطعم وصدّق كومة الأباطيل التي ألقيتُها على مسامعه للتوّ. كنتُ متأكدًا من أنّي رويتُ عليه ما كان يودّ أن يسمعه تمامًا. وكنت آمل أنّ الأمور سارت هكذا، وأنّه ارتضى بذلك القدْر من الأكاذيب حتى اللحظة، واقتنع بأنّ الداعي، الروائيّ البائس الفاشل، قد انضمّ إلى الحركة. فكّرتُ أنّه لا بدّ أن أحاول كسب المزيد من الوقت، بأيّ طريقة، كي أفهم أين كنت قد أقحمتُ نفسي. حين نهضتُ، وابتعدتُ عن ظلال العريشة، كانت يداي ما تزالان ترتجفان.

18

إنّ أعوامًا من الخبرة في مجال كتابة الروايات البوليسيّة تقدّم جملةً من المبادئ الأساسيّة التي تفيد المحقّق في تحرّياته. وأحد هذه المبادئ، أنّ كلّ الحبكات تقريبًا، تلك المتينة بما فيه الكفاية، بما فيها الحبكات العاطفيّة، تبدأ وتنتهي في ظلّ خفايا الأموال والملكيّات العقاريّة. فما إن خرجتُ من تحت العريشة، حتّى اتجهتُ مباشرة إلى مديريّة السجلاّت التجاريّة، الواقعة في شارع كونسيخو دي ثينتو، حيث طلبتُ الاطلاع على الملفّات التي توثّق عمليّة شراء بيتي وبيعه وملكيّته. وكانت الملفّات في مديريّة السجلاّت تحتوي على فائضٍ من المعلومات حول حقيقة الحياة، بقدر ما تحتوي عليه الأعمال الكاملة لكبار الفلاسفة اللامعين، وربّما أكثر.

بدأتُ من الاطلاع على الفصل الذي يشمل عمليّة تأجير العقار، الكائن في 30 شارع فلاساديرس، على اسمي. وعثرتُ فيه على الإرشادات الضروريّة لغربلة تاريخ المبنى قبل حصول مصرف هسبانو كولونيال على ملكيّته عام 1911، وذلك تنفيذًا لمصادرة العقار من آل مارلاسكا، ويبدو أنّ المصرف قد ورث المبنى إثر وفاة صاحبه. وفي تلك الصفحات، يُذكَر اسمُ محامٍ، يُدعى س. ڤاليرا، كان قد رافَعَ عن العائلة طوال القضيّة. ثمّ قفزتُ مرّة أخرى إلى الماضي، ما سمح لي باكتشاف معلوماتٍ حول حصول الدون دييغو مارلاسكا بونجلوبي عام 1902 على البيت من سيّدٍ يُدعى برنابيه ماسوت ي كابالايه. ودوّنتُ كلّ المعطيات على ورقةٍ جانبيّة، من اسم المحامي إلى المشاركين في نقل الملكيّة وتواريخه. نوّه أحد الموظفيّن، بصوتٍ جهير، عن الإغلاق خلال خمس عشرة دقيقة، فتهيّأتُ للانصراف. ولكنّي اتّجهتُ للاطلاع، في عجالة، على ملكيّة مسكن أندرياس كوريلي، قرب منتزه غويل. قضّيتُ الخمس عشرة دقيقة في البحث سدىً، ثم رفعتُ عينيّ عن الملّف لأصطدم بنظرة السكريتير الرماديّة. كان رجلاً هزيلاً، يصبغ شعره وشاربه بالدهن اللامع، وملامحه تطفح بذلك الخمول الجدليّ، النموذجيّ لمن يستغلّ منصب عمله في تنغيص حياة الآخرين.

- المعذرة. لا أتمكّن من العثور على أحد العقارات - قلت.

- ربّما لأنّه غير موجود، أو لأنّك لا تعرف طرق البحث. لقد أغلقنا اليوم.

فأجبتُ على تدفّق المودّة والجدارة ذاك بأفضل ابتسامة لديّ.

- وربّما أعثر عليها بسهولة، إذا ما ساعدني خبيرٌ مثلك - قلت.

توجّه إليّ بنظرة مشمئزّة، وانتزع الملفّ من بين يديّ.

- عد في الغد.

كانت محطّتي التالية نقابة المحامين، الواقعة في مبنىً فخريٍّ في شارع مايوركا، على بعد عدّة مربّعات من هناك. صعدتُ السلالم التي تنيرها أضواء الكريستال، ويحرسها تمثال العدالة النصفيّ، والذي كانت ملامحه تليق بنجمةٍ في مسارح الباراليلو. استقبلني في أمانة السرّ رجلٌ ضامر البنية، يشبه الفأر، وسألني بابتسامةٍ سخيّة عمّا إذا كان بوسعه أن يساعدني.

- أبحث عن محامٍ.

- أتيتَ إلى المكان المناسب. فهنا باتوا يتكاثرون كلّ يوم، ولم نعد نعرف كيف نزيحهم عن كاهلنا. يتزايدون مثل الأرانب.

- هذه مساوئ العالم الحديث. أبحث عن محامٍ يُدعى، أو كان يُدعى، ڤاليرا، س. ڤاليرا.

غاص الرجل الهزيل في متاهةٍ من الجداول، وهو يغمغم هامسًا. انتظرتُه متكئًا إلى الطاولة، وجالت نظراتي على ذلك الأثاث الموسوم بثقل القانون الموجع. عاد الرجل، بعد خمس دقائق، حاملاً أحد المصنّفات.

- توصّلتُ لعشرة محامين باسم ڤاليرا. تبدأ أسماء اثنين منهم بالسين. سيباستيان وسوبونثيو.

- سوبونثيو[10]؟

- حضرتك ما تزال شابًّا، لكنّ هذا الاسم كان شائعًا وراقيًا منذ أعوام خلت، سيّما أنّه كان ملائمًا لمن يزاول مهنة المحاماة. ثم اجتاحتنا صيحة الشارلستون ودمّرت كلّ شيء.

- وهل العمّ سوبونثيو ما يزال حيًّا؟

- بحسب الأرشيف وانقطاع مبالغ التأمين عن النقابة، فإنّ سوبونثيو ڤاليرا ي ميناشو انتقل إلى جوار ربّه عام 1919. «Memento mori»/«الموتُ حقّ»[11]. سيباستيان ابنه.

- هل ما يزال يمارس عمله؟

- بهمّةٍ ونشاط. أظنّ أنّ حضرتك تريد عنوانه.

- إن لم يكن لديك مانعٌ يا سيّدي.

سجّل الرجل العنوان على ورقة صغيرة، وأعطاني إيّاها.

- دياغونال، 442. على مرمى حجرٍ من هنا، مع إنّ الساعة تجاوزت الثانية، والمحامون في هذه الأيّام ينصرفون للغداء مع وريثاتٍ أرامل ثريّاتٍ أو أصحاب مصانع النسيج والمتفجّرات. برأيي أن تنتظر حتّى الرابعة.

وضعتُ العنوان في جيب سترتي.

- وهو كذلك. شكرًا جزيلاً على المساعدة.

- نحن هنا من أجل هذا. في رعاية الله!

كان لديّ فراغُ ساعتين قبل زيارة المحامي ڤاليرا، لذا ركبتُ الترام حتّى شارع لايتانا ونزلتُ عند تخوم حيّ كوندال. إذ كانت مكتبة سيمبيري وأبناؤه على مسافة قصيرة من هناك، وتجربتي تفيد بأنّ البائع العجوز لم يكن يغلق في استراحة الظهيرة، مناهضًا ديدن التجارة المحليّة. وجدتُه كالعادة، يرتّب الكتب على المصطبة ويخدم عددًا كبيرًا من الزبائن في طوافهم بين الطاولات والرفوف لاصطياد كنزٍ ثمين. ابتسم حين رآني واقترب ليسلم عليّ. كان يبدو أكثر ضُمورًا، ووجهه أكثر شحوبًا، من آخر مرّةٍ التقيتُ به. ولا بدّ أنّه قرأ الاضطراب في نظرتي، لأنّه عبّر عن لا مبالاته مومئًا بما يفرّغ الموضوع من أهميّته.

- الحظّ جائرٌ في قسمته. أنتَ أصبحتَ وسيمًا، وأنا أمسيتُ حطامًا. هل رأيت؟ - قال.

- هل أنت بخير؟

- أنا مثل زهرة. إنّها أعراض الخناق اللعين. لا شيء يستدعي القلق. ما الذي جاء بك إلى هذه الأنحاء، يا صديقي مارتين؟

- كنت أفكر في دعوتك للغداء.

- أشكرك، لكنّي لا أستطيع ترك الدفّة. ابني ذهب إلى ساريا ليقيّم مجموعة من الكتب، والعمل ليس في أفضل حالاته كي نغلق المحلّ في وجه الزبائن.

- لا تقل لي إنّكم في ورطة ماديّة.

- هذه مكتبة يا مارتين، وليست مكتب كاتبٍ بالعدل. فالكتابة بالكاد تسدّ الاحتياجات الضروريّة، وأحيانًا لا تسدّها حتّى.

- إن كنتَ بحاجة لمساعدة...

قاطعني سيمبيري رافعًا يده.

- إن أردتَ مساعَدتي حقًّا، اشترِ منّي كتابًا.

- أنت تعرف أنّي ممتنّ لك بدَينٍ لا يُوفى بالمال.

- وهذا سببٌ إضافيٌّ كي لا تراودك الفكرة ثانيةً. لا تقلق بشأننا يا مارتين، فلن يطردنا أحدٌ من هنا إلا في نعشٍ من خشب الصنوبر. لكنّك، إن أردتَ، بإمكانك الانضمام إلى غدائي الشهيّ، المكوّن من خبزٍ وزبيبٍ وجبن البورغوس الطازج. بهذا الطعام، وسلسلة كونت مونتكريستو لدوما، بوسعنا البقاء على قيد الحياة مائة عام.

19

لم يمسّ سيمبيري طعامه بالكاد. كان يبتسم متعَبًا، ويتظاهر باهتمامه بتعليقاتي، وكان من الجليّ أنّه يتنفّس بصعوبة أحيانًا.

- قل لي يا مارتين، علام تعمل الآن؟

- من الصعب شرح ذلك. كتاب، بطلبٍ خاصّ.

- رواية؟

- ليس تمامًا. لا أدري كيف أعرّفه.

- المهمّ أنّك تعمل. لطالما قلتُ إنّ الخمول يضعف الإلهام. ينبغي بالمرء أن يظلّ مشغول العقل. وإن كان بلا عقل، فعليه أن يُشغِل يديه بشيء ما، على الأقلّ.

- لكنّنا أحيانًا نعمل أكثر من المطلوب، يا سيّد سيمبيري. ألا يجدر بك أن تأخذ قسطًا من الراحة؟ منذ متى وأنت هنا، على جبهات النار، تكدح بلا هوادة؟

نظر سيمبيري حوله.

- هذا المكان هو حياتي يا مارتين. أين تريدني أن أذهب؟ إلى مقعد في حديقة، كي أتشمّس وأطعِم الحمَام وأتأوّه من آلام الروماتيزم؟ إن فعلتُها، قد أموت بعد عشر دقائق. هذا المكان مكاني. وابني ليس قادرًا بعد على تولّي زمام الأمور حتى لو ظنّ أنّه كفؤٌ لها.

- لكنّه عامل نشيط. وشخص رائع أيضًا.

- إنّه طيّب القلب أكثر من اللازم. فليبقَ الكلام سرًّا بيننا. أحيانًا أنظر إليه، وأسأل نفسي ما الذي سيحلّ به إذا باغتني الموت. كيف سيتدبّر أمره...

- كل الآباء يقولون هذا يا سيّد سيمبيري.

- حتى أبوك؟ المعذرة لم أكن أقصد...

- لا عليك. والدي كان لديه ما يشغله ويكدّر حياته، فضلاً عن تلك المنغّصات التي سبّبتُها له. ابنك يعرف كيف يتدبّر أمره أفضل ممّا تتصوّر بكثير.

نظر إليّ سيمبيري مرتبكًا.

- أتعلم ما الذي ينقصه، برأيي؟

- اللؤم؟

- امرأة.

- لن يفتقر للعشيقات، ما دامت واجهة المحلّ تحتشد بالحسناوات اللواتي يأتين للترنّم به.

- أنا أتكلّم عن امرأة حقيقيّة، واحدة من اللواتي يجعلنك تصبح ما ينبغي عليك أن تكون حقًّا.

- ما يزال شابًا. دعه يلهو بضع سنوات.

- أضحكتني! لو كان يلهو لما قلنا شيئًا. أنا، لو كنت في سنّه، محاصرًا بتلك الجوقة من المعجبات، لارتكبتُ من الآثام ما يحسدني عليها أكبر الكرادلة.

- الربّ يهب الخبزَ لمن ليس لديه أسنان.

- هذا ما ينقصه تمامًا: الأسنان. والرغبة في العضّ.

بدا لي أنّ شيئًا ما يجول في خاطر بائع الكتب. كان ينظر إليّ ويبتسم.

- لعلّك تستطيع مساعدته...

- أنا؟

- أنت رجلٌ خبير في الحياة يا مارتين. ولا تنظر إليّ هكذا! إنّي واثقٌ من أنّك ستجد لابني فتاة رائعة حالما تضع الفكرة في رأسك. لديه وجه سموحٌ أساسًا، وأنت ستعلّمه ما تبقّى.

التزمتُ الصمت.

- ألم تكن تودّ مساعَدتي؟ - سألني البائع - ساعدني بهذا، إذن.

- كنت أتكلم عن النقود.

- وأنا أتكلم عن ابني ومستقبل هذا البيت. عن حياتي كلّها، بالمحصّلة.

تنهّدتُ. أمسك سيمبيري بيدي وشدّها بما تيسّر له من قِوىً.

- عِدْني بأنّك لن تتركني أرحل عن هذه الحياة قبل أن أرى ولدي مرتبطًا بامرأةٍ من اللواتي يطيب الموت في سبيلهنّ. وأن ينجب لي حفيدًا.

- لو كنتُ أعلم هذه النهاية لتناولتُ الغداء في كافيتريا نوفيدادس.

ابتسم سيمبيري.

- أحيانًا أفكر أنّك أنت من كان يجدر به أن يكون ابني يا مارتين.

نظرتُ إليه وكان أكثر ضعفًا وشيخوخةً مثلما لم أره من قبل. كان بالكاد ينمّ عن طيف رجلٍ قويّ وجبار، صاغ ذكريات طفولتي بين تلك الجدران. شعرتُ بأنّ العالم يتساقط عند قدميّ. دنوتُ منه، ودون أن أنتبه، أقدمتُ على ما لم أفعله منذ أن عرفته. قبّلتُ جبينه المحفور بالتجاعيد، والمتوّج بشعره الرماديّ الخفيف.

- هل تعدني بذلك؟

- أعدك - قلت له وأنا أتّجه نحو المَخرج.

20

كان مكتب المحامي يشغل الطابق الأعلى من بنايةٍ عجيبة، لها طابعٌ حداثيّ، وتقع في رقم 442 من جادّة الدياغونال، على مسافةٍ قصيرة من التقاطع مع ممشى دي غراثيا. وكانت البناية، نظرًا لانعدام أفضل التعاريف، مزيجًا من ساعة أجراس عملاقة وسفينة القراصنة المقاتلة، مزوّدة بنوافذ ضخمة وسطحٍ بتيجان وعليّات خضراء. وقد يُصنَّف هذا النموذج من البناء الباروكيّ والجدليّ، في مكان آخر من الأرض، كواحدة من عجائب الدنيا السبع، أو كإجهاضٍ شيطانيّ، أو كعملٍ لفنّانٍ مجنونٍ تلبّسته أرواحٌ من عالم الغيب. بينما لو كان في مديريّة إنسانش، حيث ينتأ العديد من الأبنية المماثلة، كتفتّح النفل بعد المطر، كان بالكاد ليستنهض حواجب المرء انبهارًا.

تقدّمتُ في البهو ووجدتُ مصعدًا، خُيّل إليّ أنّه من صنع عنكبوت كبيرٍ، ينسج الكاتدرائيّات بدلاً من الشِباك. فتح لي الحارسُ الكابينة، وزجّني في تلك الكبسولة الغريبة التي أخذت بالصعود على ارتفاع محور السلالم. فتحت لي البابَ، المجتزءَ من شجرة بلوّط، سكرتيرةٌ حادّة الملامح، ودعتْني للدخول. قلت لها اسمي، وأضفتُ إنّي لم آخذ موعدًا مسبقًا، لكنّي أتيتُ لمسألةٍ متعلّقة بعقد عقارٍ في حيّ ريبيرا. فتغيّر شيءٌ ما في نظراتها الجارحة.

- بيت البرج؟ - سألتْ.

أومأتُ بنعم. اقتادني السكرتيرة نحو مكتبٍ ليس فيه أحد، ودعتْني للدخول. وقد أدركتُ أنّها لم تكن صالة الانتظار الرسميّة.

- انتظر لحظة من فضلك، يا سيّد مارتين. سأبلِغ المحامي.

قضّيتُ خمسًا وأربعين دقيقة في ذلك المكتب، مطوّقًا بالرفوف التي احتلّتها مجلّداتٌ ضخمة، كأنّها شواهد القبور، منقوشةٌ أضلاعها بكتاباتٍ مثل «1888 - 1889، ب.س.أ. الفصل الأول. البند الثاني» تثير الرغبة بقراءة مطوّلة. كانت نوافذ المكتب الكبيرة تطلّ على الدياغونال، وتفسح التأمّل على المدينة قاطبةً. والأثاث، تفوح منه رائحة الخشب المعتّق والمزوّق والمجبول بالأموال. والأبسطة والأرائك الجلديّة توحي بطقوس النوادي البريطانيّة. حاولتُ رفع أحد المصابيح المتربّعة على المنضدة، وخمّنتُ أنّه يزن ما لا يقلّ عن ثلاثين كيلوغرامًا. ثمّة لوحةٌ زيتيّةٌ كبيرة، تعتلي مجمرًا لم يوقد أبدًا، يظهر فيها أحدٌ ما، مخضّبًا بسمات الظفر والنفوذ، ومَن قد يكون سوى الدون سوبونثيو ڤاليرا ي كيناشو. كان ذلك المحامي المعتوه والعملاق يزأر بسالفٍ متّصلٍ بشاربه، ليضفي عليه هالة أسدٍ عجوز، عيناه من نار وفولاذٍ تهيمنان من العالم الآخر على كلّ ركنٍ من أركان المكتب، بهيبة حُكْمٍ بالإعدام.

- لا ينطق. ولكن، إذا أطلتَ النظر في اللوحة، سيبدو قادرًا على النطق بين لحظةٍ وأخرى - قال صوتٌ مّا خلف ظهري.

لم أنتبه لدخوله. كان سيباستيان ڤاليرا رجلاً ذا خطوة موزونة، ويبدو أنّه قضّى طيلة حياته محاولاً أن يتملّص من ظلّ والده، وإذ ناهز حينها الخمسين عامًا أو يزيد، فتعب من المحاولة. نظرته لمّاحة وذكيّة، تذود عن سلوكه الرفيع الذي يكون حكرًا بالعادة على أميرات الممالك والمحامين البارزين فعلاً. مدّ يده فصافحته.

- أعتذر عن التأخير، لكنّي لم أكن أنتظر زيارتك - قال وهو يدعوني للجلوس.

- على العكس. أشكرك جزيل الشكر لأنّك استقبلتني، يا سيّدي.

كان ڤاليرا يبتسم كمن يعرف تحديد سعر كلّ دقيقة.

- قالت لي السكرتيرة إنّ اسمكم داڤيد مارتين. هل حضرتك الكاتب داڤيد مارتين؟

سقط قناع وجهي من هول المفاجأة.

- إنّي أنحدر من عائلة لها باعٌ طويل في القراءة - فصّل ڤاليرا. كيف بوسعي أن أخدمك؟

- أرغب في الحصول على معلوماتٍ حول عقد البيع والشراء لعقارٍ يقع في...

- بيت البرج؟ - قاطعني المحامي باحترام.

- أجل.

- هل تعرف البيت؟

- أسكن فيه.

نظر إليّ ڤاليرا طويلاً دون أن يمحو ابتسامته. عدّل جلسته على الكرسي واتّخذ مسلكًا متشددًا.

- حضرتك المالك حاليًّا؟

- إنّي مستأجر، في الواقع.

- وما الذي ترغب في معرفته يا سيّد مارتين؟

- إن لم يكن لديكم مانع، أودّ الحصول على تفاصيل شراء العقار من قِبل مصرف هسبانو كولونيال، لعلّي أصل إلى معلوماتٍ معيّنة حول المالك القديم.

- الدون دييغو مارلاسكا - غمغم المحامي - هل لي أن أسألك عن طبيعة اهتمامك؟

- ذِمّة. وجدتُ جملة من الأغراض، التي أعتقد أنّها تخصّه، أثناء ترميم البيت، مؤخّرًا.

قطّب المحامي حاجبيه.

- أغراض؟

- كتاب. أو مخطوط، بالأحرى.

- السيّد مارلاسكا كان شغوفًا جدًّا بالأدب. في الواقع، لقد ألّف عدّة كتبٍ عن الحقوق، والتاريخ أيضًا، ومواضيع أخرى. مثقّفٌ كبير. ورجل عظيم. مع إنّ هنالك مَن حاول تدنيس سمعته في أواخر عمره.

لاحظ المحامي الاستغراب على وجهي.

- أفترض أنّك لستَ على دراية بوقائع وفاة السيّد مارلاسكا.

- أخشى ذلك.

تنهّد ڤاليرا كما لو كان متردّدًا في متابعة الحديث.

- لن تكتب عن الأمر، أليس كذلك؟ ولن تكتب حتى عن إيرينا سابينو؟

- لا.

- هل هذا وعد شرف؟

أومأتُ بنعم.

شدّ ڤاليرا كتفيه.

- بأيّ حال، لا يسعني إخبارك بغير ما تناقلته الألسن في تلك الآونة - غمغم متّجهًا إلى نفسه أكثر منه إليّ.

صوّب المحامي نظراته إلى وجه والده، ثم حطّها عليّ.

- دييغو مارلاسكا كان شريك والدي وأفضل أصدقائه، وقد أسّسا هذا المكتب معًا. كان السيّد مارلاسكا رجلاً لامعًا. لكنّه، مع الأسف، كان معقدًا أيضًا، ويعاني من نوبات اكتئاب طويلة. حدث أنْ قرّر ووالدي فضّ الشراكة بينهما. تخلّى السيد مارلاسكا عن المهنة وتفرّغ لشغفه الأكبر: الكتابة. يقال إنّ معظم المحامين يرغبون، في سرّهم، أن يتركوا المحاماة ليصبحوا أدباء...

- إلى أن يقارنوا بين مردود المهنتين.

- المهمّ أنّ الدون دييغو باشر بعلاقة صداقةٍ مع ممثلة تتمتع حينذاك بشعبيّة لا بأس فيها، إيرينا سابينو، وأراد أن يؤلّف لها مسرحيّة. ليس أكثر من ذلك. إذ كان السيّد مارلاسكا رجلاً نبيلاً ولم يكن خوّانًا لزوجته مطلقًا، لكنّك تعرف طباع الناس... نميمة، ثرثرة وغيرة. والحال إنّ شائعةً قد راجت عن الدون دييغو وارتباطه بعلاقةٍ غير شرعيّة مع إيرينا سابينو. لم تغفر له زوجته الأمر، فانفصلا. شعر السيّد مارلاسكا بالقهر، فاشترى بيت البرج وانتقل إليه. لكنّه، مع الأسف، لم يعش فيه أكثر من عام ومات في حادث أليم.

- ما نوع الحادث؟

- مات غرقًا. يا للمأساة.

كان ڤاليرا قد أخفض نظراته، وبات يتكلّم بصوتٍ هامس.

- والفضيحة؟

- فلنقلْ إنّ بعض الألسنة الحاقدة روّجتْ انتحار السيّد مارلاسكا بعد أن عانى من خيبةٍ غراميّة مع إيرينا سابينو.

- وهل كان الأمر كذلك؟

نزع ڤاليرا نظّارته ودلّك عينيه.

- إن أردتَ منّي الحقيقة، لا أدري. لا أدري ولا يهمّني. فالماضي مضى وانقضى.

- وماذا حلّ بإيرينا سابينو؟

أعاد ڤاليرا نظارته.

- كنت أحسَب أنّ اهتمامك ينحصر على السيّد مارلاسكا وتفاصيل البيع والشراء.

- مجرّد فضول. وجدتُ صورًا عديدة لإيرينا سابينو، بين أغراضه الشخصيّة، إضافة إلى رسائل من الممثلة موجّهة للسيّد مارلاسكا...

- إلى أين تريد أن تصل بكلّ هذا؟ - رفع صوته - هل تريد مالاً؟

- لا.

- هذا يسعدني. إذ لا أحد سيعطيك المال. المسألة لم تعد مهمّة. هل فهمت؟

- تمامًا يا سيّد ڤاليرا. لم أقصد إزعاجك ولا التلميح إلى أشياء خارج السياق. يؤسفني إن أغضبتُك بأسئلتي.

ابتسم المحامي وأطلق تنهيدة لطيفة كما لو أنّ المحادثة قد انتهت.

- لا يهمّ. فلتعذرني حضرتك!

اتخذتُ تعبيرًا أكثر رقّة، لاغتنام فرصة الهدوء المسالم.

- لعلّ السيدة أليثيا مارلاسكا، الأرملة...

انتفض ڤاليرا عن كرسيّه وانبرى غاضبًا.

- سيّد مارتين، لا أريدك أن تسيء فهمي، لكنّ واجباتي كمحامي العائلة تُلزِمني بصون خصوصيّاتها. والأسباب بديهيّة. لقد انقضى زمنٌ طويل، ولا أريد أن تُنكَأ الجراح القديمة التي لا تُفضي إلى أيّ حلّ.

- أستوعب الأمر.

كان المحامي يحدّق إليّ متوتّرًا.

- هل قلت إنّك وجدت كتابًا؟ - سأل.

- أجل... مخطوط. من المحتمل أنْ لا قيمة له.

- احتمالٌ وارد. عمّ يتحدث؟

- عن الأديان، على ما أعتقد.

هزّ ڤاليرا رأسه.

- هل يفاجئك هذا؟ - سألتُ.

- لا، على العكس. الدون دييغو كان فذًّا في تاريخ الأديان. رجلٌ حكيم. وما زلنا نذكره بودّ كبير. قل لي حضرتك، ما الجوانب الماديّة لعقد البيع والشراء التي كنت ترغب في الاطلاع عليها؟

- أعتقد أنّك ساعدتني بما فيه الكفاية، يا سيّد ڤاليرا. لا أريد أن أطيل عليك.

استوعب المحامي بارتياح.

- البيت بذاته، أليس كذلك؟

- إنّه مكانٌ غريب - صرّحتُ.

- أذكر أنّي دخلته ذات مرّة في شبابي بعد أن اشتراه الدون دييغو بقليل.

- هل تعلم لماذا اشتراه؟

- قال إنّه كان معجبًا بذلك البيت منذ أن كان شابًا، وإنّه لطالما فكّر في السكن فيه بكلّ سرور. الدون دييغو كان هكذا. أحيانًا يبدو طفلاً مدللاً، بوسعه فعل أيّ شيء مقابل وهمٍ ساذج.

لم أقل شيئًا.

- هل أنت بخير؟

- بالتأكيد. هل تعلم شيئًا عن المالك الذي باع البيت للسيّد مارلاسكا؟ رجلٌ يُدعى برنابيه ماسوت؟

- من هنود أمريكا. لم يقطن فيه حتى ساعة واحدة. اشتراه حين عاد من كوبا وتركه فارغًا لعدّة أعوام. لم يفصِح عن السبب أبدًا. إذ كان يسكن في منزلٍ أمر بتشييده في أرينيس دي مار. وباع بيت البرج بثمن بخس. كان يريد التخلّص منه بأيّ طريقة.

- وقبله؟

- أعتقد أنّ قسّيسًا سكن فيه. يسوعيّ. لستُ متأكدًا. كان والدي مَن أدار أعمال الدون دييغو، وبعد وفاته صفّى كلّ الأرشيف.

- ولماذا فعل شيئًا من هذا القبيل؟

- بسبب كلّ ما رويته لك. للحيلولة بين النميمة وذكرى صديقه المصانة، على ما أفترض. في الواقع، لم يخبرني عن السبب يومًا. لم يكن والدي معتادًا على التصريح بتصرّفاته. ولا بدّ أنّ له أسبابه؛ أسبابًا محقّة بلا شكّ. إذ كان الدون دييغو صديقًا طيبًا فضلاً عن كونه شريكًا، ووفاته تركت أثرًا أليمًا على والدي.

- وماذا حلّ باليسوعيّ؟

- أعتقد أنّ لديه مشاكل عقائديّة مع نظام جماعته. كان صديقًا للأب ثينتو فرداغير، ويبدو لي أنّه قد أقحمه في إحدى دسائسه، كما لك أن تتخيّل...

- شعوذة؟

- نميمة.

- كيف ليسيوعيٍّ مطرود من الجماعة أن يسمح لنفسه ببيتٍ كذاك؟

أبدى ڤاليرا عدم مبالاةٍ مجددًا، ففهمتُ أنّه وصل إلى قعر البرميل.

- كان يسعدني لو ساعدتُك أكثر، يا سيّد مارتين، لكنّي لا أعرف كيف. صدّقني!

- شكرًا على وقتك يا سيّد ڤاليرا.

أومأ برأسه، وضغط على جرسٍ فوق منضدته. فظهرت السكرتيرة على الباب، تلك التي استقبلتني. مدّ ڤاليرا يده فصافحته.

- السيّد مارتين سيغادر. رافقيه يا مرغريتا، لطفًا!

أفسحت لي السكرتيرة الطريق. وقبل أن أخرج، التفتُّ لأنظر إلى المحامي، منكسرًا تحت صورة والده. تبعتُ مرغريتا حتى الباب، وقبل أن تغلقه بهنيهة، توجّهتُ إليها بأكثر ابتساماتي براءة.

- المعذرة. لقد أعطاني المحامي ڤاليرا عنوان السيّدة مارلاسكا، لكنْ يبدو لي أنّي لم أعد أتذكّر رقم المنزل بدقّة...

تنهّدت مرغريتا، متلهّفة للتخلّص مني.

- رقم 13. شارع ڤالڤيدريرا، رقم 13.

- تمامًا.

- وداعًا - قالت مرغريتا.

وقبل أن أردّ عليها، انغلق الباب في وجهي، بكلّ ما أوتي من هيبة ضريحٍ مقدّس.

21

حين كنت عائدًا إلى بيت البرج، بدأتُ أنظر برؤيةٍ مختلفة إلى ما كان مصدر دفئي وسكينة عزلتي، على مدى أعوامٍ طويلة. دخلتُ من البوّابة بشعورٍ كريهٍ، كأنّي أدوس على جثّة كائنٍ مخلوقٍ من حجارةٍ وظلال. صعدتُ السلّم كأنّي ألج أحشاءه، وفتحتُ باب البيت لأجد نفسي أمام ذلك الممرّ الطويل المظلم، الغارق في لجّةٍ من سراب، فبدا لي منذئذٍ كسرداب ذهنيّةٍ مريضة ودماغٍ سقيم. في عمق الممرّ، حيث تلوّح شمس الأصيل بوميضها القرمزيّ، الآتي من الصالة، تكثّف وجه إيزابيلا وهي تتقدّم نحوي. أغلقتُ الباب وأضأتُ نور البهو.

كانت إيزابيلا ترتدي زيّ آنسةٍ راقية، وشعرها مضفور، ومساحيق التجميل تحيلها إلى امرأةٍ ناضجة، أكبر بعشر سنواتٍ من عمرها.

- كم أنتِ جميلة وأنيقة - قلت بفتور.

- كأنّي سيّدة في عمرك تقريبًا، أليس كذلك؟ هل أعجبك الثوب؟

- من أين أتيتِ به؟

- كان في أحد صناديق الغرفة في آخِر الممر. أظنّ أنّه من تركة إيرينا سابينو. ما رأيك؟ ألا يبدو عليّ ساحرًا؟

- أ لم أوصيكِ بإبلاغ الراهبات بأن يأتين ويخلين الغرفة من كلّ ما فيها؟

- لقد فعلتُها. ذهبتُ إلى الكنيسة، هذا الصباح، وسألتهنّ. لكنّهنّ تأسّفن لعدم قدرتهنّ على المجيء، إذ يجدر بنا شخصيًّا أن نحمل إليهنّ كلّ الأغراض.

نظرتُ إليها دون أن أقول شيئًا.

- إنّها الحقيقة - قالت.

- انزعي عنك الثوب، وأعيديه إلى حيث وجدتيه. واغسلي وجهك. تبدين...

- امرأةً رخيصة؟ - أنهت إيزابيلا الجملة.

هززتُ رأسي متأففًا.

- لا. أنتِ لستِ بامرأة رخيصة، يا إيزابيلا.

- طبعًا. ولهذا السبب لا أنال إعجابك - تمتمتْ وهي تلتفّ متّجهةً نحو غرفتها.

- إيزابيلا - ناديتها.

تجاهلتني ودخلت غرفتها.

- إيزابيلا - كرّرتُ، رافعًا نبرة صوتي.

رمتني بنظرة شرسة، وصفقت الباب. سمعتُ تحريكها لبعض الأشياء في غرفة النوم، فاقتربتُ. طرقتُ. لا جواب. طرقتُ مجددًا. ففتحتُ، لأجدها توضّب أغراضها القليلة التي جاءت بها وترتّبها في حقيبتها.

- ماذا تفعلين؟ - سألتها.

- أرحل. هذا ما أفعله. أرحل لأدَعَكَ بسلام. أو في حرب. فمن الصعب التكهّن بما تريد.

- هل لي أن أعرف إلى أين تذهبين؟

- وما يهمّك؟ هل هذا سؤالٌ اعتياديّ أم ساخر؟ بالنسبة إليك، لا فرق، هذا واضح. لكنّي أنا الحمقاء التي لا تستطيع التمييز.

- إيزابيلا، انتظري لحظة و...

- لا تقلق بشأن الثوب. سأنزعه حالاً. وبإمكانك إعادة مجموعة الريشات، فأنا لم أستخدمها ولم تعجبني الهديّة أساسًا. أنت تراني مجرّد طفلةٍ تلهو في الحضانة.

اقتربتُ منها ووضعتُ يدي على كتفها. فانتفضتْ كما لو أنّ ثعبانًا مسّها.

- إيّاك أن تلمسني!

- اعذريني يا إيزابيلا. أرجوك. لم أقصد إهانتك.

نظرتْ إليّ، والدمع يتأجّج في عينيها، وابتسمتْ بمرارة.

- بل لم تفعل شيئًا سوى أنّك أهنتني، منذ أن أتيتُ إلى هنا. لم تعاملني سوى باحتقارٍ وشفقة زائفة، كما لو كنتُ غبيّة مسكينة لا تفقه شيئًا.

- عذرًا - كرّرتُ - دعي هذه الأغراض. لا ترحلي.

- ولم لا؟

- لأنّي أطلب منك هذا. أرجوك.

- بوسعي أن أجد رأفة في أيّ مكانٍ آخر.

- ليست شفقةً ولا رأفة، إلا إذا كنتِ أنتِ مَن تشعر بذلك تجاهي. أطلب منك أن تبقي، لأنّي أنا الغبيّ. لا أريد البقاء وحيدًا، ولا أستطيع.

- يا للطف كلامك! بالك مشغول بالآخرين دومًا! اشترِ كلبًا، إذن!

تركت الحقيبة تهوي على السرير، وواجهتني وهي تمسح دموعها وتفرّغ غلّها المتراكم. فمضغتُ ريقًا.

- حسنًا، طالما أننا نتبارى في لعبة الصراحة، دعني أقول لك إنّك ستبقى وحيدًا، دومًا. ستبقى وحيدًا لأنّك لا تعرف كيف تبادل المودّة أو تشاركها مع الآخرين. أنت موحشٌ مثل هذا البيت، الذي يوقف شعرَ رأسي. لا أستغرب أن تتخلّى عنك حبيبتك ببساطة، ولا إن فعلها الآخرون جميعًا. أنت لا تحبّ، ولا تسمح لأحدٍ بأن يحبّك.

نظرتُ إليها حانقًا، كأنّي أتلقّى طعنة غدرٍ تلو أخرى، دون أن أعرف من أين تتوالى عليّ الخيانة. بحثتُ عن الكلمات، فما وجدتُ سوى اللعثمة.

- أحقًّا لم تنل مجموعة الريشات إعجابك؟ - خلِصتُ إلى هذا السؤال، في النهاية.

رفعت إيزابيلا عينيها إلى السماء منهكةً.

- لا تعبّر بهذه الهيئة، كالكلب المذعور. قد أكون غبيّة، لكن ليس إلى هذه الدرجة.

بقيتُ صامتًا، متكأ إلى ضلع الباب. وإيزابيلا ترمقني، بنظرةٍ تلوح بين الشكّ والعطف.

- لم أقصد الإساءة حين ذكرتُ صديقتكَ التي في الصورة. اعذرني - غمغمتْ.

- لا تعتذري. إنّها الحقيقة.

طأطأتُ رأسي وخرجتُ من الغرفة. التجأتُ إلى مكتبي، كي أتأمّل المدينة الغامضة، المدفونة تحت الضباب. وبعدئذٍ، سمعتُ خطواتٍ متردّدة تصعد السلالم.

- هل أنت هنا؟ - نادت.

- أجل.

دخلت إيزابيلا إلى المكتب. كانت قد غيّرت الثوب، وكفكفت دموعها. ابتسمتْ لي فبادلتُها الابتسامة.

- لماذا أنت هكذا؟ - سألتْ.

شبكتُ ذراعيّ. دنت إيزابيلا وجلست بجواري، على حافّة النافذة. رحنا نستمتع بمنظر الصمت والظلال على أسطح المدينة العتيقة دون الحاجة إلى قول أيّ شيء. بعد قليل، ابتسمتْ ورنتْ إليّ.

- ماذا لو أشعلنا السيجار الذي أهداه لك والدي، ودخّناه معًا؟

- لن أدَعَكِ تحلمي مجرّد حلمٍ في هذا.

غرقت إيزابيلا في إحدى لحظات صمتها العميق، تسترق النظر إليّ بين الفينة والأخرى، وتتبسّم. كنت أراقبها خلسة، وأدركُ أنّ مجرّد النظر إليها يبعث على الطمأنينة، وأنّ هذه الدنيا المقرفة ما تزال غنيّةً بما يستحقّ الحياة، ولحسن الحظّ أنّ هذا ينطبق عليّ أيضًا.

- هل ستبقين؟ - سألتُها.

- اعطني سببًا مجديًا، سببًا صريحًا، أو أنانيًّا بما أنّك المقصود. وحبّذا أن لا يكون مقنّعًا بالكذب، فهذا خيرٌ لك، وإلا رحلتُ مباشرة.

تدرّعتْ بنظرةٍ دفاعيّة، تنتظر مني مجاملة ما، لكنّي في تلك اللحظة أحسستُ بأنّها الشخص الوحيد الذي لا أريد الكذب عليه، ولا أستطيع حتّى المراوغة. أخفضتُ أنظاري ونطقتُ بالحقيقة، أخيرًا، لعلّي أسمعها بصوتي أنا أيضًا.

- لأنّكِ الصديق الوحيد الذي بقي عندي.

انقشعت القسوة عن ملامحها، فأزحتُ عينيّ عنها، قبل أن تملأ الشفقةُ نظراتها.

- وماذا عن السيّد سيمبيري، وذاك المتحذلق الأكبر برسلوه؟

- أنتِ الوحيدة التي ما تزال تجازف في أن تخبرني الحقيقة.

- وصديقك، ربّ عملك، ألا يخبرك الحقيقة؟

- لا تخلطي الصوف بالحرير. ثم إنّه ليس صديقي. ولا أحسَبه قد قال لي الحقيقة مطلقًا.

نظرتْ إليّ باهتمام.

- أرأيت؟ كنت أعلم أنّك لا تثق به. قرأتُ ذلك في وجهك، منذ اليوم الأوّل.

حاولتُ استرداد شيئًا من كرامتي، فما وجدت غير الدعابة مسلكًا.

- هل أضفتِ قراءة الوجوه على لائحة مواهبك؟

- قراءة وجهك لا تحتاج إلى أيّ موهبة - ردّت - فأنت مثل حكاية «عقلة الإصبع».

- وماذا تقرئين أيضًا في وجهي، يا سيّدتي المحترمة؟

- الخوف.

حاولتُ أن أضحك على مضض.

- لا ينبغي بك أن تخجل من خوفك. إنّه دليلٌ على صدق نيّتك. فالمجنون الخطير هو الوحيد الذي لا يخاف شيئًا. قرأتُ هذا في أحد الكتب.

- في كتاب الجبناء؟

- لن أنزل إلى هذا المستوى، طالما أنّه يعرّض إحساسك بالرجولة للخطر. أعلم أنّكم، معشرَ الرجال، تصدّقون بأنّ أبعاد عنادكم تتوافق مع أبعاد مخاوفكم.

- وهل قرأتِ هذا في الكتاب نفسه؟

- لا. هذه من بنات أفكاري.

فتحتُ ذراعيّ، مستسلمًا للبداهة.

- موافق. أجل، أعترف بأنّي أشعر باضطرابٍ غامض.

- بل أنتَ الغامض في طبيعتك. أنت ترتعد من الخوف. اعترف!

- لا تبالغي. فلنقل إنّ بعض الشكوك تساور علاقتي مع ناشري، وهذا أمرٌ مفهوم، وفقًا لخبرتي في هذا المجال. وبحسب معرفتي، فإنّ كوريلي رجلٌ نبيل للغاية، وسنجني معًا أطيب ثمار علاقتنا المهنيّة.

- ولهذا السبب تحديدًا، تتشنّج بطنك كلّما باغتك اسمُه.

تنهّدتُ، دون أيّ رغبة في متابعة النقاش.

- بم تريدين أن أخبركِ، يا إيزابيلا؟

- بأنّك لن تعمل لأجله أبدًا.

- لا أستطيع.

- ولم لا؟ ألا تستطيع إعادة المال إليه، ثمّ إرساله إلى الجحيم؟

- الأمر ليس بهذه البساطة.

- لم لا؟ هل أقحمتَ نفسك في مأزقٍ ما؟

- أجل، أعتقد ذلك.

- من أيّ نوع؟

- هذا ما أحاول استكشافه. بكلّ حال، المسؤوليّة تقع عليّ وحدي، ولا بدّ أن أحلّ المعضلة بنفسي. لا يجدر بكِ أن تقلقي بشأني.

نظرتْ إليّ إيزابيلا مستسلمةً، حتى تلك اللحظة، لكنّها لم تقتنع.

- هل تعلم أنّك، كإنسان، كارثة كبرى؟

- أحاول التأقلم مع الوضع.

- إن أردتَ مني أن أبقى هنا، فعلينا أن نغيّر القواعد.

- كلي آذان صاغية.

- لقد ولّى زمن الاستبداد المستنير. اعتبارًا من اليوم، يدخل هذا البيتُ مرحلةَ الديمقراطيّة.

- حريّة، مساواة وإخاء.

- حذارِ من الإخاء. ولكن فلننهِ حقبة «أنا الآمِر. أنا الناهي»، ولنتجنّب المَشاهِد العنيفة المستمدّة من أسلوب مستر روتشستر.

- كما تشائين، يا سيّدة جين آير.

- وإيّاك أن تتوهّم. فإنّي لن أتزوّجك حتّى لو أصابكَ العمى.

مددتُ يدي نحوها لنبرم اتفاقنا. فصافحتني ثم عانقتني بعد تردّد. تركتها تغمرني بذراعيها، وأسندتُ رأسي على شعرها. كان عناقها بنكهة السلام ورحابة الصدر، يطفح نورًا، من فتاةٍ في السبعة عشر عامًا، آثرتُ أن أراه شبيهًا بعناق أمّي، لو تسنّى لها الوقت لعناقي.

- أصدقاء؟ - غمغمتُ.

- حتّى يفرّقَ الموتُ بيننا.

22

دخلت القوانينُ الجديدة، التي فرضتها الملكة إيزابيلا الأولى، حيّز التنفيذ بدءًا من التاسعة من صباح اليوم التالي، إذ قامت مساعِدتي بزيارةٍ رسميّة إلى المطبخ، وسَنّتْ بنود العمل، بلا تحايلٍ على الكلمات، اعتبارًا من تلك اللحظة.

- أعتقد أنّ حياتك بحاجة للروتين، وإلا تشتّت ذهنك وتصرّفتَ بطريقة منحلّة.

- من أين أتيتِ بهذا المصطلح؟

- من أحد كتبك. م-ن-ح-ل-ة. صفةٌ رنانة.

- وتتلاءم مع عاهـ...

- لا تغيّر الموضوع!

سننغمس في العمل، خلال النهار، كلٌّ على مخطوطه. وبعد العشاء معًا، ستطلعني إيزابيلا على الصفحات التي كتبتها، لنناقشها سويّة. عليّ أن أُقسم بأن أكون صريحًا، وأن أمدّها بالإرشادات اللازمة، ولن تقبل مني مجاملةً أو ترضية. ثمّ نحدّد يوم الأحد كعطلة: آخذها إلى السينما والمسرح والتنزّه. ستساعدني في البحث والتوثيق في المكتبات والأرشيف، وستبذل قصارى جهدها كي يبقى خِوان المطبخ مليئًا بفضل صِلتها بمحلّ عائلتها. سيتوجّب عليّ تحضير الفطور، وهي تحضّر العشاء. أمّا الغداء، يُعِدّه مَن كان متفرّغًا في تلك الساعة. سنتقاسم الأعمال، وسأخضع راضيًا بفكرة تنظيف البيت في مواعيد منتظمة. لن أجرؤ مطلقًا على إيجاد عريسٍ لها، بينما توفّر عليّ النقاش حول دوافع العمل مع كوريلي، ولا تُبدي رأيها في الموضوع، إلا إذا طلبتُ منها. أمّا المشاكل المتبقيّة، سنجد لها حلاً أثناء ظهورها.

رفعتُ كوب القهوة، وشربنا نخب هزيمتي واستسلامي بلا شروط.

وفي أقلّ من يومين، سلّمتُ أمري لسلام المتخاذلين وتقاعسهم. كانت إيزابيلا تستيقظ ببطء، وبمزاجٍ عكرٍ؛ وحين تطلّ من غرفتها، بعينين شبه مغمضتين، وتنتعل خفًّا سرقتْه مني، مقاسه ضِعف مقاس قدميها، كنت قد جهّزتُ الفطور والقهوة وجريدة الصباح، وفي كلّ يوم أختار جريدة مختلفة.

يولد الإلهامُ من صُلب الروتين. إذ لم تمضِ أقلّ من ثمانٍ وأربعين ساعة عن توطيد النظام الجديد حتّى اكتشفتُ أنّي أستعيد عنفواني، كما كان عليه خلال أعوامي المتألقة. وسرعان ما أثمرتْ ساعاتُ الإقصاء في المكتب بصفحاتٍ وصفحاتٍ، وكنت شبه متيقّن من أنّي قطعتُ شوطًا من تكوين العمل، حتّى تجاوز كونه فكرةً هائمة وغدا واقعًا.

كان النصّ سلسًا، ومشوّقًا ومدهشًا؛ يبدو لقارئه كملحمةٍ أسطوريّة وخرافيّة، قوامها الأعاجيب والفقر المدقع، مسكونة بأبطال يخوضون دوّامة الأحداث حول نبوءة وبشرى أملٍ ترفع من شأن السلالة. والسرد يمهّد الطريق لظهور المخلّص المحارب، الذي سيحرّر الأمّة من نير المذلّة والشرور التي ضيّقتْ عليها الخناق، ليعيد أمجادها وكرامتها التي دنّسها عدوٌّ غاشمٌ ومتآمرٌ منذ الأزل، وإلى الأبد، ضدّ الشعب أيًّا يكن. وكانت دراماتيكيّة الأحداث تتسلسل بطريقةٍ مبهرة، وتصلح لأيّ معتقدٍ أو سلالة أو قبيلة، إن طُبّقتْ حقًّا. وبدت الراياتُ والآلهة والشعارات كبطاقة الجوكر التي توزّع الأوراق نفسها دومًا. ونظرًا لطبيعة العمل، عزمتُ على استعمال أصعب المهارات تحقيقًا وأكثرها تعقيدًا في أيّ نصٍ أدبيّ: المهارة في إخفاء المهارة. إذ كانت اللغة تنساب كالسهل الممتنع، لا اصطناع في بساطة أسلوبها وبيانه، تتكلّم بصوت الضمير الواعي والنزيه، ضميرٍ لا يسرد بل يكشف. وكنت غالبًا ما أتوقّف لمراجعة ما كتبتُ، فأغرق بموجة غرورٍ عمياء من الآليّة التي انتهجتُها، والنتائج فائقة الدقّة التي أوصلتْني إليها. وأدركتُ للمرّة الأولى منذ أمدٍ بعيد أنّي أقضي ساعاتٍ كاملة دون التفكير بكريستينا أو بيدرو ڤيدال. ولعلّ هذا ما أشعرني بالخروج من النفق المظلم أخيرًا، وهكذا أقدمتُ على فعل ما ارتكبتُه دائمًا، كلّما سارت حياتي على طريقٍ قويمة: أن أدمّر كلّ شيء!

ذات صباح، بعد الفطور، ارتديتُ من ثيابي تلك التي تُظهِرني كمواطنٍ محترم. مررتُ بالصالة لأودّع إيزابيلا، فرأيتها منحنية على المنضدة، تراجع صفحات اليوم السابق.

- لن تكتب اليوم؟ - سألتني دون أن ترفع عينيها.

- سأقضي النهار في التأمّل.

لاحظتُ أنّها رتّبت مجموعة الريشات ومحبرة الجنيّات بجانب دفترها.

- ظننتُ أنّها لم تنل إعجابك - قلت.

- هي كذلك بالفعل، لكنّي فتاة في السابعة عشر عامًا من عمرها، لي كامل الحقّ في أن تعجبني السخافات. كما يحدث لك مع السيجار.

نفذ عطر الكولونيا إلى أنفها، فرمتني بنظرةٍ بوليسيّة. وحين رأت ثيابي الأنيقة، قطّبتْ حاجبيها.

- هل ستذهب لأداء دور المحقّق مرّة أخرى؟ - سألتْ.

- بعض الشيء.

- ألست بحاجة لصاحبٍ يحميك؟ كالدكتور واتسن، على شكل فتاة؟ ضميره حيٌّ نوعًا ما؟

- لا تتعلّمي البحث عن الذرائع لإهمال الكتابة قبل أن تتعلّمي الكتابة. فهذه ميزةٌ للمحترفين فقط، وعليكِ اكتسابها بكدٍّ.

- طالما أنّي مساعِدتك، فأنا مساعِدتك في كلّ شيء.

ابتسمتُ بمودّة.

- ذكّرتِني بشيء، كنت أودّ مناقشته معك. لا تجزعي. إنّه متعلّقٌ بسيمبيري. علمتُ أنّه يواجه مشاكل ماديّة، وأنّ المكتبة في وضعٍ حرج.

- من غير الممكن.

- بل الأمر كذلك، للأسف. ولكن، لن يحدث له شيء لأنّنا لن نسمح بتدهور الأحوال.

- اسمعْ، السيّد سيبميري عزيز النفس ولن يَدَعَك... لقد حاولتَ مسبقًا، أليس كذلك؟

أومأتُ بنعم.

- لذا فكّرتُ أن نكون أكثر دهاءً وهرطقةً باتّباع حيلٍ أخرى.

- هذا اختصاصك يا سيّد مارتين.

تجاهلتُ نبرة الملامة وتابعتُ الموضوع.

- هذا ما توصّلت إليه: تدخلين إلى المكتبة، كما لو أنّ الأقدار أرسلتكِ، وتقولين لسيمبيري إنّي غولٌ، وإنّكِ ضقتِ بي ذرعًا.

- الحقيقة مائة بالمائة، حتى اللحظة.

- لا تقاطعيني!... ثمّ تشتكين له من شحّ ما أدفعه لكِ للعمل كمساعِدة.

- لكنّك لا تدفع لي قرشًا واحدًا...

تنهّدتُ وكاد صبري ينفد.

- حين يُعرب لك عن أسفه، إنّي واثقٌ من أنّه سيفعلها، انظري إليه بملامح الجارية المستضعفة، وصارحيه، بقليلٍ من الدموع المصطنعة إن أمكن، بأنّ أباكِ حرمك من الميراث، وأبى إلاّ أن تدخلي سلك الرهبنة، ما دفعكِ للتفكير في إمكانيّة العمل عنده، لساعاتٍ قصيرة، قيد التجربة، مقابل أجرٍ لا يتعدّى ثلاثةً بالمائة من نسبة المبيعات التي تحقّقينها، وهذا لكي تبني مستقبلك، كامرأةٍ حرّة، بعيدًا عن الدير، ومتفرّغةً قلبًا وقالبًا لترويج الأدب العظيم.

حملقت إيزابيلا عينيها.

- ثلاثة بالمائة؟ هل تريد أن تساعد سيمبيري أم تقضي عليه؟

- أريد أن ترتدي الزيّ الذي لبستِه منذ أيّام، وأن تتأنّقي كما لا تجاريكِ أيّ فتاةٍ على هذا، وأن تزوريه حين يكون ابنه في المكتبة، بعد الظهر، كالعادة.

- هل تقصد ذاك الفتى الوسيم؟

- كم لدى السيّد سيمبيري من أبناء؟

ضربت إيزابيلا أخماسًا بأسداس، وحين فهمتُ مرادي، رمتني بنظرة كبريتيّة.

- لو فطن والدي لعقليّتك المنحرفة، لاشترى البندقية فورًا.

- لا أريد سوى أن يراك ابنه. وأن يرى الوالد كيف ينظر ابنه إليكِ.

- أنت أسوأ مما توقّعتُ. أنت الآن تروّج لدعارة القُصّر.

- بل إنّه إحسانٌ أخلاقيٌ بحت. فضلاً عن كونكِ أنتِ الذي وصف ابن سيمبيري بالوسيم.

- وسيم المحيّا، لكنّه مغفّلٌ نوعًا ما.

- لا تبالغي! سيمبيري الابن، ببساطة، خجولٌ في حضور الجنس النسائيّ، وهذا ما يُعلي من شأنه. إنّه مواطنٌ مثاليّ، إذ إنّه، ورغم درايته بتأثير شخصه الجذّاب والغاوي، يُخضِع نفسه لرقابةٍ ذاتيّة وزهدٍ قاسٍ، وذلك لورعه وإيمانه بالطهارة التي لا تدنّسها المرأة البرشلونيّة. لا تقولي لي إنّ هذا لا يضفي عليه هالة النبل والرقيّ التي تثير غرائزكِ، تلك الأموميّة وتوابعها!

- أحيانًا، أشعر بأنّي أكرهك يا سيّد مارتين.

- حافظي على هذا الشعور! ولكن لا تُحمّلي ابن سيمبيري المسكين نواقصي ككائنٍ بشريّ. فهو قدّيسٌ بصراحة.

- كنّا قد اتّفقنا على ألاّ تبحث لي عن عريس.

- ومن تكلّم عن عريس؟! لو تركتِني أكمل حديثي لفهمتِ الهدف.

- تفضّلْ، أكملْ حديثك يا راسبوتين!

- حين يوافق سيمبيري الأب، وأنا واثقٌ من ذلك، أريدك أن تبقي خلف المصطبة كلّ يوم، ساعتين أو ثلاث.

- بأيّ زيّ؟ بزيّ ماتا هاري؟

- بأناقة الهندام والذوق الرفيع الذي تتحلّى به طباعُك. أريدك لبقةً، مضيافةً، دون أن تبالغي طبعًا. وإن لزم الأمر، ارتدي أحد فساتين إيرينا سابينو، على أن تختاري أكثرها حشمةً.

- ثمّة فستانان، أو ثلاثة، تليق بي جدًا - علّقت إيزابيلا بغنجٍ مفرط.

- حسنًا، البسي ما يغطّيك أكثر.

- يا لك من رجعيّ. وماذا عن تأهيلي الأدبيّ؟

- وهل ثمّة أكاديميّة أفضل من مكتبة سيمبيري وأبناؤه لإكمال تأهيلكِ الأدبيّ؟ هناك حيث تحيط بكِ روائع الأدب من كلّ جانب، تلك التي لا تنضب علومُها.

- وكيف؟ هل أستنشق الكلمات والأحرف بأنفاسٍ عميقة؟

- ساعات قليلة خلال النهار، هذا كلّ ما في الأمر. كما بإمكانكِ الاستمرار في العمل هنا، وتلقّي نصائحي التي لا تقدّر بثمن، والتي ستصنع منك جين أوستين جديدة.

- وأين الحيلة في كلّ هذا؟

- الحيلة تكمن في أنّي سأعطيكِ كلّ يوم بعض النقود، وكلّما دفع لك الزبائن، تضعين في الصندوق من نقودي تلك، بحذرٍ شديد.

- هذه هي الخطة إذن...

- كما ترين، لا كفر في ما أخطّط.

قطّبتْ إيزابيلا حاجبيها.

- لن تنجح. سيفطن السيّد سيمبيري إلى وجود أمرٍ غريب. إنّه أشدّ دهاءً من الجوع.

- ستنجح. وإن استغرب سيمبيري، قولي له إنّ الزبائن، ما إن رأوا فتاة جميلة ولطيفة خلف المصطبة، حتّى أنفقوا كلّ ما في محفظاتهم ليُظهِروا كرمهم.

- هذا يحدث في أوكار المدينة المنحلّة، التي تتردّد إليها أنت، وليس في مكتبة.

- لا أوافقكِ. فأنا، إن دخلتُ مكتبة، واستقبلتني بائعة جذّابة مثلكِ، قد تدفعني نفسي إلى شراء كلّ الكتب، بما فيها تلك الهابطة، الحاصلة على الجائزة الوطنيّة للآداب.

- لأنّ عقلك أقذر من خمّ الدجاج.

- لا بدّ أن أقول إنّي مدينٌ، أو بالأحرى نحن الاثنين، مدينان لسيمبيري بمعروف.

- هذه ضربةٌ تحت الحزام.

- لا ترغميني على الضرب أسفلَ أسفلِ الحزام إذن.

إذا أردتَ إيهامَ أحدٍ ما، فما عليك سوى المناورة في إثارة فضوله أوّلاً، وإشعال غروره ثانيًا، واستنهاض شهامته أو إيقاظ ضميره أخيرًا. طأطأتْ إيزابيلا رأسها، وأومأتْ موافِقةً ببطء.

- ما أشبَهها بحكاية الجنيّة التي تتأبّط خبزًا! ومتى تريد أن ننفّذ خطتّك هذه؟

- لا نؤجّل عمل اليوم إلى الغد!

- اليوم؟

- بعد الظهر.

- قل لي الحقيقة. هل هذه استراتيجيّة لتغسل أموالك التي تتقاضاها من ربّ عملك فتطهّر ضميرك، أم أنّ الأمور على ما يرام؟

- تعلمين أنّي أتصرّف بأنانيّة دومًا.

- وماذا لو رفض السيّد سيمبيري؟

- تأكّدي من أنّ ابنه هناك، واذهبي بلباس يوم الأحد، ولكن ليس بلباس الكنيسة.

- إنّها خطّة منحطّة ومهينة.

- وتنال إعجابكِ جدًا.

ابتسمت إيزابيلا أخيرًا، كهرّة.

- وماذا لو أصيب الابن بنزوة طيشٍ وقرّر أن يتعدّى حدوده؟

- أضمن لك بأنّ الوريث لن يجرأ على مسّك إلاّ بحضور راهب، وشهادة الأبرشيّة بيده.

- ثمّة مَن لديه فائضٌ، وثمّة مَن ليس لديه شيء!

- هل ستفعلينها؟

- من أجلك؟

- من أجل الأدب.

23

ما إن خرجتُ إلى الشارع، حتّى باغتني هبوب ريحٍ باردة، تنذر بعاصفةٍ عمياء تكتسح الطرقات، ففهمتُ أنّ الخريف يطرق أبواب برشلونة. ركبتُ الترام من ساحة بالاثيو، وكان خاويًا ينتظر الركّاب، كأنّه مصيدة فئرانٍ عملاقة، مصنّعة من حديدٍ صلب. شغلتُ مقعدًا عند النافذة ودفعتُ ثمن التذكرة للمراقب.

- هل يصل الترام إلى ساريا؟

- إلى الساحة فقط.

أسندتُ ناصيتي إلى الزجاج، وانطلق الترام بعدئذٍ بهزّة عنيفة. أغمضتُ عينيّ وانصعتُ لقيلولةٍ محبّبة، من تلك التي لا يستمتع فيها المرء إلا إذا كان على متن غولٍ ميكانيكيٍّ من وحي الإنسان الحديث. حلمتُ بأنّي أسافر في قطار مصنوعٍ من عظام سوداء، وعرباته على شكل توابيت، يجتاز برشلونة المقفرة من البشر والمليئة بثيابٍ مرميّةٍ على قارعة الطريق، كما لو أنّ الأجساد التي كانت تلبسها قد تبخّرت. سهولٌ جرداء إلاّ من قبّعاتٍ وألبسةٍ وبذلاتٍ وأحذيةٍ تغطّي الشوارع المسحورة بالصمت. وكان القطار ينفث خيطًا من دخانٍ قرمزيٍّ، يتمدّد في السماء كالطلاء المسكوب. وربّ العمل كان جالسًا بقربي، متبسّمًا. كان يرتدي ثيابًا بيضاء، وفي يديه قفّازان. وثمّة سائلٌ ما، كثيفٌ وقاتم اللون، يقطر من رؤوس أصابعه.

- «ما الذي حدث للناس؟»

- «تحلّ بالإيمان يا مارتين. تحلّ بالإيمان»

وحين استيقظتُ، كان الترام يدخل ساحة ساريا ببطء. قفزتُ قبل أن يتوقّف كليًّا، وصعدتُ شارع مايور دي ساريا. سأصل إلى وجهتي بعد خمس عشرة دقيقة.

كان شارع ڤالڤيدريرا يبدأ من غابةٍ مظلمة تقع خلف قلعة كوليخو سان إغناثيو، المبنيّة من القرميد الأحمر. ثم يصعد نحو الجبل، وعلى جانبيه منازلٌ منعزلة ومحجوبةٌ بكساءٍ من الأوراق اليابسة. رأيتُ السُّحب المنخفضة تنزلق على السفح، ثمّ تتجزّأ إلى نفحاتٍ من ضباب. مشيتُ على رصيف الأرقام المفردة، وأجلتُ عينيّ إلى الأسوار والبوّابات، بحثًا عن رقم المنزل. في البعيد، تبدّت أوجهٌ صخريّة مغبرّة، ونوافيرٌ قاحلة تحوّلتْ إلى مستنقعاتٍ بين الجداول التي غزتها الأعشابُ الضارّة. سرتُ على الرصيف، متظللاً بصفٍ طويل من أشجار السرو، ولاحظتُ أنّ المنزل رقم 15 يقع بعد المنزل رقم 11 مباشرةً. تشتّت ذهني، فعدتُ على خطاي باحثًا عن الرقم 13. وخامرني شكٌّ بأنّ سكرتيرة المحامي ڤاليرا كانت أدهى ممّا تبدو عليه، وأنّها أمدّتني بعنوانٍ زائف. فإذا بي أجد مدخل زقاقٍ يصعد من الرصيف، ويمتدّ مائة متر طولاً، لينتهي عند بوّابةٍ حديديّة قاتمة، قضبانها مدبّبة كحراب الرماح.

دخلتُ ذاك الزقاق الضيّق والمبلّط، واقتربتُ من تلك الحدائد. ثمّة حديقةٌ كبيرة ومهملة تنبسط نحو الداخل، وأغصان الكينا تجتاز حراب البوابة كأذرعٍ متضرّعة من بين قضبان زنزانة ما. أزحتُ الأوراق التي تحجب جزءًا من السور، فرأيتُ الأحرف والأرقام منقوشة على الحجر.

منزل مارلاسكا

13

تبعتُ السور المحيط بالحديقة، محاولاً التلصص إلى الداخل. وبعد قرابة العشرين مترًا وجدتُ بابًا معدنيًا في قلب الجدار الحجريّ. ثمّة مطرقةٌ على الصفيحة الحديديّة، على شكل جنديٍّ يذرف دموعًا من صَدَأ. كان الباب مواربًا، فدفعتُه بكتفي، ما يسمح لي بالمرور دون أن تخدش حافّة الجدار النافرة ثيابي. فاجتاحتني رائحةٌ كثيفةٌ من ترابٍ مبلّل.

مشيتُ في درب رخاميّ ينبسط بين الأشجار، ويفضي إلى فسحةٍ قاحلةٍ تغطّيها الصخور البيضاء. تراءى لي، على أحد الجانبين، موقفًا للسيارات، مفتوحَ البوّابة، فضلاً عن حطام ما كانت مرسيدس - بنز في يوم من الأيّام، إذ بدت حينها لناظريّ عربةٌ جنائزيّة تواجه مصيرها بمفردها. كان المنزل مبنيًا على طرازٍ حداثيّ، ومكوّنًا من ثلاثة طوابق مفلطحة، تتوّج قمّتَه عليّةٌ يتراكم في مدارها عددٌ من الأبراج والأقواس. والنوافذ الكبرى ضيّقةٌ، تبرز كالخناجر من الواجهة المنقوشة بالزخارف والمنحوتات الغرائبيّة. كما كان مسير قوافل الغيوم الخرساء ينعكس على الزجاج. بدا لي أنّي رأيتُ وجهًا خلف إحدى النوافذ الكبيرة في الطابق الأول.

ودون أن أفكّر مرّتين، رفعتُ يدي ملقيًا التحية. إذ لم أشأ أن يحسبوني لصًّا. ظلّ الوجه هناك يراقبني متسمّرًا مثل عنكبوت. أخفضتُ عينيّ هنيهةً، وحين رفعتُهما، كان الوجه قد اختفى.

- صباح الخير! - هتفتُ.

انتظرتُ بضع ثوان دون ردّ، فدنوتُ من المنزل بحذر. ثمّة مسبحٌ بيضويّ محاذٍ للواجهة الشرقيّة؛ وعلى الجانب الآخر، هنالك شرفةٌ زجاجيّة. رأيتُ بعض الكراسي الممزّقة تحيط بالمسبح؛ ووثّابًا قوّضتْه نبتةُ اللبلاب بجانب المياه الداكنة. اقتربتُ من الحافّة ورأيتُ أنّ الحوض مليء بالأوراق الميّتة، والطحالب تطفو على السطح. كنت أتأمّل انعكاس وجهي في مياه المسبح حين أحسستُ بوجود كائنٍ بشريّ مجهول خلف ظهري.

استدرتُ جزعًا، فاصطدمتُ بوجهٍ معذَّبٍ وشاحب، يرمقني بريبةٍ وعدم ارتياح.

- من حضرتك، وماذا تفعل هنا؟

- اسمي داڤيد مارتين، وقد أرسلني المحامي ڤاليرا - أجبتُ دفعةً واحدة.

زمّت أليثيا مارلاسكا شفتيها.

- هل حضرتكِ السيّدة مارلاسكا؟ السيّدة أليثيا؟

- ما الذي حدث للرجل الذي يأتي في العادة؟ - سألتُ.

أدركتُ أنّها أخطأت بيني وبين موظّفٍ في مكتب ڤاليرا، كأنّها تنتظر مني أن آتيها بوثيقةٍ لتمضي عليها، أو رسالة من المحامي. درستُ إمكانيّة انتحال تلك الهويّة، بسرعةٍ خاطفة، لكنّ شكوك المرأة أوحت إليّ بأنّها سمعتْ ما يكفي من الأكاذيب في حياتها ولن تحتمل المزيد.

- أنا لا أعمل في المكتب يا سيّدة مارلاسكا. أسباب زيارتي شخصيّة. حبّذا لو تكرّمتِ عليّ من وقتك، لتحدّثيني عن أحد العقارات القديمة لزوجك، الدون دييغو.

تجهّم وجه الأرملة وأحادت نظراتها. كانت تتكأ إلى عكازٍ، ولاحظتُ وجود كرسيٍّ متحرّك، عند باب الشرفة، تخيّلتُ أنّها تقضي عليه من الوقت ما لا يطيب لها الاعتراف به.

- لم يعد من عقاراتٍ لزوجي يا سيّد...

- مارتين.

- لقد استولت المصارف على كلّ شيء، يا سيّد مارتين. كلّ شيء عدا هذا المنزل الذي سجّله زوجي باسمي، بفضل نصائح السيّد ڤاليرا الأب. وما تبقّى تكالبت حوله الضباع.

- كنت أقصد بيت البرج في شارع فلاساديرس.

تنهّدت الأرملة. توقّعتُ أن يتراوح عمرها بين الستّين والخمسة والستّين عامًا. وما زال وجهها يقتات من أصداء جمالها الفتّان الذي لم يتلاشَ بالمطلق.

- انس أمر ذلك البيت. إنّه بيت ملعون.

- للأسف، لا أستطيع. إنّي أقيم فيه.

قطّبت السيّدة مارلاسكا حاجبيها.

- كنت أظنّ أنّ ما من أحدٍ بوسعه الإقامة فيه. لقد ظلّ مهجورًا لسنواتٍ عديدة.

- استأجرتُه منذ مدّة. سبب زيارتي، في الواقع، أنّي عثرتُ على جملة من الأغراض الشخصيّة، خلال الصيانة، وأعتقد أنّها تخصّ حضرتكِ وزوجكِ الراحل.

- لا شيء في ذلك البيت يخصّني. لعلّك عثرتَ على أغراض تلك المرأة...

- إيرينا سابينو؟

ابتسمت أليثيا مارلاسكا بمرارة.

- ما الذي تريد أن تعرفه بالتحديد، يا سيّد مارتين؟ قل لي الحقيقة. لم تأتِ حتّى هنا لتعيد إليّ أغراض زوجي القديمة.

تبادلنا نظرةً صامتة، وعرفتُ أنّي لم أعد أستطيع، ولا أريد، أن أكذب على تلك المرأة، مهما كلّفني الثمن.

- إنّي أحاول الاستعلام عمّا جرى لزوجكِ، يا سيّدة مارلاسكا.

- لماذا؟

- لأنّي أعتقد بأنّي أمرّ بتجربته ذاتها.

كانت أجواء منزل مارلاسكا شبيهة بأجواء مدفنٍ مهجور، تابعٍ لإحدى السلالات العريقة التي طواها الغياب والفقدان. وبات أقرب إلى الخربة، بعد أن كان في أيّام سعده وأمجاده حافلاً بفيالق الخدم المتفانين في تلميعه. تقشّر طلاء الجدران، وتفكّك بلاط الأرضيّة، وعاث البرد والرطوبة فسادًا بالأثاث، وتتداعى السقف، وتمزّق البساط الكبير. أعنتُ الأرملةَ في جلوسها على الكرسيّ المتحرّك، واقتدتُها بتوجيهاتها إلى صالة القراءة التي لم يبقَ فيها شيء، لا كتب ولا لوحات.

- اضطررتُ لبيع جزءٍ كبير من الأشياء كي أعيش - فسّرتْ - ولولا معونة السيد ڤاليرا الشهريّة لما عرفتُ أين أذهب.

- هل تعيشين بمفردكِ هنا؟

أومأتْ بنعم.

- هذا منزلي. المكان الوحيد الذي عشتُ فيه سعيدةً، منذ سنواتٍ طويلة. لطالما عشت هنا، وسأموت هنا. المعذرة، لم أقدّم لك شيئًا. لا أتلقّى الزيارات منذ زمن بعيد، حتّى نسيتُ كيف يُكرَم الضيوف. هل تفضّل الشاي أم القهوة؟

- لا عليكِ يا سيّدتي. شكرًا.

ابتسمت السيّدة مارلاسكا وأشارت إلى الأريكة حيث كنتُ جالسًا.

- كانت أريكة زوجي المفضّلة. كان يجلس عليها ليقرأ حتّى ساعة متأخّرة، قرب نار الموقد. وكنت أحيانًا أجلس بجواره، وأصغي إليه. كان يحبّ أن يروي عليّ الحكايات، في تلك الآونة على الأقلّ. لقد جمعتْنا السعادة تحت سقف هذا المنزل...

- ما الذي حصل؟

شدّت الأرملة كتفيها وتاهت نظراتها في رماد الموقد.

- هل أنت واثقٌ من رغبتك في سماع هذه القصّة؟

- أرجوكِ.

24

- الحقُّ يقال، لا أعلم بالضبط متى تعرّف زوجي دييغو عليها. لا أذكر سوى أنّه ذات مرّة شرع يتكلّم عنها بإيجاز، ثم سرعان ما راح يلفظ اسمها كلّ يوم: إيرينا سابينو. قال لي إنّ أحدهم عرّفه عليها، يدعى داميان روريس، الذي يعقد جلساتٍ لاستحضار الأرواح في شقّةٍ من شارع إليزابيت. وكان دييغو دارسًا مولعًا بالأديان والأساطير، وقد حضر عددًا من تلك الجلسات بصفة مراقب. في تلك الآونة، كانت إيرينا سابينو إحدى أكثر الممثلات شعبيّةً في مسارح الباراليلو. كانت آية في الجمال، لا أنكر ذلك. لكنّي أكاد أجزم أنّها لا تعرف العدّ أكثر من عشرة. قيل إنّها ولدت بين الأكواخ الفقيرة عند شاطئ بوغاتل، بعد أن ألقتها أمّها في مدينة الصفيح تلك، في ضاحية سوموروسترو، وإنّها نشأت وسط المنحرفين وأولئك الذي يقصدون تلك الأمكنة للتواري عن الأنظار. امتهنتِ الرقص في الملاهي وحانات الباراليلو والراڤال في سنّ الرابعة عشرة. الرقص، كي لا نقول شيئًا آخر. إذ إنّي أتخيّل أنّها بدأت الدعارة قبل أن تتعلم القراءة، هذا إذا تعلّمتْ... قيل إنّها حافظت على نجوميّتها لفترة طويلة في مسرح لاكريولا. ثمّ انتقلتْ إلى أماكن أخرى، روّادها من الطبقة الراقية. أعتقد أنّها، في أبولو، تعرّفت على مَن يُدعى خوان كوربيرا، الذي كان جميعهم يلقّبونه «خاكو». فأصبح خاكو وكيلها، ومن المحتمل أنه صار عشيقها أيضًا. فهو الذي ابتكر لها اسم «إيرينا سابينو»، وخرافة أنّها ابنةٌ سرّيةٌ من عارضةٍ باريسيّة وأميرٍ من الطبقة الأوروبيّة النبيلة. لا أعرف اسمها الحقيقي. ولا أعلم إن كان لديها اسمٌ حقيقيٌّ أساسًا. اقتادها خاكو إلى جلسات الأرواح، بإيعازٍ من روريس على ما أظنّ، ليتقاسم الشريكان المردود من بيع بكارتها المزعومة لرجالٍ أغنياء ملولين يقصدون تلك المحافل ليقضوا على الضجر. يقال إنّها اختصاصيّةٌ في خطف المتزوجيّن.

وإن كان خاكو وشريكه روريس متأكّدَين من شيء، فهو أنّ إيرينا مهووسة بتلك الجلسات، وتؤمن حقًا في إمكانيّة التواصل مع عالم الأرواح خلال تلك المناجاة. كانت على يقينٍ من أنّ أمّها تبعث لها الرسائل من العالم الآخر، وما فتئت تذهب إلى هناك لتتواصل معها، حتّى بعدما ذاعت شهرتُها. وهناك تعرّفت على زوجي دييغو. أعتقد أنّنا كنّا نمرّ بمرحلةٍ سيئة، تلك التي يمرّ فيها كلّ المتزوجيّن. إذ كان دييغو، قبلئذٍ، ينوي اعتزال مهنته ليتفرّغ للكتابة حصرًا. أعترف أنّي لم أمدّ له يد العون التي كان بحاجةٍ إليها. كنت أرى أنّه سيضيّع حياته سدىً بتلك الحركة، بل ربّما لأنّي خشيتُ من خسارة كلّ شيء، المنزل والخدم... فخسرتُ كلّ شيء في الحالتين، وهو أيضًا. ثم انفصلنا نهائيًا بسبب فقداننا إسماعيل. إسماعيل ابننا. كان دييغو متعلّقًا به. لم أر والدًا يحبّ ابنه مثله. إسماعيل، ولستُ أنا، أهمّ ما في حياته. ذات مرّة، كنّا نتجادل في غرفة النوم، في الطابق الأوّل. أخذتُ أتذمّر من الوقت الذي يقضيه في الكتابة، ومن أنّ شريكه ڤاليرا ضاق ذرعًا من تحمّل أعباء العمل بمفرده، حتّى أعطاه مهلةً للعودة، وإلاّ فضّ الشراكة وعمل لحسابه الخاص. أجاب دييغو بأنّ الأمر لا يهمّه، وأنّه كان مستعدًّا لبيع حصّته من المكتب كي يتفرّغ لهوايته. في ذلك العصر، تفقّدْنا إسماعيل فلم نجده. لم يكن في غرفته ولا في الحديقة. ظننتُ أنّه ذُعِر من شجارنا

وهرب. إذ لم تكن المرّة الأولى التي يفعلها. كنّا قد وجدناه، قبلها بأشهر، يبكي على أحد مقاعد ساحة ساريا. خرجنا نبحث عنه عند الغروب. لم نعثر له على أثرٍ في أيّ مكان. طرقنا أبواب الجيران والمستشفيات، عبثًا... وفيما نحن عائدان فجرًا، بعد أن قضينا الليل في البحث عنه، وجدنا جسده في قاع المسبح. كان قد غرق في المساء السابق، ولم نسمع صرخات استغاثته، لأنّنا كنّا نتشاجر بصوتٍ أعلى. كان عمره سبع سنوات. ولم يغفر لي دييغو ما حصل أبدًا، ولم يغفر لنفسه أيضًا. وسرعان ما بات أحدنا لا يطيق وجود الآخر. فكلّما تبادلنا نظرةً، أو لمسة، تراءت لنا جثّة ابننا في قاع ذلك المسبح الملعون. استيقظتُ ذات يوم، وعلمتُ أنّ دييغو هجرني. ترك المكتب وذهب ليعيش في بيتٍ كبير في حيّ ريبيرا، لطالما تمنّى امتلاكه. كان يقول إنّه يمارس الكتابة، وإنّه تلقّى فرصة عملٍ مهمّة جدًا، من ناشرٍ جاء من باريس، وإنّه لا يجدر بي القلق بشأن النقود. كنت أعلم أنّه كان مع إيرينا، حتّى لو لم يقرّ بذلك. كان محطّم النفس؛ متيقّنًا من أنّه لم يعد لديه كثيرٌ من الوقت في الحياة؛ معتقدًا بأنّه أصيب بمرضٍ ما، يشبه الطفيليّات، ينهشه من الداخل. لم تكن فكرة الموت تغيب عن أحاديثه. لم يكن يصغي إلى أحد. لا لكلامي ولا لنصائح ڤاليرا... لإيرينا وروريس فقط، اللذين أتلفا دماغه بقصص الأرواح، وسلبا منه المال مقابل وعدٍ بتسهيل التواصل مع إسماعيل. ذات مرّة، ذهبتُ إلى بيت البرج وتوسّلتُ إليه أن يفتح الباب. لم يسمح لي بالدخول. قال لي إنّه مشغول، وإنّه يعمل على أمرٍ مهمّ من شأنه أن ينقذ إسماعيل. أدركتُ حينها أنّه بدأ يفقد رشده. كان يتوهّم بأنّه، إذا أنجز ذلك الكتاب اللعين، للناشر الباريسيّ، سيعود ابننا من الموت. وأعتقد أنّ إيرينا وروريس وخاكو تمكّنوا من نشل ما تبقّى في حوزتنا من نقود... بعد أشهر من انعزاله عن الجميع، يقضّي الوقت منكفئًا على نفسه في ذلك المكان المريع، وجدوه ميتًا. قالت الشرطة إنّه تعرّض لحادثٍ ما، لكنّي لم أصدّق هذا يومًا. إذ اختفى خاكو، واختفت الأموال، بينما زعم روريس بأنْ لا علم له بالموضوع. وادّعى أنّه لم يتواصل مع دييغو منذ زمن، لأنّه جنّ وبات مخيفًا. قال إنّ دييغو، في آخر الجلسات التي حضرها، كان يروّع الزبائن بقصصه عن الأرواح الملعونة، فمنعه روريس من المجيء ثانية. إذ كان يقول إنّ ثمّة بحيرة كبيرة من الدماء تحت المدينة؛ وإنّ ابنه يهاتفه في المنام، ليخبره بأنّه سجينٌ لظلٍّ كجلد أفعى ما لبث يحوّلها لطفلٍ يلاعبه... لم يُصعَق أحدٌ حين عثروا عليه ميّتًا. وفقًا لإيرينا، انتحر دييغو بسببي: تلك الزوجة الجامدة والجشعة، التي تركتْ ابنها يموت لأنّها لم تكن لتتخلّى عن حياة الترف، هي التي دفعته نحو الموت. قالت إنّها الوحيدة التي أحبّته حقًا، وإنّها لم تكن لتكسب منه أيّ قرش. أرى أنّها كانت تقول الحقيقة، في هذا الأمر على الأقلّ. وأعتقد أنّ خاكو استخدمها لإغواء دييغو، لتسهّل عليه سرقة كلّ شيء. ثمّ تركها وهرب في لحظة الحقيقة، دون أن يقاسمها أيّ شيء. هذا ما قالته الشرطة، أو بعض المحقّقين. فلطالما شعرتُ بأنّهم لا يفضّلون التوغّل في القضيّة، وأنّ فرضيّة الانتحار تناسبهم أكثر. لكنّي لا أرجّح انتحار دييغو. لا في ذلك الحين، ولا حتّى الآن. بل أكاد أجزم أنّه لقي مصرعه على أيدي إيرينا وخاكو. وليس من أجل المال فحسب. ثمّة سببٌ آخر. أذكر أنّ أحد المحقّقين المفوّضين كان يرى الأمر كذلك أيضًا. كان شابًّا، يدعى ريكاردو سالڤادور. قال إنّ شيئًا ما لا يقنعه في الرواية الرسميّة للأحداث، وإنّ أحدهم أخفى السبب الحقيقي لموت دييغو. ناضل سالڤادور في توضيح الخفايا حتّى سحبوا منه القضيّة، ثمّ طردوه من جهاز الشرطة، مع مرور الوقت. لكنّه تابع التحقيقات، بدافعٍ شخصيّ. كان يأتي لزيارتي أحيانًا. وأصبحنا خير أصدقاء... إذ كنت امرأة وحيدة ومنهارة ويائسة. وكان ڤاليرا ينصحني بالزواج ثانية؛ فهو أيضًا ألقى عليّ اللائمة لما حدث لزوجي، ووصل به المطاف إلى التلميح بأنّ أرملةً، تتمتّع بحضورٍ لافتٍ وهالةٍ

أرستقراطيّة، قد تكون مرغوبة لإحماء أسرّة الكثير من التجّار العُزّب في أوج عطائهم. فانعزلتُ مع الوقت؛ حتّى سالڤادور كفّ عن زيارتي. لا ألومه. فقد تحطّمت حياته وهو يحاول إنقاذي. يبدو لي أحيانًا أنّي نجحتُ في شيءٍ واحدٍ في هذه الدنيا: دمّرتُ حياة الآخرين... لم أروِ هذه القصّة على مسامع أحدٍ من قبل، يا سيّد مارتين. وإن أردتَ نصيحتي، انسَ أمر ذلك البيت! وانسَني! وانسَ زوجي، وهذه القصّة أيضًا! ارحلْ بعيدًا... فهذه المدينة ملعونة. ملعونة.

25

خرجتُ من منزل مارلاسكا وقلبي يخفق فزعًا؛ ورحتُ أتسكّع - بلا وجهة محدّدة - في متاهة الطرقات المقفرة التي تفضي نحو بيدرالبيس. كانت السماء محجوبة بسحبٍ رماديّة، كشباك العنكبوت، بالكاد تتسلّل من بينها أشعّة الشمس. فينسلّ النورُ، في ذلك الكفن، كالإبر التي تخز سفح التلّ. تتبّعتُ بنظرتي تلك الخطوط المضيئة، ورأيتُها في الأفق تلامس سطح ڤيلا هيليوس المزخرف. كانت النوافذ تتلألأ في البعيد. اقتادتني خطواتي صوب ذلك الاتجاه، متناسيًا حسن السلوك. والسماءُ، كلّما اقتربتُ، ازدادت ظلامًا، وعبثت الريحُ الهائجة بالأوراق اليابسة في دوّاماتٍ تعترض طريقي. توقّفتُ عند أوّل شارع بنما؛ حيث تنهض ڤيلا هيليوس قبالتي. لم أجرؤ على عبور الشارع والاقتراب من السور الذي يحيط بالحديقة. بقيتُ هناك مدّةً، يعلم الله كم دامت، عاجزًا عن الرجوع والتقدّم لطرق الباب، على حدٍّ سواء. وحينئذٍ، رأيتُها تمرّ خلف إحدى النوافذ الكبيرة من الطابق الثاني. فاستشرس شعورٌ خانقٌ بالبرد يلدغ أحشائي. وكنت على وشك الفرار حين التفتتْ وتوقّفتْ. دنتْ من الزجاج فأحسستُ بعينيها تعانق عينيّ. رفعتْ يدها، كأنّها تلقي التحيّة، لكنّها لم تبسط أناملها. لم أتملّك من الشجاعة لمجابهة نظراتها، فاستدرتُ وابتعدتُ نحو أسفل الطريق. كانت يديّ ترتعشان، فأودعتُهما دفء جيبيّ كي أخفي اضطرابي. وقبل أن أنعطف عند التقاطع، استدرتُ مجدّدًا، ورأيتُ أنّها ما زالت هناك ترنو إليّ. كم وددتُ أن أكرهها، لكنّ مشاعري لم تحالفني.

وصلتُ إلى البيت والبرد ينخر عظامي، كما كنت أتصوّر. وحين فتحتُ البوّابة، وجدتُ ظرفًا يبرز من صندوق البريد. رقٌّ وشمع. أخبارٌ من ربّ العمل. فتحتُ الظرف بينما أجرجر نفسي صعودًا على السلالم. كان، بخطّه المنمّق، يقيّد لي موعدًا في اليوم اللاحق. وصلتُ إلى العتبة، فوجدتُ الباب مواربًا، وإيزابيلا تتبّسم بانتظاري.

- كنت في المكتب ورأيتُ وصولك - قالت.

حاولتُ أن أبتسم لها، لكنّ أدائي لم يكن مقنعًا، فما إن نظرتْ إيزابيلا في عينيّ حتى افترس القلق وجهها.

- هل أنت بخير؟

- لا شيء. أعتقد أنّي أصبتُ بنوبة برد.

- الحساء على النار، سيشفيك كاليد المقدّسة. ادخل.

أمسكتْ بذراعي واقتادتني إلى الصالة.

- إيزابيلا، لستُ معاقًا.

ابتعدتْ عنّي، وأخفضت أنظارها.

- المعذرة.

لم تكن لديّ القوّة لأتشاجر مع أحد، فما بالك بمساعِدتي العنيدة. لذا تركتها تقودني نحو إحدى الأرائك، حيث هويتُ مثل كيسٍ من العظام. جلست إيزابيلا بقربي ونظرتْ إليّ متوجسّة.

- ما الذي حصل؟

ابتسمتُ في وجهها مطمئِنًا.

- لا شيء. لم يحصل شيء. أ لم تريدي أن أشرب كوبًا من الحساء؟

- حالاً.

انطلقتْ إلى المطبخ، وسمعتُ قرقعة القدور. التقطتُ نفسًا عميقًا وأغمضتُ عينيّ حتى تناهت خطواتُها إلى مسامعي.

أعطتني كوبًا كبيرًا، يتصاعد منه الكثير من البخار.

- يبدو بولاً - قلت.

- اشرب وكفّ عن التفوّه بالترّهات.

شممتُ الحساء. كانت زكيّ الرائحة، لكنّي لم أشأ استعراض المزيد من اللباقة.

- رائحته غريبة. ماذا يوجد فيه؟

- رائحة دجاج. فيه دجاجٌ وملحٌ والقليل من نبيذ خيريس. اشرب.

شربتُ منه رشفة وأعدتُ إليها الكوب. هزّت إيزابيلا رأسها.

- اشربه كلّه.

تأفّفتُ وشربتُ رشفة أخرى. كنت أشعر بلذّته، رغمًا عن أنفي.

- كيف كان نهارك؟ - سألتني إيزابيلا.

- مرّ بلحظاتٍ مختلفة. وأنتِ؟

- أنت أمام النجمة الجديدة في مكتبة سيمبيري وأبناؤه.

- ممتاز.

- قبل الخامسة، بعتُ نسختين من «صورة دوريان غراي»، والأعمال الكاملة لتوماس هاردي، لزبونٍ رفيع المستوى من مدريد. أعطاني الإكراميّة أيضًا. لا تنظرْ إليّ هكذا! لقد وضعتُها في الصندوق.

- وماذا قال سيمبيري الابن؟

- من ناحية القول، لم يقل الكثير. ظلّ طوال الوقت متظاهرًا بتجاهلي مثل البوم، لكنّه لم يزح أنظاره عنّي. لا أستطيع الاقتراب من أيّ كرسيّ، إذ ما لبث ينظر إلى مؤخرتي كلّما صعدتُ السلّم لتناول كتاب ما.

أومأتُ مبتسمًا.

- شكرًا يا إيزابيلا.

ركّزت أنظارها في عينيّ.

- أعد ما قلت!

- شكرًا يا إيزابيلا. شكرًا من القلب.

تضرّج وجهها حياءً وأزاحت أنظارها. بقينا قليلاً في صمتٍ خاشع، نستمتع بذلك الانسجام الذي لا يحتاج إلى الكلمات أحيانًا. أنهيتُ الحساء، رغم انعدام شهيّتي، وأريتُها الكوب فارغًا. فاستحسنتْ.

- ذهبتَ لرؤيتها، أليس كذلك؟ تلك المرأة. كريستينا - قالت إيزابيلا متهرّبة من نظراتي.

- يا لإيزابيلا قارئة الوجوه...

- قل لي الحقيقة.

- رأيتُها من مسافة بعيدة وحسب.

رمقتني بحذر، كأنّها تخشى أن تبوح، أو لا تبوح، بشيءٍ قد استعصى في ضميرها.

- هل تحبّها؟ - سألتْ في النهاية.

نظر كلٌّ منّا في وجه الآخر، بصمت.

- أنا لا أعرف مبادلة المحبّة، كما تعلمين. إنّي أنانيٌّ... وباقي ما تبقّى. فلنتحدّثْ بشأنٍ آخر.

أذعنت إيزابيلا، فإذا بنظراتها تصطاد الظرف الناتئ من جيبي.

- أخبارٌ من ربّ العمل؟

- الاستدعاء الشهريّ. صاحب السعادة، السيّد أندرياس كوريلي، يشرّفني بتحديد موعدٍ في السابعة من صباح الغد، عند أعتاب مقبرة بويبلو نويفو. لم يكن بوسعه اختيار مكانٍ آخر.

- وهل تفكّر في الذهاب؟

- وماذا يسعني أن أفعل؟

- بإمكانك أن تستقلّ قطارًا هذا المساء، وتختفي إلى الأبد.

- أنتِ الشخص الثاني الذي يقترح عليّ الأمر نفسه، اليوم. الرحيل بعيدًا من هنا.

- ثمّة سببٌ بلا شكّ.

- ومن سيتولّى توجيهكِ وإرشادكِ في مجاهل الأدب؟

- سآتي معك.

ابتسمتُ وأمسكتُ يدها.

- معكِ، إلى آخر العالَم، يا إيزابيلا.

سحبتْ يدها فجأة، ورمقتني بغيظ.

- أنت تسخر منّي.

- إيزابيلا، سأنتحر برصاصةٍ يومَ تخطر في بالي السخرية منكِ.

- لا تقل هذه الأشياء. لا يروق لي أن تقول هكذا.

- المعذرة.

عادت مساعِدتي إلى المنضدة وغطّت في إحدى لحظات صمتها الطويلة. رأيتُها تتصفّح الأوراق التي كتبتْها خلال النهار، وتصحّحها، وتمحو فقراتٍ بأكملها، بمجموعة الريشات التي أهديتُها لها.

- إن واصلتَ النظر إليّ، فقدتُ التركيز.

نهضتُ والتففتُ حول المنضدة.

- سأتركك تعملين إذن، وبعد العشاء تريني ما كتبتِه.

- النصّ ليس جاهزًا بعد. عليّ أن أصحّح كلّ شيء والكتابة مجددًا و...

- لن يكون النصّ جاهزًا أبدًا يا إيزابيلا. عليكِ أن تعتادي على هذا. سنقرأ معًا بعد العشاء.

- غدًا.

استسلمتُ.

- غدًا.

وافقتْ، فتهيّأتُ لأتركها بمفردها مع كلماتها. كنت أغلق باب الصالة حين سمعتُ صوتها يناديني.

- داڤيد؟

توقّفتُ صامتًا، في الجانب الآخر للباب.

- ليس صحيحًا. ليس صحيحًا أنّك لا تعرف أن تبادل أحدًا المحبّة.

ذهبتُ إلى غرفتي وأغلقتُ الباب. اضطّجعتُ على جنبي، فوق السرير، منكمشًا على نفسي. وأغمضتُ عينيّ.

26

خرجتُ من البيت عند مطلع الفجر. كانت السُّحب الداكنة تتقاطر فوق الأسطح وتسرق ألوان الطرقات. وبينما كنت أجتاز منتزه القلعة، رأيتُ أوّل قطرات المطر تضرب أوراق الشجر وتنهمر على الشارع، فيتصاعد الغبار في خيوطٍ كدخان النيران. ثمّة غابةٌ من المصانع، في الجانب الآخر من المنتزه، وحاويات الغاز تتضاعف نحو الأفق، والمعامل تنفث دخانها لينحلّ في تلك الأمطار السوداء، فتهطل من السماء كدموع الفحم. مشيتُ في طريق السرو المشؤومة، المؤدّية إلى أعتاب مقبرة الشرق، المسير نفسه الذي لطالما قمتُ به مع والدي. ورأيتُه من بعيد، ينتظر متسمّرًا تحت المطر، عند قاعدة أكبر الملائكة التي تراقب مدخل المقبرة الرئيس. كان يرتدي ثيابًا سوداء، وعيناه تميّزانه عن مئات التماثيل خلف السور. لم يحرك رمشًا حتّى صرت على مقربةٍ منه، فمددتُ يدي لمصافحته، حين تردّدتُ في ما الذي ينبغي فعله. كان الطقس باردًا، والريح تحمل رائحة الجير والكبريت.

- يا لسذاجة الزوّار العابرين، يظنّون أنّ هذه المدينة ليس فيها سوى الحَرّ والشمس - قال ربّ العمل - لكنّي أقول دائمًا إنّ روح برشلونة، العتيقة والعريقة، المعذّبة والغامضة، لا بدّ أن تنعكس في السماء، عاجلاً أم آجلاً.

- أنصحك بنشر الدليل السياحيّ بدلاً من النصوص الدينيّة - اقترحتُ.

- الأمر سيّان، من الناحية العمليّة. أتمنّى أن تكون قد قضّيت الأيّام الفائتة بوديعة وسلام. هل العمل يسير على قدمٍ وساق؟ هل لديك أخبارٌ تسعدني؟

فتحتُ سترتي وأعطيته ملفًا من الأوراق. دخلنا المقبرة بحثًا عن مكان يقينا وابل المطر. اختار ربّ العمل مدفنًا قديمًا، فيه قبّة مرفوعةٌ بأعمدةٍ رخاميّة، ومطوّقة بملائكةٍ، وجوهها متألّمة وأصابعها طويلة جدًا. توجّه إليّ بإحدى ابتساماته الذئبيّة وغمز بعينه، بينما كانت مقلتاه الصفراوان والبرّاقتان تغمضان في بؤرةٍ سوداء، انعكس فيها وجهي الشاحب وبالغ التوّتر.

- استرحْ يا مارتين. أنت تكلّف نفسك أكثر من وسعها في التفكير بآليّة المشهَد.

أخذ يقرأ الصفحات، التي أتيتُه بها، على رسل.

- أفضّل أن أقوم بنزهة ريثما تنهي القراءة - قلت.

أومأ كوريلي موافقًا، دون أن يرفع عينيه عن الصفحات.

- إيّاك أن تهرب - غمغم.

ابتعدتُ بأقصى ما عندي من سرعة، دون أن أبدي العجلة؛ وتِهتُ بين الدروب وشواهد القبور. طفتُ بين الأضرحة والمسلاّت، متّجهًا إلى قلب المقبرة. ما زالت الشاهدة في مكانها، تتميّز بإناءٍ فارغٍ يحمل رُفات أزهارٍ متحجّرة. كان ڤيذال قد دفع ثمن القبر، وطلب من نحّاتٍ، ذائع الصيت في الأوساط الجنائزيّة، أن يصمّم تمثالاً يجسّد رأفة العذراء لتحفظ القبر، وهي رافعة عينيها إلى السماء، ويديها على صدرها كما لو أنّها تتوسّل الرحمة. جثوتُ على ركبتيّ أمام الشاهدة، ونفضتُ عنها الطحالب التي حجبت الحروف المنقوشة بالإزميل.

خوسيه أنطونيو مارتين كلاريس

1875 - 1908

بطل الحرب في الفلبين

سيبقى خالدًا

في ذاكرة وطنه وأصدقائه

- صباح الخير يا أبتاه - قلت.

تأمّلتُ المطر الأسود وهو ينزلق على وجه العذراء الرؤوف، والأمطار التي تجلد الشواهد الأخرى، وابتسمتُ تشريفًا لأولئك الأصدقاء الوهميّين والوطن الذي أرسله ليموت حيًّا، من أجل ثلّة من الأوغاد، لم يعلموا بوجوده أصلاً. جلستُ بجوار الشاهدة، مسندًا يديّ إلى الرخام.

- من كان ليتوقّع هذا المآل. أليس كذلك؟

كان أبي، الذي عاش حياته في الشقاء، يرقد في قبرٍ برجوازيّ إلى الأبد. حين كنت طفلاً، لم أكن قد فهمتُ ما الذي حدا بالجريدة لدفع تكاليف المأتم وأجر الخوريّ الأنيق والنوّاحات، فضلاً عن القبر الذي يناسب تاجرًا يستورد السكّر. ورغم أنّي لطالما توقّعتُ أن يكون ڤيذال مَن تكفّل بجنازة والدي، الذي قُتِل نيابة عنه، فإنّ أحدًا لم يخبرني بذلك، لذا نسبتُ حسّ الشهامة والسخاء إلى السماء التي باركتْ أخلاق مُرشدي ومُلهمي العظيم، الدون پيدرو ڤيذال.

- عليّ أن أطلب منك السماح يا والدي. لقد حقدتُ عليك لسنوات، لأنّك تركتني وحيدًا هنا. كنت أقول لنفسي إنّك جنيتَ الموت الذي كنت تزرعه. لذا لم أجئ لزيارة قبرك أبدًا. سامحْني.

أبي لم يكن يحبّ الدموع إطلاقًا. كان يعتقد أنّ الرجل الحقيقيّ لا يبكي على الآخرين بل على نفسه فقط. وإنْ فعلها، فهو خسيسٌ ولا يستحقّ التعاطف. فلم أشأ البكاء وخيانته مرّة أخرى.

- كان جميلاً لو أنّك رأيتَ اسمي على كتابٍ ما، مع إنّك لم تكن لتميّزه. كان جميلاً لو أنّك معي الآن، لترى كيف يفلح ابنك في شقّ طريقه، والقيام بأشياء كنتَ محرومًا منها. كان بودّي لو عرفتُك وعرفتَني يا أبي. عاملتُكَ كغريبٍ

لكي أنساك، فوجدتُني أنا الغريب.

لم أسمعه يقترب منّي، لكنّي رفعتُ رأسي فرأيتُ ربّ العمل يراقبني صامتًا، على مقربة منّي. نهضتُ ودنوتُ منه ككلبٍ مروّض. تساءلتُ إن كان على علمٍ بأنّ والدي مدفونٌ هناك، وأنّه حدّد الموعدَ في ذلك المكان لهذا السبب تمامًا. ولا بدّ أنّ وجهي كان كتابًا مفتوحًا، إذ حرّك رأسه نافيًا وربّت على كتفي.

- لم أكن أعرف يا مارتين. أنا متأسّف.

لم أكن مستعدًا لفتح باب الرفقة بيننا. استدرتُ لأتملّص من عطفه وشفقته، وشددتُ عينيّ لألجم دموع السخط. اتّجهتُ نحو المخرج دون أن أنتظره. ظلّ واقفًا برهةً، ثمّ قرر أن يتبعني. مشى على جانبي بصمتٍ حتّى وصلنا إلى المدخل.

- وبعد؟ هل لديك تعليق؟

تجاهل ربّ العمل نبرتي الغامضة في حدّتها وابتسم بصبر.

- العمل ممتاز.

- ولكن...

- إن توجّب عليّ إبداء ملاحظة جديّة، فأعتقد أنّك برعتَ في بناء كلّ الحكاية من وجهة نظر شاهدٍ على الأحداث، يشعر بأنّه ضحيّة، ويتكلّم باسم الشعب الذي ينتظر هذا المخلّص المحارب. أريدك أن تتابع على هذا المنوال.

- ألا يبدو لك مبتذلاً أو مصطنعًا...؟

- على العكس. لا شيء يقوّي إيماننا كالخوف واليقين من أنّنا تحت وطأة تهديد ما. حين نشعر بأنّنا ضحايا، تصبح كلّ تحرّكاتنا ومعتقداتنا مشروعة، حتّى لو كانت قابلة للنقاش. فنرى خصومنا، أو جيراننا بالأحرى، على أنّهم ليسوا من مستوانا فيصبحون أعداءنا. لا نرى أنفسنا كغزاةٍ معتدين، بل كأشاوس مدافعين. الحسد والجشع، والضغينة التي تدفعنا، تكتسي برداء القداسة؛ إذ نبرّر هجومنا بالدفاع عن أنفسنا. فالشرّ والخطر يكمنان في الآخر دومًا. والخوف يُرشِد خطواتنا نحو التعلّق بالإيمان. الخوف من أن نخسر هويّتنا وحياتنا وأحوالنا وإيماننا. الخوف هو البارود، والحقد هو الفتيل. والعقيدة، في نهاية المطاف، ليست سوى عود ثقابٍ مشتعل. لعلّ حكايتك تعاني من بعض الثغرات، في هذا الموضوع تحديدًا.

- أوضحْ لي شيئًا. هل تبحث عن إيمان أم عن عقيدة؟

- قد نكتفي بأن يؤمن الناسُ. عليهم أن يؤمنوا بما نرغمهم نحن على اعتناق الإيمان به. لا ينبغي أن يضعوا هذا الأمر موضع نقاش، ولا أن يسمعوا صوت من ينادي لتحليله. فعلى العقيدة أن تشكّل جزءًا من الهويّة نفسها.

وكلّ مَن تسوّل له نفسه نقاشها، بات عدّونا. بل إنّه الشرّ بعينه. ومن حقّنا، وواجبنا، أن نقارعه ونسحقه. هذا هو درب الخلاص الوحيد. الإيمان في سبيل البقاء على قيد الحياة.

تنهّدتُ وأزحتُ انظاري موافقًا على مضض.

- لا أراك مقتنعًا يا مارتين. قل لي بما تفكّر. هل ترى أنّي مخطئ؟

- لا أعرف. أرى أنّك تبسّط الأمور بطريقة خطيرة. خطابك كلّه يبدو آليّةً بسيطةً لصناعة الحقد واستخدامه.

- أردتَ أن تصف الطريقة بالسخيفة، وليست بالخطيرة. لكنّي لن أعير انتباهًا.

- لماذا نجعل من الإيمان كراهيةً وطاعةً عمياء؟ ألا يمكننا الإيمان بمبدأ الرضى والتوافق؟

ابتسم كوريلي هازئًا.

- بإمكاننا الإيمان بأيّ شيء، يا مارتين، بالسوق الحُرّة كما بميكي ماوس. بإمكاننا الإيمان بلا شيء أيضًا، كما تفعل أنت، وهي الحماقة بعينها. هل أنا على حقّ؟

- الزبون دائمًا على حقّ. ما الثغرة التي تراها في الحكاية؟

- ينقصها الشرّير. معظمُنا، سواءً كنتيجة إدراكٍ أم عن غير وعي، نعرّف أنفسنا معارضين لفكرةٍ أو أحدٍ ما، أكثر من كوننا موالين لفكرةٍ أو أحدٍ ما. فلنقلْ إنّ ردّة الفعل أسهل من الفعل. لا شيء يحيي الإيمان، ويلهب العقيدة، أكثر من وجود منازعٍ شرس. وكلّما كان مختلفًا عنّا، كان أفضل.

- لقد فكّرتُ في أنّ هذا الدور قد يكون مفيدًا إذا كان مجرّدًا. المنازع هو غير المؤمن، أو الأجنبيّ، أو مَن يخرج عن الجماعة.

- أجل لكنّي أودّ أن يكون ملموسًا. من الصعب أن نحقد على فكرة. فهذا يتطلّب منهجًا فكريًّا وروحًا مهووسة ومريضة، وهذا غير متوفّر. من الأسهل بكثير أن نكره أحدًا ما، له وجهٌ مألوف، نلقي عليه باللائمة إزاء كلّ ما يزعجنا. ليس من الضروريّ أن يكون شخصيّة فرديّة. قد يكون أمّة أو عرق أو جماعة... أيًّا يكن.

هزمتْني عدميّتُه النقيّة والهادئة. فتنهّدتُ مقهورًا.

- لا تكن مواطنًا مثاليًا الآن يا مارتين. لن يؤثّر هذا فيك، نحن بحاجةٍ لشرير في هذه المسرحيّة الهزليّة. لا بدّ أنّك تعي الأمر أكثر من أيّ أحدٍ آخر. لا حبكة بلا صراع.

- أيّ نوعٍ من الأشرار ينال إعجابك؟ طاغيةٌ غاصبٌ؟ نبيٌّ دجّال؟ الرجل الأسود؟

- سأترك لك أن تختار الطقس المناسب للمشهد. يعجبني أيّ شريرٍ لديه عادات مريبة. ولا بدّ أن تكون إحدى وظائف شرّيرنا أنّه يسمح لنا بأداء دور الضحيّة، ويحفّز سموّنا الأخلاقيّ. سنعلّق عليه كلّ ما يُشعِرنا بالعار فينا،

وكلّ ما نُشيَطنه خدمةً لمصالحنا الشخصيّة. حسابيّات القاعدة الشعبيّة والفريسيّين. سبق وأوصيتُك بقراءة الكتاب المقدّس. كلّ الإجابات التي تبحث عنها موجودة هناك.

- إنّي أقرؤه.

- يكفي إقناع الرجل الطيّب بأنّه طاهرٌ من أيّ خطيئة، لتراه يرمي الأحجار أو القنابل بحماسٍ شديد. وفي الحقيقة، لا داعي لبذل الجهد، فنحن نقتنع بقليلٍ من الشجاعة والمبرّرات. هل كلامي واضح؟

- واضحٌ جدًّا. مواضيعك أرَقّ من بوتقةٍ فولاذيّة.

- لا أعتقد أنّي أحبّ هذه النبرة الليّنة يا مارتين. هل يبدو لك أنّ كلّ هذا لا يرتقي لمستوى نقائك الأخلاقيّ والفكريّ؟

- إطلاقًا - غمغمتُ بجبن.

- ما الذي يوقظ ضميرك إذن يا صديقي؟

- كالمعتاد. لست واثقًا من أنّي العدميّ الذي تبحث عنه.

- لا وجود للعدميّين. العدميّة حالةٌ وليست مذهبًا. ضعْ شمعةً ملتهبة تحت خصية أيّ عدميٍّ، تتأكّدْ بنفسك كيف يؤمن حالاً بنور الوجود. لكنّك متضايقٌ لسببٍ آخر.

رفعتُ نظري وقلت بأقصى ما عندي من نبرة تحدٍّ، وأنا أحدّق إلى عينَي ربّ العمل:

- لعلّي متضايقٌ من أنّي قد أستوعب ما تقول، لكنّي لا أحسّ به.

- هل أدفع لك كي تحسّ به؟

- التفكير والإحساس يستويان أحيانًا. الفكرة فكرتك وليست فكرتي.

ابتسم ربّ العمل في إحدى سكتاته الدراميّة، كمعلّمٍ في المدرسة يحضّر الضربة القاضية ليُخرِس تلميذه الشقيّ والكسول.

- وبم تشعر يا مارتين؟

أمدّتني نبرته، المليئة بالازدراء والاحتقار، بالشجاعة ففتحتُ صنبور المذلّة التي تراكمت شهورًا على غفلةٍ منه. نقمةٌ وعارٌ من شعوري بالخوف في حضوره، وسماع أحاديثه المحمومة. نقمةٌ وعارٌ لأنّه أثبت لي بأنّ روحي خبيثة وملعونة بقدْر إنسانيّته القذرة، رغم أنّي آثرتُ التسليم بخيبتي وإحباطي. نقمةٌ وعارٌ كلّما أحسستُ أو عرفتُ بأنّه محقٌّ دومًا، والرضوخ لهذا في أشدّ اللحظات إيلامًا.

- طرحتُ عليك سؤالاً يا مارتين. بم تشعر؟

- أشعر بأنّ الحلّ الوحيد هو أن نترك الأمور كما هي، وأعيد إليك نقودك. أشعر بأنّي أفضّل عدم المشاركة في أيّ شيءٍ تقترحه حضرتُك من خلال هذا المشروع العبثيّ. والأسوأ من هذا كلّه، أشعر بأنّي متأسّفٌ لمعرفتك.

أطبق ربّ العمل جفنيه، وغطّ في صمتٍ عميق. استدار وابتعد بضع خطوات نحو باب المقبرة. رأيتُ جانبه القاتم على خلفيّة الحديقة الرخاميّة، وظلّه الثابت تحت المطر. أحسستُ بالخوف، برهبةٍ متشنّجة تتخبّط في أحشائي، وتولّد فيّ رغبةً صبيانية بطلب الصفح والارتهان لأيّ جزاءٍ يفرضه عليّ، شرط أن أتخلّص من عبء ذلك الصمت. شعرتُ بالقرف؛ من وجوده، ولاسيّما من وجودي.

التفت ربّ العمل ودنا ثانية. توقّف على مقربة مني، وأحنى وجهه على وجهي. أحسستُ بزفيره البارد وتهتُ في سواد عينيه الذي لا قرار له. كانت نبرته هذه المرّة جليديّة، لا تحمل شيئًا من تلك الإنسانيّة التي طبّقها بإتقانٍ خلال خطبه وحركاته.

- سأقول لك للمرّة الأخيرة. أنت تقوم بعملك وأنا أقوم بعملي. هذا هو الشيء الوحيد الذي بوسعك أن تشعر به، بل أنت مُلزَمٌ بالشعور به.

لم أدرك أنّي هززتُ رأسي مرارًا حتى أخرج الملفّ من جيبه وصوبّه نحوي. تركه يسقط قبل أن أمسكه. فبعثرت الريحُ الأوراقَ في دوّامةٍ تمضي بها نحو مدخل المقبرة. حاولتُ إنقاذ بعضها من المطر، فيما غاص بعضها الآخر في برك المياه التي أغرقت كلماتها. لملمتُها جميعًا كباقةٍ من الأوراق المبتلّة. وحين رفعتُ عينيّ، ونظرتُ حولي، كان الناشر قد انصرف.

27

لم أشعر بأنّي في حاجة لصديقٍ، ألتجأ إليه، كما في تلك اللحظة. كان مقرّ «صوت الصناعة» القديم بارزًا من خلف أسوار المقبرة. اتجهتُ إليه آملاً أن أجد معلّمي، الدون ڤاسيليو، أحد الأرواح النادرة التي لم يطلها غباءُ العالم، والذي يقدّم نصائح مفيدة دومًا. دخلتُ إلى مقرّ الجريدة، واكتشفتُ أنّي ما أزال أذكر السواد الأعظم من الموظفين. بدا أنّه لم تمرّ دقيقةٌ بعدُ من يوم غادرتُ الجريدة، منذ ستّة أعوام. تلقّيتُ نظرات الريبة من أولئك الذين عرفوني، وسرعان ما أحادوا أبصارهم كي لا يضطّروا لإلقاء التحيّة. دخلتُ إلى قاعة التحرير، التي كانت فارغة، واتجهتُ مباشرة إلى آخرها، حيث يقع مكتب الدون ڤاسيليو.

- عمّن تبحث حضرتك؟

التفتُّ فاصطدمتُ بالمحرّر روسل، أحد أولئك الذين كانوا يبدون لي في أرذل العمر حين كنت أعمل هناك في صغري؛ وكان هو الذي كتب المراجعة اللئيمة عن «خطوات السماء»، والتي وصفني فيها بمدقّق إعلانات مدفوعة الأجر.

- إنّي مارتين يا سيّد روسل. داڤيد مارتين. ألا تذكرني؟

تفحّصني روسل قليلاً، متظاهرًا بإيجاد صعوبةٍ في التعرف إليّ، ثمّ أومأ في النهاية.

- أين الدون ڤاسيليو؟

- لقد استقال منذ شهرين. ربّما تجده في جريدة «الطليعة». إن صادفتَه، أبلغْه تحيّاتي.

- بالتأكيد.

- يؤسفني ما حدث لكتابك - قال روسل بابتسامة مواسية.

اجتزتُ القاعة مبحرًا بين نظرات مشمئزّة وابتسامات ماكرة وغمغمات فاترة. فقلتُ في نفسي إنّ الوقت يُصلِح كلّ شيء، عدا الحقيقة.

بعد نصف ساعة، أنزلتني سيارة الأجرة عند أبواب جريدة «الطليعة» في شارع بيلايو. خلافًا للعفونة والتلف والشؤم الذي يميّز جريدتي القديمة، كان كلّ شيء في «الطليعة» يوحي بأجواء الأبّهة والثراء. قدّمتُ نفسي عند بهو الاستقبال، حيث يعمل شابٌ متدرّبٌ، وقد ذكّرني بنفسي حين كنت أشبه «الصرصار المتكلّم». هرع ليخبر الدون ڤاسيليو بأنّ لديه زيارة. لم يؤثّر الوقت في هيبة معلّمي القديم. ما زال محافظًا على شخصيّته الفذّة، مثلما كان عليه في «صوت الصناعة»، وقد زوّدته الألبسة الجديدة بلمسةٍ استعراضيّة ملفتة. أشرقت عيناه ابتهاجًا حين رآني،

وتخلّى عن الرسميّات والصرامة، التي يمتاز بها، ليستقبلني معانقًا حتّى كاد يسحق عظام صدري، لولا عودته حالاً لهالة الرزانة والوقار، التي لا بدّ أن يتمتّع بها أمام جمهوره.

- أصبحتَ برجوازيًّا يا دون ڤاسيليو؟

شدّ مديري القديم كتفيه، معبّرًا عن عدم اهتمامٍ بأثاثه الفاخر من حوله.

- لا تخدعْك المظاهر!

- لا تكن متواضعًا يا دون ڤاسيليو؛ فأنت هنا في حضرة التاج. هل ضبطتَ الموظفين؟

أشهر الدون ڤاسيليو قلم الرصاص الأحمر، قلمه العتيق، وأراني إيّاه وهو يغمز.

- أستهلك أربعة أقلام حمراء في الأسبوع.

- ناقص اثنين عن «صوت الصناعة».

- اعطني وقتًا. فهنا ثمّة بعض الجهابذة الذين يبذّرون علامات الترقيم، ويعتقدون أنّ الافتتاحيّة وجبةٌ تقليديّة من إقليم لوغرونيو.

رغم ذلك، كان من الواضح أنّه يشعر بالرخاء في بيته الجديد، وازدانت ملامحه بالألق.

- لا تقل لي إنّك جئت تطلب منّي عملاً، لأنّي قادر على ذلك - هدّدني.

- أشكرك يا دون ڤاسيليو، لكنّك تعلم أنّي نزعتُ عنّي البردة، وأنّ الصحافة ليست مهنتي.

- قل لي إذن، كيف بإمكان هذا العجوز المتطلّب أن يكون مفيدًا؟

- أنا بحاجة لمعلوماتٍ عن قضيّة قديمة، حول قصّةٍ أعمل عليها الآن. وفاة محامٍ مرموق، اسمه دييغو مارلاسكا.

- منذ متى؟

- 1904.

تنهّد الدون ڤاسيليو.

- سقطتْ بالتقادم. كم من الوقت انقضى!

- ليس ما يكفي لتطهير أيادي المتورّطين.

- لا تقلقْ! - ربّت الدون ڤاسيليو على كتفي، وأشار إليّ باللحاق به إلى داخل الجريدة - لقد جئتَ إلى المكان المناسب. لدى هؤلاء الأكارم أرشيفٌ، يحسدهم عليه الفاتيكان. ستجد هنا كلَّ ما أصدرته الصحافة. ثمّ إنّ مدير

قسم الأرشيف أعزّ صديقٍ لديّ. أنذرك بأنّي أرقّ من «بياض الثلج» بالمقارنة معه. لذا، لا تعر اهتمامًا لفظاظته وجلافته! فهو في أعماقه، بل في أعمق أعماق أعماقه، طيّب القلب.

تبعتُ الدون ڤاسيليو عبْر ردهةٍ واسعة، أعمدتها من خشبٍ مزوّق. على أحد الجوانب، ثمّة صالةٌ دائريّة، فيها طاولة كبيرة ومستديرة، ومجموعة من صور كوكبةٍ من الأرستقراطيّين، وكأنّهم يراقبوننا بنظراتهم الحازمة.

- محفل السحرة والشياطين - أفصح الدون ڤاسيليو - هنا يجتمع مدراء الأقسام مع مدير التحرير، الداعي، ورئيس التحرير. وكما حدث لفرسان الطاولة المستديرة الشجعان، نلتقي بالقدّيس غرال، في السابعة مساءً من كلّ يوم.

- مذهل.

- لم تر شيئًا بعد - قال وهو يغمز بعينه - انظر!

وقف تحت إحدى تلك الصور المهيبة، ودفع اللوحة ذات الإطار الخشبيّ، التي تحجب الجدار. فانزاحت اللوحة، مصدرةً صريرها، لتكشف عن دهليزٍ سرّيّ.

- ها؟ ما رأيك يا مارتين؟ هذا واحدٌ من الممرّات السريّة الكثيرة في هذا البيت. حتى آل بورجا، لم يكن لديهم كهذه السراديب.

تبعته في الممرّ حتّى وصلنا إلى صالة قراءة كبيرةٍ، محاطة بأخزنةٍ زجاجيّة، كأنّها ضريح المكتبة السريّة لجريدة «الطليعة». وفي عمق الصالة، بين أنوار مصباحٍ من الكريستال الأخضر، يتبدّى جسم رجلٍ متقدّم في السنّ، جالسًا إلى طاولةٍ يعاين عليها وثيقةً ما، مستعينًا بعدسة. حين رآنا ندخل، رفع عينيه وصوّب نحونا نظرةً تفتك بالقُصّر وسريعي الانبهار.

- أقدّم لك الدون خوسيه ماريا بروتونس، خازن الجحيم والمسؤول عن دهاليز هذا المقام المقدّس - صرّح الدون ڤاسيليو. فاكتفى بروتونس بالنظر إليّ بعينيه الطاحنتين، دون أن ينزع العدسة. اقتربتُ منه ومددتُ يدي نحوه.

- هذا تلميذي القديم، داڤيد مارتين.

صافحني بروتونس على مضض، ونظر إلى الدون ڤاسيليو.

- الكاتب؟

- شخصيًّا.

هزّ بروتونس رأسه.

- ويمتلك الشجاعة للخروج إلى الشارع بعد أن أشبعوه انتقادًا لاذعًا. ماذا يفعل هنا؟

- لقد أتى قاصدًا مساعدتك، ومباركتك ونصيحتك، حول موضوعٍ وثائقيّ رفيع المستوى وشائك الملابسات - فصّل الدون ڤاسيليو.

- وأين أضحية الدم؟ - زأر بروتونس.

مضغتُ ريقًا.

- أضحية؟ - سألته.

نظر إليّ كما لو كنت مغفلاً.

- عنزة، خروف، ديكٌ مخصيّ على الأقلّ...

استباحت الصدمة عينيّ. قاوم بروتونس نظرتي دون أن يرفّ له رمش، للحظةٍ لا تنتهي. وحين شعرتُ بالعرق يسيل على ظهري، انفجر مدير الأرشيف والدون ڤاسيليو ضاحكَين. تركتهما يتلذّان بالقهقهة عليّ، حتّى انقطعت أنفاسهما ومسحا دموعهما. من الواضح أنّ الدون ڤاسيليو وجد توأم روحه في زميله الجديد.

- تعال من هنا أيّها الفتى - قال بروتونس، والقسوة تنقشع من على وجهه - سنرى كيف يمكن أن نساعدك.

28

كان أرشيف الجريدة يقع في أحد أقبية المبنى، تحت الطابق الذي تقبع فيه آلة الطباعة الأسطوانيّة الرهيبة، وهي عبارةٌ عن غولٍ تكنولوجيّ، يعود إلى ما بعد الحقبة الڤيكتوريّة، ويُعدّ امتزاجًا لقاطرة بخاريّة مرعبة بماكينةٍ لصناعة البرق والصواعق.

- أقدّم لك الطابعة الأسطوانيّة، الملقّبة بـ«وحش اللوياثان». خذ حذرك! يقال إنّها التهمت كثيرًا من الحمقى - نبّهني الدون ڤاسيليو - تُذكّرنا بحوت النبيّ يونس، لكنّها تمزّق إربًا.

- ستفي بغرضٍ ما.

- في أحد هذه الأيّام، سنرمي فيها الباحث الجديد الذي يتظاهر بالمكر، ويدّعي أنّه حفيد ماثا[12] - اقترح بروتونس.

- قرّرِ اليوم والساعة لنحتفل بطبقٍ من الكابيبوتا - ردّ الدون ڤاسيليو.

انفجرا ضاحكين مثل المراهقين. الله يخلقهم ويآلف بين قلوبهم، قلت في سرّي.

كانت صالة الأرشيف متاهة من الممرّات التي شكّلتها الرفوف على ارتفاع ثلاثة أمتار. ظهر مخلوقان شاحبان، كأنّهما لم يخرجا من ذلك القبو منذ خمسة عشر عامًا، كانا يؤدّيان وظيفة المساعِد لدى بروتونس. هرعا نحوه كالجراء الوفيّة تنتظر الأوامر. نظر إليّ بروتونس متحرّيًا.

- عمّ نبحث؟

- عام 1904. وفاة محامٍ، يدعى دييغو مارلاسكا. عضوٌ رفيع المستوى في الجمعيّة البرشلونيّة الراقية. شريكٌ مؤسّسٌ لمكتب ڤاليرا - مارلاسكا - سينتيس للمحاماة.

- الشهر؟

- نوفمبر.

انطلق المساعِدان، بإيماءةٍ من بروتونس، بحثًا عن النسخ الصادرة في شهر نوفمبر 1904. في تلك الآونة، كان الموت طاغيًا على ألوان الحياة، حتّى إنّ معظم الجرائد كانت تفتتح صفحتها الأولى بمناشير كبيرة عن الوفيّات. ومن المفترض أنّ شخصيّةً من مقام مارلاسكا قد تفتح الباب لأكثر من مقال في الصحافة المحليّة، وقد يكون خبرُ وفاته مادّةً تليق بالصفحة الأولى. عاد المساعِدان بملفّات كثيرة وأنزلاها على منضدة كبيرة. تقاسمنا المهام، ووجدنا خبر الدون دييغو مارلاسكا، في الصفحة الأولى كما توقّعت، في عدد الثالث والعشرين من نوفمبر 1904.

- ها قد وجدنا الجثّة - صرّح بروتونس، المستكشف.

أربعة أنباء تنعي مارلاسكا. الأولّ باسم عائلته، والثاني باسم المكتب، والثالث باسم نقابة المحامين في برشلونة، والأخير باسم المؤسّسة الثقافيّة التابعة لجامعة «آتينو برثلونيس».

- هذه ميزة أن يكون المرء ثريًّا. يموت خمس مرّات على الأقلّ - لاحظ الدون ڤاسيليو.

لم تكن النعوات مهمّة بحدّ ذاتها. تضرّعٌ لطمأنة روح المرحوم الخالدة، تنويهٌ بأنّ الجنازة ستنحصر على المقرّبين، ابتهالاتٌ كبيرة في وفاة مواطن كبير، المثقّف والعضو الذي لا غنى عنه في الجمعيّة البرشلونيّة الخ الخ.

- لا بدّ أنّ اهتمامك ينصبّ على الأعداد السابقة لوفاته، أو اللاحقة، بيومٍ أو يومين - اقترح بروتونس.

تصفّحنا أعداد الأسبوع الذي مات فيه المحامي، ووجدنا جملة من الأخبار المتعلّقة بمارلاسكا. الأوّل يفيد بأنّ العلاّمة الشهير توفّي بحادثٍ ما. قرأه الدون ڤاسيليو جهرًا.

- هذا الخبر، كتبه قردٌ كبير - قال - ثلاث فقرات محشّوة ولا تقول شيئًا. في الختام فقط، يورد أنّه مات إثر حادث، لكنّه لا يذكر ما نوعه.

- هنا ثمّة ما يلفت الانتباه - قال بروتونس.

مقالٌ من اليوم اللاحق يفصّل بأنّ الشرطة كانت تحقّق في ظروف الحادث لتبيّن ما وقع بدقّة. الأهمّ، ما أكّده تقرير الطبيب الشرعيّ عن سبب الوفاة، وهو أنّ مارلاسكا مات غرقًا.

- غرقًا؟ - قاطعه الدون ڤاسيليو - كيف؟ وأين؟

- ليس واضحًا. لعلّهم قطعوا الخبر ليفسحوا المجال لهذا النبأ العظيم والعاجل، بثلاثة أعمدةٍ وعنوان: «رقصة الساردانا، على أنغام الأوبوا: توافقٌ وانسجام» - قال بروتونس.

- هل يذكر اسم المكلّف بالتحقيقات؟ - سألتُ.

- محقّقٌ يدعى سالڤادور. ريكاردو سالڤادور - قال بروتونس.

تفحّصنا بقيّة الأخبار المتعلّقة بوفاة مارلاسكا، دون أن نعثر على ما يثير الاهتمام. خبرٌ تلو آخر، يكرّر النغمة المملّة والشبيهة بالرواية الرسميّة التي أدلى بها مكتب ڤاليرا وشركاه.

- أشمّ رائحة تضليلٍ وتستّر - ألمح بروتونس.

تأفّفتُ مستسلمًا. كنت آمل أن أجد أكثر من الذكريات البسيطة والمعسولة، والأخبار الفارغة التي لا توضّح شيئًا عن الأحداث.

- أليس لديك أحد المعارف في الشرطة؟ - سأل الدون ڤاسيليو - ما كان اسمه؟

- ڤيكتور غراندس - قال بروتونس.

- ربّما بوسعه أن يضعك بتواصل مع سالڤادور.

سعلتُ حتّى نظر إليّ الرجلان بريبة.

- أفضّل عدم إقحام المحقّق غراندس، لأسباب ليست لها علاقة بهذا الأمر أو ربّما لأنّ لها علاقة وثيقة بالأمر - شرحتُ.

تبادل بروتونس والدون ڤاسيليو نظرة خاطفة.

- موافق. هل لديك أسماء أخرى نشطبها؟

- ماركوس وكاستيلو.

- أرى أنّك لم تفقد موهبتك في إقامة الصداقات أينما ذهبتَ - أشار الدون ڤاسيليو.

حكّ بروتونس ذقنه.

- دعونا من الانفعال. أعتقد أنّي أستطيع إيجاد مسلك آخر لا يحرّض الشكوك.

- إن وجدتَ لي سالڤادور، سأقدّم لك ما تشاء من الأضاحي، حتّى لو طلبتَ خنزيرًا.

- مُنعتُ عن اللحوم المقدّدة، بعد إصابتي بالنقرس، لكنّي لن أرفض سيجارًا لذيذًا - قال بروتونس.

- اثنان - أضاف الدون ڤاسيليو.

وبينما كنت أركض نحو بائع التبغ في شارع تاليرس، بحثًا عن أشهى وأغلى لفافتين من السيجار الكوبيّ في المحلّ، أجرى بروتونس مكالمتين معتبرتين إلى الشرطة، وتبيّن له أنّ سالڤادور استقال نتيجة الضغوطات، وراح يعمل كمرافقٍ شخصيّ لأحد أصحاب المصانع، أو كمحقّق خاصٍّ لعددٍ من المكاتب القانونيّة في المدينة. وحين عدتُ إلى الجريدة لأسلّم السيجار لصاحبيّ، أعطاني مدير الأرشيف مدوّنة تحتوي على عنوان.

ريكاردو سالڤادور

شارع دي لا ليونا 21. الطابق الأعلى

- عسى أن يكافئك الربّ - قلت.

- وعسى أن تشهد هذه اللحظة.

كان شارع دي لا ليونا، المعروف محليًّا بشارع الأسْرة الثلاث، تشريفًا لبيت الدعارة الواقع فيه، غارقًا في الظلمات، تمامًا مثل سمعته الطيّبة. يبدأ من الأروقة الضيّقة خلف الساحة الملكيّة، ثمّ يزداد اتّساعًا في رحبة رطبة، لا تعرف ضوء الشمس، بين أبنية قديمة، مكدّسة على بعضها، وتتصل في ما بينها بشبكةٍ عنكبوتيّة مذهلة، قوامها حبال الغسيل المنشور. وقد تداعى الجصّ الكالح من أوجه بناياتها؛ وتشرّخ البلاط الحجريّ حتّى برز التراب، المجبول بالدماء المسفوكة خلال فترة الاغتيالات السياسيّة، من بين تلك الشقوق. وكم من مرّة استخدمتُ تلك المنطقة كساحة أحداثٍ لحكاياتي في «مدينة الملاعين»؛ ورغم هذا، كنت لا أزال أراها موحشة ومنسيّة، تفوح بروائح الدسائس والبارود. وبناءً على هذه المقدّمة المشؤومة، تخيّلتُ أنّ جهاز الشرطة لم يكن سخيًّا في اختيار ذلك المكان كإقامة جبريّة للمحقّق سالڤادور.

كانت البناية رقم 21 متواضعةً، وتقع بين بنايتين، تضيقان عليها ككفّي كمّاشة. والبوّابة المفتوحة كبئرٍ مظلمة، يظهر خلفها السلّم الوعر والضيّق لولبيًّا. والأرضيّة مليئة ببرك الماء، وسائل قاتمٍ ولزجٍ يرشح من بين صدوع البلاط. صعدتُ السلالم، بما استطعتُ من حذرٍ، متمسّكًا بالسياج غير الآمن أساسًا. ثمّة بابٌ في كلّ طابق، وبناءً على المظهر، تخيّلتُ أنّ تلك الشقق لا تتجاوز إحداها الأربعين مترًا مربّعًا. الضوء يهبط في فراغ السلّم الحلزونيّ، ليفقد نوره الخافت كلّما ابتعد عن الطوابق العليا. أمّا باب الطابق الأعلى، يقع في نهاية ممرّ صغير، وفوجئتُ حين وجدته مفتوحًا. طرقتُه بقبضتي، ولم يردني جواب. هنالك غرفةٌ صغيرة بعد الباب، يتبدّى فيها ظلّ أريكةٍ وطاولة ورفوف كتبٍ وعلب الصفيح. وفي الغرفة المجاورة ما يشبه المطبخ والغسّالة. الميزة الوحيدة لتلك الزنزانة هي الإطلالة على الشارع. حتّى باب الشرفة كان مفتوحًا، ليأتي بمجرى هواء منعشٍ محمّلٍ بروائح الطعام والغسيل المنشور على أسطح المدينة القديمة.

- هل من أحد في البيت؟ - ناديتُ.

لم أتلقّ جوابًا. بلغتُ باب الشرفة وأطللتُ على غابةٍ من الأسطح والمداخن والأبراج الصغيرة وخزّانات المياه وممتصّات الصواعق، تنبسط في كلّ اتجاه. لم أقم بأيّ خطوة حين أحسستُ بالحديد الجامد على رقبتي، وسمعتُ صريرًا معدنيًّا لمسدّس ريفولفر، يكاد يضغط على الزناد. لم يخطر في ذهني سوى أن أرفع يديّ وأحاول عدم التحرّك قيد أنملة.

- اسمي داڤيد مارتين. أعطوني عنوانك في قسم الشرطة. أودّ التكلّم معك عن قضيّةٍ حققّتَ فيها حين كنتَ في الخدمة.

- هل تدخل بيوت الآخرين دومًا دون أن تطرق الباب، يا سيّد داڤيد مارتين؟

- الباب كان مفتوحًا. ناديتُ لكنّك لم تسمعني ربّما. هل لي أن أخفِض يديّ؟

- لم آمرك بأن ترفعهما أساسًا. أيّ قضية؟

- وفاة دييغو مارلاسكا. أنا المستأجر لبيته الأخير. بيت البرج في شارع فلاساديرس.

اختفى الصوت، لكنّ ضغط المسدس ما يزال شديدًا.

- سيد سالڤادور؟ - سألتُ.

- أفكّر في ما لو كان من الأنسب أن أهشّم دماغك، الآن.

- ألا تودّ سماع حكايتي أوّلاً؟

خفّف الرجل ضغط المسدّس. أحسستُ أنّه يترك الزناد، فاستدرتُ ببطء. كان مظهر ريكاردو سالڤادور مهيبًا وكئيبًا، شعره رماديٌّ وعيناه من لونٍ سماويّ، ونظراته ثاقبةٌ كالدبّوس. توقّعتُ أن يكون في الخمسينات، ورغم هذا فإنّ ما من رجلٍ، يصغره بعقود، كان ليخاطر بحياته ويعترض سبيله. مضغتُ ريقًا. أخفض سالڤادور المسدّس وأدار ظهره متّجهًا إلى داخل الشقّة.

- اعذرني على هذا الاستقبال - غمغم.

تبعتُه حتّى المطبخ الصغير وتوقّفتُ عند العتبة. وضع سالڤادور مسدّسه على المغسلة وأشعل أحد المواقد بالورق المقوّى. أخرج علبة قهوة ونظر إليّ متحريًّا.

- لا، شكرًا.

- أحيطك علمًا بأنّ هذا أفضل ما عندي - قال.

- أرافقك إذن.

سكب سالڤادور ملعقتين كبيرتين من القهوة المطحونة في الإبريق، وملأه بالماء من وعاء خزفيّ، ووضعه على النار.

- من حدّثك عنّي؟

- منذ عدّة أيّام، ذهبتُ لزيارة السيّدة مارلاسكا، الأرملة. هي التي حدّثتني عنك. قالت لي إنّ حضرتك المحقّق الوحيد الذي حاول كشف الحقيقة، وهذا ما كلّفك خسارة عملك.

- يا له من أسلوبٍ لوصف الأشياء.

لاحظتُ أنّ ذِكر الأرملة كدّر نظراته، فتساءلتُ ما الذي قد وقع بينهما في تلك الأيّام العصيبة.

- كيف حالها؟ - سأل - السيّدة مارلاسكا؟

- أظنّ أنّها تفتقدك - ارتجلتُ.

أومأ سالڤادور، وارتخت ضراوة ملامحه كثيرًا.

- لم أذهب لزيارتها منذ زمنٍ بعيد.

- إنّها تعتقد أنّك تضع اللائمة عليها بما حدث لك. أعتقد أنّها ستسرّ بلقائك بعد طول غياب.

- لعلّك محقّ. عليّ أن أذهب لزيارتها...

- هل بإمكانك أن تحدّثني عمّا حصل؟

استعاد سالڤادور مظهره الصارم وهزّ رأسه.

- ما الذي تريد أن تعرفه؟

- أخبرتني الأرملة مارلاسكا بأنّك لم تقتنع بالرواية التي تؤكّد انتحار زوجها، وكان لديك بعض الشكوك.

- أكثر من شكوك. هل قصّ عليك أحدٌ كيف مات مارلاسكا؟

- أعرف فقط أنّه تعرّض لحادث.

- مات غرقًا. أو هذا ما أفاد به تقرير الشرطة النهائيّ على الأقلّ.

- وكيف غرق؟

- لا يوجد سوى طريقة واحدة للغرق، لكنّي سأعود إليها لاحقًا. أمّا الأغرب: أين غرق.

- في البحر؟

ابتسم سالڤادور. كانت ابتسامته سوداء ومُرّة كالقهوة التي بدأت تغلي، فاشتمّها.

- هل أنت واثق من أنّك تودّ سماع هذه الحكاية؟

- لم أكن واثقًا من شيء في حياتي أكثر من هذا.

أعطاني فنجانًا وحلّل هيئتي بالنظر من رأسي إلى قدميّ.

- أفترض أنّك مررتَ أيضًا لزيارة ابن العاهرة ڤاليرا.

- إن كنت تقصد شريك مارلاسكا، فقد مات. لكنّي تحدّثتُ مع ابنه.

- ابن عاهرة هو أيضًا؛ سوى أنّه أكثر خِسّةً. لا أعلم ما قصّه عليك، لكنّي متأكدٌ من أنّه لم يطلعك على الطريقة التي طُرِدتُ بها من عملي، لأصبح منبوذًا لا يتصّدق عليه الناس.

- أخشى أنّه تجاهل هذه النقطة في سرده للأحداث - اعترفتُ.

- لا يفاجئني.

- كنتَ تخبرني كيف غرق مارلاسكا.

- هنا تكتسب القصّة أهمّيتها - قال سالڤادور - هل تعلم أنّ السيد مارلاسكا، قبل أن يكون محاميًا ومثقّفًا وكاتبًا، فاز مرّتين في شبابه ببطولة عبور المرفأ، التي تنظّمها رابطة السبّاحين في برشلونة، خلال أعياد الميلاد؟

- كيف لبطل سباحة أن يموت غرقًا؟

- والأنكى من ذلك، أين. تمّ العثور على جثّة السيّد مارلاسكا في حوض خزّان المياه في منتزه القلعة. هل تعرف المكان؟

ابتلعتُ ريقًا وأومأتُ بنعم. هناك حيث التقيتُ بكوريلي للمرّة الأولى.

- إن كنت تعرف المكان، فأنت تعلم أنّ عمق الخزّان متر واحد فقط، لكنّه ممتدّ على مساحة شاسعة. وحين وجدوا جثّة المحامي، كان الخزّان شبه فارغ، ومستوى المياه لا يتجاوز الستّين سنتمترًا.

- بطل سباحة يغرق في ستّين سنتمترًا - أشرتُ.

- هذا ما قلته أنا.

- هل كانت هناك آراءٌ أخرى؟

ابتسم سالڤادور بمرارة.

- بدايةً، من غير المنطقيّ أن يموت غرقًا. الطبيب الشرعيّ، الذي شرّح الجثة، أكّد وجود قليل من الماء في الرئتين؛ لكنّ تقريره يعزو سبب الوفاة إلى سكتة قلبيّة.

- لم أفهم.

- حين سقط مارلاسكا في الخزّان، أو حين دفعه أحدهم، كان يحترق. الجثّة مليئةٌ بحروقٍ من الدرجة الثالثة، على الصدر والذراعين والوجه. رجّح الطبيب الشرعيّ أنّ الجسد قد ظلّ يحترق حوالي دقيقة قبل أن يدخل في تماسٍ مع الماء. والتحاليل التي أجريتْ على ثيابه تكشف عن وجود سائلٍ منحلٍّ فيها. مارلاسكا قُتِل حرقًا وهو حيّ.

تطلّب منّي هضم كلّ هذه المعلومات وقتًا لا بأس فيه.

- ولماذا قد يُقدِم أحدٌ على فعلةٍ من هذا النوع؟

- تصفية حسابات؟ محض همجيّة؟ لك الخيار. كان رأيي أنّ الفاعل أراد تأخير التعرّف على جثة مارلاسكا ليكسب الوقت ويضلّل الشرطة.

- مَن؟

- خاكو كوربيرا.

- وكيل إيرينا سابينو.

- وقد اختفى في ذات اليوم الذي توفّي فيه مارلاسكا، بحسابٍ جارٍ يعود للمحامي المغدور، في مصرف هسبانو كولونيال، والذي لا تعرف زوجته عنه شيئًا.

- برصيد مائة ألف فرنك فرنسيّ - قلت.

نظر إليّ سالڤادور بارتياب.

- وكيف عرفت ذلك؟

- لا يهمّ. ماذا كان مارلاسكا يفعل عند خزّان المياه، هناك في الأعالي؟

- وهذه نقطةٌ أخرى يكتنفها الغموض. وجدنا مفكّرةً في مكتبه، وقد سجّل عليها أنّ لديه موعدًا هناك عند الخامسة. هذا ما تبيّناه، على الأقلّ. التدوينة تشير إلى الزمان والمكان، والحرف الأوّل للشخص الآخر: «ك». كوربيرا، أغلب الظنّ.

- وما الذي حصل إذن، باعتقادك؟ - سألتُ.

- باعتقادي، وما يثبته المنطق، أنّ خاكو خدع إيرينا سابينو لتحتال على مارلاسكا. المحامي، كما تعرف، كان مهووسًا بتلك الجلسات الروحيّة، لاسيّما بعد وفاة ابنه. أقحم خاكو شريكَه، الممثّل الهزليّ حقًّا، داميان روريس، في تلك الأجواء. استطاعا معًا، وبمساعدة إيرينا سابينو، أن يغسلوا عقل مارلاسكا؛ إذ أوهموه بالتواصل مع طفله المقيم في عالم الأرواح. كان مارلاسكا منهارًا، ومستعدًّا لتصديق أيّ شيء. دبّر السفلة الثلاثة المكيدة بإتقان، إلى أن تعدّى طمعُ خاكو حدودَه. ثمّة من يرى أنّ سابينو لم تتحرّك بسوء نية وأنّها أغرمت فعلاً بمارلاسكا، وأنّها صدّقت كلّ شيء هي أيضًا. أنا لست مقتنعًا بهذا، لكنّ النتائج كانت أقلّ أهميّة ممّا وقع. علم خاكو بأنّ مارلاسكا لديه ذلك الرصيد في المصرف، فقرّر قتله والفرار بالمال مخلّفًا عاصفة من الملابسات. ولعلّ إيرينا مَن دوّن الموعد في المفكّرة، بإيعاز منه، بقصد التشتيت. إذ لا دليل على أنّ القتيل سجّله بنفسه.

- ومن أين جاء المحامي بمائة ألف فرنك بحسابه في مصرف هسبانو كولونيال؟

- لقد أودعها بنفسه، عدًّا ونقدًا، قبل وفاته بعام. ليس لديّ أدنى فكرة من أين حصل على مبلغ كهذا. ما أعرفه أنّ المتبقّي قد سُحِب نقدًا، صباح اليوم الذي مات فيه. ثمّ قال المحامون إنّ الأموال لم تختفِ، بل تحوّلت إلى ما يشبه حساب التأمين، أي أنّ مارلاسكا قرّر إعادة تنظيم ثروته، ببساطة. لكنّي لا أصدّق أنّ أحدًا يعيد تنظيم ثروته، بتحويل قرابة المائة ألف فرنك في الصباح، ليموت محروقًا في المساء. لا أعتقد أنّ المبلغ أودِع في حسابٍ مستور. واليوم، أكاد أجزم أنّ خاكو وإيرينا استوليا عليه، في البداية على الأقلّ. إذ أشكّ في أنّها حصلت على نصيبها لاحقًا. خاكو فرّ بالنقود. إلى الأبد.

- وماذا حلّ بها إذن؟

- هذا من بين الشكوك التي تدفعني للجزم بأنّ خاكو خدع كلاًّ من روريس وإيرينا. بعد وفاة مارلاسكا بأيّام، اعتزل روريس العمل في عالم الأرواح وافتتح محلاً للشعوذة في شارع برنسيسا. وما يزال يعمل فيه، على حدّ علمي.

إيرينا سابينو ظلت تعمل عامين في المراقص الهابطة. وآخر ما عرفتُه عنها أنّها كانت تبيع الهوى في الرافال وتعيش ببؤس مدقع. لم تحصل على قرش واحد من ذلك المبلغ بالطبع. ولا روريس أيضًا.

- وخاكو؟

- من المحتمل أنّه غادر البلاد، باسم مستعار، وأنّه يعيش في مكانٍ ما برغدٍ وبحبوحة.

في الواقع، لم تزدني تلك الحكاية إلا بإشارات استفهام جديدة، بدل أن توضّح الخفايا. ولا بدّ أن سالفادور فسّر نظرتي الحائرة، فتوجّه إليّ بابتسامةٍ عطوف.

- تمكّن ڤاليرا، وأصدقاؤه في البلديّة، من إقناع الصحافة بنشر رواية الحريق. وحلّ المشكلة بجنازة مهيبة كي لا تكدّر صفو أعمال المكتب، التي كانت مرتبطة، في جزء كبير منها، بصفقات البلديّة ومديريّة الإقليم، متجاهلاً تصرّفات السيّد مارلاسكا الغريبة في آخر اثني عشر شهرًا من حياته؛ منذ أن هجر عائلته وشركاءه، وقرّر أن يقيم في بيت محطّمٍ، في منطقة بائسة لم تطأها من قبل قدماه النبيلتان، اللتان لا تنتعلان إلا أجود الأحذية؛ وذلك لينكبّ على الكتابة، حسب مزاعم شريكه السابق.

- هل أطلعكم ڤاليرا عمّا كان مارلاسكا ينوي كتابته؟

- ديوان شعر أو شيء من هذا القبيل.

- وهل صدّقتَه حضرتك؟

- لقد تعرّضتُ في عملي لمواقف أشدّ غرابة، يا صديقي؛ لكنّي لم أسمع عن محامين متخمين بالنقود، يعتزلون كلّ شيء ليؤلّفوا قصائد لا تندرج في كشف الحسابات.

- وبناءً عليه؟

- وبناءً عليه، كان من المنطقيّ أن أنسى المسألة وأفعل ما يُملى عليّ.

- لكنّ الأمور لم تجرِ على هذا النحو.

- لا. ليس لأنّي بطل أو أحمق. بل فعلتُها لأنّي كنت أتألّم كلّما التقيتُ بتلك الأرملة المسكينة، السيّدة مارلاسكا؛ فأشعر بالعار كلّما نظرتُ إلى نفسي في المرآة، عاجزًا عن القيام بما يُفترَض أنّي أتقاضى راتبًا للقيام به.

أشار إلى جوّ الشقّة البائس والبارد، وضحك.

- صدّقني، لو كنت أعلم العواقب، لآثرتُ أن أكون جبانًا على أن تُسلّط عليّ الأضواء. لا أخفيك أنّ الشرطة حذّرتني. لقد مات المحامي، ودُفن؛ وينبغي طيّ الصفحة وتكريس قوانا للتحقيق حول الأناركيّين المعدمين، ومعلّمي المدارس ذوي الأفكار المغرضة.

- قلتَ إنّه دُفِن... أين دُفِن دييغو مارلاسكا؟

- أعتقد أنّ قبره في مدفن العائلة، في مقبرة سانت خرفاسي، ليس ببعيدٍ عن بيت الأرملة. هل لي أن أسألك عن سبب اهتمامك بهذه القضيّة؟ لا تقل لي إنّ الفضول أيقظك لأنّك تعيش في بيت البرج فقط.

- من الصعب أن أشرح السبب.

- إن أردتَ نصيحة من صديق، انظر إلى حالتي والتفت لشؤونك. انس الأمر.

- ليتني أستطيع. المشكلة أنّي لست متأكّدًا من أنّ القضيّة ستتركني وشأني.

نظر إليّ سالڤادور طويلاً، وهزّ رأسه. أخذ ورقة وسجّل رقمًا.

- هذا رقم جيراني في الأسفل. إنّهم أناسٌ طيّبون، وهم الوحيدون الذين يملكون هاتفًا في البناية. بإمكانك أن تجدني هناك أو تترك لي رسالة. اطلب إيميليو. إن احتجتَ لمساعدة، لا تتردّدْ في الاتصال. وكن يقظًا. خاكو اختفى عن المشهد منذ سنوات طويلة، لكنّ بعضهم ما لبثوا يتعقبّون كلّ من تسوّل له نفسه النبش مجدّدًا. مائة ألف فرنك مبلغٌ طائل.

وضعتُ رقم الهاتف في جيبي.

- شكرًا.

- عفوًا. بالمحصّلة، ماذا بإمكانهم أن يفعلوا لي؟!

- هل تحتفظ بصورة لدييغو مارلاسكا؟ لم أجد أيّ صورة له في البيت.

- لا أدري... ربّما لديّ صورة له. دعني أفتّش.

اتجه سالڤادور نحو منضدة في زاوية الغرفة، وأخرج علبة صفيح مليئة بالبطاقات.

- ما زلتُ أحتفظ بوثائق القضية... كما ترى، لا أتعلّم الدرس، حتّى مع مرور السنوات... ها هي، انظر. هذه الصورة، أعطتني إيّاها الأرملة.

مدّ إليّ صورة قديمة، التُقِطتْ في استديو، يظهر فيها رجلٌ طويلٌ، أنيق المظهر، في الأربعينات من عمره، يبتسم للعدسة أمام خلفيّة جلديّة. تهتُ في تلك النظرة الصافية، متسائلاً عمّا إذا كان يختبئ خلفها عالمٌ غرائبيٌّ كالذي صادفتُه بين صفحات «النور الأبديّ».

- هل يمكنني الاحتفاظ بها؟

- ... - تردّد سالڤادور - أجل، أعتقد ذلك. ولكن، لا تضيّعها!

- أعِدُك بأنّي سأرجعها لك.

- عدْني بأنْ تتوخّى الحذر كي يطمئنّ بالي؛ وأنْ تتّصل بي إذا تعرّضتَ لموقفٍ حرج.

مددتُ يدي فصافحني.

- أعِدُك.

30

كانت الشمس في غروبٍ حين تركتُ ريكاردو سالڤادور في شقّته المرتفعة والباردة، وعدتُ إلى الساحة الملكيّة، التي يطغى عليها سراب نورٍ غباريّ، يلوّن أجساد المارّة باللون الأحمر. رحتُ أمشي حتّى انتهى بي المطاف إلى المكان الوحيد في المدينة الذي لطالما شعرتُ فيه بالطمأنينة والترحاب. حين وصلتُ إلى زقاق سانتا آنا، كانت مكتبة سيمبيري وأبناؤه توشك على الإغلاق. كان الغروب يزحف فوق المدينة، والسماء تزدان باندماج الأزرق بالقرمزيّ كأنّها حجرٌ كريم. توقّفتُ عند الواجهة الزجاجية، ورأيتُ أنّ سيمبيري الابن كان قد انتهى للتوّ من خدمة زبونٍ يهمّ بالانصراف. ابتسم حين رآني وألقى عليّ التحية بخجله الذي يزداد رزانة.

- كنت أفكّر فيك تحديدًا، يا سيّد مارتين. كيف حالك؟

- لا يمكنني أن أكون بحالٍ أفضل.

- واضحٌ على وجهك. هيّا، ادخل. سأحضّر القهوة.

فتح لي الباب مفسحًا المجال. دخلتُ إلى المكتبة، واستنشقتُ عبير الكتب المكوّن من السحر والأوراق، واستغربتُ كيف لم يخطر في بال أحدٍ حتّى الآن أن يعبّئه في زجاجة عطر. أشار إليّ سيمبيري الابن باللحاق به إلى المستودع حيث راح يحضّر القهوة.

- ووالدك؟ كيف حاله؟ بدا لي متعبًا نوعًا ما في المرّة الماضية.

أومأ سيمبيري الابن كما لو أنّه ممتنٌّ للسؤال. فشعرتُ بأنّه لم يجد أحدًا يبوح له بهذا.

- لقد أنهك مؤخّرًا، هذا صحيح. يشدّد الطبيب عليه بتوخّي الحذر من الذبحة الصدريّة، لكنّه يصرّ على العمل أكثر من السابق. أحيانًا يدفعني إلى الإلحاح عليه بقسوة، غير أنّه يبدو مقتنعًا بأنّ شؤون المكتبة ستتدهور إذا تركها في عهدتي. هذا الصباح، عندما استيقظتُ، توسّلتُ إليه بألاّ يعمل طوال النهار. هل تصدّق؟ وجدتُه بعد ثلاث دقائق في صالة الطعام، ينتعل حذاءه.

- رجلٌ ثابت الأفكار - قلت.

- بل إنّه عنيدٌ مثل البغل - ردّ - لحسن الحظّ أنّ لدينا الآن من يساعدنا وإلا...

تصنّعتُ تعبير المفاجأة والسذاجة، لأبدو مبتهجًا بعفويّة.

- الفتاة - أوضح سيمبيري الابن - إيزابيلاّ، مساعِدتك. لهذا السبب، كنت أفكّر فيك. أتمنّى أن تسمح لها بقضاء ساعاتٍ أكثر معنا. لا أخفيك أنّها، والحال هذه، تقوم بما لا يُقدّر بثمن. ولكنك، إن كنت تعارض...

لجمتُ ضحكتي من طريقته في نطق اللام مشدّدةً، في اسم إيزابيلاّ.

- لا بأس، إن كان الأمر مؤقتًا... إيزابيلا فتاة ماهرة حقًا. ذكيّة وكادحة - قلت - ومحلّ ثقة فعلاً. نحن دومًا على وفاق.

- لكنّها تتّهمك بأنّك مستبدّ.

- هل هذا ما تقوله عني؟

- في الواقع، إنّها تلقّبك بالمستر هايد.

- تحسَب نفسها ملاكًا! لا تعر اهتمامًا لكلامها، فأنت تعلم كيف النساء.

- أجل، أعلم - ردّ سيمبيري الابن بنبرة مَن يلمّح إلى معرفته بالكثير من الأمور، ولكن ليس لديه أدنى فكرة عن ذلك الأمر بالتحديد.

- إيزابيلا تقول عنّي هذا أمامك، لكنّك لن تصدّق ما الذي تقوله عنك أمامي - غامرتُ.

رأيت أنّ انطباعًا ما يجول على وجهه. حرصتُ أن تستنزف كلماتي كلَّ دفاعاته ببطء. قدّم لي فنجان القهوة بابتسامة محتقنة، واستعاد الموضوع بحجّةٍ لا تُقبَل في أيّ أوبرا سخيفة.

- ومن يدري ماذا تقول عنّي - ارتجل.

تركتُه لحظاتٍ يُطحَن في رحى الحَيرة والوساوس.

- هل تودّ أن تعرف؟ - سألتُه تلقائيًا، وأنا أخفي ابتسامتي بالفنجان.

أبدى سيمبيري الابن عدم مبالاة.

- تقول إنّك رجلٌ طيّب وشهمٌ، وإنّ الناس لا يفهمونك لأنّك خجول بعض الشيء ولا تحاسبهم على نواياهم، أقتبس حرفيًّا، وإنّ لك مظهر ممثّلٍ سينمائيّ وشخصيّة مبهرة.

مضغ سيمبيري الابن ريقًا ونظر إليّ مشدوهًا.

- لن أكذب عليك يا صديقي سيمبيري. اسمعْ، أنا مسرور في الحقيقة، لأنّك فاتحتني بالموضوع ، والحقّ يُقال إنّي أردتُ أن أكلّمك بالأمر منذ أيّام، ولم أجد الوسيلة لذلك.

- أيّ أمر؟

أخفضتُ صوتي وحدّقتُ إلى عينيه.

- بكلّ وضوح، أقول لك إنّ إيزابيلا ترغب في العمل هنا لأنّها معجبة بك، وأخشى أن تكون مغرمةً بك في سرّها.

كان سيمبيري يحدّق إليّ على شفا نظرةٍ من قلق.

- ولكن، انتبه! إنّه حبٌّ عفيف! حبّ روحانيّ. كأنّها إحدى بطلات ديكنز، عمليًّا. حبٌّ لا تكدّره نزواتٌ أو عبث أطفال. إيزابيلا ناضجة، رغمّ صغر سنّها. لا بدّ أنّك لاحظتَ...

- الآن لاحظتُ، بعد أن أخبرتني...

- ولا أتكلّم عن نعومة محاسنها الفاتنة، إن صحّ التعبير، بل عن مجمل طيبتها وجمالها الداخليّ الذي ينتظر اللحظة المناسبة للظهور كي يجعل من أحد الرجال المحظوظين أكثَرهم سعادةً في العالم.

حُوصِر سيمبيري الابن في الزاوية.

- أضفْ إلى ذلك مواهبها الكامنة. تتقن عدّة لغات. تعزف على البيانو كالملائكة. ورأسها في الحسابات يضاهي إسحاق نيوتن. فضلاً عن كونها طبّاخة لا يشقّ لها غبار. انظر إليّ! لقد سمنتُ عشرة كيلوغرامًا منذ أن جاءت تعمل عندي. لذائذٌ لا يقدّمها مطعم البرج الفضيّ... لا تقل لي إنّك لم تلحظ ذلك؟

- حسنًا، ولكنْ لم تقل إنّها تجيد الطبخ...

- أتحدّث عن صعقة الحبّ.

- في الحقيقة...

- أتعلم؟ إنّ الفتاة، رغم أنّها تشكّل انطباعًا يوحي بأنّها وحشٌ مفترس، تظلّ رؤوفةً وخجولة في أعماقها حتّى الهوس. لكنّ اللائمة تقع على الراهبات اللواتي يجعلن منهنّ مغفّلات بتلك القصص عن الجحيم ودروس التقطيع والخياطة. فلتحيا المدرسة العلمانيّة!

- حسنًا، ولكنْ كدتُ أجزم أنّها تعتبرني أقلّ شأنًا من غبيّ - باح سيمبيري.

- ها هو البرهان القاطع! سيمبيري، يا صديقي، حين تعتبر المرأةُ أحدًا أنّه غبيّ، فهذا يعني أنّ غدتها التناسليّة تشهد ثورةً ضارية.

- هل أنت واثقٌ ممّا تقول؟

- أكثر من ثقة المودِعين بمصرف إسبانيا. اسمع مني، فأنا أفهم هذه الأمور جيدًا.

- هذا ما يؤكّده والدي أيضًا. وماذا عليّ أن أفعل؟

- هذا يعتمد عليك. هل تعجبك الفتاة؟

- لا أعلم إن كانت تعجبني أم لا. كيف أعرف أنّي...؟

- في غاية البساطة. حين تسترق النظر إليها، هل تراودك رغبةٌ في أن تعضّها؟

- أعضّها؟

- أن تعضّ مؤخرتها مثلاً.

- سيّد مارتين...

- لا تحتشم أمامي! نحن رجلان يتحدّثان في ما بينهما؛ ومن المعلوم أنّنا، نحن الذكور، نشكّل الحلقة المفقودة بين القرصان والخنزير. هل تعجبك الفتاة أم لا؟

- حسنًا، إيزابيلا فتاة جذّابة.

- وماذا بعد؟

- ذكية. لطيفة. كادحة.

- تابع!

- وهي مسيحيّة مؤمنة، على ما أعتقد. أنا لستُ متشدّدًا في الدين، ولكن...

- دعنا من هذا. إيزابيلا تتردّد إلى الكنيسة أكثر ممّا تنظّف أسنانها. بسبب الراهبات كما أسلفتُ.

- حسنًا، ولكن لم يخطر في بالي أن أعضّها، في الحقيقة.

- حتّى اقترحتُ عليك ذلك...

- عليّ أن أخبرك بأنّ الحديث عنها بهذا الشكل، هي أو غيرها، يبدو لي منافيًا للأخلاق. ألا فاخجلْ من نفسك...
- اعترض ابن سيمبيري.

- الذنب ذنبي - صرختُ رافعًا يديّ مستسلمًا - ولكن لا يهمّ، فلكلّ امرئ طريقته في الإعراب عن إيمانه. أنا مخلوقٌ طائشٌ وسطحيّ، وهذا ما يبرّر وجهة نظري الحيوانيّة. أمّا أنت، بهذه الهالة الملائكيّة، تبدو رجلاً ذا مشاعر صوفيّة وعميقة. ما يهمّنا أنّ الفتاة تحبّك، وأنّ الإحساس متبادل.

- حسنًا، ولكن...

- كفّ عن ترديد: حسنًا ولكن، حسنًا ولكن. انظر إلى الأشياء كما هي يا سيمبيري. أنت رجل محترم ومسؤول. لو كنتُ في محلّك... بم أنصحك؟ أنت لستَ ممّن يتلاعبون بقلب عذراء نبيلة وطاهرة وفي مقتبل العمر. أليس كذلك؟

- لا، على ما أعتقد.

- الأمر محسوم إذن.

- كيف؟

- أليس واضحًا؟

- لا.

- حان وقت السعي إليها.

- عفوًا؟

- السعي، أو التقرّب، بالاصطلاح العلميّ. اسمع يا سيمبيري: ثمّة أسبابٌ مجهولة أوصلتنا، بعد قرون من الحضارة المزعومة، إلى وضعٍ لا يسمح لنا بالانقضاض على النساء في زوايا الطرقات، أو بطلب الزواج منهنّ هكذا بلا مقدّمات. يجدر بنا أن نتودّد إليهنّ أوّلاً.

- زواج؟ هل جننت؟

- أردتُ أن أقول لك، ولاحظْ أنّها فكرتك حتّى لو لم تنتبه إليها، بوسعك اليوم أو غدًا، أو بعد غد، أي حين تتعدّى مرحلة الخوف، وتكفّ عن تسييل لعابك، بوسعك أن تدعو إيزابيلا، بعد انتهاء عملها في المكتبة، إلى تناول شيءٍ ما في مكان ساحر. وهكذا ستدركان على الحال أنّ أحدكما خُلِق ليكون للآخر. إلى مقهى إلس كواتري غاتس، مثلاً. هناك حيث أصحاب المقهى، لشدّة بخلهم، يخفّفون الأضواء لتوفير الكهرباء، وهذا يساعد دومًا في حالات مماثلة. تطلب للفتاة حلوى الريكوتا، مع ملعقة عسل تفتح الشهيّة، وفي غفلة منها، تجعلها تزدرد كأسين من الموسكاتيلو يُذهِب عقلَها، وبينما تضع يدك على ركبتها تُبهرها بلسانك السليط الذي تخبّئه جيّدًا أيّها اللعين...

- ولكنّي لا أعرف عنها شيئًا ولا عن اهتماماتها ولا...

- تهمّها الأشياء التي تهمّك. الكتب والأدب وشذى هذه الكنوز المتوفّرة هنا، والشغف والتشويق ومغامرات الحكايات الشعبيّة. يهمّها أن تقهر الوحدة، وألاّ تهدر وقتها سدىً في فهم أنّ هذه الحياة القميئة لا تساوي شيئًا ما لم يكن بجانبنا مَن يشاركنا لحظاتها. أنت تعلم هذه النقاط الجوهريّة. ستتعلّم ما تبقّى كلّما قطعتَ شوطًا، وستكون راضيًا.

ظلّ سيمبيري شارد الذهن، تسرح نظراته تارةً إلى فنجان القهوة الذي لم يمسّه، وتارةً إلى الداعي، الذي حافظ جاهدًا على ابتسامةٍ تليق ببائع الأسهم في البورصة.

- لا أعلم إن كان عليّ أن أشكرك أم أشكوك إلى الشرطة - قال في النهاية.

حينئذ، سمعنا صوت خطوات متباطئة، سيمبيري الأب يدخل إلى المكتبة. وسرعان ما أطلّ برأسه إلى المستودع، وكان ينظر إلينا مقطبًا حاجبيه.

- ما هذا؟ هنا ثمّة اثنان يدردشان، كأنّنا في عيد الشفيع، ولا أحد يولي اهتمامه لشؤون المحلّ؟ ماذا لو دخل زبون ما؟ أو نهب أحد الأوغاد كلّ شيء؟

تأفّف سيمبيري الابن وهو يرفع عينيه إلى السماء.

- لا تخش شيئًا يا سيّد سيمبيري! فالكتب هي الغرض الوحيد الذي لا يتعرّض للسرقة في هذا العالم - قلت وأنا أغمز له بعيني.

أشرق وجهه بابتسامة متواطئة، فانتهزها سيمبيري الابن ليهرب من براثني إلى المكتبة. جلس والده بجانبي وشمّ رائحة القهوة الذي تركها ابنه دون أن يمسّها.

- ماذا يقول الطبيب عن الكافيين وآثاره على القلب؟ - سألتُ.

- إنّه لا يعرف الوصول إلى الأرداف، حتّى باستعانة الكتب الطبّية. فما أدراه بالقلب؟

- أدرى منك بالتأكيد - أجبتُ وأنا أنزع الفنجان من بين يديه.

- إنّي جبّار كالثور يا مارتين.

- بل عنيد كالبغل. هلاّ أسديتَ لي معروفًا وعدتَ إلى الشقّة واستلقيتَ على السرير؟

- السرير يستحقّ العناء حين نكون شبّانًا وبرفقة إحداهنّ فقط.

- إن أردتَ رفقةً، أتيتُك بها. لكنّي لا أعتقد أنّ حالة قلبك مثاليّة لمغامراتٍ كهذه.

- يا مارتين، في عمري تقتصر الشهوانيّة على الرغبة بحلوى الكراميل والنظر إلى أعناق الأرامل. أمّا ما يشغل بالي، فهو وليّ العهد. هل من تطوّرات في هذا الميدان؟

- نحن في مرحلة البذر والتسميد. علينا أن ننتظر تحسّن الطقس لنجني زرعنا. في غضون يومين أو ثلاثة، أتوقّع بأنّ نسبة الثقة عنده سترتفع إلى الستّين أو السبعين بالمائة.

ابتسم سيمبيري مسرورًا.

- كانت ضربة معلّم أنّك أرسلتَ إليّ إيزابيلا كبائعة - قال - ولكن، ألا ترى أنّها صغيرة جدًا بالنسبة إلى ابني؟

- ما أراه، بصراحة، أنّ ابنك هو الذي لم ينضج بعد. عليه أن يستيقظ بأقصى سرعة، قبل أن تلتهمه إيزابيلا نيّئًا بخمس دقائق. لحسن الحظّ أنّها حسنة الخلق وإلا...

- كيف لي أن أشكرك؟

- بأن تعود إلى بيتك وتستلقي على السرير. وإن كنت بحاجة لرفقة دافئة، خذ معك «فورتوناتا وخاثينتا».

- معك حقّ. الدون بينيتو بيريز غالدوس لا يخيّب الرجاء أبدًا.

- ولا يستطيع حتّى لو أراد. هيّا، إلى السرير!

نهض سيمبيري. كانت حركته ثقيلة، وأنفاسه كحشرجةٍ تقشعرّ منها الأبدان. أمسكتُ بذراعه كي أسنده، فانتبهتُ أنّه يشعر بالبرودة.

- لا تجزع يا مارتين. أعاني من استقلابٍ غذائيّ بطيء نوعًا ما.

- يبدو لي الآن أنّه أطول من «الحرب والسلم».

- إنْ هي إلا قيلولة وأعود أكثر ألقًا ممّا كنت.

قرّرتُ أن أرافقه حتّى الشقة، التي كان يقطنها مع ابنه فوق المكتبة تمامًا، كي أتأكّد من أنّه التزم فراشه. استغرق منّا صعودُ السلالم ربعَ ساعة. والتقينا بجاره، الدون أناكليتو، الأستاذ المحبوب الذي يعطي دروس اللغة والأدب عند اليسوعيّين في كاسبي. وكان عائدًا إلى بيته.

- كيف تسير الحياة اليوم يا صديقي سيمبيري؟

- بصعوبة يا دون أناكليتو.

بمساعدة الأستاذ، وصلنا بمشقّة إلى الطابق الأوّل، وسيمبيري معلّقًا من عنقه عمليًا.

- أستأذنكما. سأذهب لأستريح بعد نهار طويل وطاحنٍ مع أولئك الأشقياء، قطيع المميّزين، تلاميذي - صرّح الأستاذ - أجزم أنّ هذا البلد سيتفتت خلال جيلٍ واحد. سيتناسخون كالفئران.

عبّر سيمبيري بما يعني أنْ لا آخذ كلام الدون أناكليتو على محمل الجدّ.

- رجلٌ حصيف - غمغم - لكنّه يغرق في شبر ماء.

وما إن دخلنا البيت، حتّى اجتاحتني ذكرى ذلك الصباح البعيد، حين وصلتُ إلى هناك داميًا، وأنا أحمل «آمال عظيمة» بين يديّ، فحملني سيمبيري بين ذراعيه إلى البيت وقدّم لي كوبًا من الشوكولاطة الساخنة، وشربتُها ريثما يصل الطبيب، وهمس بكلمات طمأنتني، ومسح دمائي بمنشفة فاترة، برأفةٍ لم أشهد مثلها على الإطلاق. في ذلك الزمان، كان سيمبيري شديد البأس، ويبدو في عينيّ عملاقًا، بكلّ معنى الكلمة، ولولاه لما تغلّبتُ على حظّي العاثر وبقيتُ على قيد الحياة. لم يبق من قوّته سوى القليل، بينما كنت أعينه في الاستلقاء على السرير وأدثّره بالأغطية. جلستُ بجواره، وأمسكتُ يده، واحترتُ في ما ينبغي أن أقول.

- اسمع! من الأفضل أن تنصرف قبل أن نبدأ معًا بالنحيب كمريم المجدليّة - قال.

- انتبهْ على صحّتك، هل فهمت؟

- أنا في النعيم. لا تقلقْ بشأني.

أومأتُ واتّجهتُ نحو الباب.

- مارتين؟

استدرتُ عند العتبة. كان سيمبيري يركّز إليّ نظرته المشحونة بالخشية، تمامًا كما نظر إليّ ذلك الصباح عندما فقدتُ بعض أسناني وجزءًا كبيرًا من براءة الطفولة. انصرفتُ قبل أن يسألني ما الذي كنت أكابده حينها.

31

تعلّمتْ مني إيزابيلا أحد أفضل المنافع من احتراف الكتابة: فنّ «التسويف» وتطبيقاته. لا يخفى على المخضرمين في هذه المهنة أنّ أيّ عمليّةٍ لها أولويّتها، عند الجلوس خلف المنضدة والشروع بتحفيز الهمّة، بدءًا من بري قلم الرصاص وصولاً إلى الإلمام بأصناف شباك العنكبوت. تشرّبت إيزابيلا هذا الدرس المهمّ كليًّا؛ فعندما وصلتُ إلى البيت، بدلاً من أن أجدها منشغلة بالكتابة، فوجئتُ بها في المطبخ، تضع لمساتها الأخيرة على عشاءٍ يضوع بعبقٍ ومنظرٍ، يوحيان بأنّه استغرق عدّة ساعات أثناء التحضير.

- هل لدينا مناسبةٌ نحتفل بها؟ - سألتُها.

- مَن يرى تعبير وجهك، ينفي الخبر جملةً وتفصيلاً.

- ماذا أعددتِ من طيّبات؟

- بطّةٌ منكّهة بالكراميل والإجاص في الفرن، مع صلصة الشوكولاطة. وجدتُ هذه الوصفة في أحد كتب الطبخ، لديك.

- ليس لديّ كتبٌ عن الطبخ.

نهضتْ إيزابيلا وأمسكتْ بكتابٍ ذي غلافٍ جلديّ، ووضعته على الطاولة. العنوان: «أفضل مائة وصفة ووصفة من المطبخ الفرنسيّ» لميشال أراغون.

- خابت توقّعاتك. في الصفّ الثاني من رفوف المكتبة، وجدتُ كتبًا من كلّ نوع، حتّى عن طرق الطهارة الزوجيّة، للطبيب بيريز - أغوادو، مزوّدًا برسومات توضيحية وعبارات مثل: «الأنثى، لحكمةٍ آلهية، لا تعرف الشهوة الجنسيّة، وعواطفها الروحيّة تتجلّى، بأبهى صورها، في الخبرة الطبيعيّة الناجمة عن الأمومة والعمل المنزليّ». لديك هنا كنوز الملك سليمان.

- وهل لي أن أعرف عمّا كنت تبحثين في الصفّ الثاني من الرفوف؟

- كنت أبحث عن الوحي. فوجدتُه.

- لكنّه وحيٌ من بيئة المطابخ. لقد اتفقنا على أنّك ستكتبين كلّ يوم، أتى الوحي أم لم يأتِ.

- لقد غصتُ في الرمل. والذنب ذنبك، لأنّك تكلّفني بأعمال كثيرة، وتقحمني بمكائدك مع ذلك القدّيس الصغير، سيمبيري الابن.

- هل يبدو لك من اللطف أن تزدري الرجل الذي بات متيّمًا بحبّك؟

- ماذا؟

- سمعتِني. ابن سيمبيري اعترف لي بأنّك سرقتِ النوم من عينيه. حرفيًّا. لا ينام، لا يأكل، لا يشرب، ولم يعد يقوى حتّى على التبوّل، لشدّة تفكيره بكِ طوال اليوم. مسكين!

- أنت تهذي.

- بل سيمبيري الولهان هو الذي يهذي. لو رأيتِه بأيّ حالٍ أمسى! كدتُ أطلق عليه رصاصة الرحمة، كي أحرّره من الآلام والهيام الذي حلّ به.

- لكنّه لا يتوجّه إليّ ولو بكلمة واحدة - اعترضت إيزابيلا.

- لأنّه لا يعرف كيف يفتح قلبه، ليجد الكلمات المناسبة التي تعرب عن مشاعره. نحن الرجال هكذا. همجٌ وبدائيّون.

- عمومًا، لقد استطاع أن يجد الكلمات. وبّخني صارخًا حين أخطأتُ في ترتيب سلسلة «الأحداث الوطنيّة». يا له من سليط اللسان.

- شتّان بين العلاقات المهنيّة ولغة الهوى.

- هراء.

- لا هراء في الحبّ يا مساعِدتي الموقّرة. فلنغيّر الموضوع. هلاّ تناولنا العشاء؟

كانت إيزابيلا قد أعدّتْ مائدةً رهيبة بتلك الوليمة التي طبختْها، ثمّ نصّبتْ ترسانةً من الأطباق وأدوات الطعام والكؤوس التي لم أرها من قبل.

- لا أفهم ما الذي يمنعك من استخدام ما لديك من هذه الأغراض الفاخرة. كانت مخبّأة في أحد الصناديق، في الغرفة قرب الغسالة - قالت إيزابيلا - فعلاً، إنّك رجل...

رفعتُ إحدى السكاكين وتمعّنتُ فيها تحت نور الشموع التي أوقدتها إيزابيلا. ففهمتُ أنّها أدواتٌ شخصيّة تخصّ دييغو مارلاسكا، وسرعان ما فقدتُ الشهيّة.

- ما بك؟ - سألتني إيزابيلا.

هززتُ رأسي. قدّمتْ لي مساعِدتي الطعام وظلّت تنظر إليّ، وتنتظر رأيي. مضغتُ أوّل لقمة، وابتسمتُ مستحسنًا.

- لذيذ جدًا - قلت.

- الصلصة لزجة نوعًا ما. تقول الوصفة إنّه ينبغي شيّ البطّة على النار الهادئة لمدّة معيّنة. لكنّ النار في مطبخك، إمّا تحرق كلّ شيء وإمّا تخبو كليًّا. لا يوجد حلٌّ وسط.

- لذيذ - كررتُ وأنا آكل دون جوع.

كانت إيزابيلا تسترق النظر إليّ. تناولنا العشاء بصمت، مؤنسنا الوحيد رنين الشوكات في الأطباق.

- هل كنت تتكلم جديًّا بشأن سيمبيري الابن؟

أومأتُ دون أن أرفع أنظاري عن الطبق.

- وماذا قال لك عني غير ذلك؟

- قال إنّك بليغة الحسن، ذكيّة، وخارقة الأنوثة. إنّه هكذا، فائق اللطف، ويشعر برباطٍ روحيٍّ بينكما.

جرحتْني إيزابيلا بنظرةٍ فتّاكة.

- احلف بأنّك لم تأتِ بكلّ هذا من عندك - قالت.

وضعتُ يدي اليمنى على كتاب الطبخ، ورفعتُ اليسرى.

- أقسم على ذلك بمائة وصفة ووصفة من المطبخ الفرنسيّ - صرّحتُ.

- القَسَم يُجرى باليد الأخرى.

غيّرتُ اليد وأعدتُ العمليّة بنبرةٍ سامية. تنهّدت إيزابيلا.

- وماذا عليّ أن أفعل؟

- لا أعلم. ماذا يفعل العشّاق؟ يذهبون للتنزّه، والرقص...

- ولكنّي لست مغرمة بذاك السيّد.

واصلتُ تناول البطّة بالكرميل، لا أعير اكتراثًا لإلحاح نظراتها. فما كان منها إلاّ أن ضربتْ على الطاولة بكفّها.

- اسد لي معروفًا وانظر إليّ. اللوم كلّه يقع عليك.

تركتُ أدوات الطعام بهدوء، ونظّفتُ فمي بالمنديل ونظرتُ إليها.

- ماذا عليّ أن أفعل؟ - سألتني مجدّدًا.

- هذا يعتمد عليكِ. هل يعجبك سيمبيري أم لا؟

ظلّلتْ سحابةُ الشكوك وجهَها.

- لا أدري. في البداية، إنّه أكبر منّي سنًّا.

- إنّه في عمري تقريبًا - أشرتُ - أكبر مني بعامين كحدّ أقصى. ربّما ثلاثة.

- أو أربعة أو خمسة.

تنهّدتُ.

- إنّه في ريعان شبابه. كنّا قد توصّلنا إلى أنّك تهوين الرجال الناضجين.

- لا تتحايلْ عليّ.

- إيزابيلا، لستُ أنا مَن يفرض عليك ما ينبغي وما لا ينبغي...

- آه، أفحمتني.

- دعيني أنهي كلامي. كنت أقصد أنّ هذا الأمر يخصّكِ، أنتِ وسيمبيري. إن طلبتِ نصيحتي، أنصحكِ بأن تعطيه فرصة. لا أكثر ولا أقلّ. إن أقدم على الخطوة الأولى، في أحد هذه الأيّام، ودعاكِ لتناول شيء ما، فوافقي. لعلّكما تتحادثان، وتتعارفان، وتنشأ بينكما صداقة ما؛ وربّما لا ينجم عن المشوار شيئًا. لكنّي أعتقد أنّ سيمبيري طيّب القلب، وليس لديه نوايا سيّئة. وأكاد أجزم أنّكِ تكنّين له بعض المودّة، إن تمعّنتِ في الأمر جيدًا.

- أنت رجلٌ ظَنون.

- على عكس سيمبيري. ثمّ إنّي أرى عدم الاكتراث بالمودّة والتقدير، اللذين يكنّهما لكِ، أمرٌ معيب. وأنتِ لا تعرفين العيب.

- هذا ابتزازٌ عاطفيّ.

- بل هذه هي الحياة.

صوّبت إليّ نظرة صاعقة. فابتسمتُ لها.

- لو سمحتَ، دعني أنهي عشائي، على الأقلّ - أمرتْني.

مسحتُ الصحن بقطعة خبز، وأطلقتُ تنهيدة رضا.

- وأين الحلوى؟

بعد العشاء، تركتُ إيزابيلا تسرح في أفكارها، في صالة القراءة، عرضةً للوساوس والشكوك، وصعدتُ إلى مكتب البرج. أخرجتُ صورة دييغو مارلاسكا، التي أعطاني إيّاها سالڤادور، وسلّطتُ عليها المصباح. ثم ألقيتُ نظرةً إلى قلاع الملاحظات، وأوراق العمل، التي تراكمت شيئًا فشيئًا. كانت أصابعي ما تزال تحت تأثير شوكة مارلاسكا وسكيّنه، ما جعلني أتخيّله بسهولة جالسًا هناك، يتأمّل الإطلالة على أسطح الريبيرا. أمسكتُ بأحد ملفّاتي، لا على التعيين، ورحتُ أقرأ. تعرّفتُ على الكلمات والعبارات، لأنّي أنا مَن كتبتها، لكنّ الروح المعذّبة التي تسري فيها كانت بعيدةً كلّ البعد عني. سقطتْ مني الورقة أرضًا، فرفعتُ بصري لأجد انعكاسي على زجاج النافذة: رجلٌ مجهولٌ، وخلفه سرابٌ أزرق يدفن المدينة. أدركتُ أنّي عاجزٌ عن صياغة أدنى جملة لربّ العمل، تلك الليلة؛ فأطفأتُ مصباح المنضدة، وبقيْت جالسًا على الديوان، أصغي إلى صوت الرياح وهي تخدش النوافذ، وأتخيّل دييغو

مارلاسكا، يتلظّى نارًا وهو يهوي في مياه الخزّان، بينما تبقبق آخر فقاعات الهواء بين شفتيه، والسائل المتجمّد يتغلغل في رئتيه.

استيقظتُ في الفجر، متوجّعًا من النوم على ديوان المكتب. وما إن نهضتُ حتى طقطقتْ ضلوعي. جرجرتُ نفسي إلى النافذة وفتحتها على مصراعيها. كانت أسطح المدينة القديمة تلمع بالندى، والسماء الخمريّة تتمدّد فوق برشلونة. انتفضتْ أجنحةٌ سوداءُ، من أعلى برج الحمَام، على وقع أجراس سانتا ماريا دل مار، لتحلّق في العلى. وحملت إليّ الريحُ رائحةَ الأرصفة البحريّة، ورمادَ الفحم المنبعث من مصانع الضواحي.

نزلتُ إلى البيت واتجهتُ إلى المطبخ لأعِدّ القهوة. أجلتُ النظر، فصُدمتُ. منذ أن جاءت إيزابيلا إلى بيتي، تحوّل المكانُ إلى ما يشبه متجر أغذية كيلميس، في لاس رامبلاس دي كاتالونيا. من بين الأطعمة الشهيّة، التي جلبتْها من محلّ أبيها، وجدتُ علبة من البسكويت البريطانيّ، المغطّس بالشوكولاطة، فقرّرتُ أن أجرّبه. بعد نصف ساعة، حين امتلأت الشرايينُ بالسكّر والكافيين، تنشّط الدماغُ فلمعت في رأسي فكرةٌ عبقريةٌ أبدأ بها النهار لتزيد حياتي تعقيدًا قدر الإمكان. قرّرتُ أن أقوم بزيارةٍ لمحلّ أغراض السحر والشعوذة في شارع برنسيسا.

- ما الذي أيقظك في هذه الساعة؟

كان ضميري - أي إيزابيلا - يراقبني من عند العتبة.

- آكل البسكويت.

جلست إيزابيلا إلى الطاولة، وصبّت فنجان قهوة. بدا من هيئتها أنّها لم تغمض جفنًا.

- أبي يقول إنّ هذا النوع هو المفضّل لدى الملكة الأمّ.

- إنّها جميلة لهذا السبب إذن.

أخذتْ قطعة بسكويت ونهشتها على مضض.

- هل فكّرت بما ستفعلين؟ أقصد بخصوص سيمبيري...

رمتني إيزابيلا بنظرة سامّة.

- وماذا ستفعل حضرتك اليوم؟ لن تفعل شيئًا خيّرًا، بالطبع.

- بعض المعاملات.

- حقًّا.

- ماذا تقصدين بـ«حقًّا» هذه؟

وضعت الفنجان على الطاولة، وواجهتني بنظرةٍ تليق بمحقّق معتمد.

- لماذا لا تحدّثني أبدًا عمّا تفعله مع ذاك الناشر، ربّ عملك؟

- هذا لصالحك، من بين كثيرٍ من الأشياء الأخرى.

- لصالحي. طبعًا. كم أنا غبيّة. بالمناسبة، نسيتُ أن أخبرك بأنّ صديقك المحقّق مرّ البارحة.

- غراندس؟ هل كان بمفرده؟

- لا. كان يصطحب رجلين ضخمين كالخزائن، ووجهاهما كالكلاب الضارية.

تشكّلتْ عقدة في بطني، ما إن تصوّرتُ ماركوس وكاستيلو واقفين على باب بيتي.

- وماذا أراد غراندس؟

- لم يُفصِح.

- ماذا قال إذن؟

- سألني من أكون.

- وبم أجبتِه؟

- بأنّي عشيقتك.

- يا لطرافتكِ.

- حسنًا، أحد الضخمين ضحك كثيرًا.

تناولتْ إيزابيلا قطعة بسكويت أخرى، والتهمتها بعضّتين. ثمّ انتبهتْ إلى أنّي كنت أراقبها خلسة، فكفّتْ عن المضغ.

- ما بكَ؟ - سألتني، فبخّتْ غيمةً من فتات البسكويت على وجهي.

32

تسلّل النور السرابيّ من بين الغيوم المتلبّدة، ليضيء الطلاء الأحمر الذي يميّز واجهة محلّ أغراض الشعوذة في شارع برنسيسا. ثمّة ساترٌ من خشبٍ منقوش يحجب المحلّ. وخلف الباب الزجاجيّ، تتبدّى الأشياء في الداخل بالكاد، ليشعر الناظر بأنّه أمام مكانٍ كئيبٍ، تطغى فيه الستائر الجلديّة السوداء على الخُزُن الزجاجيّة التي تحتوي على أقنعةٍ وأغراض تافهة، تناسب الأذواق في العصر الڤيكتوريّ، فضلاً عن أوراق اللعب والخفّة، والخناجر والمثاقيل، وكتب السحر وقوارير الزجاج الثخين التي تحتوي على سوائل متنوّعة وملصقاتٍ باللاتينيّة، ومن المحتمل أنّها عُبّئَتْ في مدينة ألبسيط. أعلن جرس الباب دخولي. ثمّة مصطبة خالية في عمق المحلّ. انتظرتُ عدّة ثوانٍ، أعاين غرائب ذلك البازار. وكنتُ أبحث عنّي، في مرآةٍ تعكس كلّ المحل عدا وجهي، حين انتبهتُ بطرف عيني إلى وجهٍ هزيلٍ يطلّ من خلف ستار المخزن.

- خدعةٌ ذكيّة، أليس كذلك؟ - قال الرجل الهزيل، ذو الشعر الأبيض والنظرة الثاقبة.

أومأتُ موافقًا.

- ما آليّتها؟

- لم أفهمها بعد. وصلتني منذ يومين، من أحد صنّاع المرايا الموهِمة في إسطنبول. صانعها يسمّيها بالانعكاس المستعصي.

- كأنّها تقول إنّ لا شيء يبدو على حقيقته - لاحظتُ.

- ما عدا السحر. كيف بإمكاني خدمتك يا سيّدي؟

- هل أنا أتكلّم مع السيّد داميان روريس؟

هزّ الرجل الهزيل رأسه ببطء، دون أن يرفّ له رمش. رأيتُ أنّ شفتيه تنحيان صوب تكشيرةٍ باسمة، مثل مرآته تمامًا، لا تبدو على حقيقتها. كانت نظراته فاترة ومتوجّسة.

- لقد أوصوني بالمجيء إلى محلّك.

- هل لي أن أعرف مَن الذي شرّفني بذلك؟

- ريكاردو سالڤادور.

تبدّدت محاولة التبسّم الودود من على وجهه.

- لم أكن أعرف أنّه ما يزال حيًّا. لم ألتق به منذ خمسة وعشرين عامًا.

- وماذا عن إيرينا سابينو؟

التقط روريس أنفاسه وهو يهزّ رأسه. استدار حول المصطبة واتجه إلى الباب. علّق عليه لافتة «مغلق» وقفله.

- من حضرتك؟

- اسمي مارتين. أسعى لتوضيح ملابسات وفاة السيد دييغو مارلاسكا، وأعلم أنّك كنت تعرفه.

- لقد أوضِحت الملابساتُ منذ أعوام طويلة، على حدّ علمي. السيّد مارلاسكا انتحر.

- لكنّي فهمتُ شيئًا آخر.

- لا أعرف ماذا روى لك الشرطيّ. الغلّ يُتلف الذاكرة يا سيّد... مارتين. لقد حاول سالڤادور، في زمانه، أن يروّج نظريّة مؤامرة لم يجد لها أيّ دليل. وكان الجميع يعرفون أنّه لطالما أدفئ فراش الأرملة مارلاسكا، وأنّه أراد أن يظهر كبطل الأزمة. وكما كان متوقّعًا، عزله مدراؤه وطردوه من الجهاز.

- لكنّه يعتقد أنّ ثمّة محاولةٌ مدبّرة لإخفاء الحقيقة.

قهقه روريس.

- الحقيقة... أضحكتني! بل ثمّة محاولةٌ فاشلة للتستّر على الفضيحة. لم تكن لصفقةٍ أن تتمّ في هذه المدينة إلاّ وكان لمكتب ڤاليرا ومارلاسكا أذرعٌ فيها. ولم يكن لأيّ أحد مصلحةٌ في تسليط الضوء على قصّة كهذه. لقد تخلّى مارلاسكا عن مكانته المرموقة، وعمله وزوجته، لينكفئ على نفسه في ذلك البيت، لسببٍ لا يعلمه إلاّ الله. وكان بوسع أقل الناس ذكاءً أن يتخيّل بأنّه لم يكن لينجو من تلك الحالة.

- لكنّ هذا لم يمنع حضرتك، وشريكك خاكو، من استغلال جنون مارلاسكا، حينما وعدتماه بإمكانيّة التواصل مع العالم الآخر، من خلال تلك الجلسات الروحيّة...

- لم أعده بشيء مطلقًا. كانت تلك الجلسات بدافع التسلية ليس إلاّ. وكان الجميع على دراية بهذا. لا تحمّلْني مسؤوليّة موته، فأنا كنت أحاول كسب قوت يومي بكلّ نزاهة.

- وشريكك خاكو؟

- أنا أتحدّث بالأصالة عن نفسي. لستُ مسؤولاً عن أفاعيل خاكو.

- هذا يعني أنّك فعلتَ شيئًا ما.

- بم تريدني أن أجيبك؟ بأنّه اختلس الأموال، التي كرّر سالڤادور غير مرّة بأنّها كانت مودَعة في حسابٍ سرّيّ؟ بأنّه قتل مارلاسكا وخدع الجميع؟

- ألم تجرِ الأمور على هذا النحو؟

نظر إليّ روريس طويلاً.

- لا أدري. لم ألتقِ به منذ ذلك اليوم الذي توفّي فيه مارلاسكا. سبق وأخبرتُ سالڤادور، ورجال الشرطة الآخرين، بما أعرفه. لم أكذب يومًا. أبدًا. وإن أقدم خاكو على ارتكاب أذيّة ما، فإنّي لم أكن على علمٍ بها، ولم أحصل منها على أيّ قرش.

- وبم تحدّثني عن إيرينا سابينو؟

- إيرينا كانت تعشق مارلاسكا. لم تكن لتقدِم على إيذائه.

- هل تعلم ماذا حلّ بها؟ هل ما تزال حيّة؟

- أعتقد ذلك. قيل لي إنّها كانت تعمل في مغاسل الراڤال. إيرينا امرأة طيّبة. طيّبة للغاية حتّى آلت إلى تلك الحال. كانت تؤمن بتلك الأشياء، من كلّ قلبها.

- ومارلاسكا؟ عمّ كان يبحث في ذلك العالم؟

- مارلاسكا كان متورّطًا في أمرٍ ما؛ لا تسلني ما هو! في أمرٍ لم يكن لخاكو، ولا لي، طاقة على توريطه به. أعرف ما سمعتُه من لسان إيرينا ذات مرّة. يبدو أنّ مارلاسكا التقى بشخصٍ لا أعرفه، مع إنّي كنت وما أزال أعرف كلّ مرتادي تلك الأجواء. وعده الرجل بأنّه، إذا خدمه في شيءٍ ما، لا أعرف ما هو، سيعيد له ابنه إسماعيل من مملكة الأموات.

- هل قالت إيرينا ما اسم ذلك الشخص؟

- لم تلتقِ به إطلاقًا. مارلاسكا لم يكن يسمح لها بذلك. لكنّها كانت واثقةً من أنّه خائف.

- ممّ كان يخاف؟

تلمّظ روريس بلسانه.

- كانت تعتقد أنّه ملعون.

- اشرح أكثر.

- سبق وقلتُ لك. مارلاسكا كان مختلاً. كان مقتنعًا بأنّ شيئًا ما تلبّسه.

- شيء ما؟

- روحٌ. أو طفيليٌّ. لا أدري. كما ترى، في هذه الأوساط، نتعرّف على كثيرٍ ممّن أضاعوا عقولهم. تنزل بأحدهم كارثة شخصيّة: يفقدون عزيزًا، أو يخسرون مالاً، فيسقطون في ثقب أسود. فالدماغ هو أضعف جهازٍ في الجسم. والسيّد مارلاسكا كان غائب الرشد؛ ولم يكن جنونه خافيًا على أحد. ولهذا السبب جاء إليّ.

- وحضرتك أسمعتَه ما يرغب في سماعه.

- لا. لقد أخبرتُه بالحقيقة.

- أيّ حقيقة؟

- الحقيقة الوحيدة التي أعرفها. إذ بدا لي الرجل يعاني من لوثةٍ جدّية، ولم أشأ ابتزازه. فهذه النوايا لا تفضي إلى خير خاتمة. في عملنا هذا، ثمّة حدودٌ لا يتجاوزها المرء إن كان يدرك ما يناسبه. فمن يأتي بحثًا عن التسلية، أو دغدغة العواطف، أو مناجاة العالم الآخر، نخدمه ويدفع لنا أجرنا. أمّا من يأتينا، وقد أوشك على الجنون، نعيده إلى بيته. عملنا استعراضيّ بحت، كبقيّة العروض الأخرى. بحاجة لمشاهدين وليس لمتنوّرين.

- يا لها من أخلاق مثاليّة. وماذا قلتَ حينها لمارلاسكا؟

- قلت له إنّ هذه محض أوهام وخرافات. أخبرته بأنّي ممثلٌ هزليّ، يكسب قوت يومه بتنظيم جلساتٍ روحيّة للمساكين المهمومين، الذين فقدوا أحبّتهم، المحتاجين لمن يطمئنهم بأنّ آباءهم وأصدقاءهم في انتظارهم هناك، في العالم الآخر. قلت له إنّه لا وجود لشيءٍ في الجهة الأخرى سوى عدمٌ شاسع. أخبرتُه بأنّ هذه الحياة هي الوحيدة المتوفّرة لدينا؛ وأوصيتُه بأن ينسى الأرواح ويعود إلى الاهتمام بعائلته.

- وهل صدّقك؟

- لا، بالطبع. كفّ عن المجيء إلى الجلسات، وبحث عن عونٍ في مكان آخر.

- أين؟

- إيرينا كانت قد نشأت في أكواخ الصفيح، عند شاطئ بوغاتل. كانت ما تزال تشعر بانتمائها إلى ذلك الحيّ، رغم اتّساع شهرتها بفضل الرقص والتمثيل في الباراليلو. روت لي أنّها اصطحبتْ مارلاسكا إلى امرأةٍ، يسمّونها بـ«عرّافة» السوموروسترو، علّها تصونه من شرّ ذلك الشخص، الذي كان يطالبه بإيفاء دَينٍ ما.

- ولم تقل لك اسم ذلك الشخص؟

- لم أعد أذكره، حتى لو قالتْه. قلتُ لك إنّهما انقطعا عن المجيء إلى الجلسات.

- أندرياس كوريلي؟

- لم أسمع بهذا الاسم من قبل.

- أين بوسعي أن أجد إيرينا سابينو؟

- لقد أخبرتُك بكلّ ما أعرف - أجاب روريس، نافد الصبر.

- سؤالٌ أخير، ثم أنصرف.

- فلنرَ صحّة هذا الكلام!

- هل تذكر أنّ مارلاسكا تكلّم عن شيءٍ ما، يدعى بـ«النور الأبديّ»؟

قطّب روريس حاجبيه وهو ينفي بهزّة من رأسه.

- شكرًا على المساعَدة.

- عفوًا. وحبّذا ألاّ تعود إلى هنا.

أومأتُ موافقًا واتجهتُ نحو الباب. كان روريس يتبعني بشكوك عينيه.

- انتظر - قال قبل أن أجتاز العتبة.

استدرتُ. كان الرجل الهزيل يرمقني مرتبكًا.

- أعتقد أنّي أذكر أنّ «النور الأبديّ» كان عنوان ما يشبه المنشور الدينيّ الذي استخدمناه في إحدى الجلسات، في شّقةٍ من شارع إليزابيت. ربّما كان جزءًا من سلسلة كتيّباتٍ مماثلة، من المحتمل أنّه استعارها من مكتبة الخرافات التابعة لمنتدى بروفينير. لا أعلم إن كان هذا ما تقصده.

- هل تذكر عمّا يتحّدث الكتاب؟

- كان شريكي خاكو يعرف أكثر مني، فهو الذي يقود الجلسات. ولكن، إن لم تخنّي الذاكرة، فإنّ «النور الأبديّ» عبارةٌ عن ديوان شعرٍ عن الموت وأسماء «ابن الصبح» السبعة، «حامل النور».

- «حامل النور»؟

ابتسم روريس.

- لوسفر[13] .

33

خرجتُ إلى الشارع، ومشيتُ صوب البيت، متسائلاً عمّا ينبغي فعله حينئذٍ. وكنت على وشك الانعطاف نحو شارع مونكادا حين رأيتُه. المحقّق ڤيكتور غراندس، مستندًا إلى الجدار، يدخّن سيجارة ويبتسم في وجهي. ألقى التحية عليّ بيده، فقطعتُ الشارع باتجاهه.

- لم أكن أعرف أنّك مهتمٌّ بالسحر يا مارتين.

- وأنا لم أكن أعرف أنّك تطاردني أيّها المحقق.

- لا أطاردك. لكنّك رجلٌ صعب المنال. فقرّرتُ أن أذهب لملاقاة الجبل، ما لم يأتِ الجبل لملاقاتي. هل لديك خمس دقائق لشرب شيءٍ ما؟ على نفقة قيادة الشرطة.

- ليس لي أن أرفض عرضًا كهذا... لماذا لا ترافقك الوصيفتان، اليوم؟

- ماركوس وكاستيلو بقيا في القيادة، لتسهيل بعض المعاملات. ولو أخبرتُهما بأنّي آتٍ إليك، لما توانيا عن المجيء.

نزلنا في ذلك الأخدود المطوّق بالأبنية القديمة، المشيّدة في العصور الوسطى، حتى وصلنا إلى مطعم خامبانيات، وجلسنا إلى طاولة في آخر المحلّ. نظر إلينا نادلٌ، مسلّحٌ بخرقة تفوح منها نتانة الموادّ المعقّمة، فأمره غراندس بإحضار كأسين من البيرة وطبق من الجبن. وحين وصلت الطلّبية، عرض عليّ المحقق مشاركته الطعام، لكنّي رفضتُ.

- هل يؤسفك إن أكلتُ؟ في هذه الساعة، أتضوّر جوعًا.

- شهيّة طيبة - قلت له بالفرنسيّة.

ابتلع غراندس قطعة جبن كبيرة، ومضغها مغمض العينين.

- ألم يخبروك بمروري إلى بيتك، البارحة؟

- عرفتُ في وقتٍ متأخّر.

- مفهوم. يا لروعة تلك الطفلة. ما اسمها؟

- إيزابيلا.

- كم أغبطك على حياتك السعيدة، أيّها اللعين! كم عمرها؟

رمقتُه بنظرة مسمومة. فابتسم المحقق متفهّمًا.

- أخبرتني العصفورة بأنّك بتّ تعمل محقّقًا. ألا تترك لنا، نحن المحترفين، حصّة؟

- ما اسم عصفورتك؟

- بل إنّه طائر خبيث بالأحرى. أحد مدرائي، صديقٌ حميم للمحامي ڤاليرا.

- حتّى أنت، تعمل لصالح المحامي؟

- ليس بعد يا صديقي. فأنا خرّيج مدرسة عريقة، كما تعلم. شرف المهنة، وهذه الترّهات.

- لسوء الحظّ.

- قل لي، كيف حال المسكين ريكاردو سالڤادور؟ هل تعلم أنّي لا أسمع باسمه منذ ما يقارب العشرين عامًا؟ كنّا جميعًا نحسَبه ميتًا.

- تشخيصٌ متسرّع.

- وكيف حاله؟

- يعيش منعزلاً، ويشعر بالغدر والإهمال.

هزّ المحقّق رأسه ببطء.

- يدفعنا للتفكير بمستقبل هذه المهنة، أليس كذلك؟

- أراهن أنّ مسيرتك ستسلك دربًا مغايرًا، وأنّك سترتقي الرتب في غضون عامين. أراك مديرًا عامًا قبل أن تبلغ الخمسة والأربعين عامًا، تقبّل يد الأساقفة وجنرالات الجيش خلال مهرجان الكوربس كريستي.

أومأ غراندس بفتور، متجاهلاً نبرتي الساخرة.

- على ذكر تقبيل الأيادي، هل عرفت ما حلّ بصديقك ڤيدال؟

لم يكن غراندس يفتح نقاشًا دون غاياتٍ مبيّتة. نظر إليّ متبسّمًا، يتلذّذ بارتباكي.

- ماذا حلّ به؟ - غمغمتُ.

- يقال إنّ زوجته حاولت الانتحار ليلة أمس الأوّل.

- كريستينا؟

- حقًّا، أنت تعرفها...

لم أشعر بنفسي إلاّ وقد انتفضتُ واقفًا، مرتعش اليدين.

- اطمئنّ. السيدة ڤيذال بخير. انتابها الهلع ليس إلاّ. يبدو أنّها أفرطتْ في تجرّع مهدّئ الأفيون... هلاّ جلستَ يا مارتين؟ من فضلك.

جلستُ، فتشكّلتْ عقدةٌ من المسامير في بطني.

- متى حدث ذلك؟

- منذ يومين أو ثلاثة.

خطرتْ في ذهني، حالاً، صورة كريستينا خلف إحدى نوافذ ڤيلا هيليوس، منذ أيّام، حين ألقت عليّ التحيّة بيدها، فيما كنت أحيد أنظاري عنها، وأولي لها ظهري.

- مارتين؟ - سأل، وهو يحرّك يده أمام عينيّ، كأنّه خشي من أنّ الصدمة أفقدتني عقلي.

- ماذا؟

رمقني المحقّق بنظرةٍ تنمّ عن قلقٍ صادق.

- هل لديك ما ترويه لي؟ أعرف أنّك لن تثق بي، لكنّي أودّ مساعَدتك.

- هل ما تزال تظنّ بأنّي أنا مَن قتل باريدو وشريكه؟

- لم أظنّ ذلك يومًا، لكنّ لي زملاءً يميلون إلى الشكّ بك.

- فلماذا تتحرّى عنّي إذن؟

- اطمئنّ. لا أتحرّى عنك يا مارتين. ولم أقم بذلك أبدًا. ولن أخفي عليك إذا فعلتُها. إنّي أراقبك، حتى الساعة. إذ إنّي أستلطفك، وأخشى أن تتورّط في مصيبة. لماذا لا تثق بي وتروي لي ما يحدث؟

تلاقت نظراتنا، وكدتُ أبوح له بكلّ شيء. سوى أنّي لم أعرف من أين أبدأ.

- لا شيء يحدث، يا سيادة المحقّق.

استوعب غراندس، وغمرني بنظرةٍ تنمّ عن الشفقة، أو ربّما الإحباط. أنهى كأس البيرة وترك بعض النقود على الطاولة. ربّت على كتفي ونهض.

- توخّ الحذر يا مارتين. وكن متيّقظًا على وطأة قدميك. إنّي أقدّرك، دونًا عن الجميع.

- سأتذكّر ذلك.

عدتُ إلى البيت عند منتصف النهار تقريبًا، وأنا ألهج بما رواه عليّ المحقق. صعدتُ درجات السلم ببطء، كما لو أنّ روحي تثقل كاهلي. فتحتُ الباب، متيّمنًا أن لا تكون إيزابيلا في أوج نشاطها ورغبتها بالثرثرة. لكنّ البيت كان هادئًا. سرتُ في الممرّ حتى الصالة، فوجدتُها غافية على الديوان، وثمّة كتابٌ غافٍ على صدرها، أحد رواياتي القديمة. لم أتمالك ابتسامتي. كانت درجة الحرارة قد هبطت بشكل ملحوظ، خلال أيّام ذلك الخريف، فخشيتُ أن

يطالها البرد. تذكّرتُ أنّي رأيتُها غالبًا ما تطوف في البيت، متّشحة بملاءةٍ من الصوف. فاتجهتُ إلى غرفتها، لعلّي أعثر على ما يوفّر لها الدفء. كان الباب مواربًا، لكنّي تردّدتُ في الدخول. إذ لم أدخل تلك الغرفة قطّ منذ أن أقامت بها إيزابيلا، رغم أنّ البيت بيتي. تراءت لي الملاءة مثنيّة على الكرسيّ، فدخلتُ لآخذها. كانت الغرفة تفوح بعطور إيزابيلا الزكيّة والآسرة؛ والسرير ما يزال مبعثرًا. فانحنيتُ لأرتّب الأغطية والوسائد؛ متيّقنًا بأنّ أخلاقي تكسب النقاط، في عينيّ مساعِدتي، كلّما تفرّغتُ لبعض الأعمال المنزليّة.

وحينها، لاحظتُ شيئًا ما بين الفراش وقاعدة السرير. كانت حوّافَ ورقةٍ ناتئة من تحت الغطاء. وحين أخرجتُها، بدا أنّي أحمل مغلّفًا بين يديّ. انتزعتُه كليًّا، فظهر قرابة العشرين ظرفًا أزرق اللون، معقودةً بالشرائط. استباح الذهولُ سريرتي، لكنّي استبعدتُ أيّ شكّ. حللتُ عقدة الشرائط، وأمسكتُ بأحد الظروف. قرأتُ عليه اسمي وعنواني. والمرسِل، بكلّ بساطة، كريستينا.

جلستُ على السرير، وخلفي الباب، لأعاين الأختام البريديّة، رسالة تلو أخرى. أرسِلت الأولى منذ عدّة أسابيع، والأخيرة منذ ثلاثة أيّام. كانت كلّ الظروف مفتوحة. أغمضتُ عينيّ وشعرتُ بحروف الرسائل تتساقط من بين يديّ. سمعتُ أنفاسها، خلف ظهري، ثابتة عند العتبة.

- سامحني - غمغمت إيزابيلا.

دنت منّي ببطء، وانحنت لتلملم الرسائل المنثورة. ثمّ سلّمتني إيّاها بنظرةٍ جريحة.

- لقد فعلتُها لمصلحتك، كي لا تتألّم - قالت.

اغرورقت عيناها بالدموع وحطّت يدها على كتفي.

- اغربي عن وجهي - قلت.

أبعدتُها عنّي ونهضتُ، فوقعت إيزابيلا أرضًا، تتأوّه من ندمٍ يستعر في ضميرها.

- ارحلي عن هذا البيت.

فخرجتُ أنا من البيت دون أن أهتمّ لإغلاق الباب. ووصلتُ إلى الطريق، لأجد نفسي في خضمّ أبنيةٍ ووجوهٍ غريبة وبعيدة. رحتُ أمشي بلا وجهة، غير آبهٍ ببرودة تلك الرياح المحمّلة بالأمطار، التي أخذت تجلِد المدينة بهطولها، كأنّها أنفاسٍ لعنة ما.

34

توقّف الترام عند بوّابة برج بيليسغوارد، حيث تموت المدينة أسفل سفح الرابية. مشيتُ صوب مدخل مقبرة سانت خرفاسي، مسترشدًا درب النور المصفرّ، الذي تخلّفه أضواء الترام تحت المطر. كانت أسوار المقبرة تنهض عن بعد خمسين مترًا، لتبدو كحصنٍ رخاميّ، تبرز من ورائه فوضى التماثيل الموسومة بلون العاصفة. وجدتُ الحارس عند المدخل، مدثّرًا بالمعطف، يدفِئ يديه على نار المجمر. نهض متوجّسًا، حين رآني أظهر من تحت المطر. وتفحّصني بنظرة خاطفة قبل أن يفتح الباب الصغير.

- أبحث عن مدفن آل مارلاسكا.

- ستغيب الشمس بعد أقلّ من نصف ساعة. من الأفضل أن تعود مرّة أخرى.

- لن أنصرف قبل أن تدلّني على المدفن.

التجأ الحارس إلى أحد المصنّفات، وأظهر لي الموقع، مشيرًا بإصبعه إلى الخريطة المعلّقة على الجدار. فابتعدتُ دون أن أشكره.

لم يكن من الصعب إيجاد المدفن، رغم اكتظاظ القبور والأضرحة في قلعة الموت تلك. كان هيكله، المشيّد بأسلوب حداثيّ، مبنيًّا على قاعدة رخاميّة، يرتكز عليها ما يشبه القوس المشكّل من سلّميّن حجريّين، يوحيان بمدرّج المسرح، يفضيان إلى ردهةٍ مطوّقة بالشواهد، عند مدخل المقام المسنود بالأعمدة. وعلى تاج المقام، ثمّة قبّة تحتضن تمثالاً من المرمر المصقول. وكان الوجه متخفيًّا بوشاحٍ ما، لكنّي كلّما اقتربتُ من المدفن، شعرتُ بأنّ حارس عالم الأموات هذا يبرم رأسه ليراقب الناظرَ إليه. صعدتُ أحد السلّمين، ووصلتُ إلى مدخل المقام. توقّفتُ ونظرتُ إلى الخلف. كانت أضواء المدينة تتبدّى في المدى تحت المطر.

دخلتُ. في وسط المقام، ثمّة تمثال ذو وجهٍ أنثويّ، يتضرّع إلى المسيح المصلوب. كان الوجه قد تلقّى من الضربات ما شوّهه، بل وكأنّ أحدهم طلى عينيه وشفتيه بالأسود ليضفي عليه ضرواة الذئب. ولم يكن ذلك الدليلَ الوحيد على تدنيس المدفن. فعلى الشواهد ما يبدو إشارات وخدوشًا بأداة حادّة؛ وعلى أحدها بالتحديد، نُقِشت رسومٌ خليعة وكلماتٌ يحول الظلام دون قراءتها. كان قبر دييغو مارلاسكا في عمق المقام. دنوتُ منه ووضعتُ يدي على الشاهدة. أخرجتُ صورة مارلاسكا، التي أعطاني إيّاها سالڤادور، وتفحصّتُها.

وحينها، سمعتُ خطواتٍ تصعد أحد السلّمين. أرجعتُ الصورة إلى جيب معطفي، والتفتُّ نحو مدخل المقام. كانت الخطوات قد توقّفت، فيما يعلو صوت المطر على الرخام. اقتربتُ من المدخل ببطء وأطللتُ برأسي. كان الجسد مُدبِرًا، يتقصدّ النظر إلى المدينة في الأفق. جسد امرأة ترتدي لباسًا أبيض، وتحجب رأسها بالشال. التفتت

ببطءٍ ورنت إليّ. كانت تبتسم. عرفتها في الحال، رغم مرور السنوات. إيرينا سابينو. أقدمتُ بخطوة نحوها، فشعرتُ بأحدٍ ما يتربّص بي، خلف ظهري. انهال عليّ بضربةٍ على رقبتي، فانبلج نورٌ أبيضُ في بصري. وأحسستُ بأنّي أقع على ركبتيّ، وسرعان ما هويتُ على الرخام الموحل. تراءى لي ظلٌّ تحت سراب المطر. جلست إيرينا القرفصاء بقربي. أحسستُ بيدها تتلمّس رأسي، وتجسّ موضع الضربة. رأيتُها تُرجِع أصابعها الملطّخة بالدماء، لتداعب بها وجهي. وقبل أن أفقد الوعي ببرهة، أحسستُ أنّها تُخرِج شفرة حلاقة وتفتحها على مهلٍ، بينما تنزلق قطرات المطر الفضيّة على النصل الذي يندفع نحوي شيئًا فشيئًا.

فتحتُ عينيّ على ضياءٍ يعشي الأبصار. نور قنديلٍ زيتيّ. كان الحارس يراقبني بوجهه الخالي من أيّ تعبير. حاولتُ أن أرفرف جفنيّ، فإذا برعدة ألمٍ تنطلق من رقبتي لتخترق دماغي.

- هل أنت حيّ؟ - سأل الحارس، فلم أفهم إن كان السؤال جدّيًا أم بدافع البلاغة.

- أجل - توجّعتُ - عسى أن لا يخطر في بالك أن ترميني في حفرة ما.

ساعدني الحارس على النهوض. وكان ثمن أيّ حركةٍ أقوم بها يكلّفني صعقةً في الرأس.

- ما الذي حدث؟

- ومن قد يعلم غيرك... كان عليّ أن أغلق قبل ساعة، لكنّك لم تعد، فأتيتُ إلى هنا لأفهم ما الذي جرى، فوجدتُك في حالة ثَمَل.

- والمرأة؟

- أيّ امرأة؟

- كان هناك شخصان.

- امرأتان؟

تأففتُ وأنا أحرّك رأسي.

- هلاّ ساعدتني على النهوض؟

تمكّنتُ من الثبات على قدميّ بمساعدة الحارس. وهكذا أحسستُ بحرقةٍ فظيعة، ورأيتُ أنّ قميصي كان مفتوحًا. وجدتُ العديد من الجروح السطحيّة على صدري.

- اسمع! هذا ليس استعراضًا ناجحًا...

تدثّرتُ بالمعطف، وتحسّستُ جيبه الداخليّ. سُرِقت منّي صورة مارلاسكا.

- هل لديك هاتف في غرفة الحراسة؟

- أجل، فنحن في صالة الحمّامات التركية.

- هلاّ ساعدتني على الوصول إلى برج بيليسغوارد، على الأقلّ، كي أتّصل بسيارة أجرة؟

جدّف الحارس، وشبك إبطيّ.

- ألم أوصيك بالعودة مرّة أخرى؟ - قال مستسلمًا.

35

وصلتُ أخيرًا إلى بيت البرج، قبل منتصف الليل بدقائق. وما إن فتحتُ الباب، حتى فهمتُ أنّ إيزابيلا كانت قد رحلت. إذ كان لخطواتي في الممرّ صدى آخر. لم أشعل النور. دخلتُ البيت تحت الظلام، وأطللتُ إلى غرفتها سابقًا. كان الفراش مكشوفًا، والأغطية والوسائد مثنيّة بعناية تامّة على الكرسيّ، ورائحتها ما تزال تفوح في المكان. اتجهتُ إلى الصالة وجلستُ إلى المنضدة التي استخدمتها مساعِدتي. كانت إيزابيلا قد برت أقلام الرصاص، ووضعتْها بترتيب مذهل في إحدى الكؤوس. ورزمة الأوراق البيضاء مرتّبة بأناقة في أحد الأطباق. ومجموعة الريشات التي أهديتُها لها، كانت ترقد في الطرف الآخر من الطاولة. لم أشعر بأنّ البيت موحشٌ هكذا من قبل.

نزعتُ ثيابي المبللة في الحمّام، وعقّمتُ رقبتي بالقطن والكحول. كان الألم قد خمد حتّى استحال نبضة خرساء، وإحساسًا عامًّا لا يختلف عن اليقظة من سُكرٍ نموذجيّ. بدت لي الجروح في المرآة خطوطًا مرسومة بالقلم. كانت واضحة وسطحيّة، لكنّها تسبّب لي بحرقة شديدة. عقّمتُها بالكحول، آملاً ألاّ تزداد التهابًا.

استلقيتُ على السرير وغطستُ تحت غطاءين أو ثلاثة حتّى العنق. كان الألم يتمدّد على كلّ أنحاء جسدي، مستثنيًا منها الأطراف التي شلّها البرد، وبلّلها المطر، فانعدم فيها أيّ نوع من الإحساس. انتظرتُ الدفء، وأنا أصغي إلى ذلك الصمت الجامد، صمتٍ منسوجٍ بالغياب والفراغ اللذين يضرمان البيت لوعة. قبل مغادرتها، وضعت إيزابيلا ظروف رسائل كريستينا فوق الدُرج. مددتُ يدي، وأخرجتُ واحدة لا على التعيين، يعود تاريخها إلى أسبوعين.

عزيزي داڤيد

الأيام تمضي، وأنا ما أزال أبعث لك الرسائل التي أتخيّل أنك لا تفضّل الردّ عليها، هذا إن فتحتَها. حتّى إنّي فكّرتُ بأنّي أكتب لك، من أجلي فقط، كي أقهر الوحدة، لعلّي أحظى بطيفك يؤنسني لحظةً واحدة. كلّ يوم، أتساءل عمّا حلّ بك وعمّا تفعله.

أفكّر تارةً بأنّك غادرتَ برشلونة دون رجعة. تخيّلتُ أنك في مكانٍ ما، محاطاً بالغرباء، تبدأ حياةً جديدة لن أعرف عنها شيئاً. وتارةً أخرى، أفكّر بأنّك ما تزال حاقداً عليّ، وأنّك تمزّق هذه الرسائل، مستاءً من أنك عرفتَني. لا ألومك. من الغريب أنّنا نلتجأ إلى قطعة ورق كي نبوح بما لا نجرؤ على قوله وجهًا لوجه.

أمّا أنا، ظروفي صعبة. پيدرو يبذل قصارى جهده ليُبدي لي طيبته وتفهّمه، حتّى إنّي أكاد أختنق، بعض الأحيان، من رحابة صدره ورغبته بإسعادي، فلا أزداد إلاّ شقاءً. پيدرو جعلني أتيقّن من أنّ لي قلبًا قاسيًا، ولا أستحقّ المحبّة من أحد. يقضي معظم وقته معي. لا يريد أن يتركني وحيدة أبدًا.

أحاول الحفاظ على ابتسامتي. وأقاسمه السرير. وحين يسألني إن كنت أحبّه، أجيبه بنعم؛ وحين أرى الحقيقة تنعكس في عينيه، أودّ لو أموت. لا يلومني مطلقًا. يتكلّم عنك كثيرًا. يستفقدك. حتّى إنّي أفكّر أحيانًا بأنّك الشخص الوحيد الذي يحبّه في العالم كلّه. أراه يشيخ بمفرده، بأسوأ رفيقة إلى جانبه، أنا. لا أطالبك بأن تسامحني، لكنّ أشدّ ما أرغب فيه أن تسامحه هو. ليس من المجدي أن تحرمه صداقتك لأجلي.

البارحة انتهيتُ من قراءة أحد كتبك. بيدرو يحتفظ بكتبك كلّها. لقد قرأتُها لأنّها الطريقة الوحيدة المتاحة لأشعر بأنّي معك. كانت حكاية غريبة ومحزنة، عن زوجٍ من العرائس المهشّمة والمهملة، في سيرك متجوّل، يستردّان الحياة لليلة واحدة، ويعلمان بأنّهما سيموتان عند الفجر. حين قرأتُها، أحسستُ بأنّك كنت تكتب عنّا.

منذ قرابة الأسبوع، حلمتُ بأنّي التقيتُ بك ثانية في الطريق، وأنّك لم تعد تذكرني. كنتَ تبتسم وتسألني عن اسمي. لم تكن تعرف عنّي شيئًا. لم تكن تكرهني. وكلّما يحين الليل، ويغفو بيدرو بقربي، أغمض عينيّ وأدعو السماء، أو الجحيم، أن تعيد عليّ ذلك الحلم.

غدًا أو بعد غدٍ ربّما، سأبعث لك رسالة جديدة، لأقول لك إنّي أحبّك، حتّى لو لم يعد هذا الأمر يعنيك شيئًا.

كريستينا

تركتُ الرسالة تسقط أرضًا، ولم أستطع قراءة المزيد. غدًا سيأتي يوم جديد، قلت لنفسي. وقد يكون أصعب من اليوم. لم أكن أتخيّل أنّ روعة ذلك اليوم كانت قد بدأتْ للتوّ. وربّما تمكّنتُ من النوم ساعتين كحدٍّ أقصى، حين استيقظتُ على حين غرّة في قلب الليل. أحدهم كان يطرق الباب بقوّة. بقيتُ مشدوهًا بضع لحظاتٍ تحت الظلام باحثًا عن قاطع الإنارة. طرقٌ على الباب مجدّدًا. أشعلتُ الضوء، ونزلتُ عن السرير متجهًا نحو البهو. فتحتُ عين الباب. ثمّة ثلاث وجوه تحت ظلام المستراح. المحقّق غراندس، ومن خلفه ماركوس وكاستيلو. كان الثلاثة يركّزون أنظارهم بعين الباب. التقطتُ نفسًا عميقًا مرّتين قبل أن أفتح.

- مرحبًا سيّد مارتين. اعذرنا على المجيء في هذه الساعة.

- كم الساعة؟

- ستحرّك مؤخّرتك، الساعةَ، يا بن العاهرة - زأر ماركوس ليسرق من كاستيلو ابتسامة حادّة قادرة على جزّ لحيةٍ كثّة.

رمى غراندس عميليه بنظرة توبيخ، وتنهّد.

- لقد تجاوزت الثالثة ليلاً - قال - هل يمكنني الدخول؟

تأفّفتُ مستاءً، لكني وافقتُ وأفسحتُ لهم المجال. أشار المحقق إليهما بالانتظار عند المستراح. فأومأ ماركوس وكاستيلو بتكشيرةٍ مرعبة، ورمياني بأقبح نظرة. فصفقتُ الباب في وجههما.

- عليك أن تتعامل بحذرٍ معهما - قال غراندس بينما كان يتبختر في الممرّ.

- تفضّلْ! تصرّفْ كما لو كنتَ في بيتك... - قلت.

عدتُ إلى غرفتي ولبستُ أوّل غرضٍ وجدتُه على الكرسيّ، ثيابًا متّسخة ومليئة بالبقع. وحين خرجتُ لم أجد أثرًا لغراندس.

سرتُ في الممرّ حتّى الصالة، فوجدته هناك مشرفًا على النافذة، يتأمّل الغيوم المنخفضة التي تزحف على الأسطح.

- والطفلة؟ - سأل.

- في بيتها.

التفت غراندس مبتسمًا.

- الرجل الحكيم لا يستضيف أنثاه أبد الدهر - قال مشيرًا إلى الأريكة - تفضّلْ بالجلوس!

هويتُ على الأريكة. ظلّ غراندس واقفًا يحدّق إليّ.

- وبعد؟ - سألتُه في النهاية.

- وجهك شاحب يا مارتين. هل تشاجرتَ مع أحد ما؟

- لقد وقعتُ.

- حقًّا. أعلم أنّك كنت اليوم في محلّ أغراض السحر، الذي يملكه السيّد داميان روريس، في شارع برنسيسا.

- لقد رأيتني بعينيكَ أخرج من هناك، في منتصف النهار... ما معنى كلّ هذا؟

كان غراندس ينظر إليّ بفتور.

- ارتدِ معطفًا وشالاً، أو ما أردتَ. البرد قارس. سنذهب إلى المخفر.

- وماذا نفعل هناك؟

- افعل ما أمليه عليك.

كانت سيّارة الشرطة بانتظارنا في شارع بورن. زجّني ماركوس وكاستيلو في المقعد الخلفيّ، دون صعوبةٍ تُذكَر، وأبقياني وسطهما ليضيّقا عليّ.

- هل السيّد الصغير مرتاح؟ - سألني كاستيلو وهو يوغل مرفقه بين عظام صدري.

جلس المحقّق بجانب السائق. لم يفتح أحدٌ منهم فمه خلال خمس دقائق ونحن نجتاز شارع لايتانا المقفر والمدفون في ضباب كثيف. وعندما وصلنا إلى المخفر، نزل غراندس من السيارة ودخل دون انتظار. أمسك كلٌّ من

ماركوس وكاستيلو بذراعيّ، كما لو أنّهما يريدان تهشيم عظامي، وجرجراني في متاهة من السلالم والسراديب والزنزانات، وصولاً إلى غرفة بلا نوافذ، تفوح منها رائحة العرق والبول. ثمّة طاولة خشبيّة متآكلة في الوسط، وكرسيّان مترنّحان. والمصباح العاري معلّق في السقف، يسلّط الضوء على شبكة الصرف في المنتصف، والتي تميل الأرضيّة نحوها من كلا الجهتين. كان البرد قارسًا هناك. وقبل أن أفهم أين كنت، أغلِق الباب صفقًا خلف ظهري. وسمعتُ ابتعاد الخطى. طفتُ اثنتي عشرة مرّة داخل تلك الزنزانة، قبل أن أهوي على الكرسيّ المتراقص. ثمّ لم أسمع أيّ صوتٍ آخر، خلال الساعة اللاحقة، عدا أنفاسي، وطقطقة الكرسيّ، وأصداء التقطير الذي أخفقتُ في تحديد موقعه.

بعد أبديّة طويلة، تناهت إلى مسامعي أصداءٌ تدنو تجاهي، ثم انفتح الباب. أطلّ ماركوس إلى داخل الزنزانة مبتسمًا. ترك الباب مفتوحًا وأفسح المجال لغراندس، الذي دخل دون أن يلتفت إليّ، وجلس على الكرسيّ، من الجانب الآخر للطاولة. أشار إلى ماركوس، فأغلق الأخير الباب، بعد أن أرسل إليّ قبلة صامتة في الهواء وغمز بعينه. وما لبث المحقّق يتجاهل وجودي، ثلاثين ثانية كاملة، قبل أن يتنازل وينظر إلى وجهي.

- إن كنتَ تقصد إبهاري، فقد نجحتَ يا سيادة المحقّق.

لم يكترث غراندس إلى سخريتي، وحدق إليّ كأنّه يراني للمرّة الأولى.

- ماذا تعرف عن داميان روريس؟ - سأل.

أومأتُ بلا مبالاة.

- لا أعرف عنه الكثير. أعرف أنّ لديه محلٌّ لبيع أغراض السحر. وفي الواقع، لم أكن أعلم عنه أيّ شيء قبل أيّام، لو لم يأتِ ريكاردو سالڤادور على ذكره. اليوم، أو البارحة، لا أعرف حتى كم الساعة الآن، ذهبتُ لزيارته كي أستوفي معلوماتٍ عن الرجل الذي كان يسكن سابقًا في البيت الذي أعيش فيه. قال لي سالڤادور إنّ روريس والمالك القديم...

- مارلاسكا.

- أجل، دييغو مارلاسكا. كنت أقول إنّ سالڤادور أشار إلى قيام علاقةٍ بينه وبين روريس، منذ سنواتٍ خلت. طرحتُ عليه بعض الأسئلة، وأجاب بما يقدر عليه ويعرفه. إضافةً إلى بضعة أشياء أخرى.

هزّ غراندس رأسه مرارًا.

- هل هذه روايتك لما حدث؟

- لا أدري. ما الذي رواه لك؟ فلنقارن بين الروايتين، لعلّنا نتوصّل إلى فهم لماذا أموت من البرد هنا، في قلب الليل، داخل هذا المكان الخرائيّ القميء.

- لا ترفع صوتك يا مارتين!

- المعذرة أيها المحقّق، لكنّك قد تشفق عليّ وتخبرني لماذا أنا هنا، على الأقلّ.

- سأخبرك. قبل حوالي ثلاث ساعات، كان أحد القاطنين في البناية الملاصقة لمحلّ السيّد روريس، عائدًا إلى منزله متأخّرًا؛ فرأى الباب مفتوحًا والمحلّ مضاءً. دفعه الفضول لاكتشاف السبب، فدخل ولم يجد صاحب المحلّ. ناداه فلم يتلقّ ردًّا. اتّجه إلى المخزن، حيث وجده مكبّل اليدين والقدمين بحبلٍ حديديّ على الكرسيّ، مضرّجًا بدمائه.

سكت غراندس طويلاً فارتعشت عيناي. تخيّلتُ أنّه سيضيف شيئًا آخر، إذ كان المحقّق يوفّر الضربة القاضية حتّى النهاية.

- هل مات؟ - سألتُ.

أومأ غراندس بنعم.

- ليته مات وحسب. تلذّذ الفاعل بفقء عينيه وجزّ لسانه بالمقصّ. وقد رأى الطبيب الشرعيّ أنّه ظلّ يحتضر لنصف ساعة، ثمّ مات خنقًا بدمائه.

ضاقت عليّ أنفاسي. وراح غراندس يحوم حولي. توقّف خلف ظهري وأحسستُ أنّه يشعل سيجارة.

- كيف تلقّيتَ هذه الضربة؟ تبدو حديثة.

- انزلقتُ بالمطر وارتطمت رقبتي بالأرض.

- لا تعاملني كأحمق يا مارتين. لن ينفعك هذا. هل تفضّل أن يختلي بك ماركوس وكاستيلو كي يعلّماك حسن الأخلاق؟

- حسنًا. لقد تلقّيتُ ضربةً.

- ممّن؟

- لا أدري.

- بدأتُ أضجر من هذه المحادثة يا مارتين.

- تخيّلْ ضجري إذن.

جلس غراندس قبالتي مجدّدًا، وصوّب إليّ ابتسامة متسامحة.

- هل تظنّ أنّ لي شأنًا بموت ذلك الرجل؟

- لا يا مارتين. أستبعد ذلك. لكنّي أظنّ بأنّك لا تصارحني بالحقيقة، وأنّ وفاة ذلك البائس المسكين لها شأنٌ بزيارتك له. كزيارتك لباريدو وإسكوبياس.

- ما الذي يدفعك إلى هذا الظنّ؟

- سمِّهِ حدسًا، إن شئتَ.

- سبق وأطلعتكَ على ما أعرفه.

- سبق وحذّرتكَ بألاّ تعاملني كأحمق يا مارتين. ماركوس وكاستيلو في الخارج، متلّهفان لأصغر مناسبةٍ للدردشة معك على انفراد. هل هذا ما تبتغيه؟

- لا.

- ساعدْني على إخراجك من هذه المحنة إذن، كي تعود إلى البيت قبل أن يبرد فراشك.

- ماذا تودّ أن تعرف؟

- الحقيقة، مثلاً.

دفعتُ الكرسيّ إلى الخلف ونهضتُ خائر القوى، بعد أن نخر البرد عظامي وأوشك رأسي على الانفجار. أخذتُ بالدوران مشيًا حول الطاولة، أبصقُ الكلماتِ كما لو كانت حجارة.

- الحقيقة؟ سأقول لك الحقيقة. الحقيقة أنّي لا أعلم ما هي الحقيقة. لا أعلم ماذا أقصّ عليك. لا أعلم لماذا ذهبتُ إلى سالڤادور، وإلى روريس. لا أعلم عمّا أبحث، ولا أعلم ما الذي يحدث لي. هذه هي الحقيقة.

كان غراندس يرمقني حانقًا.

- كفّ عن الدوران واجلس. كدتَ تصيبني بالدوار.

- لا أرغب في الجلوس.

- مارتين، لا يوجد أيّ فرق بين العدم وكلامك هذا. كلّ ما أطلبه منك أن تساعدني كي أساعدك.

- ليس بمقدورك أن تساعدني، حتّى لو أردت.

- ومن بمقدوره أن يساعدك إذن؟

هويتُ على الكرسيّ مجدّدًا.

- لا أدري... - غمغمتُ.

تراءت لي لمحةُ شفقةٍ، أو ربّما الإرهاق، في عينيه.

- اسمع يا مارتين. سنبدأ من البداية. فلنستخدم طريقتك. ارو لي حكاية. اسردها من البداية.

نظرتُ إليه صامتًا.

- مارتين، إيّاكَ والظنّ بأنّي لن أقوم بما يمليه عليّ واجبي فقط لأنّي أستلطفك.

- افعل ما عليك فعله. ناد على هانسل وغرتل إن أردت.

في تلك اللحظة، لاحظتُ بصيص ارتباكٍ يلوح على وجهه. دنا صوت خطواتٍ في الممرّ، وأخبرني حدسي بأنّ المحقّق لم يكن ينتظر أحدًا. تناهت إلى مسامعنا بعض الهمهمات، فاتجه غراندس إلى الباب غاضبًا. طرق أحدهم الباب ثلاث مرّات، بجمع يده، ففتحه ماركوس الذي كان حارسًا. دخل رجلٌ، يرتدي بذلة أنيقة ومعطفًا من وبر الجَمل. نظر حوله مشمئزًا ثمّ وجّه إليّ ابتسامة رهيفة، بينما كان ينزع قفّازيه بعناية بالغة. صُدمتُ به: المحامي ڤاليرا.

- هل أنت بخير يا سيّد مارتين؟ - سأل.

أومأتُ بنعم. انفرد المحامي بالمحقّق في إحدى الزوايا، وسمعتُهما يتهامسان. كان غراندس يحرّك يديه، بعصبيّة مكتومة، فيما يرمقه ڤاليرا بفتور وهو يهزّ رأسه. دامت المحادثة قرابة الدقيقة؛ حتّى تنهّد غراندس وهوت ذراعاه.

- خذ شالك يا سيّد مارتين كي ننصرف - قال ڤاليرا - فالمحقّق أنهى ما عنده من أسئلة.

كان غراندس، في الخلف، يعضّ شفته، مُبرقًا بنظرة صاعقة نحو ماركوس، فأعرب الأخير عن عجزه. أمسك ڤاليرا ذراعي، دون أن تفارقه ابتسامته العذبة والخبيرة، وأخرجني من الزنزانة.

- أتمنّى أنّك وجدتَ معاملةً حسنة من قِبل هؤلاء يا سيّد مارتين.

- أجل - تلعثمتُ.

- لحظة - هتف غراندس خلف ظهرنا.

توقّف ڤاليرا وأشار إليّ بالتزام الصمت، واستدار.

- أيّ مشكلة تواجهك مع السيّد مارتين، بإمكانك المجيء إلى مكتبنا، حيث سنهتمّ بالأمر بكلّ سرور. حتّى ذلك الحين، وفي ظلّ انعدام أيّ سببٍ يدفعك لإيقاف السيّد مارتين في هذه المكاتب، سأصطحبه معي اليوم، متمنيًّا لك ليلة سعيدة. كما أشكرك على معاملتك المحترمة، والتي سأنقلها برحابة صدر إلى مدرائك، لاسيّما المحقّق القائد سالغادو، فهو مثلك، صديقٌ عزيز لي.

حاول العميل ماركوس الاقتراب إلينا، فصدّه المحقّق. تبادلتُ، وإيّاه، نظرة أخيرة، قبل أن يمسك ڤاليرا بذراعي مجددًا، ويسحبني بعيدًا.

- لا تتوقّف! - غمغم.

اجتزنا الممرّ الطويل، المحفوف بأضواء واهنة، حتّى السلّم الذي أفضى بنا إلى ممرّ طويل آخر، لنصل إلى بابٍ صغير يشرف على بهو الطابق الأرضيّ، ثم المَخرج، حيث كانت سيارة مرسيدس - بنز تنتظرنا متأهّبة، والسائق الذي هبّ ليفتح أبوابها ما إن رأى قدوم ڤاليرا. ركبتُ في المقعد الخلفيّ، ورتّبتُ جلستي. كانت السيارة مجهّزة بسخّان حرارة أدفأ المقاعد الجلديّة. جلس ڤاليرا بجانبي، ودقّ على الزجاج الفاصل بيننا وبين السائق، آمرًا إيّاه بالانطلاق. وحين

تحرّكت السيارة، ودخلت الشارع العامّ في حيّ لايتانا، ابتسم المحامي في وجهي، كأنّ شيئًا لم يكن، وأشار إلى جلاء الضباب الكثيف عند مرورنا، كأنّنا نتوغّل في البراري الموحشة.

- يا لها من ليلة مشؤومة، أليس كذلك؟ - سأل، كما لو أنّنا التقينا صدفةً.

- أين نذهب؟

- أوصلك إلى بيتك، بالطبع. إلاّ إذا كنت تفضّل النزول في فندق أو...

- لا؛ هذا يناسبني.

كانت السيّارة تنزلق بانسياب على منحدر شارع لايتانا، وڤاليرا يرنو إلى الشوارع المقفرة، بنظرة حياديّة.

- ماذا كنت تفعل حضرتك هناك؟ - سألته أخيرًا.

- وما الذي بدا لك؟ كنت أمثّلك، وأدافع عن مصالحك.

- قل للسائق أن يتوقّف.

تقصّى السائق نظرة ڤاليرا في المرآة العاكسة. فهزّ المحامي رأسه، وأشار إليه بالمواصلة.

- لا تكن غبيًّا يا سيّد مارتين. الساعة متأخّرة والبرد قارس. سأرافقك إلى البيت.

- أفضّل الذهاب سيرًا على الأقدام.

- كن منطقيًّا.

- من أرسلك؟

تنهّد ڤاليرا وحكّ عينيه.

- لديك أصدقاء طيّبون يا مارتين. ومن المهمّ في هذ الحياة أن يكون لدى المرء خير أصدقاء، لاسيّما إذا عرف كيف يحافظ عليهم - قال - كما من المهمّ أن يحرص على تلافي السير في طريق خاطئة.

- وهل تلك الطريق تمرّ من منزل مارلاسكا، رقم 13 شارع ڤالڤيدريرا؟

ابتسم المحامي، نافد الصبر، كأنّه يؤنّب طفلاً مشاكسًا عن طيب خاطر.

- سيّد مارتين، صدّقني إذا قلتُ إنّ من الأفضل لك أن تبتعد عن ذلك المنزل، وتلك القصّة. خذ منّي هذه النصيحة فقط.

انعطف السائق إلى شارع كولون، ودخل شارع بورن من حيّ كوميرثو. كانت صناديق السمك واللحوم، والجليد والبهار، قد اكتسحت ساحة السوق الكبيرة. وفي مرورنا، كان أربعة غلمان يُنزِلون عجلاً مذبوحًا، مخلّفًا

سيلَ دماءٍ وبخارًا يتصاعد في الأثير.

- تسكن في حيٍّ رائع، ذي مناظر أخّاذة، يا سيّد مارتين.

توقّف السائق عند أعتاب شارع فلاساديرس، وترجّل ليفتح لنا الباب. فنزل المحامي معي.

- سأرافقك حتّى البوابة - قال.

- سيظنّون أنّنا عشيقان.

دخلنا في ظلال زقاقٍ باتجاه بيتي. وصلنا إلى البوّابة، فمدّ المحامي يده باحترام حِرَفِيّ.

- شكرًا لأنّك أخرجتني من ذلك المكان القميء.

- لا تشكرني أنا - أجاب ڤاليرا، وهو يُخرِج ظرفًا من جيب معطفه الداخليّ.

وسرعان ما انتبهتُ لدمغة الملاك على الشمع، تحت ضوء الإنارة الخافتة، المعلّقة على الجدار، فوق رأسينا. أعطاني ڤاليرا الظرف، وأدّى تحية لبقة، ثم ابتعد عائدًا إلى السيّارة التي كانت بانتظاره. فتحتُ البوّابة، وصعدتُ السلالم حتى المستراح. واتّجهتُ مباشرة إلى المكتب، ووضعتُ الظرف على المنضدة. فتحتُه وأخرجتُ الرسالة التي تحمل في ثناياها خطّ ناشري.

صديقي مارتين

أتمنّى، وآمل، أنك تقرأ هذه البطاقة بمزاج معتدل وصحّة سليمة. حدث أنّي وصلتُ إلى المدينة، ويسعدني انتهاز فرصة اللقاء بك يوم الجمعة القادم، عند السابعة مساء، في صالة بلياردو نادي إكويستري، كي نناقش مستجدّات مشروعنا.

حتّى ذلك الحين، تقبّلْ أطيب الأمنيّات من صديقك

أندرياس كوريلي

طويتُ الورقة وأعدتُها إلى الظرف بعناية. أشعلتُ عود ثقاب، وأمسكتُ بإحدى زواياها، وقرّبتُها إلى اللهب. نظرتُ إليها تحترق، حتّى اشتعل الشمع بدموعٍ قرمزيّة تساقطت على المنضدة، وسالت على أصابعي التي غطّاها الرماد.

- فلتذهب إلى الجحيم - غمغمتُ، فيما الليلُ، شديد الحلكة، يذوب خلف زجاج النافذة.

36

انتظرتُ فجرًا لا يلوح، جالسًا على أريكة المكتب، حتّى استبدّ بي السخط فخرجتُ إلى الطريق متحدّيًا تحذيرات المحامي ڤاليرا. اجتاحني ذلك البرد اللاسع، الذي يسبق الفجر في فصل الشتاء. وحين قطعتُ شارع بورن، بدا لي أنّي سمعتُ خطواتٍ تتعقّبني. التفتُّ بغتةً، فما وجدتُ سوى غلمان السوق، يفرّغون العربات، فتابعتُ طريقي، وصولاً إلى ساحة بالاثيو، حيث تراءت لي أضواء أوّل ترام، ينتظر بين الضباب الخفيف المتصاعد من مياه المرفأ. وكان ألسنة النور اللازورديّ تتراقص كالأفاعي في المدى. ركبتُ الترام، وجلستُ على مقعد في الأمام. قطع لي التذكرةَ المراقب نفسه في المرّة السابقة. وصعد جمعٌ من الناس، شيئًا فشيئًا، وكان كلّهم وحدانيّين. بعد عدّة دقائق، انطلق الترام وبدأت الرحلة، بينما تمتدّ في السماء شبكةٌ من شعيراتٍ حمراء بين الغيوم السوداء. لم يكن من داعٍ ليكون المرء شاعرًا، أو حكيمًا، ليدرك ما يخبّئه ذلك اليوم من شؤم.

حين وصلنا إلى ساريا، كان الصبح قد طلع بنورٍ رماديّ كئيب يفرّغ الألوان من مضمونها. صعدتُ أزقّة الحيّ المقفرة عند سفح التلّ. وكنت أسمع وقعًا للخطى، بين الفينة والأخرى، خلف ظهري، لكنّي لم أجد أحدًا كلّما توقفتُ والتفتُّ. في النهاية، وصلتُ إلى مدخل الزقاق الذي يفضي إلى منزل مارلاسكا، وتهالكتِ الأوراقُ اليابسة تحت قدميّ، وأنا أزيحها عن طريقي. قطعتُ الباحة ببطء، وصعدتُ السلالم الصغيرة حتّى الباب الرئيس، وأنا أتلصّص من نوافذ الواجهة الكبيرة. طرقتُ الباب ثلاث مرّات، وتراجعتُ عدّة خطوات. انتظرتُ دقيقة دون الحصول على أيّ ردّ فطرقتُ من جديد. وكنت أسمع الصدى يهيم في أرجاء المنزل.

- صباح الخير! - هتفتُ.

بدا أنّ الغابة، المحيطة بالمنزل، تمتصّ صدى صوتي. درتُ حول المبنى حتّى وصلتُ إلى جهة المسبح، ثمّ اتّجهتُ إلى الشرفة الزجاجيّة. كانت النوافذ مظلّلة بالدفّات الخشبيّة التي تحول دون النظر إلى الداخل. أمّا النافذة المجاورة للباب الزجاجيّ، المؤدّي إلى الشرفة، كانت شبه مفتوحة. رأيتُ مقبض الباب، من خلف الزجاج. فمددتُ ذراعي من النافذة، وحرّكتُه. فانفتح الباب مُحدِثًا صريرًا معدنيًّا. نظرتُ إلى الخلف مرّة أخرى، لأتيقّن من عدم وجود أحد؛ ودخلتُ.

كلّما اعتادت عيناي على الظلام، ميّزتُ أركان الصالة. ذهبتُ إلى النوافذ الكبيرة وفتحتُ الدفّات قليلاً، كي تتسنّى لي الاستعانة بالنور. فتغلغلت شفرات الضوء لتنفض الظلام عن زوايا الصالة.

- هل من أحد هنا؟ - سألتُ.

سمعتُ صدى صوتي يغرق في أعماق المنزل، مثل عملة نقديّة تسقط في بئرٍ لا قرار لها. ذهبتُ إلى أقصى الصالة، حيث القوس الخشبيّ المزخرف يشرف على ممرّ مظلّم، وثمّة لوحاتٌ بالكاد تراها العين، على جدرانه الجانبيّة. وفي الطرف الآخر، ينفتح صالون كبيرٌ مستديرٌ، أرضيّته مرصّعة بالموزاييك، وزجاجه المعشّق يوحي بوجه ملاكٍ أبيض ممدود الذراع، ذي أصابعٍ من نار. وكانت هناك عتباتٌ حجريّة تصعد لولبيًّا لتطوّق المكان. توقّفتُ عند حدود الحديقة وناديتُ مجدّدًا.

- صباح الخير! سيّدة مارلاسكا؟

كان الصمت يطبق على أرجاء البيت، والصدى الكئيب يسرق كلماتي. صعدتُ العتبات حتّى الطابق الأول، وتوقّفتُ عند البهو المطلّ على الصالون والزجاج. وهناك، رأيتُ آثار خطواتي على بساطٍ من الغبار يجثم فوق الأرضيّة. وفضلاً عن آثاري، استطعتُ تمييز ما يشبه المسار على الغبار، مكوّنًا من سكّتين متوازيتين بمسافة شبرين أو ثلاثة، وتحيط بهما آثارٌ حذاءٍ كبير. بقيتُ أتأمّل تلك الدلائل المبهمة، مشتّت الذهن، حتّى فككتُ لغزها. مسار كرسيّ متحرّك، يدفعه أحدٌ ما.

شعرتُ بصوتٍ ما خلف ظهري، فاستدرتُ. ثمّة بابٌ مواربٌ في الطرف الآخر للممرّ، يتأرجح متمهّلاً، يجري منه تيّارُ هواءٍ بارد. دنوتُ منه ببطء، وأنا ألقي نظرة إلى الغرف على الجانبين. كانت عبارة عن غرف نوم، أثاثها محجوبٌ بالستائر والأغطية. والنوافذ المغلقة والظلام الكثيف يوحيان بأنّ الغرف خرجتْ عن الاستخدام منذ أمدٍ بعيد؛ ما عدا غرفة أوسع من الأخريات، غرفة نوم زوجيّة. دخلتُ إليها، فشممتُ ذلك المزيج المركّب من العطور والأمراض، الذي يرافق الأشخاص المسنّين عادةً. ففكّرتُ أنّها غرفة الأرملة مارلاسكا، لكنّي لم أعثر على أيّ أثر يثبت ذلك.

كان السرير مرتبًّا بعناية. وقبالته، ثمّة دُرجٌ تعتليه مجموعة من الصور المؤطّرة. وكانت جميعها، بلا استثناء، تُظهِر طفلاً مبتهجًا، ذا شعرٍ فاتح اللون. إسماعيل مارلاسكا. كان في بعضها، بصحبة أمّه وأطفال آخرين. لا وجود لدييغو مارلاسكا في أيٍّ من تلك الصور.

جفلتُ من صوت أحد الأبواب في الممرّ مجدّدًا، فخرجتُ من الغرفة، تاركًا الصور كما وجدتُها. الباب في الطرف الآخر من الممرّ ما يزال يتأرجح. اتجهتُ نحوه، وتوقّفتُ برهةً قبل الدخول. التقطتُ نفسًا عميقًا ودخلتُ.

كلّ شيء ناصع البياض. السقف والجدران مطليّة بالأبيض. الستائر الحريريّة بيضاء. السرير الصغير مغطىً بنسيج أبيض. البساط أبيض. الرفوف والخزانات بيضاء. أعشى ذلك البياض المبهر أبصاري، للوهلة الأولى، بعد أن اعتدتُ على الظلام المهيمن على المنزل. بدت الغرفة مشهدًا من رؤية مناميّة، أو خرافةٍ خياليّة. على الرفوف، لعبُ أطفال وكتبُ حكايات. وهنالك دميةُ مهرّجٍ هزليّة، مصنّعة من الخزف، كبيرة الحجم، جالسة خلف دُرجٍ وتنظر إلى نفسها في مرآة. وفي السقف، عُلّقتْ لعبةٌ تبرز منها أوتارٌ كثيرة تحمل طيورًا بيضاء. انطباعي الأوّل أنّها غرفة طفل مدلّل، إسماعيل مارلاسكا، لكنّ أجواءها الضاغطة تجعلها كحجرة الموتى.

جلستُ على طرف السرير، والتقطتُ أنفاسي. وحينئذ، لاحظتُ وجود شيء خارج عن المألوف. بدءًا من الرائحة. شممتُ نتانةً مقيتة تفوح في الهواء. نهضتُ ونظرتُ حولي. على أحد الأدراج، ثمّة صحنٌ خزفيّ يحمل شمعة سوداء، وقد ذابت ساقها لتشكّل عناقيد دموعٍ داكنة. استدرتُ. بدت الرائحة الكريهة آتية من مسند الفراش. فتحتُ صندوق الدُرج فوجدتُ صليبًا مكسّرًا إلى ثلاثة أجزاء. وكنت أشعر بدنوّي من مصدر تلك الرائحة. جلتُ مرّتين في الغرفة، ولم أعثر على شيءٍ يدلّني. فرأيتُ شيئًا ما تحت السرير، حينئذ. جثوتُ على ركبتيّ ونظرتُ إلى أسفل الفراش. هناك علبة من الصفيح، كتلك التي يحفظ فيها الصغار كنوز طفولتهم. أخرجتُها ووضعتُها على السرير، حتّى غدت الرائحة أشدّ وطأة وانبعاثًا. تجاهلتُ اشمئزازي وفتحتُ العلبة. فوجدتُ حمامة بيضاء، وإبرةً تخترق قلبها. تراجعتُ إلى الخلف، مُطبقًا أنفي وفمي بيديّ، حتّى وصلتُ إلى الممرّ. كانت عينا المهرّج، وابتسامته الذئبيّة، تتبعني في المرآة. فعدتُ مسرعًا نحو العتبات الحجريّة، وتدحرجتُ عليها، بحثًا عن الممرّ الذي يفضي إلى صالة القراءة، والباب الذي تمكّنتُ من فتحه في الحديقة. وفي لحظةٍ ما، ظننتُ أنّي تائه، وأنّ المنزل حيٌّ وقادرٌ على تغيير صالاته وممرّاته كيفما طاب له، ولا يريد أن يتركني أنجو بجِلدي. في النهاية، رأيتُ الشرفة الزجاجيّة وهرعتُ نحو الباب. وحينها فقط، بينما كنت أصارع القفل، دوّتْ تلك الضحكة الخبيثة خلف ظهري، ففهمتُ أنّي لم أكن بمفردي في المنزل. التفتُّ بغتةً، فتراءى لي ظلّ جسد قاتمٍ، يتربّص بي من آخر الممرّ، ويحمل بقبضته أداةً حادّة. سكّين.

انحلّ القفل بين يديّ، ودفعتُ الباب بقوّة. فانزلقتُ على البلاط الرخاميّ المحيط بالمسبح، متدحرجًا حتّى الحافة، ما أرغمني على شمّ نتانة المياه الآسنة. ألقيتُ نظرة خاطفة إلى ظلام قاع المسبح. فإذا بكوّةٍ تتفتّح بين الغمام، لترسل ضوءَ الشمس إلى قعر المياه المتهالك. لم تدم الرؤيةُ لحظةً بالكاد. الكرسيّ المتحرّك كان واقعًا على وجهه. تسرّب النور نحو الجزء الأعمق من المسبح، وكان هناك حيث وجدتُها. بدت لي جثّة، ملفوفةً بكفنٍ رثّ أبيض اللون، عند أحد الجوانب. ظننتُ أنّها من دمى المحلاّت، إذ جمّدت المياهُ شفتيها الحمراوين، وعينيها اللامعتين كالياقوت. كان شعرها الأحمر يتموّج في المياه الكدرة، وباتت بشرتها زرقاء. الأرملة مارلاسكا. وسرعان ما انغلقت كوّة السماء ثانيةً، وعادت المياه كما كانت مرآة داكنة، تمكّنتُ فيها من رؤية وجهي وجسدٍ يتشكّل خلفي عند عتبة الشرفة، والسكّين بيده. فانتفضتُ ورحت أركض نحو الحديقة، مجتازًا الشجيرات التي تخدش وجهي وأطرافي بأغصانها، حتّى بلغتُ البوّابة الحديديّة وخرجتُ إلى الزقاق. وتابعتُ الركض، بلا هوادة، إلى أن وصلتُ شارع ڤالڤيدريرا. فاستدرتُ مقطوع الأنفاس، لأرى كيف يحجب الزقاقُ منزلَ مارلاسكا مجدّدًا، ويخفيه عن مرأى العالم.

37

ركبتُ الترام نفسه للعودة إلى البيت، وقطعتُ المدينة التي تطبق عليها الظلمة تدريجيًّا، تحت ريحٍ زمهرير تبعثر الأوراق اليابسة في الطرقات. وعندما نزلتُ في ساحة بالاثيو، سمعتُ اثنين من البحّارين، القادمين للتوّ من أرصفة المرفأ، يتحدّثان عن إعصارٍ آتٍ من جهة البحر، سيعصف بالمدينة قبل المساء. رفعتُ نظري فرأيتُ السماء تتهيّأ للاحتجاب خلف السُّحب الحمراء التي تتفشّى فوق البحر كالدم المراق. وكان الناس في الشوارع، عند حيّ بورن، يتعاونون في إحكام الأبواب والنوافذ، ويغلق الباعة محلاّتهم قبل المعتاد، ويخرج الأطفال إلى الطرقات تحدّيًا للريح بأذرعهم المبسوطة، ويضحكون كلّما جلجل الرعد في البعيد. أعمدة الإنارة ترتجف، ألسنة البرق تصفع أوجه المباني بنورٍ أبيض. تعجّلتُ في بلوغ بوّابة بيت البرج، وصعدتُ السلالم بسرعةٍ وانزعاج. إذ كان الإعصار يقرع الطبول من خلف الجدران.

وكان البرد في البيت شديدًا، حتّى إنّي عندما دخلتُ الممرّ كدتُ أصطدم بجليد أنفاسي. ذهبتُ مباشرة إلى الغرفة المزوّدة بمجمرٍ عتيق، يعمل على الفحم، لم أستخدمه أكثر من خمس مرّات طوال إقامتي هناك. أوقدتُه بحزمةٍ من الجرائد القديمة والجافّة. ثمّ أشعلتُ موقد الصالة أيضًا، وجلستُ على الأرض قبالة اللهب. كانت يداي ترتعشان، ربّما بسبب البرد أو بسبب الخوف. استعدتُ قليلاً من الدفء، وأنا أتأمّل اشتباك الصواعق البيضاء في السماء.

لم تهطل الأمطار حتّى المساء، وتساقطت قطراتها على حين غرّة كالسياط الناقمة، وسرعان ما ردمتِ الليلَ بحلكة كثيفة؛ وفاضت على إثرها الأسطح والأزقّة وهي ترزح تحت ذلك الحجاب الأسود الذي يجلد الزجاج والجدران بشدّة. عمّ الدفء أرجاء البيت شيئًا فشيئًا، بين مجمر الفحم وموقد الحطب في الصالة، ورغم هذا ما زلت أشعر بالبرد. نهضتُ متجهًا إلى غرفة النوم، بحثًا عمّا أتدثّر به. فتحتُ الخزانة ورحت أفتّش في الدُرجين السفليّين. ما تزال العلبة الخشبيّة هناك، مخبّأة في العمق. أخذتُها ووضعتُها على السرير.

فتحتُها، وتأمّلت مسدّس والدي القديم، ذكراه الوحيدة التي بقيت لديّ. أمسكتُه بقبضتي، مداعبًا الزناد بسبّابتي. فتحتُ البكرة وعبّأتها بستّ خراطيش، من حافظة الطلقات الموجودة في قعر العلبة الخشبيّة. تركتُ العلبة على الدُرج وحملتُ المسدّس واللحاف إلى الصالة. واضّطجعتُ هناك على الديوان، متسربلاً باللحاف، والمسدّس على صدري. هامت نظراتي في لجّة الإعصار خلف النوافذ، ودقّاتُ الساعة فوق رفّ الموقد ترنّ في مسامعي. لم أكن أحتاج إلى النظر إليها لأعرف أنّ أقلّ من نصف ساعة تفصلني عن لقاء ربّ العمل، في صالة بليياردو نادي إكويستري.

أغمضتُ عينيّ، وتخيّلتُه يسير في طرقات المدينة المقفرة التي أغرقها المطر. تخيّلتُه جالسًا في حجرة سيّارته الخلفيّة، وعيناه الوسيعتان تتلألآن تحت الظلام، وشارة الملاك الفضيّ تعتلي غطاء الرولز رويز فتشقّ غمار الزوابع وتجتاز الشوارع. تخيّلتُه متسمّرًا كتمثالٍ مقطوع الأنفاس، لا يبادر بأيّ تعبير أو ابتسامة. بعد قليل، سمعتُ صوت اضطرام الحطب، وطرق المطر على الزجاج؛ فغفوتُ على يقظة السلاح بين يديّ، ويقينٍ بالتخلّف عن ذاك الموعد.

فتحتُ عينيّ بعد منتصف الليل بقليل. النيران في الموقد تستحيل رمادًا، والصالة غارقة في ظلامٍ سرابيّ، تتخلّله زرقة اللهب المومض من الجمر المحتضر. ما تزال الأمطار تنهمر في الخارج، وما زال المسدس بين يديّ. بقيتُ هناك مستلقيًا عدّة دقائق، لا يرفّ لي رمش. وأحسستُ بوجود أحد خلف الباب قبل أن يطرقه.

أبعدتُ اللحاف عني ونهضتُ. سمعتُ الطرق مجدّدًا، براجم يدٍ ملحّة. وقفتُ والسلاح بقبضتي، وذهبتُ إلى الممر. توالت الطرقات. خطوتُ نحو الباب وتوقّفتُ. تخيّلتُه يبتسم عند المستراح، ووسام الملاك على عروة سترته يلمع في الظلام. هيّأتُ القادح. طرقتْ تلك اليد بابي ثانيةً. وحاولتُ أن أشعل الضوء، لكنّ العاصفة قطعت التيّار الكهربائيّ، فتابعتُ تقدّمي. أردتُ التجسّس من عين الباب، لكنّي لم أجرؤ. فحبستُ أنفاسي، رابط الجأش، مسدّدًا الرمي نحو الباب.

- ارحل من هنا - صرختُ بصوتٍ يتلاطم فيه الإعياءُ.

وحينها، سمعتُ ذلك النحيب من الجانب الآخر، فأخفضتُ المسدس. فتحتُ الباب فوجدتُها هناك، في عهدة الظلام. كانت مبللة الثياب كليًّا، وأطرافها ترتجف، وجلدها يكاد يتجمّد. وما إن رأتني حتّى كادت تسقط بين ذراعيّ. فساعدتُها، ولم أجد ما يعبّر عن دهشتي، فعانقتُها بقوّة. فابتسمت في وجهي، ابتسامةً واهنة. داعبتُ وجنتها بيدي، فقبّلتْها وهي تغمض عينيها.

- سامحني - غمغمت كريستينا.

فتحتْ عينيها ووجّهتْ إليّ تلك النظرة الجريحة والممزّقة، التي كانت ستلاحقني حتّى الجحيم. فابتسمتُ في وجهها.

- أهلاً بكِ في البيت.

38

عرّيتُها تحت ضوء إحدى الشموع. نزعتُ حذاءها المبلل. جفّفتُ جسمها وشعرها بمنشفة نظيفة. كانت ما تزال ترتجف بردًا حين ساعدتها بالاستلقاء على السرير، واستلقيتُ بجانبها وعانقتها كي أنقل إليها الدفء. وبقينا هكذا طويلاً، في صمتٍ، نصغي إلى زخّات المطر. أحسستُ بجسمها يدفأ بين يديّ تدريجيًّا، وباتت تتنفّس بعمق. خلتُ أنّها قد غفيتْ، حتّى سمعتُ صوتها تحت الظلام.

- صديقتك جاءت لزيارتي.

- إيزابيلا.

- باحت لي بأنّها أخفتْ عنك رسائلي، وأنّها لم تتقصّد إيذاءك. كانت تظنّ أنّها تفعل ذلك لمصلحتك، وربّما كانت محقّة.

انحنيتُ إليها وبحثتُ عن عينيها. داعبتُ شفتيها فارتسمتْ على وجهها ابتسامتها الواهنة.

- حسِبتُ أنّك نسيتني - قالت.

- حاولتُ.

كان وجهها ينضح بالإنهاك. تجعّدت بشرتها بالخطوط، بعد شهورٍ من الإرهاق، واتسمت نظراتها بالقهر والغياب.

- لم نعد شبّانًا - قالت وهي تقرأ أفكاري.

- ومتى كنّا شبّانًا، أنا وأنت؟

أزحتُ اللحاف وتأمّلتُ جسمها العاري على بياض غطاء السرير. تلمّستُ عنقها وصدرها برؤوس أصابعي، ورسمتُ دوائر خفيّةً على بطنها، وتحسّستُ حوافّ عظامها الناتئة عند خصرها. وتركتُ أصابعي تداعب نعومة الزغب بين فخذيها.

كانت كريستينا تراقبني بصمتٍ، وابتسامةٍ مهشّمة، وعينين مواربتين.

- ماذا نفعل؟ - سألتني.

اقتربتُ منها وقبّلتُ شفتيها. فعانقتني، وبقينا هكذا فيما يخفت ضوء الشمعة رويدًا رويدًا.

- سيخطر في بالنا شيءٌ ما - غمغمتْ.

بعد الفجر بقليل، استيقظتُ لأجد نفسي وحيدًا في السرير. نهضتُ جزعًا، خشيتُ أن تكون كريستينا قد رحلت مجددًا في جنح الظلام. ثمّ رأيتُ أنّ ثيابها وحذاءها ما تزال على الكرسيّ فتنفّستُ الصعداء. وجدتُها في الصالة، مدثّرة باللحاف، وجالسة على الأرض قبالة الموقد، حيث كان جمر الحطب يومض بلهيب أزرق. جلستُ بجوارها وقبّلتُ عنقها.

- لم أتمكّن من النوم - قالتْ وهي تركّز نظرها إلى النار.

- كان بإمكانك أن توقظيني.

- لم أشأ إزعاجك. بدا لي كأنّك غفوتَ بعد أرقٍ دام شهورًا. فرحتُ أستكشف منزلك.

- وماذا وجدتِ؟

- هذا البيت مسحورٌ بلعنة التعاسة - قالت - لماذا لا تضرم فيه النيران؟

- وأين نسكن أنا وأنت إذن؟

- نحن معًا؟

- لم لا؟

- كنت أظنّ أنّك كففتَ عن تأليف الحكايات الخرافيّة.

- الحكايات الخرافيّة مثل امتطاء الدراجة. متى تعلّمها المرء...

حدّقت إليّ كريستينا طويلاً.

- ما الذي يوجد في الغرفة في آخِر الممرّ؟

- لا شيء. أغراض قديمة.

- إنّها مقفلة.

- هل تودّين رؤيتها؟

هزّت رأسها.

- هذا مجرّد بيت يا كريستينا. كومة من الحجارة والذكريات. لا أكثر.

أومأت كريستينا، معربةً عن عدم اقتناعها.

- لماذا لا نرحل من هنا؟ - سألتني.

- إلى أين؟

- بعيدًا.

لم أستطع كتمان ابتسامتي، لكنّها لم تتفاعل معي.

- إلى أين؟ - سألتُ مجددًا.

- حيث لا يعرفنا أحدٌ، حيث لا يهتمّ أحدٌ لمعرفة ذلك.

- أهذا مرادكِ؟

- ألستَ تودّ الشيء نفسه؟

تردّدتُ للوهلة الأولى.

- وماذا عن پيدرو؟ - سألتها، والكلمات تختنق في صوتي.

رمت اللحاف بحدّة عن كتفيها، وتأجّجتْ نظرة التحدّي في عينيها.

- وهل أنت بحاجة لإذنٍ منه كي تطارحني الغرام؟

عضضتُ لساني. كانت كريستينا ترمقني بنظرةٍ تثور فيها الدموع.

- المعذرة - غمغمتْ - لم يكن يجدر بي التفوّه بهذا.

حملتُ اللحاف عن الأرض، وحاولتُ أن أغطّيها به، لكنّها تشنّجتْ وصدّتني.

- پيدرو هجرني - قالت بصوت مشرّخ - البارحة، نزل في فندق ريتز، لينتظر رحيلي. قال لي إنّه كان متيقّنًا من أنّي لا أحبّه، وإنّي تزوّجتُه امتنانًا. قال لي إنّه لا يريد شفقة منّي، وإنّي أؤذيه في كلّ يومٍ أقضّيه بجانبه وأنا أتظاهر بحبّي له. قال لي إنّه سيظلّ يحبّني مهما فعلتُ، ولأجل هذا لم يعد يريد أن يراني.

كانت يداها ترتجفان.

- لقد أحبّني من كلّ قلبه، بينما لم أتمكّن إلاّ من جعله تعيسًا - غمغمتْ.

أغمضتْ عينيها، وطغت على وجهها تكشيرة ألم. وبعد لحظة، أطلقتْ أنّة عميقة، وأخذت تلطم وجهها وجسمها، بكلتا يديها. فارتميتُ عليها، وشددتُ على ذراعيها كي أهدّئ من روعها. كانت كريستينا تصرخ وهي تحاول الإفلات مني. فضغطتُها إلى الأرض، موثِقًا يديها بيديّ. فاستسلمتْ شيئًا فشيئًا، خائرة القوى، واحمرّت عيناها، وتلوّث وجهها بالدمع واللعاب. بقينا بتلك الوضعيّة قرابة نصف ساعة، حتّى شعرتُ بأنّ جسمها يرتخي ويذوب في سكينة عميقة. غطّيتُها باللحاف، وعانقتُها من الخلف مخفيًا عنها دموعي.

- سنرحل بعيدًا - همستُ في أذنها، غير واثقٍ من أنّها تسمعني أو تفهمني - سنرحل بعيدًا، حيث لا يعرفنا أحدٌ، حيث لا يهتمّ أحدٌ لمعرفة ذلك. أعدكِ.

التفتت كريستينا ونظرت إليّ. كان الهوان ينسكب من وجهها، كما لو أنّ أحدهم حطّم روحها بالمطرقة. عانقتُها بشدّة وقبّلتُ جبينها. وما زالت الأمطار تضرب الزجاج، بينما كنّا أسيرين في ذاك الفجر الكئيب، ذي الضوء

الشاحب؛ ففكّرتُ للمرّة الأولى بأنّنا نغرق.

39

قررتُ التخلّي عن العمل، عند ذلك الناشر، في صباح اليوم نفسه. انتهزتُ نوم كريستينا لأصعد إلى المكتب، حيث أخفيتُ الملفّ، الذي يحوي الصفحات والملاحظات والمدوّنات، في صندوقٍ قديم مسنود إلى الحائط. الفكرة الأولى التي راودتني، أن أضرم فيه النار لكنّي لم أتحلَّ بالشجاعة الكافية. إذ لطالما اعتبرتُ الصفحاتِ التي أخلّفها قطعةً مني. الحياة ترزق الناس العاديّين أولادًا، فيما ننجب نحن الأدباء كتبًا. قدَرُنا أن نفني حياتنا في الأدب، رغم قلّة الممتنّين لنا على هذا التفاني. قدَرُنا أن نموت في صفحات كتبنا، وغالبًا ما تقتلنا كتبُنا نفسها.

لا شكّ أنّ أكثر الكائنات الورقيّة والحبريّة عبثيّة، من بين تلك التي أنجبتُها إلى هذه الحياة البائسة، كانت الرواية التي عملتُ عليها كمرتزقٍ لوعود ذلك الناشر. إذ لم تكن صفحاتها تستحقّ شيئًا سوى رميها في النار. بيد أنّها كانت فلذة كبدي بالمحصّلة، فعزّ عليّ أن أحرقها. تركتُها في قاع ذلك الصندوق، وخرجتُ من المكتب مغمومًا، كأنّي أشعر بالعار من خِسّتي، ومن إحساسي الشجيّ بالأبوّة التي نقلها إليّ ذلك المخطوط الغامض. وقد يُعجَب الناشرُ بسخرية الموقف. أمّا أنا، ببساطة، كان الغثيان يطوّقني.

ظلّت كريستينا نائمة إلى ما بعد منتصف النهار. فاغتنمتُ الفرصة للخروج لشراء الحليب والخبز والجبن، من محلٍ قرب السوق. كان المطر قد توقّف أخيرًا، لكنّ الشوارع ما تزال مليئة ببرك الماء، والرطوبة تطحن الطقس، كأنّها غبارٌ بارد يتغلغل في الثياب ويكتسح العظام. وبينما كنت أنتظر دوري عند بائع الحليب، تولّد لديّ انطباعٌ بأنّ أحدًا يراقبني. خرجتُ إلى الرصيف، وقطعتُ شارع بورن، فنظرتُ خلفي لأرى طفلاً يتعقّب خطاي، ولم يتجاوز الخمسة أعوام بعد. توقّفتُ ونظرتُ إليه. فتوقّف بدوره متحدّيًا نظرتي.

- لا تخف - قلت له - تعال.

اقترب الطفل خطوتين، وتوقّف على بعد مترين منّي. كانت بشرته شاحبة، أقرب إلى الزرقة، كأنّه لم ير نور الشمس في حياته. كان يرتدي ثيابًا سوداء، وينتعل حذاءً حديث الطلاء وفائق اللمعان. لون عينيه غامقٌ، والبؤبؤ فيهما كبير حتّى كاد يسود على مقلتيه.

- ما اسمك؟ - سألته.

ابتسم الطفل وأشار إليّ بسبّابته. حاولتُ التقدّم نحوه بخطوة، لكنّه فرّ راكضًا ورأيتُه يغيب في زحام شارع بورن. حين عدت إلى البيت، وجدتُ ظرفًا معلّقًا على البوّابة. ما زال الملاك بدمغة الشمع الأحمر ساخنًا. نظرتُ إلى يمين الشارع وشماله، فلم أجد أحدًا. دخلتُ وأغلقتُ البوّابة خلفي، ثمّ قفلتُها. توقّفتُ أسفل السلالم وفتحتُ الظرف.

صديقي العزيز

يحزنني جدًا أنك لم تستطع المجيء إلى موعدنا مساء أمس. أتمنّى أن تكون بخير، وأنك لم تصب بمكروهٍ أو طارئٍ اعترض طريقك. يؤسفني أنّي لم أتمكّن من التمتّع برفقتك في هذه المناسبة، لكنّي أتمنّى وآمل أن تجد حلاً سريعًا وفعّالاً لما عرقل مجيئك، أيًّا يكن، وأن تواتيك الظروف في المرّة القادمة لتسهيل لقائنا. سأتغيّب عن المدينة بضعة أيّام، لكنّي سأخبرك حالما أعود. بانتظار سماع أخبارك، ومستجدّات عملنا المشترك، تفضّلْ بقبول فائق المودّة المعتادة من صديقك

أندرياس كوريلي

ثنيتُ الرسالة بقبضة يدي، وأودعتُها جيبي. دخلتُ البيت بحذر، وأغلقتُ الباب برفق. أطللتُ على غرفة النوم فوجدتُ أنّ كريستينا ما تزال نائمة. ذهبتُ إلى المطبخ لأعدّ القهوة وما تيسّر من فطور. وبعد دقائق، سمعتُ خطواتها خلف ظهري. كانت تراقبني من العتبة، وترتدي إحدى كنزاتي القديمة، التي تصل حتّى ركبتيها. كان شعرها مهملاً وعيناها منفوختين. وما زالت آثار اللطم داكنةً على شفتيها ووجنتيها، كما لو أنّي صفعتُها بكامل قوّتي. كانت تتهرّب من نظرتي.

- المعذرة - غمغمتْ.

- هل أنت جائعة؟ - سألتُها.

هزّت رأسها لكنّي تجاهلتُ الأمر، وأشرتُ لها بالجلوس إلى المائدة. قدّمتُ لها كوبًا من القهوة بالحليب وقطعة خبز طازج بالجبن وقطعة من اللحم المجفف. لم تمسّ الطبق ولو قليلاً.

- لقمة واحدة فقط - اقترحتُ عليها.

تناولتِ الجبن على مضض، وابتسمت بهوان.

- لذيذ - قالت.

- كلّما أكلتِ منه، أحببتِه أكثر.

تناولنا الفطور بصمت. وعلى غير المتوقّع، التهمت كريستينا نصف الصحن. ثم اختبأت خلف كوب القهوة ونظرت إليّ خلسة.

- سأرحل من هنا اليوم إن أردتَ - قالت في النهاية - لا تقلق. پيدرو أعطاني النقود و...

- لا أريد أن ترحلي إلى أيّ مكان. لا أريد أن ترحلي أبدًا بعد اليوم. هل سمعتِ؟

- لستُ خيرَ رفيقةٍ يا داڤيد.

- صرنا اثنين إذن.

- هل كنتَ تتكلّم بجدّيّة؟ أن نذهب بعيدًا؟

أومأتُ بنعم.

- أبي كان يقول إنّ الحياة لا تمنح فرصًا ثانية.

- تمنحها فقط لأولئك الذين لم يحصلوا حتّى على فرصتهم الأولى. وفي الواقع، إنّها فرصٌ مستعملة؛ أحدهم لم يعرف كيفيّة استخدامها فأهملها فرماها. لكنّها أفضل من لا شيء.

ابتسمتْ بالكاد.

- هلاّ اصطحبتني في نزهة؟ - قالت فجأة.

- أين تريدين أن تتنزّهي؟

- أريد أن أقول وداعًا لبرشلونة.

40

في منتصف الظهيرة، تسرّبت أشعّة الشمس من بين الغيوم المتلبّدة التي خلّفها الإعصار. وانتشت الطرقات برائحة المطر، فتحوّلت إلى مرايا يمشي فوقها المارّة، وتعكس ألوان السماء الذهبيّة. أذكر أننا وصلنا حتى تخوم لاس رامبلاس، حيث ينتأ تمثال كولومبس من بين الضباب. كنّا نمشي بخشوع، وننظر إلى أوجه البنايات وزحمة الناس كما لو كانوا سرابًا، كما لو أنّ المدينة باتت موحشة ومنسيّة. لم أشهد لبرشلونة جمالاً كما كانت عليه يومئذٍ؛ كانت أشدّ حزنًا من المساء ذاته. وعند هبوط الظلام، اتجهنا نحو مكتبة سيمبيري وأبناؤه. وقفنا عند إحدى البوّابات من الجهة المقابلة. كانت واجهة المكتبة تعكس رذاذ النور الذي تشابك بلمعان البِلاط الرطب. تمكّنتُ من رؤية الداخل: إيزابيلا تعتلي سلّمًا لترتّب الكتب في الرفّ الأخير، بينما يتظاهر ابن سيمبيري بمراجعة سجلّ الحسابات خلف المصطبة، ويسترق النظر إلى ساقيها. أمّا السيّد سيمبيري كان منزويًا في أحد الأركان، ويبدو عجوزًا منهكًا، يرنو إليهما بابتسامة حزينة.

- هذا المكان الذي اتّسعت جنباتُه لكلّ الأشياء الجميلة التي صادفتني في الحياة - قلت دون سابق تفكير - لا أريد أن أودّعه.

حين عدنا إلى بيت البرج، كان الليل قد أطبق بظلاله. وما إن دخلنا، حتّى استقبلتنا حرارة النار التي تركتُها موقدةً قبل خروجنا. سبقتني كريستينا إلى الممرّ، ونزعت ثيابها، دون أن تنبس ببنت شفة، لتخلّف وراءها سيلاً من الملابس على الأرض. وجدتُها مستلقية على السرير، بالانتظار. فاستلقيتُ بجانبها وتركتُها تقود يديّ. وبينما كنت أداعبها، أحسستُ باختلاج عضلاتها تحت جلدها. ولم تكن عيناها توحيان بالصفاء، بل برغبة في دفء ومبادرة. فغصتُ في جسمها، وولجتُها بقوّة، وأظفارها تنهش جلدي. سمعتُها تتأوّه ألمًا، وتشهق كأنّ أنفاسها تنقطع. وفي النهاية، انفصلنا منهكين، نسبح بعرقنا، أحدنا بجانب الآخر. أسندت كريستينا رأسها على كتفي وبحثتْ عن عينيّ.

- قالت لي صديقتك إنّك أقحمتَ نفسك في مأزق.

- إيزابيلا؟

- إنّها قلقة بشأنك جدًّا.

- إيزابيلا تتصرّف على أنّها أمّي.

- لا أعتقد أنّها تقصد ذلك.

تجنّبتُ عينيها.

- قصّت عليّ بأنّك تعمل على كتاب جديد، كلّفك به ناشرٌ أجنبيّ. تسميّه ربّ عملك. تقول إنّه أغدقك بالكثير من المال، لكنّك تشعر بالندم لأنّك قبلتَ ماله. تقول إنّك تهاب ذلك الرجل، وإنّ ثمّة شيءٌ لا يبعث على الارتياح في هذا العمل.

تنهّدتُ مستاءً.

- هل بقي شيءٌ لم تقصّه عليك إيزابيلا؟

- بقيت أشياء نحتفظ بها سرًّا بيننا - ردّت وهي تغمز - هل كانت تكذب؟

- لم تكن تكذب، إنّما تفترض.

- وعمّ يتحدث الكتاب؟

- حكاية للأطفال.

- إيزابيلا أنذرتني بأنّك ستجيب هكذا.

- إن كانت إيزابيلا قد أعطتكِ كلّ الأجوبة فلماذا تطرحين عليّ هذه الأسئلة؟

نظرت إليّ كريستينا بحزم.

- كي أطمئنكِ، وأطمئن إيزابيلا، لقد تركتُ العمل على الكتاب. انتهى - أكّدتُ لها.

- منذ متى؟

- هذا الصباح؛ بينما كنتِ نائمة.

قطّبت كريستينا حاجبها.

- وذاك الرجل، ربّ عملك، هل يعلم بقرارك؟

- لم أكلّمه بعد. لكنّي أرجّح أنّه يتصّور ما أنا مقدمٌ عليه؛ وعليه أن يتوقّع ذلك.

- هل ينبغي أن تردّ له المال؟

- لا أعتقد أنّ المال يشغل باله.

غرقت كريستينا في صمتٍ عميق.

- هل بوسعي أن أقرأه؟ - سألتني في النهاية.

- لا.

- لماذا؟

- لأنّه مسوّدة، لا رأس له ولا ذيل. مجرّد تراكمٍ لأفكار وملاحظات، وشذرات مبعثرة. ليس فيه شيء قابل للقراءة. سيسبّب لك الملل.

- ورغم هذا، يسعدني قراءته.

- لماذا؟

- لأنّك أنت من ألّفه. بيدرو يقول دومًا إنّ الطريقة الوحيدة للدخول إلى عقل الكاتب تكمن في تعقّب سيل الحبر الذي يخلّفه. يقول إنّ الشخص الذي نعتقد أنّنا نراه ونعرفه، ليس إلاّ شخصيّة فارغة، وإنّ الحقيقة تختبئ دومًا في الخيال.

- لا بدّ أنّه قرأ هذه العبارة في إحدى بطاقات المعايدة.

- لقد اقتبسها من إحدى رواياتك. وأنا واثقة من هذا، لأني قرأتُ الرواية نفسها.

- بأيّ حال، السطو لا ينتشلها من درك الهراء.

- لكنّي أعتقد أنّها مشبعةٌ بالمعنى.

- فهي صحيحة إذن.

- هل بوسعي قراءته إذن؟

- لا.

تعشّينا بما تبقّى من خبز الصباح وجبنه، ونحن جالسان وجهًا لوجهٍ إلى مائدة المطبخ، نتبادل النظرات من حين لآخر. كانت كريستينا تمضغ بلا شهيّة، تتفحص كلّ لقمة تحت نور المصباح قبل أن تضعها في فمها.

- ثمّة قطار ينطلق في منتصف نهار الغد، من محطّة فرنسا متّجهًا إلى باريس - قالت - هل نستقلّه؟

كنت لا أهجس سوى بفكرة أنّ أندرياس كوريلي يصعد السلالم، بين لحظةٍ وأخرى، ويطرق باب بيتي.

- لا أعتقد - صرّحتُ.

- أعرف فندقًا صغيرًا مقابل «حدائق لوكسمبرغ» يؤجّر الغرف شهريًا. أسعاره باهظة نوعًا ما ولكن... - أضافت.

آثرتُ أن لا أسألها كيف عرفتْ ذلك الفندق.

- لا يهمّ السعر، لكنّي لا أتكلّم الفرنسية - أشرتُ.

- أمّا أنا فأتقنها.

طأطأتُ رأسي.

- انظر إلى عينيّ يا داڤيد.

رفعتُ رأسي على مضض.

- إن كنتَ تفضّل أن أرحل من هنا...

نفيتُ مرارًا. أمسكتْ بيدي وحملتها إلى شفتيها.

- ستسير الأمور على ما يرام. سترى - قالت - فأنا أشعر بذلك. سيكون أوّل أمر في حياتي يسير على ما يرام.

نظرتُ إليها. كانت تبدو امرأة محطّمة تحت السراب، والدموع في عينيها؛ فلم أرغب بأيّ شيء إلاّ أن أردّ لها صفاءها.

استلقينا على الديوان في الصالة، مدثّرين بالأغطية، ونحن نراقب جمر الحطب في الموقد. غفوتُ وأنا أداعب شعر كريستينا، وأفكّر أنّ تلك الليلة ستكون الأخيرة التي أقضّيها في ذلك البيت أو السجن الذي دفنتُ فيه شبابي. حلمتُ بأنّي أركض في طرقات برشلونة وقد استباحتها ساعاتٌ تدور عقاربُها باتجاهٍ معاكس. كانت الأزقّة والشوارع تنعطف على مروري كالنفق، بملء إرادتها، لتشكّل متاهة حيّة تتلاعب بمحاولاتي التقدّم. وفي النهاية، تحت شمس منتصف النهار التي تشتعل في كبد السماء ككرة معدنيّة ملتهبة، تمكّنتُ من بلوغ محطّة فرنسا، واتجهتُ بعجلة نحو السكّة حيث أخذ القطار يتحرّك. ركضتُ خلفه، لكنّه كان يزداد سرعة؛ ولم تثمِر جهودي سوى على لمس معدنه برؤوس أصابعي. كنت ما أزال أركض حتّى انقطعت أنفاسي، وحين وصلتُ إلى نهاية الرصيف، سقطتُ في الفراغ. رفعتُ عينيّ متأخّرًا. بات القطار قصيًّا، ويبتعد أكثر، بينما ظلّت كريستينا تنظر إليّ من نافذة عربته الأخيرة.

فتحتُ عينيّ فعرفتُ أنّ كريستينا لم تكن بجانبي. استحالت النار إلى قبضة رماد بالكاد تشتعل. نهضتُ ونظرتُ من النافذة الكبيرة. قرّبتُ وجهي إلى الزجاج، ورأيتُ ضوءًا يرتجف من نوافذ المكتب. اتجهتُ نحو السلالم الحلزونيّة التي تصعد البرج. كان البريق متشعّبًا على الدرجات. صعدتُ ببطء. وصلتُ إلى القمة وتوقّفتُ عند عتبة المكتب. فوجدتُ كريستينا جالسة على الأرض، وظهرها للباب. وكان الصندوق الكبير المسنود إلى الحائط مفتوحًا. كريستينا، تحمل بين يديها الملفّ، الذي يحتوي على المخطوط الذي أعددتُه لكوريلي، وتفكّ عقدة شريطه.

وحين سمعتْ خطواتي، أحجمتْ.

- ماذا تفعلين هنا؟ - سألتها محاولاً إخفاء التوجّس في صوتي.

التفتت وابتسمت.

- كنت أشبع فضولي.

تابعتْ تصويب نظرتي إلى الملف الذي بين يديها، وكشّرتْ بلؤم.

- ماذا يوجد هنا؟

- لا شيء. ملاحظات. مدوّنات. لا شيء يثير الاهتمام...

- كاذب. أراهن أنّ هذا هو الكتاب الذي كنت تعمل عليه - قالت وهي تحلّ عقدة الشريط - إنّي أموت رغبةً في قراءته...

- أفضّل ألاّ تفعليها - قلت متصنّعًا الارتياح، ما أمكنني، في النبرة.

قطّبت كريستينا حاجبيها. فانتهزتُ اللحظة لأجثم أمامها وأنتزع الملف برفقٍ من بين يديها.

- ما الذي يحدث يا داڤيد؟

- لا شيء. لا يحدث شيء - طمأنتُها بابتسامة غبيّة على شفتيّ.

أعدتُ ربط العقدة، وأرجعتُ الملفّ إلى ذلك الصندوق ثانية.

- ولماذا لا تقفله أيضًا؟ - سألتْني كريستينا.

التفتّ مستعدًّا للإدلاء بحجّة ما، لكنّها كانت تنزل السلالم. فتنهّدتُ وأغلقتُ الصندوق.

وجدتُها في غرفة النوم. نظرتْ إليّ كما لو كنت غريبًا عنها، فبقيتُ واقفًا عند الباب.

- المعذرة - بادرتُ.

- لا ينبغي بك أن تعتذر - ردّت - لم يكن عليّ أن أقحم أنفي في ما لا يعنيني.

- ليس الأمر كذلك.

صوّبت إليّ ابتسامة جليديّة، وإشارة لا مبالاة، تمزّق الهواء إربًا.

- لا يهمّ - قالت.

أومأتُ، مفكّرًا في إرجاء المباغتة الثانية للحظةٍ أخرى.

- شبّاك التذاكر في المحطّة يفتح باكرًا - قلت - فكّرتُ أن أخرج الآن كسبًا للوقت، وأشتري تذكرتين لقطار منتصف النهار. ثم أتّجه إلى المصرف وأسحب النقود.

اكتفت كريستينا بهزّ رأسها.

- جيّد جدًا.

- لماذا لا توضّبين إحدى الحقائب، وتضعين فيها بعض الثياب، ريثما أعود؟ لن أتأخّر أكثر من ثلاث ساعاتٍ، كحدٍّ أقصى.

ابتسمتْ على مضض.

- سأنتظرك هنا.

دنوتُ منها وأمسكتُ وجهها بيديّ.

- مساء الغد، سنكون في باريس - قلت لها.

قبّلتُ جبينها وانصرفتُ.

41

كان بهو محطّة فرنسا ينبسط تحت قدميّ، كمرآةٍ تنعكس فيها الساعة الضخمة المعلّقة على السقف. كانت عقاربها تشير إلى السابعة صباحًا وخمسة وثلاثين دقيقة. لكنّ شبّاك التذاكر ما يزال مسدلاً. وثمّة عامل نظافة مدجّجٌ بالممسحة، وقد أفرط في تأنّقه، يلمّع الأرضيّة، وهو يدمدم أغنية ما، ويرقّص جذعه بقدر ما تسمح له حركته العرجاء. لم يكن لديّ ما أفعله، فرحتُ أمعن النظر إليه. كان الرجل منكمش البنية، حتّى إنّ الحياة جعّدتْ كلّ ما فيه وسلبتْه كلّ شيء عدا ابتسامته وولعه في تنظيف تلك الأرضيّة، كما لو أنّه ينظّف مقرّ كنيسة البابا. لم يكن ثمّة أحدٌ آخر، فانتبه في النهاية أنّي أراقبه. توقّف العامل قبالتي، بعد دورانه الإهليلجيّ الخامس، الذي حمله إلى نقطة مراقبتي له، عند أحد المقاعد الخشبية الموجودة على جوانب البهو، واتّكأ بكلتا يديه إلى الممسحة، متحلّيًا بالجسارة ليوجّه نظراته صوبي.

- لا يفتحون أبدًا في الساعة التي يحدّدونها - فسّر مشيرًا إلى شبّاك التذاكر.

- فلماذا يعلّقون لافتةً تقول إنّهم يفتحون في تمام السابعة؟

شدّ الرجل كتفيه وتنهّد بإيحاء فلسفيّ.

- حسنًا، يعلّقون مواعيد الانطلاق على القطارات أيضًا؛ لكنّي، خلال خمسة عشر عامًا من عملي هنا، لم أشهد أيّ قطارٍ يصل أو ينطلق في الساعة المحدّدة.

تابع العاملُ التنظيفَ بكدّ، وبعد مرور خمسة عشر دقيقة، أحسستُ بالشبّاك ينفتح. فاقتربتُ مبتسمًا للموظّف.

- كنت أظنّ أنّكم تفتحون في السابعة - قلت.

- هذا ما تقوله اللافتة. بم ترغب؟

- تذكرتان في الطبقة الأولى إلى باريس، في قطار منتصف النهار.

- اليوم؟

- إن لم يكن لديك مانع.

دام الحجز أكثر من ربع ساعة. وما إن أنجز الموظّف رائعته الخالدة، حتّى قذف التذكرتين على مضض، لتسقطا على المصطبة.

- موعد الانطلاق في الواحدة. من السكّة رقم أربعة. لا تتأخّرا.

دفعتُ الثمن. وحين بقيتُ واقفًا، طعنني الموظّف بنظرة حادّة ومتحريّة.

- هل ترغب بشيء آخر؟

ابتسمتُ وهززتُ رأسي، فإذا به يغلق الشبّاك في وجهي. استدرتُ وقطعتُ البهو شديد اللمعان بفضل عامل النظافة، الذي ألقى عليّ التحية وتمنّى لي - بالفرنسيّة - رحلة موفّقة.

كان المقرّ الرئيس لمصرف هسبانو كولونيال، في شارع فونتانيلا، يشبه معبدًا ما. رواقه الكبير ينفذ إلى فسحة واسعة، ترتقي التماثيل على جنباتها، وتمتدّ على صفٍّ من الشبابيك المكشوفة كالمذبح في الكنائس. وعلى كلا الجانبين، ثمّة أرائك فاخرة، تشبه حُجَر الاعتراف، وطاولاتٌ من خشب السنديان، يجلس خلفها جيشٌ من كبار الموظّفين ومرؤوسيهم، يرتدون ثيابًا لا مثيل لأناقتها، وسلاحهم يكمن في ابتساماتهم اللبقة. سحبتُ أربعة آلاف فرنك نقدًا، وحصلتُ على الإرشادات حول كيفيّة سحب المبالغ من فرع المصرف، الواقع عند تقاطع شارع رين بجادّة راسبيل، في باريس، قرب الفندق الذي كلّمتني عنه كريستينا. غادرتُ حاملاً في جيبي ذلك الكنز الوفير، ولم أعر اهتمامًا لنصائح الموظّف الذي كان يرى التجوّل بمبلغٍ كهذا خطأً فظيعًا.

اتّسع قرص الشمس في كبد السماء الزرقاء، موحيًا بلون الحظّ السعيد، وحملت النسائمُ العليلة عبق البحر. كنت أمشي خفيف الخطى، كما لو أنّي قد أزحتُ عن كاهلي وزرًا رهيبًا. حتّى إنّي فكّرت بأنّ المدينة سمحتْ لي بالذهاب بعيدًا، غير ناقمة عليّ. توقّفتُ في شارع بورن لأشتري الأزهار لكريستينا، واخترتُ أزهارًا بيضاء، مربوطة بشريط أحمر. صعدتُ سلالم بيت البرج درجتين درجتين، بابتسامة منقوشة على شفتيّ، ويقينٍ بأنّ ذاك أوّل يومٍ من حياةٍ خلتُ أنّي فقدتُها إلى الأبد. وبينما كنت أدخِل المفتاح في القفل، اكتشفتُ أنّ الباب كان مفتوحًا.

فدفعتُه وتقدّمتُ في البهو. كان الصمت مطبقًا على البيت.

- كريستينا؟

تركتُ الأزهار على رفّ طاولة الممرّ، وأطللتُ إلى غرفة النوم. لم أجدها هناك. سرتُ في الممرّ حتّى الصالة. لا أثر لوجودها. اقتربتُ من سلّم المكتب مناديًا بأعلى صوت.

- كريستينا؟

فرجع إليّ الصدى. لم أكترث. نظرتُ إلى الساعة الموضوعة في إحدى الخزن الزجاجيّة في الصالة. كانت حوالي التاسعة. تخيّلتُ أنّها خرجت تبحث عن شيء ما، وأنّها نسيت الباب مفتوحًا، لاعتيادها على رغد العيش في بيدرالبيس، حيث شؤون الأبواب وإقفالها شأنٌ يخصّ الخدم. فقرّرتُ انتظارها مستلقيًا على الديوان في الصالة. كانت الشمس تدخل من الزجاج، شمسٌ شتويّة ساطعة وبرّاقة، تحثّ الرغبة على المداعبة. أغمضتُ عينيّ وفكّرتُ بما عليّ أن أحمله معي. لقد عشت نصف حياتي مطوّقًا بتلك الأغراض، وفي لحظة الوداع أخفقتُ في ملء جدول صغيرٍ بالأشياء التي لا يمكن الاستغناء عنها. وشيئًا فشيئًا، دون أن أنتبه، مستلقيًا تحت نور الشمس البهيّة، وتلك الآمال الدافئة، غفوتُ قرير العين.

وعندما استيقظتُ، نظرتُ إلى ساعة المكتبة: الثانية عشرة والنصف. سينطلق القطار بعد نصف ساعة فقط. نهضتُ واثبًا وهرعتُ نحو غرفة النوم.

- كريستينا؟

نقّبتُ البيت كلّه هذه المرّة، غرفةً غرفة، حتّى وصلتُ إلى المكتب. لم يكن هنالك أحدٌ، غير أنّي شممتُ رائحة غريبة تفوح في المكان. فسفور. النور الآتي من النوافذ يصطاد شبكةً واهنةً من خطوط دخانٍ أزرق معلّقة في الفراغ. دخلتُ فوجدتُ أعواد ثقابٍ محروقة على الأرض. شعرتُ بخضّةٍ واضطراب، فجثوتُ أمام الصندوق. فتحتُه وتنهّدتُ منتشيًا. إذ كان الملفّ، الذي يحوي المخطوط، يراوح مكانه. وفيما كنت أغلق الصندوق، انتبهتُ أنّ عقدة الشريط الأحمر، التي تربط الملفّ، كانت مفكوكة. فأخذتُه وفتحتُه. تصفحّتُه، فبدا أنّ لا شيء قد انتُزع منه. أوثقتُ العقدة هذه المرّة بربطة مزدوجة، وأرجعتُ الملفّ إلى مكانه. أغلقتُ الصندوق ونزلتُ إلى البيت ثانية. جلستُ أنتظر على أحد كراسي الصالة، أرنو إلى الممرّ الطويل الذي يفضي إلى الباب، متلهّفًا عودتها. ومرّت الدقائقُ بقسوةٍ لا حدود لها.

تفاقم إدراكي لخطورة ما كان يجري، رويدًا رويدًا، وتحوّلت تلك الرغبة في الأمل والطمأنينة إلى حسرةٍ ومرارة. وسرعان ما سمعتُ كنيسة سانتا ماريا، تقرع أجراسها لتعلن عن الثانية ظهرًا. كان القطار المتّجه إلى باريس قد غادر المحطّة ولمّا تعد كريستينا. فأدركتُ حينها أنّها رحلت، وأنّ تلك الساعات الوجيزة التي تقاسمناها ما كانت سوى سرابًا. نظرتُ من خلف الزجاج إلى ذلك النهار الوضّاح، الذي فقد لون الحظّ السعيد؛ وتخيّلتُها تعود إلى ڤيلا هيليوس، بحثًا عن ملاذٍ في أحضان بيدرو ڤيدال. أحسستُ أنّ الغيظ يسمّم عروقي شيئًا فشيئًا، فضحكتُ من نفسي على آمالي السخيفة. ولم أجرؤ على الإقدام بخطوة واحدة، فبقيتُ أتأمّل المدينة التي يحلّ عليها الظلام ساعة الغروب، لتنبسط الظلال على أرض المكتب. نهضتُ واقتربتُ من النافذة. فتحتُها على مصراعيها، وأطللتُ برأسي. يوجد أمامي فراغٌ عموديّ، بضعة أمتار كافية لتهشيم عظامي وتحويلها إلى خناجر تخترق جسدي، فأصبح جثّة هامدة مضرّجة بدمائها عند مدخل البيت. تساءلتُ إن كان الألم أقسى ممّا كنت أتخيّل، أم أنّ قوّة الاصطدام كافية لتسلب حواسّي وتمنحني مِيْتةً سريعةً وفعّالة.

وفي تلك اللحظة، سمعتُ طرقًا على الباب. طرقةٌ، طرقتان، ثلاثة. أحدهم يطرق بإلحاح. استدرتُ، ولم أزل مشدوهًا بتلك الأفكار. طرقٌ على الباب مجدّدًا. ثمّة أحدٌ على باب بيتي في الأسفل. غصّ قلبي، فركضتُ نحو السلالم متيمّنًا عودة كريستينا، لعلّ شيئًا ما صادف طريقها فأخّرها؛ تبًّا لشكوكي المتسرّعة: فذاك اليوم هو الأوّل من حياتي الجديدة، ولا معنى لهذا التوجّس بالمحصّلة. هرعتُ نحو الباب وفتحتُه. كانت هناك تحت الظلام، ترتدي ثيابًا بيضاء. أردتُ أن أعانقها، لكنّي رأيتُ الدموع تستبيح وجهها، وفهمتُ أنّ تلك المرأة لم تكن كريستينا.

- داڤيد - غمغمت إيزابيلا بصوت ممزّق - السيّد سيمبيري مات.

الف
صل
الثال
ث
لعبة
الملا
ك

1

كان الظلام قد تغمّد المكتبة بستاره حين وصلنا. والضياء الذهبيّ يشرخ عتمة الليل عند الرصيف، حيث احتشد عشراتٌ من الناس وهم يحملون الشموع بأيديهم. كان بعضهم يبكي بحرقة، وآخرون يتبادلون نظرات الحيرة والصدمة. عرفتُ بعض وجوه أصدقاء سيمبيري وزبائنه، ممّن كان العجوز قد أهداهم الكتب ليشرعوا بقراءتها. وكلّما ذاع النبأ في الحيّ، انضمّ إلى الجمع زبائنٌ وأصدقاءٌ آخرون، لم يصدّقوا وفاة السيّد سيمبيري.

وكانت أضواء المكتبة منيرة، وفي الداخل ثمّة الدون غوستابو برسلوه، يعانق شابًّا بالكاد تحمله قدماه. لم أدرك أنّه ابن سيمبيري للوهلة الأولى، حتى أمسكت إيزابيلا بذراعي وأدخلتني إلى المكتبة. وعندما رآني برسلوه، رفع عينيه وصوّب إليّ ابتسامة مريرة. كان ابن بائع الكتب يجهش بين ذراعيه، ولم أتملّك الشجاعة الكافية لإلقاء التحيّة عليه. فدنت منه إيزابيلا، وحطّت يدها على كتفه. التفت سيمبيري الابن، فرأيتُ القهر على وجهه. اقتادته إيزابيلا إلى الكرسيّ وأعانته على الجلوس. فهوى الشابّ عليه، كما تسقط العرائس إذا قُطعِت حبالها. انحنت إيزابيلا إليه وعانقته. لم أكن فخورًا بأحد كما كنت فخورًا بها حينئذٍ، إذ لم تعد تبدو لي مجرّد فتاة صغيرة، بل امرأة ناضجة، تغلّبتْ علينا جميعًا بالتروّي والثبات.

اقترب برسلوه ومدّ يده المرتجفة، فصافحتُه.

- توفّي منذ ساعتين - فسّر بنبرة ممزّقة - ظلّ في المكتبة بمفرده للحظات، وحين عاد ابنه... يقال إنّه كان يتشاجر مع أحدٍ ما... لا أدري. الطبيب يرجّح اختلاجًا في القلب.

ابتلعتُ ريقًا.

- أين هو؟

أشار برسلوه برأسه إلى باب المستودع. فأومأتُ واتّجهتُ إلى هناك. وقبل الدخول، التقطتُ نفسًا عميقًا وشددتُ قبضتيّ. اجتزتُ العتبة ورأيته. كان مُلقىً على الطاولة، ويداه مكتوفتان على بطنه. وبشرته أشدّ بياضًا من الورق، وتقاسيم وجهه كأنّها منقوشة على ورقٍ مقوّى. كانت عيناه ما تزالان مفتوحتين. انقطعتْ أنفاسي، وشعرتُ كأنّي أتلقّى أعنف اللكمات على بطني. استندتُ إلى الطاولة واستنشقتُ بعمق. انحنيتُ نحوه وأغمضتُ جفنيه. لامستُ وجنته المتجمّدة، ونظرتُ حولي إلى ذلك العالم المليء بالصفحات والأحلام التي ابتكرها. وآثرتُ الظنّ بأنّ سيمبيري لا يزال هناك، بين كتبه وأصدقائه. تقدّمتْ خطواتٌ خلف ظهري فاستدرتُ. كان برسلوه يصطحب رجلين يرتديان البذلة السوداء، والوجوم اكفهرّ بوجهيهما؛ أمّا مهنتهما، لا تدع أدنى مجالٍ للشكّ.

- هذان السيّدان قدما من مكتب تنظيم الجنائز - قال برسلوه.

أومأ الرجلان بتحيّة احترافيّة، لها هيبتها، واقتربا لمعاينة الجثمان. كان أحدهما طويل القامة، هزيل البنية؛ أجرى فحصًا سريعًا، ثمّ نوّه لزميله بشيء ما، فأذعن الأخير وسجّل التعليمات على كرّاسٍ صغير.

- وفقًا للأصول، ستقام الجنازة عصر الغد، في مقبرة الشرق - قال برسلوه - اخترتُ أن أتابع المسألة بنفسي، نظرًا لانهيار نجل المتوفّى، كما رأيتَ. وكلّما استعجلنا في هذه الحالات...

- شكرًا يا دون غوستابو.

صوّب بائع الكتب نظرة إلى صديقه القديم، وبانت ابتسامته بين دموعه.

- وماذا سنفعل الآن وقد رحل العجوز؟ - قال.

- لا أدري...

سعل أحد الموظّفين، ليُفهِمنا بلباقةٍ أوان الشروع في العمل.

- لو سمحتما، سنذهب أنا وزميلي الآن لنجلب التابوت و...

- افعل ما عليك القيام به يا سيّدي - قاطعتُه.

- هل من توصياتٍ معيّنة بخصوص طقس الجنازة؟

نظرتُ إليه حائرًا.

- هل المرحوم كان مؤمنًا؟

- السيّد سيمبيري كان يؤمن بالكتب - قلت.

- فهمتُ - قال وهو ينصرف.

نظرتُ إلى برسلوه الذي شدّ كتفيه حائرًا أيضًا.

- دعني أسأل ابنه - أضفتُ.

عدت إلى المكتبة. رمتني إيزابيلا بإحدى نظراتها المتحرّية، ونهضتْ لتفسح لي مكانًا بجوار سيمبيري الابن. دنت منّي فهمستُ في أذنيها شكوكي.

- إنّ خوري كنيسة سانتا آنا المجاورة كان صديقًا وفيًّا للسيّد سيمبيري. يُشاع إنّ الأبرشيّة تسعى إلى عزله منذ سنوات، لأنّه متمرّد ويحيد عن المبادئ. ونظرًا لكونه طاعنًا في السنّ، آثروا أن يتركوه ليموت بمفرده، بعد أن أخفقوا في النيل منه.

- إنّه الرجل الذي نحتاج إليه - قلتُ.

- سأكلّمه بنفسي - قالت إيزابيلا.

أشرتُ إلى سيمبيري الابن.

- كيف حاله؟

ركّزت نظرها في عينيّ.

- وأنت؟

- بخير - كذبتُ - من سيبقى إلى جانبه، هذه الليلة؟

- أنا - قالت دون تردّدٍ.

أومأتُ وقبّلتُ جبينها قبل العودة إلى المستودع. كان برسلوه جالسًا قبالة صديقه القديم. وبينما يأخذ الموظّفان المقاسات، ويسألان عن البذلة والحذاء، سكب كأسين من البراندي وقدّم إليّ إحداها. فجلستُ بقربه.

- بصحّة صديقنا سيمبيري الذي علّمنا القراءة جميعًا، قبل أن يعلّمنا الحياة - قال.

شربنا النخب بخشوع. وبقينا هناك حتّى عاد الموظّفان بالتابوت وملابس الدفن.

- سنهتمّ نحن بالأمر، إن كان هذا يناسبكما - قال أحدهما، وبدا أشدّ يقظةً من الآخر. فوافقنا. وقبل أن أخرج، أخذتُ النسخة القديمة من «آمال عظيمة»، تلك التي لم أستعدها من السيّد سيمبيري أبدًا، ووضعتُها بين يديه.

- لتؤنس رحلتك - قلتُ.

بعد ربع ساعة، رفع الموظّفان التابوت وأنزلاه على طاولة كبيرةٍ وسط المكتبة. احتشد الناس في الطريق، يترقّبون بصمت عميق. فاتجهتُ نحو الباب، وفتحتُه لهم. فدخل أصدقاء سيمبيري فرادى، ليلقوا نظرة الوداع إلى المتوفّى، ولم يقوَ بعضهم على كبت دموعه. وأمام هذا المشهد، لم تجد إيزابيلا حرجًا في اصطحاب الابن إلى البيت، فوق المكتبة تمامًا، حيث عاش مع أبيه طوال حياته. فبقينا أنا وبرسلوه بجوار العجوز سيمبيري، نتلقّى تعازي الناس. ووقف أكثرهم إلى جانبنا قليلاً؛ واستمرّت العشيّة طوال الليل. ظلّ برسلوه حتّى الخامسة؛ وأنا لم أغادر قبل نزول إيزابيلا، بعد الفجر، لتأمرني بالعودة إلى البيت، لعلّي أستحمّ وأغيّر ثيابي على الأقلّ.

نظرتُ إلى سيمبيري المسكين وابتسمتُ لها. لم أكن أصدّق أنّه لن يعود بإمكاني رؤيته ثانية خلف المصطبة، ما إن أجتاز تلك العتبة. تذكّرتُ أوّل مرّة دخلتُ فيها المكتبة، وكنتُ طفلاً صغيرًا، إذ بدا لي حينها طويل القامة، شديد البأس، لا يُقهر، وأكثر الرجال حكمة في العالم.

- انصرف، أرجوك - همست إيزابيلا.

- لماذا؟

- أرجوك...

رافقتني إلى الطريق وعانقتني.

- أقدّر مدى احترامك له، وما الذي كان يعنيه لك - قالت لي.

لا أحد يعلم، قلت لنفسي. لا أحد. لكنّي أومأتُ موافقًا. قبّلتُ جبينها، ورحتُ أتسكّع، بلا وجهة محدّدة، في شوارع صارت موحشة أكثر من أيّ وقت مضى؛ مبرّرًا ذلك بأنّ متابعة السير، دون وقفةٍ، تجعلني أستوعب فقدان ذلك العالَم، الذي كنت أظنّ أنّي أعرفه حقّ المعرفة.

2

احتشد الجمع عند مدخل المقبرة، بانتظار وصول العربة الجنائزيّة. لم يجرؤ أحدهم على الكلام، بينما يعمّ صوت البحر في البعيد، وأصداء قطار الشحن الذي ينزلق نحو المدينة الصناعيّة الممتدّة خلف المقبرة. كان الطقس باردًا والريح محمّلة برذاذ الثلج. بعد الثالثة ظهرًا بقليل، دخلت العربةُ، التي تجرّها الأحصنة السوداء، شارع إيكاريا المحفوف بأشجار السرو والمحلاّت القديمة. كان ابن سيمبيري وإيزابيلا يسافران معه. رفع ستّة زملاء، من رابطة أصحاب المكتبات في برشلونة، النعش على أكفّهم، وكان الدون غوستابو من بينهم، ودخلوا به المقبرة. فتبعهم الحشد، مشكّلين قافلةً مهيبة تشقّ الدروب والأجنحة، تحت كساءٍ من غيوم منخفضة، تتراقص كرقائق الزئبق. سمعتُ أحدهم يقول إنّ ابن البائع يبدو كأنّه هرم خمسة عشر عامًا في ليلة واحدة. كانوا يسمّونه السيّد سيمبيري، لأنّه بات هو المسؤول عن المكتبة، ولم يكن ذاك البازار المسحور قد غيّر اسمه منذ أربعة أجيال متلاحقة؛ وكلّما أدار شؤونه أحدٌ ما، ناداه الناس بالسيّد سيمبيري. وكانت إيزابيلا تمسك بذراعه، حتّى بدا لي بأنّ انهياره كان محتومًا لولا وقوفها إلى جانبه.

وكان خوريّ كنيسة سانتا آنا المحنّك، في عمر المرحوم، ينتظر عند المدفن المصنوع من دعامةٍ رخاميّة متواضعة، خالية من البهرجة، بالكاد تميّزها العين. أنزل باعة الكتب الستّة النعشَ قرب اللحد. فحيّاني برسلوه، حين رآني، بإيماءةٍ من رأسه. وآثرتُ البقاء في الصفوف الخلفيّة، لا أدري إن كان مردّ ذلك الجبن أم الإجلال. كان بوسعي رؤية قبر والدي، على بعد ثلاثين مترًا عن مكاني. وما إن طوّق الحشدُ التابوتَ، حتى رفع الخوريّ عينيه وابتسم.

- دامت صداقتنا، أنا والسيّد سيمبيري، قرابة الأربعين عامًا؛ وطوال كلّ هذه المدّة لم نتحدّث عن الربّ وألغاز الحياة سوى مرّة واحدة. ربّما يخفى على الجميع أنّ السيّد سيمبيري لم يدخل الكنيسة منذ وفاة زوجته ديانا، التي سنودِعه بقربها اليوم، كي يرقدا متجاورين إلى الأبد. وربّما يظنّ الجميع هكذا بأنّه ملحد، لكنّه كان مؤمنًا. كان يؤمن بأصدقائه، وبحقيقة الأشياء، وبشيءٍ لم يشأ أن يمنحه اسمًا ووجهًا، كي لا يتعدّى على الحكمة من وجودنا نحن القساوسة، كما كان يقول. كان السيّد سيمبيري يؤمن بأنّنا جميعًا نشكّل جزءًا من شيءٍ ما، وبأنّ ذكرياتنا وتطلّعاتنا لا تضيع في مهبّ الريح إذا ما رحلنا عن هذه الدنيا، بل تصبح ملكًا لمن يحصل على مكاننا من بعدنا. كان يتساءل عمّا إذا كنّا نحن من خلقنا الربّ شبيهًا بهيئتنا ومواصفاتنا، أم هو الذي خلقنا دون أن يعي ما يفعل. كان يؤمن بأنّ الله، أو أيًّا يكن خالقنا، يعيش في كلّ أفعالنا وأقوالنا، ويتجلّى في كلّ ما يجعل منّا أكثر رقيًّا من مجرّد تماثيل من صلصال. السيّد سيمبيري كان يؤمن بأنّ الله يسكن في الكتب أيضًا، وهذا ما دفعه لتكريس حياته في تقاسم الكتب وصونها، خوفًا من أن تصير عرضةً للنسيان، تمامًا مثل ذكرياتنا وتطلّعاتنا. لأنّه كان يؤمن، وجعلني أؤمن أيضًا، بأنّ بقاء الله أو استمرار الحياة مضمونٌ طالما ظلّ في هذه الأرض إنسانٌ واحدٌ، على الأقلّ،

قادرًا على قراءة الكتب والغوص في صفحاتها. أعلم أنّ صديقي لا يطيب له أن نودّعه بالخطب والتراتيل. أعلم أنّه كان سيكتفي بخلود ذكراه في قلوب أصدقائه الذين قدِموا إلى هنا ليودّعوه. ليس لديّ شكٌّ بأنّ الربّ سيرحّب بصديقنا العزيز في ملكوته، حتّى لو لم يكن العجوز سيمبيري ليتوقّع ذلك. وأعلم أنّه سيبقى خالدًا في قلوب جميع الحاضرين، وجميع أولئك الذي اكتشفوا سحر الكتب بفضله ذات يوم، وجميع أولئك الذين، دون حتّى أن يعرفوه، دخلوا ذات مرّة إلى مكتبته الصغيرة، حيث للتاريخ مبتَدأ، على حدّ قوله. فلترقد بسلامٍ يا سيمبيري، يا صديقي العزيز؛ ولتكنْ مشيئة الربّ أن نخلّد ذكراك، بعد أن شرّفنا وأكرمنا بالتعرّف عليك.

انسكب الصمت المهيب على المقبرة حين أنهى الخوريّ خطبته، وتراجع عدّة خطوات وهو يبارك النعش ويخفض أبصاره. تقدّم حفّارو القبور، بإشارةٍ من كبير منظمّي الجنائز، وأنزلوا التابوت بالحبال، برفق. ما زلت أذكر صوت التابوت وهو يلامس القاع، مطوّقًا بالشهقات والعَبَرات. وأذكر أنّي بقيت هناك، عاجزًا عن القيام بأيّ خطوة، أراقبهم كيف يغطّون القبر بالدعامة الرخاميّة الكبيرة، التي لم يُنقَش عليها سوى كلمة «سيمبيري»، لتحجب اللحد الذي ترقد فيه زوجته ديانا منذ ستة وعشرين عامًا.

توجّه الحشد ببطء نحو أبواب المقبرة، حيث انقسموا إلى مجموعات، لا يعلمون أين يذهبون، لأنّهم استصعبوا الانصراف وهَجْر السيّد سيمبيري المسكين. توسّط برسلوه وإيزابيلا ابن البائع واقتاداه بعيدًا. بقيتُ هناك حتّى انفضّ الجميع، وحينئذٍ تجرّأتُ على الاقتراب من قبر سيمبيري. جثوتُ على ركبتيّ وأسندت يديّ إلى الرخام.

- نلتقي قريبًا - تمتمتُ.

سمعتُه يدنو وأدركتُ مَن يكون قبل أن أراه. نهضتُ واستدرتُ. مدّ پيدرو ڤيذال يده، وتفشّت على وجهه ابتسامةٌ حزينة لم أرها عليه من قبل.

- ألا تصافحني؟ - سأل.

لم أفعل، فتلوّى ڤيذال وأحجم يده.

- ماذا تفعل حضرتك هنا؟ - سألتُه منفعلاً.

- سيمبيري كان صديقي أيضًا - ردّ.

- حقًا. وهل أتيت بمفردك؟

حدّق إليّ دون أن يفهم.

- أين هي؟ - سألتُه.

- من؟

فرّت من بين شفتيّ ضحكة مريرة. واقترب منّا برسلوه متوجّسًا.

- بم وعدتَها كي تشتريها من جديد؟

اكفهرّت نظرة ڤيذال.

- داڤيد، أنت لا تعي ما تتفوّه به.

تقدّمتُ إليه حتّى لفحتني ريح فمه.

- أين هي؟ - ازددتُ إلحاحًا.

- لا أدري - ردّ.

- طبعًا - قلت وأنا أحيد نظرتي.

استدرتُ متّجهًا نحو المَخرج، لكنّ ڤيذال أمسك بذراعي وأوقفني.

- انتظر يا داڤيد...

وقبل أن أعي ما كنت سأفعله، التفُّ إليه ولكمتُه بكلّ ما أوتيتُ من قوّة. هوت قبضتي على وجهه ورأيته يقع على ظهره. انتبهتُ إلى دمائه على يدي، وسمعتُ خطواتٍ تقترب بأقصى سرعة. شدّ أحدهم وثاق ذراعيّ، وعزلني عن ڤيذال.

- حبًّا بالله يا مارتين... - قال برسلوه.

انحنى بائع الكتب قرب ڤيذال الذي كان يشهق وفمه يغصّ بالدماء. أسند رأسه ورماني بنظرةٍ معادية. فانسحبتُ على عجل، وأنا ألتقي في طريقي ببعض المشاركين في الجنازة، إذ توقّفوا ليشاهدوا المشاجرة. لم أجرؤ على النظر إلى وجوههم.

3

قضّيتُ عدّة أيّام دون أن أخرج من البيت. أنام بلا انتظام، ولا أقرب الطعام بالكاد. في الليل، كنت أجلس في الصالة، قبالة النار، وأصغي إلى صوت الصمت، آملاً أن يقطع عليّ وحدتي طرقٌ على الباب، ومعوّلاً على عودة كريستينا، إذ لا بدّ أنّ وفاة السيّد سيمبيري ستحفّزها على الوقوف إلى جانبي؛ وكانت مؤازرتها ستكفيني حتّى لو بدافع الشفقة. بعد مرور قرابة الأسبوع عن رحيل بائع الكتب، بتّ شبه متيّقن من عدم مجيء كريستينا، ما جعلني أصعد إلى المكتب مجددًا. أخرجتُ المخطوط من الصندوق، وشرعتُ بإعادة قراءته، متذوّقًا كلّ جملة وكلّ مقطع على حدة. غذّت فيّ القراءةُ شعورًا بالغثيان والرضا في الآن نفسه. فصرتُ أسخر من المائة ألف فرنك، في سرّي، بعد أن كانت تبدو لي مبلغًا طائلاً، وأبتسم وأنا أقول لنفسي إنّ ابن اللعينة اشتراني بثمنٍ بخس. الغرور يمحو الحسرة، والألم يغلق أبواب الوعي. ففي لحظة كبرياءٍ، أعدتُ قراءة «النور الأبديّ»، الذي ألّفه سَلَفي دييغو مارلاسكا، ثمّ أودعتُه لهيب الموقد. فحيثما أخفق، عليّ أن أنتصر. وحيثما ضلّ الطريق، عليّ أن أجد منفذًا من تلك المتاهة.

عدتُ إلى العمل في اليوم السابع. انتظرتُ حلول منتصف الليل، وجلستُ إلى المنضدة. ورقةٌ بيضاء في اسطوانة الآلة الكاتبة القديمة، وسواد الدجى يلتهم المدينة. تطايرت الكلماتُ والصورُ من بين يديّ، كما لو أنّها تثور تحرّرًا من غياهب الروح. كانت الصفحات تمتلئ دون وعيٍ أو معيار، لا سُلطةً فيها تعلو فوق فتنة السحر وتجييش الحواسّ والأفكار. لم أكن أفكّر بربّ العمل، ولا بمغرياته وتطلّباته. كنت للمرّة الأولى في حياتي أكتب لنفسي وليس لأيّ أحد آخر. كنت أكتب كي أضرم النيران في هذا العالم وأحترق فيه. وأعمل طوال الليل حتّى أسقط خائر القوى، بعد أن يدمي التنضيد على مفاتيح الآلة الكاتبة أصابعي، فيعشى بصري بالحمّى.

ذات صباح من يناير، بعد أن فقد الوقت عندي كلّ مفاهيمه، سمعتُ أحدًا يطرق على الباب. كنت مستلقيًا على السرير، هائم النظرات في صورة كريستينا الطفلة وهي تمشي يدًا بيد مع ذلك المجهول على الرصيف الذي يشقّ البحر المتلألئ بالنور. بدت لي تلك الصورة الشيء الوحيد الجميل الذي بقي عندي، ومفتاح كلّ الألغاز. تجاهلتُ طرق الباب لعدّة دقائق، حتّى سمعتُ صوتًا ما، فعرفتُ أنّ صاحبه لم يولَد لكي يستسلم.

- هيّا، افتح، أرجوك. أعلم أنّك في الداخل، ولن أنصرف ما لم تفتح الباب، وإلاّ خلعتُه.

وحين فتحتُ، تراجعت إيزابيلا خطوة إلى الوراء، ونظرت إليّ مذعورة.

- هذا أنا يا إيزابيلا.

أبعدتني، ودخلت إلى الصالة مباشرة لتفتح النوافذ على مصاريعها. ثمّ اتّجهت إلى الحمّام، وراحت تملأ الحوض. أمسكت بذراعي وسحبتني إلى هناك. أجلستني على الحافّة، وحدّقت إلى عينيّ، وهي ترفع جفنيّ بأناملها وتهزّ

رأسها. ثمّ نزعت عنّي القميص، دون أن تلفظ كلمة واحدة.

- إيزابيلا، مزاجي ليس مناسبًا.

- ما هذه الندوب؟ ما الذي فعلتَه بنفسك؟

- إنّها مجرّد خدوش.

- أريد أن يعاينك الطبيب.

- لا.

- لا أحد يجرؤ على معارضتي - ردّت بحدّة - اغطس في الحوض الآن، واستحمّ بالماء والصابون، ثم احلق لحيتك. لديك خياران: إمّا أن تستحمّ بنفسك وإمّا أن أحممّك بنفسي. إيّاك والظنّ أنّي قد أخجل.

ابتسمتُ.

- أعلم ذلك.

- افعل ما أمليتُه عليك إذن، ريثما أذهب للبحث عن طبيب.

كنت أريد أن أقول شيئًا ما، لكنّها رفعت يدها وأخرستني.

- إيّاك أن تنطق بحرف واحد. إن كنت تحسَب أنّك البائس الوحيد، فأنت واهم. وإن كان لا يعنيك أن تموت ككلبٍ شارد، فكن رحيمًا بغيرك على الأقلّ، وتذكّرْ أنّ حياتك تعنيهم، رغم أنّي في الحقيقة لا أجد سببًا لاهتمامهم بك.

- إيزابيلا...

- إلى الماء، هيّا. وانزع البنطال والسروال، من فضلك.

- أعرف كيفيّة الاستحمام.

- لا يبدو لي ذلك.

وبينما كانت إيزابيلا تبحث عن طبيب، رضختُ لأوامرها، وخضعتُ للتعميد بالمياه الباردة والصابون. لم أحلق لحيتي منذ الجنازة، وكنت أظهر في المرآة كالذئب؛ فعيناي محقنتان بالدماء، وبشرتي شاحبة كأنّي مصابٌ بالطاعون. ارتديتُ ثيابًا نظيفة وجلستُ أنتظر في الصالة. عادت إيزابيلا بعد عشرين دقيقة، رفقة أحد الأطبّاء الذي بدا لي أنّي رأيته في الحيّ.

- هذا هو المريض. لا تأخذ ما يقوله لك بعين الاعتبار، لأنّه كذّاب - صرّحت إيزابيلا.

رماني الطبيب بنظرةٍ تفحَص مدى عدائيّتي.

- تفضّل أيّها الطبيب. تصرّفْ كأنّي لست موجودًا.

بدأ الطقس المعتاد بقياس الضغط، وجسّ النبض، وفحص الفم وبؤبؤ العين، وطرح أسئلة ذات طبيعة غامضة، ونظرات حولاء تُعدّ من ركائز علم الطبّ. وحين أتى على الندوب، التي رسمتْها إيرينا سابينو على صدري بالسكّين، قوّس حاجبه وحملق إليّ.

- وما هذا؟

- يطول شرحه أيّها الطبيب.

- هل أنت من فعلها بنفسك؟

حرّكتُ رأسي نافيًا.

- سأعطيك مرهمًا، لكنّي أعتقد أنّها لن تزول.

- أعتقد أنّ هذا هو الهدف من ورائها.

واصل الطبيب معاينته. وكنت مطيعًا مسالمًا إلى أبعد الحدود، أنظر إلى إيزابيلا وهي تراقبني باضطرابٍ من عند العتبة. فأدركتُ كم افتقدتُ وجودها، وكم كنت أقدّر صحبتها.

- يا لها من حالة رعب - تمتمت بنفور.

فحص الطبيب يدي، وقطّب حاجبيه حين رأى أنّ الجلد فوق رؤوس أصابعي قد ذاب تقريبًا. فضمّدها، واحدة واحدة، وهو يتحدّث مع نفسه، بصوت منخفض.

- منذ متى لم تأكل؟

شددتُ كتفيّ، فتبادل الطبيب نظرة مع إيزابيلا.

- لا داعي للقلق، لكنّي أودّ أن تزورني في عيادتي، في ساعة لاحقة من الغد.

- أخشى أنّي لن أستطيع المجيء، أيّها الطبيب - قلت.

- سيأتي - أكدّت له إيزابيلا.

- حتّى ذلك الحين، أوصيك بأن تستعيد طعامك شيئًا فشيئًا، ابدأ بحساءٍ ساخن أوّلاً، ثمّ الوجبات الاعتياديّة. أكثِرْ من الماء والسوائل، عدا القهوة والمنبّهات الأخرى. وينبغي بك أن تستريح جيّدًا. اخرج لاستنشاق الهواء، والتنزّه تحت الشمس، دون أن تبذل جهدًا. لديك أعراضٌ معتادة من الوهن والجفاف، ومؤشّرات على فقر الدم.

تنهّدت إيزابيلا.

- لا شيء - ارتجلتُ.

نظر إليّ الطبيب متوجّسًا ونهض.

- غدًا نلتقي في عيادتي، عند الرابعة عصرًا. فهنا لا تتوفّر الأدوات والشروط لأجري لك فحصًا شاملاً.

أغلق حقيبته الصغيرة وحيّاني بلباقة. رافقته إيزابيلا إلى الباب، وسمعتُهما يتهامسان في البهو لدقيقتين. لبستُ ثيابي من جديد، وانتظرتُ جالسًا على السرير، كأيّ مريضٍ طيّع. سمعتُ إغلاق الباب، وخطوات الطبيب تنزل السلالم. كنت أعلم أنّ إيزابيلا ظلّت تنتظر قليلاً في البهو قبل أن تدخل إلى غرفة النوم. وحين دخلتْ أخيرًا استقبلتُها بابتسامة.

- سأعِدّ لك شيئًا تتناوله.

- ليست لديّ شهيّة.

- هذا لا يهمّني. ستأكل شيئًا ما، ثمّ نخرج معًا لتستنشق بعض الهواء. نقطة انتهى.

أعدّت لي حساءً، رميتُ فيه كِسر الخبز، وارتشفتُه بهناء رغم أنّ مذاقه كان يشبه الحجارة. أفرغتُ الطبق وأظهرتُه لإيزابيلا التي كانت بجواري، تشدّد رقابتها عليّ كأنّها ملازمٌ في الجيش. بعدئذ، جرّتني إلى غرفة النوم وبحثت عن معطفٍ في الخزانة. وجلبت القفّاز والشال، ودفعتني نحو الباب. وعند خروجنا، كانت الريح تهبّ باردةً، لكنّ السماء تتألّق بشمسٍ توشك على الغروب، لتصبغ الشوارع بلون الكهرمان. أمسكت بيدي ورحنا نمشي.

- كأنّنا مرتبطان - قلت.

- يا لخفّة ظلّك.

ذهبنا إلى منتزه القلعة، ودخلنا إلى الحدائق التي تحيط بالعرائش. وصلنا إلى بِركة قريبة من النافورة الكبيرة، وجلسنا على أحد المقاعد.

- شكرًا - غمغمتُ.

لم تردّ.

- لم أسألكِ كيف حالك - أضفتُ.

- هذا ليس بالأمر الجديد.

- كيف حالك؟

شدّت إيزابيلا كتفيها.

- والداي في غاية السعادة منذ أن عدتُ إليهما. يقولان إنّ تأثيرك كان مجديًا. ليتهما يعلمان الحقيقة كلّها... بأيّ حال، الأمور تسير على وفاقٍ بيننا. ثمّ إنّي لا أجالسهما كثيرًا. أقضي جلّ الوقت في المكتبة.

- وماذا عن سيمبيري؟ كيف حاله بعد فقدان والده؟

- ليس على ما يرام.

- وكيف تسير الأمور معه؟

- إنّه رجلٌ طيّب - قالت.

ثم غاصت في صمتٍ عميق وطأطأت رأسها.

- طلب مني الزواج - قالت - منذ عدّة أيام، في إل كواتري غاتس.

نظرتُ إلى جانب وجهها، كان صافيًا وقد تلاشت عنه تلك البراءة الصبيانيّة، التي وددتُ أن أراها، ومن المحتمل أنّها لم تكن تتّسم بها.

- وبعد؟ - سألتها في النهاية.

- أجبته بأنّه عليّ أن أفكّر بالأمر.

- وهل ستفعلينها؟

تاهت نظرات إيزابيلا نحو النافورة.

- قال لي إنه يريد أن يكوّن أسرة وينجب أولادًا... وإنّنا سنعيش في البيت، فوق المكتبة، وستتحسّن أحوالنا رغم ديون السيد سيمبيري.

- حسنًا، أنت ما تزالين شابّة...

أمالت رأسها نحوي وركّزتْ في عينيّ.

- هل تحبّينه؟

ابتسمتْ بحزنٍ لا حدود له.

- وما أدراني؟ أعتقد ذلك، ربّما أقلّ ممّا يعتقد بأنّه يحبّني.

- في الظروف الحرجة، قد نخلط أحيانًا بين مشاعر الحبّ والشفقة - قلت.

- لا تقلق بشأني.

- أطلب منك فقط أن تأخذي وقتك بالتفكير.

نظر كلٌّ منّا إلى الآخر، في ظلّ شراكةٍ قويّة، لم تعد بحاجة إلى الكلمات، وعانقتُها.

- أصدقاء؟

- حتى يفرّق الموت بيننا.

4

في العودة إلى البيت، توقّفنا عند محلّ أغذية في شارع كوميرثو لنشتري الخبز والحليب. قالت إيزابيلا إنّها ستطلب من أبيها أن يؤمّن لي طردًا من الأطعمة الشهيّة، ومن الأفضل أن آكلها كلّها.

- كيف تسير أمور المكتبة؟ - سألتها.

- نسبة المبيعات انحدرت جدًا. أظنّ أنّ الناس يعزّ عليها دخول المكتبة بعد رحيل السيّد سيمبيري. والحال هذه، فإنّ الحسابات لا تبشّر بخير.

- وكيف الحسابات؟

- بالحضيض. خلال الفترة الأخيرة من عملي هناك، ألقيتُ نظرة على الموازنة وتبيّنتُ أنّ السيّد سيمبيري، رحمه الله، كان كارثة حقيقيّة. كان يهدي الكتب لمن لا يستطيع دفع ثمنها. أو يعيرها لهم ولا يعيدونها. كان يشتري تشكيلاتٍ من الكتب، رغم يقينه بأنّها لن تباع، إنّما كي ينقذها من أصحابها الذين ضاقوا ذرعًا بها وأرادوا حرقها أو رميها بعيدًا. وكان يتصدّق على حثالةٍ من أشباه الشعراء، الصعاليك والمستهترين. فتخيّل العواقب.

- هل يرسل الدائنون طلباتٍ بإيفاء المستحقّات؟

- طلبان في اليوم، ناهيك عن تحذيرات المصرف. لكنّ الخبر السارّ أنّنا نتلقّى عروضًا.

- عروضٌ لشراء المحلّ؟

- جاء لحّامان من ڤيك، وكانا عازميَن على شرائه.

- وما رأي سيمبيري الابن؟

- رأيه أنّه لا ينبغي التبذير بأيّ قطعةٍ من لحم الخنزير. النظرة الواقعيّة ليست من خصاله. يقول دومًا إنّنا قادران على المتابعة، وإنّه عليّ الوثوق بكلامه.

- وأنتِ، ألا تثقين بكلامه؟

- أنا أثق بعلم الحساب. حين أجري الحسابات، أستنتج أنّ واجهة المكتبة ستمتلئ بلحوم السلامي والأحشاء والنقانق البيضاء، في أقلّ من شهرين.

- سنجد حلاً.

ابتسمت إيزابيلا.

- كنت أتوقّع أنّك ستقول ذلك. وبمناسبة الحديث عن الحسابات المعلّقة، هلاّ قلت لي بأنّك تخلّيت عمّا طلبه منك ربّ العمل؟

أظهرتُ لها يديّ النظيفتين.

- إنني حرٌّ من جديد - قلت.

رافقتني حتّى السلالم، وحين أوشكتْ على الانصراف، رأيتُها حائرة.

- ما بك؟ - سألتها.

- كنت أفكّر ألاّ أخبرك بالأمر ولكن... ولكنّي أفضّل أن تعرفه منّي وليس من الآخرين. أمرٌ يخصّ السيّد سيمبيري.

دخلنا وجلسنا في الصالة، أمام النار التي أغدقتها إيزابيلا بقطعتين من الحطب. ما يزال رماد «النور الأبديّ»، لمؤلّفه دييغو مارلاسكا، هناك. رمتني مساعِدتي بنظرةٍ خارقة.

- كنت تحدّثينني بشأن سيمبيري.

- عرفتُ بالأمر من جاره، الدون أناكليتو. قصّ عليّ أنّه، خلال عودته إلى البيت، في المساء الذي توفّي فيه السيّد سيمبيري، سمعه يتشاجر مع أحد الزبائن، حتّى إنّ الأصوات وصلت إلى الشارع.

- مع من كان يتشاجر؟

- مع امرأة. متقدّمة في السنّ. يقول الدون أناكليتو إنّه لم يرها في تلك المنطقة من قبل، رغم أنّ وجهها مألوفٌ نوعًا ما. لكنّ كلام الدون أناكليتو ليس موثوقًا كفاية؛ فهو يحبّ ظروف الزمان والمكان أكثر من عشقه للحلويات.

- هل فهم سبب المشاجرة؟

- بدا له أنّهما يتحدّثان عنك.

- عنّي أنا؟

أومأت إيزابيلا بنعم.

- كان الابن قد خرج لحظاتٍ كي يسلّم طلّبية في شارع كانودا. لم يغب عن المحلّ أكثر من ربع ساعة. وحينما عاد، وجد والده على الأرض خلف المصطبة. كان ما يزال يتنفّس، لكنّ البرد اجتاح جسده. أمّا الطبيب، وصل متأخّرًا.

شعرتُ بأنّ العالم يتداعى فوق رأسي.

- لم يكن عليّ أن أخبرك... - تمتمت إيزابيلا.

- بل خيرًا فعلتِ. أ لم يقل الدون أناكليتو أيّ شيء آخر عن تلك المرأة؟

- لم يضف شيئًا على المشاجرة. بدا له أنّهما كانا يتجادلان حول كتاب. المرأة تريد شراءه، والسيّد سيمبيري يرفض بيعه.

- ولماذا يذكران اسمي؟ لم أفهم.

- لأنّك مؤلّف الكتاب. «خطوات السماء». النسخة الوحيدة الموجودة لدى السيّد سيمبيري، وكان يحفظها في مجموعته الشخصيّة، لم تكن معروضة للبيع...

اكتسحني يقينٌ غامض.

- والكتاب؟... - بادرتُ.

- لم يعد موجودًا. لقد اختفى - أكملت إيزابيلا - تفقّدتُ السجلّ، إذ كان السيّد سيمبيري يدوّن فيه كلّ الكتب التي يبيعها، بالتاريخ والسعر. لم أعثر على أيّ دليل.

- هل ابنه يعلم شيئًا؟

- لا. لم أروِ ما حدث إلاّ لك. وما زلتُ أحاول استيعاب ما جرى ذلك المساء في المكتبة. وأسبابه. ظننتُ أنّك قد تفيدني أنت بشيء ما...

- تلك المرأة حاولت الاستيلاء على الكتاب بالقوّة، وخلال المشاحنة، أصيب السيّد سيمبيري بذبحة قلبية. هذا ما جرى - قلت - وكلّ هذا من أجل كتابي الملعون.

تلوّت أمعائي وتخبّطت.

- ثمّة شيء آخر - قالت إيزابيلا.

- ما هو؟

- بعد عدّة أيام، صادفتُ الدون أناكليتو على السلالم. قال لي إنّه توصّل إلى ما يذكّره بتلك المرأة. لم يفهم شيئًا في اللحظة الأولى، لكنّه شعر بأنّه رآها منذ أعوام بعيدة. في المسرح.

- في المسرح؟

أومأتْ بنعم.

- أكّد لي أنّ المرأة التي رآها ذلك المساء، في المكتبة، هي إيرينا سابينو.

غرقتُ في صمتٍ عميق، وإيزابيلا ترمقني باضطراب.

- لستُ مطمئنّة لبقائك بمفردك هنا. وربّما لم يكن عليّ أن أخبرك.

- بل أحسنت صنعًا. إنّي بخير حقًّا.

هزّت إيزابيلا رأسها.

- هذه الليلة سأبقى معك.

- ألا تخشين على سمعتكِ؟

- سمعتكَ هي التي في خطر، الآن. سأذهب إلى محلّ والدي لأتصلّ بالمكتبة وأنوّه...

- لا داعي يا إيزابيلا.

- لم يكن من داعٍ لو أنّك رضيتَ أن تعيش في القرن العشرين، وأوصلتَ الهاتف إلى هذا المدفن. سأعود بعد ربع ساعة. لا تناقش!

في غياب إيزابيلا، خامرني الشعور بالذنب من أنّ صديقي العجوز سيمبيري قد مات بسببي، فأنّبني ضميري. تذكّرتُ أنّ البائع العجوز كان يقول دومًا إنّ كلّ كتابٍ تعيش فيه روحٌ ما، روح من ألّفه، وأرواح من قرؤوه وعاشوا وحلموا بفضله. أدركتُ إذن أنّه ناضل حتى اللحظة الأخيرة للذود عنّي، مضحّيًا بروحه في إنقاذ ورقٍ وحبرٍ كان يؤمن بأنّهما يحفظان روحي المكتوبة. حين عادت إيزابيلا، محمّلةً بخيرات محلّ والدها، اكتفت بنظرةٍ كي تفهم مخاوفي.

- أنت تعرف تلك المرأة - قالت - المرأة التي قتلت السيّد سيمبيري...

- أعتقد ذلك. إيرينا سابينو.

- أليست تلك الممثّلة التي تظهر في الصور القديمة، التي وجدناها في الغرفة آخِر الممرّ؟

أومأتُ مؤكّدًا.

- ولماذا كانت تريد ذلك الكتاب؟

- لا أدري.

بعد أن تناولنا القليل من أطعمة خان جسبرت، جلسنا قبالة الموقد، على الديوان الذي اتّسع لكلينا. أسندت إيزابيلا رأسها إلى كتفي، بينما كنّا نشاهد سعير النار.

- منذ ليلتين، حلمتُ بأنّي أنجبتُ ولدًا - قالت - كان يناديني لكنّي لم أكن أستطيع سماعه ولا الوصول إليه، لأنّي كنت سجينةً في مكان بارد، ولا سبيل للخروج منه. كان يناديني لكنّي لا أستطيع الركض نحوه.

- إنّه مجرّد حلم - قلت.

- كان يبدو حقيقيًّا.

- ربّما عليكِ أن تكتبي هذه القصّة - ارتجلتُ.

هزّت إيزابيلا رأسها.

- فكّرتُ في الأمر. وقرّرتُ أنّي أفضّل أن أعيش الحياة على أن أكتبها. لا تغضب من هذا!

- يبدو لي قرارًا حكيمًا.

- وأنت؟ هل ستعيشها؟

- أخشى أنّي عشتُ بما فيه الكفاية من حياتي.

- وتلك المرأة؟ كريستينا؟

حبستُ أنفاسي.

- لقد رحلتْ. عادت إلى أحضان زوجها. وهذا قرارٌ حكيمٌ أيضًا.

انتفضت إيزابيلا ونظرتْ إليّ باستغراب.

- ما بكِ؟ - سألتها.

- أعتقد أنّك مخطئ.

- بخصوص ماذا؟

- منذ أيام، زارنا غوستابو برسلوه وتحدّثنا عنك. قال لي إنّه التقى زوج كريستينا ذاك...

- پيدرو ڤيدال.

- بالضبط. على حدّ زعمه، فإنّ كريستينا قد رحلت معك. لم يرها ولم يعرف عنها شيئًا منذ شهر أو أكثر. وفي الحقيقة، فوجئتُ بأنّها ليست هنا، لكنّي لم أجرؤ على السؤال...

- هل أنت متأكّدة من أنّ برسلوه قال ذلك؟

هزّت رأسها إيجابًا.

- ما بكَ الآن؟ - سألتْ إيزابيلا بارتياب.

- لا شيء.

- ثمّة ما تخفيه عني...

- كريستينا ليست هنا. رحلتْ في اليوم الذي توفّي فيه السيّد سيمبيري.

- فأين هي إذن؟

- لا أدري.

راودنا الصمت شيئًا فشيئًا، ونحن متقوقعان على ذلك الديوان، قبالة النار. تقدّم الليل، فغفت إيزابيلا. شبكتُها بذراعيّ وأغمضتُ عينيّ مفكّرًا، لعلّي أستخلص ممّا قالته شيئًا مفيدًا. وعندما لاح الغسق على زجاجيّات الصالة، فتحتُ عينيّ لأرى أنّ إيزابيلا قد استيقظتْ من قبل، وهي تمعن النظر إليّ.

- صباح الخير - قلتُ.

- فكّرتُ - بادرتْ.

- بم؟

- فكّرتُ في قبول عرض ابن السيد سيمبيري.

- هل أنت واثقة؟

- لا - ضحكتْ.

- ما رأي والديك؟

- سيعارضان الفكرة، على ما أعتقد، لكنّهما سيتأقلمان لاحقًا. لعلّهما يفضّلان أن أتزوّج بتاجرٍ لحومٍ ثريّ، بدلاً من بائع كتب معدَم. لكنّهما سيتقبّلان الأمر.

- يظلّ أفضل من خيارات أخرى - قلت.

أومأتْ إيزابيلا.

- أجل. كنت سأخاطر في الزواج من كاتب.

تبادلنا نظرةً مطوّلة إلى حين نهضتُ عن الديوان. ارتدت المعطف وعقدت أزراره، موليةً إليّ ظهرها.

- عليّ أن أذهب - قالت.

- شكرًا على بقائك معي - أجبتُ.

- لا تتركْها تفلت من بين يديك - قالت إيزابيلا - ابحث عنها، أينما كانت، وقل لها إنّك تحبّها، حتّى لو كنتَ تكذب. نحن الفتيات نحبّ سماع هذه الكلمة.

وحينها فقط، التفتتْ إليّ، وانحنت لتلمس ثغرها بثغري. صافحتْ يدي بشدّة، وخرجتْ دون أن تودّعني.

5

قضّيتُ بقيّة ذلك الأسبوع أجوب برشلونة، بحثًا عن أيّ أحدٍ يذكر أنّه رأى كريستينا في الآونة الأخيرة. ذهبتُ إلى الأماكن التي زرناها معًا، واتّبعتُ خطّ تنقّلات ڤيذال بين المقاهي والمطاعم والمحلاّت الفاخرة التي يرتادها، عبثًا. كنتُ أسأل أيّ شخصٍ ألتقي به، وأريه إحدى صورها، من الألبوم الذي تركتْه في بيتي، علّه يتذكّر إذا صادفها مؤخّرًا. ومن جهة أخرى، التقيتُ بعدّة أشخاص، أكّدوا لي بأنّهم رأوها أحيانًا برفقة ڤيذال، وتمكّن أحدهم من تذكّر اسمها أيضًا. ولكن لا أحد منهم صادفها خلال الأسابيع الأخيرة. وبعد اليوم الرابع من البحث، خلصتُ إلى أنّها، حين خرجتْ من بيت البرج، بينما ذهبتُ لشراء التذاكر، قد تبخّرت من على وجه الأرض.

تذكّرتُ حينذاك أنّ آل ڤيذال يملكون غرفةً محجوزة باسمهم، في فندق إسبانيا في شارع سانت باو، خلف مسرح المعهد، تحت تصرّف أفراد العائلة الذين قد ينزلون فيها بعد أمسيات الأوبرا، إذا تكاسلوا من العودة إلى بيدرالبيس في ساعة متأخّرة من الليل. وقد تبيّن لي في الماضي، أنّ ڤيذال، والسيّد أباه في سنوات مجده، قد استخدماها للتمتّع بمحاسن آنساتٍ وسيّداتٍ، ليس من الجدير استضافتهنّ في مقام العائلة، تجنّبًا للنميمة والشبهات، سواءً أكنّ ينتمين للطبقة العليا أم تلك السفلى. وقد عرضها عليّ ڤيذال أكثر من مرّة، حين كنت أقيم في نزل السيّدة كارمن، في حال جاءتني رغبةٌ بتعرية إحدى السيّدات في مكانٍ آمن، على حدّ تعبيره. لم أكن أعتقد أنّ كريستينا اختارت تلك الغرفة كمأوىً تلوذ فيه، ولعلّها لا تعلم بوجودها أساسًا، لكنّه كان آخر الاحتمالات لديّ. ساد الظلام حين وصلتُ إلى فندق إسبانيا، وطلبتُ التكلّم مع المدير، منتهزًا صداقتي بالسيّد ڤيذال. حين أريتُه صورة كريستينا، ابتسم المدير بلباقةٍ تجعله كائنًا جليديًا، وقال إنّ «آخرين»، من قِبل السيّد ڤيذال، جاؤوا وسألوا عن هذه السيّدة، قبل عدّة أسابيع، فأجابهم بمثل ما أجابني. لم يرها في فندقه أبدًا. فشكرتُه على لباقته الجليديّة، وسرتُ نحو المَخرج محبطًا.

وفيما كنتُ أمرّ بالواجهة الزجاجيّة، التي يُشرف عليها مطعم الفندق، خُيّل إليّ أنّي ألمح وجهًا مألوفًا، بطرف عيني. كان ربّ العمل جالسًا إلى إحدى الطاولات، كزبونٍ وحيد في المطعم، وبدا أنّه ينهش قِطَع السكّر إلى جانب القهوة. حاولتُ الفرار مستعجلاً، لكنّه التفت مبتسمًا وحيّاني بيده. فجدّفتُ بالحظّ العاثر، وأجبتُه على التحيّة. دعاني إلى الانضمام إليه، فجرجرتُ نفسي حتّى باب المطعم ودخلتُ.

- يا لها من مفاجأة سارّة أن أجدك هنا، يا صديقي العزيز. كنت أفكّر فيك للتوّ - قال كوريلي.

صافحتُ يده على مضض.

- كنت أظنّ أنّ حضرتك خارج المدينة - نوّهتُ.

- لقد عدتُ قبل المتوقّع. هل تودّ أن تشرب شيئًا ما؟

أومأتُ نافيًا. دعاني للجلوس إلى طاولته، فأطعتُ. كعادته، كان الناشر يرتدي بذلةً كاملةً من القماش الأسود، وربطة عنقٍ من حرير أحمر. كانت رباطة جأشه لا تُقاوَم، ولكن هذه المرّة ثمّة شيءٌ مختلف. أمعنتُ النظر فيه عدّة دقائق. لم أرَ وسام الملاك على عروة سترته. انتبه كوريلي إلى نظرتي وهزّ رأسه.

- للأسف، لقد أضعتُه في مكانٍ ما - فسّر.

- آمل ألاّ يكون باهظ الثمن.

- قيمته معنويّة بحت. دعنا نتحدّث عن أمور أكثر أهميّة. كيف حالك يا صديقي؟ لقد اشتقتُ إلى نقاشاتنا كثيرًا، رغم الخلافات الحاصلة. من الصعب العثور على مخاطبين مميّزين.

- أنت تُعلي شأني، يا سيّد كوريلي.

- على العكس.

أطبق صمتٌ وجيز، لا يرافقه شيءٌ سوى تلك النظرة التي لا قرار لها. كنتُ أفضّل أيّ نقاش سخيفٍ، يستفيض به هذا الرجل، على تحمّل تلك النظرة. حين كان يكفّ عن الكلام، كانت ملامحه تتغيّر، وتتكدّر الأجواء من حوله.

- هل استأجرتَ غرفة هنا؟ - سألتُه كي أحطّم الصمت.

- لا، ما زلت أنزل في تلك الفيلا المواجهة لمنتزه غويل. لقد حدّدتُ موعدًا هنا مع أحد أصدقائي، إلاّ أنّه قد تأخّر، على ما يبدو. يحزنني انعدام التربية عند بعض الأشخاص.

- أعتقد أنّهم قلّةٌ، أولئك الذين يجرؤون على الاستخفاف بك يا سيّد كوريلي.

حدّق الرئيس إلى عينيّ.

- هم قلّة. في الواقع، لا يخطر في بالي أحدٌ منهم إلاّ أنت.

أمسك بقطعة سكّر ورماها في الفنجان. ثمّ أتبعها بقطعة ثانية، فثالثة. تذوّق القهوة ثمّ جاد عليها بقطعةٍ رابعة. أمّا الخامسة، حملها إلى شفتيه.

- أعشق السكّر حدّ الجنون - قال.

- أرى ذلك.

- هلاّ أخبرتني عن مستجدّات مشروعنا يا صديقي؟ - أوجز - هل من مشكلة؟

- أوشك على إنجازه - قلت.

أشرق وجه الناشر بابتسامةٍ فضّلتُ أن أتحاشاها.

- هذا نبأ عظيمٌ فعلاً. متى بإمكاني أن أراه تامًّا؟

- في غضون أسبوعين. عليّ أن أراجعه أوّلاً. تصحيحات، ولمسات أخيرة، لا أكثر.

- هل نحدّد موعدًا؟

- كما تشاء...

- ما رأيك بيوم الجمعة 23؟ هل تقبل دعوةً منّي على العشاء احتفالاً بنجاح المشروع؟

ثمّة أسبوعان بالضبط تفصلنا عن يوم الجمعة 23 يناير.

- موافق - قلت.

- قُيّد الموعد إذن.

رفع فنجان القهوة الذي يغصّ بالسكر، كأنّه يشرب النخب، وازدرده برشفة واحدة.

- وأنت؟ - سأل فجأة - ما الذي جاء بك إلى هذه الأنحاء.

- كنت أبحث عن شخص.

- هل أعرفه؟

- لا.

- وهل وجدته؟

- لا.

ابتسم ربّ العمل ببطء، يتلذّذ بالبَكَم الذي اعتراني.

- أشعر بأنّي أرغمك على البقاء يا صديقي.

- إنّي متعبٌ قليلاً، ليس إلاّ.

- لن آخذ مزيدًا من وقتك إذن. غالبًا ما أنسى أنّ صحبتي قد لا تطيب لك بقدر ما تروقني صحبتك.

ابتسمتُ بعفويّة واقتنصتُ الفرصة للنهوض. رأيتُ انعكاس وجهي في بؤبؤ عينيه، لكأنّي مجرّد دميةٍ مغمومةٍ ومرميّة في قاع بئرٍ ظلماء.

- انتبه على نفسك يا مارتين. أرجوك.

- سأفعل.

انصرفتُ بإيماءةٍ راضية، واتجهتُ نحو الباب. وبينما كنت أبتعد، أحسستُ بأنّه يلتهم قطعةً سكّر أخرى، ويقضمها بأسنانه.

في الطريق نحو لاس رامبلاس، رأيتُ الأنوار مضاءةً عند مواقف مسرح المعهد، وثمّة طابورٌ طويلٌ من السيّارات، يحرسها فوجٌ من السائقين، يرتدي كلٌّ منهم بزّةً أنيقة. اللافتات تعلن عن أوبرا «كلّ النساء يفعلن هكذا» لموزارت، فتساءلتُ عمّا إذا قرّر ڤيذال الخروج من قصره كي لا يفوّت موعده المعتاد. فتّشتُ بين جمع السائقين، وسرعان ما عثرتُ على بيب. فأشرتُ إليه بالاقتراب.

- ماذا تفعل هنا يا سيّد مارتين؟

- أين هي؟

- السيّد في الداخل، يشاهد العرض.

- لا أقصد الدون پيدرو. بل كريستينا. السيّدة ڤيذال. أين هي؟

مضغ ريقًا.

- لا أدري. لا أحد يدري.

روى لي أنّ ڤيذال يحاول اقتفاء أثرها منذ أسابيع، وأنّ أباه عرّاب العائلة جنّد بعض عناصر الشرطة أيضًا لتحديد موقعها.

- بادئ الأمر، شكّ السيّد بأنّها مع حضرتك...

- ألم تتّصل أو تبعث رسالة أو برقيّة...؟

- لا يا سيّد مارتين. أقسم لك. نحن قلقون جميعًا بشأنها؛ والسيّد... لم أره مهمومًا هكذا منذ أن عرفته. هذه أوّل أمسيةٍ يخرج فيها من البيت، منذ أن غادرت الآنسة، أقصد السيّدة...

- هل تذكر أنّ كريستينا قالت شيئًا ما، أيّ شيء، قبل أن تهجر ڤيلا هيليوس؟

- حسنًا... - قال بيب مخفضًا نبرة صوته حتّى بات همسًا - كنت أسمع شجارها مع السيّد، وأراها حزينة. كانت تفضّل أن تبقى وحيدةً معظم الوقت. وكانت تكتب رسائل، وتذهب كلّ يوم لتبعثها من مكتب البريد في شارع الملكة إليزندا.

- هل تحدّثتَ إليها على انفراد؟

- ذات يوم، قبل أن ترحل بقليل، طلب منّي السيّد أن أصحبها بالسيّارة إلى الطبيب.

- هل كانت مريضة؟

- كان الأرق يمنعها من النوم. فوصف لها الطبيب مهدّئ الأفيون.

- هل باحت لك بشيء خلال الرحلة؟

شدّ بيب كتفيه.

- سألتْني عمّا إذا كنتُ قد صادفتُكَ، أو إن كنت أعرف أخبارك.

- ولم تضف شيئًا آخر؟

- كانت حزينة للغاية. أخذت بالبكاء. وحين سألتُها إن كانت على ما يرام، ردّت بأنّها تفتقد والدها كثيرًا، العمّ مانويل...

فهمتُ أخيرًا. لعنتُ نفسي. كيف غاب عن بالي؟ نظر إليّ بيب مستغربًا وسألني عن سبب ابتسامتي.

- هل حضرتك تعرف مكانها؟ - سأل.

- أعتقد ذلك - غمغمتُ.

بدا لي حينذاك أنّي أسمع نداءً من الرصيف المقابل، ولمحتُ وجهًا مألوفًا يخرج من ردهة المسرح. لم يقاوم ڤيذال حتّى نهاية الفصل الأول. التفت بيب برهةً ليجيب سيّده، وقبل أن ينصحني بالاختباء، كنتُ قد اختفيتُ في حلكة الليل.

6

لا تُخفي المسافةُ مظاهرَهم الدالّة على شؤمٍ لا ريب فيه. سجائرٌ تستعر جمراتها في عتمة الليل، أجسادٌ تتكئ إلى الجدران السوداء، وزفرات البخار من أفواه ثلاثة وجوهٍ تطوّق بوّابة بيت البرج. المحقّق ڤيكتور غراندس، ومعه العميلان ماركوس وكاستيلو، بزيٍّ أنيق يصلح للسهرات. ولا يصعب التكهّن بأنّهم اكتشفوا جثّة الأرملة في قعر مسبح بيتها، في ساريا، فتصاعدت أسهمي كثيرًا في بورصتهم السوداء. توقّفتُ ما إن رأيتُهم، وغطستُ في ظلال الطريق. راقبتُهم بضع ثوانٍ، متيقنًا من عدم انتباههم لوجودي على بُعد خمسين مترًا عنهم. حتّى إنّي استطعتُ تمييز وجه غراندس، بفضل المصباح المعلّق على البوّابة فوق رأسه. تراجعتُ ببطء، محتميًا بالظلام الذي غمر الشوارع، وملِصتُ في أوّل زقاقٍ، ملتجِئًا إلى عقدة الدروب والأقواس في حيّ ريبيرا.

بعد عشر دقائق، بلغتُ أبواب محطّة فرنسا. كان شبّاك التذاكر مغلقًا منذ ساعات، رغم وجود الكثير من القطارات الجاثمة على السكك تحت قبّة الزجاج والفولاذ الضخمة. رحت أطّلع على قائمة المواعيد، وكما كنتُ أخشى، لا قطار قبل الفجر. لم يعد بوسعي المخاطرة بالعودة إلى البيت، فقد أصطدم بغراندس ورفيقيه ثانيةً. حدسي يحدّثني أنّ زيارة المخفر هذه المرّة ستدوم طويلاً، ولن يتمكّن أفضل المحامين، بما فيهم ڤاليرا، من إخراجي بسهولة كالمرّة السابقة.

قرّرتُ أن أقضي الليل في فندقٍ رخيص، قبالة مبنى البورصة، في ساحة بالاثيو، حيث تقول الأسطورة إنّه مرتعٌ للجثث الحيّة، التي كان أصحابها من قدامى المضاربين في البورصة، وقد انفجر الجشع والهوس بالحسابات في وجوههم، لشدّة دورانهم في البيت. اخترتُ ذلك الكهف متيقّنًا من أنّ أيادي القَدَر لن تبحث عنّي هناك. قدّمتُ نفسي باسم مستعار، أنطونيو ميراندا، ودفعتُ سلفًا. وكان الحارس يشبه الحلزون، متقوقعًا في كشك المراقبة المخصص للاستقبال وتوزيع المناشف وبيع التذكارات السياحيّة. أعطاني مفتاح الغرفة وقطعة صابون، من نوع إيلسيد كامبيادور، التي تفوح منها نتانة المعقّمات، ناهيك عن أنّها بدت لي مستعملة. ثمّ سألني عن رغبتي برفقةٍ نسائيّة؛ بإمكانه إيفاد منظّفة الغرف، الملقّبة بغوريثا، حالما تعود من زيارةٍ منزليّة.

- ستعيد لك ألقك - صرّح.

رفضتُ العرض متذرّعًا بآلام أسفل الظهر، وصعدتُ السلالم متمنيًّا له ليلة سعيدة. كان مظهر الغرفة وأبعادها أشبه بالقبر. نظرةٌ خاطفة أقنعتني بالاستلقاء على هيكل السرير بثيابي، بدل أن ألتحف الأغطية وأتآلف مع المخلوقات الغريبة تحتها. تدثّرتُ بغطاءٍ ممزّق، عثرتُ عليه في الخزانة، وكانت تعربد فيه كلّ الروائح النتنة، ولحسن الحظّ أنّ النفتلين من بينها. أطفأتُ الضوء، متخيّلاً بأنّي في أحد الأجنحة التي ينزل فيها مَن بحوزته مائة ألف فرنك في رصيده. وتمكّنتُ بالكاد من غمض عينيّ.

غادرتُ الفندق أوّل الصباح، وذهبتُ إلى المحطة. اشتريتُ تذكرةً في الطبقة الأولى، آملاً أن يعوّضني القطار عمّا فاتني من نعاسٍ في ذلك الكهف. تبقّت عشرون دقيقة على الانطلاق، فاتّجهتُ إلى كبائن الهاتف العموميّ. لقّنتُ على موظّف السنترال الرقمَ الذي أعطاني إيّاه ريكاردو سالڤادور، رقمَ جيرانه في الطابق الأسفل.

- أودّ التكلّم مع إيميليو، من فضلك.

- أنا إيميليو.

- اسمي داڤيد مارتين. أنا صديق السيّد ريكاردو سالڤادور. لقد أخبرني بأنّي أستطيع الاتصال به على هذا الرقم، في حالة طارئة.

- حسنًا... هلاّ انتظرتَ لحظة كي نُعلِمه؟

- لا بأس - أجبتُه بعد أن نظرتُ إلى ساعة المحطّة - سأنتظر. شكرًا.

مضت أكثر من ثلاث دقائق قبل أن يتناهى إلى مسامعي صوتُ خطىً تدنو، ثمّ صوتُ ريكاردو سالڤادور يسكب الطمأنينة في قلبي.

- مارتين؟ هل أنت بخير؟

- أجل.

- حمدًا لله. قرأتُ في الجريدة خبر روريس فقلقتُ بشأنك. أين أنت الآن؟

- سيّد سالڤادور، ليس لديّ الكثير من الوقت الآن. عليّ أن أتغيّب عن المدينة.

- هل أنت واثق من أنّك بخير؟

- أجل. اسمعني. أليثيا مارلاسكا ماتت.

- الأرملة؟ ماتت؟

حلّ صمتٌ طويل. بدا كأنّي أسمع شهقاته، فندمتُ على سماجتي في إخباره بما وقع.

- ما زلتَ على الخطّ؟

- أجل...

- اتّصلتُ بك كي أحذّرك. اتّخذْ كامل الحيطة. إيرينا سابينو حيّة وتطاردني. ثمّة أحدٌ يعاونها. أعتقد أنّه خاكو.

- خاكو كوربيرا؟

- لست متأكدًا. أعتقد أنّهما يعلمان بأنّي أتقفّى آثارهما، ويحاولان الإجهاز على جميع أولئك الذين تحدّثتُ إليهم. يبدو لي أنّك كنت محقًّا...

- ولكن ما الذي يدفع خاكو للعودة الآن بالتحديد؟ - سأل سالڤادور - هذا ليس منطقيًّا.

- لا أعرف. عليّ أن أذهب الآن. ما أردتُ سوى أن أحيطك علمًا.

- لا تقلق بشأني. سأكون متأهّبًا إذا ما جاء ابن العاهرة لزيارتي. إنّي أنتظر هذه اللحظة منذ خمسة وعشرين عامًا.

أعلنت صفّارة مدير المحطّة عن انطلاق القطار.

- لا تثق بأحد. هل فهمت؟ سأتّصل بك حالما أعود إلى المدينة.

- شكرًا على اتصالك يا مارتين. توخّ الحذر يا صديقي.

7

كان القطار قد بدأ بانزلاقه على السكّة، حين صعدتُ إلى المقصورة وهويتُ على المقعد. سلّمتُ نفسي لهواء السخّان الدافئ، وانسياب القطار. وتركنا المدينة وراءنا، باجتياز غابة المصانع والمداخن المحيطة بها، والفرار من كفن النور القرمزيّ الذي يغطّيها. وشيئًا فشيئًا، ذابت المنطقة المهملة، المليئة بالمخازن الإسمنتيّة والقطارات المتوقّفة على السكك الميّتة، في سطحٍ شاسع من الحقول والتلال المتوّجة بالأكواخ، المطلّة على مناظر خلاّبة من أدغالٍ وأنهار. كنّا نمرّ بمحطّاتٍ صغيرةٍ بسرعة قصوى، فيما يكتنف السرابُ أجراس الكنائس ومباني الريّ في الأفق.

غفوتُ عند نقطةٍ متقدّمة من الرحلة، وحين استيقظتُ كان المشهد قد تغيّر كليًّا. كنا نعبر وديانًا فسيحةً شديدة الوعورة، وصخورًا شاهقة تنتأ بين البحيرات والجداول. كان القطار يحاذي غاباتٍ واسعة تصعد سفوح الجبال التي لا حصر لها. ثمّ تجاوزنا سلسلة الجبال، والأنفاق المحفورة في الصخور، لنقبِل على وادٍ مفتوح وواسع، يُشرف على سهولٍ لا حدود لها حيث تعدو قطعان الخيول البرّيّة على الثلج، وتبرز القرى الصغيرة، ذات البيوت الحجريّة، في المدى؛ فيما ترتفع قمم سلسلة البرانس على الجانب الآخر، وسفوحها المثلِجة تشتعل بألوان الشفق. وفي الأمام، ثمّة مجموعةٌ من البيوت والمباني تتكدّس عند أحد التلال. أطلّ المراقب برأسه إلى المقصورة وابتسم في وجهي.

- بيغثيردا هي المحطّة التالية.

توقّف القطار وهو ينفث زوبعةً من بخارٍ يهيمن على الرصيف. نزلتُ لأجد نفسي مطوّقًا بذلك الضباب المشحون بالكهرباء. ثمّ دوّى جرس مدير المحطّة، فاستعادت القافلة مسيرها. وكلّما انزلقت عربات القطار على السكّة، ظهرت واجهة المحطّة كالسراب أمام عينيّ. إذ كان البَرَد ينهمر ببطء رهيب، ليشكّل حجابًا رقيقًا صبغتْه شمس الأصيل بلونها الأرجوانيّ، فغدا جمراتٍ مشتعلةً تتساقط من الغمام. اقتربتُ من مكتب مدير المحطّة. طرقتُ على الزجاج فرفع عينيه. فتح النافذة، وتوجّه إليّ بنظرة مستهترة.

- هلاّ أخبرتني أين أجد مكانًا يدعى ڤيلا سان أنطونيو؟

قوّس المدير حاجبه.

- المستوصف؟

- أعتقد ذلك.

اتخذ المدير تعبيرًا يوحي بالتأمّل العميق لمن يقيّم كيفيّة تزويد الأجانب بالعناوين والإرشادات؛ وبعد أن استنفد ما عنده من زفراتٍ وحركات يد، أمطرني بالوابل التالي:

- ينبغي أن تقطع البلدة، وتقطع ساحة الكنيسة حتّى تصل إلى البحيرة. على الجانب الآخر، ستدخل شارعًا طويلاً، مصفوفًا بالقصور، وصولاً إلى ممشى دي لا ريغوليزا. هناك، عند التقاطع، يوجد مبنىً كبير، مؤلّفٌ من ثلاثة طوابق، مسوّرٌ بحديقة. هو ذاك المستوصف.

- وهل لك أن تدلّني على نزلٍ أستأجر فيه غرفة؟

- على طول الطريق، ستمرّ أمام فندق البحيرة. قل لهم إنّ سيباس أوصى بك.

- شكرًا.

- حظًّا سعيدًا.

قطعتُ طرقات البلدة المقفرة تحت الثلج، بحثًا عن جرس الكنيسة. وفي الطريق، صادفتُ بعض الأهالي، وسلّموا عليّ بتحيّة لبقة، ونظروا إليّ بطرف أعينهم. وحين وصلتُ إلى الساحة، دلّني صبيّان، يفرّغان عربة فحم، على الطريق المؤدّية إلى البحيرة. وبعد عدّة دقائق، دخلتُ في دربٍ يحاذي البركة الكبيرة المتجمّدة والبيضاء. وكانت البيوت الضخمة، ذات الهيئة الراقية، والأبراج العالية مدبّبة الرأس، تحيط بالبحيرة، إضافةً إلى شريطٍ تنتصب فيه المقاعد والأشجار، يحفّ بحيرة الجليد، التي أسرت القواربَ الصغيرة وظلّت مجاديفها عالقةً فيها. اقتربتُ من الضفّة، وتوقّفتُ لأنظر إلى مستنقع الصقيع الممتدّ تحت قدميّ. لا بدّ أنّ طبقة الجليد ثخينةٌ بسماكة شبر، وفي بعض المناطق تبعث ضوءًا كالزجاج الأغبش، يُبرز مجرى المياه الداكنة التي تنساب تحت القشرة.

أمّا فندق البحيرة عبارة عن بيتٍ كبير، مكوّنٍ من طابقين، ومطليٍّ بالأحمر القاني، عند ضفّة البحيرة. وقبل أن أتابع طريقي، توقّفتُ لأحجز غرفةً لليلتين، ودفعتُ سلفًا. فأعلمني الحارس أنّ الفندق شبه فارغ، وترك لي اختيار الغرفة.

- غرفة 101 إطلالتها فريدة على البحيرة في الفجر - قال لي - ولكنّك إن كنتَ تفضّل إطلالة إلى الشمال، لديّ...

- اختر أنت - أوجزتُ، غير آبه لجمال مناظر الغروب الأخّاذة.

- 101 إذن. في الصيف، يفضّلها كلّ العرسان في شهر العسل.

أعطاني مفتاح ذلك الجناح الزوجيّ المزعوم، وزوّدني بمواعيد العشاء. فقلت له إنّي سأعود متأخرًا، وسألته عمّا إذا كان المستوصف بعيدًا. فاتخذ الحارس التعبير نفسه الذي رأيتُه على مدير المحطة، وحرّك رأسه بابتسامة وديّة.

- قريبٌ جدًّا، مسافة عشرة دقائق. إذا سلكتَ هذه الطريق حتّى نهايتها، ستجده بوضوح.

بعد عشر دقائق، وصلتُ إلى أبواب حديقةٍ كبيرة، تنتشر فيها الأزهار المتيبّسة التي أحكم الثلجُ قبضته عليها. وفي الخلف، تنهض ڤيلا سان أنطونيو كحارسٍ عبوس مكلّلٍ بهالةٍ من نورٍ معشّق يتوهّج من النوافذ الكبرى. اجتزتُ

الحديقة بقلبٍ خافقٍ، ويدين تتعرّقان رغم شراسة البرد. صعدتُ السلالم التي تفضي إلى المدخل الرئيس. كان بلاط البهو كرقعة الشطرنج، تؤدّي إلى عتباتٍ تنزل منها فتاةً ترتدي لباس ممرّضة، وتشبك يدها بيد رجلٍ مرتجف، بدا كأنّه ظلّ معلّقًا بين تينك العتبتين مدّة طويلة، كأنّ حياته أسيرةُ لحظةٍ واحدة.

- مساء الخير - باغتني الصوت من جهة اليمين.

كانت عيناها سوداوين، ونظرتها صارمة، وملامحها حادّة، لا يعتريها أيّ دليلٍ على اللطف، وتعبير وجهها كئيب كمن لم يترقّب في حياته سوى الأنباء السيّئة. لا بدّ أنّ عمرها يناهز الخمسين عامًا؛ تتجلّى فيها كلّ مظاهر السطوة والمكانة، رغم أنّها ترتدي نفس بزّة الممرّضة الشابّة، التي ترافق العجوز.

- مساء الخير. أبحث عن سيّدة تدعى كريستينا سانغيير. هنالك أسبابٌ تدفعني للاعتقاد بأنّها ضيفة عندكم...

رمقتني دون أن يرفّ لها رمش.

- نحن لا نستضيف أحدًا هنا أيّها السيّد. هذا ليس فندقًا، ولا نزلاً.

- المعذرة. لقد قمتُ برحلةٍ طويلة بحثًا عن هذه السيّدة...

- لا تعتذرْ - قالت الممرّضة - هل لي أن أسألك إن كنتَ قريبها أم صديقها؟

- اسمي داڤيد مارتين. هل كريستينا سانغيير هنا؟ أرجوك...

لان تعبير وجهها، ثمّ استجاب لتلميح ابتسامةٍ ناعمة وأسلوبٍ لبق. فتنفّستُ الصعداء.

- أنا تيريزا، المشرفة على الممرّضين خلال المناوبة الليليّة. اتبعني يا سيّد مارتين، من فضلك. سأرافقك إلى مكتب الطبيب سانخوان.

- كيف حال الآنسة سانغيير؟ هل لي أن أراها؟

فاخترقتني بابتسامة لطيفة أخرى، أشدّ اتّقادًا.

- من هنا، لو سمحت.

أدخلتني إلى غرفةٍ مستطيلة، لا نوافذ في حيطانها الأربعة المطليّة باللون السماويّ، ينيرها مصباحان معلّقان في السقف، ويضخّان نورًا نحاسيًّا. ليس في الغرفة سوى ثلاث قطع أثاث: طاولةٌ عارية وكرسيّان. وروائح المعقّمات تحوم في أجوائها، فضلاً عن البرد الشديد. صحيحٌ أنّ الممرّضة وصفتها بالمكتب، لكنّي بعد عشر دقائق من الانتظار وحيدًا على الكرسيّ، لم أشعر بنفسي إلاّ داخل زنزانة. كان الباب مغلقًا، ورغم هذا تناهت إلى مسامعي أصواتٌ مختلفة، وصيحاتٌ منفردة خلف الجدران أحيانًا. بدأتُ أشكّ بالفترة التي قضيتُها هناك، فإذا بالباب ينفتح ويدخل منه رجلٌ، بين الثلاثين والأربعين عامًا، يرتدي مئزرًا أبيض، وابتسامة أكثر تجمدًّا من هواء الغرفة. افترضتُ أنّه

الطبيب سانخوان. التفّ حول الطاولة، وجلس على الكرسيّ قبالتي. أسند يديه إلى سطح الطاولة، ونظر إليّ بفضولٍ غريب عدّة ثوانٍ قبل أن يفتح فمه.

- أستوعب أنّ حضرتك متعبٌ، بعد رحلة طويلة، لكنّي أودّ أن أعرف لماذا لم يحضر السيّد پيدرو ڤيذال إلى هنا - قال أخيرًا.

- لم يستطع المجيء.

كان الطبيب يراقبني نافد الصبر بعينين ثابتتين. كانت نظرته باردة، وسلوكه سلوك مَن لا يسمع لكنّه يصغي.

- هل لي أن أراها؟

- لن ترى أحدًا قبل أن تقول لي الحقيقة، وأعلم ما الذي تفعله حضرتك هنا.

تنهّدتُ وأذعنتُ. لم أسافر مسافة مائة وخمسين كيلومترًا كي أكذب.

- اسمي مارتين؛ داڤيد مارتين. أنا صديق كريستينا سانغيير.

- هنا ندعوها بالسيّدة ڤيذال.

- لا يهمّني ماذا تدعونها هنا. أريد أن أراها. حالاً.

تنهّد الطبيب.

- هل حضرتك الكاتب؟

خرجتُ عن طوري فانتفضتُ واقفًا.

- أيّ نوعٍ من المستوصفات هذا؟ لماذا لا تسمحون لي برؤيتها الآن؟

- اجلس. من فضلك. أرجوك.

أشار إلى الكرسيّ، وانتظر عودتي إلى مكاني.

- هل بإمكاني أن أسألك متى التقيتَ فيها، أو تكلّمتَ معها، آخر مرّة؟

- منذ أكثر من شهر - أجبتُ - لماذا؟

- هل تعرف أحدًا قابلها، أو تكلّم معها، بعدك؟

- لا. لا أعرف. ما الذي يحدث هنا؟

رفع الطبيب يده اليمنى إلى فمه ليكظم كلماته.

- سيّد مارتين، أخشى أنّي أحمل إليكَ أخبارًا سيّئة.

أحسستُ بعقدةٍ تتشكّل في رأس معدتي.

- ما الذي حدث لها؟

نظر إليّ الطبيب دون أن يردّ، وبدا لي حينذاك أنّ طيفًا من الشكّ يجول في عينيه.

- لا أدري - قال.

مشينا في ممرٍّ على جانبيه أبوابٌ معدنيّة. كان الطبيب سانخوان يسبقني، حاملاً مجموعة من المفاتيح بيده. بدا لي أنّي سمعتُ أصواتًا خلف الأبواب، مخنوقةً بين ضحكٍ ونحيب، تهمس عند مرورنا. كانت الغرفة في آخر الممرّ. فتح الطبيب الباب وتوقّف عند العتبة، يحدّق إليّ بنظرةٍ تخلو من أيّ تعبير.

- خمسة عشر دقيقة - قال.

دخلتُ وسمعتُ الطبيب يغلق الباب خلف ظهري. وجدتُني في مكانٍ مرتفع السقف، وجدرانه البيضاء تنعكس بأرضيّة البلاط اللامع. على أحد الجوانب، ثمّة هيكل سرير معدنيّ، مغطىً بستارٍ من شاش. لا أحد يشغل السرير. وهناك نافذةٌ كبيرة واسعة تتأمّل الحديقة الغارقة في الثلج، والأشجار، وأطراف البحيرة في البعيد. لم أنتبه إليها حتّى اقتربتُ عدّة خطوات.

كانت جالسة على أريكة قبالة النافذة. ترتدي قميصًا أبيض فضفاضًا، وشعرها معقود بضفيرة. التففتُ حول الأريكة ورأيتُها. ظلّت عيناها متصلّبتين. ولم يرفّ لها رمشٌ حين انحنيتُ إليها. وضعتُ يدي على يدها، لكنّها لم تحرّك أيّ عضلة من جسمها. فلاحظتُ الضمادات تغطّي ذراعيها، من المعصم إلى المرفق، والأحزمة التي تقيّدها بالأريكة. لامستُ وجنتها لأمسح دمعةً كانت تنساب على وجهها.

- كريستينا - غمغمتُ.

ظلّت نظراتها حبيسة جهةٍ ما، ولم تكترث لوجودي. قرّبتُ كرسيًّا وجلستُ قبالتها.

- أنا داڤيد - غمغمتُ.

بقينا ربع ساعة هكذا، صامتيَن، يدها في يدي، ونظرتها هائمة، وكلامي لا يتلقّى جوابًا. وفي لحظة ما، انفتح الباب مجدّدًا، وأحسستُ بأحدٍ يمسك ذراعي برفقٍ ويسحبني بعيدًا. الطبيب سانخوان. تركتُه يقودني إلى الممرّ، دون إبداء أيّ مقاومة. أغلق الطبيب الباب ورافقني إلى ذلك المكتب المتجمّد. هويتُ على الكرسيّ، ونظرتُ إليه عاجزًا عن نطق أيّ كلمة.

- هل ترغب أن أتركك وحيدًا بعض الوقت؟ - سأل.

أومأتُ موافقًا. فانصرف الطبيب وترك الباب مواربًا. نظرتُ إلى يدي اليمنى التي كانت ترتجف بشدّة، فأحكمتُ قبضتها. لم أعد أشعر ببرودة تلك الغرفة إلاّ قليلاً، ولم أتمكّن من سماع الصرخات والأصوات التي تخترق

الجدران. فهمتُ أنّي مُثقَل الأنفاس، وأنّه عليّ الخروج فورًا من ذلك المكان.

8

وجدني الطبيب سانخوان في مطعم فندق البحيرة جالسًا قبالة الموقد، وأمامي صحنٌ لم أمسّه. لم يكن هناك أحدٌ غيري في الصالة، عدا نادلة تتجوّل بين الطاولات الخالية، وتلمّع أدوات الطعام بمنديلٍ نظيف. سجى الليلُ خلف الزجاج، وكان الثلج يتساقط ببطء، كغبارٍ من زجاجٍ لازورديّ. اقترب الطبيب من طاولتي وابتسم لي.

- توقّعتُ أن أجدك هنا - قال - ينتهي المطاف بكلّ الأجانب إلى هذا الفندق. لقد قضّيتُ فيه أوّل ليلةٍ حين وصلتُ إلى البلدة، منذ عشرة أعوام. في أيّ غرفةٍ نزلتَ؟

- في تلك التي يفضّلها العرسان في شهر العسل، والمطلّة على البحيرة، كما يبدو.

- لا تصدّقْهم. يقدّمون كلّ الغرف بهذا الوصف.

كان الطبيب أكثر أريحيّة ولطفًا، خارج المستوصف، وبدون مئزره الأبيض.

- لم أكن لأعرفك بدون البزّة - ارتجلتُ.

- الطبّ مثل الجيش. البزّة هي التي تصنع الضابط - ردّ - كيف حالك؟

- بخير. مررتُ بظروف أسوأ.

- حقًا. افتقدتُك حين عدت إلى المكتب ولم أجدك.

- كنت في حاجةٍ إلى استنشاق الهواء.

- أستوعب الأمر. لكنّي كنت أعوّل على أن لا تنال منك الصدمة.

- لماذا؟

- لأنّي بحاجة إليك. أو بالأحرى، كريستينا هي التي بحاجة إليك.

مضغتُ ريقًا.

- ستظنّ أنّي جبان - قلت.

هزّ الطبيب رأسه نافيًا.

- منذ متى وهي على هذه الحالة؟

- منذ أسابيع. منذ أن وصلتْ عمليًّا. ثمّ تدهور وضعها مع مرور الوقت.

- هل تعي كريستينا أين تقيم؟

شدّ الطبيب كتفيه.

- من الصعب التأكّد من ذلك.

- ما الذي حدث لها؟

تنهّد الطبيب سانخوان.

- منذ أربعة أسابيع، وجدوها في مقبرة البلدة، بالقرب من هنا، مستلقية عند شاهدة أبيها. كانت تهذي، وتعاني من هبوطٍ حادٍّ في حرارة الجسم. نقلوها إلى المستوصف، لأنّ أحد عناصر الشرطة المدنيّة تذكّر أنّه رآها منذ زمن، حين رافقتْ والدها عدّة شهور خلال العام الماضي. وتذكّرها الكثير من أهالي البلدة. أسعفناها، وظلّت يومين تحت العناية. كانت تعاني من الجفاف، ومن الوارد أنّها لم تذق طعم النوم منذ أمد. وعندما كانت تستعيد رشدها أحيانًا، كانت تتكلّم عنك. كانت تقول إنّك تتعرّض لخطرٍ مريع. وجعلتني أحلِف بأن لا أبلّغ أحدًا بمكانها، بمن فيهم زوجها، حتّى تستردّ عافيتها وتخبرهم بنفسها.

- بأيّ حال، كان يجدر بك إبلاغ ڤيذال بما حصل، أيّها الطبيب.

- كنت سأفعل ولكن... قد يبدو لك الأمر سخيفًا.

- أيّ أمر؟

- كنتُ شبه مقتنعٍ بأنّها هاربة، ففكّرتُ أنّه من واجبي الوقوف بصفّها ومساعَدتها.

- وممّن تهرب؟

- لست متأكدًا - قال بنبرةٍ غامضة.

- ما الذي تحاول إخفاءه عنّي أيّها الطبيب؟

- إنّي مجرّد طبيب. وثمّة أشياءٌ لا أفهمها.

- وما هي؟

طغت ابتسامةٌ عصبيّة على وجهه.

- كريستينا تعتقد أنّ شيئًا ما، أو أحدًا ما، تلبّسها؛ وينوي القضاء عليها.

- من؟

- لا أعرف سوى ما قالته كريستينا: شيءٌ مرتبطٌ بك أنت، أو أحدٌ يبثّ الرعب في قلبك. لذا أرى أنّه ما بإمكان شخصٍ غيرك أن يساعدها. ولهذا السبب لم أبلّغ ڤيذال، ما يمليه عليّ واجبي من ناحيةٍ أخرى. كنتُ أعلم أنّك ستأتي عاجلاً أم آجلاً.

نظر إليّ بمزيجٍ غريب من الشفقة والنقمة.

- أنا أيضًا أقدّرك يا سيّد مارتين. عندما مكثتْ كريستينا هنا برفقة والدها... بتنا خير أصدقاء. أتخيّل أنّها لم تحدّثك عنّي، وربّما ما من سببٍ يدفعها لفعله. كانت تلك فترة صعبة جدًّا بالنسبة إليها. باحت لي بكثيرٍ من الأشياء، وأنا بدوري أطلعتُها على أمورٍ لا يعرف أحدٌ بشأنها. في الواقع، اقترحتُ عليها الزواج أيضًا؛ لا يخفى عليك أنّ الأطبّاء أيضًا ليسوا متوازنين كليًّا. لكنّها رفضتْ بالطبع. لا أدري لماذا أروي عليك كلّ هذا.

- لكنها ستتحسّن عمّا قريب، أليس كذلك أيّها الطبيب؟ ستستعيد قواها...

أحاد الطبيب نظرته نحو النار مبتسمًا بمرارة.

- أتمنّى ذلك - أجاب.

- أريد أن آخذها بعيدًا.

تعجّب.

- تأخذها بعيدًا؟ إلى أين؟

- إلى البيت.

- سيّد مارتين، اسمح لي أن أصارحك. بمعزلٍ عن كونك لست من أقارب المريضة، ولا زوجها، ممّا لا يمنح قرارَك هذا أبسط الحقوق القانونيّة، فإنّ كريستينا في حالةٍ صحيّة لا تسمح لها بالذهاب إلى أيّ مكان.

- هل ستتحسّن حالتها هنا، وهي مخدّرةٌ ومسجونةٌ بين أربع جدران، ومشدودة الوثاق على الكرسيّ؟ لا تقل لي إنّك أعدتَ اقتراح الزواج عليها!

نظر إليّ الطبيب طويلاً، متغاضيًا عن الإهانة التي أثارها كلامي كما كان واضحًا.

- سيّد مارتين، إنّي سعيد لأنّك هنا، لأنّي واثقٌ من أنّنا معًا سنساعد كريستينا. إنّي متيقّنٌ من أنّ وجودك سيساعدها بالخروج من المكان الذي لجأتْ إليه. لأنّ اسمك هو الكلمة الوحيدة التي لفظتْها خلال الأسبوعين المنصرمين. وأظنّ أنّ سبب بلائها له صلة بك، أيًّا يكن.

كان ينظر إليّ كما لو أنّه ينتظر منّي ردًّا شافيًا على كلّ أسئلته.

- كنت أعتقد أنّها هجرتْني - بادرتُ - كنّا نتهيّأ للشروع في رحلةٍ تبعدنا عن كلّ الهموم. كنتُ قد خرجتُ لشراء تذاكر القطار وإجراء معاملة سريعة. لم أتغيّب عنها أكثر من ساعةٍ ونصف. وحين عدتُ إلى المنزل، كانت كريستينا قد غادرتْ.

- هل حدث شيء قبل ذلك؟ هل تجادلتُما على أمرٍ ما؟

عضضتُ شفتي السفلى.

- لا أسمّيه جدالاً.

- ماذا تسمّيه إذن؟

- لقد باغتُّها وهي تنبش في بعض الأوراق التي تخصّ عملي، وأظنّ أنّها شعرتْ بالإهانة ممّا قد فسّرتْه كانعدامٍ لثقتي بها.

- هل كان شيئًا بالغ الأهمية؟

- لا. مجرّد مسوّدة؛ مخطوط لم يتمّ بعد.

- هل لي أن أسألك عن نوع هذا المخطوط؟

تردّدتُ قليلاً.

- حكاية.

- للأطفال؟

- فلنقل إنّها تناسب الجمهور العائليّ.

- فهمتُ.

- كلا. لا أعتقد أنّك فهمتَ. عمومًا، لم يقع بيننا أيّ جدالٍ أو خصام. استاءت كريستينا نوعًا ما، لأنّي نهيتُها عن استكشاف ذلك المخطوط. هذا كلّ ما في الأمر. وحين تركتُها كانت بخير؛ كانت تحزم أمتعتها. لم يكن لذلك المخطوط أيّ أهميّة لِما جرى لها.

أومأ الطبيب متفهّمًا، بما ينمّ عن لباقته أكثر من اقتناعه.

- هل ترجّح أنّ أحدًا التقاها في بيتك، بينما كنتَ في الخارج؟

- لم يكن أحدٌ غيري يعلم بوجودها عندي.

- هل يجول في خاطرك سببٌ يجعلها تقرّر الرحيل قبل عودتك؟

- لا. لماذا؟

- مجرّد أسئلة يا سيّد مارتين. كي أستوضح ما الذي حدث بين آخر مرّة رأيتَها وبين ظهورها هنا.

- هل قالت كريستينا ما هو الشيء، أو الشخص، الذي تلبّسها؟

- إنّه تعبيرٌ شائع يا سيّد مارتين. لم يتلبّس كريستينا أحد. وليس من النادر أن يشعر المرضى، الخارجون من تجربةٍ عصابيّة، بظهور أقاربَ لهم، أمواتٍ أو شخصيّاتٍ خياليّة؛ يدخلون أذهانهم ويقفلون الباب من الداخل. إنّها ردّة فعلٍ عاطفية؛ وسيلةٌ للدفاع عن أنفسنا في طرد المشاعر أو الأحاسيس غير المرغوب فيها. لا ينبغي أن تقلق

بشأن هذا الآن. ما يهمّنا، وما سيساعدنا، أنّك الشخص الوحيد المناسب لظرف كريستينا الراهن. ممّا أطلعتْني عليه بنفسها العام الماضي، وبقي سرًّا بيننا، وممّا لاحظتُه مؤخّرًا، أستنتج أنّها تحبّك يا سيّد مارتين. تحبّك مثلما لم تحبّ أحدًا من قبل؛ وبالطبع لم تكن تحبّني. لذا أطلب منك أن تساعدني، وأن لا يعمي الغلُّ أو الخوف بصيرتَك، وأن تساعدني لأنّنا - أنا وأنت - نتطلّع إلى الشيء ذاته. أن تخرج كريستينا من هنا.

شعرتُ بالخزي.

- اعذرني عمّا بدر منّي من إساءة...

رفع الطبيب يده ليسكتني. نهض وارتدى معطفه. مدّ يده فصافحتُه.

- أنتظرك في الغد - قال.

- شكرًا أيّها الطبيب.

- بل شكرًا لك على وجودك بقربها.

في صباح اليوم التالي، خرجتُ من الفندق حين أخذتِ الشمس تنهض فوق البحيرة المتجمّدة. كان هنالك مجموعة من الأطفال يلعبون عند الضفّة، يرمون الحجارة على هيكل زورقٍ عالقٍ في الجليد. انقطع الثلج عن التساقط، ما سمح برؤية الجبال البيضاء في الأفق، وانزلاق السحاب العابر على وجه السماء، كأنّه أوابد مدينةٍ من بخار. وصلتُ إلى مستوصف ڤيلا سان أنطونيو قبل التاسعة بقليل. كان الطبيب بانتظاري، مع كريستينا، جالسَين في الحديقة، تحت الشمس، والطبيب يمسك بيدها وهو يتكلّم إليها. لكنّها بالكاد تنتبه إلى وجوده. حين رآني الطبيب أجتاز الحديقة، أشار إليّ بالاقتراب. ووضع لي كرسيًّا قبالة كريستينا. فجلستُ ونظرتُ إليها. كانت تمعن النظر في عينيّ دون أن تراني.

- انظري مَن جاء يا كريستينا - قال الطبيب.

أمسكتُ بيدها ودنوتُ منها.

- تكلّمْ معها - قال لي الطبيب.

أومأتُ، تائه الفكر في تلك النظرة الغائبة، ولم تسعفني الكلمات. نهض الطبيب وتركنا بمفردنا. رأيتُه يختفي داخل المستوصف، بعد أن أمر إحدى الممرّضات بمراقبتنا جيّدًا. فتجاهلتُ وجود الممرّضة وقرّبتُ الكرسيّ أكثر إلى كريستينا. أزحتُ غرّة شعرها عن جبينها فابتسمتْ.

- هل تذكرينني؟ - سألتُها.

رأيتُ انعكاس وجهي في عينيها لكنّي لم أكن واثقًا من أنّها تراني أو تسمع صوتي.

- الطبيب يقول إنّكِ ستتحسّنين عاجلاً، وسنعود إلى البيت قريبًا. أو حيثما أردتِ. فكّرتُ أن أهجر بيت البرج كي نسافر بعيدًا جدًّا، بناءً على رغبتكِ. حيث لا يعرفنا أحدٌ، حيث لا يهتمّ أحدٌ لمعرفة ذلك.

كان الممرّضون قد ألبسوا يديها قفّازًا صوفيًّا لإخفاء الضمادات التي على ذراعيها. هبط وزنها، وغزتِ التجاعيدُ العميقة بشرتها، وتشقّقتْ شفتاها، وذبلتْ عيناها وانعدمت فيهما الحياة. اكتفيتُ بالابتسام وملامسة وجهها وجبينها، وأنا أتكلّم بلا انقطاع، وأصف لها مدى اشتياقي إليها، وأروي لها قصّة بحثي عنها في كلّ مكان. قضّينا قرابة الساعتين على هذه الحال، حتّى عاد الطبيب ليدخِلها بمساعَدة إحدى الممرّضات. بقيتُ جالسًا في الحديقة، حائرًا في ما ينبغي فعله، حتّى ظهر الطبيب مجدّدًا عند الباب. اقترب وجلس بقربي.

- لم تنطق بأيّ حرف - قلت له - أكاد أجزم أنّها لم تعرفني...

- أنت مخطئ يا صديقي. هذه عمليّة بطيئة. أؤكّد لك أنّ حضورك سيشدّ من أزرها.

قبِلتُ تلك الصدقة من أكاذيب الطبيب وشفقته.

- غدًا نحاول مرّة أخرى - قال.

كانت الساعة حوالي الثانية عشرًا ظهرًا.

- وماذا أفعل حتّى الغد؟ - قلت.

- اكتبْ. ألست كاتبًا؟ اكتبْ شيئًا من أجلها.

9

سلكتُ الدرب المحاذي للبحيرة في العودة إلى الفندق. دلّني البوّاب على محلّ القرطاسية الوحيد في البلدة، حيث اشتريتُ رزمةً من الأوراق وقلمًا كان ينتظر هناك منذ زمان بعيد. وما إن تسلّحتُ، اعتكفتُ في الغرفة. وضعتُ الطاولة قبالة النافذة، وطلبتُ حافظة القهوة. قضّيتُ قرابة الساعة وأنا أتأمّل البحيرة والجبال البعيدة قبل أن أكتب كلمة واحدة. تذكّرتُ الصورة القديمة التي أهدتها لي كريستينا، حيث تظهر فيها طفلةً تسير على رصيفٍ خشبيٍّ يشقّ البحر، والتي ظلّ لغزها يحيّر ذاكرتها. تخيّلتُ أنّي أمشي على ذلك الرصيف؛ تخيّلتُ أنّ خطواتي كانت تقودني خلفها؛ فأخذتِ الكلماتُ بالتدفّق حتّى تشكّل هيكلُ قصّةٍ قصيرة على السطور. فهمتُ أنّي سأكتب الحكاية التي أخفقتْ كريستينا في تذكّرها؛ حكاية سيرها في الصغر على تلك المياه المتلألئة، يدًا بيد رجلٍ غريب. كنتُ سأكتب حكاية هذه الذكرى، التي لم تكن يومًا في الذاكرة، ذكرى حياةٍ مسروقة. وكان النور الذي يلوح من التشابيه والعبارات يحملني إلى برشلونة القديمة، ذات السراب التي وسمتْ كلاً منّا بطباعها البائسة. وما لبثتُ أكتب حتّى ترنّحتِ الشمسُ في الغرب، ونفدت حافظةُ القهوة، وطلع البدرُ اللازورديّ على بحيرة الجليد، فشعرتُ بألمٍ يصارع عينيّ ويكوي يديّ. تركتُ القلم يسقط، وأقصيتُ الأوراق على الطاولة. ولم أسمع طرقات الباب إيذانًا لتناول العشاء. غفوتُ قرير العين، وأنا أحلم وأؤمن بأنّ للكلمات قدرةً على العلاج.

مرّت أربعة أيّام على الرتابة نفسها. أستيقظ في الفجر، أخرج إلى الشرفة لأرى الشمس تصبغ البحيرة بالحمرة تحت قدميّ، أصل إلى المستوصف حوالي الثمانية والنصف، فأجد الطبيب سانخوان جالسًا على عتبات المدخل، يتأمّل الحديقة بكوبٍ من القهوة الساخنة بين يديه.

- ألا تنام أبدًا أيّها الطبيب؟ - كنت أسأله.

- لا أنام أكثر منك - كان يجيبني.

في التاسعة، كان الطبيب يرافقني إلى غرفة كريستينا ويفتح الباب. ويتركنا بمفردنا. كنت أجدها دومًا جالسةً على الأريكة قبالة النافذة. فأقرّب الكرسيّ إليها وأمسك يدها، ولم تكن تنتبه لوجودي. ثم أهمّ بقراءة الصفحات التي كتبتُها لأجلها في الليلة السابقة. وكنت أستهلّ من البداية نفسها في كلّ يوم. وأتوقّف عن القراءة أحيانًا، وأرفع عينيّ ليذهلني طيفُ ابتسامةٍ يتراقص على شفتيها. كنت أقضي النهار معها حتّى يعود الطبيب في المساء، ويطلب منّي الانصراف. ثمّ أجرجر نفسي في الطرقات المقفرة تحت الثلج، وأعود إلى الفندق لآكل شيئًا ما، وأصعد إلى الغرفة لأتابع الكتابة حتّى يبتزّني الإرهاق. فتساوتِ الأيّامُ وفقدت أسماءها.

في صباح اليوم الخامس، دخلتُ غرفة كريستينا، كالعادة، لكنّ الأريكة التي تجلس عليها دومًا، كانت خالية. فاجتاحني الفزع، ونظرتُ حولي متوجّسًا، فوجدتُها متشنّجة في إحدى الزوايا، تشدّ على ركبتيها ووجهها مشوبٌ بالدموع. ابتسمتْ حين رأتني، ففهمتُ أنّها عرفتني. جلستُ القرفصاء بقربها وعانقتها. لا أعتقد أنّي تذوّقتُ طعمًا للسعادة كما في تلك الثواني اللعينة، حين لفحتني أنفاسها، وتراءى لي بصيص نورٍ يعود إلى عينيها.

- أين كنت؟ - سألتني.

أذِن لي الطبيب سانخوان باصطحابها في نزهة قصيرة، خلال ذلك العصر. تمشّينا حتّى البحيرة وجلسنا على أحد المقاعد. أخذت تحدّثني عن حلمٍ يراودها، يحكي قصّة طفلةٍ تعيش في مدينةٍ غامضة، أشبه بمتاهة، شوارعها وأبنيتها تتغذّى على أرواح ساكنيها. وفي منامها، كما ورد في الحكاية التي قرأتُها عليها لعدّة أيّام، كانت الطفلة تحاول الهرب لتصل إلى رصيفٍ خشبيّ عند بحرٍ شاسع. كانت تمشي ممسكةً بيد رجلٍ مجهول، لا اسم له، لا وجه له، كان قد أنقذها ورافقها إلى حدود ذلك الرصيف، الذي شُيّدتْ ركائزُه تحت المياه، حيث كان أحدهم بانتظارها ولم يتسنّ لها رؤيته، لأنّ الحلم، مثل قصّتي، يتوقّف عند ذلك المشهد.

كانت كريستينا تكاد تتذكّر ڤيلا سان أنطونيو والطبيب سانخوان. احمرّتْ خجلاً حين روت لي بأنّها تذكر اقتراحه عليها الزواج منذ أسبوع. وكانت عيناها توضّح مدى اختلاط الزمان بالمكان في ذهنها. فتارةً تظنّ أنّهم أسعفوا أباها إلى إحدى الغرف وأنّها جاءت لتزوره؛ وتارةً أخرى لا تذكر كيف وصلتْ إلى هناك، وغالبًا ما كانت تتجاهل طرح هذا السؤال على نفسها. كانت تذكر أنّي خرجتُ لشراء التذاكر، وتشير إلى لحظات ذلك الصباح، الذي اختفتْ فيه، كما لو كان في اليوم السابق. ثمّ تخالني ڤيذال، وتعتذر. وأحيانًا يجتاح الخوف وجهها وترتعش أطرافها.

- إنّه يقترب - كانت تقول - عليّ أن أذهب بعيدًا. قبل أن يراك.

ثم تغطّ في صمتٍ طويل، ولا تعيرني اهتمامًا وتنسى ما يحيط بها، كما لو أنّ شيئًا يسحبها إلى مكانٍ قصيٍّ لا سبيل لبلوغه. وبعد أيّام، بتُّ متيقّنًا من أنّها فقدت رشدها؛ وتفشّى اليأس في أملي. حتّى إذا عدتُ ليلاً إلى زنزانتي في الفندق، شعرتُ بانفتاح هاويةٍ من الحقد والظلمات في صدري، كنت أحسَبها موصدةً ومنسيّة. كان الطبيب سانخوان يراقبني، بثباتٍ وصبرٍ كرّسهما لمرضاه، وقد توقّع مروري بتلك الحالة.

- عليك ألاّ تفقد الأمل يا صديقي - كان يقول - نحن نقطع أشواطًا كبيرة. عزّزْ ثقتك.

فأومئ موافقًا، وأعود إلى المستوصف، يومًا تلو الآخر، كي أصطحب كريستينا في نزهة حتّى البحيرة، لأصغي إلى حديثها عن تلك الذكريات التي تحلم بها؛ كانت تكتشفها مجدّدًا كلّ يوم رغم أنّها كرّرتها على مسامعي عشرات المرّات. وفي كلّ يوم تسألني أين ذهبتُ، ولماذا لم أعد لآخذها، ولماذا تركتُها وحيدة. في كلّ يوم تنظر إليّ كأنّها حبيسة قفصٍ خفيٍّ، وتطلب منّي أن أعانقها. في كلّ يوم، حين نفترق، تسألني إن كنت أحبّها، فأكرّر الإجابة نفسها دومًا.

- سأظلّ أحبّك إلى الأبد - كنت أقول - إلى الأبد.

ذات ليلة، استيقظتُ على طرق باب غرفتي. كانت الساعة الثالثة. مشيتُ مترنّحًا ومذعورًا نحو الباب، ووجدتُ إحدى ممرّضات المستوصف عند العتبة.

- طلب مني الطبيب سانخوان أن آتي بك حالاً.

- ما الذي جرى؟

بعد عشر دقائق، كنت أدخل ڤيلا سان أنطونيو. كانت صرخاتها تصل إلى الحديقة. كريستينا أقفلت باب غرفتها من الداخل. وكان الطبيب سانخوان، الذي بدا فريسة الأرق، يحاول خلع الباب مع اثنين من الممرّضين. في الداخل، كانت كريستينا تصرخ وتضرب الجدران وتبعثر الأثاث وتكسر كلّ ما وقع تحت يديها.

- مَن يوجد في الداخل؟ - سألتُ هلِعًا.

- لا أحد - أجاب الطبيب.

- لكنّها تتحدّث مع أحدٍ ما - اعترضتُ.

- إنّها وحيدة.

وصل أحد الحرّاس راكضًا، يحمل عصا حديديّة.

- هذا ما استطعتُ العثور عليه - قال.

وافق الطبيب، فأدخل الحارس العصى في ثقب القفل وشرع يخلعه.

- كيف استطاعت أن تقفل على نفسها؟ - سألتُ.

- لا أدري...

رأيتُ الخوف جليًّا لأوّل مرّة على وجه الطبيب الذي كان يتجنّب نظرتي. أوشك الحارس على خلع القفل بالعصا، حين عمّ الصمت فجأة في الجانب الآخر من الباب.

- كريستينا؟ - نادى الطبيب.

لا جواب. استسلم البابُ أخيرًا وانفتح بدفعةٍ قويّة. تبعتُ الطبيبَ إلى الغرفة الغارقة في الظلام. كانت النافذة مفتوحة والريح الزمهرير تعصف بالستائر. الكراسيّ والطاولات والأرائك جميعها مقلوبة. الجدران ملطّخةٌ بما بدا أطيافًا عبثيّة بطلاء أسود. دماء. ولا أثر لكريستينا.

هرع الممرّضون إلى الشرفة وألقوا نظرةً إلى الحديقة، بحثًا عن آثارها على الثلج بينما فتّش الطبيب في كلّ مكان. وحينذاك، سمعنا قهقهة آتية من الحمّام. اقتربتُ من الباب وفتحتُه. كانت الأرضيّة مليئة بشظايا الزجاج، وكريستينا جالسة على الأرض، مستندة إلى الحوض المعدنيّ كدميةٍ ممزّقة. يداها وقدماها موشومةٌ بخدوشٍ نازفة. ودماؤها ما زالت تسيل من صدوع المرآة التي حطّمتها بجمع يديها. عانقتُها وبحثتُ عن نظراتها. فابتسمتْ.

- لم أدَعْه يدخل - قال.

- من؟

- كان يريدني أن أنسى لكنّي لم أدَعْه يدخل - أعادت.

جثا الطبيب بقربي وعاين الجروح التي غطّت جسد كريستينا.

- أرجوك - قال وهو يبعدني عنها - ليس الآن.

عاد أحد الممرّضين بالنقّالة. فساعدتُهم في حمل كريستينا وأمسكتُ بيدها وهم يأخذونها إلى قسم الإسعاف، حيث حقنها الطبيب بمخدّرٍ اقتلع منها الوعي في غضون ثوانٍ. بقيتُ إلى جانبها، أنظر إلى عينيها، حتّى غدت نظرتها مرآةً فارغةً، فأمسكت الممرّضة بذراعي وأخرجتني. بقيتُ هناك في الممرّ المظلم الذي يضوع بروائح المعقّمات؛ ويديّ وثيابيّ مضرّجة بدماء كريستينا. استندتُ إلى الجدار وهويتُ إلى الأرض.

استيقظت كريستينا في اليوم التالي، لتجد نفسها مكبّلة في السرير بأحزمةٍ جلديّة، أسيرةً في غرفةٍ بلا نوافذ، ولا نور فيها سوى ضوء مصباحٍ كئيبٍ معلّقٍ في السقف. وكنتُ قد قضّيتُ الليل على الكرسيّ في إحدى الزوايا كي أراقبها، ولم أدرك كم مضى من الوقت. فتحتْ عينيها فجأة، بتكشيرة ألمٍ على وجهها، وهي تشعر بآثار الجروح على ذراعيها.

- داڤيد؟ - نادتني.

- إنّي هنا - أجبتها.

دنوتُ من السرير وانحنيتُ كي ترى وجهي، مفتعلاً ابتسامة مطمئنة تناسب تلك اللحظة.

- لا أقوى على الحركة.

- أنتِ مقيّدةٌ بالأحزمة. وهذا لصالحكِ. سينزعها عنك الطبيب حالما يأتي.

- انزعها أنت.

- لا أستطيع. لا بدّ أن يأتي الطبيب...

- أرجوك... - توسّلتْ.

- كريستينا، من الأفضل أن...

- أرجوك.

كانت نظراتها تطفح بالألم والرعب، لكنّها كانت مفعمةً بإشراقٍ حيويٍّ لا أذكر أنّه ظهر عليها خلال تلك الأيّام. لكأنّها عادت إلى سابق عهدها. ما شجّعني لنزع الحزامين اللذين يكبّلان خصرها وكتفيها. داعبتُ وجهها. كانت ترتجف.

- هل تشعرين بالبرد؟

هزّت رأسها نافية.

- أتريدين أن أنادي الطبيب؟

هزّت رأسها ثانية.

- داڤيد، انظر إليّ.

جلستُ على حافّة السرير ونظرتُ إلى عينيها.

- عليك أن تمزّقه - قالت.

- لا أفهمكِ.

- عليك أن تمزّقه.

- ما هو؟

- الكتاب.

- كريستينا، ربّما من الأفضل أن أخبر الطبيب...

- كلا. اسمعني.

شدّت على يدي بقوّة.

- أتذكر حين خرجتَ إلى المحطّة في ذلك الصباح؟ لقد صعدتُ ثانيةً إلى مكتبك وفتحتُ الصندوق.

تنهّدتُ.

- عثرتُ على المخطوط، ورحتُ أقرؤه.

- إنها مجرّد حكاية يا كريستينا...

- لا تكذب. قرأتُها يا داڤيد. قرأتُها حتّى تيقّنتُ من ضرورة تمزيقها...

- لا تشغلي بالك في هذا الآن. سبق وأخبرتك بأنّي تركتُ العمل عليها.

- لكنّها لم تتركك. حاولتُ أن أحرقها...

استفزّني غيظٌ باردٌ، آثرتُ أن أكظمه، فتركتُ يدها، وتذكّرتُ عيدان الثقاب المستعملة، التي وجدتُها على أرض المكتب.

- هل حاولتِ إحراق المخطوط؟

- أجل لكنّي لم أتمكّن من ذلك - همستْ - كان ثمّة أحدٌ في البيت.

- لم يكن من أحدٍ غيرك في البيت يا كريستينا. لا أحد.

- ما إن أشعلتُ عود الثقاب، وقرّبته إلى المخطوط، حتّى سمعتُه خلفي. ضرب رقبتي فسقطتُ أرضًا.

- من ضربكِ؟

- كان الظلام قد ابتلع كلّ شيء، كأنّه سلب النهارَ نورَه. التفتُّ لأرى، لكنّ العتمة كانت مهيمنة. رأيتُ عينيه فقط. كعيون الذئاب.

- كريستينا...

- انتزع المخطوط من يدي وأعاده إلى الصندوق.

- كريستينا، أنتِ لستِ على ما يرام. سأنادي الطبيب و...

- ألا تسمعني؟

ابتسمتُ لها وقبّلتُ جبينها.

- بل أسمعكِ بالتأكيد. ولكنْ لم يكن ثمّة أحد في البيت...

أغمضت عينيها وبرمت رأسها وهي تئنّ كأنّ كلماتي خناجر تطعن أحشاءها.

- سأنادي الطبيب...

انحنيتُ لأقبّلها ثانية ونهضتُ. اتّجهتُ نحو الباب وأنا أشعر بنظراتها تجلد ظهري.

- جبان - قالت.

حين عدتُ مع الطبيب سانخوان، كانت كريستينا قد نزعت الحزام الأخير، لتتجوّل في الغرفة، متجّهةً صوب الباب، ومخلّفةً سيلاً من الدماء وراءها على البلاط الأبيض. فأمسكنا بها جيدًا وهدّأنا من روعها ثانيةً على السرير. كانت تصيح وتتلوّى بغضبٍ مخيف، يجمّد الدماء في العروق، فهرع الممرّضون إلى مصدر الجلبة. وساعدنا أحدُ المراقبين على تثبيتها بينما شدّ الطبيب وثاقها بالأحزمة مرّة أخرى. وفي النهاية، نظر إليّ الطبيب بحزم.

- سأخدّرها ثانية. ابق هنا وإيّاك أن تفكّر في فكّ الأحزمة عنها مرّة أخرى.

بقيتُ بمفردي معها حوالي الدقيقة، أحاول إخمادها. كانت ما تزال تصارع كي تتخلّص من قيودها. أمسكتُ بوجهها جيدًا وحاولتُ التعيين في نظرتها.

- كريستينا، أرجوك...

بصقتْ عليّ.

- اغرب عن وجهي.

عاد الطبيب برفقة ممرّضة، تحمل طبقًا معدنيًّا، فيه حقنة وخرقة وقارورة تحتوي على محلولٍ أصفر اللون.

- اخرج - أمرني الطبيب.

تراجعتُ حتّى العتبة. ثبّتت الممرّضةُ كريستينا على السرير، فيما حقن الطبيب ذراعها بالإبرة. كانت تصيح بصوت مشرّخ. فأغلقتُ أذنيّ بيديّ وخرجتُ إلى الممرّ.

جبان - قلت لنفسي - جبان.

10

خلف مستوصف ڤيلا سان أنطونيو، يوجد دربٌ مطوّق بالأشجار، ومحاذٍ لقناة مائيّة، عند أطراف البلدة. وكانت الخريطة، المعلّقة في مطعم الفندق، تشير إليه باسمٍ محبّب: «درب العشّاق». عصر ذلك اليوم، خرجتُ من المستوصف متّجهًا للمغامرة في ذلك الدرب الكئيب الذي كان يوحي بالوحدة أكثر من الارتباط. سرتُ فيه قرابة نصف ساعة دون أن ألتقي بروحٍ حيّة، وأنا أترك البلدة خلف ظهري حتّى بدت واجهة ڤيلا سان أنطونيو، والبيوت الكبيرة المحيطة بالبحيرة، كقصاصات ورقٍ في الأفق. جلستُ على أحد المقاعد على جانبَي الدرب، أتأمّل الشمس تغرب في الطرف الآخر من وادي ثيردانيا. على بُعد مائتي متر عنّي، تراءت لي واجهة معبد صغيرٍ ومعزول وسط الحقول التي تراكم فوقها الثلج. ودون أن أدري لماذا؛ نهضتُ متجّهًا إليه، وأنا أفسح الطريق لخطواتي على الثلج. حين وصلتُ إلى بُعد اثني عشر مترًا تقريبًا، لاحظتُ أنّ المعبد بلا بوّابة. كانت أحجاره متفحّمة جرّاء ألسنة اللهب التي التهمت هيكله في الماضي. صعدتُ عتباته التي تفضي إلى ما يشبه المدخل، وتقدّمتُ بضعة خطوات. كانت بقايا المقاعد المحترقة، ودعائم السقف المتداعي، تنتأ من بين الرماد. واندسّت الأغصان اليابسة إلى الداخل، وتسلّقت على ما كان في زمانه مذبحٌ للكنيسة. وكان الشفق يتغلغل من النوافذ الحجريّة المتآكلة. جلستُ على ما تبقّى من أحد المقاعد، قبالة المذبح، وسمعتُ صفير الرياح في القبّة المتهالكة التي أتلفها الحريق. رفعتُ عينيّ، وكم وددتُ أن تكون في قلبي ذرّة إيمان؛ إيمانٍ بالله، إيمانٍ بالكتب كذاك الذي سكن صدر صديقي سيمبيري، لعلّي أتوسّل إلى الله أو الجحيم بأن يمنحني فرصةً أخرى تمكّنني من حمل كريستينا بعيدًا عن هناك.

- أتوسّل إليك - تمتمتُ وأنا أكبت دموعي.

ابتسمتُ بمرارة. كنت حطامَ إنسانٍ، يتضرّع خانعًا إلى ربٍّ لم يؤمن به في حياته. نظرتُ حولي ورأيتُ كيف يجتاح البلاءُ والرمادُ والفراغُ والوحشةُ رميمَ بيتِ الربّ ذاك. فحدّثني حدسي بأنّي سأعود لآخذها تلك الليلة، دون انتظار معجزة أو مباركة، بل بتصميمي على حملها بعيدًا، وانتزاعها من براثن ذاك الطبيب الوغد والخوّاف، الذي قرّر أن يصنع منها أميرة نائمة. وددتُ أن أضرم النار في تلك المصحّة على أن أسمح لأحدٍ بأن يمسّ شعرةً منها. سأحملها إلى بيتي كي أموت إلى جانبها. وفي حال انعدام النور، كفى بالغلّ والسخط ضوءًا لدربي.

خرجتُ من ذلك المعبد العتيق مع حلول الليل. قطعتُ الحقل الفضيّ اللامع تحت ضوء القمر، وعدت إلى درب العشّاق في الغابة، مسترشدًا خطاي بقناة الماء في الظلام، حتّى تراءت لي في البعيد أضواء ڤيلا سان أنطونيو، وحصن الأبراج والتيجان المحيط بالبحيرة. حين وصلتُ إلى المصحّة، لم أستنجد بقرع جرس البوّابة. بل قفزتُ من على السور وقطعتُ الحديقة زاحفًا تحت العتمة. درتُ حول المبنى واقتربتُ من أحد مداخله الخلفيّة. وجدتُه مقفلاً، لكنّي لم أتوانَ عن تهشيم الزجاج بمرفقي، وتحريك المقبض من الداخل. ولجتُ الممرّ، وأنا أصغي إلى الأصوات

والهمهمات، وأشمّ رائحة حساءٍ زكيّة تنبعث من المطابخ. قطعتُ الطابق كلّه حتّى وصلتُ إلى الغرفة في آخر الممرّ، حيث كان ذلك الطبيب الطيّب يحتجز كريستينا، لا لشيءٍ سوى لتخصيب خياله الذي صنع منها حسناءً نائمةً، موصِدًا عليها في عالم النسيان والعقاقير والأصفاد.

كنت أتوقّع أن أجد الباب مقفلاً، لكنّ المقبض استجاب ليدي. دفعتُ الباب ودخلتُ. أوّل أمرٍ لاحظتُه، أنّه بإمكاني رؤية زفيري يرفرف أمام وجهي، من شدّة البرد. ثمّ إنّ البلاط الأبيض كان مليئًا بآثار أقدامٍ دامية. النافذة الكبرى المطلّة على الحديقة كانت مفتوحة على مصراعيها، والستائر تتمايل ما مالت الريح. السرير كان خاليًا. اقتربتُ وأمسكتُ بأحد الأحزمة الجلديّة، التي شدّ بها الطبيب والممرّضون وثاق كريستينا. اتّضح لي بأنّها ممزّقة كما لو كانت من ورق. خرجتُ إلى الحديقة وتتبّعتُ خطًّا من آثار الأقدام النازفة يلمع فوق الثلج ويبتعد نحو السور الحجريّ المحيط بالحديقة. ثمّة دماء هناك أيضًا. تسلّقتُ وقفزتُ إلى الجانب الآخر. كان أثر الأقدام يتسكّع مبتعدًا باتجاه البلدة. أذكر أنّي هممتُ بالركض.

ركضتُ خلف آثار الخطى على الثلج حتّى المنتزه المحيط بالبحيرة. كان البدر يلمع فوق طبقة الجليد الضخمة. وكان هناك إذ رأيتُها. تتقدّم بخطوةٍ عرجاء متثاقلة، على سطح البحيرة المتجمّدة، مخلّفةً وراءها مسارًا من الآثار النازفة. وكانت الريح تعبث بقميصها الفضفاض كدوّامةٍ حول جسمها. حين وصلتُ إلى الضفّة، كانت كريستينا قد توغّلتْ حوالي الثلاثين مترًا نحو وسط البحيرة. صرختُ باسمها مناديًا فتوقّفتْ. استدارتْ ببطء ورأيتها تبتسم بينما تُنسَج شبكةٌ من الشقوق تحت قدميها. قفزتُ إلى الجليد، وشعرتُ بالسطح يتفتّت تحت قدميّ، وعدوتُ نحوها. ظلّت كريستينا في مكانها، تنظر إليّ. ونمت الصدوعُ تحت قدميها كاللبلاب من شُعيراتٍ سوداء. تعثّرتُ بانكسار الجليد تحتي، فوقعتُ على وجهي.

- أحبّك - سمعتُها تقول.

زحفتُ نحوها، لكنّ شبكة الشروخ كانت تنتشر تحت يديّ حتّى طوّقتني. وما إن فصلتني عنها أمتار قصيرة حتّى سمعتُ الجليد يزلزل تحت قدميها. فانبثقت فجواتٌ كبيرةٌ، سوداءُ كآبار القطران، وابتلعتْها. غاصتْ تحت السطح، وسرعان ما ارتصّت أفواهُ الجليد، لتردم الفجوةَ التي هوت فيها كريستينا. دفع تيّار المياه جسدها، فانزلقت بعمق مترين تحت طبقة الجليد. تمكّنتُ من الوصول زحفًا إلى حيث كانت مسجونة، وضربتُ الجليدَ بكلّ ما أوتيتُ من قوّة. كانت عينا كريستينا مفتوحتين، وشعرها يتموّج مع التيّار، ترمقني من الجانب الآخر لتلك الصفيحة الشفّافة. ضربتُ على الجليد حتّى تثلّمتْ يداي. لم تحد عينها عن عينيّ أبدًا. أسندتْ يدها إلى الجليد وابتسمتْ. فتسرّبت آخرُ فقاعات الهواء من بين شفتيها، واتّسعتْ حدقتيها للمرّة الأخيرة. بعد لحظاتٍ، راحت تغرق، رويدًا رويدًا، في قاع تلك الظلمات، إلى الأبد.

لم أعد إلى الغرفة لاسترداد أغراضي. إذ رأيتُ الطبيب برفقة شرطيّين، يصلون إلى الفندق، بينما كنت مختبئًا بين الأشجار المحيطة بالبحيرة. كانوا من خلف الزجاج يتكلّمون مع المدير. قطعتُ البلدة، تحت رحمة الظلام المطبق على تلك الطرقات المقفرة، وبلغتُ المحطّة المدفونة في الضباب. تراءى لي قطارٌ على السكّة، بفضل أعمدة الإنارة الزيتيّة، بينما يصبغ وميض الإشارة الحمراء، عند مَخرج المَحطّة، هيكله المعدنيّ القاتم. وكانت دموع الصقيع تنسكب من قضبان السكك، مثل قطرات الجلاتين. وعربات القطار في حلكة الظلام، ونوافذه يحجبها البخار. لا يبدو أنّ ثمّة أحدًا في مكتب مدير المحطّة. الرحلة ستنطلق بعد ساعات، والمحطة خالية من البشر.

اقتربتُ من إحدى العربات، وحاولتُ فتح الباب. كان مغلقًا من الداخل. نزلتُ على السكّة والتففتُ حول القطار. احتميتُ بظلّه، وتسلّقتُ الرابط بين عربتين في المؤخّرة، مستنجدًا بالحظّ في فتح الباب الذي يصل العربة بالأخرى. وجدتُه مفتوحًا. فتسلّلتُ متقدّمًا تحت الظلام حتّى دخلتُ مقصورة ما وقفلتُ بابها من الداخل. هويتُ على أحد المقاعد، أرتجف بردًا. لم أجرؤ على غمض عينيّ، خوفًا من أن تكون نظرة كريستينا ما تزال بانتظاري تحت الجليد. مرّت دقائقٌ وربّما ساعات؛ حتّى تساءلتُ عن سبب اختبائي وعجزي عن الشعور بأيّ شيء.

لذتُ في ذلك الفراغ، وانتظرتُ هناك مختبئًا كالهاربين، أصغي إلى أنين المعادن وهي تتقلّص بالبرودة. رنوتُ إلى الظلال خلف النافذة، حتّى لامس ضوء أحد المصابيح جوانب العربة، وسمعتُ خطواتٍ على الرصيف. مسحتُ القليل من البخار، الذي يبلّل النافذة، ورأيتُ القبطان برفقة اثنين من التقنيّين يتوجّهون نحو رأس القطار. وعلى مقربة منهم، كان مدير المحطّة يثرثر مع الشرطيّين اللذين رأيتُهما يدخلان الفندق مع الطبيب منذ قليل. رأيتُه يهزّ برأسه مذعِنًا ويخرج حمّالة المفاتيح، ثمّ يدنو من القطار معهما. اختبأتُ مجددًا داخل المقصورة. وبعد ثوان، سمعتُ طقطقة المفتاح وصرير باب العربة. خطواتٌ تتقدّم باتجاهي. رفعتُ المقبض لأترك باب المقصورة مفتوحًا، وانبطحتُ تحت صفٍّ من المقاعد ملتصقًا بالجانب. اقترب الشرطيّان، ورأيتُ مسار الضوء الأزرق، ينبت كالإبر على زجاج المقصورة. توقّفت الخطواتُ عند مقصورتي فحبستُ أنفاسي. سكتت أصواتهم. سمعتُ الباب ينفتح، والجزمة تمرّ على بُعد شبرٍ عن وجهي. بقي الشرطيّ عدّة ثوانٍ، ثمّ خرج وأغلق الباب. وابتعدت خطواتهم في العربة.

بقيتُ هناك متسمّرًا. وبعد دقيقتين، شعرتُ بهواءٍ حارّ ينبعث من فوّهة السخّان ويلامس شعري. وبعد قرابة الساعة، لامست خيوط الفجر الأولى النوافذ. فخرجتُ من مخبأي ونظرتُ إلى الخارج. ثمّة مسافرون يمشون على الرصيف، فرادىً وأزواجًا، ويجرّون الأمتعة. فإذا بمحرّك القطار يرجّ الجوانب والأرضيّة؛ وفي غضون دقائق بدأ الركّاب يصعدون القطار، والمراقب يشعل الأضواء. جلستُ على المقعد من جديد، بجوار النافذة، وتبادلتُ التحيّة مع بعض المسافرين في مرورهم أمام مقصورتي. وما إن قرعت ساعة المحطّة الكبيرة جرس الثامنة، حتّى تحرّك القطار. وحينها فقط، أغمضتُ عينيّ على نواقيس كنيسة بعيدة، ترتدّ بأصداء لعنةٍ ما.

حلّ الشؤم على رحلة العودة، بوقفاتٍ طويلة. كان هنالك جزء من المسار خارجًا عن الاستعمال، ما أخّر وصولنا إلى برشلونة حتّى مغيب الشمس في يوم الجمعة 23 فبراير. وجدتُ المدينة مدفونة تحت سماءٍ قرمزيّة، تتمدّد في أجوائها شِباكٌ من دخان أسود. وكان الطقس حارًّا كما لو أنّ الشتاء انسحب فجأة، ما سمح لروائح

مجاري الصرف، القذرة والرطبة، بالصعود من فتحاتها. وبينما كنت أفتح بوّابة بيت البرج، وجدت ظرفًا أبيض على الأرض. وسرعان ما لمحتُ دمغة الشمع الأحمر، فلم أنشغل بحمله، إذ كنت متأكّدًا من فحوى الرسالة: ربّ العمل يذكّرني بالموعد، كي أسلّمه المخطوط، ذلك المساء، في منزله قرب منتزه غويل. صعدتُ السلالم في العتمة وفتحتُ باب البيت. لم أشعل الأضواء، واتجهتُ مباشرة إلى المكتب. اقتربتُ من النافذة ورأيتُ الغرفة كيف يطويها ضياء الجحيم المنهمر من تلك السماء الملتهبة. تخيّلتُها هناك، كما روت لي، جاثية على ركبتها أمام الصندوق. تخيّلتُها تفتحه وتُخرِج المخطوط. تخيّلتُها تقرأ تلك الصفحات الملعونة بنِيّة تمزيقها. تخيّلتُها تشعل أعواد الثقاب وتقرّب اللهب من الأوراق.

كان ثمّة أحد في البيت...

اقتربتُ من الصندوق وتوقّفتُ خلفه، كأنّي أتجسّس عليه. انحنيتُ إلى الأمام وفتحتُه. كان المخطوط ما يزال هناك بانتظاري. مددتُ يدي لألامس الملفّ بأصابعي. فرأيتُه هناك حينئذٍ. وجهه الفضيّ يلمع في قاع الصندوق كما تتلألأ جوهرةٌ نفيسةٌ في قعر مستنقع. أمسكتُه بين أصابعي وتفحصّته على ضوء السماء الدامية. وسام الملاك.

- يا بن العاهرة - سمعتُني أقول.

أخرجتُ العلبة الخشبيّة، التي تحتوي على مسدّس والدي القديم، من الخزانة. فتحتُ البكرة وتحقّقتُ من جاهزيّتها. وضعتُ علبة الطلقات في جيب معطفي الأيسر. لففتُ السلاح بمنديلٍ ثخين ووضعته في جيبي الأيمن. قبل الخروج، توقّفتُ برهةً، أتأمل المجهول الذي يرمقني من المرآة عند المدخل. فابتسمتُ، بسلام الحقد الذي اتّقد في عروقي، وخرجتُ تحت جنح الظلام.

12

كان منزل أندرياس كوريلي يعتلي التلّ، متماهيًا مع كساء الغيوم الحمراء. وظلال أشجار منتزه غويل تتموّج من خلفه. الريح تعصف بالأغصان، وحفيف أوراقها كفحيح الأفاعي في العتمة. توقّفتُ قبالة المدخل وتأمّلتُ واجهة المبنى. ما من ضوءٍ في كافّة أرجاء الڤيلا. دفّات النوافذ الكبرى مسدودة. سمعتُ زفير الكلاب، خلف ظهري، تتسكّع خلف أسوار المنتزه، وتتبع خطواتي. أخرجتُ المسدّس من جيبي، واستدرتُ إلى البوّابة ثانية، حيث لمحتُ أطراف حيواناتٍ وظلالاً سائلة تتلصّص من الظلام.

اقتربتُ من الباب الرئيس، وقرعتُ الجرس ثلاث مرّات متتالية. لم أكن أنتظر ردًّا؛ إذ كان بودّي لو فجّرتُ القفل بالمسدّس، ولكن لم يكن من ضرورة، فالباب كان مفتوحًا. أدرتُ المقبض البرونزيّ، حتّى طقطق القفل وانفتح الباب الخشبيّ الثقيل على رسله. انبلج أمامي الممرّ الطويل، مكسوًّا بقشرة غبار، تومض كرملٍ ناعم. تقدّمتُ بضع خطوات ودنوتُ من السلالم، على أحد الجانبين، تلك التي تختفي في لولبٍ من الظلال. تابعتُ السير على الممرّ المؤدّي إلى الصالة. وكانت عشرات النظرات تطاردني من متحف الصور القديمة المعلّقة على الجدران. ولم أحدّد صوتًا آخر عدا صوت خطواتي وأنفاسي. بلغتُ آخر الممرّ وتوقّفتُ. كان ضياء الليل يتغلغل من فتحات الدفّة، كأنّه شفراتٌ من نورٍ قرمزيّ. انتظرتُ حتّى اعتادت عيناي على الظلام. الأثاث يراوح مكانه، لكنّ شحّ النور لم يمنعني من ملاحظة الحالة التي ألمّت بالأثاث، إذ بدا رثًّا قديمًا ومغبرًّا. بقايا أثاث، بالأحرى. الستائر مهشّمة وطلاء الجدران بات أشبه بحراشف الأسماك. اتّجهتُ نحو إحدى النوافذ الكبيرة لأفتح دفّتها، كي يدخل ما تيسّر من الضوء. كنتُ على بُعد مترين من النافذة حين أدركتُ أنّي لم أكن بمفردي. توقّفتُ فزعًا، والتفتُّ شيئًا فشيئًا.

كان وجود الجسد واضحًا في إحدى زوايا الغرفة، جالسًا على الأريكة المعتادة. والضوء المتسرّب من فتحات الدفّة يكشف عن حذائه الململمّع وحوافّ ثيابه. الوجه غارق في الظلّ كليًّا، لكنّي ميّزتُ نظرته المصوّبة نحوي. كان يبتسم أيضًا. رفعتُ المسدّس وسدّدتُه إليه.

- أعرف ما الذي ارتكبتَه - قلت.

لم يحرّك كوريلي أيّ عضلة من جسمه. وظلّ وجهه ثابتًا مثل العنكبوت. تقدّمتُ خطوة باتجاه الأمام، حتّى بات وجهه في مرمى النيران. بدا لي أنّي سمعتُ زفيره في العتمة، وسرعان ما انعكس النور القرمزيّ الطفيف في عينيه، وبتُّ متيقّنًا من انقضاضه عليّ. فأطلقتُ النار. اهتزّ السلاح فآلم معصمي، كأنّي أتلقّى ضربة مطرقة جامدة. وارتفع الدخان اللازورديّ من فوّهة المسدّس. انزلقت إحدى يديه من على مسند الأريكة، وتأرجحت أظفاره حتّى لامست الأرض. فأطلقتُ النار مجدّدًا. اخترقت الطلقة صدره، وأحدثت ثقبًا ينزف دخانًا في ثيابه. بقيتُ متأهّبًا، والمسدّس في قبضة يديّ، ولم أجرؤ على الحراك، مستغربًا من ثبات وجهه على تلك الأريكة. هدأت ذراعُه المتأرجحة تدريجيًّا،

واستقرّ الجسد على تلك الوضعيّة، ورست أظفاره الطويلة والناعمة على الأرضية الخشبيّة. ما من صوتٍ أو حركة تدلاّن على أنّه لقي مصرعه للتوّ بطلقتين، الأولى على وجهه والثانية على صدره. تراجعتُ باتجاه النافذة الكبيرة، وفتحتُها ركلاً بقدمي، دون أن أحيد أنظاري عن الأريكة حيث يرقد كوريلي. فانبلج عمودٌ من النور الغباريّ، بانسيابٍ، في طريقه من سور الشرفة حتّى زاوية الغرفة، وأضاء وجه الناشر وجسده. حاولتُ أن أمضغ ريقًا لكنّ فمي كان جافًّا. فتحت الطلقة الأولى نفقًا بين عينيه. وثقبت الثانية عروة سترته. لا وجود لأيّ قطرة دم؛ إنّما يتدفّق غبارٌ محشورٌ وبرّاق، كالساعة الرمليّة، من بين ثنايا لباسه. عيناه تلمعان، وشفتاه متجمّدتان بابتسامة ساخرة: دمية.

أخفضتُ المسدّس، وما لبثت يدي ترتعش، واقتربتُ ببطء. انحنيتُ إلى تلك الدمية العملاقة، وأزحتُ يدها عن وجهها. وخشيتُ للوهلة الأولى أن تتحرّك تلك العيون الزجاجيّة، بين لحظة وأخرى، أو أن تخمش تلك الأظفار الطويلة عنقي. لمستُ خدّها بكفّ يدي. خشبٌ مطليٌّ بقشرة صمغ. لم أقاوم ضحكةً مريرة، إذ كنت أتوقّع أنّي قتلتُ ربّ العمل. واجهتُ تلك التكشيرة الساخرة مجدّدًا، وضربتُ الدمية بأخمص السلاح، فوقعتْ إلى جانبها أرضًا. استشاط غيظي، فأشبعتُها رفسًا وركلاً، حتّى تفسّخ هيكلها الخشبيّ وانعقدت أطرافُها بشكل مريع. تراجعتُ باتجاه الخلف، وأنا أنظر حولي. رأيتُ اللوحة الكبيرة للملاك، فأسقطتُها بهزّة عنيفة. وخلف اللوحة اكتشفتُ الباب الذي ينفذ إلى باطن الأرض، وما زلتُ أذكره من تلك الليلة التي نمت فيها هناك. تفحصّتُ القفل، فكان مفتوحًا. ألقيتُ نظرةً إلى العتبات التي تنزل في جوف تلك المغارة المظلمة. ثمّ اتجهتُ نحو الدُرج حيث أذكر أنّ كوريلي وضع فيه المائة ألف فرنك خلال لقائنا الأول في ذلك المنزل، ورحت أنبش حتّى عثرتُ على علبة معدنيّة، فيها شموعٌ وأعواد ثقاب. تردّدتُ في البداية، خوفًا من أن يكون كوريلي قد ترك تلك الأغراض متعمّدًا، لأجدها كما وجدتُ الدمية. لكنّي أشعلتُ شمعة وقطعتُ الصالة نحو ذلك الباب. ألقيتُ نظرة أخيرة إلى الدمية الساقطة، أحمل الشمعة باليد اليسرى والمسدّس باليمنى، وهممتُ بالنزول. كنت أتوقّف عند كلّ عتبة لأنظر إلى الخلف. وحين وصلتُ إلى القبو، رفعتُ الشمعة أقصى ما استطعتُ، لتضيء قُطر دائرة حولي. ما يزال كلّ شيء على حاله: طاولة العمليّات، مصابيح الزيت، الطبق المحمّل بالأدوات الجراحيّة. لكنّ الغبار، وشباك العنكبوت، تحيط بكلّ الأغراض. كما كان هناك شيءٌ آخر: ثمّة أجسادٌ أخرى قبالة الحائط؛ ثابتةً كدمية ربّ العمل. وضعتُ الشمعة على الطاولة واقتربتُ إلى تلك الأجساد الهامدة. تعرّفتُ إلى كبير الخدم الذي استقبلني ذات مساء، والسائق الذي أوصلني إلى البيت، بعد العشاء مع كوريلي في حديقة المنزل. وهناك أجساد أخرى لم أتمكّن من التعرّف إليها، أحدها يولي وجهه إلى الحائط. أدرتُه بطرف السلاح، فوجدتُ نفسي أمام نفسي. اقشعرّ بدني. الدمية تشبهني. وكان لها نصف وجه فقط. والنصف الآخر مشوّه الملامح. كنت سأركل ذلك الوجه حين سمعتُ ضحكة طفلٍ، أعلى السلالم. حبستُ أنفاسي، فسمعتُ عدّة ضرباتٍ حادّة. هرعتُ إلى الأعلى، وحين وصلتُ إلى الطابق الأرضيّ لم أجد دمية الناشر على الأرض حيث تركتُها. إنّما مسارٌ من آثار أقدام تبتعد من هناك باتجاه الممرّ. هيّأتُ قادح المسدّس، وتبعتُ تلك الآثار. توقّفتُ عند العتبة ورفعتُ المسدّس. كانت الآثار تتلاشى وسط الممرّ. تقصّيتُ الظلام، بحثًا عن وجه كوريلي، ولكن عبثًا. كان الباب الرئيس، في آخر الممرّ، ما يزال مفتوحًا. فتقدّمتُ بحذر حتّى نقطة تبدّد الآثار. لم أنتبه لوجودها إلا بعد ثوانٍ، حين لاحظتُ زوال الفراغ الذي كان يسود صور الجدار. وقد حلّ مكانه إطارٌ جديد، فيه صورةٌ تبدو أنّها التُقطِتْ

بالكاميرا نفسها التي صوّرتْ مجموعة تلك الوجوه اللعينة. في الصورة، تظهر كريستينا، بزيّها الأبيض، ونظرتها هائمةٌ في العدسة. لم تكن بمفردها. كانت مطوّقةً بذراعين من خلفها. وصاحب الذراعين يبتسم للكاميرا. أندرياس كوريلي.

13

ابتعدتُ إلى أسفل السفح متّجهًا إلى متاهة الطرقات المظلمة في حيّ غراثيا. وجدتُ مقهىً ساهرًا يجتمع فيه عدد غفير من الزبائن، يتجادلون بانفعال حول السياسة وكرة القدم: من الصعب تحديد الموضوع بدقّة. اجتزتُ الحشد وقطعتُ غيمة الدخان والضوضاء، حتّى وصلتُ إلى الكونتوار حيث صوّب النادل نحوي نظرة حادّة نوعًا ما، تخيّلتُ أنّه يستقبل بها أيّ غريب، وفي هذه الحالة أيُّ مواطنٍ يسكن خارج النطاق الضيّق لمحلّه.

- أوّد استخدام الهاتف لأمرٍ ضروريّ - قلت.

- الهاتف مخصّصٌ للزبائن.

- اعطني كأس كونياك من فضلك... والهاتف أيضًا.

أمسك النادل بقدحٍ ما، وأشار إلى ممرّ يفضي إلى مكانٍ، عُلّق على بابه لافتة: «مراحيض». وجدتُ ما يشبه الكبائن الهاتفيّة قبالة مدخل الحمّامات تمامًا، الرازحة تحت رائحة مقيتة وكثيفة من موادّ المعقّمات، ناهيك عن الجلبة الآتية من الصالة. رفعتُ السمّاعة وانتظرتُ الخطّ. بعد عدّة لحظات، أجابتني موظّفة في سنترال شركة الاتصالات.

- هلاّ أوصلتِني بمكتب المحامي ڤاليرا، رقم 442 شارع دياغونال؟

تطلّب البحث عن الرقم، وإيصالي به، أقلّ من دقيقتين. وكنت أنتظر، ممسكًا السمّاعة بيدٍ، ومغلِقًا أذني اليسرى بيدي الأخرى.

في النهاية، أكدّت لي تحويل المكالمة. وما هي إلاّ ثوانٍ معدودة حتّى سمعتُ صوت سكرتيرة المحامي ڤاليرا.

- متأسّفة يا سيّدي، المحامي ليس موجودًا هذه الساعة.

- الأمر طارئٌ جدًّا. أخبريه بأنّي مارتين، داڤيد مارتين. إنّها مسألة حياة أو موت.

- أعرف حضرتك يا سيّد مارتين. لكنّي متأسّفة، فالمحامي ليس هنا. الساعة الآن التاسعة والنصف ليلاً، وقد انصرف منذ مدّة.

- زوّديني بعنوان بيته إذن، لو سمحت.

- لستُ مخوّلة لإتاحة هذه المعلومة. المعذرة يا سيّدي. بإمكانك الاتصال صباح الغد و...

أغلقتُ السمّاعة وانتظرتُ الخطّ مجددًا. وفي هذه المرّة، أعطيتُ موظّفة الاتصالات رقم ريكاردو سالڤادور. فأجابني جاره قائلاً إنّه سيصعد ليرى إن كان الشرطي السابق في بيته، فوصل سالڤادور بعد دقيقة.

- مارتين؟ هل أنت بخير؟ هل عدت إلى برشلونة؟

- لقد عدت للتوّ.

- عليك أن تتّخذ كامل الحذر. الشرطة تبحث عنك. لقد جاؤوا إليّ، واستجوبوني عنك وعن أليثيا مارلاسكا.

- ڤيكتور غراندس؟

- أعتقد ذلك. كان برفقة عميلين غليظين، لم أستلطفهما البتّة. يبدو لي أنّه ينوي اتّهامك بمقتل روريس وأليثيا مارلاسكا. كن متيقّظًا، فهم يراقبونك بالتأكيد. بوسعك المجيء إليّ إن أردتَ.

- شكرًا يا سيّد سالڤادور. سأفكّر في الأمر. لا أريد توريطك في محنٍ أخرى.

- خذ حذرك، أيًّا يكن قرارك. أعتقد أنّك محقّ، خاكو عاد. لا أدري لماذا، لكنّه عاد. هل لديك خطّة ما؟

- أحاول التوصّل إلى موقع المحامي ڤاليرا. أظنّ أنّ الناشر، الذي عمل مارلاسكا لصالحه، وراء كلّ هذا؛ ولا أحد غير ڤاليرا يعلم الحقيقة.

سكت سالڤادور قليلاً.

- هل تريدني أن آتي معك؟

- لا أعتقد أنّ هذا ضروريّ. سأتّصل بك حالما أتكلّم مع ڤاليرا.

- كما تشاء. هل أنت مسلّح؟

- أجل.

- هذا يسعدني.

- سيّد سالڤادور... حدّثني روريس عن امرأةٍ كانت تعيش في ضاحية سوموروسترو، لطالما استشارها مارلاسكا، وقد تعرّف عليها بوساطة إيرينا سابينو.

- العرّافة؟

- ماذا تعلم عنها؟

- ليس الكثير. أعتقد أنّها، مثل ذلك الناشر، لا وجود لها أساسًا. عليك أن تخشى جانب خاكو والشرطة.

- سآخذ هذا بعين الاعتبار.

- اتّصل بي حالما تتوصّل إلى شيءٍ ما، موافق؟

- سأفعل. شكرًا.

أغلقتُ السمّاعة. وحين مررتُ بالكونتوار، تركتُ على المصطبة ثمن المكالمات وكأس الكونياك التي ظلّت هناك ولم أمسّها.

بعد عشرين دقيقة، وصلتُ إلى رقم 442 شارع دياغونال، وكنت أنظر إلى الأضواء في مكتب ڤاليرا، أعلى البناية. كانت البوّابة مغلقة، لكنّي طرقتُ حتّى أطلّ البوّاب واقترب بمزاجٍ لا يبعث على الارتياح. وما إن فتح قليلاً ليطردني، حتّى دفعتُ الباب بقوّة وتسلّلتُ إلى البهو، متجاهلاً اعتراضه. ذهبتُ إلى المصعد مباشرة، وحين حاول إيقافي بالقوّة، رميتُه بنظرة شرسة أبطلت جميع محاولاته.

فوجئت السكرتيرة بحضوري، ثمّ ارتعدت عندما وضعتُ قدمي على ضلع الباب كي لا تغلقه في وجهي، ودخلتُ بلا استئذان.

- أبلغي المحامي - قلت - حالاً.

نظرتْ إليّ السكرتيرة، مصفرّة الوجه.

- السيّد ڤاليرا ليس هنا...

أمسكتُ بذراعها ودفعتُها إلى مكتب المحامي. ما من أثرٍ له، رغم الأنوار المضاءة. كانت السكرتيرة تشهق ذعرًا، حتّى فهمتُ أنّي أكاد أهرس ذراعها بأصابعي. فتركتُها وتراجعتْ بضع خطوات. كانت ترتجف. تنهّدتُ وحاولتُ أن أطمئنها بإظهار المسدّس الناتئ من حزام البنطال على مرآها، فتأجّجتْ مخاوفها.

- أرجوك يا سيّد مارتين... أقسم لك أنّ السيّد ڤاليرا ليس هنا.

- أصدّقكِ. اهدئي. أريد التكلّم إليه ليس إلاّ.

هزّت رأسها فابتسمتُ لها.

- هلاّ أمسكتِ سمّاعة الهاتف، واتّصلتِ به إلى البيت؟

رفعت السكرتيرة السمّاعة، وهمست برقم المحامي لموظّف الاتصالات. وحين جاءها الردّ، مرّرتْ لي السمّاعة.

- مساء الخير - ارتجلتُ.

- مارتين؟ يا لها من مفاجأة سيّئة! - قال ڤاليرا من الجانب الآخر - هل لي أن أعرف ما الذي تفعله في مكتبي، خلال هذه الساعة من الليل، سوى ترويع الموظّفين عندي؟

- آسف على الإزعاج أيّها المحامي، لكنّي مضطّرٌ للتوصّل إلى مكان زبونك، السيّد كوريلي، حالاً. حضرتك الشخص الوحيد الذي بوسعه مساعدتي في هذا.

ساد صمتٌ طويل.

- أعتقد أنّك مخطئ يا مارتين. لا أستطيع مساعدتك.

- كنت آمل أن أحلّ هذه المشكلة بيسرٍ يا سيّد ڤاليرا.

- لم تفهمني يا مارتين. أنا لا أعرف السيّد كوريلي.

- عفوًا؟

- لم أقابله إطلاقًا ولم أتحدّث معه أبدًا، فكيف لي أن أعرف مكانه؟

- أذكّرك بأنّه فوّضكَ لتخرجني من المخفر.

- منذ أسبوعين، تلقّينا منه شيكًا، ورسالةً يقول فيها إنّك شريكه، وإنّ المحقق غراندس كان يؤرّقك، وعلينا أن نتولّى الدفاع عنك عند الضرورة. وأرفق مع الرسالة ظرفًا، طلب منّا أن نسلّمه لك شخصيًّا. فاكتفيتُ بقبض الشيك، والطلب من معارفي في الشرطة أن يعلِموني في حال اعتقالك. وهذا ما حدث. كما تذكر، التزمتُ بالمَهمّة الموكلة إليّ، وأخرجتُك متوعّدًا غراندس بزوبعة من المشاكل ما لم يُخلِ سبيلك. ليس لك الحقّ في التذمّر من خدماتنا.

هذه المرّة، جاء الصمت من جانبي.

- إن لم يقنعك كلامي، فاطلب من الآنسة مرغريتا أن تريك الرسالة - أضاف ڤاليرا.

- وماذا عن والدك؟ - سألتُه.

- والدي؟

- والدك ومارلاسكا كانت لهما علاقة بكوريلي. لا بدّ أنّك تعلم شيئًا...

- أؤكّد لك أنّ والدي لم يكن له صلة مباشرة بالسيّد كوريلي. مراسلاته، إن وُجِدت، فهي في الأرشيف، وأرشيف المكتب لم يعد له أثر. المرحوم مارلاسكا كان يتولّى أمور مراسلاته شخصيًّا. في الحقيقة، ما دمتَ تسألني عن هذا، أقول لك إنّ والدي كان يشكّ في وجود كوريلي، خصوصًا في الأشهر الأخيرة من حياة مارلاسكا، حين باشر بعلاقته، إن صحّ التعبير، مع تلك المرأة.

- أي امرأة؟

- راقصة المسارح الهابطة.

- إيرينا سابينو؟

سمعتُه يتأفّف غاضبًا.

- قبل أن يموت السيّد مارلاسكا، ترك رصيدًا تحت إدارة المكتب، وذلك لإجراء عدّة تحويلات إلى حسابٍ جارٍ باسم خوان كوربيرا وماريا أنطونيا ساناهوخا.

خاكو وإيرينا سابينو، قلت في سرّي.

- وكم كان يبلغ الرصيد؟

- كان مودَعًا بعملةٍ أجنبيّة. حوالي المائة ألف فرنك فرنسيّ، إن لم تخنّي الذاكرة.

- هل قال مارلاسكا من أين حصل على هذه الأموال؟

- نحن مكتب محاماة وليس فرع تحقيق. مَهمّتنا تنفيذ توصيات السيّد مارلاسكا وليس وضعها محلّ نقاش.

- هل ترك توصياتٍ أخرى؟

- أشياء بسيطة. مستحقّات ضيئلة ليس لها أيّ صلة بالمكتب ولا بعائلته.

- هل تذكر أحدًا على وجه الخصوص؟

- كان والدي يدير هذه المسائل شخصيًّا، للحيلولة دون وصول الموظّفين إلى معلومات خطيرة، كما يقال.

- ألم يستغرب والدك أنّ شريكه السابق أراد منح هذه الأموال لأولئك الغرباء؟

- استغرب بالطبع. كان هنالك الكثير من الأشياء التي أثارت استغرابه.

- هل تذكر إلى أين أرسِلت تلك المستحقّات؟

- كيف تريدني أن أذكر؟ لقد مرّت خمسة وعشرون عامًا على الأقلّ.

- اعصر دماغك - قلت - من أجل الآنسة مرغريتا.

نظرتْ إليّ السكرتيرة مرعوبة؛ فغمزتُ لها بعيني.

- إيّاك أن تمسّ شعرة واحدة منها - هدّد ڤاليرا.

- لا تحفّزني على بعض الأفكار! - أوجزتُ - كيف حال ذاكرتك؟ هل تنتعش؟

- بوسعي الرجوع إلى مذكّرات والدي الشخصيّة. هذا كلّ ما أستطيع فعله.

- وأين هي؟

- هنا، بين أوراقه. ولكن، قد يستغرق الأمر منّي ساعات...

أقفلتُ السمّاعة ورمقتُ سكرتيرة ڤاليرا التي أخذت تجهش بالبكاء. أعطيتُها منديلاً وربّتُ على كتفها.

- هيّا؛ لا تبكي! سأنصرف الآن. هل رأيتِ أنّي ما أردتُ سوى التكلّم معه؟

أومأتْ مذعورة، دون أن تنزع عينيها عن المسدّس. ارتديتُ المعطف وابتسمتُ لها.

- سؤال أخير.

رفعتْ أنظارها، متوجّسة من الأسوأ.

- هلاّ سجّلتِ لي عنوان المحامي؟ لا تحاولي خداعي! لأنّكِ إن كذبتِ عليّ، ستنتظرين عودتي بسرعة، وأؤكّد لك أنّي سأترك في البهو شيئًا من طباعي اللطيفة.

قبل أن أخرج، طلبتُ من الآنسة مرغريتا أن تطلعني على وصلة الهاتف. قطعتُها كي أوفّر عليها محاولة الاتّصال بڤاليرا وإعلامه بأنّي قادمٌ إليه بزيارةٍ ودّيّة، أو لعلّها تتّصل بالشرطة لإبلاغهم بالمشاحنة الصغيرة التي حصلتْ بيننا.

14

كان المحامي ڤاليرا يعيش في قصرٍ أثريّ، كأنّه قلعة نورمانديّة، عند تقاطع شارع خيرونا بشارع أوسياس مارش. تخيّلتُ أنّه ورث المكتب والقصر المهر عن أبيه، وأنّ كلّ حجرةٍ فيه جُبِلتْ بعَرَق ودماء أجيالٍ برشلونيّةٍ لم تكن لتحلم بأن تطأ لها قدمٌ في قصر كهذا. قلتُ للحارس إنّي جئتُ أحمل للمحامي وثائق من المكتب، من قِبل الآنسة مرغريتا. تردّد في الوهلة الأولى، ثمّ سمح لي بالدخول. صعدتُ السلالم على مهل، كي لا أثير الريبة في نظراته. كان بهو الشقّة الرئيسة أوسع من معظم المنازل التي رأيتُها في طفولتي، في حيّ ريبيرا القديم الواقع بالجوار. كان مطرق الباب عبارة عن قبضةٍ برونزيّة؛ ما إن أمسكتُ به، حتّى رأيتُ أنّ الباب كان مفتوحًا. دفعتُه برفقٍ وأشرفتُ إلى الداخل. وجدتُ ممرًّا طويلاً، يبلغ عرضه ثلاثة أمتار تقريبًا، جدرانه ملبّسةٌ بمخملٍ خمريّ، تزدان عليه اللوحات. أغلقتُ الباب خلفي، وألقيتُ نظرة على السراب الكثيف في عمق الممرّ. في الأجواء، تحوم أنغامٌ عذبة؛ أنغامُ بيانو شجيّ ومأساويّ؛ من إحدى مقطوعات إنريك غرانادوس.

- سيّد ڤاليرا؟ - ناديتُ - إنّي مارتين.

وبما أنّي لم أتلقَّ أيّ ردّ، جازفتُ في التقدّم ببطء نحو منبع تلك الموسيقى الحزينة. مشيتُ بين لوحاتٍ ومحاريب مجوّفة، تحتضن تماثيل للعذراء والقدّيسين. كان الممرّ مرصّعًا بأقواس متتالية تحجبها الستائر. قطعتُها ستارًا تلو الآخر حتّى بلغتُ المنتهى، حيث تتكشّف صالة كبيرة غارقة في الظلام. كانت الصالة مستطيلة، جدرانها مغطّاة برفوفٍ من الكتب، من الأرض حتّى السقف. وفي العمق ثمّة بابٌ كبيرٌ مواربٌ، يتدفّق من فتحته سرابٌ ينثره سعيرُ الموقد.

- ڤاليرا؟ - ناديتُ ثانية، بنبرةٍ أعلى.

تبدّى أمامي شكلٌ يتخلّل شعلة النار الآتية من فتحة الباب. عينان تقدحان، تتفحصّني بارتياب. بدا لي كلبًا، من سلالة الرعاة الألمان، لكنّه أبيض الوبر، يدنو منّي ببطء. حافظتُ على هدوئي، وأنا أحلّ أزرار المعطف بحذر، وأبحث عن المسدّس. توقّف الكلب عند قدميّ، ونظر إليّ، وأصدر زفرةً مقهورة. داعبتُ رأسه فلعق أصابعي. ثمّ استدار واتجه إلى الباب، مصدر النار. توقّف عند العتبة ونظر إليّ مجدّدًا. فتبعتُه.

دخلتُ إلى صالة قراءة كبيرة، يتربّع فيها موقدٌ ضخم. ما من ضياء آخر سوى ذلك اللهيب الجيّاش، الذي يعرض رقصةً للظلال المتلاطمة على السقف والجدران. وسط الصالة، ثمّة طاولةٌ عليها مذياعٌ تنبعث منه تلك الموسيقى. وقبالة الموقد، هناك أريكةٌ جلديّة كبيرة. اقترب منها الكلب والتفت إليّ ثانية. فاقتربتُ، بدوري، ما يكفي لأرى يدًا على مسند الأريكة، تحمل سيجارة مشتعلة، تنسلّ منها خيوط دخانٍ زرقاء.

- ڤاليرا؟ إنّي مارتين. وجدتُ الباب مفتوحًا...

اضطجع الكلب قرب صاحبه، وما انفكّ يحدّق إليّ. اقتربتُ ببطء والتففتُ حول الأريكة. كان المحامي ڤاليرا جالسًا قبالة الموقد، جاحظ العينين، بابتسامة طفيفة تلوح على شفتيه. كان يرتدي بذلة أنيقة، وفي حضنه كرّاسٌ ذو غلاف جلديّ. وقفتُ أمامه أنظر إلى عينيه، اللتين لا يرفّ لهما أيّ رمش. وحينذاك، لاحظتُ دمعةً حمراء، قطرة دم، تنساب على وجنته. انحنيتُ وأخذتُ الكرّاس، بينما يرميني الكلب بنظرةٍ مكتئبة. فداعبتُ رأسه.

- يؤسفني - غمغمتُ.

كان الكرّاس عبارةً عن مفكّرة، مخطوطةٍ باليد، تحتوي على فقرات مؤرّخة ومنفصلة بخطٍّ صغير. وقد فتحه ڤاليرا عند نصفه تقريبًا. ولا بدّ أنّه كان يقرأ الملاحظة في أعلى الصفحة، بتاريخ 23 نوفمبر 1904.

> إشعار تسليم: (356 . آ: 23 . 11 . 04)،7500 بيسيتا من حساب د. م. التسليم بوساطة مارسيل (شخصيًا)، إلى العنوان المبيّن من د. م.: الزقاق خلف المقبرة القديمة، ورشة نحت سانابري وأبناؤه.

أعدتُ قراءة تلك الملاحظة أكثر من مرّة، لعلّي أقتنص من لغزها المغزى. كنت أعرف ذلك الزقاق، منذ فترة عملي في «صوت الصناعة»، دربًا بائسًا ومحجوبًا خلف أسوار مقبرة بويبلو نويفو، مكتظًّا بورشات إعداد الشواهد والمنحوتات الجنائزيّة، وينتهي عند ضفاف الجداول التي تجتاز شاطئ بوغاتيل، ومدينة الصفيح الممتدّة حتّى البحر، ضاحية سوموروسترو. لسببٍ مبهم، أوصى مارلاسكا بدفع مبلغٍ طائل لأصحاب إحدى تلك الورشات.

في الصفحة المخصّصة لذلك اليوم نفسه، ثمّة ملاحظة أخرى متعلّقة بمارلاسكا، وتشير إلى بداية تحويل الأموال إلى خاكو وإيرينا سابينو.

> تحويل مصرفيّ من حساب د. م. في مصرف هسبانو كولونيال (فرع شارع فرناندو) رقم 008965 . 2564 . 1. خوان كوربيرا . ماريا أنطونيا ساناهوخا. الدفعة الشهريّة الأولى بقيمة 7000 بيسيتا. مع تنظيم دفع المستحقّات.

تابعتُ تصفّح الكرّاس. كانت معظم الملاحظات متعلّقة بنفقاتٍ وتحويلاتٍ بسيطة تخصّ المكتب. وكان عليّ تخطّي الكثير من الصفحات المليئة بملاحظاتٍ غامضة قبل أن أجد ملاحظةً تخصّ مارلاسكا. مرّة أخرى، مستحقّاتٌ مدفوعة نقدًا، عبْر مارسيل نفسه، لا بدّ أنّه كان أحد المتمرّنين في المكتب.

> إشعار تسليم (379 . آ: 29 . 12 . 04) 15.000 بيسيتا من حساب د. م. التسليم بوساطة مارسيل.
> شاطئ بوغاتيل، قرب مزلقان السكّة الحديديّة. الساعة 9. سيتمّ التحقّق من هويّة الطرف الآخر.

عرّافة السوموروسترو، قلت لنفسي. بعد وفاته، وُزّعت مبالغٌ طائلة من أموال دييغو مارلاسكا، عبْر شريكه. وهذا يناقض شكوك سالڤادور بأنّ خاكو فرّ بالأموال. كان مارلاسكا شخصيًّا قد أمر بدفع المستحقّات، من رصيده الذي تركه تحت إدارة مكتب المحاماة. الملاحظات تشير إلى أنّه، قبل رحيله بقليل، كانت لديه صلاتٌ بورشة

منحوتات جنائزيّة، وبشخصيّة غامضة في سوموروسترو؛ صلاتٌ تقوم على مبالغ كبيرة تنتقل باليد. أغلقتُ الكرّاس، مشتّت الذهن.

أثناء خروجي من الصالة، رأيتُ أنّ أحد جدرانها مكتظٌّ بصورٍ ذات أطرٍ أنيقة، معلّقة على مخملٍ من الأحمر القاني. اقتربتُ، وتعرّفتُ إلى الحزم والتكبّر في نظرات عميد أسرة ڤاليرا، الذي كانت لوحته الزيتيّة تهيمن على مكتب ابنه. وكان المحامي الأب يظهر في معظم الصور، رفقة مجموعة من الرجال النافذين ونبلاء المدينة، في ما يبدو أنّها أمسيات واحتفالاتٌ بمناسباتٍ تاريخيّة متعدّدة. كان يكفي إلقاء نظرة خاطفة على العشرات من تلك الصور، لتحديد وجوه الشخصيّات التي تبتسم للعدسة، بجانب المحامي العجوز، ما يؤكّد أنّ مكتب ڤاليرا - مارلاسكا - سينتيس كان نشطًا في اقتصاد برشلونة. حتّى ابن ڤاليرا يظهر في بعض الصور، أصغر سنًّا لكنّه واضحٌ لمن يعرفه، واقفًا في الصف الثاني دومًا، بنظرةٍ مدفونة خلف ظلّ أبيه الزعيم.

أحسستُ به قبل أن أراه. في صورةٍ يظهر فيها ڤاليرا الأب والابن، التُقطَتْ عند مدخل البناية رقم 442 شارع دياغونال، تحت المكتب. وإلى جانبهما ثمّة سيّد محترمٌ وطويل القامة، يظهر وجهه في صور كثيرةٍ أخرى، بجانب ڤاليرا دومًا. إنّه دييغو مارلاسكا. ركّزتُ على نظرته الثاقبة، وتعبير وجهه الصارم والهادئ، يراقبني بلقطةٍ عابرة من قبل خمسة وعشرين عامًا. لم تطرأ عليه آثار الشيخوخة، مثل ربّ عملي تمامًا. ابتسمتُ بمرارةٍ حين أدركتُ مدى سذاجتي. إذ لم يكن هذا الوجه مطابقًا لذاك الذي يظهر في الصورة، التي أعطاني إيّاها صديقي المحقّق المطرود.

يا لي من مغفّل. الرجل الذي قدّم نفسه على أنّه ريكاردو سالڤادور، لم يكن سوى دييغو مارلاسكا ذاته.

15

نزلتُ السلالم المظلمة، مغادرًا قصر آل ڤاليرا. وحين فتحتُ الباب، انبلجت أضواء الشارع في البهو، بنورٍ لازورديّ، اصطدمتُ في نهايته بنظرة البوّاب. ابتعدتُ من هناك مسرعًا باتجاه شارع ترافالغار، حيث ينطلق الترام الليليّ وصولاً إلى أعتاب مقبرة بويبلو نويفو، الترام نفسه الذي ركبتُ فيه مع والدي ليالٍ كثيرة، حين كنت أرافقه إلى عمله في «صوت الصناعة».

كانت العربة خالية، فجلستُ على المقاعد الأماميّة. وكلّما اقتربنا من البويبلو نويفو، دخل الترام في شبكة من طرقاتٍ سرابيّة، مدفونة تحت غمام البخار. نادرًا ما صادفتْنا أعمدة إنارة، بينما تكشف أضواء الترام حوافّ الأشياء، كمشعلٍ داخل نفقٍ مظلم. في النهاية، تراءى لي مدخل المقبرة، وظلال الصلبان والمنحوتات التي تنهض في أفقٍ لا حدود له من المصانع والمحارق التي تخز السماء بنقاط حمراء مومضة. وثمّة قطيعٌ من الكلاب الجائعة تدور حول قاعدة ملاكين كبيرين يحرسان السور. تسمّرتِ الكلابُ في أماكنها ما إن لاح ضوء الترام، فقدحت عيونها شررًا كالذئاب، وتوارت في الظلام.

قفزتُ عن الترام قبل أن يتوقّف، ورحت ألتفّ حول أسوار المقبرة. ابتعد الترام كسفينةٍ في الضباب، فيما كنت أعجّل من خطاي. كنت أسمع دوس الكلاب، وأشمّ رائحتها، وهي تطاردني في العتمة. وعندما صرتُ خلف المقبرة، توقّفتُ عند زاوية الزقاق، ورميتُ حجرةً لا على التعيين. فسمعتُ نباحًا متألّمًا، وخطواتٍ متسارعة تبتعد في الليل. دخلتُ الزقاق الضيّق، الذي يتّسع لمرور شخصٍ واحدٍ قد يختنق بين الجدار وصفّ ورشات المنحوتات الجنائزيّة، المكدّسة بجانب بعضها بعضًا. وعلى بُعد ثلاثين مترًا، كانت لافتة سانابري وأبناؤه تتموّج تحت إنارةٍ ترسل الضوء كما يُنثر الغبار. دنوتُ من الباب، وهو مجرّد شِباكٍ متداخلة وموثقةٍ بسلاسل وقفلٍ صدئ، حطّمته بطلقة واحدة.

كانت الريح تعوي في آخر الزقاق، محمّلةً بملح البحر الذي تتلاطم أمواجه على بُعد مائة متر، فمسحتْ صدى الطلقة. فتحتُ الباب، ودخلتُ إلى ورشة سانابري وأبناؤه. أزحتُ الستار القاتم، الذي يحجب المحلّ، فتغلغل ضوء الإنارة. كان المكان مستطيلاً، ضيّقًا وعميقًا، تسكنه تماثيل الرخام المتجمّدة تحت الظلام، ولمّا ينتهِ العمّالُ من إنجاز وجوهها. تقدّمتُ بضع خطواتٍ بين تماثيل للعذراء، متفاوتة الحجم، تحمل طفلاً بين ذراعيها، وسيدّاتٍ بيضاء يحملن أزهارًا من مرمر، وأنظارهنّ شاخصةٌ نحو السماء، وصخورٍ نُقشَتْ عليها بعض العيون للتوّ. كان غبار المرمر يشذو في المحلّ. ما من أحد هناك، سوى تلك التماثيل التي لا اسم لها. كنت على وشك الخروج حين رأيته. يده ناتئة من خلف منحوتة دينيّة متّشحة بستارٍ في آخر الورشة. وكلّما اقتربتُ، بانت حوافّه شيئًا فشيئًا. توقّفتُ قبالة ذلك الملاك الطيّب، أمعن فيه، يشبه وسام الملاك الذي لطالما تباهى به الناشر على عروة سترته، والذي وجدتُه في

قاع الصندوق في مكتبي. كان طوله يبلغ المترين والنصف. تأمّلتُ ملامحه، ولاسيّما ابتسامته. ثمّة شاهدة قبرٍ حجريّة عند قدميه، منقوشٌ عليها:

داڤيد مارتين

1900 - 1930

ابتسمتُ. إن كان عليّ الاعتراف بميزةٍ يتحلّى بها صديقي الطيّب، دييغو مارلاسكا، فهو حسّ الدعابة وحياكة المفاجآت. فكّرتُ بأنّه لا يجدر بي زجره على استباق مأتمي بهذه المرثيّة الخالدة. جثوتُ أمام الشاهدة ولامستُ اسمي. وسمعتُ خطواتٍ طفيفة خلف ظهري. التفتُّ متأهّبًا لأجد وجهًا مألوفًا. كان الطفل يرتدي نفس ثيابه السوداء حين كان يلاحقني، منذ أسابيع، في شارع بورن.

- ستستقبلك السيّدة الآن - قال.

أومأتُ ونهضتُ. مدّ الطفل يده فأمسكتُها.

- لا تخف - قال وهو يقودني إلى الخارج.

- لست خائفًا - غمغمتُ.

اقتادني حتى آخر الزقاق، حيث تكشّف خطّ الساحل، المحجوب خلف صفٍّ من المحلاّت المبعثرة وبقايا قطار شحنٍ مهمَل، على سكّة مقطوعةٍ تعلوها الأجمة. غزا الصدأ عربات القطار، فبات كهيكل سخّانة، أو خردةٍ تنتظر الإتلاف.

في الأعلى، أطلّ القمر من بين ثغرات الغيوم الرماديّة. وفي الأفق، تبدّت بعض سفن الشحن بين الأمواج، وعند الساحل ثمّة مقبرةٌ لهياكل قوارب الصيد القديمة والزوارق الصغيرة، لكأنّ الأعاصير لفظتْها هناك فتكدّستْ فوق الرمال. في الجهة الأخرى، تمتدّ بيوت صفيح السوموروسترو، كأنقاض المعادن المبعثرة خلف قلاع السراب الصناعيّ. وبعض الأكواخ، المبنيّة من قصبٍ وخشب، تحاذي ارتطام الموج. والدخان الأبيض يتصاعد كالريش من أسطح تلك القرية البائسة، الواقعة بين المدينة والبحر، كحثالةٍ بشريّة واسعة. زد على ذلك رائحة القمامة المحروقة. دخلنا طرقات تلك المدينة المنسيّة، ممرّاتٍ محفورةً بين أسس إسمنتيّة مسروقة، وطينٍ وأخشاب جاد بها المدّ. قادني الطفل نحو العمق، غير آبهٍ باستغراب الناس، أغلبهم عمّالٌ بؤساءٌ عاطلون، وغجرٌ مطرودون من أكواخ أخرى نمت على أطراف مونتويك أو قبالة الحفر الجماعية لمقبرة خان تونس، وأطفالٌ وكهولٌ منبوذون. أمطرني جميعهم بالشكوك. هناك نسوةٌ في أعمار متفاوتة، وضعن ماءً أو طعامًا في أوعية معدنيّة على النار خارج الأكواخ. توقّفنا عند مسكنٍ حائل الطلاء؛ طفلةٌ بوجه شمطاء، عرجاء الساق بسبب شلل الأطفال، تجرّ سطلاً يتحرّك فيه شيءٌ لزجٌ ورماديّ. سمك الأنقليس. أشار الطفل إلى الباب.

- إنّها هنا - قال.

ألقيتُ نظرة أخيرة إلى السماء. اختبأ القمر بين الغيوم، وهبّ الظلام من جهة البحر.

دخلتُ.

16

كان وجهها مرسومًا بذكرياتها؛ ونظرتها إمّا لطفلةٍ ذات عشرة أعوام، وإمّا لعجوزٍ عاشت مائة عام. كانت جالسة قرب مجمرٍ صغير، تتأمل رقصة اللهب، بانبهارٍ لا يليق إلاّ بطفلٍ. شعرها، بلون الرماد، معقودٌ بضفيرة. جسمها نحيلٌ هزيلٌ، وحركاتها موجزة وبطيئة. ترتدي لباسًا أبيض، والشال الحريريّ يتدلّى على عنقها. غمرتني بابتسامة دافئة، وأشارتْ إليّ بالجلوس على كرسيٍّ بجانبها. جلستُ. هيمن الصمت قرابة الدقيقتين، نصغي إلى حَسيس الجمر ورَجوف الموج. بدا الوقت معلّقًا في حضورها، فيما استغربتُ من تلاشي الضرورة التي جاءت بي إليها. لفحني دفء النار شيئًا فشيئًا، فأخمد البردَ الذي قد تجمّد في عظامي. وحينذاك، نزعت عينيها عن النار، وأمسكتْ بيدي، وفتحتْ فمها.

- أمّي عاشت في هذا المنزل طوال خمسة وأربعين عامًا - قالت - في تلك الآونة، لم نكن لنسمّيه منزلاً، بل كوخًا قائمًا من القصب وبقايا ما تمنّ به الأمواج. رفضتْ أن تهجره، حتّى بعد أن ذاع صيتها وتحسّنت أحوالها. لطالما ردّدتْ إنّها لن تخرج من سوموروسترو إلاّ ميّتة. ولدتْ هنا مع سكّان الشاطئ، وبقيتْ هنا حتّى آخر يوم من عمرها. قيل عنها الكثير. وكثيرٌ من الناس تحدّثوا عنها، والقليل منهم تعرّف إليها حقًّا. كانوا يهابونها ويكرهونها. حتّى بعد أن توفّيتْ. إنّي أطلعك على هذه الأمور، لأنّي أرى من الصائب أن تعرف بأنّي لست المرأة التي تبحث عنها. فالمرأة التي تبحث عنها، أو تحسَب نفسك باحثًا عنها، تلك التي كانوا يلقّبونها بعرّافة السوموروسترو، أمّي الراحلة.

نظرتُ إليها حائرًا.

- متى...؟

- توفّيت عام 1905 - قالت - قتلوها بالقرب من هنا، قرب الساحل، بطعنة سكّين على عنقها.

- يؤسفني هذا. كنت أعتقد أنّ...

- كثيرٌ يعتقدون مثلك. الرغبة في الاعتقاد تقهر الموت أيضًا.

- ومن قتلها؟

- أنت تعلم.

تأخّرتُ عن الردّ برهة.

- دييغو مارلاسكا...

أومأتْ بنعم.

- لماذا؟

- كي يُسكِتها. ويمحو آثارها.

- لا أفهم. أمّك ساعدته... وهو، بالمقابل، أعطاها الكثير من المال.

- تحديدًا لهذا السبب قتلها؛ كي تحمل سرّه إلى قبرها.

حدّقت إليّ بابتسامة طفيفة، كما لو أنّها تتلذّذ بما يراودني من حيرةٍ، وفي الوقت نفسه تشفق عليّ.

- أمّي كانت امرأة بسيطة يا سيّد مارتين. كانت قد نشأتْ في الشقاء، ولم يكن لديها من قوّة سوى إرادتها للبقاء. لم تتعلّم القراءة والكتابة أبدًا، لكنّها كانت ملمّة بباطن الأشخاص. كانت تشعر بما يشعرون، وترى ما يخفون، وتعرف ما يرغبون. كانت تقرأه في نظراتهم وسلوكهم، وأسلوبهم في المشي أو تحريك اليدين. كانت تعلم مسبقًا ما سيقولون وما سيفعلون. لهذا سمّاها كثيرون بالمتكهّنة، لقدرتها على رؤية ما يرفضون رؤيته في نفوسهم. كانت تقبض المال لتعيش، تبيع جرعاتٍ من الحبّ، وإيهاماتٍ تُعدّها بمياه الجدول الممزوج ببعض الأعشاب والقليل من السكّر. كانت تساعد أصحاب الأرواح الهائمة على الإيمان بما يرغبون في الإيمان به. حين صار اسمها متداولاً على نطاق واسع، توافد إليها العديد من أبناء الطبقة العليا، طالبين خدماتها. الأثرياء كانوا يطمحون لمزيد من الثراء. أصحاب النفوذ مزيدًا من السلطة. والمساكين يريدون أن يشعروا بأنّهم قدّيسون. والقدّيسون يرغبون أن ينزل بهم عقابٌ على آثامٍ كانوا يتحسّرون على عدم اقترافها، لانعدام شجاعتهم. كانت أمّي تصغي إليهم جميعًا وتقبل أموالهم. وبفضل تلك الأموال، أرسلتني وإخوتي إلى المدارس التي يتردّد إليها أبناء زبائنها. اشترت لنا اسمًا جديدًا وحياة أخرى بعيدًا عن هذا المكان. أمّي كانت طيّبة يا سيّد مارتين. حذار أن يخدعوك. لم تبتزّ أحدًا أبدًا، ولم توهمهم بأكثر ممّا كانوا يلحّون على الإيمان به. الحياة علّمتها بأنّنا نحتاج لأكاذيب، كبيرة وصغيرة، بقدر احتياجنا للهواء. كانت تقول إنّنا لو استطعنا رؤية حياتنا على حقيقتها، ونفوسنا على حقيقتها، ليوم واحد فقط، من الفجر إلى الغروب، بكامل الوضوح، لانتحرنا أو فقدنا رشدنا.

- ولكن...

- إن جئت هنا بحثًا عن سحر، فيؤسفني إحباطك. أمي علّمتني أن لا وجود للسحر، ولا وجود للشرّ أو الخير سوى ما نوهم أنفسنا بأنّه كذلك، بسبب مطامعنا أو سذاجتنا. وأحيانًا بسبب الجنون أيضًا.

- لكنّها لم تقل هذا لدييغو مارلاسكا حين قبلتْ أمواله - اعترضتُ - سبعة آلاف بيسيتا، في ذلك الزمان، بوسعها شراء حياةٍ مديدةٍ من الاسم المرموق والمدارس الراقية.

- دييغو مارلاسكا كان بحاجة للإيمان. وأمّي ساعدته على ذلك. هذا كلّ ما في الأمر.

- بمَ أراد أن يؤمن؟

- بخلاصه. كان مقتنعًا أنّه خان نفسه ومن يودّه. كان يعتقد أنّه سار في حياته على طريقٍ ملؤها الخبث والزيف. فكّرتْ أمّي أنّ هذا لا يميّزه عن باقي الرجال، الذين يتوقّفون في لحظةٍ معيّنة من حياتهم لينظروا إلى المرآة. وحدها الوحوش اللعينة مَن تعتبر نفسها في مرتبةٍ سامية دومًا، وتتكبّر على بقيّة الناس. لكنّ ديبغو مارلاسكا كان رجلاً ذا ضمير؛ لم يكن راضيًا عمّا يراه. لذا جاء إلى أمّي. لأنه فقد الأمل، وربّما الرشد أيضًا.

- هل قال مارلاسكا ما الذي ارتكبه من قبل؟

- قال إنّه سلّم روحه للشبح.

- للشبح؟

- هكذا قال. شبحٌ يطارده، يشبهه شكلاً ووجهًا وصوتًا.

- ماذا كان يقصد؟

- الذنب والندم ليس لهما أيّ مقصد. إنّها عواطف، غرائز، وليست أفكارًا.

خطر في بالي أنّ الناشر بذاته لم يكن ليعبّر عن هذا، بتلك البلاغة والفصاحة.

- وما الذي كان بوسع والدتك فعله من أجله؟

- لا شيء سوى مواساته ومساعدته في إيجاد قليل من السلام. ديبغو مارلاسكا كان يؤمن بالسحر، ولهذا السبب أقنعته أمي بأنّ طريقه نحو الخلاص تمرّ بها. حدّثته عن سحرٍ قديم، أسطورة عن الصيّادين، سمعتْها في صغرها بين أكواخ الساحل. رجلٌ يضيّع بوصلة حياته، ويشعر بأنّ الموت رصد ثمنًا لروحه، وفقًا للأسطورة، بأنّه إذا وجد روحًا طاهرة مستعدّة للفداء بنفسها من أجله، بإخفاء قلبه الأسود، فسيتجنّبه الموتُ الأعمى.

- روحٌ طاهرة؟

- متحرّرة من الآثام.

- وما شكل هذا الفداء؟

- بالألم، طبعًا.

- ما طبيعة هذا الألم؟

- أضحية الدم. روح مقابل روح. موت مقابل حياة.

ساد صمتٌ طويل، فعلا صوتُ البحر على الشاطئ وتدفُّق الريح بين الأكواخ.

- كانت إيرينا لتفقأ عينها وتطعن قلبها من أجل مارلاسكا. كان سبب حياتها الوحيد. كانت تحبّه حبًّا أعمى، وتؤمن مثله بأنّ خلاصها الوحيد يكمن في السحر. أرادت في البدء أن تنتحر، وتقدّم حياتها فداءً، لكنّ أمّي أثنتها عن

ذلك. قالت لها ما كانت تعرفه، إنّ روحها لم تكن متحرّرة من الآثام، وإنّ هذا الفداء لن يجدي نفعًا. أوهمتها بذلك كي تنقذها. كي تنقذ كلاً منهما.

- ممّن؟

- من نفسيهما.

- لكنّها ارتكبتْ خطأً...

- حتّى أمي ليست قادرة على رؤية كلّ شيء.

- وماذا فعل مارلاسكا؟

- لم تطلعني أمّي على ذلك أبدًا؛ لم تشأ توريطي أنا وإخوتي بهذا المأزق. أرسلتنا بعيدًا، وفرّقتنا في مدارس داخليّة مختلفة، كي تنسينا من أين أتينا ومَن نكون. كانت تقول إنّ اللعنة حلّت علينا حينذاك. ثمّ ماتت بعدها بقليل؛ ماتت وحيدة. ولم يردنا الخبر إلا بعد وقت طويل. حين وجدوا جثّتها، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها، وأوكلوا البحر بأن يحملها رفاتها بعيدًا. لم يجرؤ أحد على التحدّث عن موتها. لكنّي أعلم مَن قتلها ولماذا. وإلى يومنا هذا، أعتقد أنّ أمي كانت تعلم أنّها ستموت قريبًا، وتعرف قاتلها. كانت تعلم، ولم تفعل شيئًا لأنّها آمنت بذلك أيضًا. لأنّها كانت نادمةً عمّا فعلتْ. آمنت بذلك لأنّها اعتقدتْ بأنّها ستنقذ أرواحنا من هذا المكان، إذا ضحّت بروحها. لهذا آثرت البقاء هنا، لأنّ المعتقدات القديمة تقول إنّ الروح التي تضحّي بنفسها، عليها البقاء في مسرح الخيانة، كغشاوة على عينَي الموت، سجينةً فيه إلى الأبد.

- وماذا حلّ بالروح التي خلّصت روح دييغو مارلاسكا؟

ابتسمت المرأة.

- لا وجود للأرواح، ولا للخلاص، يا سيّد مارتين. هذه كلّها خرافاتٌ وأباطيلٌ قديمة. لا وجود سوى للرماد والذكريات. ولكن، إن كان لتلك الروح وجود، فإنّها في المكان الذي ارتكب فيه مارلاسكا جريمته؛ والسرّ الذي أخفاه طوال تلك السنوات ليتسنّى له التحكّم بمصيره.

- بيت البرج... سكنتُ فيه قرابة عشرة أعوام؛ لا وجود لأيّ شيء في ذلك البيت.

ابتسمتْ مجددًا، وركّزتْ أنظارها في عينيّ. انحنت إليّ وقبّلتْ خدّي. كانت شفتاها مرتعًا للصقيع، كشفاه الجثث. وأنفاسها كطعم الأزهار الميّتة.

- لعلّك لم تبحث جيّدًا في المكان الصحيح - همست في أذني - لعلّ تلك الروح السجينة هي روحك.

ثمّ حلّت الشال الذي يغطّي عنقها، فكشف عن ندبة كبيرة تخترقه. هذه المرّة، كانت ابتسامتها خبيثة، وعيناها تقدحان بنورٍ جارحٍ ولاذع.

- ستشرق الشمس بعد قليل. ارحل من هنا قبل أن يفوت الأوان - قالت المشعوذة وهي تدير ظهرها وترنو إلى النار.

ظهر الطفل ذو اللباس الأسود عند العتبة، ومدّ يده كمن يعلن عن انتهاء الوقت. نهضتُ وتبعتُه. بينما كنت أستدير، فوجئتُ بانعكاسي في مرآة معلّقة على الحائط، رأيتُ فيها عجوزًا مطأطأة الرأس، رثّة الثياب، تجلس قبالة النار. ورافقتني ضحكتها الكئيبة والقاسية حتّى المخرج.

17

كان الفجر يبزغ حين وصلتُ إلى بيت البرج. وجدتُ قفل البوّابة مكسورًا. دفعتُها بيدي ودخلتُ إلى الفناء. كان القفل من خلف البوّابة يفوح دخانًا ورائحة مكثّفة. أسيد. صعدتُ السلالم بحذر، متوقّعًا أنّي سأجد مارلاسكا بانتظاري تحت عتمة المستراح، أو ربّما أجده ورائي متبسّمًا. وعند أعلى عتبات السلّم، لاحظتُ أنّ آثار الأسيد ماثلةٌ على قفل باب البيت أيضًا. أدخلتُ المفتاح وبقيتُ حوالي دقيقتين أصارع القفل، الذي تبيّن أنّه مخلوع لكنّه لم يتجاوب بسهولة. أخرجتُ المفتاح الذي أفسدته تلك المادّة، ودفعتُ الباب بقوّة فانفتح. دخلتُ وتركته مفتوحًا خلف ظهري، متقدّمًا في الممرّ دون أن أنزع المعطف عنّي. أخرجتُ المسدّس من جيبي وفتحتُ البكرة. فرّغتُها من خراطيش الطلقات التي استهلكتُها، واستبدلها بأعيرة جديدة، كما رأيت والدي يفعل غير مرّة حين كان يعود إلى المنزل فجرًا.

- سالڤادور؟ - ناديتُ.

طغى صدى صوتي على أرجاء البيت. هيّأتُ القادح. وتقدّمتُ تباعًا حتّى وصلتُ إلى الغرفة في آخر الممرّ. كان بابها مواربًا.

- سالڤادور؟ - صرختُ ثانية.

سدّدتُ الرمي على الباب، وفتحتُه رفسًا. ما من أثرٍ لمارلاسكا في الداخل، سوى أكوام الصناديق، والأغراض القديمة المكدّسة، عند الحائط. لفحتني تلك الرائحة مجدّدًا، وبدا أنّها تتسرّب من الجدران. اقتربتُ من الخزانة التي تحجب الجدار، في عمق الغرفة، وفتحتُ دفّتيها. نزعتُ الثياب القديمة عن المشاجب. فنفذ تيّار هواءٍ رطبٍ وبارد، من ذلك الثقب في الجدار، إلى وجهي. أيًّا يكن سرّ هذا البيت، لا بدّ أنّ مارلاسكا أخفاه خلف هذا الجدار.

أرجعتُ السلاح إلى جيب المعطف، ونزعتُه عنّي. أدخلتُ ذراعي في الفراغ ما بين الخزانة والجدار. تمكّنتُ من إمساك الخشبة الخلفيّة بيدي، ودفعتُها بشدّة. فسمحت لي الهزّة باكتساب مجال أوسع بسنتمترين كي أحكم قبضتي، فدفعتُ مجدّدًا. أزيحت الخزانةُ مسافة شبر، وتابعتُ دفعها إلى الأمام حتى انكشف الجدار فتسللتُ بينهما. وحينذاك، رحتُ أدفعها بكتفي حتّى أزحتها كليًّا عن الجدار الخلفيّ. توقّفتُ لألتقط أنفاسي وأتفحّص الجدار. كان طلاؤه حائلاً، يختلف عن بقيّة جدران الغرفة. وخلف الطلاء، ثمّة ما يشبه المعجون الطينيّ، ليس مشغولاً بعناية. ضربتُه بقبضتي، فلم يدع الصدى الناتج أيّ مجالٍ للشكّ. إذ لم يكن ذاك جدارًا أساسيًّا. ثمّة شيءٌ ما في الجانب الآخر. أسندتُ أذني إلى الجدار، وحينها سمعتُ صوتًا ما. خطواتٌ تقترب في الممرّ... تراجعتُ ببطء ومددتُ يدي نحو المعطف، الذي وضعته على أحد الكراسي، لأستلّ المسدّس. لاح طيفٌ ما على العتبة. حبستُ أنفاسي. أطلّ الوجه شيئًا فشيئًا إلى داخل الغرفة.

- سيّدي المحقّق... - غمغمتُ.

ابتسم ڤيكتور غراندس بفتور. تخيّلتُ أنّهم كانوا بانتظاري، منذ ساعات، مختبئين في إحدى الزوايا.

- هل تُجري أعمال الصيانة يا مارتين؟

- أرتّب المكان.

نظر المحقّق إلى كومة الملابس والعلب الكبيرة المرميّة أرضًا، والخزانة في غير مكانها، واكتفى بهزّ رأسه.

- طلبتُ من ماركوس وكاستيلو أن ينتظراني في الأسفل. كان عليّ أن أطرق الباب، لكنّك تركته مفتوحًا، فسمحتُ لنفسي بالدخول... قلت لنفسي: هذا يعني أنّ صديقي مارتين بانتظاري.

- كيف بإمكاني خدمتك أيّها المحقّق؟

- بأن تأتي معي إلى المخفر، لطفًا منك.

- هل أنا قيد الاعتقال؟

- أعتقد ذلك. هل ستسهّل عليّ الأمور أم ألجأ إلى الأساليب القاسية؟

- لا - أكدُّت.

- إنّي ممتنٌّ لك على ذلك.

- هل لي أن آخذ المعطف؟ - سألتُ.

نظر غراندس إلى عينيّ برهة. ثم أخذ المعطف وساعدني في ارتدائه. أحسستُ بثقل المسدّس على ساقي؛ وعقدتُ الأزرار بهدوء. وقبل الخروج من الغرفة، ألقى المحقّق نظرة أخيرة إلى الجدار الذي ظلّ مكشوفًا. ثم أشار لي بالخروج إلى الممرّ. كان ماركوس وكاستيلو قد صعدا حتى المستراح، ينتظران بابتسامة ظافرة. وعندما وصلتُ إلى وسط الممرّ، توقّفتُ قليلاً كي أنظر إلى البيت، فتولّد لي انطباعٌ بأنّه ينحسر في بئرٍ من ظلال؛ وتساءلتُ إن كنت سأعود إليه ثانية. أخرج كاستيلو القيود، لكنّ غراندس أشار ممانعًا.

- لا لزوم لهذا، أليس كذلك يا مارتين؟

هززتُ رأسي. سدّ غراندس الباب، ودفعني برفقٍ وحزم نحو السلالم.

18

هذه المرّة، لم يكن هنالك من مؤثّرات مرعبة، ولا مجرياتٍ فظيعة، ولا أصداء لزنازين تسكنها الوحشةِ والرطوبة. بل كانت القاعة واسعةً، مفعمة بالإنارة، وعالية السقف؛ ما جعلني أحسَبها قاعة في مدرسة دينيّة عريقة، بما فيها الصليب المعلّق على الحائط. كانت تقع في الطابق الأوّل من مخفر الشرطة، نوافذها كبيرة ورحبة، تطلّ على المارّة وعربات الترام، التي باشرتْ حركتها الصباحيّة، في شارع لايتانا. وسط القاعة كرسيّان وطاولةٌ معدنية، بدت صغيرة الأحجام لكونها معزولة وسط ذلك المجال الفسيح. قادني غراندس نحو الطاولة وأمر كلاًّ من ماركوس وكاستيلو بالخروج لنبقى على انفراد. فأخذ العميلان ما طاب لهما من وقتٍ في تنفيذ هذا الأمر. وكان الغيظ الذي يقطر من وجههما كافيًا لإغراق القاعة كلّها. انتظر غراندس خروجهما وجلس.

- ظننتُ أنّك ستقدّمني وجبة للأسود - قلت.

- تفضّل بالجلوس.

رضختُ. لم يكن وضعي ليبدو خطيرًا، لولا نظرات ماركوس وكاستيلو أثناء خروجهما، والباب المعدنيّ والقضبان على النوافذ. وقد ازددتُ اقتناعًا بهذا حين انتبهتُ إلى إبريق القهوة الساخنة وعلبة السجائر التي تركها غراندس على الطاولة، وخصوصًا ابتسامته الصافية واللطيفة. بالتأكيد. هذه المرّة، المحقّق يتصرّف بجدّيّة.

جلس قبالتي وفتح ملفًّا، وأخرج منه صورًا فوتوغرافيّة ووضعها على الطاولة، واحدة بجانب الأخرى. في الأولى، ظهر المحامي ڤاليرا على الأريكة في صالة منزله. والثانية، صورةٌ لجثّة الأرملة مارلاسكا، أو ما تبقّى من جثتها بعد انتشالها من قاع مسبح منزلها في شارع ڤالڤيدريرا. وفي الثالثة، رجلٌ هزيلٌ، مكبّل العنق، كأنّه داميان روريس. أمّا الرابعة، كانت لكريستينا سانغيير، لعلّها التقطتْ يوم زفافها ببيدرو ڤيدال. والأخيرتان عبارةٌ عن صورتين شخصيّتين لكلٍّ من باريدو وإسكوبياس، ناشريّ سابقًا. بعد أن رتّب الصور الستّة بعناية، صوّب غراندس إليّ نظرة ثاقبة، وكسب بضع دقائق من الصمت، ليدرس ردّة فعلي على الصور، أو عدم اكتراثي. ثمّ سكب فنجانين من القهوة، باسترخاءٍ مهيب، ودفع أحدها نحوي.

- يسعدني في البداية أن أعطيك الفرصة لتروي عليّ بنفسك كلّ شيء يا مارتين. على رسلك، وبلا تعجّل - قال أخيرًا.

- لن يجدي نفعًا - أجبتُ - لن يغيّر شيئًا.

- هل تفضّل وجهًا لوجه مع متّهمين آخرين؟ مع مساعِدتك مثلاً؟ ما كان اسمها؟ إيزابيلا؟

- دعها وشأنها؛ فهي لا تعرف شيئًا.

- أقنعني إذن!

نظرتُ نحو الباب.

- ثمّة وسيلة وحيدة للخروج من هنا يا مارتين - قال المحقّق وهو يُظهِر لي المفتاح.

فشعرتُ حينها بوطأة المسدّس في جيب معطفي.

- من أين تريد أن أبدأ؟

- أنت الراوي. كلّ ما أتمنّاه أن تسرد عليّ الحقيقة.

- لا أعرف أيّ حقيقةٍ تقصد.

- تلك الحقيقة المؤلمة.

وطوال ساعتين، لم ينبس ڤيكتور غراندس ببنت شفة. أنصت إليّ بانتباه، وهو يهزّ رأسه من حينٍ لآخر، ويدوّن بعض الكلمات على دفتره، بين الفينة والأخرى. كنت أركّز النظر إليه في البداية، ثمّ سرعان ما نسيتُ وجوده، لأكتشف أنّي أروي الحكاية على نفسي. عادت بي الكلمات إلى زمان ظننتُه منسيًّا، منذ تلك الليلة التي قتلوا فيها والدي على أعتاب الجريدة. تذكّرتُ أيّامي في «صوت الصناعة»، والسنوات التي قضيْتها في كتابة قصص الرعب، وأوّل رسالة وصلتني من أندرياس كوريلي، متمنيًّا لي فيها آمالاً عظيمة. تذكّرتُ لقائي الأوّل بهذا الناشر عند خزّان المياه، والأيّام التي كنت أنتظر فيها موتًا محقّقًا يقوّض مستقبلي وتطلّعاتي. حدّثته عن كريستينا، وعن ڤيذال، وعن قصّتهما التي توقّع الجميع نهايتها عداي. حدّثته عن الروايتين اللتين ألّفتُهما، الأولى باسمي والأخرى باسم ڤيذال، وعن ضياع تلك الآمال البائسة، وعن المساء الذي شهدتُ فيه والدتي وهي تلقي في القمامة أعزّ شيءٍ قمتُ به في حياتي. لم أكن أستجدي تفهّم المحقّق أو شفقته. حسَبي أنّي أسير وفق خارطة متخيّلة للأحداث التي حملتني إلى تلك القاعة، وتلك اللحظة من الفراغ المطلق. عدتُ بالمخيّلة إلى ذلك المنزل، قرب منتزه غويل، والسهرة التي صرّح فيها ربّ العمل عن عرضه الذي لم يكن لي أن أرفضه. اعترفتُ بشكوكي الأولى، واكتشافاتي بما يخصّ بيت البرج، وما يتعلّق بوفاة دييغو مارلاسكا المثيرة للاستغراب، وشبكة التضليل التي وقعتُ في مهالكها، ولعلّي اخترتُ الوقوع فيها إرضاءً لجموحي وجشعي وإرادتي للعيش مهما كلّفني الثمن. كأنّي عشتُ لأروي تلك الحكاية.

لم أغفِل أيّ تفصيل. إطلاقًا. ما عدا أهمّ تفصيل. ذاك الذي لم أجرؤ على البوح به حتّى في سرّي. ففي الحكاية التي سردتُها آنئذ، أوهمتُ المحقّق بأنّي كنت عائدًا إلى مستوصف ڤيلا سان أنطونيو، بحثًا عن كريستينا، فما وجدتُ سوى آثار قدميها النازفتين تتوه في الثلج. وربّما لو أعدتُها على نفسي أكثر من مرّة، كنتُ سأصدّق أنّ الأمور جرت على ذلك النحو حقًّا. كانت حكايتي تنتهي عند ذلك الصباح نفسه، بالعودة من أكواخ سوموروسترو، إذ قرّر دييغو مارلاسكا ألاّ يضع صورتي بين تلك الصور التي رتّبها المحقّق على الطاولة.

وما إن أنهيتُ الحكاية، حتّى غصتُ في صمتٍ عميق. لم أشعر يومًا بأنّي مرهقٌ كما في تلك اللحظة. كان بودّي الذهاب للنوم وعدم الاستيقاظ منه أبدًا. وكان غراندس ينظر إليّ من جانبه. بدا لي أنّه مشتّت الذهن، وحزينٌ

وحانقٌ، وتائهٌ على وجه الخصوص.

- قل شيئًا ما - رحتُ أحثّه.

تنهّد غراندس. نهض عن الكرسيّ، الذي لم يتركه خلال سردي، واقترب من النافذة، موليًا إليّ ظهره. كم تمنّيتُ أن أخرج المسدّس من المعطف، وأطلق النار على رقبته، لأفرّ من هناك بالمفتاح الذي وضعه في جيبه. كنت سأخرج إلى الشارع في غضون ستّين ثانية.

- السبب الذي دعانا إلى النقاش، أنّ البارحة وصلتنا برقيّة من قسم الشرطة المدنيّة في پيغثيردا، تتحدّث عن اختفاء كريستينا سانغيير من مستوصف ڤيلا أنطونيو، وأنّهم لا يتّهمون غيرك في الضلوع بهذا. بناءً على شهادة طبيب المستوصف، أعربتَ أنت عن نيّتك في حملها بعيدًا، فلم يسمح لك بذلك. إنّي أخبرك بهذه التفاصيل كي تفهم لماذا نحن هنا بالضبط، في هذه القاعة، نحتسي قهوة ساخنة، وندخّن السجائر، ونتدردش كأنّنا أصدقاء قدامى. نحن هنا لأنّ زوجة أحد أكثر الرجال ثراءً في برشلونة قد اختفت، وحضرتكَ الوحيد الذي يعرف أين مكانها. نحن هنا لأنّ والد صديقك پيدرو ڤيذال، أكثر رجال هذه المدينة نفوذًا، اهتمّ بالقضيّة شخصيًّا، لأنّه أحد معارفك القدامى كما يبدو. لذا طلب من مدرائي أن نحصل على تلك المعلومات بالحسنى، آملاً ألاّ نمسّ منك شعرة واحدة، وأن ندع الاعتبارات الأخرى جانبًا. لولا هذا، ولولا إلحاحي على متابعة المسألة وتوضيح ملابساتها على طريقتي، لكنتَ الآن في إحدى زنازين كامبو دي لا بوتا؛ وبدل أن تتحدّث معي، كنتَ ستلتقى ماركوس وكاستيلو بالمرصاد. لمعلوماتك، إنّهما يفضّلان تهشيم ركبتيك بالهراوة على هدر الوقت الذي قد يعرّض حياة السيّدة ڤيذال للخطر أيضًا. وإنّ رأيهما هذا، في كلّ دقيقة تمضي، يلقى استحسان مدرائي، لأنّهم مقتنعون بأنّي أطلق لك العنان بسبب صداقتنا.

التفت غراندس ونظر إليّ كاظمًا غيظه.

- ربّما لم تصغِ إليّ - قلت - لم تسمع أيّ شيء ممّا رويتُه عليك.

- بل سمعتك جيدًا يا مارتين. وأصغيتُ إليك حين كلّمتني عن العقد الذي أبرمته، وأنت محبطٌ وعلى حافّة الموت، مع أكثر الناشرين الباريسيّين غموضًا، لم يسمع أحدٌ عنه شيئًا، ولم يلتقِ به أحد. والعقد بينكما ينصّ على أن تبتكر له دينًا جديدًا، كما ورد على لسانك أنت، مقابل مائة ألف فرنك فرنسيّ؛ وكلّ هذا لتكتشف أنّك في الحقيقة فريسة مؤامرةٍ عجيبة، تتكوّن أطرافها من محامٍ أوهم الجميع بأنّه ميّتٌ منذ خمسة وعشرين عامًا، وعشيقته راقصة المسارح الهابطة، التي تعيش مأساةً كي لا يواجه المحامي مصيره، الذي أصبح مصيرك فيما بعد. استمعتُ إليك وأنت تحدّثني عن هذا المصير الذي أوقعك في فخّ بيت ملعون، إلتهم دييغو مارلاسكا من قبلك، وأنّك عثرتَ على دليلٍ بأنّ أحدًا يتعقّبك، ويقتل جميع أولئك الذين قد يكشفوا سرّ الرجل الذي، وفقًا لكلامك، كان مجنونًا، مثلك تقريبًا. الرجلُ الظلُّ، الذي انتحل هويّة شرطيٍّ سابق وعاش متخفيًّا بها، وارتكب مجموعة من الجرائم، بمساعدة عشيقته، وكان السبب في وفاة السيّد سيمبيري، لسببٍ غامض، حتّى أنت لستَ قادرًا على شرحه.

- إيرينا سابينو قتلت سيمبيري لتسرق منه كتابًا، تعتقد أنّ روحي تسكن فيه.

ضرب غراندس جبينه بكفّه، كما لو أنّه وجد حلّ المسألة للتوّ.

- فعلاً! كيف غابت عن بالي؟ يا لي من غبيّ! هذه تفسّر كلّ شيء. مثل ذلك السرّ الفظيع الذي أطلعتك عليه مشعوذة الشاطئ. عرّافة السوموروسترو. تعجبني يا مارتين! هذا مشابهٌ لأسلوبك الروائيّ. سنرى إن كنتُ قد فهمتُ اللغز. السيّد مارلاسكا يحبس روحًا ليخفي روحه، لينجو هكذا ممّا يشبه اللعنة. قل لي، هل استلهمتَ هذه القصّة من «مدينة الملاعين» أم أنّك ألّفتها للتوّ؟

- لم أؤلّف شيئًا.

- ضع نفسك في مكاني، وأخبرني إن كنتَ ستصدّق شيئًا من كلّ هذا.

- لا أعتقد. لكنّي رويتُ عليك كلّ ما أعرفه.

- بالطبع. أظهرتَ لي تواريخ وأدلّة ملموسة تثبت صحّة حكايتك، بدءًا من زيارة الطبيب ترياس، مرورًا بحسابك الجاري في مصرف هسبانو كولونيال، ثمّ شاهدة قبرك التي كانت بانتظارك في إحدى ورشات البويبلو نويفو، وليس انتهاءً عند علاقةٍ قانونيّة تربط غريب الأطوار، الذي تلقّبه «ربّ العمل»، بمكتب ڤاليرا. فضلاً عن تفاصيل منطقيّة أخرى تبرهن على براعتك وخبرتك في إبداع القصص البوليسيّة. أمّا الشيء الوحيد الذي فاتك، والذي كنت آمل سماعه لصالحك ولصالحي، بصراحة، هو أين كريستينا سانغيير.

أدركتُ أنّ الطريقة الوحيدة للخلاص في تلك اللحظة هي الكذب. فما إن أقول الحقيقة حول كريستينا، حتّى ستكون ساعاتي في الحياة معدودة.

- لا أدري.

- أنت تكذب.

- سبق وأخبرتُك أنّ قول الحقيقة لن يفيدك في شيء - أجبتُ.

- إلاّ إذا كنتُ غبيًّا لأنّي أردتُ مساعدتك.

- هل هذا ما تحاول فعله يا سيادة المحقّق؟ هل تريد مساعدتي؟

- أجل.

- تحقّقْ بنفسك من كلّ ما قلته لك إذن. اعثر على مارلاسكا وإيرينا سابينو.

- سمح لي مدرائي بأربع وعشرين ساعة لأجلك. إن لم أسلّم كريستينا سانغيير سالمة غانمة، أو حيّة على الأقلّ، قبل انتهاء المهلة، أعفوني من القضيّة، وأوكلوها لماركوس وكاستيلو اللذين يترقّبان الفرصة للحصول على امتيازات، بفارغ الصبر، ولن يدّخرا هذه الفرصة.

- لا تضيّع الوقت إذن!

تأفّف غراندس وهزّ رأسه.

- آمل أنّك تعي ما تقوم به يا مارتين.

19

توقّعتُ أنّ تكون الساعة التاسعة صباحًا، حين تركني المحقّق غراندس، حبيسًا في تلك القاعة، وحيدًا مع إبريق القهوة وعلبة السجائر. عيّن أحد أعوانه حارسًا على الباب، وسمعتُه يأمره بألاّ يسمح لأحد بالدخول، أيًّا يكن السبب. بعد خمس دقائق من مغادرته، سمعتُ أحدًا يطرق الباب فتعرفتُ إلى وجه العميل ماركوس، وهو يبرز من النافذة الزجاجيّة الصغيرة. لم أتمكّن من سماع كلماته، لكنّ شفتيه لا تدعان مجالاً للشكّ: هيّئ نفسك يا بن القحبة!

قضّيتُ بقيّة الصباح جالسًا على حافّة النافذة، أراقب البشر في مجيئهم وذهابهم، يظنّون أنّهم أحرارٌ خارج تلك القضبان، يدخّنون ويلتهمون قِطع السكّر بمتعةٍ تشابه متعة ربّ عملي، إذ رأيتُه يتلذّذ بها في أكثر من مناسبة. تملّكني الإرهاق، أو لعلّه ارتداد الإحباط، نحو منتصف النهار، فاستلقيتُ على الأرض، موليًا وجهي إلى الجدار. غفوتُ في غضون دقيقة واحدة. وحين استيقظتُ، كانت الغرفة معتمة. لقد حلّ المساء، وضياء إنارات شارع لايتانا الواهنة، ترسم بالكاد ظلال السيّارات والترام على سقف القاعة. نهضتُ مثقلاً ببرودة الأرض التي اجتاحت جسدي، واقتربتُ من سخّانةٍ في إحدى الزوايا، لكنّها كانت أكثر تجمّدًا من يديّ.

في تلك اللحظة، سمعتُ الباب ينفتح خلف ظهري، فاستدرتُ لأجد المحقّق يرنو إليّ من عند العتبة. بإشارةٍ منه، أشعل أحد رجاله ضوء القاعة وأغلق الباب. أعشى الضوء الثاقب، والمتأجج، بصري بضع ثوان. وحين فتحتُهما، رأيتُ المحقّق مكفهرّ الوجه، مثلي تقريبًا.

- هل تريد الذهاب إلى الحمّام؟

- لا. انتهزتُ هذا الظرف، وقرّرتُ التبوّل في ثيابي، للتأقلم مع أجواء زنزانة الفظائع، التي سترسلني إليها، رفقة العميلين ماركوس وكاستيلو.

- إنّي سعيد لأنّك لم تفقد حسّ الدعابة بعد. ستحتاج إليه كثيرًا. اجلس.

استعدنا وضعيّة الصباح نفسها، ونظر أحدنا إلى الآخر في صمت.

- حاولتُ التحقّق من تفاصيل حكايتك.

- وإلامَ توصّلت؟

- من أين تريدني أن أبدأ؟

- أنتَ المحقّقُ يا سيّدي.

- أوّل زيارة قمتُ بها كانت إلى عيادة الطبيب ترياس، في شارع مونتانير. زيارة سريعة. الطبيب ترياس متوفّى منذ اثني عشر عامًا. ومنذ ثمانية أعوام، تحوّل مخبره إلى عيادة طبيب أسنان، يدعى برنات ليوفريو، والذي طبعًا لم يسمع باسمك أبدًا.

- مستحيل.

- انتظر! التتمّة أجمل. بعد أن خرجتُ من هناك، توجّهتُ إلى المقرّ المركزيّ لمصرف هسبانو كولونيال. أثاث مذهل واستقبال رائع؛ حرّضا رغبتي في فتح حساب عندهم. وهناك، تأكّدتُ من أنّه لا وجود لحساب باسمك في المصرف، وأنّهم لم يسمعوا باسم أندرياس كوريلي، كما لا وجود لأيّ زبون عندهم، في هذه اللحظة، يمتلك رصيدًا بالعملة الأجنبيّة بقيمة مائة ألف فرنك فرنسيّ. هل أتابع؟

عضضتُ شفتي السفلى، وأومأتُ بنعم.

- المحطّة التالية كانت في مكتب المغدور، المحامي ڤاليرا. وهناك تبيّنتُ من أنّ لدى حضرتك حسابًا مصرفيًّا، هذا صحيح، ولكن ليس في هسبانو كولونيال، بل في مصرف دي ساباديل، وقد حوّلتَ منه مبلغًا للمحامي بقيمة مائتي ألف بيسيتا، منذ ستة أشهر.

- لم أفهم.

- بسيطة. لقد فوضّتَ ڤاليرا تحت اسمٍ مستعار، أو هكذا ظننتَ على الأقلّ؛ فذاكرة المصارف كذاكرة الشعراء، ما إن يروا دينارًا يطير لا ينسوه أبدًا. أعترف لك بأنّ الحكاية بدأت تروق لي حينذاك، فقرّرتُ أن أزور ورشة سانابري وأبناؤه للمنحوتات الجنائزيّة.

- لا تقل لي إنّك لم تجد الملاك...

- وجدتُه، وكيف لا! مبهرٌ حقًّا. مبهرٌ كالرسالة الممضيّة بتوقيعك، قبل ثلاثة أشهر، تكلّف فيها النحّاتَ الماهر بالعمل على الملاك، وقد أرفقتَ فيها وصل الدفعة الأولى، وما يزال السيّد سانابري يحتفظ به في سجلاّته. إنّه رجلٌ مذهل وفخورٌ بمهنته. قال لي إنّ هذه التحفة رائعة أعماله، وقد نحتها بوحيٍ إلهيّ.

- ألم تسأله عن المال الذي تلقّاه من مارلاسكا منذ خمسة وعشرين عامًا؟

- فعلتُ. ما يزال يحتفظ بالوصول. كلّها متعلّقة بأعمال توسيع مدفن العائلة وصيانته وترميمه.

- في قبر مارلاسكا، تمّ دفن رجلٍ آخر، ليس مارلاسكا.

- هذا ما تدعّيه أنت. ولكن إن أردتَ منّي أن أنبش القبور، فعليك أن تقدّم براهين أكثر إقناعًا. دعني أكمل مراجعتي لحكايتك.

ابتلعتُ ريقًا.

- بما أنّي كنت في تلك الأنحاء، انتهزتُ الفرصة للذهاب إلى شاطئ بوغاتل، حيث وجدتُ عشرة أشخاص مستعدّين لإطلاعي على سرّ المشعوذة اللعين، مقابل ريال واحد. لم أشأ أن أقاطعك هذا الصباح، كي لا أفسد حبكتك، لكنّ المرأة التي تسمّي نفسها بالعرّافة ميّتة منذ أعوام خلت. أمّا العجوز التي التقيت بها أنت، فقدْ ألزمها المرض كرسيّها، فضلاً عن كونها مسكينة لا ترعب الأطفال. تفصيلٌ صغير سيعجبك كثيرًا: إنّها بكماء.

- سيادة المحقّق...

- لم أنه ما عندي. لا يمكنك انتقادي بعملي. ذهبتُ إلى ذاك المنزل قرب منتزه غويل. ووجدتُه مهجورًا منذ أكثر من عشرة أعوام. والمعذرة، لم أجد أيّ صورة، أو طابعة، أو أيّ شيء باستثناء غائط القطط. ما رأيك؟

لم أردّ.

- ها يا سيّد مارتين. ضع نفسك مكاني. ماذا كنت ستفعل لو كنتَ في موقفٍ كهذا؟

- أتخيّل أنّي سأدع الأمور على عواهنها.

- أحسنت؛ لكنّي لست مثلك. فأنا أحمق، لأنّي بعد هذه الرحلة الشاقّة، التي لا طائل من ورائها، قرّرتُ اتّباع نصيحتك والبحث عن إيرينا سابينو المخيفة.

- هل وجدتها؟

- ألا تثق بقوى الأمن يا مارتين؟ طبعًا وجدناها. تعيش في بؤس وعوز، وتقيم في نزل قميء، في الراڤال منذ سنوات.

- هل تكلّمتَ معها؟

أومأ غراندس.

- مطولاً.

- وماذا استنتجت؟

- ليس لديها أدنى فكرة عمّن تكون حضرتك.

- هل هذا ما قالته؟

- إضافة إلى أمور أخرى كثيرة.

- مثلاً؟

- روت لي أنّها تعرّفتْ على دييغو مارلاسكا في جلسةٍ نظّمها روريس، في شقة من شارع إليزابيت، حيث كان يُعقد منتدى «بروفينير» لاستحضار الأرواح عام 1903. روت لي أنّه كان محطّمًا، يلوذ بأحضانها، بعد فقدان ابنه، وأسيرًا لزواجٍ لم يعد له معنى. روت لي أنّ مارلاسكا كان طيّب القلب، لكنّه مختلّ، يؤمن بأنّ شيئًا ما تلبّسه، ومقتنعًا

من دنوّ أجله. روت لي أنّه، قبل وفاته، خصّص لها مبلغًا ينفعها بعد موته، لها وللرجل الذي تركتْه لترتبط بمارلاسكا، خوان كوربيرا، المدعو خاكو. روت لي أنّ مارلاسكا انتحر لأنّه لم يعد يستطيع تحمّل الألم الذي دمّر نفسيّته. روت لي أنّها عاشت مع خوان كوربيرا، مستنفعيَن بصدقة مارلاسكا حتّى نفدت، فهجرها خاكو سريعًا، إلى أن وصلها خبر وفاته، وحيدًا ومدمنًا على الكحول، إذ بات يعمل حارسًا ليليًّا في مبنى كازارامونا. روت لي أنّها عمليًّا رافقتْ مارلاسكا إلى تلك المرأة، التي يسمّونها عرّافة السوموروسترو، لأنها كانت مقتنعة بأنّها ستواسيه إذا ما جعلتْه يؤمن بفرصة لقاء ابنه في العالم الآخر... هل تريدني أن أتابع؟

فتحتُ قميصي وأظهرتُ الندوب، التي نقشتها إيرينا سابينو ومارلاسكا على صدري، عشيّة اعتدائهما عليّ في مقبرة سانت خرفاسي.

- نجمة سداسيّة. لا تضحكني يا مارتين. أنت قادرٌ على خدش صدرك هكذا. هذه الجروح لا تعني شيئًا. إيرينا سابينو ليست سوى امرأة مسكينة، تجني قوت يومها بالعمل في مغاسل شارع كادينا؛ وليست مقاتلة.

- وريكاردو سالڤادور؟

- طُرد من جهاز الشرطة عام 1906، بعد أن ظلّ لسنتين يتحرّى في قضيّة وفاة دييغو مارلاسكا، وحينها كان يلهو بعلاقة غير شرعيّة مع أرملة المتوفّى. آخر ما عُرِف عنه أنّه قرّر الهجرة إلى القارّة الأمريكيّة ليبدأ حياة جديدة هناك.

لم أتمالك نفسي من الضحك أمام هذا الحجم الهائل من الأباطيل.

- ألا تستوعب أيها المحقّق؟ ألا تستوعب أنّك وقعتَ في نفس المصيدة التي أوقعني فيها مارلاسكا؟

كان غراندس ينظر إليّ بعين الشفقة.

- أنت الذي لا يستوعب أيّ شيء ممّا يجري يا مارتين. الوقت يمضي بسرعة، وبدل أن تعترف بما فعلتَ بكريستينا سانغيير، تعاند وتحاول إقناعي بحكايةٍ يبدو جليًّا أنّك استوحيتها من «مدينة الملاعين». لا وجود إلاّ لمصيدة واحدة: تلك التي أعددتَها بحقّ نفسك. وكلّ دقيقة تمرّ دون اعترافك بالحقيقة، تجعل نجاتك من هذا المأزق مستحيلةً.

مرّر غراندس يده أمام عينيّ مرّتين، كأنّه يتأكّد من حاسّة البصر لديّ.

- أبدًا؟ لا شيء؟ كما تشاء. اسمح لي أنّ أنهي نتائج النهار. بعد زيارة إيرينا سابينو، كنت متعبًا بطبيعة الحال، فعدتُ إلى المخفر لأرتاح قليلاً، ووجدتُ أنّ الوقت يناسب رغبتي في الاتصال مرّة أخرى بقسم الشرطة في ڤيغثيردا. أكدّوا لي بأنّ شهودًا رأوك تخرج من المستوصف، حيث كانت كريستينا سانغيير، في ليلة اختفائها تمامًا، وأنّك لم تعد إلى الفندق لتحمل أغراضك، وأنّك - وفقًا لشهادة الطبيب المسؤول - كنت أنت من فكّ وثاق المريضة. فما كان منّي إلاّ واتّصلتُ بصديقك القديم، پيدرو ڤيدال، الذي شرّفنا بزيارةٍ إلى المخفر. مسكينٌ هذا الرجل. روى لي أنّك ضربتَه، في آخر مرّةٍ تلاقيتما. صحيح؟

أومأتُ بنعم.

- فاعلمْ أنّه ليس ناقمًا عليك. بل حاول إقناعي بإخلاء سبيلك. لا بدّ من وجود مبرّر، حسب قوله. ربّما لأنّك عشتَ حياة صعبة. فقدتَ والدك بسببه. فشعر هو بالمسؤوليّة. لا يودّ إلاّ أن يعثر على زوجته، ولا ينوي إيذاءك البتّة.

- هل رويتَ كلّ شيء لڤيذال؟

- لم يكن بوسعي غير ذلك.

هزّني الخزي، فأخفيتُ وجهي بيديّ.

- وماذا قال لك؟ - سألتُه.

عبّر غراندس عن لا مبالاة.

- ڤيذال يرى أنّك فقدتَ رشدك. يعتبرك بريئًا، وبأيّ حال لا يريد أن يصيبك مكروه. لا يُقارن بعائلته. يبدو لي أنّ والده، الذي استشاط غيظًا ممّا حدث، كما أسلفتُ لك مسبقًا، قد عرض في السرّ مكافأة بخمسين ألف بيسيتا لماركوس وكاستيلو، إذا انتزعا من فمك اعترافًا بأقلّ من اثنتي عشرة ساعة. فأكدّا له بأنّك ستلقي أشعار الكانيغو في غضون أصبوحةٍ واحدة.

- وحضرتك، ماذا تعتقد؟

- تريد الحقيقة؟ يسعدني أن أصدّق تحليل پيدرو ڤيذال في أنّك فقدتَ رشدك.

لم أقل له إنّي، في تلك اللحظة نفسها، بدأتُ أصدّق تحليل ڤيذال أنا أيضًا. نظرتُ إلى غراندس فلمحتُ شيئًا ما في نظراته لا يتطابق مع كلامه.

- ثمّة شيء آخر لم تروه لي - قلت.

- بل رويتُ لك بما فيه الكفاية - أجاب.

- ما الذي تخفيه عنّي؟

ركّز غراندس أنظاره إليّ، وهربتْ من فمه ضحكةٌ مكبوتة.

- هذا الصباح، حدّثتني عن وفاة السيّد سيمبيري، وأنّ أحدهم مرّ بالمكتبة مساءً وسمع المرحوم يتشاجر مع أحد الزبائن، وقال إنّ هذا الزبون كان يريد شراء كتابك، فرفض البائع التخلّي عنه، ما أدّى إلى مشاحنةٍ أعيت العجوزَ وسبّبت له ذبحة قلبيّة. أنت تدّعي بأنّها كانت النسخة الوحيدة، وأنّ الطبعة كانت محدودة أساسًا. ما عنوان الكتاب؟

- «خطوات السماء».

- تمامًا. هل هو الكتاب الذي سُرِق من بين يدي سيمبيري، بحسب شكوكك؟

أومأتُ بنعم. أخذ المحقّق سيجارة وأشعلها. سحب منها نفسًا وأطفأها.

- هذه معضلتي يا مارتين. أعتقد أنّك بعتني كمًّا من الأباطيل التي اخترعتها لأنّك تحسَبني مغفّلاً، أو ربّما، وهذا الأسوأ، بتّ تصدّقها لكثرة ما كرّرتها. خلاصك متعلّق بك، فما من شيء أسهل من أن أغسل يديّ من القضيّة وأسلّمها لأيادي ماركوس وكاستيلو.

- ولكن...

- ولكن... هذا استدراكٌ صغير، لا يعني شيئًا، وقد يتجاهله زميلاي كأنّه لم يكن. أمّا أنا، أشعر بالضيق كلّما فكّرتُ فيه، كقشّة في العين. يدفعني إلى التأمّل بأنّ كلامك ربّما، وهذا ما يناقض كلّ ما تعلّمته خلال عشرين عامًا من المهنة، ربّما لا يكون صحيحًا، لكنّه قد لا يكون تلفيقًا في الوقت نفسه.

- لقد رويتُ لك ما أذكره أيّها المحقق، إنّي واثق من هذا. لك أن تصدّقه أو تنفيه جملةً وتفصيلاً. في الحقيقة، أكاد لا أصدّق نفسي أحيانًا. لكنّي رويتُ لك ما أذكره.

نهض غراندس وأخذ يدور حول الطاولة.

- في العصر، وأنا أتكلّم مع ماريا أنطونيا ساناهوخا، أو إيرينا سابينو، في غرفتها في النزل، سألتُها إن كانت تعرفك. فأجابت بلا. أوضحتُ لها أنّك تعيش في بيت البرج، حيث قضّت عدّة أشهر بصحبة مارلاسكا. سألتُها مجدّدًا إن كانت تذكرك. فأجابت بلا. ثمّ قلت لها إنّك زرت مدفن آل مارلاسكا، وإنّك متأكّدٌ من مصادفتها هناك. فأنكرت المرأة معرفتك للمرّة الثالثة. فصدّقتُها. ولكن، قبل أن أنصرف، قالت إنّها تشعر بالبرد ففتحت الخزانة لتأخذ شالاً صوفيًّا وتضعه على كتفيها. وحينذاك، رأيتُ كتابًا على طاولة. لفت انتباهي لأنّه الوحيد في الغرفة. فاقتنصتُ لحظة انحنائها لأفتحه، وقرأتُ إهداءً بخطّ اليدّ على الصفحة الأولى.

- «إلى السيّد سيمبيري، خير جليسٍ يتمنّاه أيُّ كتاب، شكرًا لأنّك فتحتَ أمامي أبواب العالم وعلّمتني الدخول فيها» - ردّدتُ على ظهر قلب.

- بإمضاء داڤيد مارتين - أكمل غراندس.

توقّف المحقّق أمام النافذة موليًا ظهره إليّ.

- بعد نصف ساعة، سيأتون ليأخذوك، ويسحبوا القضيّة منّي - قال - سيضعونك تحت رحمة العميل ماركوس. ولن أستطيع فعل أيّ شيء. هل لديك شيء آخر تودّ الإفصاح عنه، من شأنه أن يساعدني في إنقاذك؟

- لا.

- إذن، أخرِجْ ذلك المسدّس المضحك، الذي تخفيه بين ثنايا معطفك، وحذار أن تطلق النار على قدميك. هدّدْني بأنّك ستهشّم رأسي ما لم أسلّمك مفتاح هذا الباب.

نظرتُ نحو الباب.

- سأطلب منك بالمقابل أن تخبرني بمكان كريستينا سانغيير، أو إن كانت ما تزال حيّة.

أخفضتُ أنظاري عاجزًا عن العثور على صوتي.

- هل قتلتها؟

ساد صمتٌ طويل.

- لا أدري.

اقترب غراندس وأعطاني مفتاح الباب.

- انج بجلدك يا مارتين.

تردّدتُ للوهلة الأولى.

- لا تنزلْ من السلّم المركزيّ. حين تخرج، ثمّة باب أزرق في آخر الممرّ من الجهة اليسرى، لا يُفتَح إلاّ من هذا الجانب، يؤدّي إلى سلّم الطوارىء، فالزقاق الخلفيّ حيث المَخرج.

- كيف بوسعي أن أشكرك؟

- بدايةً، بأن لا تهدر الوقت. لديك ثلاثون دقيقة قبل أن يُعمّم اسمك في أرجاء الإقليم كلّه. حاولْ ألاّ تهدر هذه الدقائق - قال المحقّق.

أخذتُ المفتاح واتّجهتُ نحو الباب. التفتُّ برهةً قبل الخروج. كان غراندس جالسًا إلى الطاولة، يرمقني بلا أيّ تعبيرٍ يعصف بوجهه.

- وسام الملاك - قال مشيرًا إلى عروة سترته.

- ما به؟

- رأيتُه على صدرك منذ أن عرفتُك.

20

كانت شوارع الرافال كأنفاق من الظلّ، يرفرف الضوءُ في أعمدة الإنارة على جنباتها، وبالكاد يخدش الظلام. خسرتُ أكثر من الثلاثين دقيقة، التي منحها لي المحقّق غراندس، كي أكتشف أنّ في شارع كادينا ثمّة مغسلتين بدل الواحدة. وكانت الأولى عبارة عن مغارةٍ خلف سلالمَ يغشوها البخار، يعمل فيها أطفالٌ دُنّسَتْ أياديهم بلون الصباغة واصفرّت عيونهم. أمّا الثانية، أشدّ قذارة من مصاهر القمامة، تضوع بنتانة الأحماض القلويّة، حيث يصعب التصديق أنّ الثياب ستخرج منها نظيفة. كانت تديرها امرأة بدينة، ما إن رأت قرشًا واحدًا، حتّى أقرّتْ دون ادّخارٍ للوقت بأنّ ماريا أنطونيا ساناهوخا تناوب في العمل عندها ستّ أمسياتٍ في الأسبوع.

- هل اقترفتْ إثمًا ما؟ - سألتني المدبّرة.

- لقد ورثت. أخبريني أين أجدها وقد ينابكِ نصيبٌ ما.

قهقهت البدينة، لكنّ عينيها لمعتا جشعًا.

- تقيم في نزل سانتا لوثيا، في شارع ماركيز دي باربيرا، على حدّ علمي. كم ورثت؟

رميتُ بعض القروش على المصطبة وخرجتُ من تلك البؤرة القميئة دون أن أجيبها.

كان النزل البائس، الذي تقيم فيه إيرينا سابينو، يقع في بناية كئيبة، كأنّها مبنيّة من شواهد مسروقة وعظام منبوشة من القبور. اللافتات على صناديق البريد، عند البوّابة، مغطّاة بالصدأ. لم أجد أيّ دلالةٍ اسميّة على أبواب الطابقين الأوّلين. أمّا الطابق الثالث، يستضيف ورشة خياطة ذات مسمّىً فصيح: منسوجات البحر المتوسط. وكان نزل سانتا لوثيا يشغل الطابق الرابع، والأخير. السلالم الصاعدة في الظلام لا تتّسع لأكثر من شخص واحد، وجدرانها مثقلة بروائح الصرف النتنة التي تغلغلت فيها كالأسيد حتّى تآكل الطلاء. صعدتُ الطوابق الأربعة، ووصلتُ إلى بهوٍ مائلٍ لا يفضي إلاّ لبابٍ واحد. طرقتُ عليه بجمع يدي، ففتح لي رجلٌ طويلٌ نحيلٌ، لا بدّ أنّه خارجٌ من أحد الكوابيس التي رسمها دومينيكوس إل غريكو.

- أبحث عن ماريا أنطونيا ساناهوخا - قلت.

- هل حضرتك الطبيب؟ - سأل.

فأزحته عن طريقي ودخلتُ. كانت غرف النزل ضيّقة، تصطفّ على جانبَي ممرٍّ مظلم ينتهي عند نافذة كبيرة تطلّ على المنور، بينما تنبعث النتانة من الأنابيب لتكدّر الأجواء. ظلّ الرجل واقفًا عند العتبة، ينظر إليّ مشتّت الذهن. تصوّرتُ أنّه أحد النزلاء.

- أين غرفتها؟ - سألته

نظر إليّ صامتًا، رابط الجأش. أخرجتُ المسدّس على مرأى عينيه. ودون أن ينهار ثباته، أشار إلى آخر باب في الممرّ، بجانب النافذة. فاتّجهتُ نحوه، وحين رأيتُ أنّه مقفل، رحتُ أصارع القفل. أطلّ النزلاء الآخرون برؤوسهم إلى الممرّ؛ كانوا جوقةً من الأرواح المنسيّة كأنّها لم تر نور الشمس منذ سنوات. تذكّرتُ أيّام الشقاء في نزل السيّدة كارمن، فخطر في بالي أنّ نزلي القديم يبدو كفندق ريتز الجديد، مقارنةً بهذا البرزج البائس؛ وكم كانت منطقة الراڤال زاخرةً ببؤسٍ كهذا!

- عودوا إلى مهاجعكم - قلت.

لم يبدُ أنّ أحدًا سمع كلامي. أشهرتُ السلاح؛ فانكفأت جميع الوجوه إلى أوكارها كالقوارض المذعورة، باستثناء الفارس ذي الظلّ الطويل والحزين. ركّزتُ جلّ انتباهي على الباب مجددًا.

- لقد قفلتْه من الداخل - فسّر النزيل - إنّها هناك منذ العصر.

ثقبتْ أنفي رائحةٌ غريبة، تشبه رائحة اللوز المرّ، تتسلّل من تحت الباب. طرقتُ عليه بقبضتي أكثر من مرّة، دون ردّ.

- لدى صاحبة النزل مفتاحٌ يفتح جميع الأبواب - قال النزيل - إن أردتَ انتظارها... لا أعتقد أنّها ستتأخر في العودة.

فما كان منّي سوى أن ابتعدتُ بضع خطوات عن الباب، واندفعتُ إليه بكلّ قوّتي، فانخلع في الدفعة الثانية. وما إن صرتُ في الغرفة، انقضّتْ عليّ تلك الرائحة الكريهة والمثيرة للغثيان.

- يا إلهي - غمغم النزيل خلف ظهري.

كانت النجمة السابقة في مسارح الباراليلو تحتضر على سريرها، شاحبة الوجه، تتصبّب عرقًا، وقد اسودّت شفتاها. ابتسمتْ حين رأتني. كانت تشدّ قارورة السمّ بجمع يديها، وقد ازدردتْه حتّى آخر قطرة. زفيرها يملأ الغرفة بريح الدماء وصفراء الكبد. سدّ النزيل أنفه بيديه وعاد إلى الممرّ، بينما كنت أراقب إيرينا سابينو تتلوّى والسمّ ينهشها من الداخل. لم يأتِ الموت مستعجلاً، على ما يبدو.

- أين مارلاسكا؟

نظرت إليّ من خلال دموع الاحتضار.

- لم يعد بحاجة إليّ - قالت - لم يحبّني يومًا.

كان صوتها مشروخًا وحادًا. صعدتْ إلى حلقها سعلة جافّة، تمزّق صدرها بزئير مزمجر، ثمّ انبثق السائل القاتم من بين أسنانها. كانت إيرينا سابينو ترمقني وهي تتشبّث بالحياة حتى الرمق الأخير. أمسكتُ بيدها وشددتُ عليها بقوّة.

- أنت ملعون، مثله.

- ماذا عليّ أن أفعل؟

نفت بهزّة بطيئة من رأسها. اجتاحتها سعلة أخرى، اقتلعت رئتيها. وتصدّعت حدقتاها بشبكة دامية تزحف نحو البؤبؤ.

- أين ريكاردو سالڤادور؟ في قبر مارلاسكا؟ في مدفن العائلة؟

هزّت إيرينا سابينو رأسها. فتشكّلتْ كلمةٌ خرساءُ على شفتيها: خاكو.

- أين سالڤادور إذن؟

- إنّه يعلم أين أنت. إنّه يراك. سيأتي باحثًا عنك.

بدا لي أنّ الهذيان يسحقها، فيما ينخفض الضغط في يدها.

- أنا كنت أحبّه - قالت - كان رجلاً طيّبًا. كان رجلاً طيّبًا. أفسدوه. كان رجلاً طيّبًا...

أصدر فمها صوت لحمٍ يتمزّق، وتشنّجت عضلات جسمها. ماتت إيرينا سابينو، وعيناها تحدّقان إلى عينيّ، حاملةً معها سرّ دييغو مارلاسكا إلى الأبد. وحينذاك، لم يبقَ غيري.

أسدلتُ وجهها بالغطاء، وتنهّدتُ بينما صلّى النزيل بإشارة الصليب، من عند العتبة. نظرتُ حولي، باحثًا عن أيّ شيء قد يرشد خطوتي القادمة. قضّت إيرينا سابينو آخر أيّامها في زنزانة، مساحتها مترين بأربعة. ما من نوافذ. سريرٌ حديديّ، ترقد عليه الجثّة؛ خزانةٌ على الجانب الآخر؛ وطاولةٌ صغيرة إلى الجدار. هذا كلّ أثاثها. تحت السرير، ثمّة حقيبة ووعاء مبولة وحافظة قبّعات. وعلى الطاولة، صحنٌ فيه فتات خبز، وإبريق ماء، ورزمة من الأوراق، تبدو كأنّها ملفّات لكنّها كانت مليئة بصورٍ صغيرة للقدّيسين وشهادات الوفاة. وهناك غلاف أبيض يحجب كتابًا ما. نزعتُ الغلاف، فوجدتُ نسخة «خطوات السماء» التي أهديتها للسيّد سيمبيري. تلاشت الشفقة التي استيقظتْ في ضميري وأنا أشهد احتضار تلك المرأة. تلك اللعينة قتلت أعزّ أصدقائي لتسرق منه هذا الكتاب الملعون. تذكّرتُ حينها كلمات سيمبيري حين دخلتُ مكتبته للمرّة الأولى: كلّ كتابٍ تعيش فيه روحٌ ما، روح من ألّفه، وأرواح من قرؤوه وعاشوا وحلموا بفضله. مات سيمبيري مؤمنًا بهذه الكلمات، ولعلّ إيرينا سابينو آمنت بها، على طريقتها، أيضًا.

قلبتُ الصفحة، وأعدتُ قراءة الإهداء. ووجدتُ الدلالة الأولى في الصفحة السابعة. خطٌّ بنيٌّ ينقش بعض الكلمات ويلمّح لنجمة سداسيّة مطابقة لتلك التي نقشتْها على صدري بنصل السكّين منذ عدّة أسابيع. تبيّنتُ أنّ الخطّ منقوشٌ بالدماء. تصفّحتُ واكتشفتُ دلالاتٍ أخرى. شفاه. يد. عيون. لقد ضحّى سيمبيري بحياته لينقذ كتابًا يحتوي على مهزلةٍ كبرى من إغواءٍ سخيف.

وضعتُ الكتاب في جيب المعطف الداخليّ، وجلستُ القرفصاء بجوار السرير. أخرجتُ الحقيبة وفرّغتُها على الأرض. ثيابٌ وحذاءٌ قديم. فتحتُ حافظة القبّعات، فوجدتُ محفظةً جلديّة تحتوي على السكّين التي نقشت بها

إيرينا سابينو تلك العلامات على صدري. وفجأة، أحسستُ بظلٍ يتفشّى على الأرض، فاستدرتُ هلِعًا، والمسدّس في يدي. نظر إليّ النزيل النحيل مشدوهًا.

- يبدو أنّ لديك ضيوفًا - قال بنبرةٍ مأتميّة.

خرجتُ إلى الممرّ، واتجهتُ نحو المدخل. أطللتُ برأسي إلى السلالم، وسمعتُ خطواتٍ ثقيلةً تصعدها. تشكّل وجهٌ ما في محور السلالم، ينظر إلى الأعلى، فاصطدمتُ بعينَي العميل ماركوس، تحتي بطابقين. تراجع إلى الخلف ثمّ أسرع الخطى. لم يكن بمفرده. أغلقتُ الباب واستندتُ إليه، مستنجدًا بأيّ فكرة لامعة. كان صاحبي يرمقني بهدوءٍ حذر.

- هل ثمّة مخرج آخر؟ - سألتُ.

هزّ رأسه نافيًا.

- إلى السطح؟

أشار إلى الباب نفسه الذي أغلقتُه للتو. بعد ثلاث ثوانٍ، انهال ماركوس وكاستيلو بعنفٍ على الباب، يحاولان اقتلاعه من جذوره. ابتعدتُ متراجعًا في الممرّ، مصوّبًا المسدّس نحو الباب.

- ربّما سأعود إلى غرفتي - قال النزيل - تشرّفتُ بمعرفتك.

- وأنا أكثر.

ركّزتُ عينيّ إلى الباب الذي يتلقّى أعنف الضربات. تهالك خشب الإطار وأخذ القفل يترنّح. اتجهتُ نحو آخر الممرّ وفتحتُ النافذة. كانت تطلّ على منور ضيّق، نفقٍ شاقوليّ، يتهاوى في بئرٍ مظلمة. وحوافّ السطح فوقي على بعد ثلاثة أمتار عن النافذة. وفي الجانب الآخر، على الجدار، ثمّة نافذةٌ أتلف الصدأ إطارها. إذ كانت الجدران تتقيّح الرطوبة بدموعٍ سوداء. وما لبث الضرب على الباب يتضخّم خلف ظهري. استدرتُ ورأيتُ الباب على وشك الانفجار. ليس عندي أكثر من ثوانٍ، فكّرتُ. لا مفرّ من تسلّق حوافّ السطح. فوثبتُ.

تشبّثتُ بالأنابيب، وأسندتُ قدميّ إلى الدعامات الناتئة. رفعتُ يدي لأمسك بأعلى الأنبوب، وسرعان ما تهشّم بين يديّ، ليقع جزءًا منه إلى أسفل المنور. أوشكتُ على السقوط أنا أيضًا، لكنّي تمسّكتُ بالجزء المعدنيّ الموغل في الجدار الذي يسند الدعامة. باتت الأنابيب، التي أملتُ بفضلها الصعود إلى السطح، خارج متناول يدي حينها. بقي أمامي حلٌّ من اثنين: العودة إلى الممرّ لملاقاة ماركوس وكاستيلو أو الهبوط في ذلك البلعوم القاتم. سمعتُ صفق الباب بعنفٍ على الحائط، فهبطتُ بسلاسةٍ على طول الأنبوب، متمسّكًا قدر المستطاع بأنبوب الصرف، ما خدش جزءًا كبيرًا من جلد يدي اليمنى. وعندما أصبحتُ أسفل النافذة بمتر ونصف، رأيتُ العميلين يطلّان برأسيهما عبْر النور المتدفّق من النافذة إلى عمق المنور. رأيتُ وجه ماركوس أوّلاً. ابتسم، ففكّرتُ أنّه سيسارع إلى إطلاق النار. ثمّ ظهر كاستيلو بجانبه.

- ابق هنا. سأذهب إلى الأسفل - أمر ماركوس.

وافق كاستيلو دون أن يحيد أنظاره عنه. يريداني حيًّا، بضعة ساعات على الأقلّ. ابتعد ماركوس راكضًا. سأراه يطلّ من النافذة التي تبعد عنّي أقلّ من متر، في غضون لحظات. نظرتُ إلى الأسفل، فرأيتُ أنّ النور يتسرّب من نوافذ الطابقين الثاني والأوّل، أمّا الثالث كان مظلمًا. نزلتُ ببطء حتّى شعرتُ بقدمي تصل إلى الدعامة التالية. باتت نافذة الطابق الثالث المظلمة أمامي، وماركوس يطرق الباب في آخر الممرّ الخاوي. لا شكّ أنّ الخيّاطة قد أغلقتْ ورشتها منذ ساعات، ولم يكن فيها أحد. تلاشى طرق الباب ففهمتُ أنّ ماركوس نزل إلى الطابق الثاني. نظرتُ إلى الأعلى فرأيتُ كاستيلو ما يزال يراقبني، يلحس شاربيه مثل القطّ.

- إيّاك أن تسقط! سيفوتك الكثير من التسلية عندنا في المخفر - قال.

سمعتُ بعض الأصوات آتيةً من الطابق الثاني، ففهمتُ أنّ ماركوس تمكّن من الدخول. ودون أن أفكّر مرّتين، رميتُ نفسي نحو نافذة الطابق الثالث بكلّ قواي المتبقيّة. فعبرتُها وأنا أغطّي وجهي وعنقي بكمّي المعطف، وهبطتُ في بركةٍ من زجاجٍ مكسور. نهضتُ بمشقّة، وشعرتُ ببقعة داكنة تتّسع على ذراعي الأيسر. إذ علقت إحدى شظايا الزجاج على مرفقي، وكانت ناتئة كالسدّ. شددتُ عليها بين أظفاري واقتلعتها. فانجلى البرد تاركًا مكانه للهيبٍ مؤلمٍ جعلني أركع على ركبتيّ. وها هو كاستيلو يحاول الهبوط عبْر الأنابيب، يتلصّص إليّ من حيث وثبتُ. قفز نحو النافذة قبل أن أتمكّن من إخراج السلاح. رأيتُه يتمسّك بإطارها، فصفقتُ الإطار، لا إراديًا، بكلّ قوّتي، حتّى سمعتُ عظام أصابعه تتكسّر إثر الضربة الحادّة، فصاح كاستيلو من الوجع. أخرجتُ المسدّس وصوّبتُه إلى وجهه، لكنّه كان يشعر باختلال يديه. وبعد أن لاح الفزع في عينيه، سقط إلى أسفل المنور، وجسمه يرتطم بالجدران، مخلّفًا سيلاً من الدماء عند بقع الضوء المتسرّب من نوافذ الطابقين السفليّين.

جرجرتُ نفسي على طول الممرّ نحو الباب. كان الجرح على ذراعي يشتعل ألمًا، كما أحسستُ بكثيرٍ من الخدوش على ساقيّ. واصلتُ التقدّم. على جانبي الممرّ، كان الظلام يهيمن على الغرف المكتظّة بآلات الخياطة وبكرات الخيطان وطاولات المغازل وأنوال النسيج. وصلتُ إلى الباب وأمسكتُ بمقبضه. وفي أقلّ من عشرة أجزاء من الثانية، أحسستُ به يدور بين أصابعي. فتركتُه. كان ماركوس يحاول خلعه من الجانب الآخر. تراجعتُ عدّة خطوات. فزمجر الدويُّ بالباب، وتطاير قفله في وميض الدخان الأزرق. لا بدّ أنّه خلع القفل بالمسدّس. لذتُ بأقرب غرفة، تزدحم فيها الهياكل منقوصة الأذرع والسيقان. كانت هياكل للدمى التي تُعرَض على واجهات المحلاّت، واحدةً مقابل الأخرى، تلمع في الظلام. فاختبأتُ بينها. طلقة رصاص أخرى. انفتح الباب فجأة، فتدفّق ضوء المستراح المثقل بهالةٍ من البارود. كان طيف ماركوس يرتسم في ثنايا ذلك الضياء. وخطواته الثقيلة في الممرّ تقترب. سمعتُه يغلق الباب، فالتصقتُ بالجدار مختبئًا خلف الدمى، والمسدّس يرتعش على رجفة يديّ.

- اخرج يا مارتين - قال ماركوس بنبرة هادئة وهو يتقدّم ببطء - لن أؤذيك. لديّ أوامر من غراندس بأن أصحبك إلى المخفر. لقد وجدنا ذلك الرجل. مارلاسكا. وقد اعترف بكلّ شيء. أنت بريء. لا ترتكبْ حماقةً قاتلة. اخرج كي نتكلّم في المخفر.

رأيتُه يمشي أمام عتبة الغرفة ويتابع طريقه.

- اسمعني يا مارتين. سيصل غراندس. سنوضّح كلّ شيء، كي لا تتعقّد المسائل أكثر.

هيّأتُ قادح المسدّس. توقّفتْ خطوات ماركوس. حفيفٌ على رخام الحائط. كان من الجانب الآخر للجدار ويعرف أنّي موجود في تلك الغرفة، وليس لي من مَخرجٍ إلاّ المرور أمامه. وشيئًا فشيئًا، تراءى لي وجهه يتكشّف عند ظلال المدخل. ثم امتزج في سيل الظلام، ولم يعد أيّ شيءٍ يدلّ على وجوده سوى بريق عينيه. كان يبعد عنّي أقلّ من أربعة أمتار. فانزلقتُ على رخام الحائط، حتّى ثنيتُ ركبتيّ. ساقاه تقتربان خلف ركائز الدمى.

- أعرف أنّك هنا يا مارتين. كفّ عن هذه التصرّفات الصبيانيّة.

توقّف ثابتًا. رأيتُه ينحني ليفحص بأصابعه آثار الدماء التي سالت منّي. قرّب إصبعًا إلى شفتيه. فتخيّلتُ أنّه كان يبتسم.

- نزيفك خطيرٌ يا مارتين. أنت بحاجة لطبيب. اخرج كي أسعفك.

التزمتُ الصمت. توقّف ماركوس أمام إحدى الطاولات، وأمسك بأداة برّاقة استلّها من بين قِطع القماش. مقصٌ نسيجٍ عملاقٌ.

- هذا لك يا مارتين.

سمعتُ صليل المقصّ، يفتح حدّيه ويغلقهما. انتابتني غصّة ألمٍ من ذراعي، فعضضتُ شفتيّ كي لا أتأوّه. فالتفت ماركوس إلى مكاني.

- بمناسبة الدماء؛ يسعدني أن أزفّ عليك نبأ اعتقال عاهرتك الصغيرة. سنلهو قليلاً بإيزابيلا قبل المباشرة بالسيّد داڤيد مارتين...

رفعتُ السلاح وصوّبتُه إلى وجهه. لكنّ وميض المقصّ أربكني، ما ساعد ماركوس على القفز، ليقلب الدمى، ويتلافى الرصاصة. شعرتُ بثقله فوقي وزفيره على وجهي. سدّد إليّ ضربة من المقصّ، كادت تفقأ عيني اليسرى. فنطحتُ وجهه بجبيني، ليسقط أرضًا. رفعتُ المسدّس إلى وجهه ثانيةً. تشرّخت شفتاه، فنهض وركّز ناظريه في عينيّ.

- لستَ فحلاً لإطلاق النار - تمتم.

أسند يده على قصبة المسدّس وابتسم. فضغطتُ على الزناد. اخترقت الرصاصة يده، وتزلزلت ذراعه كأنّه تلقّى عليها ضربة مطرقة. وقع ماركوس أرضًا على ظهره وهو يشدّ معصمه المحطّم الذي يفوح منه الدخان، فيما يذوب وجهه، المنحوت بشظايا البارود، في تكشيرة ألمٍ ويئنّ بلا صوت. نهضتُ وتركتُه هناك، ينزف في بِركةٍ من بوله.

21

جرجرتُ نفسي متعثّرًا عبْر أزقّة الراڤال، وصولاً إلى الباراليلو، حيث وجدتُ صفًّا طويلاً من سيّارات الأجرة على أبواب مسرح أبولو. ركبتُ أوّل سيّارةٍ وصلتُ إليها. فالتفت السائق على صفق الباب، وكشّر مذهولاً بحالتي. هويتُ على المقعد الخلفيّ متجاهلاً اعتراضاته.

- هل قرّرتَ أن تموت في سيّارتي، يا هذا؟

- تخلّصْ منّي بأسرع وقت، وأوصلني حيث أريد الذهاب.

جدّف السائق في سرّه وشغّل المحرّك.

- وأين تريد الذهاب؟

لا أدري، قلت لنفسي.

- انطلق أولاً ثمّ أقول لك.

- إلى أيّ جهة أنطلق؟

- إلى پيدرالبيس.

بعد عشرين دقيقة، تراءت لي أضواء ڤيلا هيليوس من على التلّ. فأشرتُ إلى السائق الذي كان متلهّفًا للتخلّص منّي. تركني عند مدخل الڤيلا وكاد ينسى ثمن الأجرة. مشيتُ متثاقلاً نحو البوّابة وقرعتُ الجرس. سقطتُ على العتبات وأسندتُ رأسي إلى الحائط. سمعتُ الخطى تتقدّم نحوي، وبدا أنّ الباب ينفتح، وثمّة صوتٌ يلفظ اسمي. أحسستُ بيدٍ تتلمّس جبيني، وكأنّي رأيتُ عينَي ڤيذال.

- اعذرني يا دون ڤيذال - توسّلتُ - ضاقت بي السبل...

رفع صوته مناديًا بعض الخدم، وسرعان ما انتبهتُ إلى أكثر من يدٍ تمسك بذراعيّ وساقيّ وتحملني. حين فتحتُ عينيّ، كنت في غرفة الدون پيدرو، ملقىً على سريره الذي تقاسمه مع كريستينا خلال زواجٍ لم يدم أكثر من أشهرٍ قليلة. تنفّستُ الصعداء، بينما كان ڤيذال ينظر إليّ من طرف السرير.

- لا تتكلم الآن - قال - سيصل الطبيب.

- لا تصدّقْ ما قاله غراندس يا دون پيدرو - تأوّهتُ - لا تصدّقه.

أومأ ڤيذال وهو يشدّ شفتيه.

- لن أصدّقه، بالتأكيد.

أخذ الدون پيدرو غطاءً ووضعه عليّ.

- سأنتظر الطبيب في الأسفل - قال - استرح.

بعد قليل، سمعتُ خطواتٍ وهمهماتٍ تدخل الغرفة. شعرتُ بأنّهم ينزعون ثيابي، واستطعتُ لمح عشرات الجروح، تصعد جسدي مثل لبلابٍ متعطّش للدماء. شعرتُ بأدواتٍ تلقط شظايا الزجاج، حاملةً معها أجزاءً من اللحم والجلد. أحسستُ بحرارة المعقّمات، ووخز الإبر التي خيّط بها الطبيب جروحي. انجلى الألم، وحلّ مكانه الإرهاق. وبعد أن ثقبني، وضمّدني، وأخاطني مجددًا، كأنّي دمية محطّمة، غطّاني الطبيب، ومعه ڤيذال، وأسندا رأسي إلى أنعم ما توسّدتُه من مخدّاتٍ في حياتي كلّها. فتحتُ عينيّ فرأيتُ وجه الطبيب، كان سيّدًا ذا هيئةٍ أرستقراطيّة وابتسامةٍ مطمئنة. يحمل حقنةً بين يديه.

- لقد حالفك الحظّ أيّها الشاب - قال وهو يحقن ذراعي.

- ما هذا؟ - غمغمتُ.

اقترب وجه ڤيذال إلى جانب وجه الطبيب.

- سيساعدك على الراحة.

تغلغلتْ سحابةٌ باردة في ذراعي، وتدفّقتْ إلى صدري. كنت أسقط في بئرٍ من جلدٍ أسود، بينما ينظر ڤيذال والطبيب إليّ من الأعلى. تقوقع العالم حتّى صار قطرة نورٍ تبخّرتْ بين يديّ. غطتُ في ذلك السلام الكيميائيّ الدافئ، الواسع الشاسع، ولم أرغب في الفرار منه.

أذكر عالمًا من مياهٍ سوداء تحت الجليد. ضوء القمر يداعب هالته المتجمّدة في الأعلى، وينفجر إلى ألف ذرّة غبارٍ تتناثر في تيّارٍ يسحبني بعيدًا. كان كساؤها الأبيض يتموّج ببطء، وجسدها يستحيل شفّافًا. كريستينا تمدّ يدها تجاهي، وأنا أصارع ضراوة التيار وبرودته. وعندما تقلّصت المسافة بين يدي ويدها إلى سنتمترات قليلة، اندلعت من خلفها غمامةٌ سرابيّة تبسط أجنحتها لتحوم حولها كدوّامة من الحبر. فانبلج نورٌ أسوَد، أشعّته كمجسّاتٍ تلتفّ حول ذراعيها وعنقها ووجهها، لتسحبها بقوّة نحو الظلمات.

22

استفقتُ متنبّهًا لسماع اسمي في صوت المحقّق غراندس. نهضتُ فزعًا، ولم أفهم أين كنت للوهلة الأولى، إذ بدا لي المكان جناحًا في فندق فخم؛ إلى أن ثارت عشرات الجروح التي تغطّي جذعي، فأعادتني سياط الألم إلى الواقع. كنت في ڤيلا هيليوس، في غرفة نوم ڤيذال للدقّة. تسلّل ضوء الظهيرة من بين دفّات النافذة المواربة. ثمّة نارٌ مستعرةٌ في الموقد، والطقس دافئ. كانت الهمهمات تأتي من الطابق الأسفل. پيدرو ڤيذال وڤيكتور غراندس.

تجاهلتُ الآلام التي تلدغ جلدي، ونزلتُ عن السرير. كانت ثيابي المتّسخة والملطّخة بالدماء مرميةً على إحدى الأرائك. بحثتُ عن المعطف. ووجدتُ المسدّس في الجيب. هيّأتُ القادح، وخرجتُ من الغرفة مقتفيًا آثار الصوت حتّى السلالم. ونزلتُ درجتين، ملتصقًا بالجدار.

- يؤسفني ما جرى لعميليك أيّها المحقّق - سمعتُ ڤيذال يقول - كن على ثقة بأنّي سأبلغك حالما يتواصل معي داڤيد أو إذا عرفتُ مكانه.

- أشكرك على التعاون يا سيّد ڤيذال. يؤسفني أنّي أزعجتك بهذه المستجدّات، لكنّ المسألة طارئة وخطيرة.

- أستوعب الأمر. شكرًا على الزيارة.

خطواتٌ تتجه نحو المدخل. صرير الباب. خطواتٌ تبتعد في الحديقة. وتنهيدةٌ مشحونةٌ تصدر من ڤيذال، أسفل السلالم. نزلتُ بضع درجات أخرى، فوجدتُه مغمض العينين، محنيّ الجبين على ظهر الباب. فتح عينيه حين أحسّ بي واستدار.

لم يقل شيئًا. اكتفى بالتركيز في المسدّس الذي أحمله بيدي. فتركتُه على الطاولة الصغيرة بجوار السلالم.

- تعال. لعلّنا نجد لك لباسًا نظيفًا - قال.

تبعتُه إلى مستودعٍ هائلٍ للثياب، يبدو متحفَ أزياءٍ حقيقيًا. كلّ الملابس الأنيقة التي أذكرها من سنوات مجد ڤيذال كانت هناك. عشرات من ربطات العنق، والأحذية، وأزرار الكمّ، مركونة في محافظ من مخمل أحمر.

- كلّ هذه الألبسة من أيّام شبابي. ستأتي على مقاسك حتمًا.

اختار ڤيذال ما يليق بي. أعطاني قميصًا، من المحتمل أنّ ثمنه يساوي قطعة أرض صغيرة؛ بذلة كاملة متقنة التفصيل من لندن، وحذاءً إيطاليًّا لم يكن ربّ عملي ليحلم بانتعاله. ارتديتُ الثياب بصمت بينما كان ڤيذال يرمقني شاردًا.

- عريضٌ عند الكتفين، لكنّك ستتدبّر أمرك - قال وهو يمرّر لي زوجًا من أزرار الياقوت.

- ماذا روى لك المحقّق؟

- كلّ شيء.

- وهل صدّقته؟

- ومن يكترث لما أصدّقه أو أؤمن به؟

- أنا.

جلس ڤيذال على مصطبةٍ عند جدارٍ تكسوه المرايا من الأرض حتّى السقف.

- يقول إنّك تعلم أين كريستينا - قال.

أشرتُ بنعم.

- هل هي حيّة؟

نظرتُ إلى عينيه ثمّ أومأتُ ببطءٍ شديد. فابتسم ڤيذال بمرارة، وحاد أنظاره عنّي. ثمّ راح يبكي، ويئنّ أنينًا ينبثق من أعماقه. جلستُ بجواره وعانقتُه.

- سامحني يا دون پيدرو، سامحني...

في وقتٍ لاحق، حين مالت الشمس نحو المغيب، جمع الدون پيدرو ثيابي القديمة وقذفها في النار. وقبل أن يسلّم المعطف للهب، أخرج «خطوات السماء» وأعطاني إيّاه.

- هذا الأجمل من بين الكتابين اللذين ألّفتهما العام الماضي - قال.

رنوتُ إليه، وهو يحرّك ثيابي في حريق الموقد.

- متى انتبهتَ لذلك؟

شدّ ڤيذال كتفيه.

- من الصعب أن يُخدَع المرء إلى ما لا نهاية، يا داڤيد، حتّى لو كان غبيًّا مغرورًا.

لم أفهم إن كانت نبرة صوته تلوك النقمة أم الحزن فقط.

- ما فعلتُها إلاّ لظنّي بأنّي أساعدك يا دون پيدرو.

- أعرف.

ابتسم في وجهي، بلا ضغينة.

- سامحني - غمغمتُ.

- عليك أن ترحل عن المدينة. ثمّة سفينة شحن راسية عند رصيف مرفأ سان سيباستيان، ستنطلق في منتصف الليل. لقد دبّرتُ كلّ شيء. أسألْ عن القبطان أولمو. سيكون بانتظارك. خذ إحدى السيّارات من الموقف. بإمكانك أن تتركها هناك، عند المرفأ. سيمرّ بيب ليعيدها في الغد. لا تتكلّم مع أحد. لا تعد إلى بيتك. ستكون بحاجة إلى المال.

- لديّ ما يكفي - كذبتُ.

- لن يكفيك أبدًا. حين ترسو في مرسيليا، سيرافقك أولمو إلى المصرف، ويسلّمك خمسين ألف فرنك.

- ولكن يا دون پيدرو...

- اسمعني. بالنسبة إلى الرجلين اللذين قتلتَهما، كما يقول غراندس...

- ماركوس وكاستيلو. أعتقد أنّ كليهما كانا يعملان لصالح والدك يا دون پيدرو.

هزّ ڤيذال رأسه نافيًا.

- لا يتعامل والدي، ولا محاموه، مع الرتب المتدنّية يا داڤيد. كيف علما بمكانك بعد ثلاثين دقيقة من خروجك من المخفر؟

تجمّد اليقين شقّافًا على وجهي.

- بفضل صديقي، المحقّق ڤيكتور غراندس.

أومأ ڤيذال.

- غراندس سمح لك بالذهاب لأنّه لم يشأ أن يلطّخ يديه بدمائك داخل المخفر. وما إن خرجتَ حتّى تبعك رجلاه. كنت ستموت مِيْتةً اعتياديّة. متّهمٌ بالقتل يلقى مصرعه وهو يحاول الفرار من الاعتقال.

- كما في صحافة الجرائم، في تلك الأيّام السالفة - قلت.

- ثمّة أشياءٌ لا تتغيّر يا داڤيد. كان عليك أن تعي هذا أكثر من أيّ أحدٍ آخر.

فتح الخزانة وأعطاني معطفًا جديدًا لم يلبسه مسبقًا. فأخذته ووضعتُ الكتاب في الجيب الداخليّ. ابتسم ڤيذال.

- لمرّة واحدة في حياتي أراك أنيق الهندام.

- كان سيبدو عليك أجمل يا دون پيدرو.

- هذا ابتذال.

- دون پيدرو، ثمّة أشياء كثيرة أودّ أن...

- لم يعد لها الآن أيّ قيمة يا داڤيد. لستَ مدينًا لي بأيّ تبرير.

- إنّي مدينٌ لك بأكثر من تبرير واحد...

- حدّثني عنها إذن.

كان ڤيدال ينظر إليّ بعينين يائستين متوسّلاً أن أكذب عليه. جلسنا في الصالة، قبالة النوافذ الكبيرة التي تشرف على كلّ برشلونة، وكذبتُ عليه من كلّ قلبي. قلت له إنّ كريستينا في باريس، استأجرتْ عليّة صغيرة في شارع سوفلو، باسم مدام ڤيدال، وقد وعدتني بأنّها ستنتظرني بعد ظهر كلّ يومٍ، أمام نافورة «حدائق لوكسمبرغ». قلت له إنّها كانت تتحدّث عنه دومًا، وإنّها لن تنساه أبدًا. قلت له إنّي كنت أعي عدم قدرتي على ملء الفراغ الذي تركه في قلبها، حتّى لو عشتُ معها إلى الأبد. كان الدون پيدرو يهزّ رأسه، ونظرته تتوه في المدى البعيد.

- عدني بأنّك ستعتني بها يا داڤيد. وأنّك لن تهجرها أبدًا. ستبقى معها، مهما حدث بينكما.

- أعدك بذلك يا دون پيدرو.

تحت نور الغروب الشاحب، بدا لي مجرّد عجوز، ومقهور، ومريض بذكرياته وحسراته؛ رجلٍ لم يعرف الإيمان، ولم يبق أمامه من بلسم شافٍ حينذاك سوى تصديق أيّ شيء.

- كان بودّي لو كنتُ أفضل صديق عندك يا داڤيد.

- أنت أفضل أصدقائي يا دون پيدرو. بل أكثر من هذا بكثير.

مدّ ڤيدال ذراعه وأمسك بيدي. كان يرتجف.

- غراندس حدّثني عن ذاك الرجل، الذي تسميّه «ربّ العمل»... يقول إنّك مدين له بشيء ما، وإنّه ما من وسيلة أمامك لإيفاء الدَين سوى تسليمه روحًا طاهرة...

- إنّها ترّهات يا دون پيدرو. لا تشغلْ بالك بها.

- ألا تنفعك روحٌ قذرة ومرهقة، كروحي؟

- لم أعرف أطهر من روحك حقًّا يا دون پيدرو.

ابتسم ڤيدال.

- لو استطعتُ أن أنوب عن والدك، لما توانيتُ يا داڤيد.

- أعرف.

نهض يتأمّل الغروب الذي يهوي على المدينة.

- عليك أن تتحرّك - قال - اذهب إلى الموقف وخذ أيّ سيّارةٍ تريد. سأذهب لأرى إن بقي عندي بعض الأوراق النقديّة.

أومأتُ وحملتُ المعطف. خرجتُ إلى الحديقة واتجهتُ نحو موقف ڤيلا هيليوس. ثمّة سيّارتان تلمعان كمواكب الملوك. اخترتُ أكثرهما صغرًا وتواضعًا، هسبانو سويسا سوداء تبدو كأنّها لم تخرج من هناك أكثر من مرّتين أو ثلاث، يفوح منها عطر الأشياء الجديدة. خرجتُ من الموقف وانتظرتُ في الفناء. مرّت دقيقة ولم يخرج الدون پيدرو، فنزلتُ من السيّارة دون أن أطفئ المحرّك. دخلتُ إلى المنزل ثانيةً لألقي عليه التحيّة، وأقول له إنّي سأتدبّر أمري فما من داعٍ للقلق بشأن المال. وحين اجتزتُ البهو، تذكّرتُ أنّي تركتُ المسدّس على الطاولة الصغيرة قرب السلالم. اتجهتُ إلى هناك لآخذه، فلم أجده.

- دون پيدرو؟

كان الباب المؤدّي إلى الصالة مواربًا. أطللتُ عند العتبة ورأيتُه واقفًا وسط الغرفة، وقد حمل مسدّس والدي إلى صدره، ووجّه الفوّهة إلى قلبه. هرعتُ نحوه لكنّ دويّ الرصاصة طغى على صرختي. سقط السلاح من يده. انحنى جسمه إلى الجدار، وتهاوى ببطء إلى الأرض، ودمه يسيل على الرخام. وقعتُ على ركبتيّ بقربه وأسندته بين ذراعيّ. أحدثت الطلقة ثقبًا يُصدِر الدخان، وتنبثق منه الدماء قانيةً وكثيفةً. كان الدون پيدرو يركّز النظر إلى عينيّ، بينما تغصّ ابتسامته بالدماء، وتخمد الرجفة في جسده، ويقع على الأرض مثقلاً برائحة البارود والبلاء.

23

عدتُ إلى السيّارة وجلستُ إلى المقود، بيدين ملطّختين بالدماء، بالكاد أستطيع التنفّس. انتظرتُ دقيقة ثمّ أخفضتُ قبضة المكابح. كان الشفق قد غطّى السماء بكفنٍ أحمر، تنبض تحته أضواء المدينة. انطلقتُ تاركًا خلفي واجهة ڤيلا هيليوس في قمّة التلّ. وصلتُ إلى شارع بيارسون، وتوقّفتُ ونظرتُ إلى المرآة العاكسة. في الخلف سيّارةٌ تنعطف من شارعٍ جانبيٍّ، وكانت تطاردني على مسافة خمسين مترًا. ولم يكن سائقها قد أشعل أضواءها. ڤيكتور غراندس.

تابعتُ النزول إلى أسفل شارع پيدرالبيس، حتّى اجتزت التنّين الحديديّ العملاق الذي يحرس الرواق المؤدّي إلى عمارة غويل. كانت سيّارة المحقّق غراندس ما تزال تلاحقني، على بُعد مائة مترٍ تقريبًا. حين وصلتُ إلى شارع دياغونال، انعطفتُ إلى الجهة اليسرى، نحو وسط المدينة. لم تكن حركة النقل هناك مزدحمة، ما سمح لغراندس بمطاردتي بسهولة، إلى أن قرّرتُ الانعطاف نحو اليمين، آملاً أن أورّطه في ضيق أزقّة كور دي ساريا. أثناء ذلك، انتبه المحقّق أنّي فطنتُ لوجوده، فأشعل أضواء السيّارة، وقلّص المسافة بيننا. ودخلنا في متاهة الطرقات وسكك الترام قرابة العشرين دقيقة. ناورتُ بين الحناطير والعربات عبثًا، فأضواء غراندس ما تزال تتعقّب أثري، بلا هوادة. بعد قليل، ظهر أمامي تلّ مونتويك. كان المبنى الكبير للمعرض الدوليّ، وبقايا الأجنحة الأخرى، قد أغلِق منذ أسبوعين؛ إلاّ أنّ آثارها ما تزال شامخة تحت ضباب الغروب، كأشلاء حضارةٍ عظيمةٍ ومندثرة. دخلتُ الجادّة الواسعة التي تصعد حتى شلاّلات الوهج المضلّل، والأضواء الموهمة، عند نوافير المعرض، فأسرعتُ على قَدَر استطاعة المحرّك. وكلّما صعدنا تلك الطريق المطوّقة للتلّ، والزاحفة كالأفعى حتّى الملعب الأولمبيّ، شارف غراندس على بلوغي، حتّى إنّ وجهه بات واضحًا في المرآة العاكسة. فكّرتُ في البدء أن أسلك الطريق الصاعدة إلى القلعة العسكرية، في قمّة المرتفع، لكنّها كانت طريقًا مسدودةً بكلّ معنى الكلمة. لم يبق أمامي سوى الوصول إلى سفح التلّ من الجهة الأخرى، المشرفة على البحر، والاختفاء عند أحد أرصفة المرفأ. وللتمكّن من فعل ذلك، كان عليّ أن أكسب مزيدًا من الوقت، بينما يبعد غراندس عنّي أقلّ من خمسة عشر مترًا. وصلنا إلى سياج الإطلالة البحريّة الضخم، فانبسطت المدينة كلّها تحت عجلاتنا. رفعتُ قبضة المكابح بكلّ قوّتي كي يصطدم غراندس بمؤخّرة الهسبانو سويسا. فتدحرجنا إثر الصدمة على طول عشرين متر، في دوّامةٍ من لهبٍ مومضٍ على قارعة الطريق. أخفضتُ القبضة وتقدّمتُ قليلاً. وبينما كان غراندس يحاول استعادة السيطرة، رجعتُ إلى الخلف بأقصى سرعة. ولم يحالف الوقتُ المحقّقَ لاستيعاب ما كنت أفعل، فصدمتُه بكلّ صلابة هيكل السيّارة وفحولة محرّكها - بعضًا ممّا وهبني إيّاه ڤيذال من إسطبله الأكثر عراقةً في المدينة كلّها - والتي كانت أشدّ متانةً من سيّارة غراندس بلا شكّ. هزّت الصدمةُ عربته من الداخل، ورأيتُ رأسه يرتطم بالزجاج الأماميّ الذي تشرّخ كليًّا. وتصاعد الدخان الأبيض من الغطاء الأماميّ، وانطفأت أضواؤه. انطلقتُ مجدّدًا، مسرعًا لأتركه خلفي، ومتّجهًا نحو إطلالة الميرامار. بعد بضع ثوانٍ، انتبهتُ أنّ

الصدمة صدّعتْ مِصَدّ العجلة الخلفيّة، فراحت تحتكّ بالحديد أثناء دورانها. وسرعان ما تغلغلت رائحة المطّاط المحروق إلى داخل السيّارة. وبعد عشرين مترًا، انفجر إطار العجلة، وغدت السيّارة تتمايل حتّى توقّفتْ مدثّرةً بغمامةٍ من دخان أسود. ترجلّتُ عنها، وصوّبت نظري نحو سيّارة غراندس. كان المحقّق يلملم نفسه خارج السيّارة وينهض ببطء. نظرتُ حولي. كنت على مسافة خمسين مترًا من موقف النقل الهوائيّ، الذي يجتاز ميناء المدينة، من تلّ مونتويك إلى برج سان سيباستيان. تراءت لي الكبائن المعلّقة على الكابلات، تنزلق على خلفيّة الغروب القرمزيّ. وأخذتُ أركض في ذلك الاتجاه.

كان أحد القائمين على الموقف يستعدّ لإغلاق أبوابه حين رآني أصل راكضًا. ترك لي الباب مفتوحًا وأشار إلى الداخل.

- آخر توصيلة لهذا اليوم - قال منوّهًا - حبّذا لو استعجلتَ يا سيّدي.

حصلتُ على آخر تذكرة قبل أن يغلق شبّاك التذاكر بدقائق، وسارعتُ إلى الانضمام لمجموعة من أربعة أشخاص، ينتظرون خارج الكابينة. لم ألحظ ثيابهم حتى فتح الموظّف الباب ودعاهم للدخول. كانوا قساوسة.

- تأسّس خطّ النقل الهوائيّ إبّان افتتاح المعرض الدوليّ، مزوّدًا بأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا الراقية. آمنٌ ومضمونٌ في كلّ لحظة. ما إن تسير الكابينة، يُغلَق هذا الباب، الذي لا يُفتَح إلاّ من الخارج، وذلك منعًا للحوادث أو محاولات الانتحار، لا قدّر الله. ومن البديهيّ أنّنا في منأىً عن هذه المخاطر، بفضل وجودكم أيّها السادة...

- أيّها الشاب - قاطعتُه - ألا يمكنك اقتضاب خطبتك العصماء؟ سيحلّ الليل بعد قليل؟

رماني الموظّف بنظرة جارحة. ولاحظ أحد القساوسة بقع الدماء على يدي، فصلّى بإشارة الصليب. استأنف الموظّف خطابه المملّ.

- ستحلّقون في سماء برشلونة، على ارتفاع سبعين مترًا عن مياه المرفأ، لتستمتعوا بأجمل إطلالات هذه المدينة، التي كانت حكرًا على السنونوّات والنوارس، ومخلوقاتٍ أخرى وهبها الربُّ ريشًا. ستستغرق الرحلة عشر دقائق، وتتوقّف في محطّتين. الأولى عند البرج الرئيس للمرفأ، برج سان خاييم، أو كما يطيب لي تسميته ببرج إيفل البرشلونيّ. والثانية والأخيرة عند برج سان سيباستيان. لن أطيل عليكم، آمل لحضراتكم عبورًا موفقًا، وأكرّر أمنيّاتي بملقاكم، مرّة أخرى، على متن خطّ ميناء برشلونة.

كنت أوّل القافزين إلى الكابينة. مدّ الموظّف يده عند مرور القساوسة الأربعة، متلهّفًا لإكراميّةٍ لم يحصل عليها. صفق الباب محبطًا وحانقًا، واستدار كي يُخفض المكابح. كان المحقّق غراندس ينتظره من الجانب الآخر، منهكًا، ومشهرًا بطاقته الأمنيّة مع ابتسامة لئيمة. فتح له الموظّف، فدخل غراندس إلى الكابينة، ملقيًا التحيّة على القساوسة، بإيماءة من رأسه، وغامزًا لي بعينه. وبعد ثانية، كنّا نحلّق في الفراغ.

ابتعدت الكابينة عن الموقف، نحو سفح التلّ. كان القساوسة مكدّسين جانبًا، ويبدو أنّهم متشوّقين للتمتّع بمنظر الغروب على برشلونة، متجاهلين السبب الذي جمعني بالمحقّق في تلك الكابينة. اقترب ببطء، وأراني سلاحه في قبضته، بينما تنساب الغيوم الحمراء الكبيرة فوق مياه المرفأ. غطست الكابينة في إحدى تلك الغيوم، فبدا للوهلة الأولى أنّنا نغرق في بحيرةٍ من نار.

- هل صعدتَ إلى متنها من قبل؟ - سأل غراندس.

أشرتُ بنعم.

- ابنتي تحبّها كثيرًا. تطلب مني أن أصطحبها في رحلةٍ ذهابًا إيابًا، مرّة في الشهر. مكلفةٌ بعض الشيء لكنّها تستحقّ العناء.

- إذا أحصينا ما يدفعه لك ڤيذال الأب لتبيعني، سيكون بإمكانك حتمًا أن تصطحب ابنتك كلّ يوم إن أردتَ. هل لي بسؤال؟ لإشباع الفضول ليس إلاّ. كم ثمني؟

ابتسم غراندس. خرجت الكابينة من الغيمة، وبقينا معلّقين فوق ورشات المرفأ بينما تتبعثر أنوار المدينة على المياه القاتمة.

- خمسة عشر ألف بيسيتا - أجاب وهو يصفع راحة يده بظرفٍ أبيض، ينتأ من جيب معطفه.

- أعتقد أنّ هذا يشرّفني. فهناك من يقتل لأربعة قروش. وهل المبلغ يشمل غدرك بعميليك أيضًا؟

- أودّ أن أذكّرك بأنّك الوحيد الذي ارتكب القتل بيننا.

حينها نظر القساوسة الأربعة إلينا، مشدوهين ومذعورين، غير مبالين بنشوة الرهاب من العلوّ والتحليق فوق المدينة. خطف غراندس أنظاره نحوهم.

- حين نصل إلى المحطّة الأولى، أطلب منكم بلطفٍ أن تنزلوا، لتتركونا نناقش شؤوننا الدنيويّة.

كان برج ورشات المرفأ ينهض قبالتنا كقبّةٍ قوامها الفولاذ والكابلات، مسروقةٍ من كاتدرائيّةٍ ميكانيكيّة. وصلت الكابينة تحت قوس البرج وتوقّفت عند رصيف المحطّة. وما إن انفتح الباب، ولّى القساوسة الأربعة هاربين. غراندس، والمسدّس في قبضته، أشار إليّ بالاتّجاه إلى آخر الكابينة. وكان أحد الآباء قد نظر إليّ مضطربًا وهو ينزل.

- لا عليك يا فتى، سنبلّغ الشرطة - قال قبل أن يُغلق الباب.

- أوصيك بهذا - ردّ غراندس ساخرًا.

أوصِد الباب، فتحرّكت الكابينة مجدّدًا. خرجنا من ذلك البرج، لنكمل آخر أشواط الرحلة. اقترب غراندس من النافذة، وراح يتأمّل منظر المدينة، في سراب أضوائها وضبابها، كاتدرائيّاتها ومبانيها، أزقّتها وشراعها العريضة المحبوكة في متاهةٍ من ظلال.

- مدينة الملاعين - قال غراندس - كلّما نظرتَ إليها من البعيد، ازدادت جمالاً في عينيك.

- هل ستنقش هذه العبارة على ضريحي؟

- لن أقتلك يا مارتين. أنا لا أقتل الناس. بل ستسدي لي المعروف بنفسك. لي ولك أيضًا. وأنت تعلم أنّي محقّ.

وكما قال فعل. أطلق ثلاث رصاصات على محرّك إغلاق الباب، وفتحه رفسًا. وظلّ الباب يتأرجح في الفراغ فيما تغزو الرياح الباردة قلب الكابينة.

- لن تشعر بشيء يا مارتين. صدّقني. لن تدوم الصدمة أكثر من عشرة أجزاء من الثانية. صدمةٌ عابرة. وبعدها، السلام.

نظرتُ إلى الباب المفتوح. أمامي سقطةٌ من ارتفاع سبعين مترًا. نظرتُ نحو برج سان سيباستيان، فقدّرتُ وصولنا إليه في غضون دقيقتين. وكان غراندس يقرأ أفكاري.

- في غضون دقيقتين، سينتهي كلّ شيء يا مارتين. عليك أن تكون ممتنًا لي.

- هل تعتقد حقًّا أنّي قتلتُ كلّ أولئك الأشخاص، أيّها المحقّق؟

رفع غراندس المسدّس ووجّهه إلى قلبي.

- لا أدري، ولا يهمّني.

- كنت أظنّ أنّنا أصدقاء.

ابتسم غراندس وهزّ رأسه.

- أمثالُك ليس لديهم أصدقاء، يا مارتين.

سمعتُ دويّ الطلقة، كمطرقةٍ مخدّرة تسحق عظام صدري. سقطتُ على ظهري، منقطع الأنفاس، بينما يتشنّج جسدي ألمًا حرّاقًا كالوقود. أمسك غراندس بقدمي وسحبني نحو الباب. فظهرتْ قمّة برج سان سيباستيان بين الستائر والغيوم. مرّ المحقّق فوقي، وجلس القرفصاء خلفي، وراح يدفع كتفيّ نحو الباب. أحسستُ ببرودة الرياح على قدميّ. دفعني غراندس مرّة أخرى، حتّى بات حوضي خارج سطح الكابينة. فتحت الجاذبيّةُ فمها لتبتلعني. كنت أبدأ السقوط.

مددتُ ذراعي نحوه، ورحت أخنقه بيديّ. استعان غراندس بثقل جسمي كي يبقى متمترسًا عند فجوة الباب. ركّزتُ الضغط بشدّة على قصبة رئتيه، لعلّي أهرس شرايين عنقه. هزّ يدًا كي يملص من قبضتيّ، بينما تحسّس بالأخرى بحثًا عن السلاح. وجدتْ أصابعُه سدّادة المسدّس الخلفيّة وانزلقتْ نحو الزناد. فرقّت الطلقةُ عند صدغي وضربت إطار الباب، فارتدّت إلى داخل الكابينة لتخترق يده تمامًا. غرستُ أظفاري في عنقه حتّى شعرتُ بجلده يتمزّق. توجّع غراندس. فانتفضتُ بقوّة وتسلّقتُ من جديد، وصار أكثر من نصف جسمي في الداخل. وما إن تمسّكتُ بالجانب المعدنيّ، تركتُ غراندس ووقفتُ جانبًا.

تلمّستُ صدري فوجدتُ رصاصة المحقّق. فككتُ أزرار المعطف وأخرجتُ «خطوات السماء». اخترقت الطلقةُ الغلافَ وأربعمائة صفحة من الرواية، ونتأت كرأس إصبعٍ فضيّ من الغلاف الخلفيّ. كان غراندس يتلوّى على السطح، متحسّسًا عنقه بخيبة أمل. وجهه شاحبٌ، وعروق جبينه وصدغيه تنبض كسلكٍ متوتّر. صوب إليّ نظرة توسّل. فرأيتُ شبكةً من الشعيرات المكسورة تتشكّل في عينيه، ففهمتُ أنّي سحقتُ قصبة رئتيه بيديّ، وكان يختنق لا محالة.

نظرتُ إليه يرتجف خلال احتضاره البطيء. أخرجتُ الظرف الأبيض من جيبه. فتحتُه وأحصيتُ المبلغ: خمسة عشر ألف بيسيتا. ثمن حياتي. وضعتُ الظرف في جيبي، في حين زحف المحقّقُ نحو المسدّس. فنهضتُ وركلتُ السلاح بعيدًا. فأمسك بقدميّ متوسلاً الرحمة.

- أين مارلاسكا؟ - سألتُه.

أصدر من حلقه أنينًا مكتومًا. ركّزتُ في عينيه ففهمتُ أنّه كان يضحك. وقبل أن تدخل الكابينة برج سان سيباستيان، دفعتُه إلى الخارج ورأيتُه يتهاوى من علوّ ثمانين مترٍ تقريبًا، وسط متاهاة الكابلات والمكابح والمسنّنات والقضبان الفولاذيّة التي مزّقتْ جسمه أثناء السقطة.

24

كان بيت البرج مدفونًا في الظلام. صعدتُ عتبات السلّم الحجريّ، أتلمّس طريقي في العتمة، حتّى بلغتُ المستراح، ووجدتُ الباب مواربًا. دفعتُه بيدي ووقفتُ عند العتبة، متلصّصًا إلى الظلال التي تجتاح الممرّ الطويل. تقدّمتُ بضع خطوات. وبقيتُ هناك متسمّرًا، بالانتظار. تلمّستُ الجدار حتّى وجدتُ قاطع الضوء. أدرتُه أربع مرّات، بلا جدوى. كان الباب الأول، من جهة اليمين، يفضي إلى المطبخ. سرتُ الثلاثة أمتار، التي تفصلني عنه، ببطء شديد؛ وتوقّفتُ هناك تحديدًا. تذكّرتُ أنّي أودعتُ مصباحًا زيتيًّا في إحدى الخزن، ذات مرّة. ووجدتُه فعلاً بين أوعية القهوة المغلقة، الآتية من خان جسبرت. وضعتُ المصباح على طاولة المطبخ وأشعلتُه. فارتسم ضوءٌ خافت، بلون الكهرمان، على الجدران. أمسكتُ المصباح وعدتُ إلى الممرّ.

تقدّمتُ بحذر، أرفع النور ليرفرف فوقي، متوقّعًا أن ينقضّ عليّ أحدٌ ما، بأداةٍ ما، من إحدى أبواب الممرّ، بين لحظةٍ وأخرى. كنت متيقّنًا من أنّي لستُ بمفردي. أشمّ رائحة ذلك. رائحة مقيتة، مزيج من الغيظ والنقمة، تحوم في الهواء. وصلتُ إلى باب الغرفة في آخر الممرّ. فلامس ضياء المصباح أطراف الخزانة، التي أزحتُها عن الجدار، والملابس مرميّة على الأرض، تمامًا كما تركتُها حين اعتقلني غراندس قبل ليلتين. مشيتُ حتّى بداية السلّم المؤدّي إلى المكتب. صعدتُ مترقّبًا، أتلفّتُ إلى الخلف كلّ خطوتين أو ثلاث، حتّى وصلتُ إلى الأعلى. كانت أنفاس الغروب القرمزيّ قد تغلغلت من النوافذ الكبرى. هرعتُ إلى الحائط حيث يوجد الصندوق وفتحتُه. المغلّف، الذي يحوي مخطوط رواية ربّ العمل، لم يكن هناك.

عدتُ نحو السلالم. وحين مررتُ بمنضدتي، رأيتُ أنّ مفاتيح الآلة الكاتبة القديمة كانت مخرّبة، كما لو أنّ أحدهم أجهز عليها بجمع يده. نزلتُ السلالم ببطء إلى الممرّ مجددًّا. أطللتُ برأسي إلى مدخل الصالة. ورغم الظلام، تمكّنتُ من رؤية كتبي كلّها مرميّة أرضًا، وجلود الأرائك ممزّقة. استدرتُ، وتفحّصتُ الممرّ، وأمتاره العشرين التي تفصلني عن الباب. كان نور المصباح يساعدني في رؤية الأغراض حتّى نصف تلك الغرفة الملعونة. وخلف حدود النور، يسرح الظلام متلاطمًا كالمياه الداكنة.

كنت أذكر أنّي تركتُ باب البيت مفتوحًا حين دخلتُ. أمّا حينذاك، كان مغلقًا. تقدّمتُ قليلاً، لكنّ شيئًا ما استوقفني بينما كنت أمرّ أمام تلك الغرفة. لم ألحظ وجودها عندما دخلتُ أوّل مرّة، لأنّ الباب ينفتح نحو اليسار، ولم أركّز فيها أساسًا. أمّا حينذاك، وبالاقتراب أكثر، رأيتُها بوضوح. حمامة بيضاء، مبسوطة الجناحين كأنّها على الصليب، معلّقة على الباب. ودماؤها الحارّة ما تزال تسيل على الخشب.

دخلتُ. نظرتُ خلف الباب، لم أجد أحدًا. الخزانة كما تركتُها جانبًا. تيّار الهواء البارد، المتدفّق عبْر ثقب الجدار، يكتسح الغرفة. وضعتُ المصباح على الأرض، وتلمّستُ الملاط الهشّ المحيط بالثقب. أخذتُ أحكّه

بأظفاري، وشعرتُ أنّه يتفتّت بين أصابعي. بحثتُ حولي، ووجدتُ قاطعة ورق قديمة في دُرج إحدى الطاولات الصغيرة المكدّسة في الزاوية. أدخلتُ النصل في الملاط، وبدأتُ أحفر. وسرعان ما انفلق الملاط، إذ لم تكن قشرته أثخن من ثلاثة سنتمترات. هناك خشبٌ وراءه.

باب.

بحثتُ عن أضلاعه بقاطعة الورق، فارتسمت أطُر الباب على الجدار شيئًا فشيئًا. أثناء ذلك، كنتُ قد نسيتُ الوجود الغامض الذي يسمّم البيت، ويبقى متخفّيًا في الظل. لم يكن للباب مقبض، بل ترباسٌ صدئٌ ظلّ مدفونًا تحت الملاط الهشّ الذي نخرته الرطوبة طوال أعوام. أدخلتُ فيه النصل وحاولتُ خلعه بالقوّة. ثمّ ركلتُه حتّى تداعى الملاط بالكامل. نزعتُ قفل الترباس بقاطعة الورق، ووقع الباب بدفعةٍ بسيطة.

هبّت ريح العفونة من الداخل، لتفوح على ثيابي وجلدي. أمسكتُ المصباح ودخلتُ. كانت الغرفة عبارة عن مستطيلٍ بعمق خمسة أمتار أو ستّة. والجدران مكسوّة برسوم وكتابات، تبدو منقوشة بالأصابع. الخطّ بلونٍ بنيّ داكن. دماء جافّة. الأرضيّة مفروشة بما خلتُ أنّه غبارٌ للوهلة الأولى، لكنّ المصباح أظهر بقايا عظامٍ مشرذمة. عظام حيوانات، مهشّمة في بحرٍ من رماد. وفي السقف، لا حصر للأشياء المعلّقة بحبالٍ سوداء. رأيتُ تماثيل دينيّة صغيرة، وصورًا صغيرة لقدّيسين، والعذراء محروقة الوجه ومفقوءة العينين، وصلبان ملفوفة في خيوط شائكة، وبقايا لعب من صفيح، ودمى ذات عيون زجاجية. وثمّة شكلٌ خفيٌّ، في عمق المكان.

كرسيٌّ مصوّبٌ نحو الزاوية، يقبع عليه أحدٌ ما. كان يرتدي السواد. رجلٌ. يداه مكتوفتان خلف ظهره. وحبلٌ حديديٌّ ثخينٌ يشدّ أطرافه إلى الكرسي. اجتاحني بردٌ لم أجرّب مثله من قبل.

- سالڤادور؟ - لفظتُ بالكاد.

تقدّمتُ نحوه ببطء، فيما ظلّ الشكل متخشّبًا. توقّفتُ على بعد خطوةٍ منه ومددتُ يدي بحذر. لامست أصابعي شعرَه، واستقرّت على كتفه. حاولتُ أن ألفّ الجسد تجاهي، فشعرتُ أنّه يتهافت إثر لمسة أصابعي. وما هي إلاّ ثانيةٌ حتّى استحال رمادًا منثورًا، يتلاشى بين ثيابه وأصفاده الحديديّة. ثمّ ارتفعتْ غيمةٌ من سرابٍ يتموّج في غياهب ذلك السجن، حيث أخفِي لسنواتٍ طويلة. تأمّلتُ حجاب الرماد على يدي، وصعدتُ به إلى وجهي، فتبعثرتْ ذكرى روح ريكاردو سالڤادور على بشرتي. وحين فتحتُ عينيّ، رأيتُ سجّانه، دييغو مارلاسكا، ينتظر عند عتبة الزنزانة، يحمل مخطوط روايتي بيدٍ، والنار بالأخرى.

- لقد قرأتُها ريثما كنت أنتظرك يا مارتين - قال - إنّها رائعة أدبيّة. سيكافؤني ربّ العمل حين أسلّمه المخطوط باسمك. أعترف بأنّي أخفقتُ في حلّ اللغز، إذ توقّفتُ في منتصف الطريق. كم أنا سعيدٌ بمعرفة أنّ الناشر قد وجد بديلاً عنّي يتمتّع بهذه الموهبة الفذّة.

- ابتعدْ.

- متأسّف يا مارتين. صدّقني. كنتُ بدأتُ أقدّرك - قال وهو يُخرِج من جيبه ما بدا مقبضًا عاجيًّا - لكنّي لا أستطيع أن أدَعَكَ تخرج من هذه الغرفة. حان الوقت كي تنوب سالڤادور المسكين.

ضغط زرًّا في المقبض، فانبلج نصلٌ ذو حدّين في الظلام.

انقضّ عليّ بصرخة حاقدة. جرح نصل السكين وجنتي، وكاد يفقأ عيني اليسرى لو لم أتنحّ جانبًا. وقعتُ إلى الخلف، على الأرض المغطّاة بفتات العظام والغبار. أمسك مارلاسكا السكّين بيديه الاثنتين، وانهال عليّ، مركّزًا كلّ وزنه على السكّين. فتوقّف حدّ النصل على مسافة سنتمترات من صدري، بينما كنت أشدّ على عنق مارلاسكا بيدي اليمنى.

برم رأسه ليعضّ معصمي، فلكمتُه بقبضتي اليسرى على وجهه. لم يثنِه كلّ هذا، إذ كان يدفعه سخطٌ أقوى من عقله وآلامه. ففهمتُ أنّه لن يتركني أخرج حيًّا من تلك الزنزانة. انقضّ نحوي بقوّة هائجة. وأحسستُ بأنّ حدّ السكّين يثقب جلدي. فضربتُه مجدّدًا بكلّ ما أوتيتُ من عزم، وأوسعتُه لكمًا حتّى شعرتُ بوتيرة أنفه تنكسر. وصبغت دماؤه براجم يدي. فزمجر مارلاسكا مرّة أخرى، غير آبهٍ بالألم، وغرس النصل سنتمترًا في لحمي. فاقتلعتْ غصّةُ الألم صدري. فضربتُه ثانية، باحثًا عن تجويفة عينيه بأصابعي، لكنّه رفع ذقنه، فنالت أظفاري من وجنتيه. ثمّ أحسستُ بأسنانه تفرم أصابعي.

أوغلتُ قبضة يدي في فمه، مهشّمًا شفتيه وبعض أسنانه. خمد صراخه وفورانه برهةً؛ فأزحتُه جانبًا ليسقط أرضًا، فيما صار وجهه قناعًا نازفًا يرتعش ألمًا. تنحّيتُ عنه آملاً ألاّ ينهض. لكنّه زحف نحو السكّين وهمّ بالنهوض.

حمله وانقضّ عليّ بصرخةٍ صمّاء. فلم يباغتني هذه المرّة، لأنّي أمسكتُ بمقبض المصباح الزيتيّ وقذفتُه به. فتحطّم المصباح على وجهه، وانسكب الزيت على عينيه وشفتيه وعنقه وصدره. فاندلعت فيه النار حالاً. وفي غضون ثانيتين، تلظّى جسده كليًّا، وسرعان ما تبخّر شعره. رأيتُ نظرته الحاقدة من خلال ألسنة الحريق التي تلتهم جفنيه. حملتُ المخطوط وخرجتُ. كانت السكّين ما تزال في يد مارلاسكا، حين حاول اللحاق بي خارج تلك الغرفة الملعونة، فهوى بين ركام الثياب القديمة التي اشتعلت فورًا. لسع السعير خشب الخزانة المعتّق والأثاث المتراكم عند الحائط. فهربتُ نحو الممرّ، ورأيتُه يجري خلف ظهري، مرفرف الذراعين، يحاول الوصول إليّ. وليّتُ هاربًا نحو الباب، ولكن قبل أن أخرج، توقّفتُ أتأمّل هلاك دييغو مارلاسكا، كشعلةٍ غاضبة تضرب الجدران فترديها أجيجًا. انتشرت النيران بين الكتب المبعثرة في الصالة وبلغت الستائر. وزحف اللهيب كالثعابين إلى السقف، لتضطرم حوافُّ الأبواب والنوافذ، متّجهًا نحو سلّم المكتب. آخر صورةٍ أذكرها، أنّ ذلك الرجل الملعون كان يقع على ركبتيه في نهاية الممرّ، بعد أن ضاعت آمال جنونه سدىً، وجسده بات مشعلاً من لحمٍ وضغينة، يبتلعه ضرام العذاب الذي ما انفكّ يشبّ في أرجاء بيت البرج. فتحتُ الباب وهرعتُ نحو السلالم.

تجمّع بعض سكان الحيّ في الطريق، ما إن رأوا النوافذ تنتفض اتّقادًا. لم ينتبه أحد إليّ بينما كنت أبتعد إلى أسفل الشارع. وبعد قليل، سمعتُ انفجار زجاج المكتب، فاستدرتُ لأرى زئير النار يثور معانقًا زهرة الريح على شكل

التنّين. ابتعدتُ صوب شارع بورن، عكس أمواج الناس الذين تدافعوا وهم ينظرون إلى الأعلى، عيونهم مرآةٌ لوهيج النار المتصاعد نحو سماءٍ دامسة السواد.

25

في تلك الليلة، عدتُ للمرّة الأخيرة إلى مكتبة سيمبيري. كانت لافتة الإغلاق معلّقة على الباب، لكنّي حين دنوتُ رأيتُ نورًا خافتًا في الداخل: إيزابيلا خلف المصطبة بمفردها، غارقة النظرة في سجلّ الحسابات الضخم؛ ويبدو من ملامحها أنّ أيّام المكتبة معدودة. رأيتُها تعضّ قلم الرصاص، وتحكّ رأس أنفها بسبّابتها، فأدركتُ أنّ ذلك المحلّ سيبقى عامرًا ما دامت إيزابيلا تديره. سيكتب حضورُها له النجاة، كما حصل لي. لم أجرؤ على إفساد تلك اللحظة، فبقيتُ أراقبها، على غفلة منها، وأبتسم في سرّي. رفعتْ عينها فجأة، كأنّي أخطر في بالها، ورأتني. فحييّتُها بيدي ولاحظتُ أنّ عينيها تشتعلان دمعًا، رغمًا عنها. أغلقت السجلّ، وخرجت راكضة من خلف المصطبة لتفتح لي الباب. كانت تنظر إليّ كما لو أنّها لا تصدّق أنّي هناك.

- ذاك الرجل قال لي إنّك قد هربت... وإنّنا لم نعد لنراك.

تصوّرتُ أنّ غراندس قد جاء لزيارتها.

- أريدكَ أن تعرف أنّي لم أصدّق أيّ حرفٍ ممّا رووه لي - قالت إيزابيلا - طمئنّي عنكَ...

- ليس لديّ كثيرٌ من الوقت يا إيزابيلا.

رمتني بنظرةٍ مقهورة.

- سترحل، أليس كذلك؟

أشرتُ بنعم، فمضغتْ ريقًا.

- سبق وأخبرتكَ بأنّي لا أطيق لحظات الوداع.

- وأنا لا أطيقها أيضًا. لم آتِ لأودّعك أصلاً، إنّما لأردّ لكِ شيئين لا ينتميان إليّ.

أخرجتُ نسخة «خطوات السماء» وأعطيتها لها.

- لم يكن لهذا الكتاب أن يخرج من زاوية السيّد سيمبيري الخاصّة.

أخذت إيزابيلا الكتاب، وعندما رأت الطلقة ما تزال عالقةً بين صفحاته، نظرتْ إليّ دون أن تقول شيئًا. ثمّ أخرجتُ الظرف الأبيض، ذا الخمسة عشر ألف بيسيتا التي أراد والد ڤيدال أن يشتري بها موتي، وتركتُه على المصطبة.

- وهذا ثمن جميع الكتب التي أهداني إيّاها سيمبيري على مرّ السنوات.

فتحت إيزابيلا الظرف، وأحصت المبلغ مشدوهةً.

- لا أدري إن كان عليّ قبول هذا المال...

- اعتبريه هدّية مسبقة لزواجك.

- كنت أتمنّى أن تصحبني إلى المذبح، كإشبينٍ على الأقلّ.

- لا شيء كان سيسعدني أكثر من هذا.

- ولكن عليك أن ترحل.

- تمامًا.

- إلى الأبد.

- لبعض الوقت.

- ماذا لو رحلتُ معك؟

قبّلتُ خدّها وعانقتُها.

- ستبقين معي، حيثما رحلتُ، إلى الأبد يا إيزابيلا. إلى الأبد.

- لا أظنّ أنّي سأشتاق إليك.

- أعلم.

- هل لي أن أرافقك إلى القطار، على الأقلّ، أو أيًّا تكن الوسيلة؟

تردّدتُ طويلاً وأنا أرفض تلك الدقائق الأخيرة برفقتها.

- لأكون واثقة بأنّك سترحل حقًّا، وأنّي تخلّصتُ منك إلى الأبد - أضافت.

- اتّفقنا إذن.

نزلنا ببطء نحو لاس رامبلاس، وإيزابيلا تشبك ذراعي. وصلنا إلى أرك دل تياتري، وولجنا زقاقًا مظلمًا يجتاز الرافال.

- إيّاكِ أن تخبري أحدًا بما سترينه الليلة، يا إيزابيلا.

- ألا أخبر عزيزي سيمبيري أيضًا؟

تنهّدتُ.

- بالتأكيد. بإمكانك أن تخبريه بكلّ شيء. ليس لدينا أسرارٌ نخفيها عن سيمبيري، تقريبًا.

فتح لنا الحارس إسحاق، وابتسم وتنحّى جانبًا.

- لدينا زيارة مهمّة الآن - قال موجّهًا تحيّة إجلال إلى إيزابيلا - أتخيّل أنّك تريد أن تؤدّي دور المرشد يا مارتين.

- إن لم يكن لديك مانع.

أومأ إسحاق ومدّ يده. فصافحتُه.

- حظًّا موفّقًا - قال.

اختفى الحارس في الظلّ، ليتركني بمفردي مع إيزابيلا. كانت مساعِدتي السابقة، والمديرة الجديدة الرائعة لمكتبة سيمبيري، تراقب ما حولها بمزيجٍ من التعجّب والجزع.

- أيّ نوعٍ من الأماكن هذا؟ - سألتْ.

أمسكتُ يدها، وقدتُها على مهلٍ حتّى وصلنا الردهة الكبرى حيث المدخل.

- أهلاً بكِ في مقبرة الكتب المنسيّة يا إيزابيلا.

رفعت إيزابيلا أنظارها نحو القبّة الزجاجيّة، وتاهت في تلك الرؤية المستحيلة من خطوط النور الأبيض التي تعصف بالمكان المذهل، كأنّه بابلٌ من الأنفاق والممرّات والجسور المعلّقة في أحشاء ذلك المعبد المصنوع من الكتب.

- هذا المكان سرٌّ يا إيزابيلا. إنّه معبدٌ، حرمٌ خفيّ. كلّ كتابٍ، أو مجلّد هنا، تعيش فيه روحٌ ما. روح من ألّفه، وأرواح من قرؤوه وعاشوا وحلموا بفضله. وفي كلّ مرّة يغيّر الكتابُ صاحبه، أو تلمس نظراتٌ جديدة صفحاته، تستحوذ الروح على قوّة إضافيّة. هذا المكان يحفظ الكتب التي لا يذكرها أحد، والتي يختفي أثرها بفعل الزمن، فتعيش هنا أبدًا في انتظار اليوم الذي تعود فيه إلى يدَي قارئٍ جديد وروحٍ جديدة...

في ما بعد، تركتُ إيزابيلا تنتظرني عند مدخل المتاهة، ودخلتُ تلك الأروقة بمفردي، وذلك المخطوط اللعين في يدي، إذ لم أمتلك الشجاعة لحرقه. أملتُ أن تقودني خطواتي إلى مكانٍ أدفنه فيه إلى الأبد حقًّا. تجوّلتُ في ألف ركنٍ حتّى ظننتُ أنّي تهتُ. ثم حين تيقّنتُ من أنّي سلكتُ الدرب ذاته عشرات المرّات، دخلتُ إلى الغرفة حيث وجدتُني منعكسًا في تلك المرآة الصغيرة المسكونة دومًا بنظرة الرجل ذي الزيّ الأسود. رأيتُ فراغًا بين كتابين من جلد ثخين أسود، فأدخلتُ فيه مخطوط ربّ العمل بلا تردّد. وقُبيل انصرافي، استدرتُ ودنوتُ من الرفّ مجدّدًا. سحبتُ المجلّد الملاصق لمخطوطي، وفتحتُه. وما إن قرأتُ بعضًا من عباراته، حتّى سمعتُ تلك القهقهة الشنيعة، مرّة أخرى، خلف ظهري. أعدتُه إلى مكانه، وسحبتُ كتابًا آخر، لا على التعيين، ملقيًا عليه نظرةً خاطفة. ثمّ سحبتُ آخر، ثمّ آخر، وهكذا حتّى عاينتُ عشرات المجلّدات المدفونة في تلك الغرفة، وتبيّن لي أنّ في جميعها تتكرّر الكلمات نفسها، والصور الظلاميّة نفسها، والخرافة نفسها، كرقصة ثنائيٍّ داخل عددٍ لا يحصى من المرايا. «النور الأبديّ».

في خروجي من المتاهة، وجدتُ إيزابيلا تنتظرني، جالسة على العتبة، والكتاب الذي اختارته بين يديها. جلستُ بجانبها فأسندت رأسها إلى كتفي.

- شكرًا لأنّك جئت بي إلى هنا - قالت.

حينذاك، شعرتُ بأنّي لن أرى ذلك المكان ثانيةً، وأنّي محكومٌ برؤيته في المنام، ونقْش ذكراه في ذاكرتي، معتبرًا نفسي من المحظوظين القلائل الذين ساروا في ممرّاته واطّلعوا على ألغازه. أغمضتُ عينيّ برهةً، كي تُطبَع تلك الصورة في ذهني إلى الأبد. ولم أجرؤ على النظر نحو المتاهة مجددًا، فأمسكتُ بيد إيزابيلا، واتّجهتُ نحو المَخرج، تاركًا خلف ظهري، إلى الأبد، مقبرة الكتب المنسيّة.

رافقتني إيزابيلا إلى رصيف المرفأ، حيث السفينة التي ستحملني بعيدًا عن تلك المدينة، وعن كلّ ما عرفتُه فيها.

- ماذا كان اسم القبطان؟ - سألتني إيزابيلا.

- خارون.

- يا لخفّة ظلّك.

عانقتُها للمرّة الأخيرة، ونظرتُ إلى عينيها في صمت. كنّا قد اتّفقنا، في الطريق، أن لا نتبادل الوداع، ولا الكلمات المؤثّرة، ولا العهود أو الوعود. حين قُرِعَتْ نواقيس كنيسة سانتا ماريا دل مار، معلنةً منتصف الليل، صعدتُ إلى متن السفينة. رحّب بي القبطان أولمو باحترام، وعرض عليّ أن يرافقني إلى الكابينة. فأجبته بأنّي أفضّل الانتظار. رفع طاقمُ البحّارة المرساة، وانفصلت السفينة عن المرفأ. توجّهتُ إلى ذيل السفينة، كي أتأمّل المدينة التي تبتعد في موجةٍ من الأضواء. ظلّت إيزابيلا واقفةً هناك، لا تحيد عينيها عن عينيّ، إلى أن تلاشى الرصيف في الظلمات، وتبدّد سراب برشلونة في عتمة المياه. انطفأت أضواء المدينة، واحدًا تلو الآخر، فأدركتُ أنّي كنت قد بدأتُ أتذكّر.

خاتمة

1945

خمسة عشر عامًا بأسرها مرّت على تلك الليلة التي هربتُ فيها من مدينة الملاعين إلى الأبد. كانت حياتي خلالها تتّسم بالتخفّي والغياب، لا اسم لي أو هويّة سوى أنّي عابر سبيلٍ مجهولٌ. انتحلتُ مائة اسم وأكثر من مائة مهنة، ولم يكن أيٌّ منها اسمي أو مهنتي.

ارتحلتُ بين مدنٍ كبيرة وبلدات صغيرة، ليس لأحدٍ فيها ماضٍ أو مستقبل. ولم أمكث في أيٍّ من هذه الأماكن أطول من اللازم. وكلّما طالت غربتي، استأنفتُ هروبي، دون سابق إنذار، لا أترك ورائي أثرًا سوى كتابين قديمين وثيابٍ رثّة، في غرفٍ موحشة، سجّانُها ذاكرةٌ لا يقهرها مرور الزمن. لم تكن ذاكرتي تتّسع إلاّ للتوجّس والارتياب. علّمتني السنون أن أحيا في جسد رجلٍ غريب، لا يذكر كم ارتكب من الجرائم التي ما تزال رائحتها تفوح من يديه؛ رجلٍ لا يدري إن فقد رشده، وحُكِم عليه بالتسكّع حول العالم الذي حلم أن يضرم النار فيه، مقابل حفنةٍ من المال، ووعدٍ بإفلاته من براثن الموت الذي بدا له فيما بعد أجملَ من أيّ مكافأةٍ أخرى. ولطالما تساءلتُ ماذا لو اخترقت رصاصة المحقّق غراندس صفحاتِ ذلك الكتاب، واستقرّت في قلبي، وكنتُ أنا القتيل في تلك الكابينة المعلّقة في الفراغ.

خلال أعوام طوافي، رأيتُ بأمّ العين ذلك الجحيم الموعود، الذي صوّرتُه في الصفحات المكتوبة لربّ العمل، ينفث نيرانه على دربي. هربتُ من ظلّي نفسه ألف مرّة، وأنا ألتفت للخلف دومًا، وأتوقّع انقضاضه عليّ من إحدى زوايا الشارع، أو من طرف السرير خلال الساعات العسيرة التي تسبق الفجر. لم أسمح لأحدٍ أبدًا بأن يتّخذني صاحبًا، كي لا يسألني لماذا لا أشيخ، ولماذا لا تبرز التجاعيد على وجهي، ولماذا حافظتْ ملامحي على حالها منذ تلك الليلة التي تركتُ فيها إيزابيلا على رصيف مرفأ برشلونة.

ومرّت عليّ لحظاتٌ، اعتقدتُ خلالها بأنّي استنفدتُ كلّ مخابئ الأرض. حتّى إنّي سئمتُ من الشعور بالخوف، وتعبتُ من العيش والموت على أنين الذكريات، إلى أن توقّفتُ عند منتهى اليابسة ومبتدأ المحيط الذي يستيقظ مثلي كلّ صباحٍ على حاله نفسها؛ ومكثتُ هناك.

اليوم، أحتفل بمرور عامٍ على عودتي إلى هنا، مستعيدًا اسمي ومهنتي. اشتريتُ هذا الكوخ القديم على الشاطئ، مجرّد سقيفةٍ متهالكة، أتقاسمها مع الكتب الذي تركها صاحبها القديم، وآلةٍ كاتبة يحلو لي أن أرى فيها تلك الآلة التي نضدّتُ عليها مئات الصفحات، التي قد لا يذكر أحدٌ عنها شيئًا. نافذتي تُشرف على رصيفٍ خشبيٍّ صغير يشقّ البحر، وعلى أحد أطرافه ثمّة زورقٌ معلّق، كان برسم البيع إضافةً إلى الكوخ. وغالبًا ما أستقلّه للصيد في البحر، حيث ترتطم الأمواج بصخورٍ ناتئة، ويختفي الساحل عن البصر تقريبًا.

لم أعد للكتابة قبل الاستقرار هنا. وفي أوّل مرّة أدخلتُ فيها الورقة في الاسطوانة، ووضعتُ يديّ على لوحة المفاتيح، خشيتُ أنّي لم أعد قادرًا على تأليف سطرٍ واحد. فإذا بي أكتب الصفحات الأولى لهذه الحكاية، خلال أوّل

ليلةٍ أقضيها في هذا الكوخ. كتبتُ حتّى مطلع الفجر، كما اعتدتُ في سالف العمر، دون أن أعرف لمن يا تُرى أكتب كلّ هذا. في النهار، كنت أتمشّى على طول الشاطئ، أو أجلس قبالة الكوخ، على الرصيف الخشبيّ - جسر صغير يصل البحر بالسماء - لأقرأ كومةً من الجرائد القديمة، التي وجدتُها في إحدى الخزانات، تفيض صفحاتُها بأخبار الحرب التي تحرق العالم، مثلما حلمتُ به من أجل ذلك الناشر.

وهكذا كان، أثناء قراءة تلك المقالات عن الحرب في إسبانيا ثمّ في أوروبا والعالم، أنّي قرّرتُ: لم يعد لديّ شيء أخسره، ولا أتمنّى إلاّ أن أطمئنّ على إيزابيلا، وأن أعرف إن كانت ما تزال تذكرني. أو ربّما ما أردتُ سوى أن أعرف إن كانت ما تزال حيّة. فكتبتُ رسالةً موجّهة إلى عنوان المكتبة القديمة، سيمبيري وأبناؤه، في زقاق سانتا آنا، في برشلونة. وقد يستغرق وصولها أسابيع أو أشهر، هذا إن وصلتْ. في خانة المرسِل، وضعتُ اسم «مستر روتشستر»، فهكذا ستعرف إيزابيلا مَن أرسلها، وبإمكانها أيضًا أن تتركها في الظرف وتنساني إلى الأبد.

تابعتُ العمل على هذه الحكاية طيلة أشهر. رأيتُ وجه أبي من جديد، وتجوّلتُ في قاعات «صوت الصناعة» ثانيةً، وأنا أحلم بمنافسة الكبير بيدرو ڤيدال. عاد إلى ذهني المشهد الذي التقيتُ فيه بكريستينا سانغيير للمرّة الأولى، ودخلتُ بيت البرج مجدّدًا، كي أغوص في الجنون الذي قتل دييغو مارلاسكا. كنت أكتب من منتصف الليل حتّى الفجر، بلا هوادة، وأشعر بأنّي حيٌّ للمرّة الأولى منذ أن هربتُ من المدينة.

وصلت الرسالة في أحد أيام يونيو. دسّ ساعي البريد الظرفَ من تحت الباب بينما كنت نائمًا. كانت موجّهةً إلى مستر روتشستر، أمّا المرسِل ببساطة: مكتبة سيمبيري وأبناؤه، برشلونة. طفتُ في الكوخ عدّة دقائق، قبل أن أجرؤ على فتحها. وفي النهاية، ذهبتُ إلى شاطئ البحر، وجلستُ هناك لأقرأها. كانت الرسالة تحتوي على ورقةٍ وظرفٍ صغير. ويبدو الظرف الصغير قديمًا، يحمل اسمي فقط، داڤيد، بخطٍّ لم أنسَه رغم كلّ السنوات التي باعدت بيننا.

في الورقة، كان سيمبيري الابن يروي لي أنّه قد تزوّج إيزابيلا بعد سنوات طويلةٍ من خطوبةٍ مريرة، في 18 يناير 1935 في كنيسة سانتا آنا. خالف الحفل جميع التوقّعات، إذ تولّى مباركته الخوريّ التسعينيّ، الذي نعى السيّد سيمبيري في الجنازة، والذي رغم كلّ محاولات الأبرشيّة كان يعاند الموت ويقوم بمهامه كما يروق له. بعد عام، وقبل أيّامٍ من اندلاع الحرب الأهليّة، أنجبت إيزابيلا طفلاً وسيمًا، أسمته دانيال سيمبيري. جلبت سنوات الحرب المريعة معها كلّ أشكال العوز؛ وبعد نهاية الصراع بقليل، خلال ذلك السلام الأسود والملعون الذي كاد يسمّم الأرض والسماء إلى الأبد، أصيبت إيزابيلا بعدوى الكوليرا، وتوفّيت بين ذراعَي زوجها، في الشقّة فوق المكتبة. دفنوها في مونتويك، تحت وابلٍ من المطر، دام يومين وليلتين. وحين سأل الصغيرُ عمّا إذا كانت السماء تبكي رحيل والدته، ضاقت أنفاس والده، وتمنّع عن الإجابة.

أمّا الظرف المرفَق باسمي، فيه رسالةٌ كتبتها لي إيزابيلا في آخر أيّامها. وطلبتْ من زوجها أن يُقسِم على إرسالها إليّ ما إن ترده أيّ أنباءٍ عن مكاني.

عزيزي داڤيد

يبدو لي أحياناً بأنّي بدأتُ كتابة هذه الرسالة منذ أعوام مضت، وأنّي لم أكن قادرة على إكمالها. مرّ وقتٌ طويل منذ أن رأيتك آخر مرّة، وقد وقعت كثيرٌ من الأمور المرعبة والكارثيّة خلال ذلك. ورغم هذا ما مرّ يومٌ إلا وتذكّرتكَ فيه، وتساءلتُ أين تكون، وهل وجدتَ السلام، وهل تزاول الكتابة أم غدوتَ كهلاً متطلّبًا، هل أصابك سهم الغرام، وهل ما زلت تذكرنا، وتذكر مكتبة سيمبيري وأبناؤه الصغيرة، هل نسيتَ أسوأ مساعِدة مُنيتَ بها على الإطلاق.

أخشى أن تكون قد هاجرتَ قبل أن تعلّمني الكتابة. فأنا لا أعرف كيف أصيغ الكلمات المناسبة لما أودّ أن أقوله لك فعلاً. يسرّني أن تعرف أنّي كنتُ سعيدة؛ بفضلكَ وجدتُ الرجل الذي أحببتُه وأحبّني، فأنجبنا دانيال الذي أحدّثه عنك دومًا، دانيال الذي أعطى لحياتي معنىً، لا يسع كلّ كتب الأرض على تفسيره.

ربّما لا يعلم أحدٌ بأنّي أعود غالبًا إلى ذلك الرصيف الذي غادرتَ منه إلى الأبد، وأجلس بعض الوقت بمفردي، أنتظرك كأنّي أتوقّع أن تعود قريبًا. ولو فعلتَها، لرأيتَ أنّ - رغم كلّ ما حصل - المكتبة ما تزال مفتوحة الأبواب، ومجال بيت البرج ما يزال مهجورًا، وكلّ الأباطيل الملفّقة بحقّك قد طواها النسيان. ففي طرقات هذه المدينة، يسير الكثير ممّن تلطّخت أرواحهم بالدماء، حتّى إنّهم لا يجرؤون على استعمال الذاكرة، وإذا حدث وفعلوها يكذبون على أنفسهم، لأنّهم عاجزون عن النظر إلى المرآة. ما زلنا في المكتبة نبيع كتبك، ولكن في الخفاء، لأنّهما باتت تُصنَّف اليوم معاديةً للأخلاق، وهذا بعد أن اكتظّ البلد بالمتشوّقين لإتلاف الكتب وحرقها بدل أن يقرؤوها. إنّها حقبةٌ عصيبة، لكنّي أعتقد أنّ القادم أسوأ.

يظنّ زوجي والأطبّاء بأنّهم قادرون على خداعي، لكنّي أعلم أنّ أيّامي معدودة. أعلم أنّي سأموت قريبًا، وأنّي سأكون في عداد الموتى حين تتلقّى هذه الرسالة. وهذا ما دفعني لأكتبها إليك، كي تعلم أنّي لستُ خائفة، إنّما أسفي الوحيد أن أترك رجلاً طيّبًا، منحني حياته، وابني دانيال، بمفردهما، في عالمٍ ما انفكّ يبدو لي شبيهًا بما كنت تصفه أنت، وليس كما كنتُ أتطلّع إليه أنا.

أردتُ أن أكتب إليك، كي تعلم أنّي عشت الحياة، رغم الصعاب، وأنّي شاكرةٌ للوقت الذي أمضيتُه هنا، فعرفتُك وأصبحتُ صديقتك. أكتب إليك لأنّه يسعدني أن تذكرني، وأن تحدّث عنّي أحدًا، يومًا ما، كما أحدّث عنك صغيري دانيال، فتجعلني خالدةً بكلماتك إلى الأبد.

خالص المودّة

إيزابيلا

بعد أيام من استلام تلك الرسالة، اكتشفتُ أنّي لم أكن وحيدًا على الشاطئ. تنبّهتُ إلى وجوده عند نسائم الفجر، لكنّي لم أشأ الهرب من جديد، ولم أكن أستطيع. حدث في عصر يومٍ ما أنّي جلستُ للكتابة، أمام النافذة، بينما أنتظر غروب الشمس في الأفق. سمعتُ خطواتٍ على الرصيف الخشبيّ، ورأيتُه.

ربّ العمل، متّشحًا بالبياض، يسير ببطء على طول الرصيف، ويمسك بيد طفلةٍ ذات سبعة أعوام أو ثمانية. تعرّفتُ إلى الصورة فورًا، الصورة القديمة التي كانت تملكها كريستينا دون أن تعلم كيف حصلتْ عليها. اقترب من نهاية الرصيف وجلس القرفصاء بجانب الطفلة. كانا معًا يتأمّلان ذوبان نور الشمس على وجه المحيط، ليصبح سطحًا ذهبيًّا متلألئًا. خرجتُ من الكوخ وتقدّمتُ على الرصيف. وحين وصلتُ إليهما، التفت ربّ العمل وابتسم لي. لا ملامح تهديد أو نقمة، أو حتّى طيف تعاسةٍ عابرة، تشوب وجهه.

- اشتقتُ إليك يا صديقي - قال - اشتقتُ إلى محادثاتنا وخلافاتنا البسيطة أيضًا...

- هل جئت لتصفية الحسابات؟

ابتسم ربّ العمل ونفى بهزّةٍ بطيئةٍ من رأسه.

- جميعنا نرتكب الأخطاء يا مارتين. وأنا أوّلهم. سلبتُك أعزّ ما يحبّه قلبك. ولم أفعلها لأجرحك؛ بل لأنّي كنت خائفًا. خائفًا من أن تتخلّى عنّي، وعن عملنا. وكنتُ مخطئًا. وأدركتُ ذلك بعد كثيرٍ من الوقت. لكنّ الوقت هو الشيء الوحيد الذي لا ينقصني.

نظرتُ إليه بانتباه. كان مثلي، لم تظهر عليه أدنى علامات الشيخوخة.

- لماذا جئت إذن؟

شدّ كتفيه.

- جئتُ لأودّعها.

تركّزت نظرته إلى الطفلة التي يمسك يدها، وكانت ترمقني باستغراب.

- ما اسمكِ؟ - سألتُها.

- اسمها كريستينا - قال ربّ العمل.

حدّقتُ إلى عينيه، فأومأ برأسه. أحسستُ بالدماء تتجمّد في عروقي. كانت الملامح خدّاعة نوعًا ما، أمّا النظرة الجذّابة مطابقة تمامًا.

- كريستينا، ألقي التحيّة على صديقي داڤيد. ستعيشين معه، اعتبارًا من اليوم.

نظرتُ إليه، لكنّي لم أقل شيئًا. مدّت الطفلة يدها نحوي، كما لو أنّها جرّبت هذه الحركة ألف مرّة من قبل، وارتسمت على وجهها ابتسامةٌ خجولة. فانحنيتُ إليها وصافحتها.

- مرحبًا - غمغمتُ.

- جيّد جدًّا يا كريستينا - قال ربّ العمل - هل من شيءٍ آخر؟

هزّت الطفلة رأسها، كأنّها تذكّرتْ فجأة.

- قالوا لي إنّك صانع قصصٍ وحكايات.

- بل إنّه من أفضلهم - أضاف ربّ العمل.

- هلاّ كتبتَ حكايةً من أجلي؟

تردّدتُ للوهلة الأولى. فنظرت الطفلة إلى صاحبها مرتبكة.

- مارتين؟ - غمغم خلسةً عنها.

- بالتأكيد - قلتُ في النهاية - سأؤلّف لكِ كلّ الحكايات التي تودّينها.

ابتسمت الطفلة، واقتربت وقبّلتْ خدّي.

- هلاّ ذهبتِ إلى الشاطئ، وانتظرتِ هناك، ريثما أودّع صديقي يا كريستينا؟ - سألها.

أومأت الطفلة وابتعدت ببطء، تتلفّت عند كلّ خطوة وتبتسم. فهمس ربّ العمل بلعنته الأبديّة وصوته العذب.

- قرّرتُ أن أردّ إليك ما سلبتُه منك، أعزّ ما أحبّه قلبُك. قرّرتُ أن أضعك محلّي لمرّة واحدة، لتشعر بما أشعر به. لن تشيخ أبدًا، وسترى كيف تكبر كريستينا، وستغرم بها ثانيةً، ستكبر بجانبك، وستراها يومًا ما تموت بين ذراعيك. هذه نعمتي وانتقامي.

أغمضتُ عينيّ وهززتُ رأسي.

- هذا مستحيل. لن تكون هي نفسها أبدًا.

- هذا يعتمد عليك يا مارتين. فأنا أسلّمكَ صفحةً بيضاء. هذه الحكاية لم تعد تنتمي إليّ.

سمعتُ ابتعاد خطواته، وحين فتحتُ عينيّ لم أجده بجانبي. كانت كريستينا عند أوّل الرصيف، تنظر إليّ باهتمام. ابتسمتُ لها فاقتربتْ متردّدةً ببطء.

- أين السيّد؟ - سألتني.

- لقد رحل.

نظرت كريستينا إلى الشاطئ من حولها، رحبًا ومقفرًا من كلا الجانبين.

- إلى الأبد؟

- إلى الأبد.

ابتسمتْ كريستينا وجلستْ بجانبي.

- لقد حلمتُ بأنّنا كنّا أصدقاء - قالت.

نظرتُ إليها وأومأتُ.

- ونحن أصدقاء الآن. ولطالما كنّا كذلك.

ضحكتْ وأمسكتْ بيدي. أشرتُ إلى الشمس، قبالتنا، تغرق في البحر، فتأمّلتْها كريستينا والدمع في عينيها.

- هل سأذكر هذا يومًا ما؟ - سألتْ.

- يومًا ما.

عرفتُ حينذاك أنّي سأكرّس كلّ دقيقة نقضّيها معًا كي أجعلها سعيدة، كي أعالج الأذى الذي سبّبتُه لها، كي أعيد لها ما لم أستطع أبدًا أن أمنحها إيّاه. هذه الصفحات ستكون ذاكرتنا إلى أن تنطفئ آخر أنفاسها بين ذراعيّ، ثمّ أحملها إلى عرض البحر حيث تتلاطم الأمواج، فأغطس معها إلى الأبد، لنتمكّن أخيرًا من الهرب، حيث ليس بوسع السماء، ولا الجحيم، العثور علينا أبدًا.

***

الفهرس

الفصل الأول: مدينة الملاعين

الفصل الثاني: النور الأبديّ

الفصل الثالث: لعبة الملاك

خاتمة 1945

Notes

[←1]

بالفرنسيّة Grand Guignol اسم صالة مسرحيّة في باريس، شُيّدت أواخر القرن التاسع عشر، وكانت مخصّصة للعروض الرهيبة والعنيفة حتى بات اسمها مضرب مثلٍ عن الإسراف في إظهار الرعب والفظاعة. المترجم.

[←2]

في الأصل، بالفرنسيّة Editions de la Lumière. المترجم.

[←3]

Formol مركّب عضويّ مستَخرج من غاز الميثانال، كان يُستخدَم في مجال التحنيط وتطهير الجثث. المترجم.

[←4]

Rosa de Fuego من ألقاب مدينة برشلونة في بدايات القرن المنصرم، حين كانت تضجّ بالحيويّة والأنوار وهي على أعتاب الحداثة في كافّة الأصعدة، لتنافس الحواضر الأوروبيّة الأخرى. المترجم.

[←5]

La Semana Trgica اشتباكات دامية وقعت في آخر أسبوع من عام 1909 في برشلونة ومدن إسبانيّة أخرى، بين الطبقة العاملة من جهة — بتحريض مباشر من الأناركيّين والشيوعيّين — وقوى الأمن والجيش من جهة أخرى، احتجاجًا على إعلان الحكومة استدعاء الاحتياط من الجنود بغرض احتلال المغرب. المترجم.

[←6]

في الأصل، باللاتينيّة: Lux Aeterna. المترجم.

[←7]

تعريب اضطّراري لكلمة Basilisco «ملك الأفاعي»: وحشٌ خرافيّ شرير، مذكور في الأساطير الأوروبيّة القديمة والفرعونية الأقدم. يُصوّر عادة كتنيّن صغير، بجسم سحليّة ورأس ثعبان ومنقار طير، قادرًا على الفتك بأعدائه، أو إحالتهم إلى رماد، بنظرةٍ من عينيه أو بنفث أنفاسه السامّة. ولا يفنى إلا إذا نظر إلى نفسه في المرآة. ويُعدّ من الحيوانات الرامزة إلى السطوة والريبة. كما تُطلق التسمية على نوعٍ من الزواحف، يعيش في الأمريكيّتين، ويتميّز بجريه على سطح الماء، لذا يُوصف بسحليّة السيّد المسيح. المترجم.

[8←]

إشارة ساخرة إلى العميلين، بوصفهما ثنائيًّا لا يفارق أحدهما الآخر، كالأخوين Hnsel Und Gretel وهي حكايةٌ ألّفها الأخوان غريم، مستوحاة من القصص الشعبيّة الألمانية. المترجم.

[9←]

في الأصل، بالإيطاليّة: Porca Miseria، المترجم.

[←10]

Soponcio الكلمة تعني «إغماء، إعياء» بالإسبانيّة، كما كانت تُستخدم كاسم علمٍ مذكّر في الماضي. المترجم.

[←11]

مطلع صلاة باللاتينيّة، تعني حرفيًا: «[أيّها الإنسان] تذكّرْ أنّك سوف تموت!». المترجم.

[←12]

Francesc Macià i Liussa (1859-1933) زعيمٌ سياسيّ مرموق وقائدٌ عسكريّ بارز، شغل العديد من المناصب الحكوميّة في مقاطعة كاتالانيا وإقليم برشلونة. وكان الشعب يلقّبه بـ«الجدّ». المترجم.

[←13]

Lucifer «إبليس» المطرود من بيت الربّ؛ كائنٌ نورانيّ، محيِّرٌ في مسعاه، ملاكٌ مجنّحٌ في مُحيّاه، شيطانٌ حاقدٌ في نواياه، يبشّر بالخير ويُضمِر الشرور، ينتهج الإغواء وينتهز الرؤى، يسكن من البشر نفوسهم، ويوسوس في صدورهم، يدفعهم إلى إعمال الإرادة والتفكير، ويحضّهم على التمرّد والجموح، يؤلّب فيهم النقمة والطمع والغرور، فتستعر شكوكهم، فتودي بهم إلى التهلكة. ورد في الأساطير القديمة، والديانات السماويّة وغيرها، بمسمّيات مختلفة؛ شبّهه القدماء بـ«نجمة الصبح» المضيئة، وتعبَّده بعضُهم وتوجّهوا إليه بالابتهال والقرابين. ونُسِبت إليه عذوبة الحبّ وأهوال الشهوة، منتحلاً بذلك أوصاف عشتار وأفروديت وفينوس. فاتحدّت فيه الأضداد، وارتبط ذكره بالكيد والمكر والضلال، وصار رمزًا للخبث والضغينة والغموض. المترجم.